تاريخ الفرق الإسلامية السياسي والديني

الكتاب الثاني

الشيعة العربية والزيدية

علاء الحصري

الدكتور
محمد إبراهيم الفيومي

دار الفكر العربي

تاريخ الفرق الإسلامية السياسى والدينى

الكتاب الثانى



الشيعة العربية والزيدية

الدكتور

محمد إبراهيم الفيومى

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

ملتزم الطبع والنشر

دار الفكر العربى

٩٤ شارع عباس العقاد - مدينة نصر - القاهرة

ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - فاكس: ٢٧٥٢٧٣٥

www.darelfikrelarabi.com

INFO@darelfikrelarabi.com

٢٤٧ محمد إبراهيم الفيومى.
م ح ش ى الشيعة العربية والزيدية/ محمد إبراهيم الفيومى. ـ
القاهرة: دار الفكر العربى، ٢٠٠٢.
٤٤٠ ص؛ ٢٤ سم. ـ ([سلسلة] تاريخ الفرق
الإسلامية السياسى والدينى؛ الكتاب الثانى).
يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية .
تدمك: ٦ - ١٦٢٩ - ١٠ - ٩٧٧.
١ ـ الشيعة. ٢ ـ الزيدية (الشيعة). أ ـ العنوان.
ب ـ السلسلة.

تصميم وإخراج فنى
الأستاذ/ محيى الدين فتحى الشلودى

رقم الإيداع	٤٨١٣ / ٢٠٠٢
I. S. B. N الترقيم الدولى	977 - 10 - 1629 - 6

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذه موسوعة تقدم دراسة متواضعة عن:

«تاريخ الفرق الإسلامية السياسى والدينى»

* الخوارج والمرجئة.
* الشيعة العربية.
* الشيعة الشعوبية والاثنى عشرية.
* المعتزلة ـ تكوين العقل العربى.
* الإمام أبو الحسن الأشعرى فحص نقدى لعلم الكلام.
* الإمام أبو منصور الماتريدى وحدة أصول علم الكلام.

وهى دراسة تعالج موضوع الفرق الإسلامية والبحث عن أسبابها السياسية والدينية والاجتماعية، والبحث عن علاقتها بما أصاب المجتمع الإسلامى من علل وانحلال سياسى واجتماعى.

وبالرغم من أن موضوع الافتراق قد أشار إليه النبى ﷺ فى حديثه: «ستفترق أمتى. .» واحتار العلماء فى شرحه وتكلفوا تصنيف الفرق حتى بلغت اثنين وسبعين أو ثلاثة وسبعين. وكان تكلفهم شديدا يحمل عسر التأويل بل ومخالفا لقانون النشوء والارتقاء والسنن الطبيعية لتطور الأشياء، إذ من الصعب أن نحمل عصرا واحدا مخاض ولادة جميع الفرق الإسلامية التى تضمنها الحديث، وكأن قانون التطور وقف عند القرون الأولى. بينما الحديث ورد فى ذم التفرق ومدح الوحدة الواحدة وجعل مثواها الجنة. والتفرق مثواه النار.

فالدراسة تقويم وتقييم وتحليل ومقارنة وتجلية رؤية نرصد من خلالها مستقبل نهضة المجتمع الإسلامى من خلال أحداث التاريخ الإسلامى. فهى دراسة للتاريخ الإسلامى قبل أن تكون دراسة عقائد الفرق، على ضوء ما أراه أن كل تغيير يلم بالمجتمع وراءه فكرة وعلى هذا أقدم الموسوعة.

د. محمد إبراهيم الفيومى

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجسَ أَهلَ البَيتِ وَيُطَهِّرَكُم تَطهِيراً﴾

[الأحزاب: ٣٣]

قال الإمام على فى بعض خطبه:

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق:

حق الوالى على الرعية، وحق الرعية على الوالى فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية، فإذا أدت الرعية إلى الوالى حقه وأدى الوالى إليها حقها عز الحق بينهم وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على إذلالها السنن. فصلح بذلك الزمان فى بناء الدولة، ويئست مطامع الأعداء، فإذا غلبت الرعية واليها، وأجحف الوالى برعيته اختلفت هناك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الأدغال فى الدن، وتركت محاج السنن فعمل الهوى، وعطلت الأحكام وكثرت علل النفوس...[1].

---

(١) نهج البلاغة للإمام على.

تقديم

بقلم: سيد هادى خسروشاهى

خطوة على الطريق

إن هناك الكثير من الشواهد والوثائق التى تؤكد أن الوجود الشيعى قديم، قدم الدعوة الإسلامية، فهو يواكب بعثة الرسول ﷺ من بدايتها، هذا ما تؤكده النصوص(1) الواردة على لسان النبى ﷺ والتى تكتظ بها كتب السنن والمتعلقة بالإمام علي وآل البيت عليهم السلام، هذه النصوص جعلت للإمام ولآل البيت خصوصية. ومن جانب آخر دفعت الكثير من الصحابة إلى التشيع لهم والالتفاف حولهم والاستظلال بظلهم.. (2).

---

(1) من هذه النصوص حديث: «إنى تارك فيكم الثقلين: كتاب الله وعترتى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى. أذكركم الله فى أهل بيتى..» انظر مسلم، كتاب فضائل الصحابة، باب فضل علي بن أبى طالب.

وحديث: عهد إلى النبى الأمر: اذهب يا علي لا يحبك إلا مؤمن، ولا يبغضك إلا منافق. انظر مسلم، باب حب الأنصار.

وحديث جابر بن عبد الله: كنا نعرف المنافقين على عهد رسول الله ﷺ بأمرين: بغض علي وترك صلاة العتمة.. انظر مسند أحمد.. وغير هذه النصوص كثير يمكن مراجعتها فى كتاب خصائص الإمام على للنسائى والكتب المتعلقة بآل البيت.

(2) منهم: أبو ذر الغفارى وسلمان الفارسى، وعمار بن ياسر، والمقداد بن عمرو بن ثعلبة بن مالك النهرانى الحضرمى، وحذيفة بن اليمان، وخزيمة بن ثابت فاكهة بنى ثعلبة الأنصارى، والخبّاب الخزاعى، وأبو سعيد الخدرى، وابن التيهان أبو الهيثم بن مالك بن عتيك الأنصارى الأوسى، وقيس بن سعد بن عبادة، وأنس بن الحرب بن نبيه، وأبو أيوب الأنصارى، وجابر بن عبد الله بن عمرو بن كعب بن غنم ابن سلمة الأنصارى، وهاشم بن أبى وقاص، ومحمد بن أبى بكر بن أبى قحافة، ومالك بن الحرث النخعى، ومالك بن نويرة، والبرآء بن عارب بن حارث بن عدى بن جَشَم الأوسى الأنصارى، وأبى بن كعب بن قيس بن عبيد الأنصارى، وعبادة بن الصامت بن قيس بن أحرم بن فهر بن ثعلبة الخزرجى الأنصارى، وعبد الله بن غافل بن حبيب الهذلى، وظالم بن عمرو بن سفيان بن جندل، وخالد بن سعيد بن أبى عامر بن أميّة بن عبد شمس، وأسيد بن ثعلبة الأنصارى، وأسود بن عيسى بن أسماء بن وهب.

وتميز الإمام علي ـ عليه السلام ـ بقدرته العلمية والجهادية من بين صحابة الرسول ﷺ هو ما يؤكد استمرار تشيع الصحابة له فى عهد الرسول ﷺ وبعد وفاته. . وتولد من جيل الصحابة جيل آخر من التابعين المتشيعين للإمام وآل البيت عليهم السلام.

ويشهد التاريخ على أن الشيعة من صدر الإسلام لم ينقطعوا أبدا، ولا برهة، عن صف الأكثرية (الصف الإسلامى العام) فى ممارسة النشاط الاجتماعى، بل مضوا بجد ومثابرة إلى كل ما يخدم تقدم المسيرة الإسلامية بفاعلية، وكان لهم حضورهم فى حروب الفتوحات، وشاركوا فى الثورة على الأنظمة الطاغوتية فى عصورهم، وبذلوا فى هذا السبيل الأرواح والأموال، ولم يتوانوا عن شيء من التضحيات.

لم يكن قد ظهر فى مجتمعات ذلك الزمان التضاد بين الباطن والظاهر، والازدواج بين الفكر والعمل، بالشكل الذى يتجلى فيه اليوم، ونراه رأى العين فى مجتمعاتنا ـ وذلك إثر جهل بعضهم ممن يؤثر التضحية بالمبدأ لحساب المصالح الشخصية ـ وبالتالى لم يأخذ اتباع الأئمة وأوليائهم المخلصين، التشيع مغنما ووسيلة للارتزاق، بحيث يدفعهم ذلك للتخلف عن تعاليم الإمام!

فحينما يدعو الإمام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ الشيعة إلى الاندماج مع بقية المسلمين، والمساهمة فى النشاط العام، وعدم التخلف عن المسار الكلى الذى ينتظم المسلمين، ألا يكون التخلف عن ذلك، والتعلل بالأهواء والفهم المنحرف، سوى مخالفة لحكم الله ورسوله؟

جاءنا فى الأثر أن أحدهم سأل الإمام ـ عليه السلام ـ بما نصه: كيف ينبغى لنا أن نصنع فيما بيننا وبين قومنا، وبين خلطائنا من الناس، ممن ليسوا على أمرنا؟ قال: «تنظرون إلى أئمتكم الذين تقتدون بهم، فتصنعون ما يصنعون، فوالله إنهم ليعودون مرضاهم، ويشهدون جنائزهم، ويقيمون الشهادة لهم وعليهم، ويؤدون الأمانة إليهم. . .»[1].

هناك إذن فرق بين الشيعة ـ بمعنى أتباع الإمام ـ وبين الشيعة المحترفين الذين تشيّعوا للتكسب!.

الشيعى الحقيقى لا يضحى أبدا بالمبدأ لحساب مصلحته الخاصة، ولا يركب الوسيلة غير المشروعة، لبلوغ ما يريد بعد أن يسبغ عليها لونا من الشرعية!.

---

(١) أصول الكافى، ج٢ ص٦٣٦، كتاب العشرة.

الشيعـي المخلص هو الذى يحافظ أبدا على أصول ثقافتـه. . . وهو الذى يعكس بسلوكه الذكر الحسن لأئمته، ويجعل القلوب تنبض بـهذه الذكرى وتحافظ عليها حية. . وهو الذى يسعى لكى يبـقى علم التشيع يهـتز عاليا خفـاقا حتى ظهور الإمـام المهدى ـ الذى سيملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا[1]

أجل، إن الشيـعى الذى يوالى الإمـام عليا ـ عليـه السلام ـ حـقا، لا يضـحي بالحقيقة، وإذا قدر له أن يسبح ضد التـيار، فهو يفعل ذلك دون أن يخشى الغرق. إذ لا شرف أسمى من الموت فى طريق نهج الإمام علي ومدرسته.

وشيعى مثل هذا، لا يسـمح لنفسه أبدا، أن يهوى أخلاقيـا إلى منحدر سحيق، فيلجأ إلى لغـة الشتيمة ويحتـمى بالافتراء والكلمات الفاحشـة، يرمى بها من يتبع نهج علي ويسيـر على دربه، يكيل إليه الافـتراء ويبهـته بالتـهمة. . ويرفع حـراب التشهـير والتسقيط دون مـروءة ضد الذين يستمدون فى عصرنا هذا، من أبى ذر نهـجه وصدقه، فيستبقون غيرهـم من الناس فى تشخيص الأمور وإدراكها، حتى لتكون هذه الحرب التى يواجه بهـا هؤلاء المستـمدون من علي وأبى ذر نهـجهمـا، أشد مما تكون ـ فى حـدتها وقسوتها وبشاعتها ـ على النواصب والخوارج!

هذه واقـعة صفـين أمامنا، وهذا أمـير المؤمنين يرى أهل الشـام يبادرونه بالشـتم والسباب، فما يكون منه (سلام الله عليـه) إلا أن يمنع أصحابه من التعرض لهم بالمثل، إذ يقـول: إنى أكره لكم أن تكونوا سـبّابين، ولكنكم لو وصـفتم أعـمالهـم، وذكرتم حالـهم، كان أصـوب فى القول، وأبلغ فى العـذر، وقلتم مكان سـبّكم إياهم: اللهم احقن دماءنا ودمـاءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالتهـم، حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغيّ والعدوان من لهج به[2].

والآن هل يليق بالإنسان وهو يعلن انـتسابه إلى الشيـعة أن يمر على هذا النهج بما ينطوى عليه من تعـاليم ـ فى التعامل مع الآخرين ـ فـيبادر إلى تحطيم من يختـلف معه بالرأى، وينزل عليه بأقذع التهم والباءات؟

ثم لنا أن نجدد السؤال، ونقول: ما العمل؟ وما هى الوظيفة التى يجب أن ينهض بها المشايعون الصادقون لعلي.

---

(١) انظر المهدى المنتظر، للشيخ عبد المحسن العباد، طبعة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

(٢) نهج البلاغة للإمام على، ص٣٢٣ طبعة القاهرة.

وآل علي عليهم السلام، فى عـصر لا يملك فيه الأعداء ـ أو المخـالفون الجهلة ـ إلا لغة الشـتيمة والسـباب يسدون بها صـفحات كـتبهم ومجـلاتهم، وهم يملأون الجو ضـجيـجا، ويسـوقـون ضروب التـهم الواهيـة إلى الشيـعـة من قبـيل نسـبتـهم إلى الإسرائيليات، وإلى أسطورة عبد الله بن سبأ!

لا ريب أن الشتيمة والسباب لا يليقان لغة بمقام هذه الفئة التى أراد لها مولاها أن تنزه أفواههـا عن هذا المنحدر الهابط، كمـا أراد لها الإمام الصادق ـ عليـه السلام ـ أن يكون من شأنها أنها تعكس فى أعمالها وسلوكـها القدوة المثلى، حتى تشهد الدنيا، أى أناس هم أولئك الذين تربوا فى مدرسة أهل البيت عليهم السلام.

يقول الإمـام الصادق ـ عليه السـلام ـ فى حديث آخر يوصى به شـيعتـه بعد أن يقرئهم السلام: صلوا عشائرهم، واشهدوا جنائزهم، وعودوا مرضاهم، وأدّوا حقوقهم فإن الرجل منكم إذا ورع فى دينه، وصـدق الحديث، وأدى الأمانة، وحـسن خلقه مع الناس، قيل: هـذا جعفـرى، فيسـرنى ذلك ويدخل عليّ منه السـرور، وقيل هذا أدب جعفر، وإذا كان على غير ذلك، دخل عليّ بلاؤه وعاره، وقيل: هذا أدب جعفر[1].

ولكن يطرح، بإزاء هذا النهج، السؤال التالى:

فى ظل هذا النهج الذى يطفح بالسلام والإنسانية، مـا هو واجبنا، وكيف ينبغى لنا أن نتصرف إزاء أشخاص من قماش ابن تيمية وإبراهيم الجبهان وإبراهيم على شعوط وإحسان إلهى ظهير ودكتور عبد الله الغريب ومن يقع على شاكلتهم؟

لا ريب أن سمـوم هؤلاء وأمثـالهم ـ فى الماضى والحـاضر ـ وأغراضـهم الملوثة والمنشورة فى كتبهم، هى الباعث الذى جعل بـعض عوام أهل السنة ينسبون إلى الشيعة أبشع الصفات وأفظعـها مما يخرج بهم عن صفـة الإنسانية[2] فى حين ذهبت مجموعة أخرى منهم لرمى الشيعة بالشرك أو الغلو، حتى راح الشق يتسع فى المجتمع الإسلامى الشيعى ـ السـنى، وتزداد الفاصلة بين الاثنين أكثر فـأكثر، بحيث باتت تواجـهنا أحيانا أسئلة من قـبيل: وهل قرآن الشيـعة هو مثل قرآن السنة؟ هل الشـيعة يسبّـون أصحاب الرسول؟ و . . .

(١) أصول الكافى، ص٢، باب العشرة، ص٦٣٦.

(٢) تراجع مقدمة: أصل الشيعة وأصولها، طبـعة القاهرة، للمرحوم كاشف الغطاء، لملاحظة بعض ما يقال عن الشيعة وينسب إليها.

وفى النتيجة آل الأمر إلى أن يستغل الاستعمار وأياديه هذه الفرقة، ويسعر نارها أكثر فأكثر كى تكون له السيطرة دائما.

أجل، ليس ثمة من يشك بوجود مثل هذه الأوضاع، بيد أن السؤال الذى يبقى يفرض نفسه، هو: ما العمل؟

الذى نعتقده نحن، أنه ـ بدلا من أن نسلك نهج الرد بالمثل ـ علينا أن نفكر بعمل جذرى أساسى يتيح لنا فرصة نشر تاريخ الشيعة وعقائدها وبيانها بلغات مختلفة، وعلى مستوى عالمى، وذلك بالاعتماد على رؤية علمية كاملة للتشيع، تتوسل التحقيق العلمى والتأريخى الذى يعكس التشيع على حقيقته وكما هو، لا كما هو عليه عند بعض العوام، وكما يفهمونه، أو الجهلة أو بعض العملاء من المستشرقين!

نحن نعتقد أن هذا الأسلوب يمكننا إلى حد بعيد من وضع حد للسفسطة المغرضة التى تهدف إلى دقّ إسفين الفرقة بين الصف الإسلامى الذى يعتقد بأصول واحدة.

حقا، لماذا يلجأ الإنسان إلى لغة الشتيمة والسباب، إذا كان يعتقد بصحة منطقه، ويؤمن بأحقية ما يقول؟ ولماذا يتوسل بممارسات صبيانية تافهة، لا تليق بمقام الإنسان الشيعى، ليعطى بذلك الذريعة إلى أعدائه، فيقلبون الحقائق وينسبون الشيعة جميعهم إلى عبد الله بن سبأ الشخصية اليهودية الموهومة؟[1].

لا نشك فى أن مشاركتنا فى الملتقيات الإسلامية والمبادرة إلى تشكيل المؤتمرات على مستوى كبار علماء المذاهب الإسلامية، وإصدار الكتب النافعة والمجلات المفيدة بلغات مختلفة، وهى مما يساعد على بلوغ الهدف الذى ننشده بشكل أفضل، فى حين تلعب الجهود المبذولة فى طريق تنشيط دور مؤسسة التقريب بين المذاهب الإسلامية فى القاهرة، دورا مؤثرا فى هذا المضمار.

وعلى هذا الصعيد تعد عملية تأسيس دار التقريب بين المذاهب الإسلامية فى الأربعينيات، التى بادر إليها فى القاهرة أحد علماء ومفكرى الشيعة الكبار الشيخ محمد تقى القمى بمساعدة كبار مشايخ الأزهر الشريف، واحدة من أبرز المشاريع الأساسية التى يمكن أن يكون لها دور مهم فى التعريف بالشيعة على مستوى عالمى، وخصوصا أن ما

---

(١) انظر الدراسة المعمقة للعلامة السيد مرتضى العسكرى فى كتابه «عبد الله بن سبأ وأساطير أخرى» طبعة بغداد وبيروت. وكتابنا: عبد الله بن سبأ، بين الواقع والخيال، طبعة مركز البحوث الإسلامية ـ قم: إيران.

يساعد فى ذلك أن هذه الدار أنشئت إلى جوار الأزهر، المؤسسة الأساسية الإسلامية فى العالم.

لقد كنا منذ خمسين سنة تقريبا، وحتى قبل أن تصدر الفتوى التاريخية للشيخ محمود شلتوت فى جواز التعبد بالمذهب الجعفرى، ثابتين على نهجنا هذا وفى الدفاع المنطقى المتين عن التقريب بين المذاهب الإسلامية، ولا زلنا نتمسك بهذه الدعوة، تشهد على ذلك أعمالنا فى مختلف المطبوعات والنشرات الدينية التى أصدرناها أو ساهمنا بها وقتئذ فى الحوزة العلمية الدينية بقم - إيران[1].

بديهى أن التقريب بنظرنا يعنى المعرفة الصحيحة لأصول التشيع، وللعقائد الواقعية لأهل السنة، ولا يعنى الميل إلى مذهب آخر بعبارة أوضح: لا يعنى التقريب والحرص على الوحدة والأخوة الإسلامية، التخلى عن عقائدنا، كلا وأبدا، فمثل هذا الفهم هو ضرب من السفسطة والمغالطة، وإنما يعنى التقريب الثبات على عقائدنا والحفاظ عليها، والسعى من أجل بيانها والدعوة إليها وبأسلوب صحيح، بعيدا عن تحريك العواطف وإثارة ردود الفعل السلبية، وخاصة أننا جميعا متفقون فى أصول العقائد.

فإذا كان الباحث سليما معافا من الضعف والعجز العلمى، ملتزما بما وجهه البحث نحو المعرفة المنطقية، لا يحتار أبدا ولا يسعى وراء «الشذوذات» ويتشبث بالإسرائيليات التى تطفح بها كتب المذهب الذى يختلف معه، وخصوصا أن مثل هذه الإسرائيليات يمكن العثور عليها فى كل مذهب من المذاهب الإسلامية، وإنما يختار أن يعود إلى كتب الفريق الذى يختلف معه، ويتوفر على دراسة المسائل المعتنى بها، برؤية علمية تحليلية كاملة، تسوقه إلى الحكم الصحيح.

هذا هو المفهوم الواقعى للتقريب. بيد أن الذى يؤسف له حقا، هو أن البعض يستند إلى روحية إثارة العوام من الناس وتحريضهم، كما حصل فى زمان المرحوم آية الله البروجردى (المرجع الدينى الأعلى فى إيران)، حيث راح هذا البعض يصف مراسلات المرحوم البروجردى مع الشيخ محمود شلتوت، على أنها ضرب من التراجع!! دون أن ينتبه أن هذه المراسلات والتعارف، هى التى أثمرت فى نهاية المطاف الفتوى التاريخية لشيخ الأزهر حول الشيعة.

---

(١) من قبيل نشرات: نداى حق، نور دانش، مكتب إسلام، مكتب تشيع، وظيفة، آستا نقدس ومعارف جعفرى (بالفارسية).

لقد حاول المتلبسون بروح التحريض من السطحيين الذين يفتقرون للاستقلال الفكرى، أن يصوروا المدافعين عن التقريب بالنهج المنطقى، إنهم يعكسون ضربا من التسنن! فى مركز التشيع! إلا أن وجود رجال كبار من الشخصيات الشيعية فى طليعة الركب، حال دون نجاح هذا المسعى، وأسقط بيد أهله.

فمن بين الشخصيات الشيعية الكبيرة التى اشتهرت بمسعى الدفاع عن فكرة التقريب، تبرز أسماء من قبيل: آية الله البروجردى وآية الله الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء، والعلامة محمد رضا المظفر، والعلامة السيد شرف الدين، والعلامة السيد محسن الأمين العاملى والشيخ محمد جواد مغنية وغيرهم.

ويمكن أن نسجل فى هذا المضمار، أن قضية التقريب بين المذاهب الإسلامية، تألقت فى الأفق الإسلامى عامة، بعد النهضة الإصلاحية التوحيدية التى تضافرت عليها جهود المجاهد العالم المثابر السيد جمال الدين الحسينى الأسد آبادى (المشهور بالأفغانى) والعالم الأزهرى المتنور الشيخ محمد عبده، حيث استطاعت أن تحقق بدعم كبار مراجع الشيعة والشخصيات السنية المتفتحة انعطافة حاسمة فى تأريخ العلاقات بين المسلمين، وأن تصيب موجات التعصب الجاهلى بضربات فى الصميم، وتحقق مكاسب فى هذا السبيل.

يكتب العلامة السيد محمد حسين الطباطبائى (أستاذنا فى التفسير وصاحب التأليف القيّم: الميزان فى تفسير القرآن) فى هذا المضمار:

«ليس ثمة شك فى رجحان الاتحاد أو التقريب الإسلامى، من وجهة نظر العقل والمنطق. طبيعى أن عوامل التفرقة عملت ما استطاعت فى فصل هاتين الطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين عن بعضهما البعض، ولكن علينا أن نتذكر دائما أن اختلافهما هو فى الفروع، وليس ثمة اختلاف بينهما فى الأصول، بل هما فى فروع الدين الضرورية من قبيل الصلاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك، والجميع يجتمعون على إله واحد، ونبى واحد، وقرآن واحد، وقبلة واحدة.

تأسيسا على هذا الأصل، نجد أن شيعة الصدر الأول لم يعتزلوا أبدا صف الأكثرية، ولم يبخلوا بمساهمتهم مع عامة المسلمين فى تقويم المسار الإسلامى العام، بل بذلوا الجهد والنصيحة فى هذا السبيل.

والآن على المسلمين أيضا، أن يعودوا إلى أنفسهم، آخذين بنظر الاعتبار اتفاقهم على أصول الإسلام، وما تجرعوه من ضغوط فى هذه الفترة من قبل العناصر الخارجية. عليهم أن يكونوا فى صف واحد، وأن يتخلوا عن التفرقة العملية. وينبغى للمسلمين فى الوقت نفسه، أن يثبتوا هذه الحقيقة فى العمل، قبل أن يكتشفها الآخرون ويسجلوها فى كتبهم بعنوان كونها حقيقة تأريخية.

من حسن الحظ، أن العالم الإسلامى بدأ ينتبه إلى هذه الحقيقة رويدا رويدا. ولم يأت تأييد مراجع الشيعة لفكرة التقريب بين المذاهب الإسلامية إلا ناظرا لهذه الجهة بالذات، كما حصل الأمر نفسه لشيخ الأزهر، الشيخ الجليل محمود شلتوت، الذى عبر عن هذه الحقيقة بمنتهى الصراحة، وأعلن للعالم أجمع الاتفاق الدينى الكامل بين الشيعة والسنة. وليس للشيعة إلا أن يلتزموا جانب التقدير والثناء لهذا الرجل الكبير، ويقدروا له مبادرته النزيهة.

نسأل الله - سبحانه - أن يهدى المغرضين ويصلح المفسدين، وأن يوفق المسلمين للاتحاد العلمى، كى يعود عليهم مجدهم السالف وعظمتهم الآفلة»[1].

ونحن لا نملك إلا أن نؤمن على دعاء أستاذنا المرحوم، السيد طباطبائى متمنين من صميم قلوبنا، أن ينفتح قصّار النظر وذوو المصالح، على الساحة من حولهم لينتبهوا إلى المؤامرات الواسعة التى يحيكها أعداء الإسلام، ويتلمسوا، بإحساس عميق المخاطر الكبيرة، فيبذلوا جهودهم فى طريق الوحدة وسبيل التقريب.

لقد ساند العلامة المرحوم الشيخ عبد الحسين الأمينى أيضا، الوحدة الإسلامية كأصل، وأعلن فى كتابه القيم صراحة، أن البحث العلمى والكلامى لا يمكن أن يكون - ولا يجب أن يكون - عائقا يبعث على الخلل فى مسار الوحدة.

لذلك تراه يكتب فى مقدمة كتابه القيم: «الغدير» ما نصه:

«وإن الآراء والمعتقدات فى المبادئ والمذاهب حرة، لا تفصم عرى الإخوة القويمة التى جاء بها الكتاب ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ... ⑩﴾ [الحجرات]، ولو بلغ الحوار فيها بين أولئك الإخوان أشده، وقام الحجاج والجدال على ساقيهما، جريا على سيرة السلف، وفى مقدمتهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان.

---

(١) كتاب الشيعة والتشيع، للعلامة الطباطبائى، طبعة «قم» - إيران.

نحن المؤلفون فـى أقطار الدنيا وأرجاء العـالم الإسلامى على اخـتلاف آرائنا فى المبادئ وتـشتتنا فـى الفروع، يجمـعنا أصل قويم، وإيمـان بالله ورسوله. تجمـعنا روح واحدة، ونزعة دينية منزهة عن الأهواء الباطلة، تجمعنا كلمة الإخلاص والتوحيد. نحن المؤلفون نعيش تحت راية الحق، وتحت لواء الإسلام، وتحت قـيادة الكتاب ورسالة النبى العربى الأقدس. نداؤنا ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ ... (١٩)﴾ [آل عمران]، وشعارنا «لا إله إلا الله، محمد رسول الله. ألا نحن حزب الله وحماة دينه»[1].

خطوة على الطريق

بعد المقدمـات المشار إليها آنفا، نصل إلى الكتاب الذى بين أيدينا، إذ نـعتقد أنه جهد صـادق فى هذا السبيل. والذى نراه أن نشره لا يساهم فى بيـان تاريخ التشيع إلى العالم السنى وحسب، وإنما يغذى أيضا تطلعات الإنسان المعاصر ولهفته إلى هذا الدرب إلى المعـرفة. وهو بذلك يتـيح الفرصـة لذوى الإنصاف لأن يميـزوا بيننا وبين من يثـير الضجيج، ويحكموا على بينة وبوضوح.

وبذلك يعد هذا الكتاب: **«تاريخ الفرق الإسـلامية»** للدكتور مـحمد إبراهيم الفيومى وهو من العلماء الأفاضل ومن أساتذة الأزهر الشريف، خطوة كبيرة فى تعريف التشيع والتعرف على تاريخ الشيعة، يستند إلى المصادر الأصيلة التى لا مجال لإنكارها، وخصوصا أن أغلبها هو من كتب الإخوة أهل السنة أنفسهم.

إذا شئنا أن نمد جسور التفـاهم ونقتلع الأهواء والظنون التى لا داعى لها، ونطفئ أمواج الدعاية المضادة المتلفـعة بالمقاصد الفاسدة، علينا أن نفتح، باب البـحث والتحقيق العلمى. فبذل الجهـود فى هذا المجال يفسد على الآخرين المتربصـين، فرصتهم فى بث الأباطيل، والنيل من الوحـدة الإسلامية، ولا يسـمح فى الوقت نفسـه للبعض، بوضع الأحاديث، ليرمى الشيـعة فى قرن العلم والتكنولوچيا بالانتساب إلى ابن سـبأ اليهودى الموهوم، أو أن يزعم أن التشيع صنيعة الصـفوية! أو آل بويه، أو يرمى الشيعة بالشرك؟ لسجـودهم على التراب النظيف، وينعـتهم بالغلو المساوى للـكفر، لحبـهم أهل البيت عليهم السلام.

إن التشـيع الصادق للإمام عـلى ـ عليه السلام ـ يدعـونا إلى أن نلج هذا الطريق الذى يتسم بالجذرية، ويعد أكثر الطرق نجاعة ومنطقية. بل الواجب أن نحوله إلى مسار

(١) انظر: الغدير، مقدمة المجلد الخامس، طبعة بيروت.

كلى ومنهج عام، نخطط فى ضوئه نشـاطنا المستقبلى، ونسعى بصـدق لبذل الجهود فى سبيله من دون أن نهاب تهم العدو وافتراءاته أو نخشى الأصدقاء الجهلة.

وهنا، من الضرورى أن نشير إلى أن الساحة الثقـافية فى مصر وغيرها من بلدان العالم الإسلامى، فى حاجة ماسة إلى مثل هذه الدراسات المعتدلة والموضوعية التى تلقى الضوء على تاريخ الشيـعة والتشيع، وإن كنا قد نتـفق وقد نختلف مع المؤلف فى بعض القضـايا المتعلقـة بنشأة الشيـعة والتشـيع إلا أن الخلاف فى بعض الآراء لا يفـسد للود قضية. ولا يعنى التقليل من شأن الكتاب وأهميـته كما لا يعنى التقليل من شأن الأستاذ الدكتور الفيومى وقيـمته العلمية الكبيرة التى أهلته للخوض فى مـثل هذه القضية الهامة التى تسهم فى التعرف على تاريخ الشيعة والتـشيع وتسهم بالتالى فى التقريب بين السنة والشيعـة، فإن التقريب فى أساسـه، إنما يعتمد على المعرفـة التى تنفى الجهل والشك، الذى هو أساس الفرقة بين المسلمين.

فى الواقع إن هذا الكتاب الذى بين أيدينا، إنما يمثل دعوة إلى إعادة قراءة التاريخ عامـة وتاريخ الشيعة خـاصة، وإنى على ثقة أن هذا الجهـد العلمى المشكور الذى بذله المؤلف الأستاذ العالم، هو فاتحة خير للإسلام والمسلمين.. فجزاه الله خير الجزاء...

القاهرة - ربيع الثانى ١٤٢٢هـ **سيد هادى خسرو شاهى**

مقدمة

يقول أبو الفرج ترجمته الأصفهانى فى مقدمة كتابه: «مقاتل الطالبيين» ونحن ذاكرون فى كتابنا. . .جملا من أخبار من قتل من ولد أبى طالب منذ عهد رسول الله ﷺ ومن احتيل فى قتله منهم بسُم سُقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظُفِرَ به فَحُبِسَ حتى هلك فى محبسه، على السياق لتواريخ مقاتل من قتل منهم، ووفاة من توفى بهذه الأحوال لاعلى قدر مراتبهم فى الفضل والتقدم:

ذلك هو تاريخ «الشيعة والتشيع» تاريخ مآسٍ وغدر وتآمر وتجسيد آلام. وهو تاريخ عقدى سياسى ولا يقوم تحت مظلة فكرية واحدة ولا يجمع بينها سوى الثأر للإمام على وبنيه، وهى دعوى باطلة تلبس مسوح الرهبان وتحمل فى أحشائها طعنا فى الإسلام. ولقد اندرج تحت مصطلح الشيعة والتشيع ألوان من طوائف لا ينسحب عليها مفهوم الشيعة والتشيع الذى قرره أهل السنة والشيعة الاثنى عشرية المعتدلة. فمنهم من ألَّهَ عليا، ومنهم من جعل فيه جزءا إلهيا. . .إلى آخر أباطيل كثيرة حتى بات مصطلح الشيعة متهما ومن يحمله متهما وتاريخه متهما فى حد ذاته من حيث هو تاريخ.

لذلك رأينا تحريره وإنصاف الفرق العادلة وتمييزها عن الظالمة. فهناك العربية الزيدية وهناك الغالية الشعوبية والرافضة وهناك الإمامية الاثنى عشرية المعتدلة. وتلك قصة هذه الدراسة.

فكان من الإنصاف حتى يتحرر مفهوم الشيعة من ركام المقالات الظالمة التى أظلمت تاريخ الشيعة بإلحادها وزندقتها أن لا تحمل الفرق الغالية، وهى ليست من الإسلام فى شيء، وصف شيعة. إنما حسبها أن توصف بالطوائف الغالية أو فرق رافضة. . .أما المعتدلة منها فيقال عنها شيعة الزيدية وشيعة الإمامية الاثنى عشرية تنزيها لها عن الأفكار الضالة المتنازعة.

ولا ريب فى أن هذا التخاصم بين أفكارها الغالية لا يمثل مشكلة نظرية خطيرة فحسب، بل هو أيضا خطر كبير على حياة المجتمعات الأخلاقية والحضارية على مدى

اتساعـها. وإذا لم ننجح فى الاهتداء إلى بصيـص نور يخرجنا من شعاب التـيه لم يكن لدينا بصر حقيـقى نافذ يمكننا من أن نتعرف على الصيغة العـامة فى التاريخ الإنسانى. وسنبقى تائهين بين أكوام متـفرقة مشعثة من المعلومات التى تفتقـر فيما يبدو إلى وحدة فكرية.

وإذا كان التاريخ قـد وجد مبررا لوجود صـراع عقدى بين الغالية الشـعوبية إبان حكم الأمويين ثم بيـنها وبين العبـاسيين الذين نكلوا بالبـيت العلوى صاحب الشرعـية الذى كافح الأمـوية مع الشعوبيـة، ثم غدر بهمـا معا البـيت العباسى. فـإنها رأت فى التفكير العقدى أيا كـان نوعه ومشربه، تحديا مباشرا وواضحـا للحكم السياسى. وكانوا يرون أن مهمـة التفكير العقـدى الدينى أيا كان مصدره ـ هندى فـارسى، إسلامى ـ هو إعادة بناء المجـتمع كلية طبقـا لأهداف العقيدة الذين كـانوا ينادون بها. ولا ريب فى أن هذه المشكلة ـ التناقض بين السياسة القائمـة ومبادئ عقائد الفرق هى: فى نظرهم ـ نواة العدل السياسى وأساس الحرية ومناهضة قضيـة القضاء والقدر والقدرة الإنسانية وتقدمت عليها نظرية الحق الإلهى.

ومن وراء ستـار حملت عـقائدهم نقدا للمـجتـمع القائم. وقدمت تكهـنها على أساس وجود «مـفتاح واحد للتاريخ» دلائل عن قـيام المهدى المنتظر فى مرحلة مـتعطشة لمبادئ العدل السياسى وقيم الحق.

وتعدى صـراع الفرق الغاليـة، العدو السـياسى، بسبب سـياساته إلى صـراعات أهلية. وكانت النتـيجة أن تسويات الصلح لم تكن تسويات سلمـية، وإنما كانت أدوات للثأر القومى بدلا من كونهـا أدوات للترضية السياسية وكانت سـياسة الثأر التى أوقعت تلك الفرق الغـالية بشعوبهـا ليست سياسيـة وإنما هى نوع من الانتحار القـومى، فالثأر تجاهل للغد فى محاولة فاشلة لحمل الحاضر على أن يعيش شقاء بات فى عداد الماضى.

ثم يحدثنا التاريخ كـيف أن خلفاء بنى أمية ـ بعد أن حطموا الشـيعة والخوارج ـ بدأوا يهاجـمون القدرية التى أسـسها جَهْمُ بن صـفوان ثم وصل بعد ذلك إلى المعـتزلة الفتية. فيحدثنا التاريخ أنها نشـأت فى أواخر حكم بنى أمية وأن مؤسسها هو واصل بن عطاء وأنها كانت فى أول أمرها مذهبية محضـة قبل أن تختلط بالسياسة وتظفر بالأهمية العظمى وتتـأرجح بين عواصف أهواء الخلفـاء فى العصر العـباسى، ولم تكن المعـتزلة وحدها التى قاومت أهوال الخضوع للخلفاء بل إن الشيعة أيضا قد كان لها معهم مواقف

عنيفة لم يكد الخلفاء الأولون من العباسيين ينتهون من القضاء على الأمويين حتى تفرغوا للعلويين فصبوا جام غضبهم واضطهادهم على الشيعة بعامة والزيدية بخاصة. وليس هذا فحسب، بل إن الفروع الشيعية التى نشأت بعد جعفر الصادق كالناوسية والموسوية والخَطَّابِيَّة وغيرها من المذاهب والفرق التى نشأت فى ذلك العهد والتى كان تعددها وتعارضها سببا فى تكون المذهب السنى وتسميته بهذا الاسم أم لا فى العثور على الصراط المستقيم الذى يقتاد أتباعه إلى أهداف الرسالة التى لم تشوهها البدع ولم تنل منها الأغراض، وكان من بين المؤسسين الأولين لهذه الجماعة تحت اسم «السنة» عدد من تلاميذ الحسن البصرى، وابن سيرين، وأبى قلابة، وأبى حنيفة، ومالك بن أنس.

ولما ولى المأمون الخلافة أراد محو الشقاق بين العباسيين والعلويين بحجة أنهم جميعا هاشميون فدعاه ذلك إلى رعاية الشيعيين وحمايتهم؛ لأنهم أنصار أهل البيت الهاشميين وقد سند الاعتزال، وأيد المعتزلة بكل ما لديه من قوة بل صار هو نفسه معتزليا مقتنعا برأيه، قوى الشكيمة على من خالفهم، ولكن هذه المناصرة للمعتزلة جعلتها تطغى وتضطهد زعماء أهل السنة وعلى الأخص الإمام أحمد بن حنبل الذى يحدثنا ابن الجوزى أن الخليفة المعتصم قد أمر بجلده وسجنه فجلد وسجن ولم يظفر بحريته إلا بعد ثمانية وعشرين شهرا. وتلك بادرة تحتاج إلى دراسة.

وليست هذه فحسب، بل إن شأن هذه الجماعة جعل ينمو ويعظم وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من زعمائها وأنصارها بيد أن هذا لم يدم طويلا، إذ لم يكد الخليفة المتوكل يلى الحكم حتى جعل رد الفعل يظهر ويتجلى فى حياة أهل السنة فيستعيدون قوتهم ويكافحون الشيعة والمعتزلة.

وفى ذلك العهد ظهر فيها عدد من العلماء حملوا لواءها بهيئة مشرفة ترفع الرءوس، وتسجل مواقف العقلية الإسلامية بأحرف الخلود كالترمذى، وأبى بكر السجِستانى، وعلى الأخص توجت أعمالهم فى هذه الحقبة بمنتجات أبى الحسن الأشعرى الذى كان مذهبه على قمة الاعتزال بين الحنابلة والمعتزلة والذى رفع نجاحه رأس أهل السنة خاصة، وعلماء الكلام بعامة.

وقد ظلت الحال على هذا المنوال من التقدم وفى منتصف القرن الرابع الهجرى استولى الفاطميون على مصر ونشروا فيها مذهبهم. وبهذا أحيط مذهب أهل السنة

بعوامل المحاربة والإضعاف من كل جهة، فالفاطميون فى مصر والبويهيون فى بغداد قد ضيقوا عليهم الخناق ولم يبق لهم ولى ولا نصيـر سوى السلطان محمود الغزنوى. وفى أثناء هذا الإحداق الخانق من كل الجـوانب هبَّ السلاجقة السنيون واسـتولوا على بغداد فى سنة ٤٤٥ للهجرة فتنفس أهل السنة الصعداء وجـعلت مدارسهم تنتعش. ولهذا كان القرنان الرابع والخامس سـاطعيـن فى المعارف الدينية بأنواعهـا. فمن أهـل السـنة ظهر أبو بكر الآجُرِّى، وأبو الحسين الملطى، وابن بطة العُكْبَرِى، وأبو بكر الباقلانى، والحاكم النيسابورى، وأبومنصور البغدادى، وإمام الحـرمين الجوينى والإمام الغزالى. ومن المحيط الشيعى المعتزلى برز الشيخ المفيد، والشريف المرتضى، وأبو جعفر الطُوسِىّ فى المشرق، وابن حـزم فى المغرب، وكـان فى عصـره أقوى المدافـعين عن المذهب الظاهـرى. وقد اعتمدنا على أمهات كتب هذه المذاهب وأساسيـاتها الرئيسية، وكتب التاريخ الموثوق بها مثل: كتـاب السنة لـ«أحمد بن حنبل » و«منهـاج السنة النبوية» لابن تيميـة و «تلبيس إبليس» لابن الجوزى، و«أصول الدين» لعبد القـاهر البغدادى و«الفرق بين الفرق» لنفس المؤلف، و«مقـالات الإسلاميـيـن» للأشعرى، وكتـاب «الفصل لابن حزم» و«الطبـقات الكبرى لابن سعد» و«الملل والنحل للشهرستانى»، وكتاب «الخطط» للمقريزى و«الخطط» لابن الأثير و«تاريخ الأمم والملوك» للطبـرى، وكتاب «الإرشاد» للشيخ المفـيد، «ومنهاج الكرامة فـى معرفـة الإمامـة» لجمال الدين الحلى، و«فـرق الشيـعة» لحسـن بن موسى النوبختى، و«فهـرست كتب الشيعة» لأبى جـعفر الطوسى وكتاب طبقـات المعتزلة لابن المرتضى. وكثير غيـر هذا من المصادر الإسلامية، و«الاحتجاج للطبـرسى» و«الشيعة فى الميزان» مـحمد جـواد مغنية. و«تاريخ الإمـامية وسلـفهم من الشيـعة» د/ محـمد على فياض. و«عقائد الإمامية» محمد رضا المظفر. ومرتضى العسكرى. و«إمامية الزيدية».

ومن الأوربية التى يعـتبر مؤلفـوها من أعيان البـاحثين كـ «ماسـينيون» و «هنرى كوربان» و «نادير» ومـا إلى ذلك مما يؤلف مجـموعة مـحترمـة من المستندات المذهبـية والتـاريخـيـة المعـتـمـدة و«فـيلـهـوزن» و«فـان فلوتن»، و«أبليـايف» و«دونالدس» و«جولدتسـيهر». ومـهما يكن من الأمـر فإن الدور الذى مثله أهل الاعـتزال، إذ يعنى بقيمة زعـمائها العقلية والعملية وبنضـالهم القوى ضد غلاة الشيعة وضـد جميع الفرق التى أحدثت تشققات فى الصفوف الإسلامية أو فتحت ثغرات فى الأمة.

وكانت مـحاولات ابن هُبَيْرَة الذى كـان وزير المكتفى والمسـتنجد على التـعاقب والذى كان من أشـهر مشاهيـر المناضلين عن السنة وكان يحدوه الأمل القـوى فى إعادة

بناء ذلك التماسك، وقد آمن بأن الوسيلة المثلى لهذا هى ربط الشيعة المعتدلة بالسنية. ومن نصوصه فى ذلك قوله: «نحن لا نريد ترك على بين أيدى الروافض فنحن أحق منهم بأن نعده منا إذ إننا ننتمى إليه وهو ينتمى إلينا».

وقد نقل لنا فى مؤلفنا هذا النص لابن هبيرة من كتاب «الذيل على طبقات الحنابلة» لابن رجب؛ ولأن محاولاته جديرة بالدراسة.

ومما يدعو المؤلف إلى احترام الوزير أنه كان فى كتابه، «الإفصاح» معتدلا إلى أبعد حدود الاعتدال فذكر جميع أصحاب المذاهب التشريعية على مستوى واحد دون انحياز إلى أحدهم ضد الآخرين.

ومن تلك الجهود المشكورة أيضا «نادر شاه» الذى أراد - فى القرن الثامن عشر - أن ينقب عن حل سلمى للمشاكل التى استعصت منذ زمن بعيد بين أهل السنة والشيعة المعتدلة والتى طالما تسببت فى معارك دموية اشتعل أوارها بين هاتين الطائفتين من المسلمين. وأخيرا اهتدى إلى ذلك الحل الحاسم فى رأيه، وهو قد عرضه على الباب العالى واقترح إصدار أمر رسمى بضم مذهب الجعفرية الشيعى إلى المذاهب الأربعة. ولا سيما وأن هذا المذهب كان سائدا وحيويا لدى شيعة العراق المعتدلين، ولكن الباب العالى - بعد أن تردد كثيرا - رفض هذا العرض؛ لأنه كان يخشى من أن تنفيذه يرفع شأن «نادر شاه» وأن يخلد اسمه كواضع السلام والاستقرار فى الإسلام. وهذه تحتاج إلى دراسة. وكان الشهرستانى وهو من أهل السنة وكان يتذوق الشيعة الاثنى عشرية كما يظهر من تفسيره«مصابيح الأنوار ومفاتيح الأسرار» أنه يعادى الغالية وينفيها عن الجعفرية، مؤسسى الشيعة المعتدلة، وسارت على خطاه الاثنى عشرية فيروى نصا: أن سدير الصيرفى سأل جعفر بن محمد الصادق - عليه السلام - فقال: جعلت فداك إن شيعتكم اختلفت فيكم فأكثرت حتى قال بعضهم: إن الإمام ينكت فى أذنه، وقال آخرون يقذف فى قلبه، وقال آخرون: يرى فى منامه، وقال آخرون: إنما يفتى بكتب آبائه فبأى جوابهم آخذ جعلنى الله فداك ؟ قال: لا تأخذ بشىء مما يقولون يا سدير، نحن حجة الله وأمناؤه على خلقه، حلالنا من كتاب الله، وحرامنا منه».

«روى أن الفيض بن المختار دخل على جعفر بن محمد - عليه السلام - فقال: جعلت فداك؛ ما هذا الاختلاف الذى بين شيعتك، فإنى ربما أجلس فى حلقتهم بالكوفة فأكاد أشك، فأرجع إلى المفضل فأجد عنده ما أسكن إليه فقال أبو عبد الله: أجل إن

الناس أغروا بالكذب علينا حتى كأن الله عز وجل فرضه عليهم، لا يريد منهم غيره وإنى لأحدث أحدهم الحديث فلا يخرج من عندى حتى يتأوله على غير تأويله».

«كتب إليه (إلى الإمام الصادق) إن قوما من شيعته قالوا: إن الصلاة رجل والصوم رجل، والزكاة رجل، والحج رجل، فمن عرف ذلك الرجل فقد صلى وصام وزكى وحج. وكذلك تأوّلوا المحارم على أشخاص، فقال:

ومن كان يدين لله بهذه الصفة التى سألت عنها فهو عندى مشرك بيِّنُ الشرك. واعلم أن هؤلاء القوم سمعوا مالم يقفوا على حقيقته، ولم يعرفوا حدوده فوضعوا حدود تلك الأشياء مقاسة برأيهم، ومنتهى عقولهم، ولم يضعوها على حدود ما أمروا به تكذيبا وافتراء على الله عز وجل وعلى رسوله ﷺ، وجرأة على المعاصى، والله تعالى لم يبعث نبيا يدعو إلى معرفة ليس فيها طاعة، وإنما يقبل الله عز وجل العمل من العباد بالفرائض التى فرضها عليهم بعد معرفة من جاء بها من عنده. فأوّل ذلك معرفة من دعا إليه، وهو الله الذى لا إله إلا هو، وتوحيده، والإقرار بربوبيته، ومعرفة الرسول ﷺ الذى بلغ عنه، وقبول ما جاء به، ثم معرفة الأئمة بعد الرسل الذين افترض طاعتهم فى كل عصر وزمان على أهله، ثم العمل بما افترض الله عز وجل على العباد من الطاعات ظاهرا وباطنا واجتناب ما حرم الله عز وجل تحريما ظاهرا وباطنا، وإنما حرم الظاهر بالباطن والباطن بالظاهر جميعا. والأصل والفرع كذلك.

[1] بعد تولى السلطان محمود ملك شاه بعد موت أخيه كبيارق سنة ٤٨٩ هـ السلطة أخذ يحارب الإسماعيلية وهدم قلعة «شاه دز» قلعة «ضان لنجان» من قلاع الإسماعيلية. ومن هذا العصر اتهم وزيره سعد الملك، سعد بن محمد الرازى بأنه مال إلى الباطنية فقتل، وأرسل السلطان محمد جيشا لمحاصرة قلعة «آلموت».

ويبدو أن الشدة التى واجهت الباطنية شجعت الخصوم والأصدقاء أن يزيف بعضهم لبعض التهم طمعا فى صفاء الجو لهم. من هنا كان هاجس الميل إلى الباطنية منتشرا فى هذا العصر، ومن المؤكد أن عددا من الأبرياء وبخاصة من الشيعة الإمامية ذهبوا ضحية هذا الهاجس. وبشأن سعد الملك الرازى يذكر صاحب النقض: إنه كان شيعيا إماميا أصوليا، لكن حاشية السلطان محمد حسدوا هذا الوزير فوشوا به، وأوغروا عليه صدر السلطان فقتله، ثم ندم السلطان، وبكى عليه، وأغدق العطاء على من رثاه، وأمر بدفنه بإجلال واحترام. النقض / ٨٦ ـ ٨٧ هـ.

حتى الشيعة الإمامية لم يسلموا من غدر الباطنية، ذلك يعطى رأينا قوة ويوجب على الشيعة المعتدلة أن يجتمعوا ويعلنوا براءتهم من تلك الطوائف الغالية.

وإننا لمع أئمة التقريب بين المذاهب بأن فكرة التقريب بين المذاهب أصبحت اليوم حاجة ملحة وهدفا رفيعا لكل مسلم غيور على الإسلام، مهما كانت نزعته المذهبية ورأيه فى المخالفات المذهبية، ويقول الشيخ محمد رضا المظفر:

«وليس شىء أفضل فى التقريب بين المذاهب الإسلامية من أهل كل عقيدة كشف دقائقها وحقائقها» فهذه الطريقة - فيما أعتقد - أسلم فى إعطاء الفكرة الصحيحة عن المذاهب، وأقرب إلى فهم الصواب من الرأى الذى يعتنقه جماعته.

وتلك رسالة الكتاب.

د / محمد إبراهيم الفيومى

القاهرة - مدينة نصر - منطقة ٦

٢٣ أش محمود غنيم

الباب الأول

المشكلة السياسية العظمى

مَن الخليفةُ ؟

مشكلة فى تاريخ وتاريخ فى مشكلة

الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

الفصل الثانى

قوى المدينة: الخروج على الشرعية

الفصل الثالث

قوى الشام المضادة: معاوية وعمرو بن العاص



الفصل الأول

الخلافة والقوى المضادة

لما قضى النبى ﷺ دون أن يوصى بمن يخلفه ودون أن يرد فى القرآن الكريم نص على من يخلفه، أو قاعدة عرفية سبقت لاختيار خلفه أو خليفته الذى سيرأس الجماعة الإسلامية حار المسلمون فى الأمر كيف تفصل فى مسألة عظمى؟ مسألة الزعامة الزمنية ولمن تكون، تلك المسائل هى التى شقت المسلمين إلى شقين متقابلين أخيرا، يحكم بينهما السيف وهيأ الأساس التاريخى لتطور عقيدة الإمامة. فظلت محلا للخلاف بين المسلمين. وليس من شك فى أن الرسول ﷺ كانت له فى حياته، بوصفه الرسول ﷺ، سلطة لا تحتمل الجدل. ولكنه تُوفى من غير أن يعين خليفة له. ولعل المؤمنين كانوا يتوقعون، فى أثناء حياة النبى ﷺ، أن يظل هو على رأس الجماعة الإسلامية إلى يوم الحساب بالذات، حتى إذا لحق بالرفيق الأعلى نشأت فى المدينة منازعات حربية كادت تهدد كيان العرب السياسى الجديد بالانحلال التام ولم تكن ثمة حقوق وراثية، بل لم تكن ثمة طريقة معروفة للانتخاب. والقرآن الكريم نفسه ـ دستور يسير النبى ﷺ على ضوئه فى الحكم ـ لم يشتمل على أيما توجيه يستعين به المسلمون على حلّ مشكلتهم، ويهديهم سواء السبيل إلى معرفة الرجل الذى يجب أن يدعى لخلافة الرسول ﷺ. وما كان لشىء أن ينقذ سفينة الدولة من الغرق، فى غمرة هذا النزاع، غير قرار جرىء.

فالنبى ﷺ لم يعقب ولدا .لكن الأمر لم يتم على هذا النحو. بل تم انتخاب أبى بكر، وقد تم هذا الانتخاب بمهارة. لكن على الرغم مما أحدثه هذا الاختيار من غم فى قلوب أنصار على بن أبى طالب، بيد أن الجميع امتثلوا لهذا الاختيار نظرا لما تحلى به أبو بكر من فضائل ومزايا. وباستفتاء مماثل تولى عمر الخلافة بعد وفاة أبى بكر.

والواقع أن مهمة عمر كانت صعبة فى وسط هذه البيئة التى طالما أثارتها الدسائس والحزازات الصغيرة، وبخاصة لأن أصحاب النبى ﷺ السابقين إلى الإسلام كانوا يحصون عليه أعماله، وكأنهم مجلس شيوخ وفى سنة ٦٤٤م، قُتِل عُمر لدُنْ عودته من الحج الذى اعتاد أداءه كل عام، وهو فى غمرة نضاله الجليل بسبيل نشر راية الإسلام، وعزمُ الشباب لمّا يزل ـ أو يكاد ـ ملء بُرْدَيه. ذلك بأنّ غلاما فارسيا، هو أبو لؤلؤة فيروز ـ وكان يعمل فى المدينة فى خدمة حاكم الكوفة المغيرة بن شعبة ـ جاء الخليفة يشتكى إليه شدة الخراج الذى كان يتعين عليه أن يجمعه لسيده، فلم يسمع منه، فلما كان صباح اليوم التالى وانتهى الخليفة إلى المسجد ليؤم الناس فى صلاة الصبح طعنه الفارسى بخنجره طعنتين، كانت إحداهما قاتلة، وإذ قد جاءه الموتُ فجأة، فلم يكن فى ميسور عمر أن يتخذ أى إجراء فى ما يتصل بالخلافة. وكان أبو عبيدة ـ وهو أقرب الناس إليه بعد أبى بكر ـ قد توفى قبله. وليس بالإمكان أن نجزم ما إذا كان عمر نفسه هو الذى عين ـ على فراش الموت ـ أهل الشورى الذين فصلوا فى المسألة بعد وفاته. وكانت وفاته فى ٢٣ تشرين الثانى سنة٦٤٤م.

وكذلك تولى عثمان من بعد مقتل عمر. وعثمان بن عفان من بنى أمية، وهى أسرة مكية، من التجار ذوى النفوذ الكبير فى مكة، وبزعامة أبى سفيان حاربت الرسول ﷺ وقاومت الدعوة الجديدة بعنف، ولم تعتنق الإسلام إلا بقوة السلاح لما استولى المسلمون على مكة، ولكن عثمان بن عفان آمن بالإسلام إيمانا صادقا مخلصا لا تشوبه مثل تلك العواطف. وكان مثالا للتقى والورع، وحكم الجماعة بنزاهة مطلقة، والأمر الوحيد الذى يمكن أن يؤخذ عليه هو أنه عين أقاربه فى الوظائف الكبرى، وخصوصا أنه أعطى معاوية بن أبى سفيان حكم دمشق والشام.

والواقع أن الأمويين هم أنسباء بنى هاشم، عشيرة النبى ﷺ، ولكنهم كانوا فى العصر الجاهلى أرفع منهم مكانا وأشد قوة وبأسا. وكان سيدهم البارع، أبو سفيان، قلب المعارضة القرشية للنبى ﷺ طوال سنوات عديدة. حتى إذا تم للمسلمين فتح مكة استقر معظم الأمويين فى المدينة، حيث عمل النبى ﷺ على إرضائهم وتأليف قلوبهم، بشتى الطرق والأساليب. وفى عهد أبى بكر وعمر وفق يزيد بن أبى سفيان، ووفق أخوه معاوية من بعده، إلى أن يبلغا مرتبة بارزة فى الدولة.

وقام أنصار على (باستثناء على نفسه) بمعارضة هؤلاء الخلفاء الثلاثة خفية ولكن لم يحدث انشقاق مفتوح بين هذا الفريق المناصر لعلى، وهم الصحابة المتمسكون بسنّة

الرسول ﷺ، وبين الفريق الآخر الذى كان يشمل مسلمين فاترى الإيمان. وهذا الفريق الأخير كان على رأسه بنو أميّة وخصوصا فى عهد خلافة عثمان، ومعاوية والى الشام.

فلما قتل عثمان فى سنة ٣٦هـ (٦٥٦م) فى بيته بالمدينة على يد الذين تسوروا بيته ودخلوا عليه وهو يتلو القرآن(١)، أراد الحزب الأموى بزعامة معاوية الانتقام لقتل عثمان، مدعيا أن لعلى يدا فى هذا القتل، وهو ادعاء كاذب.

فانضم أهل المدينة جميعا، وقسم كبير من أهل مكة، إلى على الذى كان هؤلاء المسلمون المتحمسون يعدونه الأحق بالخلافة بنوع من الحق الإلهى.

وبعد معركة صِفّين، الواقعة على شاطئ الفرات (فى سنة ٣٧هـ/٦٥٨م) بين على ومعاوية، انتصرت حيلة الأموى على أمانة على. لقد وافق علي على التحكيم الذى انتهى بعزله، وذلك فى اللحظة التى أوشك فيها أن ينتصر على خصمه معاوية نصرا حاسما.

واندلعت النار فى الكوفة. ففى حُزَيْران سنة ٦٥٥ اعترضت قوة تتألف من ألف شخص على رأسهم مالك الأشتر اليمنى الذى كان مواليا لعلىّ شخصيا، سبيل عامل الكوفة، سعيد. عند عودته من الحج ومنعته من دخول البلدة. وحسب عثمان أن فى ميسوره أن يدفع الكارثة كرّة أخرى، فاستبدل بسعيد رجلا آخر يرضى عنه الكوفيون.

وفى مصر لم يغمض عثمان عينه عن خلع عمرو بن العاص، فاتح البلاد، وتعيين نسيبه [عبد الله بن سعد] ابن أبى سرْح، حاكما مكانه وكان النبى ﷺ أهدَر مرة

---

(١) يراجع: الفرق الإسلامية - الفريد بيل - ترجمة د. عبد الرحمن بدوى.
: الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى د. محمد إبراهيم الفيومى، دار الشروق.
: تاريخ الشعوب الإسلامية - بروكلمان - تعريب: نبيه أمين فارس - منير بعلبكى.
: الإسلام والعرب ـ روم لاندوا ـ ترجمة منير بعلبكى.
: العرب والإسلام والخلافة العربية تأليف إيليا بيف نقله إلى العربية د. أنيس فريحه.
: تاريخ العرب العام لـ. أ. سيديو ترجمة عادل زعيتر.
: تاريخ العرب ـ فيليب حتى.

الروايات فيمن قتل عثمان بن عفان متضاربة: قيل: إن الذى تولى قتله كنانة بن بشر التجيبى، وطعنه عمر بن الحمق عدة طعنات. وجاء عمير بن ضابئ البرجمى - وكان أبوه قد مات فى سجن عثمان - فوثب عليه حتى كسر ضلعا من أضلاعه، وفى رواية أخرى أن الغافقى بن حرب ضربه بحديدة فى فيه، ثم تقدم سودان بن حُمْران بالسيف وضرب عثمان فقتله. ولسنا نعلم أن أحد هؤلاء فارسى نصرانى.

دمَ هذا الأخير ثم عفا عنه واشتدت النقمـة على عثمان فى مصر، وانضم إلى عمرو فى إذكـائها مـحمـد بن أبى حذيفـة وهو ابن أبى بكر الصـديق بالتـبنى ومن أشيـاع علىّ المتحمسين. وفيما كانت إحدى المعـارك البحرية الكبرى تدور على الشاطئ الليقيائى بين الأسطول المصـرى وبين البيـزنطيين فى عـهد الإمـبراطور قـسطنطين الثانى، انسـحب الناقمون من المعـركة على ظهر إحدى السـفن زاعمين أن الجهاد الحـق قد انتهى إلى أن يهمل ويطرح. فلما كانت السنة التالية سار جمع من العرب يبلغ عددهم خمسمائة رجل من مـصر إلى المدينة ليـشنوا هناك الحرب التـى يريدها الله ضد العـدو الداخلى، وفى نيسـان سنة ٦٥٦ بلغ هؤلاء أبواب المدينة، فإذا معظم أهلهـا يقفون إلى جانبـهم. وكان عثـمان، وهو فى ذلك الحين سيـد أقوى إمبـراطورية على وجه الأرض، لا يملك فى مقـره سلاحا مـهما، يدفع به الناقـمين. ومن هنا تعين عليـه أن يباشر المفـاوضات مع خمسمائة ثائر، فوفق إلى إقناعهم بالانسحاب واعدا إياهم بالعمل على إنصافهم وتحقيق مطالبهم. ولكن الأمويين لم يلـبثوا أن أطلعوا رؤوسهم ثانية، وحـملوا الخليفة على أن يؤكد فى خـطبة الجمـعة التـالية، أن المصريـين إنما رجعوا إلى بلادهـم؛ لأنهم وجدوا أنفسـهم على ضلال. فاستـاء أهل المدينة لذلك أشد الاستـياء حتى لقـد عيروا عثـمان ورجموه بالحجارة. فـسقط مغشيا عليه وحمله القـوم إلى خارج المسجد، الذى لم تطؤه قدماه بعد ذلك قط[1].

وتجمـهر المدنيون حول منزل عـثمان ورفـضوا أن يتزحزحـوا من أماكنهم. ورجع المصريون أيضا، مـدعين أنه قد وقعت فى أيديهم رسالة من عثـمان إلى عامله ابن أبى سرح يأمـره فيها بـالفتك بالزعماء عـقب عودتهم، على الرغم من أن الخليـفة أنكر أن تكون له معرفة بالرسالة التى وضعت نصب عينيه. عندئذ طلب إليه الثائرون أن يستقيل ما دام من الممكن أن يجرى شىء كهذا من غير علمه، ولكن عثمان رفض أن يحقق هذا الاقتراح الجرىء الذى تقدم به الثائرون، فحاصروه فى منزله حيث لم يدافع عنه غير نفر قليل من أنسـبائه وبعض العـبيد والموالى. أمـا المحرضـون الفعليون على الـثورة، على وطلحة والزبير، فـآثروا أن يتباعدوا إنقاذا للمـظاهر. وأما السيدة عائشـة، فتركت المدينة تحت ستار الحج إلى مكة، لكى لا تشهد الوقائع فيما بعد.

وانتـهى النضال إلـى ذروته عندما رشق أحـد المدافـعين عن عـثمان رجـلا من المصريين بحجر فقتله. وطالب الثائرون بتـسليم القاتل فلم يجابوا إلى طلبهم، فانقضوا

(١) هى معركة ذات الصوارى. تاريخ الدولة العربية ـ فلهاوزن ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.

على المنزل من الأراضي المجاورة، وقتلوا الخليفة الذى كان يتلو القرآن فى هدوء، من غير أن يشترك فى المعركة، وانتهبوا ما فى بيته. وكان ذلك يوم الجمعة ١٧ حزيران ٦٥٦ فسال دم الخليفة على نسخة القرآن التى كان يقرأ فيها، وإنما خُبِّئَتْ هذه النسخة، كأثر مقدس، ولكن عددا من خزائن الكتب لم تلبث أن تنازعت فى ما بعد شرف امتلاكها فزعمت أن نسختها هى الأصلية. ودفنت امرأة عثمان ـ نائلة الكلبية، التى أصيبت أيضا بجراح ـ جثة الخليفة الصريع فى سكينة الليل[1]، يساعدها بعض الأصدقاء، وأرسلت بعض أصابع نائلة المقطوعة إلى ابن عم عثمان، معاوية أمير سورية، فكان يلوح بها من على المنبر ليستثير حماسة الناس للأخذ بثأر الخليفة. وكان معاوية قد وجه إلى المدينة قوات لنصرة عثمان، فلم تكد تعلم بمصرعه حتى رجعت وهى فى منتصف الطريق[2].

قوى العصبية القبلية المضادة «المرتدون»:

أ- المرتدون:

لم يكن فى وسع العرب أن يشقوا لهم طريقا إلى الخارج طالما كانوا محاطين بدول قوية سياسيا وحربيا: روما وبيزنطة وفارس.

لكن فى مستهل القرن السابع ظهر الإسلام فى جزيرة العرب وأظل الجميع بقيادة سياسية واحدة وقاعدة مشتركة. لقد جمع تحت سلطان واحد قوى هو سلطان النبى محمد ﷺ أولا، ثم سلطان الخلفاء من بعده، غير أن جنود الفتوح الإسلامية، أولئك العرب القادمون من قبائل بدوية رحل فى الجزيرة العربية، كان أكثرهم شديدى الغيرة الدينية والتقوى الإسلامية، وبعضهم الآخر قد أنحى القرآن عليهم باللائمة على ذلك: ﴿ الأَعرَابُ أَشَدُّ كُفراً وَنِفَاقًا.... ﴾ [التوبة: ٩٧]؛ وفى آية أخرى تتعلق بالكفار من العرب: ﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [الزخرف: ٣٠].

وهذا الفتور الدينى الذى عند بعض بدو بلاد العرب سنجده فيما بعد قد أثر على سير الأحداث فى صفين وعلى ما لاقاه الحسين من الغدر به.

بدأ فتور الإيمان الدينى يظهر مسلحا فى عصر الخليفة الأول.

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ١١٣ بروكلمان.

(٢) العرب الإسلام والخلافة العربية: س. إيليا بيف.

حينئـذ بدأت موجـة من الارتداد ما لبـثت أن طغت على الحياة فـى بلاد العرب والواقع أن الدوافع الدينية لم تكن مسئولة عن هذه الموجة إلا نادرا، كل ما فى الأمر أن بعض العرب رغبوا فى أن يتخلصوا من سلطة المسلمين.

أعلن بعض المرتدين أنهم لا يزالون راغبين فى أن يعـبدوا الله، ولكنهم يرفضون أن يدفعوا الزكاة. وإنما استاؤوا بخـاصة من الرسل الذين كان الرسول ﷺ يبعث بهم فى السنوات السـالفة إلى كثـير من القـبائل ليعلمـوها الدين الجديد ويجـمعـوا من أفرادها الزكاة. فقد كان هؤلاء الرسل مصـدر إزعاج وإعنات فى نظر القبائل البدوية التى كانت تتمتع من قبل بكامل حريتها واستقلالها فى مراعيها الخاصة[1].

وكان النبى ﷺ قد شغل نفـسه فى أيامه الأخيرة، بإعداد الجـيوش للقصاص من البيزنطيين الذين هزمـوا المسلمين فى مؤتة، فوجد أبو بكر نفسه مـسئولا عن إنفاذ خطة النبى ﷺ الأخـيرة هذه، على الرغم من أن الأنبـاء المخوفـة عن شيـوع الاضطراب فى أنحاء الجزيرة كانت تتواتر على المدينة من كل حدب وصوب، وهكذا وجه أبو بكر نخبة جيوش الإسلام إلى الشمال تحت قيادة أسامة، ولكننا لا نعرف شيئا عما استطاعت هذه الحملة أن تحققه من الأعمال، بل لسنا نعرف ما إذا كانت قد اجتازت الحدود البيزنطية أم لا. ومهـما يكن، فقـد قضى أسـامة وجنوده شهـرين خارج المدينة، وبذلك أصـبحت عاصمة المسلميـن فى مركز لا يساعدها كثيرا على الدفاع عـن نفسها، والواقع أن أسدا وغطفان، النازلين غيـر بعيد عن المدينة، كانوا أول من أفاد من هذا الوضع، فـهاجموا المسلمين. ولكن أبا بكر استطاع أن يثبت لهم ويصدهـم عن أهدافهم ريثما عادت حملة أسامة إلى المدينة، فعهد عندئذ بالقيادة إلى «سيف الله» المجرب، خالد بن الوليد، الذى هزم كلتا القبيلتين عند بئر «بزاخة» هزيمة حاسمة اضطرتهما إلى الاستسلام فى الحال.

أما هؤلاء الذين ارتدوا عن الإسـلام عقب وفـاة الرسول عليه الصـلاة والسلام، فإنهم لم يرتدوا عنه لبغـضهم إياه وكراهيتهم له، وإنما ظنوا أن الإسلام قـد انتهى بوفاة الرسول ﷺ. أضف إلى ذلك أنهم لم يخرجوا على عقيدة التوحيد عماد هذا الدين، بل

---

(١) يراجع: تاريخ الدولة العربية ج. ٣٥٠، فلهاوزن.
السيادة العربية ص. ٥٠ فان فلوتن ترجمة.
تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٠٠ كارل بروكلمان
تاريخ العرب العام ص ١١٠ لـ. أ. سيديو. عادل زعيتر
العرب والإسلام والخلافة العربية ص ١٧٣ ش. إيليا بيف.

زعموا أن الزكـاة إنما هى إتاوة يدفعونها للرسـول ﷺ. ومن ثم لم يجدوا مبررا لدفـعها بعد وفاته[1].

على أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين حقا، فقد كان السواد الأعظم منهم من هؤلاء الأعراب الذين مردوا على النفاق. وقد نعى الله ـ سبـحانه وتعالى ـ عليهم هذا فى غير آية من القرآن من ذلك قـوله تعالى: ﴿ قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُم (ينقصكم) مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (14) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (15) قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحـجـرات: ١٤ـ ١٦]. ومما يدل على أن هؤلاء لم يـسلمـوا حـقـا وإنما تورطوا فى الدخول فى الإسلام مَنُّهُم بإسلامهم على الرسول ﷺ. وقد ندد عليهم القرآن الكريم فى ذلك بقـوله: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لاَّ تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] المترجمان.

وهنا كمـا يرى «فان فلوتن» أن أولئك الوصوليـين الذين لم يدخلوا الإسلام عن اقتناع بصـحته وإدراك لسـمو مبـادئه، وإنما دخلوه لأنه دين الفاتحين ولما عـساه أن يدره عليـهم من النفع أو يدرأ عنهم من الشـر وتلك سنة الله فى خلقـه ولن تجـد لسنة الله تبديلا، إذ لا تخلو أمة من الأمم من ذلك الفريق من ضعاف النفوس ومرضى القلوب، ولاسيما فى تلك الأوقات العصيبة والانقلابات السياسية والاجتماعية العنيفة حيث يقوم دين جديد على أنقاض دين قـديم وتقوم دولة فتية على أطلال دولة متـداعية. ولقد مُنِىَ الإسلام وابتليت الأمة العـربية بتلك الطائفة التى اتخذت الإسلام جنة لتـدبير المؤامرات ضد المسلمين ولم يكن قتل عمـر بن الخطاب على يد أبى لؤلؤة إلا نتيجة لتلك المؤامرة التى دبرها له الهرمزان لما كـان يكنه من الحقد للعرب بعد أن ثلوا عـرش الفرس ومزقوا دولتهم. كذلك اتخذ بعض اليهود والنصارى الإسلام ستارا يكيدون من ورائه لهذا الدين الحنيف، فأدخلوا فيه الكثيـر من الخرافات والأساطير التى لا تمت إلى هذا الدين الحنيف بصلة. ولولا ما قام به علماء المسلمين ولاسيما علمـاء التفسير ومصطلح الحديث لمقاومة

---

(١) السيادة العربية ص ٢٠٠ فان فلوتن - ترجمة إبراهيم حسن، وزكى إبراهيم.

ذلك الخطر الداهم لضاع الإسلام ولعصفت به أعاصير تلك الضلالات والبدع التى أثارها عليه هؤلاء الأدعياء على الإسلام منذ القرن الأول الهجرى(١).

كان أبو بكر شديد الحيطة فى أمر المرتدين: فكان لا يأخذ فى ذلك بالشبه ولا يحكم فيه بالظنَّة، إذ كان يمهل المرتد ثلاثة أيام يناقشه خلالها علماء المسلمين وفقهاؤهم فيما التبس عليه من أمر الدين، وما عرض له من الشُبَه فى صحته ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة.

وإلى القارئ طائفة من أقوال الأئمة فى هذا الموضوع: قال أبو حنيفة: إذا ارتد المسلم عرض عليه الإسلام وأجل ثلاثة أيام؛ لأن الظاهر أنه دخلت عليه شبهة ارتد لأجلها، فعلينا إزالة تلك الشبهة، أو هو يحتاج إلى التفكر لنبين له الحق فلا يكون ذلك إلا بمهلة، فإن استمهل كان على الإمام أن يمهله، ومدة النظر مقدرة بثلاثة أيام فى الشرع كما فى الخيار (خيار الشرط وخيار الرؤية فى البيوع). فلهذا يمهله ثلاثة(٢).

ب- المتنبئون:

١ – مسيلمة: من بنى حنيفة وتميم:

أما فتنة بنى حنيفة فى اليمامة فقد كانت أمراً عودا وأشد خطرا. ففيما كان محمد ﷺ لا يزال على قيد الحياة ظهر فى تلك البلاد رجل اسمه مَسْلَمَة ـ وقد دعاه المؤرخون مسيلمة من باب التصغير الذى يقصد به التحقير ـ وادعى النبوّة، مطالبا حكومة المدينة بأن تعترف له بحقوق متكافئة مع حقوقها. والذى يبدو أن مسيلمة قد شدد على ناحية الزهد والتقشف تشديدا خاصا، فأوصى بالصيام وحرم الخمر، وحض أتباعه على الطهارة والعفة سامحا لكل منهم بالاتصال الجنسى إلى أن يرزق ابنا ذكرا، فحسب. وفى الواقع أننا نقع فى خطبه على أصداء من الأفكار المسيحية. أفرغت فى لغة رجل بدوى يحرث الأرض، فهو يتكلم عن «الشاء السود، وعن اللبن الأبيض، وعن الطاحنات والخابزات، وعن الضفدعة التى تعيش فى الماء والطين، ولكنه يتكلم أيضاً عن مملكة السماء، وعن ذاك الذى سيأتى من السماء»(٣). ولقد كان لهذا الرجل، على الرغم من

---

(١) السيادة العربية ص ٢٠١.

(٢) كتاب المبسوط لشمس الدين السَّرْخسِىّ (القاهرة سنة ١٣٢٤هـ) ج١٠ ص ٩٨ – ١٠٠.

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى – تحقيق السيد صقر، ذكر نماذج من ترهاتهم.

سذاجتـه، أثر كبير فى نفـوس أتباعه من قبيلـته حتى أن كثيـرا منهم ظل يؤمن به بعد سنوات من سقوطه.

٢ - سَجَاح: من بنى تميم وبنى تغلب وبنى حنظلة:

وفى شمـالى الجزيرة أضرمت امـرأة تدعى «سجـاح» نيران حركـة تشبه حـركة مسـيلمة، بين أفراد قبـيلة تميم، النازلة على مقـربة من الحدود الفارسيـة. وإنما ظهرت سجاح، أول ما ظهـرت، بين أخوالها بنى تغلب فى العراق، وكانت النصـرانية واسعة الانتشار فـيهم حتى إذا جاءها نبأ وفاة النـبى ﷺ سارت مع عدد كبير من أتبـاعها إلى أنسبائها من قـبيلة تميم الذين كانوا بحكم بداوتهم الخالصة على مـستوى ثقافى أدنى من مسـتوى غيـرهم من العرب، فهم يؤلهـون الشمس، على الخـصوص. ولم يؤيدها أول الأمر غير أقربائها الأدنين، بنى حنظلة، ولكنها ما لبثت أن بسطت سلطانها على القبيلة برمتهـا. وتذهب الروايات إلى أنها اتجهت بعـد إلى الجنوب وعقدت حلفا مع مـسيلمة، ولكنهمـا لم يوفقا إلى توحيـد قوى أتباعهمـا فى نضال مشتـرك ضد المدينة. وهكذا لم يلبث الحليفان أن افترقا، فرجعت سجاح إلى العراق، حيث اختتمت نشاطها العام. وفى الأخبار أنها ماتت على الإسلام، والواقع أنه عندما ظهر خالد بن الوليد فى أراضى تميم تقـدم إليه القـوم بالطاعة فى كل مكان تقـريبا، ولم يشـذ عن هذا الإجمـاع ويخلص لإيمانه بسجـاح، حتى النهاية، إلا مالك بن نُوَيرَةَ سيد بنى يربوع، من حنظلة، الذى ارتد عن الإسلام، عقب وفـاة النبى ﷺ مباشرة. ولكن خالـدا ما لبث أن طوقه وجنده فاضطر إلى الاستسـلام أيضا. ومع ذلك فقد أمر خالد بقتله، وبقتل جـميع أتباعه شطرا لعناده.

وبعد إخضـاع تميم انقلب خالد إلى اليمـامة لقتال أصـحاب مسيلمـة وكانوا قد هزموا قوة إسلامية يقودها عكرمة. وسار مسيلمة بعد هذا النجاح الأول حتى بلغ حدود اليمامـة الشمالية حيث وقـعت معركة حاسـمة فى عقربة، لم تعـرف بلاد العرب كلها أعنف منها من قـبل. ولكى يلهب خالد طمـوح رجاله، فقـد جعل كلا من المهـاجرين والأنصار والبدو يحـارب مستقلا عن الآخـر. وكانت قوة مسيلمـة التى تتألف من بنى حنيفة تفـوق قوة خالد عددا، فقـاتلت قتالا شديدا، فانكشف المسلمـون وأشرفوا على الهزيمـة. ولكن سخرية بنى حنيفـة بهم دعتهم إلى أن يبـذلوا أقصى ما يستطيـعون من جهد، فوفقوا أولا إلى أن يضعوا حدا لتقدم العـدو، وما لبثوا أن ردوه على عقبيه شيئا

بعد شيء. فلما رأى بنو حنيفة أن الهزيمة لا بد واقـعة بهم تراجعوا إلى حديقة واسعة، ابتغاء أن يجدوا فى حيطانها المنيعة ما يقوى مـركزهم ويقيهم عادية هجوم المسلمين. غير أن هذا العمل بالذات هو الذى انتهى بهم إلى الهزيمة، فقد هجم المسلمون على حديقة الموت، كمـا تدعوها الروايات، وفـتكوا بأعدائهم فـتكا ذريعا لم ينج منه أحـد، حتى مسيلمة نفـسه. ولم تكن خسائر المسلمين يسيـرة، فقد استشهـد من المهاجرين والأنصار وحدهم سبـعمائة رجل، بينهم كثـير من أصحاب الرسول ﷺ السـابقين إلى الإسلام، وكبار حفظة القرآن.

والحق أن هذه الغلبة التى اشتراها المسلمون بثمن غال، لم تقرر مصائر بنى حنيفة فحسب، بل مصائر العـرب على الجملة، فقد احتمت فلول قوات مسـيلمة المشتتة، فى حصونها ثم استسلمت حذر الموت، وبذلك قضى هناك على الثورة قضاء مبرما.

٣ - نبوة عبهلة ذو الحمار: حضرموت:

أصاب الانحطاط السريع الإمبراطورية الفارسية بعد مصرع كسرى الثانى (أبرويز) الساسـانى، سنة ٦٢٨م، فقد تركت الولايات الـعربية، وبخـاصة اليمن النائيـة، لتدير شئونها بنفسها. وفى غمرة من هذه الفـوضى العامة التى اجتاحت البلاد، أعلنت قبائل كثيرة إسلامها، من طريق الوفود التى بعثت بها إلى المدينة، عقب فتح مكة، ولقد وفق النبى ﷺ قـبل وفاته إلى إقـرار النظام فى البـلاد، وإلى تعـيين مـا يجب أن تؤديه من الضرائب تعيـينا صار فى ما بعد مثـلا يحتذى. ومع ذلك فلم يقض عمـاله على صغار الحكام المحليين المتـعددين، بل عاضدوهـم كما يعاضـد ممثلو الدول الاستعمـارية اليوم الأمراء الوطنيين، ولقـد أنشأوا نظاما للمراقبة عـاما، ونظموا شئون التشـريع والعبادة، وجبـوا الضرائب، قـبل كل شيء. وإذ كان هذا المظهـر غيـر الشعـبى من مظاهر سلطة العمال الرسميـة، كثيرا ما يحملهم على اصطناع تدابير قاسـية فقد ثار عليهم الناس فى حضـرموت، والنبى ﷺ لا يزال عـلى قيد الحـياة، ثورة لم تلـبث أن قمعت بـأقصى الشدة. وحتى قبل هـذه الثورة، ظهر فى قبيلة الأوس رجل ادعى النبوة اسـمه عبهلة ذو الحمـار «أى راكب الحمار» (منذ القدم والحـمار يعتـبر فى الشرق، عمـوما، الدابة التى يمتطيـها المخلص المنتظر)[زكـريا ٩: ٩]. وهذا هو السبب الذى من أجـله دخل يسوع القدس وهو راكب عـلى أتان، والذى من أجله سمى مـؤسس إحدى الفرق المتـعصـبة الناشئة فى شمالى أفريقية فى القرن العاشر«ذا الحمار». بل إن أحد الذين ثاروا فى مطلع

هذا القرن علــى سلطان مراكش اشتــهر بلقب «بو حــمارة». وكانت الوحـدانية منتــشرة انتشارا واسعا على أيدى اليهــود والمسيحيين فى جنوبى بلاد العرب، ومن هنا لم يدع، ذو الحمــار، الناس إلى عبــادة صنم ما، أو وثن مــا، ولكنه دعاهم إلى أن يعـبدوا الله الرحيم. وجاءته الأنبــاء بمرض النبى محمد ﷺ بُعَيْـدَ عودته من حجة الوداع، فشـجعه ذلك على إعلان دعوته، فهاجم من نجران العــامل الفارسى الذى كان لا يزال مقيما فى صنعاء. حـتى إذا هزمه أمــست اليمن كلهــا منطرحة على قـدميه، ولـكن الرسول ﷺ استطاع، برغم مرضـــه، أن يفيد من نفوذه هناك، من طريق رسله ورســائله، حتى لقد اجتمع المخلصون له على حرب النبى الكاذب. ثم إن [الأبناء، وهم] أرستقراطيو صنعاء الفرس، اتفقوا فى ما بينهم، بتحريض من أحـد الرسل المسلمين، على قتل عبهلة، فتم ذلك على مــا تقول الروايات قبل وفــاة الرسول ﷺ بيــوم واحد، ولكن رِدَّة أخــرى ما لبثت أن عـقبت هذا النصــر الإسلامى المؤقت. ذلك بأن رجـلا اسمــه قيس [ابن عـبد يغوث]، وكان من أحد أصحاب عبهلة وأعلاهم مقاما، أعلن الثورة على الفرس بمعاونة الغرب وتأييدهم. فمــا كان من أبى بكر إلا أن وجه إليه جيشا يقوده عــامل كان محمد ﷺ نفسه قد عينه على جزء من حضرموت، فقضى على الفتنة وأقر الأمن فى البلاد.

جـ - قبائل الردة.. قبائل الخوارج ومن غدروا بالحسين:

راودنى فرض يرى أن قــبائل الصحـراء الذين شقوا عصــا الطاعة على الجمــاعة الإسلامية وقام فيهم المتنبئــون، كانت قبائل بنى تميم وتغلب وحنظلة وعرب حضرموت على حظ من النصـرانية وكان بعضهــم يؤلهــون الشــمس وإن ما بقى من خطبة مسـيلمة ـ وهى قليلة ـ تعلن عن أصداء الأفكــار المسيحيــة التى طبعتهــا بطابعها وبخاصــة حين يتكلم عن مملكة السماء.

ونفس تلك القبائل هى التى كانت تجرى وراء كل ناعق، طيـشا واستخفافا، دون أن تدرك عاقـبة ما تسعى إليــه، ولم تستطع أن تتخلص من طـيشها ولم تواتهــا حكمة التريث إلا قليلا فصباحا مع هاتف الصباح ومساء مع هاتف المساء.

وكنا نرى أن قــبائل تميم ـ وتغلب ـ وحـنظلة وأسد وغطفــان وبنو ضبــة ـ الذين كانوا وراء حرب الردة والمتنبئين، هم الناكثون لبيــعة الإمام على والخارجون على عثمان ووحدة الجــماعة الإســلامية. . و هم أنفــسهم الذين انخرطوا مع حـركة عائشــة وطلحة والزبير. وكان المؤرخون رصدوا تلك القبائل أيضا التى انشقت على الخلافة الشرعية ولم

يثبتوا عـلى رأى بل هم أنفسهم الذين وضعوا النواة الأولى للخروج والخـارجية منذ أن شقوا عصا الطاعة على الشرعية ثم شرعية الإمام على. وتلك القبائل التى انضمت إلى جيش عائشة وطلحة والزبير. ثم أخيرا كسرت الحسين، وهى القبائل التى لحقت بالحسين وهو فى طريقه إلى الكوفـة ظنا منها أن الخلافة دانت له ولما رأوا جيش ابن زياد مـقبلا أدبروا فى أفناء الصحراء قبائل شتى.

قبـائل البصـرة التى انضمت إلى عائشـة وطلحة والزبيـر هى: تميم، حنظلة، بنو عمـرو بن تميم الرباب وهم: تَيْم، وعَـدِىّ، وثور، وعُكْل، وبنو عبـد المناف بن أد بن طانجة بن إلياس بن مُضَر، وضبة بن أد بن طانجة، وزيد مناة، ومعظم آل خندف، وكان على رأس هؤلاء هلال بن ويع بن دارم وأبو الجربـاء وهو من بنى عثمان بن عـمرو بن تميم، والمنجاب بن راشد[1].

كما انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قـبيلة الأزد وكان عليها مسعود وزياد ابنا عـمرو، وصـبـرة بن شيـمان الحـدانى وقـيل عـبد الرحـمن بن جـشم بن أبى حنين الحمامى[2].

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير أفناء قيس بن سليم وعامر وباهلة[3].

وانضم إلى عائشة وطلحة والزبير قسم بن ربيعـة وكان عليها عبد الله بن مالك، وكان على بكر بن وائل مالك بن مسمع[4].

وانضم إلى عـائشة وطلحـة والزبير: خـزاعة وكـان عليهـا عبـد الله بن خلف الخزاعى، وقضاعة وعليها عبـد الرحمن بن جابر الراسبى وقيل الرعبى الجمى، ومذحج الربيع وعليـها ابن زياد الحارثى، والشـواذب وعليها رجـلان، وعلى مضـر الخربت بن راشد، وعلى سائر اليمن ذو الأجرة الحميرى. كما انضم إلى معسكر عائشة هوازن وبنو سليم، والأعجـاز وعليها مُـجَاشِعُ بن مسعـود السلمى، وعلى عامر زفـر بن الحارث، وعلى غطفان أعصر بن النعمان الباهلى. وانضم إليها أيضا قواد من بنى ناجية[5].

(١) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٥٠٣، ٥٠٤.
(٢) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (قالوا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٥٠٤، ٥٠٥.
(٣) انظر حول ذلك البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٢٣٧ .
(٤) انظر حول ذلك: البلاذرى، أنسـاب، جـ ٢ ص ٢٣٨. ابن أعثم، الفتوح. جـ ٢ ص ٢٩٣ - ٢٩٤.
(٥) الطبرى، تاريخ، جـ ٤ ص ٥٠٥، جـ٤ ص٥١٦، ٥١٧ (أبو مخنف) الدينورى، الأخبار ص ١٤٧. الإمامة، جـ١ ص ٨٢. قبائل البصرة: ماسينيون، خطط البصرة وبغداد ص ١٦، ٢٦.

انضمت إلى عائشة وطلحة والزبير قوات من كنانة وبنى أسد.

ويبدو من أسماء قادة الخوارج أن معظمهم ينتمى إلى القبائل العربية الشمالية التى أسلمت متأخرة ولم يكن لها تراث حضارى فى الماضى. وظل أفرادها يمثلون النزعة البدوية التى يمكن استثارة الروح القبلية فيها ضد السلطة المركزية لقريش بالمدينة. أى من القبائل التى لا تقبل الخضوع بسهولة والتى لم تتأصل العقيدة فى نفوسهم وتتعمق مثل غيرهم بعد. فتميم من أكبر القبائل المضرية شأنا وعددا كأنها دخلت الإسلام متأخرة وأتت الرسول ﷺ فى آخر الوفود. كما أنها ارتدت بعد وفاته وادعى أشخاص منها النبوة مثل سجاح، وقيل: إن شبث بن ربعى التميمى[1]، أحد زعماء الخوارج كان مؤذنا لسجاح حين ادعت النبوة.

وقد خذل بنو تميم على بن أبى طالب فى معركة الجمل وحاربوا معه فى صفين ولكنهم ما لبثوا أن صاروا من الخوارج[2] ويبدو أن قبيلة تميم كانت من القبائل التى استهدفتها السبئية واستغلتها فى مخططاتها ضد الدولة الإسلامية.

لقد وجدت السبئية فى تميم بذلك أرضا خصبة لزرع ما تريد من أفكار ومبادئ حسب مخططهم. ومن الجدير بالذكر أن السبئية لم تكن لها مبدأ ثابت سوى القضاء على سيادة الإسلام. فقد كانت تجعل لكل مرحلة ما يناسبها من أقوال وفلسفات.

وبانقضاء حرب الردة، رجعت القبائل العربية التى أعلنت العصيان بعد وفاة النبى ﷺ والتى لم تخضع إلا بعد جهد ومشقة، إلى حظيرة الإسلام، وجنت من ذلك فوائد كثيرة عوضتها عن ضياع استقلالها المطلق. ومن ذلك الحين لم يعد يسمح لدين غير الإسلام بالحياة ضمن شبه جزيرة العرب نفسها. وهكذا نقل عمر اليهود، الذين سمح محمد ﷺ لهم بالبقاء فى خيبر، إلى سورية وصار كل من يعتنق الدين الجديد عربيا بنعمة الإسلام، فهو يلتحق بإحدى القبائل كمولى من مواليها، ولكن أحدا، أول الأمر، لم يكن يتوقع أن يعتنق غير العرب الإسلام. وعلى هذا الأساس كان الغرض من الحرب المقدسة (الجهاد) نشر الإسلام.

ومن هنا انتظمت الإمبراطورية - التى نشأت بعد وفاة النبى ﷺ عن الدولة القومية التى رفع هو قواعدها - طبقتين متميزتين دينيا، وبالتالى سياسيا. فقد كان

(١) ابن قتيبة: دار المعارف ص ٤١٥.

(٢) نصر بن مزاحم: وقعة صفين ص ٥١٣. تاريخ اليعقوبى: مجلد ٢ص ١٩٠.

المسلمون، بوصفهم الحكام، يؤلفون أيضا طبقة المحاربين. والواقع أن النظام العربى احتل مكان الصدارة فيه الأساس القبلى أو العشـيرة مما كان له أثره السيئ على العرب أنفسهم إذ كانوا يدخلون المعارك تحت ألوية القبائل.

وهكذا، وبعد أن خضعت بلاد العرب كلهـا فى هذه الفترة القصيرة من الوقت، نسبيا، لسلطة الإسلام، صار فى مقدور أبى بكر أن ينفذ خطة النبى الأخيرة، تلك التى تقضى بنشر الإيمان فى ما وراء حدود الوطـن الأم؛ ذلك بأنه كان عليه أن يوجد فرصة من النشاط الخارجى لهذه القوى التى كانت فى الماضى على استعداد دائم لأن تتفانى فى منازعات لا نهاية لها.



الفصل الثانى

قوى المدينة
الخروج على الشرعية

١ - روح الاستياء العام:

مع خلافة عثمان انتهى الأمويون إلى القمة؛ لأن عهده كان فى الواقع عهد أسرته وعشيرته. فلقد ترك تصريف الشئون لنسيبه مروان فى المدينة، وعين أقرباءه حكاما على جميع الإمارات الرئيسية. ومن هنا رأى أصحاب النبى ﷺ القدماء - الذين أثروا ثراء ضخما فى أثناء الفتوح والذين اقتنوا بالإضافة إلى أملاكهم الأصلية فى مكة أملاكا مثلها فى الطائف وأراضى واسعة أيضا - أن مكانتهم القديمة توشك أن تضيع على يد هذه الأسرة التى تسعى إلى أن تسيطر على كل شىء. ولقد حاولوا بادئ الأمر أن يحرروا الخليفة من سلطان أسرته فباءت محاولاتهم بالإخفاق. وعندئذ أعلنوا الخصومة شخصيا. وما هى إلا فترة قصيرة حتى وجد عثمان نفسه فى المدينة وليس حوله إلا نفر من الأصدقاء، وبخاصة بعد أن وقفت عائشة «أم المؤمنين» فى جانب خصومه. كذلك استطاع أعداء الخليفة أن يستثيروا العرب فى الولايات، فانقلبوا على عثمان[١].

واستطاع خصوم الخليفة فى المدينة، وعلى رأسهم على وطلحة والزبير، أن يفيدوا من الاستياء العام، ومع أنهم كانوا يعتبرون من واجبهم الدفاع عن إدارة عثمان فلم يجرؤوا على النضال ضده، بل تركوا هذه المهمة البغيضة لأهل الأمصار.

والحق أن روح الاستياء كانت تعبر عن نفسها بين الفينة والفينة من طريق الهجوم

---

(١) العرب والخلافة العربية س . إيليا بيف ترجمة د. أنيس فريحة .

على صندوق المال الإقليمى وسلبه، ومن طريق الاحتجاج على إرسال الأموال الفائضة إلى العاصمة، بوجه خاص.

صحيح أن عمر كان قد أحدث هذا النظام من قبل أن يجرؤ أحد على رفضه وعصيانه. ولكن عثمان كانت تعوزه شخصية سلفه القوية، وفى نفس اليوم الذى صرع فيه عثمان، بايع الناس عليا بالخلافة فى مسجد (المدينة) ولكن طلحة والزبير اللذين كانا حتى تلك اللحظة يعملان فى ما يظهر لمصلحة على، تخلفا عن مبايعته، وحمّلاه تبعة مقتل عثمان، ثم إنهما لحقا بعائشة، إلى مكة. وكانت أم المؤمنين لا تزال تضمر لعلى عداءها القديم، فما كادت تعلم أنه قبل البيعة حتى دعت المؤمنين إلى الثأر للرجل القتيل. فاستجاب لدعوتها الأمويون وأناس آخرون شاركوها فى كره على ليس غير. وعزموا على التقدم إلى البصرة حيث كانت له منذ زمن طويل، وما تزال، صلات واسعة جدا. حتى إذا انقضت أربعة أشهر على مقتل عثمان خرج المتآمرون، بعد أن تجمعوا فى معسكر على الطريق العامة المؤدية إلى العراق.

ولم يكادوا يبلغون البصرة حتى فتكوا غدرا بأميرها الذى آثر أن ينتظر الأمر من علي على أن ينضم إليهم. حتى إذا وفقوا إلى الاستيلاء على المدينة (البصرة) نشب الخلاف بين طلحة والزبير على إمامة الناس فى الصلاة، ولكن عائشة حسمت هذا الخلاف مؤقتا بأن سمت لهذه المهمة ابن اختها عبد الله بن الزبير.

٢- السيدة عائشة والدعوة الظالمة: الثأر لعثمان:

وكانت عائشة قد علمت بمقتل عثمان وهى عائدة إلى المدينة بعد أداء مناسك الحج، فرجعت إلى مكة[١]، واستأذن طلحة والزبير عليا، بعد مقتل عثمان بأربعة أشهر، للذهاب إلى مكة لأداء العمرة، فأذن لهما[٢]، وانضما هناك إلى عائشة، وشكلوا جميعا حركة هدفت إلى رفع الظلم الذى حاق بالخليفة عثمان.

وقد تناولت المصادر أهداف هذه الحركة بما يعكس نظرة ومفهوم كل منها لأحداث الفتنة وتطوراتها، فقد أورد الطبرى قول عائشة: «إن الغوغاء من أهل الأمصار ونُزّاع القبائل غزوا حرم رسول الله ﷺ وأحدثوا فيه الأحداث، وآووا فيه المحدثين واستوجبوا فيه لعنة الله ولعنة رسوله ﷺ، مع ما نالوا من قتل إمام المسلمين بلا ترة ولا عذر،

(١) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى: القرن الأول ـ القرن الرابع الهجرى د. عدنان محمد فلحم.
(٢) البلاذرى. أنساب . جـ٢ ص ٢١٨.

فاستحلوا الدم الحرام فسفكوه، وانتهبوا المال الحرام، وأحلوا البلد الحرام، والشهر الحرام، ومزقوا الأعراض والجلود، وأقاموا فى دار قوم كانوا كارهين لمقامهم ضارين مضرين، غير نافعين ولا متقين؛ لا يقدرون على امتناع ولا يأمنون فخرجت فى المسلمين أعلمهم ما أتى هؤلاء القوم وما فيه الناس وراءنا، وما ينبغى لهم أن يأتوا فى صلاح هذا»[1]. وما إن وصلت إلى مكة حتى قصدت الحجر الأسود فسترت به، ودعت الناس إلى إنقاذ أهل المدينة، والنكال بالغوغاء[2]، وقالت: «إن عثمان قتل مظلوما، وإن الأمر لا يستقيم ولهذه الغوغاء أمر، فطالبوا بدم عثمان تعزوا الإسلام»، و«لعل الله عز وجل يدرك لعثمان وللمسلمين بثأرهم». ودعت الناس صغيرهم وكبيرهم إلى «معروف نأمركم به، ونحضكم عليه، ومنكر ننهاكم عنه، ونحثكم على تغييره». ودعت طلحة والزبير قائلة: «فأتمروا أمرا؛ ثم انهضوا إلى هذه الغوغاء. وقد حرض كلاهما الناس للنهوض «فيدرك بهذا الدم لئلا يبطل، فإن إبطاله توهين سلطان الله بيننا أبدا؛ إذا لم يفطم الناس عن أمثالها لم يبق إمامٌ إلا قتله هذا الضرب». وأشار الطبرى إلى دعوة عائشة وطلحة والزبير المسلمين إلى إعزاز الإسلام، وقتال المحلين[3]، وإصلاح أمر الله - عز وجل - وأمر رسول الله ﷺ، والدعوة إلى المعروف ونبذ المنكر[4]، وإشاعة الإصلاح، وإعادة الوحدة بين المسلمين، وترسيخ الاتفاق بينهم[5]. والثأر لعثمان، وإقامة الحد ضد القتلة من غوغاء أهل الأمصار، وعبيد أهل المدينة، ونزاع القبائل[6].
وأوضح الطبرى أن فكرة معاقبة قتلة عثمان هى مطلب عام قدمه أهل المدينة بعد توليه الخلافة مباشرة، إذ قالوا له: «يا على، إنا قد اشترطنا إقامة الحدود، وإن هؤلاء القوم قد اشتركوا فى دم هذا الرجل وأحلوا بأنفسهم»[7]. ويلاحظ أن فكرة تنفيذ إقامة الحدود على كل من اشترك فى يوم عثمان قد أخذت تطبيقها الفورى بعد استيلاء طلحة والزبير وعائشة على البصرة[8].

---

(١) الطبرى . تاريخ . جـ٤ ص ٤٦٢.
(٢) المصدر السابق ص ٤٤٨.
(٣) المصدر السابق ص ٤٥١ .
(٤) ن.م.جـ٤ ص ٤٦٢ (سيف)، جـ٤ ص ٤٧٢ (سيف)، جـ٤ ص ٤٧٣ (سيف).
(٥) اليعقوبى، تاريخ، جـ ٢ ص ١٨٠.
(٦) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٢١.
(٧) الطبرى . تاريخ، جـ٤ ص ٤٣٧ (سيف).
(٨) ن . م جـ ٤ ص ٤٧٢ (سيف).

وكان الهدف الرئيسى وراء خروج عائشة وطلحة والزبير هو معاقبة قتلة عثمان، والانتصار لأهل المدينة، وتطبيق مبادئ الإسلام وحدوده. أما ما يقال عن الأهداف الخاصة لخروجهم هو محض افتراء وتأويل لا يمكن القبول به. والروايات التى أشار البلاذرى والطبرى إلى أن الطمع المادى هو من الأسباب التى دفعت طلحة والزبير للخروج على علي، إذ سألهما رجل فى البصرة عن أسباب خروجهما؟ فقالا: «بلغنا أن عندكم دراهم فجئنا نشارككم فيها»[1] وأكدت روايات أبى مخنف والمدائنى على أن جُل اهتمام طلحة والزبير حال وصولهما البصرة كان الحصول على الأموال من بيت مال المسلمين بأى وسيلة[2]. ويبدو واضحا أن الهدف العام منها هو إدانة خروج طلحة والزبير على علي واعتبار الطمع سببا رئيسيا له.

وإن كنا نرى أن الطمع فى الولاية والخلافة كان من أسباب خروج طلحة والزبير على علي، لأنهما سألاه أن يوليهما البصرة والكوفة، لكنه رفض قائلا: «تكونان عندى فأتجمل بكما فإنى وَحِشٌ لفراقكما»[3]. وتذهب روايات عديدة إلى تقدير علاقة الإمام علي بصاحبيه كل مذهب إلى علاقة يشوبها شىء من التوتر وشىء من المهادنة وشىء من الملق السياسى؛ فرواية تذهب إلى أن عليا «ولى طلحة: اليمن، والزبير: اليمامة والبحرين، فلما دفع إليهما عهديهما قالا له: وصلتك رحم! فقال: لولا ما ظهر من حرصكما لقد كان لى فيكما رأى[4]، وأضاف «أنتما شريكاى فى القوة والاستقامة، وعوناى على العجز والأود»[5]. ورواية تذهب إلى إبراز الرغبة الجامحة عند طلحة والزبير للوصول إلى السلطة بأى ثمن وأى وسيلة أنهما قالا بعد قتل عثمان: «هذا جزاؤنا من علي قمنا له فى أمر عثمان، حتى أثبتنا عليه الذنب، وسببنا له القتل، وهو جالس فى بيته وقد كفى الأمر، فلما نال بنا ما أراد فعل دوننا وقدم غيرنا».

---

(١) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٧٠(شيبان بن فروخ)، جـ٢ ص ٢٧١ (زهير بن حرب): الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٧٥.

(٢) البلاذرى . أنساب، جـ٢ ص ٢٢٧، ٢٢٨ (أبو مخنف) (روح بن عبد المؤمن)، الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٧٤ (المدائنى). انظر للمقارنة: ابن أبى شيبة، المصنف، جـ٨ ص ٧١٨ ـ ٧١٩؛ ابن أبى الحديد، شرح، جـ٧ ص ٤١ ـ ٤٣؛ حمدان، الخلافة، ص ١١٥ ـ ١١٦.

(٣) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى ص ٢٠٨.

(٤) اليعقوبى، تاريخ، جـ ٢ ص ١٨٠، الإمامة، جـ ١ ص ٥٤.

(٥) المصدر السابق.

وروى بعضهم أن عليا رفض اقتراحا قدمه المغيرة بن شعبة له لتولية طلحة: اليمن، والزبير: البحرين[1].

٣ - طلحة والزبير يتغيران على الإمام علي:

كما اعترفا بمنتهى الصراحة لعثمان بن حنيف عامل علي على البصرة، عندما سألهما عن أسباب خروجهما: «لم نر أولى بها منا، وقد صنع ماصنع»[2].

ويسوق البلاذرى روايات تشير إلى وجود منافسة داخلية بين كل من طلحة والزبير على الإمرة، بلغت أوجها فى اختلافهما على إمامة الصلاة، فى أثناء توجههم إلى البصرة، مما دفع عائشة إلى الفصل بينهما، بأن أمرت ابن أختها عبدالله بن الزبير بالصلاة، وعلق أحد أصحابهما، ويدعى معاذ بن عبد الله على ذلك بقوله: «والله لو ظفرنا لافتتنا ما خلى الزبير بين طلحة والأمر، ولا خلى طلحة بين الزبير والأمر»[3].

كما يشير إلى أبعاد التنافس بين طلحة والزبير حين أشار إلى كتمان الزبير نبأ تسلمه رسالة من معاوية، دعاه فيها إلى القدوم إلى الشام لمبايعته، وبعد تسرب الخبر إلى طلحة وعائشة، أشعرت عائشة عبد الله بن الزبير بغضبها، فلام بدوره أباه وقال له: «أتريد أن تلحق بمعاوية ؟ فقال: نعم، ولم لا أفعل وابن الحضرمية ينازعنى فى الأمر؟»[4]، وقد تنبهت عائشة إلى هذه المنافسة، فقالت: «لا تبايعوا الزبير على الخلافة ولكن على الإمرة فى القتال، فإن ظفرتم رأيتم رأيكم»[5].

ساء الناس خروج عائشة على الوالى الشرعى فآذت المشاعر المؤمنة وأطلقت الألسنة من حياء الإيمان تلوك أعراض الصحابة وجددت خصومات جاهلية كان الإسلام قبحها وشجعت مرضى القلوب والنفوس على أن يسفكوا الدماء الطاهرة، وكان أجدر بها أن تتخذ سبيلها فى حل ما بدى لها من المشاكل والتفاوض مع الإمام علي، وكان الظاهر من مراجعتها أمرين: إقامة الحدود على قتله عثمان ورفع الظلم عن أهل المدينة. وحذرهم القعقاع بن عمرو من تفاقم الأوضاع فى البصرة بعد قصاصهم من قتلة

(١) المصدر السابق، جـ٢ ص ١٨٠.
(٢) ن.م، جـ ٤ ص ٤٦٩ (الزهرى).
(٣) البلاذرى، انساب، جـ٢ ص ٢٢٨.
(٤) البلاذرى . أنساب، جـ٢ ص ٢٥٧، ٢٥٨ (خلف بن سالم). انظر للمقارنة: ابن أبى الحديد شرح، جـ١ ص ٢٣١ .
(٥) البلاذرى، انساب، جـ ٢ ص ٢٢٩ (احمد بن إبراهيم) جـ٢ ص ٢٦ (بكر بن الهيثم).

عثمان، ودعاهم إلى مبايعة على ومساعدته على ضبط الأمور، وإعادة الوحدة إلى المسلمين، وقال لهم: «وكونوا مفاتيح الخير كما كنتم تكونون، ولا تعرضونا للبلاء، ولا تعرضوا له فيصرعنا وإياكم».

وهناك روايات تقف مع الإمام على وتشدد على مبايعته وتحتج على خروج عائشة وطلحة والزبير فى مكة، وخاصة من قبل زوجات الرسول ﷺ، وفى مقدمتهن أم سلمة التى نصحت عائشة بالإقامة فى مكة، وعدم الخروج إلى البصرة[1]. ودعت المسلمين إلى «تقوى الله، وإن كنتم تابعتم عليا فارضوا به، فوالله ما عرف زمانكم خيرا منه»[2]. رفض عبد الله بن عمر الخروج مع طلحة والزبير، حيث قال لهما: «إنى امرؤٌ من أهل المدينة، فإن يجتمعوا على النهوض أنهض، وإن يجتمعوا على القعود أقعد، فتركاه ورجعا»[3]. قوله لهما: «وأنتما بالمدينة خير لكما من البصرة، والذل خير لكما من السيف، ولن يقاتل عليا إلا من كان عليٌّ خيرا منه»[4]. كما نصحهما عدد من الصحابة بعدم الخروج، وذكروهما بمواقفهما المعارضة لعثمان «كان منكما فى عثمان من التجليب والتأليب مالا يدفعه جحود، ولا ينفعكما فيه عذر»[5].

أما فى المدينة، فإن الروايات لا تتحدث عن ردود أفعال تشير إلى التطورات التى تحدث فى مكة، إلا بعد قرار عائشة وطلحة والزبير المسير إلى البصرة لكن الإمام عليا لم يلق بالا إلى خطورة خروج عائشة وطلحة والزبير فهى من وجهة نظره لا تخرج عن كونها حركة احتجاج يذيبها الحوار ويمنع شراستها وشيجة القربى والصحبة فقال معلقا: «وسأصبر ما لم أخف على جماعتكم، وأكف إن كفوا، وأقتصر على ما بلغنى عنهم»[6]. وأكد «إن الله عز وجل جعل لظالم هذه الأمة العفو والمغفرة، وجعل لمن لزم الأمر واستقام الفوز والنجاة، فمن لم يسعه الحق أخذ بالباطل»[7]. وعندما وصلته أنباء

(١) الإمامة، جـ١ ص ٥٩ (ذكروا)، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٩٦، ٩٨.
(٢) البلاذرى، أنساب جـ٤ ص ٢٢٤.
(٣) الطبرى، تاريخ جـ٤ ص ٤٦٠ .
(٤) الإمامة. جـ١ ص ٦٤ (ب.م).
(٥) ن.م. جـ١ ص ٦٤ (ب.م) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٧٢، ٧٣، ٧٥، ٧٦.
(٦) الطبرى . تاريخ . جـ٤ ص ٤٤٦.
(٧) ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٩٩.

عزمهم على الخروج إلى البصرة، قرر الخروج إليهم لإقناعهم بعدم المسير[١]، حرصا على عدم إصابة الإسلام بالوهن.

وكان الهدف الأساسى لخروج على: هو مواجهة معسكر عائشة وطلحة والزبير وقتاله، باعتباره معسكر الناكثين لبيعتهم[٢]. والخارجين على الإجماع.

وكانت النتيجة الأولى لمقتل عثمان، وخروج على من المدينة؛ انتقال مقر الخلافة بعيدا عنها، وصار الحكم فى الخلافة إلى السيف، وانتقلت قوة الدولة إلى الأمصار؛ إذ هاجرت غالبية القبائل إلى دار الهجرة، وانتقل مركز الثقل فى جزيرة العرب من وسطها إلى أطرافها، وقد خطا أهل المدينة أنفسهم الخطوة الحاسمة فى ذلك، حين تركوا أهل الأمصار يسيطرون على مقدرات الأمور فى مدينتهم، الأمر الذى دل على بداية تنازلهم عن سيادتهم الشاملة[٣].

واتجه على نحو ذى قار، واتخذها مركزا لتجمع قواته[٤]. بهدف الاتصال مع الكوفة، وكسبها إلى جانبه، فهى فى نظره مستقر أعلام ورجال العرب[٥]، وكتب لأهلها «إننى قد اخترتكم على الأمصار وإنى بالأثرة»[٦]. ودعاهم إلى نصرته لإظهار الحق[٧]. وإصلاح أوضاع الأمة «فكونوا لدين الله أعوانا وأنصارا، وأيدونا وانهضوا إلينا فالإصلاح ما نريد لتعود الأمة إخوانا»[٨].

وتتباين المصادر فى ذكر أسماء الرسل ومكان إرسالهم، فتذكر أنّ عليا أرسل من الرَّبَذَة عدة وفود لاستنهاض أهل الكوفة، واستكشاف مواقفهم منه، حيث أرسل كلا من محمد بن أبى بكر، ومحمد بن عوف[٩]، وقيل محمد بن جعفر[١٠]، ثم هاشم ابن عتبة بن أبى وقاص[١١]، إلا أنهم فشلوا جميعا فى مهامهم.

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٦ .

(٢) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ١٣٨ . الطبرى، تاريخ، جـ ٤ ص ٤٦٦، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص٩٩، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣

(٣) المصدر السابق ص ٢٣٦. (٤) المصدر السابق، ص ٢٣٠، الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٨١.

(٥) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٥٥. ابن أبى الحديد . شرح، جـ٢ ص ١٨٧.

(٦) المصدر السابق، ص ٤٧٧. (٧) المصدر السابق، ص ٤٧٧. المؤرخون العرب والفتنة الكبرى .

(٨) المصدر السابق ص ٤٧٨، انظر للمقارنة: ابن أبى الحديد، شرح، جـ٢ ص ١٨٧.

(٩) المصدر السابق، ص ٤٧٧ (المدائنى).

(١٠) ن .م. جـ٤ ص ٤٧٨ (سيف).

(١١) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٣٤، ٢٣٥ .

٤ - وكانت موقعة الجمل: صدعا لا يلتئم:

ولم يكن الإمام على مجانبا للصـواب حين ظن كل الظن أن التلاقى على كتاب الله حتما مقضيا وأمرهما محسوم بالصفح الجميل وذلك حين خندق طلحة والزبير فى منطقة الزابوقة فى البصرة، وهما يقولان: «خرجنا للصلح»[١]، ويعلنان رفضهما اللجوء إلى الحرب بشدة «إنا وهم مسلمون، وهذا أمر لم يكن قبل اليوم، فينزل فيه قرآن، أو يكون فيه من رسول الله ﷺ سنة، إنما هو حدث»: وأضافا «أمر ما بيننا وبين إخواننا، هو أمرٌ ملتبس» «نحن نرجو الصلح إن أجابوا إليه أجبنا، وإلا فإن آخر الدواء الكى»[٢]، فما دار بخاطر الإمام هو عينه ما حبسته خواطرهما، عبر عن تلك الخواطر الإمام على بقوله: بان لنا ولهم أن الإصلاح الكف عن هذا الأمر، فإن بايعونا فذاك، فإن أبوا وأبينا إلا القتال فصدع لا يلتئم.

وبعد إخفاق السفارة مع طلحة والزبير نشبت المعركة، فأما الأول فجرح جرحا أودى بحياته، وأما الثانى فقد أخرج من الميدان بتبكيت الضمير والندامة، وقتل فيما هو يفر، وتوقفت المعركة أمام الجمل الذى كانت تمتطيه عائشة وتستفز من على ظهره المقاتلين. حسب العادة العربية العريقة، ولم تتم الغلبة لعلى إلا بعد أن عقر الجمل، الذى خلع اسمه على هذه المعركة، فى ٤ كانون الأول سنة ٦٥٦م، وعرضت عائشة على المنتصر تأييدها، ولكنه رفضه، ثم إنها توفيت فى ١٣ تموز سنة ٦٧٨ م. وهى فى السادسة والستين من عمرها، واعترف لعلى بالخلافة فى جميع أنحاء العراق فظل فيه وجعل الكوفة مقرّه.

---

(١) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٩٢.

(٢) أنساب ج٢ ص ١٤٠ .



الفصل الثالث

قوى الشام المضادة
معاوية وعمرو بن العاص

١ - غفلة أهل الشام:

وورث معاوية بن أبى سفيان، رأس البيت الأموى وأمير سورية، مهمة المطالبة بدم عثمان. بيد أنه كان عليه، قبل أن يحقق هذه المهمة أن يبعد عن بلاد الشام الخطر البيزنطى الذى لا يزال يتهددها.

وكانت الشام منذ أول الأمر تربة غير صالحة لدعوة العلويين؛ ويحكى أن أبا عبدالرحمن النسائى (٢١٥ ــ ٣٠٣) دخل دمشق، وكان يتشيع، فسئل عن معاوية وما روى من فضائله؟ فقال: أما يرضى معاوية أن يخرج رأسا برأس حتى يفضل؟ وفى رواية أنه قال: ما أعرف له فضيلة إلا «لا أشبع الله له بطنا»، فما زالوا يدفعونه حتى أخرجوه من المسجد وداسوه ثم داسوه، ثم حمل إلى الرملة، فمات وهو منقول بسبب ذلك الدوس وكان أهل طبرية ونصف نَابُلسٍ وقدس وأكثر عمان شيعة.

ويذكر ابن إسحاق صاحب السيرة النبوية أنه كان يتشيع ويقدم عليا على عثمان، وكان يدخل فى كتابه أشعارا للشيعة. ويروى أيضا أن عوانة بن الحكم (المتوفى عام ١٤٧هـ ــ ٧٦٤م) كان يضع أخبارا لبنى أمية. وعامة أخبار المدائنى مأخوذة عنه[١]. وإذا كان أحد الشعراء حوالى عام ٣٠٠ هـ ــ ٩١٢م يعزو أساطير الشيعة إلى قلة معرفتهم بالأخبار[٢]. فإن المقدسى يحكى لنا أنه كان يوما بجامع واسط، وإذا برجل قد اجتمع

---

(١) الإرشاد (معجم الأدباء) جـ٦ ص ٩٤، ٤٠٠. Goldxlher:"Kultur der Gegenwart". (?)

(٢) هو الشاعر الملقب بالخبز ارزى حيث يقول:

من غابت الأخبار عنه، ودينه ∴ دين الإمامة، قال بالأوهام

انظر مروج الذهب جـ ٨ ص ٣٧٤.

عليه الناس، فدنا منه، فإذا هو يروى حديثا بسنده عن النبى عليه الصلاة والسلام: إن الله يدنى معاوية يوم القيامة، فيجلسه إلى جنبه، ويغلفه بيده، ثم يجلوه على الناس كالعروس، فقال له المقدسى: بماذا؟ قال: بمحاربته عليا، فقال له المقدسى: كذبت يا ضال! فقال: خذوا هذا الرافضى؛ فأقبل الناس عليه، فعرفه بعض الكتبة ودفعهم عنه[1]، وكذلك حكى المقدسى أنه كاد يبطش به لأنه أنكر على رجل من عباد أصفهان قوله: إن معاوية نبى مرسل[2]. على أن عليا لم يصبح موضع النزاع، ومضى الوقت الذى نجد فيه خليفة عباسيا مثل المتوكل (٢٢٣ ـ ٢٤٧هـ = ٨٤٧ ـ ٨٦١م) شديد البغض لعلىّ ولأهل بيته، حتى كان من جملة ندمائه رجل يشدّ على بطنه تحت ثيابه مخدة، ويكشف رأسه وهو أصلع، ويرقص، ويقول: قد أقبل الأصلع البطين أمير المؤمنين، يعنى عليا ـ رضى الله عنه، والمتوكل يشرب ويضحك[3].

وفى سب الإمام على: يروى البلاذرى رأى الأمويين فى سب على:

قال مَرْوان لعلى بن الحسين (زين العابدين) ما كان أحد أكف عن صاحبنا من صاحبكم، قال فلم تشتمونه على المنابر ؟ قال: لا يستقيم لنا هذا إلا بهذا.

ذكر المسعودى فى كتابه (مروج الذهب) شيئا عن غفلة أهل الشام عن البيت العلوى فى ثوب طرف ونوادر وكنت قرأتها على هذا المحمل الفكاهى لكن قرأت نظائرها فى الجاحظ «فى رسائله، وفى كتابه (الحيوان) وفى (البدء والتاريخ) للمقدسى ذكرنا طرفا منها مما جعلنا نعيد النظر فيما كتبه المسعودى وحملناه محمل الجد ـ ورأينا كثيرا من الأدباء الظرفاء يعمدون إلى نقد المجتمع يصوبون إليه سهامهم فيصيبونه فى الصميم بسهام دقيقة من غير أن يقعوا تحت طائلة الغدر السياسى»ومثل هذا الأدب يظهر فى فترات القهر والعسف السياسى يمر بالأذن أدبا فكاهيا يشيع البهجة فى النفس وتطرب له الأسماع لكنه هو السم الزعاف بعينه. لذلك نظرنا إلى تلك الطرائف على أنها نقد اجتماعى يصور بلاهة أهل الشام وقسيم من العراق.

قال المسعودى: وذكر بعض الأخباريين أنه قال لرجل من أهل الشام من زعمائهم

(١) المقدسى ص ١٢٦، وكان من أثر هذا النزاع فى أمر على ومعاوية أن معاوية صار له شأن دينى؛ ويحكى المسعودى (المروج جـ ٥ ص ١٤) أن قبر معاوية بالباب الصغير بدمشق، وهو يزار إلى هذا الوقت «وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلاثمائة، وعليه بيت مبنى يفتح كل يوم اثنين وخميس».

(٢) المقدسى ص ٣٩٩ ؛ والمنتظم ص ٦٠ ب .

(٣) أبو الفدا تحت عام ٢٣٦ (جـ ٢ ص ١٨٨) .

وأهل الرأى والعقل منهم: من أبو تراب [هذا] الذى يلعنه الإمـام على المنبر؟ قال: أراه لصا من لصوص الفتن.

وحكى الجاحظ قال: سـمعت رجلا من العامة وهو حاج وقـد ذكر له آل البيت يقول: إذا أتيته من يكلمنى منه؟ وأنه أخبره صـديق له أنه قال له رجل منهم وقد سمعه يصلى على محمد ﷺ: ما تقول فى محمد هذا ؟ أربنا هو[1]؟

وذكر ثمـامة بن أشرس قال: كنت مـارا فى السوق ببغداد، فـإذا أنا برجل عليه الناس مجـتمعون، فنزلـت عن بغلتى، وقلت: لشيء ما هذا الاجتـماع، ودخلت بين الناس، وإذا برجل يصف كـحلا معـه أنه ينجي من كل داء يصيب العيـن، فنظرت إليه فإذا عينه الواحدة برشـاء والأخرى مأسوكة[2]، فقلت له: ياهذا، لو كان كـحلك كما تقول نفع عـينيك ! : فقال لى: [يا جاهل] أهاهـنا اشتكت عيناى؟ إنما اشتكتـا بمصر، فقالوا كلهم: صدق، وذكر أنه ما انفلت من نعالهم إلا بعد كد.

وذكر لى بعض إخـوانى أن رجلا من العامة بمـدينة السلام رفع إلى بعض الولاة الطالبين لأصـحاب الكلام على جار له أنـه يتزندق، فسألـه الوالى عن مذهب الرجل؟ فقال: إنه مرجئ قدرى ناصبى[3] رافضى، فلما قصه عن ذلك قال: إنه يبغض معاوية ابن الخطاب الذى قـاتل علـى بن العـاص، فـقـال له الوالي: مـا أدرى على أى شيء أحسدك: على علمك بالمقالات، أو على بصرك بالأنساب ؟

وأخبـرنى رجل من إخواننا من أهل العلم، قـال: كنا نقعـد نتناظر فى أبى بكر وعـمر وعلي ومـعـاوية، ونذكـر ما يذكـره أهل العلم، وكـان قوم مـن العامـة يأتون فيستمعون منا، فقال لى ذات يوم بعضهم وكان [من] أعقلهم وأكبرهم لحية: كم تطنبون فى علي ومعاوية وفلان وفلان؟ فقلت له: فما تقول [أليس هو أبو فاطمة؟ قلت: ومن كانت فاطمة؟ قـال: امرأة النبى عليه الصلاة والسلام بنت عائشـة أخت معاوية، قلت: فما كانت قصة على ؟ قال: قتل فى غزوة حنين[4] مع النبى ﷺ.

وقد كان عبد الله بن علي حين خرج إلى الشام فى طلب مروان، وكان فى قصة مروان ومقتله ما قد ذكر، ونزل عبد الله بن علي الشام، ووجه إلى أبى العباس السفاح

(١) فى أ «ما تقول فى محمد هذا ؟ قال: ربنا هو».

(٢) فى أ «والأخرى موكوسة».

(٣) فى ب «مرجئ قدرى أباضى فضى».

(٤) فى أ «قتل فى غزوة خيبر».

أشياخا من أهل الشام من أرباب النعم والرياسة [من سائر أجناد الشام] فحلفوا لأبى العباس السفاح أنهم ما علموا لرسول الله ﷺ قرابة ولا أهل بيت يرثونه غير بنى أمية حتى وليتم الخلافة، فقال فى ذلك إبراهيم بن المهاجر البجلى:

أيها الناس اسمعوا أخبركم	عجبا زاد على كل العجب
عجبا من عبد شمس إنهم	فتحوا للناس أبواب الكذب
ورثوا أحمد فيما زعموا	دون عباس بن عبد المطلب
كذبوا والله ما نعلمه	يحرز الميراث إلا من تراب

وقد كان ببغداد رجل فى أيام هارون الرشيد متطبب يطبب العامة[1]. بوصفاته وكان دهريا يظهر أنه من أهل السنة [والجماعة] ويلعن أهل البدع ويعرف بالسنى تنقاد إليه العامة ؛ فكان يجتمع إليه فى كل يوم بقوارير الماء خلق من الناس، فإذا اجتمعوا وثب قائما على قدميه فقال لهم: معاشر المسلمين، قلتم لا ضار ولا نافع إلا الله فلأى شيء [مصيركم إلى] تسألوننى عن مضاركم ومنافعكم ؟ الجأوا إلى ربكم وتوكلوا على بارئكم حتى يكون.

يذكر صاحب البدء والتاريخ: وحلف ناس من أهل الشأم أنهم ما علموا لرسول الله قرابة غير بنى أمية وبعث عبد الله بن على فى أثره[2].

٢ - معاوية وبيعة الإمام علي:

وتحت ولاية معاوية رفض الشام مبايعة على، ورفض أهلها استقبال واليهم الجديد سهل بن حُنَيْف «إن كان عثمان بعثك فحيهلابك، وإن كان بعثك غيره فارجع»[3]، الأمر الذى دفع عليا إلى إرسال كتاب إلى معاوية طالبه فيه بالبيعة، فرفض ذلك واستعصى ووجه رجلا من بنى عبس، ثم أحد بنى رواحة قَبِيصَة، ودفع إليه صحيفة بيضاء، لا كتاب فيها سوى البسملة، ويقال: إنها كانت مختومة، وعنوانها من معاوية ابن أبى سفيان إلى على بن أبى طالب. وأثار هذا الرد لدى على شعورا بالمواجهة «يا أهل المدينة والله لتقاتلن أو ليأتينكم من يقاتلكم»[4]، إلا أن ذلك لم يمنع عليا قبل

(١) فى أ «تتبرك العامة بصفاته» . (٢) البدأ والتاريخ جـ ٦ ص ٧٤.
(٣) ن.م. جـ٤ ص ٤٤٢ (سيف) .
(٤) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٣ (سيف) انظر للمقارنة: ابن أعثم: الفتوح، جـ١ ص ٨٠، ٨١، ٩٢.

توجـهه إلى العـراق من الاستـمرار فى إرسـال كتب إلى مـعاوية مناه فـيهـا، وهدده، وتوعده، إلا أن محاولاته كانت بلا جدوى[1].

وذكر البلاذرى أن عليا أراد أن يرسل صـبيحة مقتل عثمان عـبد الله بن عمر إلى معـاوية ليطالبه بالبـيعة، فـرفض قائلا: «هذا أمـر لم أكن فى أوله ولا آخره[2]. كما رفـض عبـد الله بن عبـاس اقتــراحا لتسـلم ولاية الشام[3]. لم يكن معاوية فى رده يبتـغـى وجـه الحـق إنمـا كان مناورا ريثمـا تدلهم الأمور أكثـر مما هى عليه وتأخـذ المعـارضة قوتها المسلحة ويكون بأسها شديدا فهو كان فى أولها وفى آخرها.

وأفرط مؤرخـو الفتنة الكبرى فكانوا: أشد بـغضا لأهل الشام لعدم تعـاطفهم مع بيعة الإمام على وأشدهم عليه بأسا فـأطلقوا عليهم ألسنة حدادا تلعنهم بأوصاف تدينهم فهم معـسكر البغاة[4] والقاسطون[5] والطلقاء والمؤلـفة قلوبهم[6]، ومحبـو الدنيا[7]، والسلطة والحكم والمال[8]، والمفسدين[9] والسفـهاء[10] والظالمون[11]، والمحلون[12]،

(١) البـلاذرى . أنسـاب، جـ٢ ص ٢١١، ٢١٢، (أبو مـخنف)، جـ٢ ص ٢١٢(خلف بن سـالم)، جـ٢ ص٣٤٠ (هشام بن الكلبى)، الإمامـة، جـ١ ص ٥١ (ب.م)، جـ١ ص ٨٧، ٨٨ (ذكروا)؛ الطبرى، تاريخه، جـ٤ ص ٤٤٣، ٤٤٤ (سيف). PETERSEN."Ali Muawiyah". PP.164,177.

(٢) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٢٠٩.

(٣) ن . م. جـ ٢ ص ٢٠٨ (أبو مخنف).

(٤) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ١٦٨.

(٥) المصـدر السـابق ص ١٢١. الطبـرى، تاريخ، جـ٥ ص ٣٨، الجـاحظ، رسـائل الجـاحظ، رسـالة فى الحكمين، ص ٣٨٤، ٣٨٥.

(٦) الإمـــامـــة، جـ١ ص ٥٧(ذكـــروا)، جـ١ ص ٩٨ (ذكـــروا)، جـ١ ص ١٠٣ (ذكـــروا)، جـ١ ص١١٢(ذكـروا)، جـ١ ص ١٤ (ذكـروا)، جـ١ ص ١١٧(ذكـروا)، جـ١ ص ١٣٥(ذكـروا)، جـ١ ص١٦٥ (ب.م) ؛ انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٧) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٧٣.

(٨) المصدر السابق ص ٢٨٣. الطبرى تاريخ، جـ٥ ص ١٨.

(٩) الطبرى، تاريخ، جـ٤، ص ٤٤٥.

(١٠) ن .م . جـ ٤ ص ٥٤٧ (أبو مخنف) . انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص١٦٤.

(١١) البـلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٣٨ (أبو مـخنف)، جـ٢ ص ١٥٩(قـالوا)، جـ٢ ص ٢٩٤، ٢٩٥ (أبو مخنف)، جـ٤ ص ١٢١ (قالوا)؛ اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ٣٠١؛ الإمامة، جـ١ ص ١٠٦(ذكروا)؛ الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص ٧٨ (أبو مخنف)، جـ٥ ص ١٠٣(أبو مخنف).

(١٢) اليعقوبى، تاريخ جـ ١ ص ١٥٩(ب. م).

وأصحاب الباطل[1]، ومفرقى الجماعات[2]، وأولـــياء الشياطين[3]، والملحدون[4]، والطغاة[5]، وشراب الخمر[6]، وأوثان الجاهلية[7]، والفجرة[8]، والمرتشين[9]، وهى اتهامات صريحة تشكك فى إسلامهم، وتحط من قدرهم.

قد يكون الدافع الذى دفع بالمؤرخين إلى قذف معسكر معاوية بخسة المواقف ليس تشنيع المؤرخـين للبيت العلوى أو العـباسى كمـا يذهب بعض النقاد؛ لأن القـول بهوى المؤرخين مع البـيت العلوى يطمس قضية الشـام مع الإمام على وإلا كيف نفهم امـتناعه عن البيعـة؟ وكيف نفسر حـمل السلاح عليه فى حرب صـفين؟ وكيف نفسـر التحكيم وإجلاس مـعاوية على سدة الخـلافة؟ لا شك أن الأوصاف التـى كالها المؤرخـون للشام صادفت مكانا لها فى جبلتهم ودانت سجاياهم الخسيسة، فالدافع وراء المؤرخين ليس هو التشيع العلوى إنما رأى تاريخى تأولوا له حديث عمار وهو كما ذكروا إقرار الرسول ﷺ لعمار بن ياسر بـأن الفئة الباغية ستـقتله «تقتل عمار الفئـة الباغية»[10]. هذا فى الوقت الذى أشار فيه البـلاذرى وصاحب الإمامة والسياسة والطبرى إلى تأكـيد معاوية على أن الفئة التى سـتجلب عمارا للقـتال. هى الفئة التى ستـقتله، وهى الفئة البـاغية[11] وهو تأويل يحمل عسرا شديدا.

---

(١) الإمامة، جـ١ ص ٥٩ (ب.م) انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٢) الطبرى، تاريخ، جـ٤ ص ٤٤٥(سيف)، انظر للمقارنة: الدينورى، الأخبار، ص ١٦٤.

(٣) ابن أبى الحديد شرح، جـ١ ص ٢٣٩.

(٤) البلاذرى، أنساب، جـ٤ ص ١٢١.

(٥) البلاذرى، أنساب، جـ٢ ص ٣٩١.

(٦) حبيب زيات، مزاعم المؤرخين العباسيين فى وصف شره الأمويين، ص ١٦١، ١٦٢.

(٧) البـلاذرى، أنسـاب، جـ٢ ص ٣٣ (المدائـنى)، جـ٢ ص ٣٩ (المدائنى)، جـ٢ ص ٣٩(المـدائنى) جـ٢ ص٤٠ (المدائنى) اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ١٨٧.

(٨) الطبرى، تاريخ، جـ ٥ ص ١٠٢ (أبو مخنف).

(٩) ن . م. جـ٥ ص ١٠٢ (أبو مخنف) . انظر للمقارنة: الجـاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة فى الحكمين، ص ٣٦٤، ٣٦٨؛ المسعـودى، التنبيه، ص ٢٦١؛ ابن أبى الحـديد، شرح، جـ١ ص ٣٣٤ ـ ٣٤٠ ـ انظر المؤرخون العرب والفتنة الكبرى . ص ٣٠٩ .

(١٠) البلاذرى، أنساب، جـ ١ ص ٦٨، اليعقوبى، تاريخ، جـ٢ ص ٨٨؛ الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص ٤١، ابن سعد، الطبقات، جـ١ ص ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٩، مسلم، صحيح، جـ١٧ ص ٢٤٨.

(١١) البـلاذرى، أنسـاب، جـ٢ ص ٣١٧، الطبـرى، تاريخ، جـ٥ ص ٤١، ابن سـعد الطبـقـات، جـ٣ ص٢٥٣، نصر، وقعة، ص ٢٤٣، ابن أعثم، الفتوح، جـ١ ص ٣٩١.

٣ - معاوية يخطط للصراع المسلح:

بعث معاوية من ليلة انتصار الإمام علي في موقعة الجمل إلى عمرو بن العاص أن يأتيه فكتب إليه. أما بعد فإنه قد كان من أمر علي وطلحة والزبير وعائشة ما قد بلغك فقد سقط إلينا مروان من رافضة أهل البصرة وقدم على جرير بن عبد الله فى بيعة على وحبست نفسى عليك حتى تأتينى على بركة الله تعالى: فلما انتهى الكتاب إليه دعا ابنيه عبد الله ومحمدا فاستشارهما، فقال له عبد الله أيها الشيخ إن رسول الله ﷺ قبض وهو عنك راض ومات أبو بكر وعمر وهما عنك راضيان، فإنك إن تفسد دينك بدنيا يسيرة تصيبها نصبها معاوية فتضجعان غدا فى النار ثم قال لمحمد ما ترى؟ فقال بادر هذا الأمر فكن فيه رأسا قبل أن تكون فيه ذنبا. فلما أصبح دعا وردان مولاه فقال له ارحل يا وردان ثم قال حذ يا وردان فحط ورحل ثلاث مرات فقال وردان: لقد خلطت أبا عبد الله فإن شئت أخبرتك بما فى نفسى، فقال: هات قال اعترضت الدنيا والآخرة على قلبك فقلت: على معه آخرة بلا دنيا. ومعاوية معه دنيا بلا آخرة.

والرأى: أن تقيم فى منزلك فإن ظهر أهل الدين عشت فى عفو دينهم وإن ظهر أهل الدنيا لم يستغن عنك. شعر عمرو بأن الدنيا تستدعيه ما دامت تستدعيه/ما دام معاوية قد بعث له فلم تقاوم نفسه وانضم إلى معاوية. من هنا بدأ معاوية مناورته.

قال معاوية مناورا حينما طالبه الإمام على بالبيعة: هذا أمر لم أكن فى أوله ولا فى آخره. إجابة ماكرة تدخل فى باب الملق السياسى وذلك هو قدر الإمام على حاقت ببيعته الدواهى من كل جانب فأتعب الجند وأقلق الولاة وأفسحوا للسيف أن يحل محل الشورى والبيعة وكان أحرص الناس على حقن دمائهم وأموالهم وأعراضهم قال لجنده:

«إنكم قد سرتم لتمنعوا الشام وتأخذوا العراق»[1] وقال أحد رؤساء القبائل لمعاوية: ما ننظر إلا لله ولا نغضب إلا للخليفة ولا نحامى إلا عن الشام[2]. كما أشار إلى تحذير قبيلة كندة لزعيمها الأشعث بن قيس، عامل أذربيجان، حينما هم بالالتجاء إلى معاوية، بعد ما طالبه على بمبايعته وتسليمه أموال ولايته «أتدع مصرك وجماعة قومك وتكونن ذنبا لأهل الشام»[3]. وهو المعنى نفسه الذى عبر عنه عبد الله بن عمرو

---

(١) الإمامة، جـ ١ ص ١٠٧ (ذكروا) انظر للمقارنة: نصر، وقعة، ص ٥٦، ٧٨، ٧٩، ١٦٨.
(٢) لإمامة جـ ١ ص ١٠٧ (ذكروا) الطبرى، تاريخ جـ ١ ص٤٣.
(٣) لإمامة جـ١ ص ٩٥، ٩٦ (ذكروا).

ابن العاص فى قـوله لوالده، حينما همّ بتـلبية طلب مـعاوية بالمسير إلـيه من فلسطين، ليشـاوره حول بيعـة على «... أقم فى منزلك، فلست مجـعولا خليـفة، ولاتريد أن تكون ذنبا لأهل الشام، ولا لحاشيـة معاوية على دنيا قليلة»[١]، ويتفق أيضا مع رسالة قبيلة بكر بن وائل إلى أحد قادتها، مصقلة بن هبيرة، الذى التجأ إلى معاوية فى أعقاب معركة الجـمل«..ولعمرنا ما استبـدلت الشام بالعراق»[٢]. ويورد الطبرى تحذير معاوية لجنده من أن أهل العراق «جاءوكم وهم لايرون إلا أنـهم سيقيضون بيـضتكم ويخربون بلادكم»[٣].

وكان الالتجاء لمعاوية وأهل الشام وترك على منقـصة وذنبا. واختفت وراء أطماع معـاوية فى صراعـه مع على رغبـة فى السيطرة على العـراق، وتسخـير خيـراته وأهله لمصلحة أهل الشام، وباتت شـعاراته الكثيرة حول مطالـبته بدم عثمان مـاهى إلا خدعة واضحة لإثارة عصبية القبائل وتأجيج الصراع الدائر.

ويذهب النقاد فى تقدير مـوازين القوى على الجبهة العراقيـة إلى أنها كانت تضم عناصر متباينة فى الولاء والمفاهيم والاتجاهات، فهناك الأنصار والمهاجرون، وإلى جانبهم أشراف القـبائل وأهل القادسيـة والأيام وجماعـات الروادف ومجموعـات القراء، وهى عناصر تختلف فى درجة تقديرها لمصـالحها، وفى نظرتها لقريش ولسلطان المدينة، وفى فهمـها لأبعاد الصراع الذى تـخوضه[٤]، الأمر الذى يفـسر تأكيد البـلاذرى وصاحب الإمامة والسـياسة،والطبرى على عدم تجـانس الآراء فى معسكره، وعدم انضبـاط قبائله لدرجة أنها ظلت مثار شكواه منذ انطلاقته لمواجهة معاوية حتى مقتله[٥].

أما الشام فأيدت قبائله وقياداته ورجالاته معاوية فى صراعه مع على معلنة دعمها المطلق.

ومن جهة أخرى أكد صاحب الإمامة والسـياسة والطبرى انضمام أربعة آلاف من القراء إلى معاوية بقيادة عبد الله بن عمر بن الخطاب[٦].

---

(١) ن.م. جـ١ص١٠٠ (ذكروا).
(٢) ن.م. جـ١ ص ٩١ (ذكروا).
(٣) الطبرى تاريخه جـ٥ ص ٩٨ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٢٦٦.
ــ المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.
(٤) الجاحظ، رسائل الجاحظ رسالة فى الحكمين ص ٤٢٦ ــ ٤٢٧. طه حسين الفتنة جـ ٢ ص٨١.
(٥) البلاذرى أنساب جـ ٢ ص ٣٨.
(٦) الإمامة جـ ١ ص ١١٠.

وقد وصفت هذه المصادر الهاربين بالخونة والعملاء، والغدارين، وأصحاب المصالح الخاصة. ورأت أن مادفعهم إلى ذلك هو الطمع فى السلطة والمال والضيق بسياسة على القائمة على الحق والصدق والعدل.

ومن المفاجآت التى يستعصى على من أوتى حظا من سلامة الرأى تفسير خروج عبد الله بن عمر على رأس تلك القوة من القراء وكان قد اعتذر عن مبايعته ثم بايعه اتقاء الفتنة واعتذر أن يكون رسول على إلى معاوية وقال ماقاله معاوية. . . وخرج بالليل إلى مكة تاركا عليا يتذمر عليه بالمدينة. وكنا نخاله ملاذا للرأى حين تغدو المواقف منبهمة، لكن نبع الرأى الصائب من مخنف بن سليم - أبرز قادة الإمام على حين - قال فى أسف بالغ وألا نسفك دماء المسلمين[1] بأيدينا وماهى إلا أجنحتنا نجدها بأسيافنا، فإن نحن لم نؤاس جماعتنا، ولم نناصح صاحبنا كفرنا وإن نحن فعلنا عزنا أبحنا، ونارنا أخمدنا»[2]. أما عدى بن حاتم فقال: «ما أبقت هذه الوقعة لنا ولا لهم عميدا»[3].

٤ - فكرة رفع المصاحف: التحكيم:

يقول المسعودى: فإن الأسبوعين الأخيرين من موقعة صفين - كانا أدمى الأسابيع حقا فلا عجب إذن أن كره الناس الحرب وتداعوا إلى الصلح[4] من هنا كان الجو مهيأ لدعوة عمرو بن العاص - يصفه اليعقوبى بأنه باع دينه مع على لدنياه مع معاوية - إلى رفع المصاحف والدعوة إلى التحكيم. يقول ابن سعد: ورفع أهل الشام المصاحف يدعون إلى مكيدة فيها[5] ذلك شكل ضغطا. دفع عمرو بن العاص إلى اقتراح فكرة رفع المصاحف، بهدف إيقاف القتال، والرجوع إلى حكم الله[6]، ولاقت هذه الفكرة تأييدا وتشجيعا من معاوية[7]. وقيادات أهل الشام[8].

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٢٤.
(٢) الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٢٦ - ٢٧.
(٣) الإمامة جـ ١ ص١٢٩.
(٤) التنبيه للمسعودى ٢٩٥
(٥) طبقات ابن سعد ج٣ ص ٢١.
(٦) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٢٢.
(٧) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٢٣.
(٨) الإمامة جـ ١ ص ١٣٢.

وعلى الرغم من أن السوريين كانوا أحسن تدريبا من العراقيين غير المنظمين، فقد نجح العراقيون بقيادة مالك الأشتر، أحد أشياع على المتحمسين، فى الضغط على خصومهم وإحراجهم إلى درجة حملت معاوية على التفكير فى الفرار. وفى هذه الأثناء كان حفظة القرآن الأتقياء يبذلون أقصى الجهد لدى الفريقين، ليتحقق السلام. وتذهب الروايات إلى أنه فى هذه اللحظة الحرجة أشار الداهية عمرو بن العاص، فاتح مصر وأميرها السابق على معاوية بأن يبعث بقوات جديدة، رافعة المصاحف على رءوس الرماح دلالة على أنها تحكم كلمة الله، لا كلمة السيف، فى أى الرجلين يجب أن يلى أمر المسلمين. ومع أن هذه الحادثة قد تكون وهمية، فالذى لاشك فيه أن أهل العراق قد أجبروا عليا الذى اعتبر أن النصر قد كُتب له، على أن يوقف المعركة.

دعا على قواته إلى تجاهل النداء، والاستمرار فى القتال معتبرا فكرة رفع المصاحف خدعة ومكيدة وأيدته فى رأيه أقلية من رؤساء القبائل وأشرافها ودعته إلى مواصلة الحرب، مثل الأشتر[1]. وعمير بن عطارد، وحريث بن جابر البكرى، وعبد الرحمن بن الحارث، وعدى بن حاتم، وقيس بن سعد[2].

وهددت عصابة من قراء المعسكر العراقى عليا بالقتل، إذا ما أصر على عدم الموافقة على دعوة أهل الشام بوقف القتال، ومن أبرزهم آنذاك مسعر بن فدكى التميمى، وزيد بن حصين[3]. كما أيد وقف القتال عدد كبير من زعماء القبائل العراقية.

الحكمان: أبو موسى الأشعرى وعمرو بن العاص:

وفى فترة المهادنة التى فرضت نفسها باقتراح من أهل الشام[4]، جلس الفريقان للتفاوض فأبدى على موافقته على قيام الأشعث بن قيس - وهو من خير من يقوم بمهمة التفاوض بين الفريقين - لتحديد الأهداف والخطوات فاقترح أهل الشام الذى ظل موحدا، أن يكون عمرو بن العاص ممثلا عنهم فى مفاوضات ومؤتمر التحكيم الذى وصفه أهل العراق بالقوى والفاجر والخائن وداهية العرب، بينما وصفه بالمحنك والداهية.

---

(١) البلاذرى: أنساب، جـ ٢ص ٣٢٠.
(٢) الإمامة جـ ١ ص ٢٤.
(٣) الإمامة، جـ ١ ص ١٣١.
(٤) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.

٥ - كتاب التحكيم ماله وما عليه:

وأشارت الروايات إلى أسباب اختيار أبى موسى الأشعرى، فهو رجل يثق أهل العراق بتقاته، وأهل الشام بتقواه، و«ضعفه وتقاه خير من قوة عمرو» و«خير مما نحن فيه»[١]. و«إنه لم يدخل فى شىء من الحرب[٢] وأبرزت احتجاجا على اختيار أبى موسى الأشعرى بسبب دوره فى تثبيط الناس عنه فى معركة الجمل[٣]. وأوردت وصف الأشتر له بالمخادع، بينما وصفه الأحنف بن قيس بـ «كليل الشفرة قريب القعر» لا «يصلح لهؤلاء القوم» و«رجل يمانى وأهله مع معاوية»[٤].

اختار على أبا موسى الأشعرى ممثلا للعراقيين، قبل يوم الجمعة، لثلاث عشرة خلت من صفر سنة سبع وثلاثين للهجرة رفض معاوية[٥] أو عمرو بن العاص[٦] كتابة «أمير المؤمنين» بجانب اسم على فى وثيقة التحكيم؛ لعدم اعترافهم بذلك.

وافق علي على محو لقبه[٧]، بعد أن استشار قومه. وبعد أن تذكر حادثة مماثلة واجهها الرسول ﷺ يوم الحديبية، حينما اعترض الكفار على تسمية «رسول الله» ودعوه لكتابة اسمه واسم أبيه فى وثيقة اتفاقهما، فمحا الرسول ﷺ ذلك بيده[٨].

ثم هوجم فيما بعد من الخوارج الذين اعتبروها تنازلا منه عن الخلافة التى بايعه عامة المسلمين عليها.

وكان عدم إصرار علي على تثبيت لقبه «أمير المؤمنين» أتاح لمعاوية طرح مصطلح الشورى، وعزز من إصراره على تطوير محاور صراعه مع علي، وأعطاه غطاء شرعيا للخروج على خلافته، وعدم الاعتراف بها. وأما قياسهم موافقة الإمام على طرح لقب أمير المؤمنين قياسا على ماكان فى صلح الحديبية فهو قياس لايحمل دلائل القوة ولا تجمع بينهما الموازنة.

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٣: الإمامة جـ ١ ص ٣٢.
(٢) اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص ١٨٩.
(٣) البلاذرى، أنساب، جـ ١ ص ٣٣٣. (٤) الإمامة، جـ ١ ص ١٣٢.
(٥) الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٢ (على بن مسلم) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.
(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٤٧ (المدائنى): الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٢ (أبو مخنف).
(٧) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٤٤(إسحاق الفروى): اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٨٩، ١٩١، ١٩٢، ١٩٣، انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥٠٨.
(٨) المؤرخون العرب، الفتنة الكبرى .

وحملت نصوص كتاب التحكيم الذى تضمن تعهد علي ومن معه من شيعته من أهل العراق ومعاوية ومن معه من أهل الشام مكانة سياسية جديرة بالنظر نعرض لها بعد عرضه: «هـذا ما تقاضى عليه، على بن أبى طالب، ومـعاوية بن أبى سفيـان، قاضى علي على أهل الكوفة. ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين، والمسلمين. وقاضى معاوية على أهل الشام ومن معهم من المؤمنين والمسلمين[1] على أن يحكما بما فى كتاب الله، فما لم يجداه فبالسنة الجامعـة العاملة غير المفرقة، وأن يصلحا بين الأمة ولا يرداها إلى الحرب والفرقة. وأخذ الحكمان العهود والمواثيق من معاوية وعلى وجندهما. وممن اشترك من الناس بالفتنة أن يقبلوا بحكمـهما. وأن يعطوهما الأمن والأمان لدمائهمـا وأموالهما وحريمهـما، واتفقا على تأجيل القـضية إلى رمضان من العام المقـبل، أو إلى أى موعد يتفـقان عليه. ودعا كل منهـما الطرفين إلى وضع السـلاح خلال هذه الفترة. كـما أتاح الكتاب للحكمـين أن يجتمعا إن اتفـقا قبل ذلك الموعد. وإن مات أحـد الحكمين، فإن أمير الشـيعة يختار مكانه من أهل العـدل، ولهما ألا يحضر لقاءهمـا إلا من أحبا. ولا يشهده إلا من أراد[2]. واتفقا أن يكون مـكان الاجتماع مكان عدل بين الـكوفة والشام والحجاز[3] فى دومة الجندل[4]، فإن لم يجتـمعا لذلك، اجتمعـا العام المقبل فى أذرح ولهما أن يجتمعا بغيرهما، إن رضيا بذلك[5].

وشهد على الكتاب شهود من المعسكرين العراقى والشامى.

لم تخرج نصوص كـتاب الحكمين عن نصوص عـهد أمان عام وجـاء خاليا من معالجـة القضية الأساسيـة التى ارتكز عليها صراع معـاوية مع علي، وهى القصاص من قتلة عثمان. وأغفلت موقف معاوية من شرعية خلافة علي، حتى جعلته يرفض السماح

(١) الطبرى، تاريخ، جـ ٥ ص ٥٣ (أبو مخنف) انظر للمقارنة، نصر وقعة، ص ٥٠٤.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٢٤ ــ ٣٢٥ (المدائنى): اليعقوبى، تاريخ جـ٢ ص١٨٩ ــ ١٩٠، الإمامة جـ ١ ص١٣٧ ــ ١٣٨ (ذكروا): الطبـرى تاريخ جـ ٥ ص٥٤ (أبو مخنف)، جـ٥ ص ٧٥ (الزهوى)، انظر للمقارنة، نصر، وقعة، ص٥٠٤ ــ ٥٠٥ ــ ٥١٠، إحسان عباس، تاريخ بلاد الشام، ص٣١٧.

(٣) البلاذرى، أنسـاب جـ ٢ ص٣٢٥ (المدائنى): اليعقوبـى، تاريخ جـ ٢ ص١٩٠، الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٤(أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة ص ٥٠٦، ٥١١.

(٤) الإمامة جـ ١ ص١٣٦ (ذكـروا) جـ١ ص ١٣٨ (ب.م)، جـ١ص ١٤٠(ذكروا)، الطبرى، تاريخ جـ ٥ ص ٥٧ (الزهوى)، جـ٥ص٦٧(ابو مخنف).

(٥) الطبرى، تاريخ جـ٥ ص٥٧ (الزهوى) جـ٥ص٦٦ (أبو مخنف) انظر للمقارنة نصر، وقعة، ص ٥١١.

له بكتابة لقبــه «أمير المؤمنين» فى كتاب التـحكيم. ربما كانت تلك المؤاخذات وراء شك الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فى صحة الكتاب حيث أضعف نصه وأسانيده وشهوده[1].

واحترم علي ما تم الاتفـاق عليه فى كتاب التحكيم. ودعا على قـواته بعد يومين من إنجاز كتـاب التحكيم للعودة إلى الكوفة، بعد أن أمـر بدفن القتلى، وإطلاق سراح الأسرى، فسار إلى الكوفة فى شهر ربيع الأول سنة سبع وثلاثين[2].

بعـد أن اتخذ على قـراره بإعلان القطيـعة مع الخـوارج. وعدم الاسـتجـابة إلى مطالبهم بعدم إرسال أبى موسى الأشعرى إلى مؤتمر التحكيم[3]. واجتماع الحكمين فى دومة الجندل ويبدو أن الوفد الشامى وصل قبل الوفد العراقى لانشغال على مع الحرورية وتردده فى تنفيـذ ما تم الاتفاق عليـه فى وثيقة الـتحكيم. دفع ذلك معـاوية إلى إرسال كتاب دومة الجندل إلى على يقول فيه: «لا يلفتنك عن رأيك أعاريب بكر وتميم» واقترح عمـرو بن العاص على أبى مـوسى الأشعـرى مبـايعة مـعاوية بالخلافـة، إلا أنه رفض اقتراحه[4]. مبديا رغـبته فى إحياء سيرة عـمر بن الخطاب، وذلك بخلع كل من علي ومعاوية، وجعل أمر الخـلافة شورى بين المسلمين، يختارون لأنفسهم من أحـبوا فوافقه عمرو بن العاص على اقتراحه.

وأعلن أبو موسى الأشـعرى قرار الخلع فقال: «أيهـا الناس إن رأينا قد اتفق على أمر أرجو أن يصلح الله به شأن هذه الأمة.. إنا نظـرنا فى الأمر فلم نر شيئا أصلح من خلع هذين الرجلين، ثم تستقبل الأمة أمورها فيكون أمرهـم شورى يولون من اختاروا. إنى قد خلعت عليا ومعاوية فاستـقبلوا أموركم. وولوا من رأيتم أنتم». وأقبل عمرو بن العاص فثبت معاوية وخلع عليا، إن هذا قد قال ما سمعتم، وخلع صاحبه، وأنا أخلعه كما خلعه وأثبت صاحبى معاوية، فـإنه ولى عثمان والمطالب بدمه، وهو أصلح سياسة وأحزم رأيا من غيره.

وإذ لم يوضع للاجتماع، قبل انعقاده، هدف معين، فقد اختلف الفريقان. وكان اختلافهمـا على طرفى نقيض. فقد كان العراقيون يتوقـعون أن يحصلوا على الاعتراف

---

(١) الجاحظ، رسائل الجاحظ، رسالة فى الحكمين: ص ٣٧٢ ــ ٣٧٣.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ٢ ص ٣٣٧.

(٣) البلاذرى . أنساب جـ ٢ ص٣٤٦. الطبرى . تاريخ جـ٥ ص٦٦.

(٤) البلاذرى . أنساب جـ٢ ص ٢٥٠. اليعقوبى . تاريخ جـ ٢ ص١٩٠.

الرسمى بخلافـة علي. فى حين كان معـاوية يطالب ببحث ما إذا كانت تبـعة علي فى مقتل عثـمان تجعله غير أهل للحكم. ولكن مندوبه اعـتبر كلا من علي ومعـاوية مدعيا للخلافة، واستطاع بعدد من الإيحاءات الموفقة أن يقنع خصمه بخلع الرجلين معا. ولم يكن فى وسع علي أن ينزل عند هذا الحكم، ورأى نفسه مـضطرا إلى أن يحنث بيمينه. وإذ قـد وضع على نفســه بهـذا الصنيع، على طرف الخطأ، فـقد أطـلق جنود معـاوية أنفسهم لقب الخليفة على ابن أبى سفيان، منذ ذلك الحين.

لذلك نرى أن تفاوض الحكميـن حول تفاصيل الخلاف بين الإمـام علي ومعاوية ربما كانت مدروسة جيدا من قبل معـاوية وعمرو بن العاص فهى فى صالح معاوية دون الإمام علي. وغـير مدروسة تماما من قـبل الإمام علي إنما ارتجال أبى مـوسى الأشعرى أيما ارتجـال من غيـر أن يرجع بها إلى من حكمـوه. فلا هى مـوافقـة لنصوص كـتاب التحكيم الذى يطلب الأمان وعدم الفرقة للأمة ولا هى تثبت الحق الشرعى للإمام علي. لقد أصاب التفاوض مقتل الشرعية فى عـصب البيعة والشورى وأورث الأمة ضعفا على ضعف ووهنا على وهن. وكـانت قسمـة ضيزى حـين ساءت بين الإمام علي الخليـفة الشرعى وبين معـاوية ذلك الوالى المعزول وذلك حين رفض الإمام عـلي وغضب لخلعه وفق صيغة التحكيم التى أعلنها أبو مـوسى الأشعرى، إلا أن عمرو بن العاص أيد خلع على وإبقاء معـاوية، لم يرفض التحكيم استنادا إلى قـصة الخديعة. بل اعـتمادا على أن الحكمين نبذا حكم القرآن وراء ظهريهما، «أن يُحييـا ما أحيا القرآن، وأن يميتا ما أمات القرآن». فمـا هو الذى نبذاه سوى حقـه وشرعيتـه فى الخلافة والطاعة كـما أن دراسة الأسبـاب التى أدت إلى تمرد الخريت بن راشد عـام ٣٨هـ ضد علي، يدعم مـاقاله له، لأنك حكمت فى الكتـاب، وضعُفت عـن الحق إذ جد الجد. وركنت إلى الـقوم الذين ظلموا أنفسهم، فأنا عليك زار، وعليهم ناقم «فهل الحق الذى ضعف عنه على هو» أنه لم يقبل حكم أبى موسى، الذى يقضى بترك اختـيار الخليفة إلى الشورى بين المسلمين، وخاصة أن الخـريت أكد أنه لم يرض عليا ولا سـيرته «فرأيت أن أعتـزل وأكون مع من يدعو إلى الشورى من الناس».

وجدد المؤرخون مـلامح شخصيـة أبى موسى الأشعرى، كمـا تصوره رواياتهم، فهو ساذج ومـسالم وضعيف ومنقاد لتوجهات ومطالـب عمرو بن العاص بشكل ملفت للنظر، وتتهـمه هذه المصادر ـ بصورة غيـر مباشرة ـ بالخيـانة لعدم تأكيده على شـرعية خلافة علي، وعدم أحقية معاوية فى التشكيك بها، ولعدم إشارته إلى براءة علي من دم عثمان.

وراح المؤرخون يـذكرون: الصورة الماكـرة والمخادعـة لعمـرو بن العاص، فـهو لايتورع عن اللجوء إلى أى شيء لتحقيق أهدافه وغاياته مستخدما قدرته وذكاءه وسيلة لذلك وعدم مصداقيته.

ونقل شريح بن هانـئ وعبدالله بن عـباس أنباء التـحكيم إلى علي، فكان يلعن معاوية، وأبا الأعور السلـمى، وحبيب بن مسلمة، وعبد الرحـمن بن خالد بن الوليد، والضحاك بن قيس، والوليد بن عقبة[1]. كما لام أتباعه على إجبارهم إياه على اختيار أبي مـوسى الأشـعرى، وأوضح أنه لا سـبـيل إلى حـرب القـوم، حتى انتـهـاء المدة المحددة[2]. وأضاف بأن الحكمـين نبذا حكم القرآن وراء ظـهريهما، وأحـييا مـا أمات القرآن[3]، وكـتب لأبى موسـى الأشعـرى «إنك امـرؤ ضلك الهـوى، واستـدرجك الغرور». وأعلن ابنه الحـسن أن الحكمين أرسلا ليـحكما بالقرآن على الهوى، فـحكما بالهوى على القرآن.

رحب معاوية بنتيجة الاجتمـاع، وكتب لأبى موسى الأشعرى «فلو كانت النية تدفع الخطأ لنجـا المجتهـد وأعذر الطالب، والحق لمن نصب إليـه فأجابه، ولـيس لمن أعرض له فـأخطأه». وبعدمـا علم معـاوية أن عليا يلـعنه «لعن عليا وابن عـباس والأشـتر وحـسنا وحسينا». وأضاف البلاذرى أسماء «قيس بن سعد، وعبد الله بن جعفر».

ولم يلبث مركز علي فى العراق أن تضعضع إلى حد بعيد. والواقع أنه كان لايزال فى طـريق العـودة من صـفين عندما لامـه جـماعـة من جـيشه، معـظمهم من بنى تميم، لوما عنيفـا على ما أبداه من استـعـداد للنـزول عند قـرار هيئـة محكمة من البشـر. وكان من رأيهم أن الحكم لله وحـده. فانشـقوا عن علي وانسـحبوا إلـى قرية حروراء، غير بعيد من الكوفة، وانتخبوا أحدهم، عبد الله الراسبى، خليفة عليهم.

٦ - قراء المعسكر العراقى:

وفى سنة ٦٥٣ ظهـر الاختـلاف فى قراءات القـرآن فى أثناء غـزوة أرمينيـة بين جيوش الشام وجيوش العـراق. وإذ كان التوتر بين سكان هذين القطرين على أشده آنئذ

---

(١) البلاذرى أنساب جـ٢ ص٣٥١.

(٢) الإمامة جـ ١ ص١٤٣ (ذكرون)

(٣) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٦٦.

فقد كان من الطبيعى أن يؤدى ذلك الخلاف على أى القراءات القرآنية أصح، إلى اشتباكات عنيفة بين الجنود. ولكى يحول الخليفة دون تجدد هذه الحوادث عزم على اعتماد نسخة رسمية من القرآن.

والواقع أن أجزاء كثيرة من الوحى كانت قد دونت بشكل منجم متفرق حتى فى أيام النبى ﷺ. فلما كانت خلافة عمر عهد إلى زيد بن ثابت، المدنى الشاب الذى كان يكتب الوحى للرسول ﷺ، بأن يجمع صحف القرآن كلها. ولكن ذلك لم يعد أن يكون عملا شخصيا ليس له صفة رسمية عامة. حتى إذا توفى عمر انتقلت هذه الصحف إلى ابنته حفصة. ثم إن عثمان حصل على هذه المجموعة الأولى. فعهد إلى زيد، وثلاثة نفر من القرشيين، بأن يعيدوا النظر فيها كرة أخرى. ففرغوا لما ندبوا له وأدوا مهمتهم فى عناية فائقة يشهد عليها اقتران عملهم بالقبول والإعظام، فى كل مكان، من غير معارضة. ومع ذلك فقد وجد الكوفيون فى هذا الصنيع مادة خصبة أفادوا منها فى إثارة الناس على عثمان، آنذاك.

ثم تجددت خصومة قديمة حين قام قراء المعسكر العراقى، أو أهل البصائر والعباد، أو الخوارج فيما بعد، بالضغط على علي لحمله على قبول فكرة التحكيم التى طرحها معسكر معاوية حين رفعوا المصاحف فوق الرماح[1] إلى حد تهديد قيادات القراء مثل مسعر بن فدكى التميمى وزيد بن حصين الطائى، عليا للموافقة على ذلك، وهددوه بالقتل إذا ما أصر على رفض الدعوة للتحكيم[2].

ويلاحظ أن إلقاء تبعة وقف القتال على القراء كان نواة المذهب الخارجى فيما بعد، ودعم الفكرة التى روجت لها هذه المصادر حول إكراههم عليا على قبول وقف القتال مع معاوية، وهى فكرة لم تصمد للنقاش، إذ اتضح وجود شبه إجماع داخل المعسكر العراقى على قبول الموادعة، ولا يمكن التسليم بإمكانية إملاء القراء لقراراتهم على علي بالقوة والتهديد.

وتذهب روايات مختلفة عن آراء القراء فى التحكيم، ففى حين أظهر بعضها

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٨. اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص ١٩٢. الطبرى تاريخ جـ ٥ ص ٦٥، ٦٦.

(٢) الطبرى، تاريخ جـ٥ ص ٤٩، ابن أعثم، الفتوح جـ ٢ ص ٣١٧، ٣١٢، ابن أبى الحديد شرح جـ ٢ ص٢١٧.

تأييدهم له من خلال إصرارهم على اختيار أبى موسى الأشعرى ممثلا للمعسكر العراقى فى مؤتمر التحكيم، بسبب اعتزاله الفتنة وعدم اشتراكه فى القتال[1].

وروايات أخرى تظهر رفض القراء لمبدأ اختيار الحكمين[2]. لرفضهم تدخل البشر فى الحكم، واعتقادهم أن القرآن أدان معاوية وخطأه، ولإيمانهم أن رفع أهل الشام لمصاحفهم هو استسلام لأهل العراق[3]. ولرغبتهم فى أن يصبحوا طرفا ثالثا فى الصراع، أو على الأقل أن يوكل إليهم دور مهم لكى يتفحصوا القرآن ميدانيا ويصدروا حكمهم فى الخلاف الدائر بين علي ومعاوية[4]. ومما يدعم فكرة معارضة القراء للتحكيم عدم مشاركتهم فى الشهادة على القضية، كما شهد دعاة الموادعة عليه.

كذلك وردت روايات معارضة القراء للتحكيم بعد الانتهاء مباشرة من صياغة كتاب القضية، وجاء الاحتجاج على لسان أفراد عاصروا تحكيم الرجال فى أمر الله، وجاهروا بالاحتجاج على ذلك تحت شعار «لا حكم إلا لله»، ومن هؤلاء عروة بن أدية التميمى، الذى اعترض الأشعث بن قيس أثناء عرضه لكتاب التحكيم على القبائل وضرب بسيفه عجز دابته. وأورد البلاذرى عددا من الروايات المتباينة بشأن أول من حكم فأشار إلى أنه يزيد بن عاصم المحاربى[5]، أو الحجاج بن عبد الله بن سعيد بن زيد مناة من تميم، الذى يعرف بالبرك الصريمى[6]، أو رجل يدعى سعيدا من بنى محارب بن حصفة بن قيس بن عيلان بن مضر[7]، أو رجل من بنى يشكر بن بكر بن وائل حمل على أصحاب علي فقتل منهم واحدا غيلة، فشد عليه رجل من همدان وقتله[8]، أو فتيان أخوان من عنزة يقال لهما معدان وجعد حملا على أهل الشام، وقاتلا حتى قتلا

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٢٤، اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٩١، الطبرى، تاريخ، جـ٥ ص٦٣.

(٢) المدائنى، تاريخ جـ ٥ ص ٥١.

(٣) هشام جعيط، الفتنة، ص ٢١٠ سليم التميمى، ظهور الخوارج، ص ٢٧.

(٤) إبراهيم شعبان، صدر الإسلام ص ٨٧.

(٥) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٣٦، اليعقوبى، تاريخ جـ ٢ ص١٩٠، الأشعرى، مقالات جـ١ ص٢٧٢، المسعودى، مروج جـ ٢ ص٤٢ ـ ٤٤، المقدسى، البدء جـ ٥ ص ٢٢١، فلهاوزن، الخوارج والشيعة، ص ٢٥ ـ ٣٢.

(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٦، المبرد، الكامل جـ ٢ ص ١٨٧. (٣) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٣٦.

(٧) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٣٦.

(٨) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص٣٣٨.

على باب رواق معاوية[١]، أو صالح بن شقيق المرادى، وهو من رؤساء مراد[٢]. كما جاء هذا الاحتجاج على لسان جماعات من بنى راسب[٣]. ويبدو أن البلاذرى أراد التأكيد على أن البدايات الأولى للتحكيم تمثلت برافضين من مختلف القبائل[٤]، أو ربما أراد استعراض الأصول المختلفة للمحكمة التى مثلت مرحلة مهمة من مراحل تطور حركة الخوارج التى ظهرت فيما بعد[٥].

٧ - الخوارج أو المحكمة:

وأخذت مواقف المحكمة من التحكيم تلقى تأييدا واسعا من الناس، بمن فيهم أولئك الذين أعلنوا فى البداية دعمهم لوقف القتال، كما أخذت فى بلورة منطقها وتنظيم احتجاجاتها.

إذ أكدت المحكمة أن قبول التحكيم هو شك فى عدالة القضية التى قاتلت من أجلها مع علي، كما أنها تمثل ارتدادا بعد إيمان، وشكا بعد يقين، ومفارقة للجماعة، ولذلك أنكروا التحكيم منذ البداية، ونقموا على علي ودعوه إلى إعلان الحرب ثانية على معاوية[٦]. وعدم جواز تحكيم الرجال فى أمر الله، وعلى ضرورة إعادة رص صفوف معسكر أهل العراق لمواجهة أهل الشام[٧]، ويبدو أن اعتراضهم على وثيقة التحكيم جاء بعد إدراكهم أن صواب قتل عثمان أو عدمه سيبحث فى التحكيم وهم الذين لعبوا دورا فى الفتنة عليه[٨].

إن شعار «لاحكم إلا لله» لم يكن شعار جماعة معينة، فالاحتجاجات فردية صدرت من قبل أشخاص مختلفين وردت أسماء بعضهم. أما الآخرون فلم تذكر أسماؤهم، وربما خالطتها صيحات جماعات صغيرة غير واضحة[٩].

(١) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص ٣٣٦.
(٢) نصر، وقعة، ص ٥١٢، ٥١٣، المقدسى، البدء جـ ٥ص٢٢١.
(٣) البلاذرى، أنساب، جـ ٢ ص٣٣٨. فلهاوزن، الخوارج والشيعة ص ٢٥ ـ ٢٧.
(٤) محمود عبد الرزاق، الخوارج وقضية التحكيم، ص ٤٧ ـ ٥٧. سليم التميمى، ظهور الخوارج، ص١٦ - ٢٠، صالح العلى، التنظيمات ص ٥٩ ـ ٦٠.
(٥) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان محمد ملحة.
(٦) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص ٣٢٧.
(٧) الإمامة جـ ١ ص٢٨، الطبرى، تاريخ جـ٥ ص٥٥.
(٨) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٧٠، ذيب سعيد نشأة حركة الخوارج ص١٧٢.
(٩) البلاذرى، أنساب جـ٢ص٣٣٩.

وأكـد البلاذرى أن آراء المحكمـة لم تؤد إلى انفـصالهم عن جـيش علي، ولكن افتـرق أنصارها إلى ثلاث فرق: فـرقة رجعت إلى أمـصارها ومنازلهـا فى العراق على الرغم من مناشدة علي لهم بالصبر على هذه القضية، وأقامت الفرقة الثانية وقالوا: «لا نعجل ننظر إلى ما يصير شأنه»، ومضت الفـرقة الثالثة التى شهدت على علي بالشرك، وهم أهل النهروان[1]. وأشار البلاذرى والطبرى إلى المناقشات العديدة والمشادات العنيفة التى شهـدها معـسكر أهل العراق فى أثناء عـودة علي إلى الكوفة حـيث ازداد الخلاف والنقاش بشأن التحكيم: «خـرجوا مع على إلى صفين وهم متوادون متحـابون فرجعوا متباغـضين متعادين، فما برحوا من مـعسكرهم بصفين حتى فشا فـيهم التحكيم، ولقد أقبلوا يتدافعون الطريق كله ويتشاتمون ويضطربون بالسياط»[2].

٨ - ليس كل من اعترض على التحكيم خارجيا:

وبالغت روايات تاريخـية فى تقـدير عدد الخوارج الـذين خرجوا على الإمـام علي ولعل السبب فى ذلك هو أنهم كانوا يرون أن كل من خرج على التـحكيم كان خارجيا مع أن الإمام علي لم يرض عن الـتحكيم وليس خارجـيا؛ لأن صورة التـحكيم لم تكن طبق الأصل الذى تم الاتفاق عليه؛ لذلك رفـضه أبو موسى الأشعرى نفسه. فـالذين اعترضوا عليه غـير الذين خرجـوا عليه لكن قائمـة الخوارج الذين اعتـرضوا جعلتـهم ضمن الذين خرجوا، مع أن صيـحات المعارضة على علي استمرت بعـد عودتهم إلى الكوفة، وهذا لا يعنى خروج كل من اعترض إلى حروراء[3].

ولعل السـبب فى تضـارب هذه الأعـداد هو قـرب الكوفـة من حـروراء وتمكن الحرورية من الدخول والخروج فيها بحرية، وبخاصة أن النزاع بينهم وبين علي ظل حتى ذلك الوقت سياسيا وليس عسكريا.

---

(١) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٣٤٢.

(٢) البلاذرى، أنساب جـ ٢ ص٤٢. الطبرى، تاريخ جـ٥ ص ٦٣.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، د. محمد إبراهيم الفيومى ــ دار الشروق.

الباب الثانى

فقه النص على إمامة الإمام علي

الفصل الأول

الإمام علي

الفصل الثانى

الفكر السبأى

الفصل الثالث

علي والحق الإلهى

الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي



الفصل الأول

الإمام علي

إن ما يعتقده الشيعة فى حق على الصريح فى الخلافة بعد وفاة النبى ﷺ مبين باختصار فى كتاب فارسى لا زال الإقبال على دراسته شديدا حتى هذا اليوم وهو كتاب (عقائد الشيعة) وقد لخصه الأستاذ براون فى كتابه: persian Literatur in Modern Times - ص ٣٨١. جاء فيه «إن عليا هو أمير المؤمنين بالحق[1]، فكان الواجب نصبه خليفة بعد رسول الله ﷺ. وهو الذى يفسر أوامر الله للناس بعده. ولد صباح الجمعة وهو أصغر من الرسول ﷺ بثلاثين عاما وكانت ولادته فى داخل الكعبة، وعاش ثلاثا وستين سنة منها اثنتان وثلاثون فى حياة الرسول ﷺ وإحدى وثلاثون سنة بعده. وهذه المدة هى مدة خلافته إلا أن حقه بقى مغصوبا مدة خمس وعشرين سنة قضاها فى بيته.

---

(١) أشار الدكتور جولدتسيهر فى كتابه (العقيدة والشريعة فى الإسلام) إلى أن المحدث الشيعى الشهير أبا جعفر محمد الكلينى (المتوفى سنة ٣٢٨هـ. ٩٦٩) قد قطع فى كتابه (الأصول من الجامع الكافى، طبعة بمبى ١٣٠٢ هـ - ٩٦٩، ص٣٦١) بأنه «لاحق لغير علي بالتسمى بأمير المؤمنين». وقول ابن سعد (الطبقات ٣ (١) ص ٢٠٢) إن عمر كان أول من تسمى بأمير المؤمنين قال: «إن رسول الله ﷺ لما توفى واستخلف أبو بكر الصديق كان يقال له خليفة رسول الله ﷺ فلما توفى أبو بكر - رحمه الله - واستخلف عمر بن الخطاب قيل لعمر خليفة خليفة رسول الله ﷺ فقال المسلمون فمن جاء بعد عمر قيل له خليفة خليفة خليفة رسول الله ﷺ فيطول هذا ولكن أجمعوا على اسم تدعون به الخليفة يُدعَى به من بعده من الخلفاء.|فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ نحن المؤمنين وعمر أميرنا فدعى أمير المؤمنين، فهو أول من سمى بذلك). - عقيدة الشيعة ص ٣٥ دوايت دونالدس.

«وأول الغاصبين أبو بكر ومدة حكمه سنتان وثلاثة أشهر ثم عمر بن الخطاب عشر سنوات وستة أشهر وجاء بعده عثمان فتولى الحكم اثنتى عشرة سنة[1]. ثم اعترف بعلي خليفة فنصب مدة أربع سنوات وستة أشهر.

«وحارب فى هذه المدة ثلاثة حروب الأولى مع القاسطين الظالمين أى معاوية وحزبه والثانية فى البصرة مع الناكثين أى عائشة وطلحة والزبير وهى حرب الجمل؛ لأن عائشة ركبت الجمل، والثالثة مع المارقين وهم الخوارج ووقعت عند النهروان».

«وقيل إنه كان لعلى سبعة عشر ولدا وتسع عشرة بنتا. وقد تزوج بعد فاطمة بنت الرسول ﷺ اثنتى عشرة امرأة. وبلغ عدد أزواجه وسراياه ٣٩٥، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد العمران أو عبد مناف. واسم أبيه عمرو وسماه آخرون عمران أو عبد مناف الأصغر. ويكنى بأبى طالب وقد غلبت كنيته عليه. وروى أنه كان مؤمنا يوحد الله»[2].

ومن المهم أن نلاحظ أن سن علي كان عند وفاة الرسول ﷺ ٣٣سنة فهو لا يزال حدثا بالنسبة لعرف القبائل العربية، لتولى المسئولية الإدارية الكبرى فليس من الشاذ أن يختار الناس من هم أكبر منه سنا من الصحابة البارزين مدة خمس وعشرين سنة. ويظهر بالحقيقة وجوب التقدم فى السن فى اختيار الخلفاء الراشدين، فأبو بكر استخلف وعمره فوق الستين، وعمر كان سنه ٥٣ وعثمان كان قد بلغ نحو السبعين، وعلي كان عمره إما ٥٩ أو ٦٤ بالنسبة لسنه عندما آمن أول مرة فقيل: إنه كان بالعاشرة وقيل بل الخامسة عشر.

ولم يمض على وفاة الرسول ﷺ زمن طويل حتى جاءت فاطمة ومعها علي إلى أبى بكر تسأله ميراثها من أبيها فقال لهما: «أشهدكما الله، ألم تعلما أو تسمعا أن رسول الله ﷺ قال:نحن معشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة؟!» قالا: «نعم ولكن

---

(١) إن صحة ما ذكر فى مدة خلافة كل من الخلفاء الثلاثة الأول يؤيد المسعودى فى مروج الذهب جـ١، ص١٧٥، ١٩٠، ٢٥٠. وهناك اختلاف بسيط بالأشهر فى ما ذكره السيوطى ترجمة jarret ص٨٧. ويذكر اليعقوبى (ج ٢ ص ١٥٦، ١٨٣، ٢٩٥) أن مدة خلافة أبى بكر سنتان وأربعة أشهر وخلافة عمر عشر سنوات وثمانية أشهر وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة.

(٢) كتاب عقائد الشيعة تأليف الحاج مرزا أقاسى. الكتاب الرابع، الفصل الثانى. مسند أحمد بن حنبل ج١ ص ٧٩ يذكر أن أبا طالب والد علي رفض أن يصلى صلاة المسلمين ولم يعترف بوحدانية الله عند موته كما جاء. ـــ نفس المصدر السابق ص ٣٥.

رسول الله ﷺ كان ينفق على أهله وهو بار بهم»[1] فلما سألهـا عما تريده من الإرث قالت: «فدك وخيبر وأرض الفيء بالمدينة - حصـتى منها مثلما ترثك بناتك بعد موتك» فقال: «حقا أن أباك ﷺ خير منى وأنت خيـر من بناتى، إلا أن رسول الله ﷺ قال: «نحن معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة»[2].

وقيل: إن فاطمة غضبت غضبـا شديدا من حكم أبى بكر، وإنها ماتت بعد أبيها بمدة لا تزيد على ستة أشهر. ومن المهم أن نلاحظ قصر هذه المدة، لأنها تعين المدة التى امتنع بها على عن مبـايعة أبى بكر، فإن عليا ذهب بعد وفاة فاطمـة إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة. وكـانت المناصب الخطيرة أو ذات المسئوليـة الكبيرة قد خص بهـا غيره. فكان عمر للقضاء وعتاب أمير مكة للحج بالناس بالنيابة عن أبى بكر، وقيادة الجيوش لأسامة وخالد. وكان علي يتولى أكثر الأحيان المكاتبة».

وينظر علي إلى أبى بكر بعـين الاحتـرام وله عليه تأثيـر فى القرارات الـتى كان يتخذها، فمن ذلك أن أسامـة لما عاد منصورا من غزوته إلى بلاد الشام أراد أبو بكر أن يسير بالجيش إلى محاربة طليحة المتنبى، فـأشار عليه علي بالبقاء فى المدينة حتى أقنعه، وذهب خالد مكانه.

١ - التآمر على قتل الإمام علي:

وكان بين أنصار علي ضـد معاوية كثير من الفـرس أو العجم الذين كانوا ينزلون مدن العراق الجديدة وقد جاءوا لمكافحة كبرياء العرب من المدينة الذين خرجوا على زمن عثمـان لحكم العالم[3] وكان معـه أيضا عدد من القراء الذين كانوا يطعنون فى عـثمان وبعض أحكامه وقد انضموا إلى علي. إن هؤلاء الأعداء الألداء لحكم العرب لم يكونوا ليرضـوا بكل اتفاق، وبعـد فشل التحـكيم قرروا عدم إمكان خـدمة أغـراضهم بالولاء لعلي. وقد ذكر ابن سعد مختصرا أمر هؤلاء الذين لم يرضهم شيء فخرجوا من الجيش

---

(١) مسند الطيالسى رقـم ٦١. جاء فى تاريخ اليعقوبى ج٢ ص ١٤١ أن «فـاطمة بنت رسول الله ﷺ أتته تطلب ميراثهـا من أبيها فقال لها: قال رسـول الله ﷺ: «إنا معاشر الأنبياء لا نورث مـا تركناه صدقة» فقالت: أفى الله إن ترث أباك ولا أرث أبى، أما قـال رسول الله: (المرء يحفظ فى ولده) فبكى أبو بكر بكاء شديدا «انظر كذلك تاريخ الخلفاء للسيوطى».

(٢) البخارى ف ٦٤، ٣٨ ومسلم ف ٣٢، ٥٢. نفس المصدر السابق ص ٣٦.

(٣) تاريخ التمدن الإسلامى لزيدان ج٤.

وهم الخوارج[1]. قال: «فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه وقالوا لا حكم إلا لله وعسكروا بحروراء فبذلك سموا الحرورية فبعث إليهم عبدالله بن عباس وغيره فخاصمهم وحاجهم فرجع منهم قوم كثير وثبت قوم على رأيهم وساروا إلى نهروان فعرضوا للسبيل وقتلوا عبدالله بن خباب بن الأرت. فسار إليهم علي فقتلهم بالنهروان وقتل منهم ذا الثدية وذلك سنة ثمان وثلاثين ثم انصرف علي إلى الكوفة فلم يزل يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل»[2].

إن عليا، الذى كانوا يأملون أن يكون المطالب بحقهم والمدعى عنهم ظهر أنه عدوهم الألد. وأصبح أمر المقاومة المسلحة أمرا غير ممكن فقد كان انكسارهم حاسما. ولكنهم كانوا يعرفون من هو المسئول عن قتل آبائهم وإخوتهم فلما نظروا ما تم من أمر المملكة الإسلامية التى مزقتها الحروب الداخلية أخذوا ينظرون بعين الحقد إلى الطموح الشخصى للرجال الذين أصبحوا يعتقدون بأنهم هم العثرة فى سبيل الوحدة الوطنية. إن الروايات التى تذكر بالتفصيل المؤامرة التى انتهت باغتيال علي[3] على الرغم من اعتبار أحد الكتاب لها من الروايات المشكوك بصحتها[4] قبلها المبرد ويكررها اليعقوبى ويذكرها الدينورى وهى بلا شك الأساس لرواية المسعودى[5] قال: فى سنة أربعين اجتمع بمكة جماعة من الخوارج فتذاكروا الناس وما هم فيه من الحرب والفتنة وتعاهد ثلاثة منهم على قتل علي ومعاوية وعمرو بن العاص، وتواعدوا واتفقوا على أن لا ينتكص رجل منهم عن صاحبه الذى يتوجه إليه حتى يقتله أو يقتل دونه وهم: عبد الرحمن بن ملجم لعنه الله وكان من تجيب، وكان عدادهم فى مراد فنسب إليهم، وحجاج بن عبد الله الصريمى ولقبه البرك، وزادويه مولى بنى العنبر. فقال ابن ملجم: أنا أقتل عليا وقال البرك: أنا أقتل معاوية، وقال زادويه: أنا أقتل عمرو بن العاص، وتواعدوا أن يكون ذلك ليلة سبع عشرة من رمضان وقيل: ليلة إحدى وعشرين فخرج عبدالله بن ملجم المرادى إلى علي فلما قدم الكوفة أتى قطام بنت علقمة وكان علي قتل أباها يوم النهروان وكانت أجمل أهل زمانها فخطبها فقالت لا أتزوج حتى تسمى لى جعلا قتال: لا

(١) طبقات ابن سعد ج٣ (١) ص ٢١.

(٢) عقيدة الشيعة دوايت دونالدسن.

(٣) طبقات ابن سعد ج ٣ ـ ص ٢١.

(٤) دائرة المعارف الإسلامية مادة «الخوارج».

(٥) الكامل للمبرد ص ٥٤٨، تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ٢٥١ وما يليها، الدينورى ص ٢٢٧ ـ ٢٢٩، مروج الذهب للمسعودى ج٤ ص ٤٢٦ وما يليها. ـ عقيدة الشيعة ص ٥٥.

تسألينى شيئا إلا أعطيته فقالت: ثلاثة آلاف وعبد وقينة وقتل علي، فقال ما سألت هو لك مهر إلا قتل علي فلا أراك تدركينه قالت: فالتمس غرة فإن أصبته شفيت نفسى ونفعك العيش معى وإن هلكت فما عند الله خير لك من الدنيا فقال والله ما جاء بى إلى هذا المصر وقد كنت هاربا منه إلا ذلك وقد أعطيتك ما سألت وخرج من عندها.

٢ - تعقيب:

إن الرواية التى تحدثت عن تآمر الخوارج على قتل الإمام علي ليس فيها ما يشهد لدور ابن سبأ فى التآمر على قتله لا من قريب ولا من بعيد وهى لليعقوبى، والدينورى والمسعودى فإن روايتهم جاءت خالية من دور ابن سبأ الضالع فى مسيرة الأحداث التى غيرت مسيرة الخلافة الإسلامية على وجه التاريخ فلم يكن بينهم مشيرا ولا مشاركا ولا مخططا.. لكن رواية سيف بن عمر كما رواها الطبرى فإنها جعلته أصل كل شر وبلاء.

ونحن لا ننكر الوجود التاريخى لابن سبأ ولا ننكر أن له تخطيطا فى توجيه بعض الأحداث.. لكننا ننكر مبالغات المؤرخين حين أسبغوا عليه دورا بارزا فى الفتنة الكبرى، بينما الأمر وواقع الأحداث غير ذلك؛ لأن الدور البارز يدور حول تلك المحاور التاريخية:

* طلحة والزبير وعائشة.
* معاوية وعمرو بن العاص.
* التحكيم والغدر بالإمام.
* جيش الإمام علي نفسه.

فأين دور ابن السوداء؟

على أى حال إن القول فيه لا يخرج عن كونه مروج أفكار وجدت الأرض المهيئة بين الأعراب البداة الذين كانوا ضالعين فى فتنة الردة أو من الذين قد خرج بينهم المتنبؤون دعاة الأفكار الضالة.

وكما قلنا فى كتابنا[1]: إن الثورة على عثمان ما هى إلا ثورة القبائل العربية فى

---

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، دار الشروق.

شبه الجزيرة على قريش لاستئثارها بالخلافة، وأن تلك الثورة جاءت انتصارا للتيار القبلى على التيار الإسلامى، أو هى انتصار للعصبية العربية على الإسلامية. وإن عثمان ذهب ضحية تلك الظروف، فلما بويع علي جاء يمثل التيار الإسلامى فى اتجاهاته وميوله، فى ظروف استعلاء التيار القبلى وانتصاره.

يقول الإمام علي ناقدا الروح القبلية وقيمها التى قد نشطت وعادت إلى الظهور فارضة منطقها فى رسم خريطة العلاقات الاجتماعية والسياسية داخل المجتمع. وقد أفلحت إلى حد بعيد فى تمزيق وحدة المجتمع، وإشاعة روح الشك والضغينة بين فئاته السياسية. يقول فى إحدى خطبه:

«قد اصطلحتم على الغل فيما بينكم، ونبت المرعى على دفنكم[(١)]. وتصافيتم على حب الآمال، وتعاديتم فى كسب الأموال. لقد استهام بكم الخبث وتاه بكم الغرور والله المستعان على نفسى وأنفسكم[(٢)].

فالقبائل دخلت الإسلام كما دخلت قريش وهاجرت لإعلاء رايته ولكن قريشا استأثرت بالخلافة وقادت وتزعمت. ومما زاد من هذا التذمر، أن عامة القوات الفاتحة كانت من القبائل فرصتها سانحة للتدخل، كما ظهرت نزعة إقليمية لعلها تطور للنزعة القبلية فى الأمصار بمعنى عدم ارتياح الأقاليم لسلطة المدينة وسيادتها، إذ إن الموارد كانت ترسل من الأمصار إلى بيت المال بالمدينة أى أن الفتنة بكل مراحلها إنما جاءت نتيجة للصراع أو التصادم بين التيار الإسلامى من ناحية والتيار القبلى من ناحية أخرى، أى أن خلافة علي كلها كانت صراعا بين التيارين الإسلامى، والقبلى[(٣)].

---

(١) حركة التاريخ عند الإمام على ـ دراسة فى نهج البلاغة ص ١٠٢ محمد مهدى شمس الدين.

(٢) الدفن: جمع دفنة: ما يتبلد ويتجمد ثم ينبت عليه العشب ونبت المرعى عليه فتبدو جميلة وهى فى الواقع قذرة، لعب بكم الشيطان» خدعكم.

(٣) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، دار الشروق.



الفصل الثانى

الفكر السبئى

كان الإمام علي يضيق بابن سبأ ضيقا شديدا حتى همَّ علي بقتله ذات يوم لولا أن نهاه عبدالله بن العباس وقال له: «إن قتلته اختلف عليك أصحابك، وأنت عازم على العود إلى قتال أهل الشام، وتحتاج إلى مداراة أصحابك»[1]؛ لذلك تراجع علي عن قتل ابن سبأ. ثم رأى إخراجه من الكوفة فنفاه إلى المدائن[2].

وحينما قتل علي - رضى الله عنه - زعم ابن سبأ أن المقتول لم يكن عليا، إنما كان شيطانا تصور للناس فى صورة علي، وأن عليا صعد إلى السماء كما صعد إليها عيسى ابن مريم عليه السلام، وقال: «كما كذبت اليهود والنصارى فى دعواها قتل عيسى كذلك كذبت النواصب والخوارج فى دعواها قتل علي، وإنما رأت اليهود والنصارى شخصا مصلوبا شبهوه بعيسى، كذلك القائلون بقتل علي رأوا قتيلا يشبه عليا فظنوا أنه علي وأن عليا قد صعد إلى السماء[3].

زعم ابن سبأ أن عليا حى لم يمت؛ لأن فيه الجزء الإلهى[4] ولا يجوز أن يموت. وزعم أن عليا فى السحاب وأن الرعد صوته وأن البرق سوطه[5]، والسبئية من سمع منهم صوت الرعد قال: عليك السلام يا أمير المؤمنين[6].

---

(١) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٥.

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ص ٥٩. البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢١، ص ٢٣٥.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق. ص ٢٣٣.

(٤) الأشعرى مقالات الإسلاميين ج١ ص ١١. الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.

(٥) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤. أورد الشهرستانى تلك الرواية غير أنه ذكر أن البرق تبسمه» ج١ ص ١٧٤.

(٦) التاريخ السياسى للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين د. عبد المنعم ماجد.

ويرى د. فياض أن بداية الغلو في الأئمة العلويين قد عـزيت إلى عبدالله بن سبأ رئيس الفرقـة المعروفة بالسبـئية[1] وقد اخـتلف في أصل عبـدالله بن سبـأ وفي كونه شخصية حـقيقية أم خيالية، وفي غيـر ذلك من أمور سنأتي على ذكرها في ما يلي من الصفحات.

فابن سبأ كـان يهوديا فأسلم ووالى عليا[2]. ويروى الطبرى أن عبـدالله بن سبأ كان يهـوديا من أهل صنعاء أمـه سوداء»[3]. وتبين لـه وتسمى أن المؤرخين المسـلمين أطلقـوا على عـبد الله بن سـبـأ لقب ابن السـوداء نسبـة لأمه، وأنـه كان يهـوديا من صنعاء[4].

أما سـعد الأشعـرى فإنه، على الرغم من إشارتـه إلى يهودية ابن سبـأ نقلا عن جماعة من العلمـاء، فإنه يتبنى عروبة ابن سبأ وأصله اليمـاني بقوله: «وهو عبدالله بن وهب الراسبي الهمـداني» ثم يجعل له مساعدين في رئاسـة السبئية وهمـا «عبد الله بن حرس وابن أسود»[5]. فسعد الأشعرى ربما يكون أول من أثار الشك في يهودية ابن سبأ وذلك بإثبات أصله العربي واعتقد أن لشكه المذكور نتائج مهمة؛ إذ إنه يؤدى إلى فقدان هدف من أهداف مروجي قصـة ابن سبأ وهو زعمهم أن أصل التشـيع من اليهودية على اعتبار أن أول من قال بوصية النبي ﷺ لعلي هو عبدالله بن سبأ اليهودي الأصل.

أما زمان ظهور الآراء السبئية ومكانها ففيها اختلاف. يقول النوبختي: «فلما قتل علي ـ رضي الله عنه ـ افتـرقت التي ثبتت على إمامتـه... فصارت فرقـا ثلاثة: فرقة منهم قالت: إن عليا لم يقتل ولـم يمت..، وهي «أول من قال منها بالغلو وهذه الفرقة تسمى السبـئية أصحاب «عـبد الله بن سبأ».. ويبدو من الرواية السـابقة أن زمن ظهور السبئية كان بعد مقتل علي

أما مكان الفرقة المذكـورة فهو العراق؛ لأن عليا كما تقـول الرواية نفسها نفى ابن سبأ من الكوفة إلى المدائن[6].

---

(١) النوبختي، فرق الشيعة، ص ١٩

(٢) أيضا، ص ٢٠.

(٣) التاريخ ٣: ٤٥٩، محـمد بن يحيى، التمـهيد والبيان في مـقتل الشـهيد عثـمـان (بيروت، ١٩٦١) ص٥٥.

(٤) Hiutsms ,M. Th . "Ibn S ab'a " , Ency . of Islam . I-p29.

(٥) المقالات والفرق، ص ٢٠.

(٦) فرق الشيعة، ص ١٩.

أما الطبرى، وهو المصدر الرئيسى لقصة ابن سبأ، فيورد روايتين فيما يتعلق بزمن ظهور ابن السوداء قال فى الرواية الأولى: إنه ظهر بعد أن أسلم فى زمن عثمان دون أن يحدد تاريخا معينا(١)، ويقول الطبرى فى الرواية الثانية أن عبدالله بن عامر والى البصرة علم، بعد مضى ثلاث سنين من إمارته، بوجود رجل اسمه حكيم بن جبلة كان يسكن البصرة ويترأس عصابة من اللصوص كانت تغير فى المناسبات على أطراف بلاد فارس فكتب فى أمره إلى عثمان فأمر الخليفة بحجزه وجماعته فى البصرة «فكان (حكيم بن جبلة) لا يستطيع أن يخرج منها فلما قدم ابن السوداء نزل عليه واجتمع إليه نفر. . .»(٢).

ولما كانت ولاية ابن عامر على البصرة فى سنة ٢٩هـ(٣)، وأنه حبس حكيم بن جبلة رئيس اللصوص بعد ثلاث سنين من بدايتها، يكون قدوم ابن السوداء للبصرة بين ٣٢ ـ ٣٣هـ.

ويظهر من رواية الطبرى السابقة أنها تحدد وقتا لظهور السبئية أسبق من رواية الأشعرى التى أوردناها، فهى تجعل ظهورهم فى السنوات الأخيرة من حكم عثمان بينما الأشعرى يجعل ذلك الظهور بعد مقتل علي. وسنرى فيما بعد أن تحديد هذا التاريخ كان مهما فى نظر من أقحموا قصة ابن سبأ فى النزاع بين عثمان وبين من ثار عليه من المسلمين؛ لأنهم أرادوا أن يظهروا أن خروج ابن سبأ كان فى السنوات الست الأخيرة من حكم عثمان وهى السنوات التى قويت فيها المعارضة وعدها المؤرخون فترة المخالفات التى ارتكبها عثمان.

أما المكان أو الأمكنة التى ظهر فيها ابن سبأ وجماعته فهى، كما وردت عند رواة قصة ابن سبأ الحجاز والبصرة والكوفة والشام ثم مصر.

كان ابن سبأ فى الشام فى حدود سنة ٣٣هـ؛ وتنقله من البصرة إلى الكوفة ثم الشام يتطلب نصف سنة على الأقل. وعند الرجوع إلى الطبرى نجد أن المناظرة التى جرت بين معاوية وأبى ذر حول قضايا المال كانت فى سنة ٣٠ هـ قال الطبرى: «لما ورد ابن السوداء الشام لقى أبا ذر فقال يا أبا ذر لا تعجب إلى معاوية يقول المال مال الله ألا

(١) التاريخ. ٣، ٣٧٨ ـ ٩.
(٢) أيضا، ٣: ٣٦٨.
(٣) أيضا ٣: ٣٢٠.

إن كل شيء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتاه أبو ذر فقال ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله. .»[1].

وبعد المناظرة المذكورة كتب معاوية إلى عثمان في أمر أبي ذر وأخبره أنه يثير الفتنة عليه، فطلب الخليفة من معاوية أن يبعث بأبي ذر إلى المدينة «فبعث (معاوية) بأبي ذر ومعه دليل»[2] ولما وصل أبو ذر المدينة قابل عثمان في السنة نفسها، وجرى بينهما نقاش حول المال، وانتهى إلى نفي أبي ذر إلى منطقة تعرف بالربذة حيث توفي هناك سنة ٣١ أو ٣٢ هـ[3] ومن هذا يظهر أن الجدل حصل بين أبي ذر ومعاوية في سنة ٣٠ للهجرة وأن أبا ذر أعيد للمدينة في السنة نفسها، ثم مالبث أن توفي في سنة ٣١ أو ٣٢هـ كما أسلفنا. كل هذه الحوادث حصلت قبل التاريخ الذى حدده واضعو قصة ابن سبأ لظهوره وهو سنة ٣٣هـ، فكيف يصح أن نقر مقابلة أبي ذر لابن سبأ في الشام سنة ٣٠هـ مع أن ابن سبأ لم يظهر بعد، وأن ظهوره إن صح، كان بعد وفاة أبي ذر ولعل في هذا دليلا على أن ابن سبأ لم يكن شخصية تاريخية وأن أبا ذر لم يلقه في أي وقت من الأوقات.

١ - هل عمار هو ابن السوداء؛

ويناقش د. فياض رأى الوردى وهو فيما نرى رأيا بعيدا عن الصواب ولا يصدق إلا في ذاكرة الوردى. يقول الدكتور الوردى في معرض كلامه عن ابن سبأ: «ويبدو أن هذه الشخصية العجيبة اخترعت اختراعا وقد اخترعها أولئك الأغنياء الذين كانت الثورة موجهة ضدهم»[4].

ويرى الوردى أن ابن سبأ هو عمار، ويرى أن من غرائب التاريخ أن نرى كثيرا من الأمور التى تنسب إلى ابن سبأ موجودة في سيرة عمار بن ياسر على وجه من الوجوه. ويسوق أدلة على ذلك منها:

١ ـ إن ابن سبأ كان يكنى بابن السوداء ومثله في ذلك عمار.

---

(١) التاريخ، ٣: ٣٣٥.

(٢) أيضا، ج٣، ص٣٣٦.

(٣) القمى، عباس، الكنى والألقاب، ج١ (النجف، ١٥٩٦) ص ٧٣.

(٤) الوردى على، وعاظ السلاطين (بغداد، ١٩٥٤، ص ١٥١).

٢ ـ كان عـمار من أب يمـانى، ومعنى هذا أنه كـان من أبناء سبأ، فكـل يمانى يصح أن يقال عنه أنه ابن سبأ.

٣ ـ وعمـار فوق ذلك كان شـديد الحب لعلي بن أبى طالب يدعـو له ويحرض الناس على بيعته فى كل سبيل.

٤ ـ وقد ذهب عـمار فى أيام عثـمان إلى مصـر وأخذ يحرض الـناس ثمة على عثمان. فضج الوالى منه وهم بالبطش به.

٥ ـ وينسب إلى ابن سبـأ قوله: إن عثمـان أخذ الخلافة بغـير حق وإن صاحبـها الشرعى هو علي بن أبى طالب.

٦ ـ و٧ ـ قضايا تتعلق بدور عمار فى حرب الجمل وفى علاقته مع أبى ذر.

ويستخلص الوردى أن ابن سبأ لم يكن سوى عـمار بن ياسر. فقد كانت قريش تعتـبر عمارا رأس الثـورة على عثمان، ولكنهـا لم تشأ فى أول الأمر أن تصرح بـاسمه فرمزت عنه بابن سـبأ أو ابن السوداء، وتناقل الرواة هذا الرمز غـافلين وهم لا يعرفون ماذا كان يجرى وراء الستار[1].

وقد قـبل الدكتور الشـيبى الرأى السابق، ثم حـاول تعزيزه بإيراد نصـوص تثبت القضايا التى وردت فى محتوياته[2].

يبدو أن رواة قصة ابن سبأ وضعوا على لسان بطل قصتهم آراء ذات أهمية بالغة منها:

أولا: الرجـعة: روى الطبـرى أن ابن سبـأ قال «لهم (أهل مـصر) فـيما يـقول العجب ممن يزعم أن عـيسى يرجع ويكذب بأن محـمدا ﷺ يرجع. وقد قـال الله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... (٨٥)﴾ [القصص] فمـحمد ﷺ أحق بالرجوع من عيسى. قال فقبل ذلك عنه ووضع لهم الرجعة فتكلموا فيها».

ثانيا: الوصـية: قال ابن سـبأ لمريديه، كـما يروى الطبرى: «أنـه كان ألف نبى ولكل نبى وصى، وكـان علي وصى محمـد ﷺ، ثم قال: محـمد ﷺ خاتم الأنبـياء وعلي خاتم الأوصـياء، ثم قال بعـد ذلك من أظلم ممن لم يجز وصيـة رسول الله ﷺ

(١) أيضا، ص ٣٧٤ ـ ٨.

(٢) الشيبى، كامل، الصلة بين التصوف والتشيع، ج١ ص ٣٦ ـ ٤٠.

ووثب على وصى رسول الله ﷺ وتناول أمر الأمة. ثم قال لهم بعد ذلك: إن عثمان أخذها بغير حق وهذا وصى رسول الله ﷺ فانهضوا فى هذا الأمر فحركوه وابدوا بالطعن على أمرائكم وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس وادعوهم إلى هذا الأمر فبث دعاته..[1].

ثالثا: القول بأن المال مال المسلمين لا مال الله: روى محمد بن يحيى خبرا رفعه إلى سيف بن عمر أن ابن السوداء لما ورد الشام لقى أبا ذر فقال: «يا أبا ذر ألا تعجب إلى معاوية يقول: المال مال الله عز وجل، ألا كل شىء لله كأنه يريد أن يحتجزه دون المسلمين، ويمحو اسم المسلمين فأتاه أبو ذر فقال: ما يدعوك إلى أن تسمى مال المسلمين مال الله، فقال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره، قال: فلا تقله عَلّني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول مال المسلمين وأنوى. وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له مثل ذلك، فقال له: من أنت؟ أظنك والله يهوديا. فأتى عبادة بن الصامت فتعلق به فأتى معاوية، فقال هذا: والله الذى بعث عليك أبا ذر. وكان أبو ذر بالشام، وجعل يقول يا معشر الأغنياء، واسوا الفقراء، بشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكان من نار..... فما زال حتى ولع الفقراء بمثل ذلك وأوجبوه على الأغنياء، وحتى شكا الأغنياء ما يلقون من الناس»[2].

رابعا: نسبة الألوهية إلى علي. يقول الرازى: إن السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ. «وكان (عبدالله بن سبأ) يزعم أن عليا هو الله تعالى. وقد أحرق على ـ رضى الله عنه ـ منهم جماعة..»[3].

ولابن السوداء آراء أخرى ذات صلة بالنقد الذى وجه للخليفة عثمان وإلى ولاته. يقول طه حسين: «يضيف كثير من الناس كل ما ظهر من الفساد والاختلاف فى البلاد الإسلامية أيام عثمان «إلى ابن السوداد»[4].

أما القول بالرجعة الذى نسب إلى ابن سبأ فهو يختلف عن الرجعة التى تحصل

(١) التاريخ، ٣: ٣٧٨ ــ ٩.

(٢) التمهيد، ص ٧٤ ــ ٥، واليدرى، ٣: ٣٣٥.

(٣) الرازى، فخر الدين، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين (القاهرة، ١٩٣٨) ص ٧٢.

(٤) الفتنة الكبرى، ج١ (القاهرة، ١٩٤٧) ص ١٢٨ ــ ٩.

بعد ظهور المهدى، والتى أصبحت من ضروريات مذهب الإمامية. وسنشير إلى ذلك عند كلامنا عن عقائد الإمامية فى فصل لاحق. ويطلق ابن الجوزى على الغلاة القائلين برجعة من نوع الرجعة المنسوبة لابن سبأ اسم «الرجعية» ويعدها فرقة متميزة عن الإمامية. ويقول: إنهم «زعموا أن عليا وأصحابه يرجعون إلى الدنيا وينتقمون من أعدائهم»[1].

ويبدو أن واضعى قصة ابن سبأ استهدفوا من نسبتهم القول بالرجعة إلى ابن سبأ تشويه فكرة الرجعة عند الشيعة الإمامية. تلك الفكرة التى تختلف فى مضمونها، كما سنبين فى حينه، عن مفهوم الغلاة للرجعة.

أما القضية الثانية التى نسبت إلى ابن سبأ فهى القول بوصية النبى ﷺ لعلي. ويعلم واضعو قصة ابن سبأ أن الشيعة يقولون بفكرة الوصاية. ولكن الشيعة يرون أن الله أمر نبيه محمدا ﷺ أن ينص على علي بالوصية، ونص النبى ﷺعلى ذلك فى يوم الغدير بحضور سبعين أو ثمانين ألفا من المسلمين. ويرى الحُلِّى أن حديث الوصية لم يرد بكتب الشيعة فقط بل أورده أحمد بن حنبل فى مسنده بطرق ثمانية، وأورده ابن عبد ربه فى العقد الفريد، وأورده مسلم فى الصحيح[2]. بينما أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يجعلوا مصدر وصاية النبى ﷺ لعلي يهوديا طارئا على الإسلام هو ابن السوداء وليس النبى ﷺ وبأمر من الله. ولا يخفى ما فى هذه القصة من التشويه والنكاية بالشيعة وهو، على ما أعتقد، ما قصده واضعو قصة ابن سبأ.

أما فيما يتعلق بالزعم القائل بأن ابن سبأ وجماعته نسبوا الألوهية إلى على فيبدو أن الغلو بالإمامة عند السبئية تطور مع الزمن فتحول إلى القول بالألوهية. يقول سعد الأشعرى بعد أن يشرح عقيدة السبئية بالغلو فى علي: «وقالوا بعد ذلك فى علي أنه إله العالمين...»[3] أما الرازى فيجعل القول بألوهية علي عقيدة أساسية لدى السبئية ونص بصراحة على أن ابن سبأ «يزعم أن عليا هو الله تعالى»[4]. وبمرور الزمن أصبح ابن سبأ لم يقل بإلهية علي فحسب بل يزعم أنه هو نبيه. وقول العلامة الحلى: «عبدالله بن سبأ.. غال ملعون حرقه أمير المؤمنين علي بالنار، كان يزعم أن عليا ـ عليه السلام ـ إله

(١) تلبيس إبليس، ص ٢٢.

(٢) الحلى، الحسين بن يوسف، إثبات الوصية (النجف لا. ت) ص ١٩.

(٣) المقالات والفرق، ص ٢١.

(٤) اعتقادات، ص ٧٢.

وأنه نبى، لعنه الله»[1]. وهكذا جعلوا ابن سبأ يتنقل مع الزمن، من القول بالغلو بإمامة علي إلى القول بإلهيته وينتهى إلى الادعاء بالنبوة. ولعل التنقل المذكور، وتراكم الإضافات على محتوى القصة يقوم دليلا على ضعفها وعلى اختلاف الأقوال المنسوبة لابن سبأ فيها. ويقول هوتسما: إن أفكار ابن سبأ لم تبق على ما أرادها واضعوها الأوائل بل تطورت. ويضيف قائلا: «يصعب جدا أن نقرر القضايا التى قالها ابن سبأ وتلك التى قالها خلفاؤه»[2].

أما الدكتور فياض فيقول:

أما عمار بن ياسر فقد أراد واضعو قصة ابن سبأ أن يشوهوا معارضته لعثمان ويجعلوها ناتجة عن وقوعه تحت تأثير ابن سبأ. قال الطبرى: إن عثمان بعد أن سمع فيما أثاره ابن سبأ من التشويش فى الأمصار أرسل رجالا ممن يثق بهم إلى الأمصار فأرسل محمد بن مسلمة إلى الكوفة، وأسامة بن زيد إلى البصرة، وعمار بن ياسر إلى مصر وقالوا: أيها الناس ما أنكرنا شيئا ولا أنكره أعلام المسلمين ولا عوامهم. . .» واستبطأ الناس عمارا حتى ظنوا أنه اغتيل فلم يفجأهم إلا كتاب من والى عثمان على مصر ابن أبى سرح يخبرهم أن عمارا قد استماله قوم بمصر وقد انقطعوا إليه منهم عبدالله ابن السوداء[3]. وأراد واضعو القصة أن يورطوا عمار بن ياسر فى الوقوع تحت تأثير ابن سبأ كما وقع أبو ذر وغيره من قبل. ولو رجعنا إلى المصادر لوجدنا أن معارضة عمار لعثمان تعود إلى بداية تولى الأخير للخلافة. خطب عمار بعد بيعة عثمان فى المسجد فقال: «يا معشر قريش، أما إن صرفتم هذا الأمر عن أهل بيت نبيكم ﷺ ههنا مرة وههنا مرة فما أنا آمن من أن ينتزعه الله فيضعه فى غيركم كما نزعتموه من أهله ووضعتموه فى غير أهله. .»[4]. وذات مرة أخذ عثمان مالا من بيت المال بالمدينة يسقط فيه حلى وجوهر فأخذ منه عثمان ما حلى به أهله فأظهر الناس الطعن عليه. . فقال: لنأخذ حاجتنا من هذا الفىء وإن رغمت أنوف أقوام فقال له علي: إذن تمنع من ذلك ويحال بينك وبينه. وقال عمار بن ياسر: أشهد الله أن أنفى أول راغم من ذلك، فقال عثمان: أعلى يا ابن المتكأ تجترئ ؟ خذوه. فأخذ ودخل عثمان فدعا به فضربه

---

(١) غالحلى، الحسن بن يوسف «الرجال» (طهران، ١٣١٢) ص ١١٤.
(٢) Op. cit, I, p.29
(٣) الطبرى، ٣: ٣٧٩.
(٤) المسعودى، مروج ج٢، ص ٢٣١.

حتى غشى عليه. . .[1] ويبدو أن معارضة عـمار لعثمان كانت مستـمرة وعنيفة نال من أجلها عمار الضـرب وحاقت به الفتن. وقد أثارت شدة عثمان تجـاه غضب بنى مخزوم حلفاء عمار فانحرفوا عن عثمان من أجل ذلك[2].

٢ - رأى الوردى فى الميزان:

بعد مناقشة فياض له وهى مناقشة علمية نقول:

يذهب د. على الوردى فى كـتابه (وعـاظ السلاطـين) وهو بصدد التـعليق على عبدالله بن سبـأ إلى تأويل تاريخى غريب بقدر ما هو عجيب يقوم على خلع شـخصية تاريخية قابلة للجدل ليزرع عليها شخـصية تاريخية لا يقبل وجودها جدلا ولا شكا بناء على رؤيته الذاتية التى تخصـه هو دون غيره. وهى إحلال شخصيـة عمار بن ياسر ذلك الصحابـى الجليل محل شخصـية مزعومـة هى عبدالله بن سبـأ الذى ينسب إليه حكاية التآمر والدسائس والفتن، وتكلف فى سبيل زعمـه أدلة اصطنعها من عند نفسه اصطناعا ليثبت حكمه الذى أعـده قبلا - بسبق إصرار - وحين نعرض لأدلته التى سـاقها تأخذك من تلابيب فكرك لتقف بك على طرفى النقيض تماما لنتائجه الذى ذهب بها إلى أن ابن السوداء هو عمـار بن ياسر، إنها رؤية تباعـد بينها المقارنة ولا تدنيهـا. فإن تراءى لعلى الوردى أن يمنية عـمار وإطلاق ابن السوداء عليـه فيه ما يدفع إلى المقـارنة فإن فيهـا ما يباعد بينها أكثر، فابن السوداء اليهودى جـاء يغدر بالإسلام ويثير فتنا عظيمة تتشكل مع الأحداث بألوانهـا. بغض النظر عن تحقيق الوقـائع التاريخية التى ترفض وجـوده، وأما سيرة عمار بن ياسر. . . فهى فى مصر كما هى فى الكوفة والبصرة والعراق صبغها حب الرسول ﷺ وجعل استـشهاده نقطة فاصلة بين الفـئتين الباغيـة والعادلة فى قوله ﷺ: ويح عمـار تقتله الفئة البـاغية - وكان تأول الحـديث من الفئتـين يشهد بصحـة روايته، وصلاح عـمار. واتخذت الفئـتان من استـشهاده حجـة على براءتهما حـين تنازعا من المقصود بالفـئة الباغية. فـهل هم الذين أخرجوه أم هم الذين قتلوه؟ فحـرص الفريقين على البراءة من دمه دفعـهما إلى إشكالية التأويل وما ذلك كـان منهم إلا بحثا عمن هو أولى بالبراءة من الأخرى حـتى تكون بمنجاة من وزر قتله - فلم تدَّع عليـه إحداهما بأنه صاحب فتنة أخرجته عن صحبة الرسول ﷺ، كذلك لم تدع عليه بأنه كان على يهوديته

(١) أنساب الأشراف، ٥: ٤٨.

(٢) المسعودى، مروج ج ٢، ص ٢٢٧.

ملتحفا الإسلام[1]. وإذا لم يكن عبد الله بن سبأ لم يكن له وجود تاريخى فما معنى إطلاقه على عمار؟ إن الأعمال التى تنسب إلى ابن السوداء وتداولها المؤرخون، من الظلم الفادح أن يحملها عمار، ومن الأشد ظلما أن نرضى لعمار هذا الظلم. ورد فى السنة النبوية أن أبا ذر الغفارى عير أعرابيا بأمه فقال له: يا ابن السوداء فنهاه الرسول ﷺ عن ذلك فقال له: إنك امرؤ فيك جاهلية. فكيف ينكرها الرسول ﷺ على أبى ذر حين سب أعرابيا ثم نرضى إطلاقها على عمار؟

ونلاحظ أن المستعربين الروس لا يلقون بالا إلى عبدالله بن سبأ فصاحب كتاب العرب والإسلام، والخلافة العربية لا يذكره سلبا ولا إيجابا رغم أنه ركز على مظاهر الترف فى عصر الخليفة الثالث عثمان بن عفان وعلى غضب أبى ذر الغفارى الذى نادى بأن مال المسلمين إنما هو للمسلمين جميعا يوزع عليهم بالعدل.. وعده إيليا بيف فى كتابه بأنه على رأس الناقمين وذكر أن النبى ﷺ كان يصفه بالصحابى الصالح والمسلم التقى الكامل[2]. وأغفل ذكر ابن سبأ إغفالا تاما، ولم يكن إغفاله إياه لرؤية ذاتية وهوى إنما مرده إلى تقديمه كتاب فتوح البلدان للبلاذرى المتوفى سنة ٨٩٢ وهو قبل الطبرى وكتاب فتوح البلدان هو أولى بالتقديم على الطبرى المتوفى ٩٩٣ وله موازنة علمية بين منهجيهما دقيقة وقيمة[3] كذلك لم ترد فى اليعقوبى المتوفى ٨٩٧ ولا الدينورى المتوفى ٩٨٥ إنما انفرد بها الطبرى لذلك لم تلق منه اهتماما. وتتميز عن كتب الاستشراق الغربى. والأمر الثانى: أن الاستشراق الروسى فضح نفسه؛ لأنه أخضع التفسير التاريخى الإسلامى للأسس الماركسية فحصرها فى المفهوم الاقتصادى الاجتماعى. والإسلام لديه دين ظالم لكن الاستشراق الغربى ليس واحدا، والمعاصر خير من القديم ويرى أن الإسلام نشأ فى وضح النهار.

٣ - عمار بن ياسر وابن سبأ:

لقد أقلقنى ما وقع من التباس بين عمار بن ياسر وابن سبأ ردده بعض الباحثين استمدادا من بعض المستشرقين حول الصحابى الجليل عمار بن ياسر الذى جعله رسول الله ﷺ حدا فاصلا بين الفئتين: الباغية والعادلة.. وقفت أمام تلك المسألة كثيرا وبينما ذلك الكتاب.. تاريخ الشيعة يتخذ طريقه إلى المطبعة وقع فى يدى كتاب: آراء الخوارج

(١) ص ١٥١ طبع بغداد ١٩٥٤، والمزيد راجع كتاب عبد الله بن سبأ مرتضى العسكرى.
(٢) العرب والإسلام والخلافة العربية ص١٩٦.
(٣) نفس المصدر ص ١٦٨.

ـ لمؤلفه الأستاذ الفاضل الدكتور عمار الطالبي وجدت فيه دراسة وافية عن عبدالله بن سبأ وعمار بن ياسر فسررت بها ـ ورأيت فيه حلا حاسما فألحقتها بالكتاب واستفادت الدراسة بها.

٤ - عبد الله بن سبأ:

ذهب المستشرق Lévi della Vida أن عبد الله بن سبأ له أسماء كثيرة فهو ابن حرب، وابن السوداء، وابن وهب السبائى، ويكاد يجمع أهل السنة أنه يهودى يمنى، وتعتبره الشيعة غاليا من الغلاة قد لعنه جعفر الصادق (+١٤٨هـ/٧٦٦) نفسه، ويذكر الذهبى استنادا إلى رواية سيف بن عمر أن ابن سبأ كان سبب الفتنة الحادثة فى الملة، ويفترض المستشرق Hodgson أن ابن سبأ ليس يهوديا فى أغلب الاحتمالات، مشايعا فى ذلك لـ: Lévi della Vida[١] واعتبره البغدادى (+١٠٣٨/٤٢٩)، وابن كثير (+١٣٧٢/٧٧٤) روميا[٢]، وافترض M.S. Hodgson أن عبد الله بن سبأ شخص مغاير لابن السوداء، وان ابن السوداء كان مساعدا له، والذى أنكر موت على بن أبى طالب عنده هو ابن السوداء لا عبد الله بن سبأ[٣]، ولكن لم يأت بنصوص أو أدلة تؤيد افتراضه، وقد يسر لى أن أعثر على نص يؤكد ما ذهب إليه المستشرق المذكور، وهو ما أورده أبو المظفر الإسفراييني فى كتابه «التبصير فى الدين» حيث قال: (ووافق ابن السوداء عبد الله بن سبأ بعد وفاة علي فى مقالته هذه، وكانا يدعوان الخلق إلى ضلالتهما)[٤] ويذكر سعد بن عبد الله أبو خلف الأشعرى القمى (+٣٠١/٩١٣) أن عبد الله بن سبا كان يساعده شخصان أحدهما عبد الله بن حرس، وثانيهما ابن أسود، ووصفهما بأنهما من أجل أصحابه[٥]، ولعل ابن أسود هذا، وابن السوداء الذى ذكره الإسفراييني هما شخص واحد وهو سودان بن حمران اليمنى، من قبائل مراد اليمنية التى نزلت بمصر؛ لأنه قد عرف بنشاطه الكبير فى مصر، وفى المدينة، وكان من أعظم

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «ابن سبأ».

(٢) د. النشار، ونشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ٢ ص ٣٤.

(٣) دائرة المعارف الإسلامية، ط ٢، ج١، ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٤) التبصير فى الدين ص ٧٢، ويمكن أن يكون المستشرق قد اطلع على هذا النص ولكنه لم يشر إليه. ولكن لا يفهم من النص أن ابن السوداء وحده هو الذى أنكر موت على، وإنما يدل على أن ابن السوداء انضم إلى عبد الله بن سبأ بعد مقتل علي.

(٥) سعد القمى، كتاب المقالات والفرق، ص ٢٥.

مساعدى ابن سبأ فى الفسطاط المصرى، وهو الذى يذكر المؤرخون أنه اتصل بعمار بن ياسر حين قدومه إلى مصر، وكان قائدا لإحدى فرق الوفد المصرى ومن الذين تسوروا دار عثمان، ونادى حين قتل: قد قتلنا عثمان، ويذكره الطبرى بكثرة(١).

وأول ذكر لابن سبأ فى تاريخ الطبرى ورد فى حوادث سنة ٣٠هـ/ ٦٥٠، وكان أول اتصال له بأبى ذر الغفارى (+٣٢هـ/ ٦٥٢) وأثار أمامه الاعتراض على معاوية فى سياسته الاقتصادية وأبدى شبه استنكار لقول معاوية: «المال مال الله كأنه يريد أن يقول إن معاوية يرغب فى أن يختص به دون المسلمين، ثم أتى أبا الدرداء عويمر (+٣٢/ ٦٥٢) فحدس فيه أنه شخص يهودى وقال له: (أظنك والله يهوديا واتصل أيضا بعبادة ابن الصامت (+٣٤/ ٦٥٤) فشك فى أمره، وأمسك به، وحمله معه إلى معاوية، وقال له: (هذا والله الذى بعث عليك أبا ذر؟(٢) وهذا شأن المؤامرات إلى اليوم حيث يقوم المتآمرون ذوو النزعات الأيديولوجية أو الاقتصادية أو السياسية بالاتصال بكبار الأعيان، والسياسيين والذين لهم تأثير فى الحياة الاجتماعية والسياسية والدينية فإذا يئسوا اتصلوا بالشيطان والمجرمين، ثم إن ابن سبأ ظهر فى سنة ٣٢هـ/ ٦٥٢ بالبصرة وكان أول اتصال له بحكيم بن جبلة العبدى أحد لصوص بنى عبد القيس، من أصل عمانى أقام بالبصرة وكان ذا شجاعة نادرة، يشارك فى الفتح، وفى المعارك فإذا رجع الجيش الذى يرافقه خنس عنه، وتنكر وأخذ فى الإغارة على بلاد فارس، والاستيلاء على أموال أهل الذمة، حتى اشتكى منه أهل الذمة والمسلمون على السواء إلى الخليفة عثمان، فأمر والى البصرة بحبسه بها، ومنعه من الخروج منها، فلما أتى ابن السوداء البصرة كما أشرنا نزل عنده، واجتمع به وبنفر معه ويبدو أنه كان عارفا للأحوال الاجتماعية فى البصرة. وقد عبر الطبرى برواية سيف بن عمر عن طريقة عمله فى ذلك الاجتماع بقوله: (فطرح لهم ابن السوداء ولم يصرح، فقبلوا منه واستعظموه)(٣)، وهذا شأن الغنوصية فى الدعوة فى البداية بالإشارة والتلميح ثم يعقبه التصريح، ويبدو أن وراء ابن السوداء جماعة تحركه، وتترصد الظروف وتختار الأشخاص الذين يمكن لهم أن ينفذوا المؤامرة. ويذكر هذا المصدر أن والى البصرة وهو عبد الله بن عامر (+٥٩/٦٧٨) اشتبه فى أمر ابن سبأ

(١) الطبرى، ط. الحلبى، جـ ٥ ص ٩٩، ١٠٣.

(٢) ن. م. جـ ٤ ص ٢٨٣.

(٣) ن. م.، جـ ٤ ص ٣٢٦ قال المقريزى: فجعل يطرح مسائل على أهلها، (البصرة) ولا يصرح، فأقبل عليه جماعة وأعجبوا بقوله، فطرده عبد الله بن عامر، الخطط. جـ ٤ ص ١٤٦.

وفى اتصاله بجبلة بن حكيم، ذلك اللص الجرىء فأرسل إليه وسأله عن أمره فأجابه بأنه رجل من أهل الكتاب يرغب فى الإسلام، فشك فيه الوالى، وأمره بالخروج من المدينة[1]، وكان حكيم بن جبلة بعد ذلك رئيسا لإحدى الفرق الأربع من الثوار الذين قدموا المدينة من البصرة، كما كان الأشتر رئيسا لفرقة من فرق ثوار الكوفة، فالسبائى الأول بهذا الاعتبار إنما هو حكيم بن جبلة، فلما أخرج ابن سبأ من البصرة دخل الكوفة فأخرج منها أيضا، وينص الطبرى ثم المقريزى من بعده على أنه توجه من الكوفة إلى مصر، واستقر بها، وأخذ فى الطعن على عثمان زاعما أنه استولى على الخلافة بدون حق، داعيا إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ويحدثنا السيوطى (+٩١١/ ٧٩٥٠٠٥) نقلا عن سيف بن عمر، أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٣٤هـ/ ٦٥٤ وأنه أوحى إلى طائفة من الناس كلاما اخترعه، فحدث برجعة محمد ـ عليه السلام ـ قائلا ما دام عيسى سيرجع فإن محمدا وهو أفضل منه لا بد من رجوعه إلى الدنيا، محتجا بالقرآن بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... ﴿٨٥﴾ ﴾ [القصص] واخترع بدعة القول بأن عليا وصى بل إنه خاتم الأوصياء كما أن محمدا خاتم الأولياء، وصرح بأن عليا أصلح للخلافة من عثمان وما عثمان إلا معتد على ولاية علي وخلافته، فأنكر عليه بعض الناس وافتتن به جمع كثير من أهل مصر، وكان ذلك سبب قيامهم على عثمان، واعتبر السيوطى هذه الواقعة من الحوادث العجيبة التى وقعت بمصر[2] واعتمد ابن سبأ فى مصر على جماعة يمنية، وخاصة أحد أبناء وجوه القبائل اليمنية التى جاءت إلى مصر أثناء الفتح، وهو الغافقى ابن حرب العكى، ويظهر أنه لما لم يجد صنائع فى الحجاز والشام، اقتصر على بعض الأعوان فى البصرة والكوفة واختار الإقامة فى الفسطاط بمصر وجعله مركزا له، وهنالك استمال الغافقى الذى أدرك ابن سبأ ناحية الضعف فيه، وهى حبه الشديد للرئاسة والجاه، واستغل كذلك محمد بن أبى حذيفة بن عتبة، وجعله اليد اليمنى له ولجماعته فى مصر ولمعرفته بأحوال الخليفة عثمان؛ لأنه كان ربيبه وتنكر له حين رفض أن يوليه إحدى الولايات، أما الزعامة والتصدير فكانا للغافقى[3] وكان ابن سبأ يكاتب صنائعه

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٣٢٧.

(٢) السيوطى، حسن المناظرة فى أخبار مصر والقاهرة جـ ٢، ص ١٤٨، وأورد هذا المعنى أيضا ابن كثير، فى البداية والنهاية، مصر (دون تاريخ) جـ ٧، ص ١٦٨.

(٣) الطبرى ث. مصر ١٣٢٦ جـ ٥ ص ١٠٧، آراء الخوارج ص٥١.

فى البصرة والكوفة ويكاتبونه فى الطعن على عثمان وأمرائه. وعندما ذهب الوفد المصرى إلى المدينة صحبهم ابن السوداء، وأعطيت الرئاسة العامة للفرق الأربع إلى الغافقى بن حرب وفى المدينة استفحل أمرهم، ومنعوا عثمان من الصلاة بالناس فى المسجد وأصبح الغافقى إماما يصلى بالناس ثم كان من الجانين على عثمان وبعد مقتله بقيت المدينة فى إمارة الغافقى خمسة أيام(1)، وكان لابن سبأ دعاة بثهم، لاستمالة الناس بدعوى أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر(2)، وبذلك يبدو لنا كيف اعتمد على القبائل اليمنية النازلة بمصر، ونشر بين الناس فكرتين يهوديتين هما المهدية والرجعة وحاول أن يستر وجهه بقاعدة إسلامية هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر(3)، وهنا نتساءل عن تاريخ إسلامه، قيل أنه أسلم بعد مضى سنة من خلافة عثمان، وقيل بعد مضى سبع سنين، وأغلب الظن أنه أسلم بعد سنة ٢٣/ ٦٥٣ لأنه سئل فى هذه السنة، فقدم نفسه على أنه رجل من أهل الكتاب، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك، وبعد ذلك كله كان يبدو ابن سبأ للناس بالكوفة، مع قتلة عثمان(4).

وقد أثيرت مسألة عبد الله بن سبأ لدى الباحثين المعاصرين فحاولوا أن يشككوا فى وجود عبد الله بن سبأ باعتباره شخصية تاريخية واقعية، فزعم بعضهم أنه عمار بن ياسر (+٣٧/ ٦٥٧)(5) وأنكر بعضهم الآخر وجوده على الإطلاق، أو شك فى وجوده(6)، أما القدماء من أهل السنة والشيعة على السواء فإنهم اعتبروه باتفاق حقيقة واقعية وشخصية تاريخية وليست من اختراع أهل السنة أو الأموية العثمانية كما يزعم بعض الباحثين المحدثين؛ ذلك أن سعد بن عبد الله القمى الشيعى المعاصر الطبرى وهو

---

(1) ن. م.، جـ ٥ ص ١٣٠.

(2) الطبرى، ط. دار المعارف جـ ٤ ص ٣٤١.

(3) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢، ص ٢٤.

(4) الدكتور النشار، نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢، ص ٢٦.

(5) وهو الدكتور على الوردى، فى كتابه: وعاظ السلاطين بغداد، ١٩٥٤، ص ٢٧٤ وتبعه على ذلك الدكتور كامل مصطفى الشيبى، فى كتابه الصلة بين التصوف والتشيع مطبعة الزهراء بغداد، جـ١ ص٣٥ ـ ٣٧.

(6) من هؤلاء الدكتور طه حسين فى كتابه الفتنة الكبرى (عثمان) ط ٧ دار المعارف القاهرة ١٩٦٨ ص ١٣٣ (على وبنوه) دار المعارف القاهرة ١٩٦٦ ص ٢٤ ـ ٢٥ وأنكره أيضا مرتضى العسكرى، فى كتابه «عبدالله بن سبأ) ط ٢ القاهرة ١٣٨١ ص ١٧ ت ١٢ ويلاحظ أن أغلب المنكرين له أو المشككين فيه من الشيعة، آراء الخوارج، د. عماد الطالبى.

ثقة وواسع المعرفة بالأخبار[١] يقر بوجوده، ويقرر أنه أول من بذر بذرة الغلو[٢] الشيعي وكذلك النوبختي الذي يعتبر من أعظم مؤرخي مقالات الشيعة فإنه يتفق تمام الاتفاق مع القمي[٣]، أما أن عبد الله بن سبأ هو عمار بن ياسر فيما يزعم على الوردي فهذا أبعد؛ لأن الوقائع التاريخية لا تسمح لنا بذلك فإن ابن سبأ لما ابتدأ حركته بمصر، وشاعت أخبار جماعته أرسل عثمان بن عفان عمار بن ياسر إلى مصر ولم يعد كما عاد أصحابه الذين أرسلوا إلى بقية الأقاليم، وذلك لأن بعض أصحاب ابن سبأ استمالوه لما يعلمون من سوء التفاهم بينه وبين عثمان مما جعل والي مصر يرسل به إلى المدينة فعاتبه عثمان وقال له: يا أبا اليقظان قذفت ابن أبي لهب أن قذفك وغضب عليّ أن أخذت لك بحقك أخرج عني يا عمار[٤]، وكان ابن سبأ قد ذهب إلى المدينة وكانوا يكاتبونه من مصر[٥]، فهما شخصان أحدهما بمصر، والآخر بالمدينة، ولماذا يرمز بنو أمية بابن السوداء لعمار بن ياسر في ذلك العهد وهم قد نسبوا إلى من هو أعظم من عمار بن ياسر من الصحابة الكفر، وأعلنوا سبه من على المنابر، وأما القول بأن عليا أيضا رمز له بأبي تراب وسمى أتباعه بالترابية فإن النبي ﷺ نفسه كناه بهذه الكنية في قصة أوردها البخاري ومسلم، وابن هشام (+٢١٨هـ/ ٨٣٤)[٦] في سيرته[٧] فما يمنع الناس أن يصرحوا باسم عمار بن ياسر ولما أغفل الرواة ذلك ولم يعرفوا ما وراءه كما يدعي بعض الباحثين، وإذا رمزوا له باسم ابن السوداء فلماذا يجعلونه يهوديا؟ فإذ قيل أنهم يقصدون بذلك تشويه التشيع، والتشنيع عليه، فإننا نقول أن مؤرخي الشيعة أنفسهم يعترفون بوجود ابن سبأ، وبأنه يهودي، ويقررون أنه من أول من أدخل الغلو إلى التشيع، وللطعن على أبي بكر وعمر وعثمان، ثم إذا كانت هذه العقائد الغالية الدخيلة قد وجدت في ذلك العهد فهي أثر واقعي موجود والأثر يدل على المؤثر، وما ابن سبأ إلا شخص ظهر من بين أشخاص بقوا تحت الخفاء شأن الجمعيات السرية، وما هو إلا داعية

---

(١) سعد القمي كتاب المقالات والفرق (مقدمة محققة محمد جواد مشكور ص ١).
(٢) ن. م.، ص ٢٠.
(٣) النوبختي أبو الحسن، فرق الشيعة ص ٢٢ ـ ٢٣.
(٤) ابن عساكر، (+٥٧١/١١٧٦) تريخ دمشق، دمشق ٢٩ ـ ١٣٥١هـ جـ ٧ ص ٤٢٩.
(٥) الطبري، جـ ٤ ص ٣٥٣.
(٦) وقيل توفي سنة ٢١٣ هـ/ ٨٢٨ وهو هشام بن عبد الملك بن أيوب الحميري.
(٧) محمد الزمخشري (+٥٣٨/ ١١٤٤) كتاب خصائص العشرة الكرام البررة تحقيق الدكتورة بهيجة باقر الحسني، بغداد ١٣٨٨هـ/١٩٦٨ ص ٩٢ تـ١.

يظهر ويختفى، وإذا كان مقصد من ينكر عبد الله بن سبأ أو يشكك فيه أن يبعد التهمة عن الشيعة وصلتها باليهودية فكيف يستطيع أن ينفى الأفكار اليهودية التى اعتنقها الغلاة منها وخاصة السبائية؟ ومن أين جاءت وكيف وصلتهم والحال هذه أن الشيعة غير الغالية تعترف بوجود هؤلاء الغلاة، وبأن العناصر التى فيها أجنبية ودخيلة على الإسلام، وتنكر ذلك أشد الإنكار، أما الطبرى وغيره من الرواة فإنهم يدركون جيدا الفرق بين عبد الله بن سبأ وعمار بن ياسر كما أشرنا إلى ذلك من قبل، حيث نص على وجود أحدهما بالمدينة وعلى الآخر بمصر، وأما مجرد اتفاقهما فى الكنية وهى ابن السوداء فهذا لا يقوم دليلا على أنهما شخص واحد؛ لأننا نجد أعلاما كثيرين متشابهين فى الكنى، ومما جعل بعض المؤرخين يؤلفون فى المتشابه من الأسماء والكنى، لبيان الفروق بينها، وأما صلة عمار بن ياسر بأبى ذر فهى كصلة بقية كبار الصحابة الذين تجمعهم الصحبة، والتقدم الزمنى فى العقيدة، ولم يثبت أن عمار بن ياسر أوحى إلى أبى ذر ربما كان يدعو إليه من الزهد الذى لا يجب على المسلم أن يطبقه على النحو الذى كان يدعو إليه، وإنما يشتركان فى أنهما قد غضبا على عثمان، لأمور تستوجب الخروج والدعوة إلى قتله، وفتح باب الفتنة الأعظم على الأمة، أما ذهابه إلى مصر[1] فإنه لم يذهب إليها بغية الوثوب على عثمان، وإنما بعثه عثمان نفسه، لاستطلاع الحالة هناك باعتباره من كبار الصحابة فاستماله بعض الناقمين على عثمان وكانت حالته النفسية وسوء تفاهمه مع عثمان يدعو إلى الإنكار عليه، لكن كما ينكر كل مسلم على أخيه المسلم إذا أخطأ فلم يكن يهدف إلى قتله أو إلى الخروج المسلح عليه؛ لأن الصحابة وخيار المسلمين لم يكن لهم دخل فى دم عثمان، ولهذا نجد ابن تيمية يقرر: (إن خيار المسلمين لم يدخل أحد منهم فى دم عثمان، لا قتل ولا أمر بقتل وإنما قتلته طائفة من المفسدين، فى الأرض من أوباش القبائل، وأهل الفتن، وكان على - رضى الله عنه - يقول: اللهم العن قتلة عثمان فى البر والبحر والسهل والجبل)[2] وإذا كان الأمويون قد رمزوا إلى عمار بن ياسر بابن السوداء فلماذا لم يشنع عليهم من كتب التاريخ وهم قد بدأوا التدوين بعد عصر الأمويين، ولهم الحرية الكاملة فى أن ينسبوا إلى الأمويين كل رذيلة، وإذا كان الرواة قد نسبوا إلى معاوية أشياء كثيرة مشينة، ونسبوا إلى علي أشياء

---

(١) إذا كان وجود عبد الله بن سبأ فى مصر يتفق مع عمار بن ياسر فيها فإن النصوص التى لدينا تحدثنا أن عبد الله بن سبأ دخل مصر سنة ٣٣هـ أو سنة ٣٤هـ وكان عمار بن ياسر فى ذلك الحين فى المدينة ولم يدخل مصر إلا حين بعثه عثمان سنة ٣٥هـ. (الطبرى جـ٤ ص ٣٤١).

(٢) ابن تيمية، منهاج السنة جـ ٢ ص ١٨٦.

وإلى كبار الصحابة أقوالا وأفعالا، وأضافوا وطعنوا عن هوى فما المانع إذن أن ينسبوا إلى عمار بن ياسر ما نسبوه وأن يكشفوا عن حقيقته؟ أو عن حقيقة من غالط الناس واخترع شخصية وهمية، وأفكارا وهمية، وربط بينهما ربطا وهميا؟ ثم إن الاختلاف الوحيد بين ابن سبأ وعمار بن ياسر يلزم منه أشياء غير مقبولة، ولا تسمح لنا الظروف التاريخية والنفسية أن ننسبها إلى عمار بن ياسر، فإذا كان عبد الله بن سبأ عمار بن ياسر، فمعنى ذلك أن الأخير هو الذى أشاع فكرة الوصية وفكرة المهدوية والزندقة مما لا يستطيع أى مؤرخ أن ينسبه إلى عمار بن ياسر الصحابى الجليل، والواقع أن عمار بن ياسر ليس شيعيا إلا بالمعنى اللغوى فهو من محبى علي وأتباعه، ولكن ليس من الذين يعتقدون فيه أنه الوصى، أو المهدى أو أن الإله حل فيه، أو أن الرسول ﷺ نص على خلافته، وهو المبدأ الأساسى للشيعة، ومن ثم فإن التشيع بمعناه الاصطلاحى الحقيقى لا ينطبق على عمار بن ياسر وإلا فلنا أن عبد الله بن عباس شيعى أيضا؛ لأنه كان اليد اليمنى للإمام علي، وكان رسوله إلى الخوارج، ومن ناحية أخرى فإن يهودية ابن سبأ لم يذكرها أهل السنة فحسب، وإنما ذكرها قدماء الشيعة، فالنوبختى ينص على أن جماعة من أهل العلم من أصحاب على قالوا: إن ابن سبأ يهودى وكان يقول بالوصى قبل أن يسلم[1].

وقد تعجب بعض الباحثين، من أن شخصا واحدا كابن سبأ استطاع أن يوقد نار هذه الفتنة كلها حتى أنكر وجوده التاريخى كما فعل طه حسين حيث ذهب إلى أن ابن سبأ منحول مخترع، أدى إلى اختراعه الجدل بين الشيعة وخصومهم من الفرق الأخرى، وقال أنه قد بولغ فى أمره كيدا للشيعة[2] وقد أشرنا إلى أن قدماء الشيعة أقروا وجوده، ولم ينكروه، فلو وضع كيدا لهم، وتشنيعا عليهم لردوا ذلك، وهم يترصدون خصومهم، ولكن لم نجد ذلك فى كتب الشيعة المتقدمين الذين جادلوا وناضلوا عن مذهبهم، ومن جهة أخرى فإن عبد الله بن سبأ لم يكن وحده، فله جماعة وراءه وخلايا منها من يوجد بالبصرة، ومنها من يوجد بالكوفة، وبمصر، وإلا فكيف نستطيع أن نفسر النظام المحكم الذى اتبع فى تكوين الوفود التى جاءت إلى المدينة، الوفد البصرى والكوفى والمصرى، فقد كان كل وفد يتكون من أربع فرق، وكل فرقة عليها رئيس، ويتزعم الفرق الأربع من كل بلد رئيس عام، والغريب أن الوفود الثلاثة متساوية

(١) النوبختى، فرق الشيعة، ص ٢٣.

(٢) الفتنة الكبرى، (على وبنوه) ص ٢٤ ــ ٢٥.

فى عدد الأعضاء[1]، فهل كان هذا مصادفة واتفاقا أم أنه ينبئ عن حركة منظمة؟ أما التعجب من أن فردا واحدا يلعب على عقول الصحابة، فإننا لا نقول أنه لعب على عقول الصحابة، وإنما لعب بعقول ذوى الأغراض، والأهواء وذوى العصبية وحب الرئاسة وكسب المال، فكان الجو الاجتماعى مناسبا ومهيئا للعب فى الماء العكر، والواقع أن ما قاله الدكتور طه حسين من أن الظروف الاجتماعية والسياسية كانت تدعو إلى الاختلاف وإلى نشأة المذاهب[2] حق، ولكن دور ابن سبأ، وبقايا أهل الردة، والغنوص المستتر واليهود المستترين واقع تاريخى وحق أيضا، فإذا كان المنافقون والمرتابون والمتنبئون موجودين فى عهد النبى نفسه[3] فكيف لا يوجدون فى عهد اتصل فيه المسلمون بالأمم الأخرى ذوات العقائد القديمة والديانات والأمجاد السياسية التى لا يمكن نسيانها فى ظرف يسير، ولا يمكن السكوت المطلق أمام هذا المعتقد الجديد الذى أصبح بيده المجد والسلطة والسياسة والمال، لهذا اعترف طه حسين بأن ابن سبأ استغل الفتنة ولم يثرها[4]. أما الشيخ زاهد الكوثرى (+١٣٧١/١٩٥٢) فإنه يعلل دور ابن سبأ بأن (المسلمين ما خبروا أساليب الماكرين وطرق فتن الفاتنين من قوم بهت أهل غدر وفجور على ما فى صحيح البخارى وغيره)[5] ويرد على من أنكر وجوده بإجماع المؤرخين الإثبات على وجوده وإحداثه[6] ويعتمد من أنكر وجوده مثل مرتضى العسكرى المعاصر على أن رواية سيف بن عمر لا يوثق بها وأنه ضعفه أهل الحديث واتهموه بالكذب تارة والزندقة أخرى، وبأنه ربما يكون مناصرا لتميم التى كان لها دورها فى الردة، والواقع أن سيف بن عمر ليس ثقة فى الحديث ولكنه من أقدم المؤرخين إذ توفى فى عهد الرشيد (+١٩٣/٨٠٨) بعد ١٧٠هـ/٧٨٦ ومن ناحية أخرى فإنه من رجال الترمذى

---

(١) الطبرى جـ ٥ ص ١٠٤.

(٢) طه حسين الفتنة الكبرى، (عثمان) ص ١٣٤

(٣) قال ابن قتيبة: (ونحن نعلم أنه قد كان يشهد مع رسول الله ﷺ المشاهد، ويحضر معه المغازى المنافق لطلب المغنم، والرقيق الدين والمرتاب والشاك، وقد ارتد بعده أقوام منهم عيينة بن حصن لحق بطليحة بن خويلد حين تنبأ وآمن به. تأويل مختلف الحديث ص ٢٣٤.

(٤) طه حسين، الفتنة الكبرى (عثمان) ص ١٣٤.

(٥) زاهد الكوثرى، مقدمته على «المقدمات الخمس والعشرون» من دلالة الحائرين لموسى بن ميمون (+٦٠٥/١٢٠٧) شرح أبى بكر محمد التبريزى، من أهل القرن السابع الهجرى مصر، ١٣٦١هـ ص٣.

(٦) قال زاهد الكوثرى: (رغم محاولة بعض المقسطين من أبناء اليوم إنكار وجود شخصى يقال له عبد الله ابن سبأ فضلا عن أن يكون أحدث تلك الأحداث، المقدمات الخمس والعشرون (المقدمة) ص ٣ ــ ٤.

(+٢٧٩/ ٨٩٢) ولم يناقض فى روايته راويا آخر، ولم يرد عليه أحد من المحدثين أو المؤرخين فى خبره الخاص بابن سبأ، وإذا كان لنا أن نتهمه فى أخباره عن حروب الردة؛ لأنه تميمى ويحتمل أن يتعصب لقومه فليس لنا أن نتهمه فى خبره عن ابن سبأ إذ لم يكن له غرض خاص، بل إن اتهامه بالزندقة يقتضى أن يخفى عن الزنادقة مشاركتهم فى إيقاد نار الفتنة، فلا ينسب ذلك إلى عبد الله بن سبأ وإلى أمثاله، فليس هناك مبرر واضح يحتم علينا أن نتهمه فى هذا الخبر خاصة، وقد عرف قوم ابن سبأ بالدس فى كل زمن[١] ولم ينكره اليهود فى زماننا كجولدتسيهر وغيره من أهل الاستشراق من اليهود ومن غير اليهود[٢] وأما الزعم بأن خبر ابن سبأ لم يكن إلا من اختراع المحدثين فى القرنين الثانى والثالث الهجريين فإن التدوين فى التاريخ والحديث إنما نشط فى هذين القرنين فكيف يصبح القول بأن ما يقوله هؤلاء المدونون فى هذا العصر مخترع منحول؟

ويقرر بعض الباحثين أن خبر إحراق السبئية مزعوم مخترع من أصله، وأنه لم يرد فى أى كتاب موثوق من كتب التاريخ[٣] يمكن رده بما أورده البخارى عن عكرمة (+١٠٥/ ٧٢٣) قال: (أتى علي ـ رضى الله عنه ـ بزنادقة فأحرقهم فبلغ ذلك ابن عباس، فقال لو كنت أنا لم أحرقهم لنهى رسول الله ﷺ، ولقتلتهم لقول رسول الله ﷺ: من بدل دينه فاقتلوه)[٤] وفسر الشراح الزندقة هنا بتفاسير مختلفة منها أنها تطلق على من أسر الكفر وأظهر الإسلام، ومنها أنها الثنوية، ومنها أنها ادعاء وجود إله آخر مع الله، والمعنى الأخير هو ما زعمه ابن سبأ فى علي، وروى حديث آخر بسند وصفه ابن حجر بأنه سند حسن أن قوما جاءوا عليا فقالوا له: (أنت ربنا وخالقنا ورازقنا)

---

(١) يقول زاهد الكوثرى: والشيء من معدنه لا يستغرب، وسعى قومه (ابن سبأ) فى الفتن طول التاريخ حقيقة ملموسة لا يتجاهلها إلا من هو ضالع معهم فى آخر الزمن وقد عرفهم الناس فى كل دور بأنهم أهل مكر وغدر. ـ مقدمة «المقدمات الخمس والعشرون» ص ٤.

(٢) أمثال: فان فلوتن فى كتابه (السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ترجمة الدكتور حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم، ط ١ مصر ١٩٣٤ ص ٧٩، ونيكلسون فى كتابه به تاريخ الأدب العربى ط. كمبردج، ص ٢١٥ ودوايت م. دونلدسن فى كتابه (عقيدة الشيعة) ٨٥ من الترجمة العربية مكتبة الخانجى مصر ١٩٤٦. العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر ترجمة محمد يوسف موسى وجماعة ص ١٩٢ فلهوزن، الدولة العربية وسقوطها، ترجمة يوسف العش، دمشق ١٩٥٦، والخوارج والشيعة ص ٢٤٣ وما بعدها.

(٣) الدكتور كامل مصطفى الشيبى، الصلة بين التصوف والتشيع، جـ١ ص ٩١.

(٤) ابن حجر، فتح البارى، جـ١٢ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٧.

فحاول أن يردهم؛ فلما أبوا أمر بإحراقهم[1]، وورد بطريق آخر منقطع أنهم جماعة من عباد الأوثان، وفى رواية أخرى أنه أحرق المرتدين، وذكر ابن حجر، ما ذهب إليه أبو المظفر الإسفرايينى من أنهم طائفة السبائية، وعلق على ذلك بأنه من الممكن أن يكون أبو المظفر يعتمد على الرواية التى أشرنا إلى أن ابن حجر وصف سندها بالحسن، وذهب ابن تيمية إلى أن الذين حرقهم على هم الذين قالوا له أنت إله، فأحرقهم عند باب مسجد بنى كندة بالكوفة، واعتمد فى ذلك على ما أخرج البخارى فى صحيحه عن ابن عباس[2] إلا أنه يذكر أن عبد الله بن سبأ نفاه علي إلى ساباط بالمدائن ونفى زميلا له يسمى عبد الله بن يسار إلى خازر[3]، وروى أبو جعفر بن شاهين (+٣٨٥/ ٩٩٥) بسنده عن الشعبى (+١٠٤/ ٧٢٣). وهو كما يقول ابن تيمية كوفى ومن أخبر الناس بالشيعة ـ أن عليا حرق جماعة من غلاة الشيعة ونفى بعضهم، ومن المنفيين عبد الله بن سبأ اليهودى الصنعانى، وعبد الله بن يسار، وروى هذا بطريق آخر عن الشعبى، ورواه ابن عاصم خشيش بن أصرم (+٢٥٤/ ٨٦٨) فى كتابه «الاستقامة» وعنه نقله أبو عمرو الطلنكى شخص آخر من المنفيين وهو أبو بكر الكردوسى[4] على أنه نفى إلى الجابية[5] وروى مثل هذا أبو القاسم الطبرى (+٣٦٠/ ٩٧٠) فى شرح أصول السنة بسنده عن عبدالرحمن بن مالك بن مغول[6] ولكن الأخير ضعيف عند أهل الحديث[7] وهو ثقة فى الرواية فحادثة الحرق ثابتة فى هذه المصادر، وخاصة صحيح البخارى؛ لأن أئمة الحديث يتحرون فى رواية الأخبار، ويشترطون شروطا لا يشترطها المؤرخون من غير أهل الحديث، ومنهجهم منهج علمى يعتمد على النقد التاريخى، ولكن الإشكال فى

---

(١) ن. م.، جـ ١٢ ص ٢٢٧.

(٢) ابن تيمية، مجموع الرسائل الكبرى جـ ١ ص ٢٥ منهاج السنة، جـ١ ص ٨٤.

(٣) نهر بين الإربل والموصل وعليه كوردة يقال لها نخلا يسمى أهلها الخازر ويصب فى دجلة (معجم البلدان).

(٤) ويذكره الملطى باسم «أبو الكردوس» التنبيه والرد، ص ١٥٦ ولعله هو الذى ذكره نصر بن مزاحم المنقرى باسم: كردوس بن هانى البكرى الذى كان من أشد أنصاره وهو الذى يتكلم بلسان قبيلته وبيعة (وقعة صفين ص ٥٥٤ وهو غير كردوسى، (خلف بن محمد الواسطى) المحدث الذى ذكره الذهبى (العبر جـ١ ص ٥٣) لأنه توفى سنة ٢٧٤هـ/ ٨٨٧).

(٥) قرية من أعمال دمشق شمال حوران (معجم البلدان).

(٦) من أهل القرن الثانى الهجرى معاصر للشعبى (+١٠٤/ ٧٢٢). قال فيه النسائى غير ثقة، وقال أبو داود كذاب وقال أحمد والدارقطنى متروك (الذهبى ميزان الاعتدال القسم الثانى ص ٥٨٤).

(٧) ابن تيمية منهاج السنة جـ ١ ص ٦ ــ ٨.

تعيين الطائفة التى أحرقت، وما ورد فى رواية عبد الرحمن بن مالك بن مغول فإنه وقع النص فيه على الرافضة، والواقع أن اصطلاح الرافضة لم يستحدث فى زمن الشعبى[1]، ولكن يمكن أن يكون الناقل للرواية راويا لكلام الشعبى بالمعنى، فاستبدل لفظ الشيعة أو السبائية بلفظ الرافضة التى عرفت فى زمنه، فالثابت على هذا الأساس إنما هو الحرق، أما التعبير فإنه يتغير بتغير الزمن، وبحدوث الاصطلاحات؛ لأن الأخبار والأحاديث تجوز روايتها بالمعنى، ويذكر ابن قتيبة أن عبد الله بن سبأ ادعى الألوهية لعلي فأحرق أصحابه بالنار[2]، أما الذهبى الخبير الناقد للأخبار ورواتها، فيتفق فى التعبير مع ما ورد فى البخارى فيقول فى عبد الله بن سبأ: (من غلاة الزنادقة ضال مضل، أحسب أن عليا حرقه بالنار[3] فهو يظن أن عليا حرقه أيضا، ولكن أغلب الروايات تقول بنفيه إلى المدائن وبحرق أصحابه، ويقرر ابن حجر أن الذين حرقهم هم الذين ادعوا فيه الألوهية[4] والواقع أن أحداث صدر الإسلام لا تزال غامضة تحتاج إلى دراسة، وهذا الغموض لا يسمح لنا بأن نصدر أحكاما قاطعة. فلعل ظهور بعض النصوص أو النقوش ينير لنا السبيل، ورغم هذا فإنه يحلو لبعض الناس أن يلغى وجود ابن سبأ بجرة قلم، أو أن يشكك فى وجوده دون مبرر واقعى، أو دليل قاطع. وهذه المحاولة لتبرئة اليهود من فتنة المسلمين تشبه كما قال الدكتور محمود قاسم محاولة أخرى فى عصرنا هذا، وهى تبرئة اليهود من دم المسيح، حيث أعلن المسيحيون ذلك فعلا حسب اعتقادهم فى قتل المسيح عليه السلام[5].

ظهرت آثار السبئية حتى فى الخروج على علي، فبعد تنفيذ مؤامرتهم فى قتل عثمان أخذوا فى إيقاد نار الفتنة من جديد، فابتدأت النزعة الخارجية على علي قبل حرب الجمل بقليل، وذلك أنه لما خطب وأعلن أنه مرتحل، وأمر بألا يرتحل معه أحد ممن أعان على قتل عثمان، اجتمع بسبب ذلك جماعة ومن بينهم ابن السوداء فتشاوروا وتبادلوا الآراء، فقال ابن السوداء: (إن عزكم فى خلطة الناس فصانعوهم وإذا التقى الناس غدا فانشبوا القتال، ولا تفرغوهم للنظر، فإذا من أنتم معه لا يجد بدا من أن يمتنع ويشغل الله عليا وطلحة والزبير ومن رأى رأيهم عما تكرهون، فابصروا الرأى

(١) ن. م.، جـ ١ ص ٨. (٢) ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث، ص ٧٣.

(٣) ميزان الاعتدال القسم الثانى ٤٢٦.

(٤) ابن حجر، هدى السارى مقدمة فتح البارى ص ٣٣٨.

(٥) الدكتور محمود قاسم، دراسات فى الفلسفة الإسلامية ص ١٤٤ ـ ١٤٥. آراء الخوارج، د. عمار الطالبى.

وتفرقوا عليه والناس لا يشعرون)[1] ثم بعد هذا كله استتر ابن سبأ، ولم يرد أن يظهر على المسرح الذى هيأ له، وأعد له عدته، وحقق بعض الذى يريد، ولذلك فإننا لم نسمع عنه فى معركة صفين، ولم نر له ذكرا، حتى أن نصر بن مزاحم المنقرى لم يذكره فى كتابه وقعة صفين ولا مرة واحدة، كما لم يذكر عبدالله بن وهب الراسبى؛ لأن الأول استتر فى هذه الفترة، والثانى لم يظهر ويشتهر أمره، إلا بعد التحكيم، حيث تزعم حركة الخوارج بالمعنى الاصطلاحى النهائى للخروج، وليس معنى عدم ذكر نصر ابن مزاحم لعبد الله بن سبأ ولعبد الله بن وهب الراسبى أنهما لا وجود لهما؛ لأن المؤلف اختار لنفسه معركة واحدة وتحدث عنها ولم يشر إلى ما قبلها، ولا إلى الظروف التى جاءت بعدها، فهل معنى عدم ذكره لعبد الله بن وهب أنه لا وجود له؟ وليس من المستبعد أن يطلع علينا من ينكر وجوده، متذرعا بأنه غير مذكور عند بعض المؤرخين القدماء، وخاصة المنقرى؛ لأن كتابه يعتبر أقدم نص وصلنا عن معركة صفين.

٥ - أصول مبادئ السبئية:

وقد روى عن عامر بن شراحيل[2] الشعبى أن ابن سبأ قيل له: إن عليا قد قتل، فقال: إن جئتمونا بدماغه فى صورة لم نصدق موته، لا يموت حتى ينزل من السماء ويملك الأرض[3] بحذافيرها.

وفى ذلك يقول الشاعر[4]:

برئت من الخوارج، لست منهم ... من الغزال منهم وابن باب

ومن قوم إذا ذكروا عليا ... يردون السلام على السحاب

وقالت السبئية أيضا بتناسخ الجزء الإلهى فى الأئمة[5] بعد على - رضى الله عنه - فالتناسخ مرتبط بالحلول. أظهر ابن سبأ هذا القول ونشره بين الناس فكان بذلك أصل الغلو فى الإسلام والأصل الذى تشعبت منه أصناف الغلاة[6]. والغلاة هم الذين غلوا

---

(١) الطبرى جـ ٤ ص ٤٩٤.

(٢) هو أبو عمرو، عامر بن شراحيل الهمدانى الكوفى، ولد فى خلافة عمر، وكان علامة التابعين، وهو أكبر شيوخ أبى حنيفة، توفى عام ١٠٤ هـ.

(٣) النوبختى: فرق الشيعة ص ٤٣ وما بعدها. أبو زهرة: تاريخ المذاهب الإسلامية ج١ ص ٤٢.

(٤) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٨٨. البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ص ٥٩. (٦) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.

فى حق أئمتهم حتى أخرجوهم عن حدود الخليقة والبشر. وحكموا فيهم بأحكام الإلهية فصارت لهم فرق مختلفة عديدة انشعبت كلها وانبثقت عن أقوال عبدالله بن سبأ. وكل فرق الغلاة متفقون على التناسخ والحلول. وقد يكون الحلول بجزء، وقد يكون الحلول بكل، فهو كظهور ملك بشخص، أو شيطان بحيوان. وللتناسخ مراتب منها: النسخ، والمسخ، والرسخ[1].

لم يكتف ابن سبأ بتأليه على ومبدأ الحلول والتناسخ بل نراه فى هذه الفترة عقب مقتل علي - رضى الله عنه - يتناول فكرة الرجعة أى رجعة الإنسان بعد الموت إلى الدنيا. وضع لهم رجعة على هذه المرة. لقد أكد ابن سبأ أن عليا حى لم يمت وأنه سينزل من السماء ويملك الأرض بحذافيرها[2]. وسيرجع إلى الدنيا وينتقم من أعدائه[3]. أكد ابن سبأ عودة علي إلى الأرض ليملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا [4] وارتبطت بذلك فكرة المهدى المنتظر الذى تصوره السبئية فى علي دون غيره[5].

انتشرت تلك الأفكار انتشارا سريعا فى مشرق العالم الإسلامى وبخاصة بين الفرس وانتشر التشيع. وبذلك نجحت الحركة السبئية باعتبارها الرابطة التى تربط أبناء الأمة فإذا ضعفت تلك الرابطة سقطت تلك الأمة فى مهاوى الضعف.

انطلق عبدالله بن وهب بن سبأ زعيم الحركة اليهودية آنذاك من منطلقات ثلاث فقد أحدث فى هذه الأمة ثلاثة أمور كان لكل منها الأثر البالغ فى تفريق كلمتها، وتصديع وحدتها وتشعب أمرها وهى:

الأمر الأول: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بوصية رسول الله ﷺ لعلي بن أبى طالب بالإمامة، فعلي وصىّ الرسول ﷺ وخليفته على الأمة من بعده بالنص يوم الغدير[6].

---

(١) تاريخ العرب العام ص ١٥٠ ل. أ سيريو. ترجمة عادل زعيتر.

(٢) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص١٧٤.

(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٥٩.

(٦) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٦ وما بعدها، ص ٢٠٣.

الأمر الثاني: كان ابن سبأ أول من أحـدث القول برجعة النبي ﷺ بعد موته. ثم طور الفكرة بعد ذلك فـأحدث القول برجـعة[1] علي - رضى الله عنه - إلى الدنيا بعد موته. وما ارتبط بذلك من فكرة المهدى المنتظر.

الأمر الثالث: كان ابن سبأ أول من أحدث القول بأن عليا لم يقتل، وأنه لا يزال حيا، وأنه يسكن السحاب؛ لأن فـيه جزءا إلهيا[2] ، أى أن روح الإله تحل فى البشر. وما ترتـب على ذلك من القول بتناسخ الجـزء الإلهى فى الأئمة، أى أن الجـزء الإلهى يحل فى الأئمة[3] لذلك استحقوا الإمامة دون غيرهم.

والواقع أن أكثر هـذه القضايا مأخوذ عن الـيهودية[4] دين ابن سبـأ، والتى كان يعرفها قومـه يومئذ، بل إنه كان يستدل لمن يخدعهم على صحـة هذه القضايا ببعض ما عرف من أحوال موسى - عليه السلام - مع شيء من التموية والتحريف[5].

تلك هى جهود السبئية فى خلافة علي، وهى جهود جبارة هدامة ضالعة فى المكر والخداع والتآمر. تشيع السـبئية لعلي وطالبوا بحقه فى الخلافـة. وبايعوا له بها وانضموا لرجاله وانضووا تحت لوائه، وكـان ذلك جزءا من المخطط. ثم مهدوا لإشـعال نار الفتنة واستغلوا كل موقف لصالحهم. حتى كانت معركة الجمل.

ثم تقربوا من علي ونشروا تلك الأفكار المنافية للعـقيدة، ولا شك أنهم استعانوا بيهود العراق وفارس فانتشر التشيع سريعا[6].

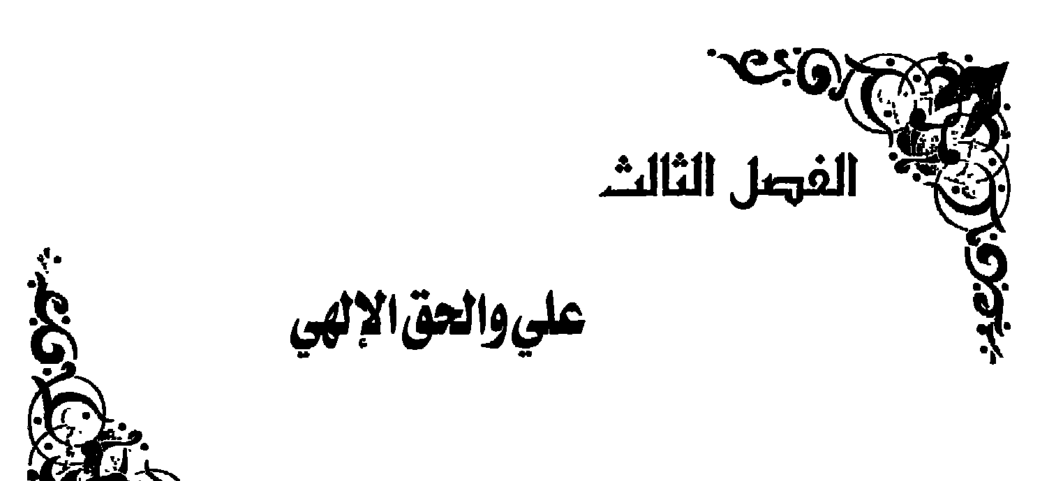
ومن الجدير بالذكـر أن ابن سبأ أول من أظهر القول بالنص بـإمامة علي - رضى الله عنه - ومنه انشعبت أصناف الغلاة[7] ، ومن المؤكد أن السبئـية بأقوالهم تلك، قد خرجـوا على العقـيدة. وفى ذلك يقول البـغدادى: «وهذه الفرقـة ليست من فـرق أمة الإسلام لتسميتهم إليها»[8].

---

(١) بطوشوفسكي: الإسلام فى إيران ص ١٨٩ ـ ١٩٠ (نقلا عن الطبرى).
(٢) جولد تسيهر: العقيدة والشريعة ص ٢١٥. وما بعدها.
(٣) جولدتسيهر: العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ١٩٦. وما بعدها، ص ٢٠٣.
(٤) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.
(٥) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١١.
(٦) السبئية د. نادية حسنى صقر النهضة المصرية.
(٧) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٧٤.
(٨) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢١.

وقد أجمع المحققون من أهل السنة على أن ابن سبأ الملقب بابن السوداء كان على هوى دين اليهود، وأراد أن يفسد على المسلمين دينهم بتأويلاته في علي ثم في أولاده[1] من بعده، فابن سبأ قد أظهر وفاقا وأضمر نفاقا

(١) المصدر السابق ص ٢٣٥



الفصل الثالث

علي والحق الإلهي

إن ادعاء الشيعة على الإمام علي لم يكن بنظر أصحابه وشيعته مجرد طموح سياسي بل حق إلهي له وكان خصوم الشيعة يرون أن للتعاليم والدسائس الشخصية الخفية نسبيا في تاريخ الإسلام اليد الطولى في ظهور وجهة النظر هذه وانتشارها فقد ظهر منذ زمن خلافة عثمان داعية متنقل اسمه عبدالله بن سبأ، قطع البلاد الإسلامية طولا وعرضا «يريد إفساد المسلمين» كما يقول الطبرى ويظهر حسب قول wrlhausen أنه كان يهوديا قبل أن يسلم وأصله من صنعاء اليمن وقد جاء الحجاز ومدينتى البصرة أو الكوفة الحديثتين ثم ذهب إلى بلاد الشام واستقر أخيرا في مصر وفي مصر قام بدور رئيسي في المؤامرة في سبيل علي وأعلن أن أبا بكر وعمر وعثمان كانوا عاصبين[1] وكان الناقمون في خلافة عثمان يكاتبون ابن سبأ سرا وسار مع الركب الذى قدم المدينة من مصر قبل مقتل عثمان[2] ولا يشير ابن سعد إلا إلى كونه أحد القراء الذين صحبوا عليا[3] ، ويذكر ميرخوند في روضة الصفا[4] إن الكاهن اليهودى جاء المدينة وأسلم وهو يأمل أن يكرمه عثمان ويحترمه فلما لم يحصل له ما أراد أخذ يتصل بالناقمين عليه وينكر على عثمان إدارته علنا، وبلغ عثمان خبره أخيرا فقال «ومن هذا اليهودى الذى أتحمل منه هذا؟» وأمر بنفيه من المدينة ثم ذهب إلى مصر وصار من المشاغبين العاملين ضد عثمان .

---

(١) عقيدة الشيعة دوايت دونلدس ص ٦

(٢) الطبرى ج١ ص ٢٤٢، ٢ ص ٩٨ ودائرة المعارف الإسلامية مادة عبد الله بن سبأ

(٣) طبقات ابن سعد ج٤ ص ١٦٣ (٤) روضة الصفا ج٢ ص ٦٠

وكان من احتجاج ابن سبأ قوله: إن النصارى يقولون برجوع عيسى فينزل من السماء فإن قلنا: إن محمدا أعظم من عيسى وجب أن يرجع قبله؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ ... (٨٥)﴾ [القصص].

ومن تعاليمه الأخرى مما كان له نفوذ مباشر قوله: إن لكل نبي وصى وإن عليا وصى محمدﷺ. وقد نصبه بنفسه وإن الناس لما لم يعملوا بأمر الرسولﷺ فقد ظلموا عليا ظلما فاحشا، فوجب عليهم جميعا أن يقروا بحق علي المنصوص عليه من الله، وأن يطيعوه طاعة مطلقة. وقد ذهب غلاة الشيعة إلى أبعد من ذلك فقالوا بألوهية علي نفسه، ويقال: إنهم أخذوا عقيدتهم عن ابن سبأ[1] الذى علمهم «أن روح الله حلت فى كل نبى وأنها تنتقل فيهم الواحد بعد الآخر وقد انتقلت بعد وفاة محمد إلى علي ثم أبنائه الذين انتقلت إليهم الإمامة».

فحدث من ذلك جدال كبير فى ما إذا نص الرسول ﷺ بالفعل على علي فى غدير خم أو لم يفعل، وهل توجد أقوال أخرى للرسولﷺ كان الواجب فهمها على أنها تعبر عن غايته فى نصب علي خليفة له. فقد وردت فى بعض كتب الحديث القديمة عند أهل السنة أحاديث يظهر أنها تؤيد[2] العلويين الذين رفضوا الحديث فى نظرية إجماع الأمة، فى قولهم هذا. ثم كيفوا فيما بعد أنفسهم حسب مقتضيات الظروف واعترفوا بالخلفاء القائمين وبايعوهم بالاسم مع احتفاظهم برأيهم فى أن أحد الفاطميين الأحياء هو بالحقيقة الخليفة أو إمام المسلمين.

وتدل كلمة الإمام: على من يؤتم به فى الصلاة، والإمامة منصب من مناصب الخلافة يحتفظ به الخليفة لنفسه. ولما أمر الرسول ﷺ فى مرضه الأخير أبا بكر أن يصلى بالناس اعتبر ذلك سندا قويا بيد الطاعنين بالقول فى النص على خلافة علي. فقالوا بأن كل نص محتمل سابق لعلي غير واقع. ولم يكن لعلي أن يؤم الناس والصلاة بهم مدة خلافة أبى بكر وعمر وعثمان. وكان الخلفاء الثلاثة يكرمون منزلته ويحترمونه ويستشيرونه، وليس ثمة خبر موثوق يدل على أنه لما استخلف ادعى بسلطة روحانية أكثر مما كان لغيره من الخلفاء. وهو فى مركزه أحد أصحاب رسول الله ﷺ، انتخب للخلافة بعد عثمان بإجماع من كان حاضرا من الوجوه والرؤساء وغيرهم. وقد قتل فى أثناء جهوده للتغلب على ثورة شديدة واسعة النطاق ضد سلطته.

(١) الملل والنحل للشهرستانى.

(٢) صحيح الترمذى ٣١: ٤٦، تاريخ الخلفاء للسيوطى ص ١٧٢ وما يليها.

قال أحمد بن حنبل: «لم ترد رواية بفضل أحد من أصحاب رسول الله ﷺ بقدر ما ورد فى فضائل علي»[1] ووصفها بعضهم فى أنها كانت من الكثرة بحيث أثارت حسد بنى أمية وكرههم له. أما أمر اعتماد محمد ﷺ عليه اعتمادا خاصا، فيعترف به الجميع. ويذكر أصحابه أنه قضى صباه مع رسول الله ﷺ ولم يفارقه. وكان من أول من آمن به وربما كان أولهم بعد خديجة زوجة الرسول ﷺ. ويروى أن النبى ﷺ عندما خرج إلى غزوة تبوك أبقاه فى المدينة وقال له: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى ؟»[2].

وعلى كل حال، فإنه كهارون كان فى بعض الحالات إذا كلف ببعض الواجبات الإدارية الخطيرة كانت أجوبته تفصح عن شعور الشباب وتردد التواضع. فيروى عنه أنه قال: «بعثنى رسول الله ﷺ إلى اليمن قاضيا فقلت: يا رسول الله إنك تبعثنى إلى قوم شيوخ ذوى أسنان وإنى أخاف أن لا أصيب. فقال: إن الله سيثبت لسانك ويهدى قلبك»[3] وكان عمر نفسه يعتبرعليا أقضى أهل المدينة وأقرأهم للقرآن[4].

وقد سماه الحسن البصرى «بعالم الله فى هذه الأمة»[5] «وذكر الواقدى أنه كان عند ظهور الإسلام ستة أو سبعة نفر يعرفون القراءة والكتابة فى قريش قبيلة الرسول ﷺ، منهم عمر وعثمان وعلي، ممن تولوا الخلافة بعدئذ. أما الرسول ﷺ فيقال إنه كان أميا، يكتب له أربعة ما يوحى إليه من القرآن، على ما يجدونه من العسب والرقاع وقطع الأديم والعظام. ومن الروايات التى يرويها المسلمون أن عليا آخر الخلفاء الراشدين كان يكتب الكاف الطويلة التى يمتاز بها الخط الكوفى بصورة مضبوطة يصعب حتى مع آلة القياس التفريق بين الكافات التى يكتبها»[6].

١ - صحيفة الجفر:

وتؤكد بعض الروايات أنه كان عند علي نسخة من القرآن جمعها ورتبها بنفسه وعلق

(١) مسند الإمام أحمد ١ ص ١٠٨، ١١٤، ١١٨، عقيدة الشيعة ص ٦١ دوايت دونلدس.

(٢) ابن حجر ج٢ ص ١، ١٢٨.

(٣) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠١.

(٤) وفيات الأعيان لابن خلكان طبعة دى سلان ج ١ ص ٦٦٣.

(٥) طبقات ابن سعد ٢ (٣) ص ١٠٢.

(٦) جولدتسيهر الباب الخامس الفصل ٣. ــ العقيدة والشريعة فى الإسلام ترجمة حسن عبد القادر وعبدالعزيز عبد الحق. د. محمد يوسف موسى.

عليها بعض الحواشى حسب ما كلم الرسول ﷺ به وهذه الحواشى التى على نسخته هى كما يظهر كل مـا ادعاه علي مما أوحى للرسول ﷺ ولم يكن عنده غيره ولما كـان لقضية حقيقة هذه الصحـيفة التى كان علي يراجعها تأثير على اعتقاد الشيـعة بوجود كتاب سرى يســمونه بالجـفر[1] . فـلا أرى مندوحة من ذكـر بعض الأحاديث الواردة عن الموضـوع فلنتذكر أولا أن كلمة الصحيفة تجمع على صحف وقد جاءت هذه الكلمة بصيغة الجمع فى ذكر «الـصحف المائة التى أنزلت على آدم وشـيث وإدريس وإبراهيم ومـوسى وأشار إليـها القرآن فى سـورة الأعلى «الآية ١٨، ١٩» ﴿إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ⑱ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ ⑲﴾[2]. وجاء فى باب العلم من البخارى حديث رواه عن أبى جُحَيْفَة قال: قلت لعلي: «هل عندكم كتاب؟ «قال» لا، إلا كـتاب الله أو فهم أعطيه رجل مسلم أو ما فى هذه الصحيفة»«قلت»:وما فى هذه الصحيفة ؟» قال. «العقل وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر»[3] وأورد البخارى حديثا عن (إبراهيـم) التميمى رواه مرتين[4] عن أبيه ذكر خطبة لعلى قال فيـها: «ما عندنا شيء إلا كتاب الله وهذه الصحيفـة» ثم ذكر أن فيها التوصية بـالجريح وما يفعل بالإبل المسنة وحدود حرم المدينة وهى بيـن عائر وكذا. «وذكر أحمد بن حنبل هذا الحـديث عدة مرات» وقال: إن حدود حـرم المدينة بين عائر وثور ثم أضاف على عن النبى ﷺ أنه قال: «من أحـدث فيها (أى المدينة ـ المعـرب) حدثا أو آوى محدثا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل»[5]

فإذا كان عمـر على بين العاشرة والخامسة عشر عند أول إسـلامه وأنه كان يعرف الكتابة كـما تذكر الروايات، فليـس ببعيد مـن أن يكون عنده قرآن علق هو حواشـيه بما حدثه به الرسول ﷺ. وأن ما جـاء فى هذه الحواشى قد بيـنته الروايات بصورة عـامة، فهى عبارة عن بعض تفاصيل لأحكام وغيرها، لا غـموض أو سر فيها ولا علاقة لها بما يدعيه الشيعة من الادعاءات المرتبة فى الأزمنة المتأخرة عن كتاب الجفر

ومن هذه الروايات المتـأخرة ما ذكـره الكلينى[6] فى أن «النبى ﷺ علم عليا بابا

---

(١) دائرة المعارف الإسلامية مادة «جفر» بقلم D.B.Mcdonald

(٢) قاموس الإسلام تأليف Haghes

(٣) صحيح البخارى، فصل ٥٨ باب ١، ١٧

(٤) صحيح البخارى ج٣ ص ٣٩، مسند الطيالسى، طبعة حيدر أباد سنة ١٣٢١ هـ رقم ٩١

(٥) عقيدة الشيعة ص ٦٥ دوايت دونالدس

(٦) مسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ٨١، ١١٩، ١٢٢، ١٢٦

يفتح له منه ألف باب»[1] وأن طول هذه الصحيفة، وهى بخط علي سبعون ذراعا بذراع الرسول ﷺ و«فيها كل حرام وحلال وكل شىء يحتاج إليه الناس» وأن عنده الجفر و«فيه علم النبيين والوصيين وعلم العلماء الذين مضوا من بنى إسرائيل» ويذكر المسعودى أن الأئمة المتأخرين كانوا يشيرون إلى هذه الكتب التى يفترض أن عليا تركها لهم يتوارثونها صاغرا عن كابر[2].

والاعتقاد بوجود هذه الكتب المقدسة السرية عند الأئمة، ثابت. وتوسع الكتاب المتأخرون فى وصفها فذكر محمد باقر المجلسى فى القرن السابع عشر فى كتابه (حياة القلوب)[3] أنه لما دعا محمد ﷺ نصارى نجران فى اليمن إلى الإيمان بنبوته وأن عيسى قد بشر به، ذكر كتابا اسمه (الجامعة). ويقولون: إن فى هذه الجامعة صحف ١٢٤ر٠٠٠ نبى. ففيه صحيفة آدم «عن ملكوت الله عز وجل وما خلقه وما قدره فى السموات والأرض، دنيا وآخرة.

وأورث أبو البشر هذا الكتاب الذى يحتوى على جميع العلوم ابنه شيث» فأضاف إليه شيث وأورثه إدريس، وكذلك صحف إبراهيم وموسى وعيسى حتى جاء خاتم النبيين محمدﷺ.

وصنف المجلسى صاحب التآليف الكثيرة كتابا باللغة الفارسية عن حياة الأئمة وقد طبع بالحجر فى طهران سنة ١٩١٢. واسم هذا الكتاب (تذكرة الأئمة) ويذكر فيه أن الجفر الجامع كتاب اتفق العلماء على أنه كان عند علي وأن ما بقى منه اليوم هو ٢٨ فصلا كل منها من ٢٨ صفحة كل صفحة من ٢٨ جزءا. «ولا يعلم ما كتب فيها إلا الله والأئمة أو من علمهم إمام معصوم».

ويشير الكتاب نفسه إلى «الصحيفة» ويقول: إنها بإملاء الرسول ﷺ وخط علي، وطولها سبعون ذراعا وعرضها بعرض جلد الكبش. واسمها أيضا الجامعة وفيها كل حرام وحلال» وكتابان آخران أقل أهمية من الصحيفة أحدهما الجفر الأبيض وهو من أربعة عشر جزءا كل جزء من ١٤ قسما إلخ. ومصحف فاطمة، وأحاديث كثيرة تدل على أن الله أعطى آدم خمسة عشر حرفا من حروف الاسم الأعظم، ونوحا ثمانية

---

(١) أصول الكافى للكلينى ص ٨٥.

(٢) مروج الذهب للمسعودى ج٧ ص ٣٨٢.

(٣) حياة القلوب للمجلسى ج٢ ص ٣١٥.

وإبراهيم ستة وموسى أربعة وعيسى اثنين وآصف بن برخيا حرفا واحدا وأعطى محمدﷺ اثنين وسبعين حرفا، فعلمها عليا[1]

٢ - الإمام علي والحق النصي:

غدير خم:

إن الشيعة يعلقون أهمية كبرى على الخبر الوارد بأن محمدا ﷺ عند عودته من حجة الوداع نزل مكانا يعرف بغدير خم، وفيه أعلن لمن كانوا معه رغبته في نصب علي خليفة من بعده. وينقل ابن واضح اليعقوبي (المتوفى سنة ٨٩١ ب م) أنه قال لعلي في غدير خم:

وخرج ﷺ ليلا منصرفا إلى المدينة فصار إلى موضع بالقرب من الجحفة يقال له غدير خم لثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة وقام خطيبا وأخذ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ فقال: ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال فمن كنت مولاه فعلي مولاه[2]. (ثم قال) أيها الناس إنني فرطكم وأنتم واردون على الحوض وإني سائلكم حين تردون علي عن الثقلين، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، قالوا. وما الثقلان يا رسول الله؟ قال: الثقل الأكبر كتاب الله سبب طرفه بيد الله وطرف بأيديكم فاستمسكوا به ولا تضلوا ولا تبدلوا، وعترتي أهل بيتي[3].

وروى أيضا أن الرسول ﷺ عند انصرافه من غزوة الحديبية وقبل النزول بغدير خم بأربع سنوات كاملة ولثماني عشرة ليلة خلت من ذي الحجة أيضا، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[4] «وقد سميت غزوة الحديبية بصلح الحديبية وبمواعيد المشركين»[5] كما سميت آخر حجة للرسول ﷺ حجة الوداع، في الحالتين يدل بوضوح على احتمال كون

---

(١) تذكرة الأئمة للمجلسي، طبع طهران ١٩١٢ ص ٥٦ وما يليها.

(٢) اورد الإمام أحمد بن حنبل الحديث عدة مرات في مسنده الجزء الاول ٨٤، ١١٨، ١١٩، ١٥٢، ٣٣.　　(٣) تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ١٢٥

(٤) قال المسعودي في كتاب (التنبيه والإشراف) ص ٢٥٥، ١٨ وفي منصرفه ﷺ عن الحديبية قال لأمير المؤمنين ٧٨ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بغدير خم (من كنت مولاه فعلي مولاه) وذلك في اليوم الثامن من ذي الحجة. وغدير خم يقرب من الماء المعروف بالخرار بناحية الجحفة. وولد علي وشيعته يعظمون هذا اليوم. انظر كذلك جولدتسيهر ج ٢ ص ١١٨

(٤) مروج الذهب للمسعودي ج٥ ص ١٥٨.　　(٥) السابق ج٤ ص ١٦

أحدهما تكرارا للثانى. غير أن هناك ما يستدل به من تسلسل الحوادث سنة ٦ للهجرة لم يكن له ولد وكان حفيداه الحسن والحسين من علي وفاطمة لا يزالان طفلين عمر أولهما ثلاث سنوات وعمر الآخر أربع. ولا يمكن أن يخلفه حفيداه إلا إذا اعترف بعلي خلفا له، فإنه ليس من عادة العرب رد النسب إلى ابنته فاطمة(١).

ولا يغرب عن بالنا أن عليا لم يكن ابن عم الرسول ﷺ وصهره فحسب، بل إن أباه أبا طالب كفل محمدا ﷺ ورباه وحماه فلا غرو أن يرغب الرسول ﷺ فى أن ينظر المسلمون إلى علي نظرهم إلى المرجع الثانى فى الأهمية بعده.

ويقول ابن خلكان(٢): (قلت) والثامن عشر من ذى الحجة هو عيد الغدير وهو غدير خم. وخم موضع بين مكة والمدينة به غدير أو بطيحة على قول بعضهم ويقال: إن رسول الله ﷺ لما عاد من مكة بعد حجة الوداع (١٠هـ) وقف فى خم وآخى علي ابن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وقال: علي منى كهارون من موسى، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله).

ويصف الملا محمد باقر المجلسى من علماء الشيعة الأعلام (المتوفى سنة ١٧٠٠م) خلاصة الحديث لما جرى فى غدير خم. قال:

لما انقضت مناسك الحج قفل النبى ﷺ راجعا من مكة إلى المدينة ومعه على ـ رضى الله عنه ـ والمسلمون. فلما بلغ غدير خم نزل هناك، وهو مكان لم يكن نزول المسافر متعارفا فيه. والسبب فى نزوله هناك ما أنزل عليه فى القرآن بلزوم نصب على ـ رضى الله عنه ـ خليفة من بعده. وقد أنزل عليه فى ذلك عدة مرات ولم يعين الوقت لتبليغ ذلك، وقد أخر خشية اعتراض الناس. ولو جاوز ذلك المكان، أى غدير خم لتفرق الناس وذهبت كل قبيلة ناحية.

فأمر محمد ﷺ الناس بالاجتماع ليقول لعلي ـ رضى الله عنه ـ ما يجب أن يبلغهم جميعا وقد أنزل الله عليه ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ... (٦٧)﴾ [المائدة]. وكان لذلك الأمر بنصب علي ـ رضى الله عنه ـ خليفة أن نزل الرسول ﷺ ومن معه فى ذلك المكان.

---

(١) عقيدة الشيعة وهو كتاب عن تاريخ الإسلام فى إيران والعراق. دوايت.م. دونلدس تعريب ع.م. الخالجى.

(٢) ابن خلكان ج٣ ص ٣٨٣. وعقيدة الشيعة السابق ص ٢٥٠.

وكان الهواء فى غاية الحرارة والمكان مملوءا من الأشواك، حتى كان الرجل يضع الرداء تحت قدميه من شدة الرمضاء. وأمر الرسولﷺ أن ينصب له منبر من أقتاب الإبل، فلما نصب له واجتمع الناس ارتقى محمد ﷺ المنبر ودعا عليا إلى يمين، وبعد أن حمد الله وأثنى عليه أخبر الناس بدنو أجله قائلا: «ولقد دعيت إلى ربى وإنى مجيب، وإنى مغادركم من هذه الدنيا وإنى تارك فيكم الثقلين، كتاب الله وعترة أهل بيتى، ولن يتفرقا حتى يردا على الحوض»ثم قال: «ألست أولى بكم من أنفسكم؟» قالوا «نعم» فأخذ بيد علي ـ رضى الله عنه ـ ورفعها حتى بان بياض إبطه وقال ﷺ: «من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله».

فلما نزل النبىﷺ من المنبر صلى صلاة الظهر ثم ذهب إلى خيمته وأمر بنصب خيمة بجانب خيمته لأمير المؤمنين. فجلس علي فى خيمته وأمر الرسول ﷺ الناس أن يبايعوه بالإمامة ويسلموا عليه بأمرة المؤمنين ففعلوا نساء ورجالا وسر عمر بذلك مثل غيره.[(١)] ومن المهم أن نتذكر أن المؤرخ اليعقوبى (المتوفى سنة ٨٩١ م) كان متشيعا لآل علي، وقد صنف تاريخه قبل المجلسى بثمانمائة سنة وقبل أن تدون أحاديث الشيعة المتداولة اليوم بخمس وعشرين سنة على الأقل.

٣ - تصحيح الطبرى لرواية غدير خم:

وكان لتصحيح الطبرى حديث غدير خم الأثر الأكبر فى اتهامه بالرفض من قبل أعدائه، فالحافظ ابن حجر (ت ٨٥٢) يقول: «وإنما نبذ بالتشيع؛ لأنه صحح حديث غدير خم»[(٢)] على الرغم من مخافته للنتائج التى رتبتها الشيعة على هذا الحديث، ومن أهمها قولهم: إنه نص على تعيين الرسول ﷺ لعلي خليفة من بعده، وأمينا للوحى، وأخذ له البيعة بإمرة المؤمنين يوم الغدير[(٣)]، وتأكيدهم أن تعيين علي كان من تمام الدين؛ إذ لم يتفرق الناس حتى نزل قوله تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... (٣)﴾

---

(١) حياة القلوب للمجلسى ج ٢ ص ٣٣٩ وتجد وصفا كاملا لمبايعة على عن غدير خم فى كتاب مطارح الأنظار باللغة الفارسية لمحمد صالح المازندرانى طبعة بمبى سنة١٢٨٧ هـ. ص ٩٢.

(٢) ابن حجر، لسان، ج٥ ص ١٠٠، TAYOB. The Case of Al- Taabari's,72-73

(٣) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

[المائدة]. ووضعوا علـى لسان الرسول ﷺ حديث «الله أكبـر على تمام الدين، ورضا الرب برسالتى، وبالولاية لعلي من بعدى»[1].

أما الطبرى فأكد على أن أحق الـناس بالخلافة بعد الرسول ﷺ وأولاهم بالإمامة هم أبو بكر الصديق ثـم عمر بن الخطاب ثم عـثمان بن عفـان ثم علي بن أبى طالـب، وأن ترتيبهم فى الفضل كتـرتيبهم فى الإمامة[2]، كما كفر الطبـرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج، وكان لا يقـبل أخبارهم ولا شهاداتهم. وكان يدعو إلى قتل كل من قال: إن أبا بكر وعمر ليسا بإمامى عدل وهدى[3]، كما كان لا يقبل رواية المتهم بالتشـيع، ويعتبر التشـيع طعنا فى عدالته[4]. يضاف إلى ذلك أن الطبرى صنف بعد رجوعه من بغداد إلى طبرستان عام ٢٩٠ هـ كتابا فى فضائل أبى بكر وعمر بعد أن وجد الرفض وسب أصحاب الرسول ﷺ منتشرا بين أهلها، ولاقى بتصنيفه هذا الكتاب المضايقـة والتهديد من الروافض ومن حاكم طبـرستان فهـرب منـــها[5]. ولم يتعرض الطبرى لحديث الغدير ولا لإمامة علي عند تفسيره لآية كمال الدين ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ... ③﴾ [المائدة]، إذ أثبت بسند صحـيح أن هذه الآية نزلت فى عرفة خـلافا للشيعة الذين قالوا إنها نزلت فى غدير خم[6]. وخالفهم كذلك فى مقصود هذه الآية؛ إذ بين أنها نزلت لتبين للناس أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أكمل لهم دينهم بإفرادهم البلد الحرام وإجلاء المشركين عنه[7]، خلافا للشيـعة الذين زعموا كما مـر سابقا أنها نزلت لتبين للناس أن الدين اكتمل بوصية الرسول ﷺ بالإمامة من بعده لعلي[8].

فهـدف الطبرى من تصحـيح حديث خم لم يكن إلا الاحـتجاج به على صـحة إثبات الخلافـة لعلى كما يفعل الشـيعة، وتبيـان فضائله، والرد على منتقـديه تمشيا مع تقديره واحترامه للصحابة والتابعين ومن تبعهم، والوقوف فى وجه من يحط من قدرهم

---

(١) الطوسى، مجمع البيان، ج٣ ص ٢٤٦، السيوطى الدر المنثور ج٣ ص ١٦، ٢٧.
(٢) الطبرى، صريح السنة، ص ٢٤.
(٣) الذهبى، تذكرة الحفاظ، ج٢ ص ٧١٢.
(٤) الطبرى، المنتخب من ذيل المذيل ضمن كتاب تاريخ الرسل، ج١١، ص ٦٤٦، ٦٦٦.
(٥) الحموى، معجم الأدباء، ج٦ ص ٤٥٥ ــ ٤٥٦.
(٦) الطبرى، جامع البيان، ج٦ ص ٧٩.
(٧) ن.م. ج٦، ص ٨٠ .
(٨) محمد رضا المظفر، عقائد الإمامية ص ٦٠، ٦١.

ودورهم فى انتصار الإسلام[1]. فليس غريبا أن يتجاهل فى تاريخه حديث الغدير؛ إذ رفض أن يستخدم كدليل وغطاء شرعى قدمه الرسول ﷺ لعلي لإثبات عدالة مواقفه وتحركاته ضد أعدائه.

تعقيب:

تذهب الشيعة وفق ما قدمناه إلى أن الإمام علي هو الأولى بالخلافة أو الإمامة من أبى بكر وعمر وعثمان، ولا نشك فى شخصية الإمام علي ففضائله لا تعد ولا تحصى شجاعة ورجاحة عقل وسعة فى العلم وتقوى وورع. وفهما للدين وللرسول ﷺ وإدارة للمعارك ففضله على صفحة التاريخ مشهود.

أما حديث «غدير خم» فلا اعتراض لنا عليه لا سندا ولا متنا ـ فهو مسلّم به من حيث زمانه ومكانه. وشخصية الرسول ﷺوهو المتحدث. وشخصية الإمام وهو المتلقى منه. وفحوى خطابه أوصى بالثقلين، وهما كما أجاب الرسول ﷺ على سؤال: ما الثقلان؟ فقال الرسول ﷺ: الثقل الأكبر وهو كتاب الله سبب طرفه بيد الله. وطرف بأيديكم فاستمسكوا به.

والثانى: عترتى أهل بيتى.

يجتهد الملا محمد باقر المجلسى فى توضيح سبب نزول الرسول ﷺ بغدير خم أنه أراد أن يعلن نصب علي... وهذا ما تؤكد عليه الشيعة وما تبغيه من حديث غدير خم. وهو أن تنصيب الإمام ـ الإمام علي ـ من تمام الدين، ورضا الرب برسالتى، وبالولاية لعلي من بعدى.

لكن الطبرى له موقف آخر من الحديث والخلافة، فأما الحديث فهو فى رأيه صحيح، وصحته ـ فى نظره ـ لا تلغى أحقية أبى بكر فعمر، فعثمان فعلي فى صحة الخلافة. وأن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة أو الإمامة. وكفر الطبرى كل من قال بتكفير الصحابة من الشيعة والخوارج.. ولعدم تحديد مفهوم الشيعة الغالية من الشيعة المعتدلة ـ إلا مؤخرا ـ كان التشيع فى نظر الطبرى تهمة تطعن فى عدالة الرجل، وحين شاع الرفض وسب الصحابة ـ ألف كتابه فى فضائل أبى بكر وعمر. وبسبب تأليفه لقى من الشيعة الرافضة ما لقى من الاضطهاد والتهديد. ونشايع الطبرى فيما ذهب إليه.

---

(١) محمد المخزون. تحقيق مواقف الصحابة، ص ١٩٢.

٤ - حديث الصحيفة:

ولما توفى ﷺ قال الناس: ما كنا نظن أن رسول اللهﷺ يموت حتى يظهر على الأرض، وخرج عمـر فقال: والله ما مـات رسول اللهﷺ ولا يموت وإنما تغـيب كما غاب موسى أربعين ليلة ثم يعود والله ليقطعن أيدى القوم وأرجلهم، وقال أبو بكر: بل نعاه الله إلينا فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠﴾ [الزمر] فقال عمر: والله لكأنى ما قرأتها قط، ثم قال: لعمرى لقد أيقنت أنك ميت ولكنما أبدي الذى قلته الجزع.

«ولم يخلف ﷺ من الولد إلا فاطمة وتوفيت بعده بأربعين ليلة وقال قوم بسبعين ليلة. وقال آخرون: ثلاثين ليلة. وقال آخرون: ستة أشهر»[1] وجاء فى حديث رواه كل من مسلم والبـخارى أن رسول الله ﷺ لما دنت وفاته كان عنده فى البـيت عدة رجال بينهم عمـر بن الخطاب فقال النبى: «إيتونى بدواة وصـحيفة أكتب لكم كـتابا لا تضلوا بعده أبدا» فقال عمر: «إن رسول الله ﷺ قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله» واختلف الحضور، منهم من قال قـربوا يكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده ومنهم من يقول غير ذلك فلما أكثـروا اللغو والاختلاف قال النبى ﷺ لهم: «قوموا، ما ينبغى أن يكون بين يدى النبى ﷺ خلاف».

وروى عبد الله أن ابن عباس كـان يقول: «إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب لاختلافهم ولغطهم».

وهناك حديث آخر تجدر مـلاحظته بصورة خاصة لعلاقـته بمعتقدات الشيعـة فيما بعد بالأئمـة، وهو ما روته عائشة ـ رضـى الله عنها ـ قالت: سمـعت رسول الله ﷺ عندما كان صحـيحا يقول: «إن كل نبى يخير قبل مـوته، بين هذه الدنيا والآخرة» فلما أضعـفه المرض كان يردد (مع النبـيين والصديقـين والشهـداء الذين ارتضيت) وردد (بل الرفيق الأعلى) فعلمت أنه قد خير فاختار[2].

---

(١) تاريخ اليعقوبى ج ٢ ص ١٢٥، البخارى، الـفصل ٦٣ رقم ١١ طبقات ابن سعد ٢ (٢) ص ٤٢. (٢) البخارى الـفصل ٣ رقم ٣٩، الفصل ٥٨ رقم ٦ الفصل ٦٤ رقم ٨٣ الفـصل ٧٥ رقم ١٧ الفصل ٦٩ رقم ٢٦، انظر كذلك مسلم فصل ٢٥ رقم ٢٢، ابن سعـد ٢(٢) ٦م وما يليه وأحمد بن حنبل ج (١) ٢٣٢، ٢٩٣، ٣٢٤.

(٢) البخـارى ف ٦٤، ٨٤،الترمذى ف ٤٦، ١٥ ابن سـعد ج٢ (٢) ٩، ٢٥، ٦٠ أحـمد بن حنبل ج(١) ٢٦٧. انظر كتاب روضة الصفا لميرخوند ج٢ ص ١٧٢.

والذى عليه الجمهور أن محمدا ﷺ مات بين ذراعى عائشة كما جاء فى حديث مروى عنها. وقد أورده صاحب كتاب مشكاة المصابيح، فقد أراد الرسول ﷺ أن يستاك بضريع الأراك فأخذته عائشة فلينّته له ثم ناولته إياه فاستن به وقال: «لا إله إلا الله إن للموت سكرات» ثم رفع يده وقال: «اللهم اغفر لى واجعلنى مع الرفيق الأعلى» وهبطت يده وقبض ﷺ.

تعقيب وتحقيق:

أما حديث الصحيفة: فهو لا يعطى تفسيرا لأحقية الإمام علي فى الخلافة ووفق نصه أنه لما دنت وفاته ﷺ كان عنده فى البيت عدة رجال بينهم عمر بن الخطاب فقال النبى ﷺ: إيتونى بدواة وصحيفة أكتب لكم كتابا لا تضلوا بعدى أبدا. فقال عمر: إن رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن وحسبنا كتاب الله... واختلف الحضور... فنصه يفيد أن الرسول ﷺ يكتب أو يملى فيها مزيدا من الشرح لكتاب الله وهو عاصم لكم من الضلال لو تمسكنا به.

لكن الصحابة رأوا معالجة الرسول ﷺ لوجعه قد أشغلته عن إمام ما طلبه منهم وليس فيه ما يبرر للشيعة أن تأخذ موقفا من أبى بكر وعمر والصحابة حين أجلوا طلب الرسول ﷺ إلى أن يهدأ وجعه.

، ينقل ابن أبى الحديد عن النقيب أبى جعفر: لما كان أكثر الناس موتورين فى الدنيا إذ المستحقون أكثرهم محرومون بينما الحمقى والجهلاء حظهم من الدنيا عظيم تدر عليهم الخيرات. بل إن ذوى الفضل والاستحقاق غالبا ما تضطرهم الدنيا إلى الذل والخضوع إلى هؤلاء لضررهم أو استجلابا لنفعهم، ولما كان علي مستحقا محروما بل هو أمير المستحقين المحرومين وسيدهم وكبيرهم، فإن الذين ينالهم الضيم وتلحقهم المذلة بتعصب بعضهم لبعض ويكونون يدا واحدة على الذين استأثروا بالدنيا ونالوا مآربهم، فما بالك إذا كان من هؤلاء المحرومين رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل محتو على الخصائص والمناقب، وهو مع ذلك محروم قد جرعته الدنيا علاقمها، وعلا عليه من هو دونه وحكم فيه وفى بيته وأهله ورهطه من لم يكن ما ناله من الإمرة والسلطان فى حسابه ولا دائر فى خلده.... ولا كان أحد من الناس يرتقب ذلك له ولا يراه أهلا له، ثم كان فى آخر الأمر أن قتل ذلك الرجل الجليل وقتل بنوه من بعده... وسبى حريمه ونساؤه وتتبع أهله وبنوه بالقتل والطرد والتشريد والسجون

مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانـتفاع الخلق بهم، فهل يمكن أن لا يتعصب البشر كلهم مع هذا الشخص وهل تستطيع القلوب أن لا تحبه وتهواه وتذوب فيه وتتغنى فى عشقه انتصارا له وحمية من أجله وامتعاضا مما ناله[1].

إن تحليل النقـيب الذى نقله ابن أبى الحـديد يشرح مـوقع الإمام علي وبنيـه من التاريخ ولماذا تحرك به التاريخ وفق مفهوم بشرى إذا لم يتيسر لقارئ التاريخ أن يعيش فى النصوص الدينيـة التى ترفع تميزه أو يعطى قارؤها فهمـا لها، فإذا لم يكن ذلك متـيسرا فتلك مآسيه على وجه التاريخ أحصاها الأصفهانى فى كتابه (مقاتل الطالبيين) نتبين منها عظمة التضحية فى سبيل المبـدأ وتحرير الجماعة من ربق الشهوات. حكى البلاذرى على لسان الإمام علي: ما لقى أحد من هذه الأمة ما لقيت، توفى رسول الله ﷺ وأنا أحق الناس بهذا الأمر فـبايع الناس أبا بكر، فاستـخلف عمر فبـايعت ورحبت وسلمت، ثم بايع الناس عثمان فبايعت وسلمت ورضيت، وهم الآن يميلون بينى وبين معاوية».

من هنا كان تحليل النقيب أبى جعفر له مكانة فى فلسفة التاريخ. رحم الله الإمام وبنيه وليس بعد قول الله تعالى تقدير:

﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ۝٥ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا ۝٦ يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۝٧ ﴾ إلى قوله: ﴿ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ۝٢٢ ﴾ [الإنسان]، أنها نزلت فى علي وفاطمة والحـسن والحسين ـ عليهم السلام ـ بمناسـبة قصة صيامـهم ثلاثة أيام وتصدقهم خلال تلك الأيام الثلاثة على المسكين واليتيم والأسير[2].

بعد ما سبق تمخض التحكيم عن تغير اجتماعى وسياسى ودينى وكان من الحقائق الأولية أن مسألة الخلافة قسمت المسلمين إلى فرقتين: أهل السنة، والشيعة، وكان لأهل البيت فريق يعـترف سرا بحقـوقهم، حتى فى عهد الخلفـاء الثلاثة الأولين، ولكن هذا الفريق لم يكن يجاهر بالخصام.

وبعد عصـر هؤلاء الخلفاء صار يعارض كل من هم من غـير أبناء على، وكانت هذه المعارضة مـوجهة أول الأمر إلى الأمـويين، ثم إلى من بعدهم ممن لم تتوافـر فيهم

(١) ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة مجلد ٢ ج ١٠ ص ٥٧٦ ـ ٥٧٧.

(٢) الكشـاف ٤/ ٦٧٠: تفـسيـر القـرطبى ١٩ / ١٢٣٠ أسـباب النزول للواحـدى / ٢٥١، روح المعـانى للآلوسى ٢٩ / ١٥٧، أسد الغـابة ٥ / ٥٣٠ ـ ٥٣١، تفسيـر النسفى ٤/ ٣١٨، شرح نهج البـلاغة لابن أبى الحديد ١/ ٢١ و١٣ /٢٧٦، الغدير للأمينى ٣/١٠٧ ـ ١١١.

الشروط التى يوجهها الشيعة فى الإمام، وهم حين يبينون وجوه النقص فى هؤلاء الحكام يقررون الحقوق الشرعية لأبناء النبى - عليه الصلاة والسلام - ممثلة فى ذرية علي وفاطمة، وكما أنهم اتهموا الخلفاء الثلاثة الأولين بأنهم مغتصبون ظالمون، فكذلك عارضوا النظام السياسى فى الدولة الإسلامية سرا وجهرا فى كل العصور(١).

ويذهب محمد باقر الصدر فى كتابه: بحث حول الولاية(٢) إلى أن الإمام عليا هو الأحق بالخلافة نصا. ويرى: أن الشواهد على ذلك من حياة النبى ﷺ والإمام علي على أن النبى ﷺ كان يعد الإمام إعدادا رساليا خاصا، كثيرة جدا، فقد كان النبى ﷺ يخصه بكثير من مفاهيم الدعوة وحقائقها، ويبدؤه بالعطاء الفكرى والتثقيف، إذا استنفد الإمام أسئلته. ويختلى به الساعات الطوال فى الليل والنهار، ويفتح عينيه على مفاهيم الرسالة ومشاكل الطريق ومناهج العمل إلى آخر يوم فى حياته.

ـ روى الحاكم فى المستدرك بسنده عن أبى إسحاق، سألت القاسم بن العباس. كيف ورث على رسول الله؟ قال: لأنه كان أولنا به لحوقا وأشدنا به لزوقا.

وفى حلية الأولياء، عن ابن عباس أنه كان يقول: كنا نتحدث أن النبى ﷺ عهد إلى علي سبعين عهدا لم يعهد إلى غيره.

وإذا كانت الشواهد كثيرة على أن النبى ﷺ يعد الإمام إعدادا خاصا لمواصلة قيادة الدعوة من بعده، فالشواهد على إعلان الرسول القائد على تخطيطه هذا وإسناد زعامة الدعوة الفكرية والسياسية رسميا إلى الإمام علي - عليه السلام - لا تقل عنها كثرة، كما نلاحظ ذلك فى «حديث الدار» و«حديث الثقلين» و«حديث المنزل» و«حديث الغدير» وعشرات النصوص.

وقد أدت طبيعة هذه المعارضة إلى ظهورها فى صورة تغلب عليها الصبغة الدينية، على حين أن الشيعة يرفضون تنصيب الخليفة بالطرق العادية الإنسانية، فإنهم يقولون: إن الرئيس الشرعى الوحيد من الناحية الروحية والزمنية هو الإمام المعصوم الذى يعين تعيينا، ويكون من أبناء النبى ﷺ(٣).

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ص ٣٤٠ ج١ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة.
(٢) بحث حول الولاية ص ٦٤ محمد باقر الصدر.
(٣) وفى صفحة ٢٣٠ تكلم جولدتسيهر عن الفرق الأساسى بين الخليفة عند أهل السنة والإمام عند الشيعة.

وأوجب أهل السنة تنصيب الخليفة تنفيذا لأحكام الشريعة وفروضها، وحماية لحدود بلاد الإسلام والدفاع عنها، والإشراف على تعبئة الجيوش، وأخذ ما فرض على المسلمين في أموالهم، وتقسيم غنائم الحرب بينهم بالعدل، وغير ذلك من المهام، وبالاختصار فالخليفة هو ممثل السلطة القضائية والإدارية والحربية، وهو مجرد خليفة لمن تقدمه، ويختاره المسلمون بالطرق العادية (بالانتخاب أو بتعيين سلفه له) لسياساتهم، ولا يشترط فيه أن يكون أعلم المسلمين.

أما الإمام عند الشيعة فهو رئيس المسلمين ومعلمهم، بفضل ما وهبه الله من الصفات، ويحكم وراثته للنبي ﷺ، وهو يحكم ويعلم متلقيا ذلك عن الله على نحو ما كان موسى يسمع كلام الله من الشجرة، فكأنه يتلقى عن الله رسالة مستمرة، وهو يجمع إلى هذه المزية صفات خاصة من طور فوق طور الإنسان. ويزعم الشيعة أن وراثة الإمامة تنقلت من آدم، حتى انتهت إلى عبد المطلب جد النبي ﷺ وجد علي - رضى الله عنه - ومن عبد المطلب انقسم النور قسمين، أحدهما انتقل إلى عبد الله والد النبي ﷺ، والآخر إلى أخيه (أبو طالب) والد علي، ثم سار النور من علي إلى ذريته. وهذا النور الذي في روح الإمام يجعله إمام عصره، ويجعل له قوى روحانية تجاوز حدود القدرة الإنسانية، وروح الإمام أنقى من أرواح سائر الناس؛ لأنه مبرأ من بواعث الشر متحل بالفضائل الإلهية وهذه صفات الإمام عند المعتدلين من الشيعة، أما الغلاة منهم فهم يرفعون الإمام إلى الأفق الإلهي[1].

٥ - أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة:

يذهب بعض الناس إلى أن الفرق بين مذهب أهل السنة ومذهب الشيعة أن الأولين يعترفون بأن السنة أصل من أصول العقائد والأحكام الدينية بعد القرآن، وأن الشيعة، فليس من بينهم من ينكر السنة، بل هم يقرون بالسنة التي حملها أهل البيت، ويذهبون إلى أن خصوم الشيعة يعتمدون في أخذ السنة على الصحابة الغاصبين. وثم أحاديث مشتركة بين الشيعة وأهل السنة، والتي تؤيد الشيعة المتشددين الذين يعتمدون على أحاديث البخاري ومسلم، ويقرؤونها أيام الجمع، ونستطيع معرفة شأن السنة عندهم من أن كثيرا من قول علي في القرآن والسنة يؤخذ مما رواه الشيعة عن علي، فاحترام السنة من مستلزمات مذهب أهل السنة والشيعة على السواء، ومما يدل أيضا

(١) في ص ٢٥٤ وما بعدها ينبه جولدتسيهر على أخطاء شائعة فيما يتعلق بالشيعة.

على اعتـداد الشيعـة بالسنة النبوية أنهم كتـبوا الكثيـر فى السنة وما يتـعلق بها، وأنهم وضعـوا أحاديث كثيـرة وأذاعوها، فالشـيعة لا يعـارضون أهل السنة بصفـتهم منكرين للسنة، بل بصفة أنهم أوليـاء أهل البيت أو الخاصة الذين يمتازون على العـامة الغارقين فى بحار العمى والضلال.

وكان الحـمدانيون أول أسـرة تدخلت فى أمور بغداد، وكـان هذا التدخل مثـيرا للعجب؛ ذلك أن ابن حمدان على شدة تشيعه وميله إلى علي وأهل بيته سعى فى البيعة لابن المعـتز على انحـرافه عـن علي وغلوه فى النصب[1]. ولكن الأحـوال تغيـرت لما استولى الديلم على بغداد، وكانوا قـد دخلوا فى الإسلام حديثا على يد أحد العلويين، فلم يكد معـز الدولة يدخل بغداد حتى قبض عـلى الخليفة المستكفى وأنزله عـن عرشه على صورة مهينة. وكان من الأسبـاب الظاهرة فى ذلك أن المستكفى كان قد قبض على الشافعى رئيس الشـيعة[2]. وفى سنة ٣٤٩هـ ـ ٩٦٠م قامت فـتنة بين العامة بـبغداد، وتعطلت الجمعة بمساجد أهل السنة لاتصـال الفتن، ولم تقم الجمعة إلا فى مسجد براثا الشيعى[3]. وفى عام ٣٥١ هـ كـتب معز الدولة على المساجـد لعن الصحابة، فـمحاه الناس أثناء الليل[4]. وفى العام التالى أمـر الناس أن يحتفلوا بيوم عاشـوراء، وهو أكبر عيـد للشيعة، وأن يظهروا الحـزن. فأغلقت الأسواق وعطل البـيع والشراء، ولم يذبح القصـابون، ولا طبخ الهراسون، ولا ترك الناس أن يسـتقوا الماء، ونصبت القـباب فى الأسواق، وعلقت عليهـا المسوح، وخرجت النساء منشرات الشعـور مسودات الوجوه، قد شـقـقن ثيابهـن يدرن فى البلد وينحن ويلطمن وجوههن على الحـسين ـ رضى الله عنه ـ. وفى هذا اليوم كان يزار قبر الحسين بكربلاء[5]. ويصف البيرونى ما جرى عليه بنو أمية من إظهار الفرح فى يوم عاشوراء، وما كان يظهره الشيعة من حزن، ثم يقول:

---

(١) ابن الأثير ج ٨ ص ١٣.

(٢) مسكويه ج٦ ص ١٢٣.

(٣) المنتظم لابن الجوزى ص ١٨٩، وأبو المحاسن طبعة ليدن ج٢ ص ٣٥١، وابن الأثير ج٨ ص ٣٩٧.

(٤) انظر ما تقدم.

(٥) المنتظم ص ٩٣ ب، وكـتاب الـوزراء ص ٣٧١، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٣، ٤٠٧، وأبو المحـاسن ج٢ ص ٣٦٤. ولا نجد قـط ذكرا لروايات ألف لتـمجـيد الشـهداء كـالتى نراها اليوم عـادة، على أنه من العبارات التى تشبع أن يكون أصلها من قصة تمثيليـة قول السيدة سكينة بنت الحسين ـ رضى الله عنها: «كنت أحـسن من السماء وأعـذب من الماء» (رسائل الخـوارزمى طبعـة القسطنطيـنية ١٢٩٧ ص ٣٧)، (وليس فى هذا دليل مقبول. المترجم).

«ولذلك كره فيه تجديد الأوانى والثياب»[1]. وفى اليوم الثامن عشر من ذى الحجة فى هذا العام جاء عيد الغدير (غدير خم)، فاحتفل به الشيعة ببغداد، وزعموا أنه اليوم الذى عهد فيه الرسول ﷺ إلى علي بن أبى طالب واستخلفه[2]، وفيه أظهروا السرور بأمر معز الدولة، على خلاف صنيعهم فى يوم عاشوراء، فنصبوا القباب وعلقوا الثياب، وأظهروا الزينة. وفى ليلته أشعلت النيران بمجلس الشرطة، وضربت الدبادب والبوقات، وفى صبيحته نحروا جملا وبكروا إلى مقابر قريش[3]. أما بنو أمية فكانوا قد اتخذوا يوم عاشوراء من قبل يوم سرور، «فلبسوا فيه ما تجدد وتزينوا واكتحلوا يوم عاشوراء وأقاموا الولائم والضيافات وطعموا الحلاوات والطيبات، وجرى الرسم فى العامة على ذلك أيام ملكهم، وبقى فيهم بعد زواله عنهم». وقد حاول أهل الحديث أن يظهروا فضل يوم عاشوراء فذكروا ما روى عن النبى ﷺ من الحض على فعل الخير فيه[4]. وكانوا يزعمون أن «الاكتحال فيه مانع من الرمد فى تلك السنة»[5]؛ ولذلك يقول القمى (المتوفى عام ٣٥٥ هـ ـ ٩٦٦م) مشددا فيمن يفرح بيوم عاشوراء: «من ترك السعى فى يوم عاشوراء قضى الله له حوائج الدنيا والآخرة ومن كان يوم عاشوراء يوم مصيبته وحزنه وبكائه يجعل الله ـ عز وجل ـ يوم القيامة فرحه وسروره. . . ومن سمى يوم عاشوراء يوم بركة وادخر بمنزله شيئا لم يبارك له فيما ادخر، وحشر يوم القيامة مع يزيد وعبيد الله بن زياد وعمر بن سعد لعنهم الله إلى أسفل درك من النار»[6]. ولما زالت الدولة الفاطمية وجاء ملوك بنى أيوب اتخذوا يوم عاشوراء، بعد أن كان يوم حزن، يوم سرور، جريا على عادة أهل الشام[7]. ثم إن أهل السنة أرادوا أن يعملوا لأنفسهم ما يكون بإزاء يوم عاشوراء، فجعلوا بعده بثمانية أيام يوما نسبوه إلى مقتل مصعب بن الزبير، وزاروا قبره فى مسكن، كما يزار قبر الحسين بكربلاء[8]. وكذلك عملوا بإزاء

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى طبعة أوروبا ص ٣٢٩.

(٢) المنتظم ص ٩٣ ب، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٧، وكتاب الوزراء ص ٣٧١، وقد أخطأ أبو المحاسن (ج٢ ص ٤٢٧) بجعله ذلك عام ٣٦٠ هـ.

(٣) كتاب الوزراء ص ٣٧١، والمنتظم ص ٩٣، وابن الأثير ج٨ ص ٤٠٧.

(٤) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٢٩.

(٥) عجائب المخلوقات للقزوينى، طبعة عام ١٨٤٩ ص ٦٨.

(٦) كتاب العلل للقمى مخطوط برلين رقم ٨٣٢٦ ص ٩٩ب.

(٧) الخطط للمقريزى ج١ ص ٤٩٠.

(٨) كتاب الوزراء ص ٣٧١، وكذلك عرف ياقوت هذه الأماكن.

يوم الغدير بعده بثمانية أيام يوما ادعوا أنه اليوم الذى دخل فيه النبى ﷺ وأبو بكر - رضى الله عنه - فى الغار، وعملوا فى هذا اليوم ما يعمله الشيعة فى يوم الغدير. وكان أول ما عمل أهل السنة ذلك فى يوم الجمعة لأربع بقين من ذى الحجة عام ٣٨٩هـ - ٩٩٩م[1]. وفى هذه الأعياد لم يكن الأمر يخلو من شغب وفتن بين الفريقين، حتى كان الحكام الأقوياء يمنعون من عملها أحيانا[2]. وقد حدث مرة فى فتنة بين أهل السنة والشيعة بأن الشيعة صاحوا: حاكم يا منصور، إشارة إلى العدو المقيم بالقاهرة، وقد بلغ الخليفة ذلك، فأحفظه، وأنفذ الحراس الذين على بابه لمعاونة أهل السنة، فهزموا الشيعة، ثم اجتمع الأشراف إلى دار الخليفة، فسألوه العفو عما فعله السفهاء فعفا عنهم[3]. وفى عام ٤٢٠هـ - ١٠٢٩م كان خطيب مسجد براثا، وكان شيعيا، يذكر مذاهب فاحشة من مذاهب الشيعة ويغلو فى علي، فأمر الخليفة بالقبض عليه، وعين محله خطيبا آخر، فلما صعد المنبر دقه بعقب سيفه على ما جرت به العادة، والشيعة ينكرون هذا، وقصر فى الخطبة عما كان يفعله من تقدمه فى ذكر علي بن أبى طالب، وقال: اللهم اغفر للمسلمين، ومن زعم أن عليا مولاه، فرماه العامة حينئذ بالآجر، فوافاه كالمطر، وخلع كتفه، وكسر أنفه، وأدمى وجهه، وعرف الخليفة ذلك فغاظه وأحفظه، وكتب فى الشيعة كتابا شديدا للوزير، وفى آخر الأمر اجتمع قوم من مشايخ أهل الكرخ، وتوجهوا مع الشريف المرتضى إلى دار الخليفة، فأحالوا ما جرى على سفهاء الأحداث، وسألوا الصفح عن هذه الجناية، وطلبوا إقامة خطيب عملت له نسخة يعتمدها فيما يخطب، وتجنب ما يحفظ الشيعة[4]. ومما كان له شأن فى ثورات الشيعة المفاجئة فى القرن الرابع الهجرى أن مشهديهما الكبيرين المقدسين عندهم كانا بالعراق. على أن موضع قبر علي كان موضع شك، وقد بين ذلك المسعودى.

٦ - التشيع السياسى والروحى:

أما التشيع السياسى أو النصرة والأتباع لعلي دون الالتزام بالنص على إمامته الدينية فقد أصبح فى خلافته منتشرا بصورة واسعة، ثم أخذ يتقلص فى آخر عهده وفى

---

(١) المنتظم ص ١٤٣ أ - ١٤٤ ب، وكتاب الوزراء ص ٣٧١.

(٢) فعل ذلك أبو الحسن المعلم عام ٣٨٢ هـ (المنتظم ص ١٣٤ أ) وعميد الجيوش عامى ٣٩٢هـ - ٤٠٦ هـ (كتاب الوزراء ص ٤٨٢ - ٤٨٣، والمنتظم ص ١٤٧ ب، وابن الأثير ج ٩ ص ١٨٤).

(٣) المنتظم ص ١٥٢ب.

(٤) نفس المصدر ص ١٧٨ أ - ١٧٩ ب.

الفترة التى تلت مقتله، ولكنه ما لبث أن استعاد شيئا من قوته وبخاصة فى العراق لاسيما بعد أن شعر العراقيون بفقد سيادتهم السياسية على يد الأمويين. إن انقسام التشيع إلى سياسى وروحى - وإن كان نظريا - إلا أننا نرى ضيق الفجوة بين القائلين بالنص والقائلين بالنصرة حبا للإمام علي؛ لأن التشيع السياسى لا يرى فيه بعض الشيعة أنه لا يحتاج إلى نص، أما التشيع الروحى لشخص علي كما يرى الشيعة فهو المقصود وعليه يدور النص. ثم مع انقسام الشيعة إلى إمامية وغالية وروافض وزيدية أصبح التشيع وحدة واحدة وشملهما تفسير النص. وهذا ما جعل الزيدية تحافظ على الفوارق بينها وبينهما ففضل علي حق كما هو حبه مع إجازة ولاية المفضول؛ إذ لا نص على ذلك.

ويرى د. فياض أن ثمة نوعين من التشيع، مرتبا فرقا زمنيا بينهما، وهما وفق قوله:

١ - كان التشيع الروحى أقدم عهدا من التشيع السياسى، وأنه يقوم على الاعتقاد بإمامة علي المفروضة من الله. وقد تطور الاعتقاد المذكور ثم تبلور فى عقيدة الإمامة المعصومة من الخطأ بعد أن أسند بالحجج الكلامية بقضية القول بالنص على تلك الإمامة من النبىﷺ وبأمر من الله.

٢ - ظهرت بوادر التشيع السياسى أو الولاء لعلي دون الالتزام بقضية الاعتراف بإمامته الدينية فى سقيفة بنى ساعدة حين أيد حق علي بالخلافة عدد من المسلمين أمثال الزبير والعباس وغيرهما. وبلغ التشيع السياسى أقصى مداه حين بويع علي بالخلافة بعد مقتل عثمان. وسبقت مناقشته.

٧ - الإمامية من أولاد فاطمة:

أما الشيعة أسلاف الإمامية فإنهم انتهوا إلى القول بإمامة على بن الحسين (ت: ٩٤هـ) وعلى هذا هو الوحيد الأحق فى نظر الشيخ المفيد الإمامى الذى ساق الأدلة على بطلان أئمة الشيعة الآخرين المعاصرين لذلك الإمام كما بينا ذلك قبل قليل. قال النوبختى: «وأما الشيعة العلوية الذين قالوا بفرض الإمامية لعلى بن أبى طالب - رضى الله عنه - من الله ومن رسول الله ﷺ فإنهم ثبتوا على إمامته ثم إمامة الحسن من بعده ثم إمامة الحسين بعد الحسن. ثم افترقوا بعد قتل الحسين - رضى الله عنه - فرقا، فنزلت فرقة إلى القول بإمامة علي بن الحسين.. فلم تزل مقيمة على إمامته حتى توفى بالمدينة.. فى أول سنة أربع وتسعين»[1]، أما الفرقة الأخرى فقد قالت بانقطاع الإمامة

(١) فرق الشيعة، ص ٤٧.

بعد الحسين وأنه لا إمامة لأحد بعده. وفرقة قالت: «إن الإمامة صارت بعد مضى الحسين فى ولد الحسن والحسين. . .»[1].

ويترتب على ذلك أن فرق الشيعة عند وفاة علي بن الحسين (٩٤هـ) تنحصر فى الفرق التالية:

أ ـ الكيسانية.

ب ـ الجماعة الشيعية القائلة بانقطاع الإمامة بعد موت الحسين.

جـ ـ الفرقة القائلة بإمامة علي بن الحسين.

وبعد وفاة على بن الحسين ساق جماعة من الشيعة الإمامة إلى ابنه زيد وعرف هؤلاء بالزيدية وهم الذين «ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة ولم يجوزوا ثبوت الإمامة فى غيرهم. إلا أن يكون كل فاطمى عالما زاهدا شجاعا، سخيا خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة سواء كان من أولاد الحسن أو من أولاد الحسين[2].

وهناك جماعة أخرى من الشيعة استمرت على سوق الإمامة فى أولاد الحسين وبذا احتفظت بسلسلة الأئمة التى تبنتها جماعة الشيعة التى سميت بالإمامية فيما بعد. يقول النوبختى: «وأما الذين أثبتوا الإمامة لعلي بن أبى طالب ثم للحسن ثم للحسين ثم لعلي بن الحسين. ثم نزلوا إلى القول بإمامة أبى جعفر فمحمد بن علي بن الحسين باقر العلم فأقاموا على إمامته إلى أن توفى. ولما كانت وفاة الباقر سنة ١١٤ أو ١١٩هـ ترتب على ذلك أن الشيعة الذين اعترفوا بإمامة الباقر بعد أبيه علي زين العابدين لم يطلق عليهم اسم «الإمامية» ونظرا لاعتراف هؤلاء الشيعة بسلسلة الأئمة التى تبناها الإمامية حين تسموا بهذا الاسم فيما بعد، كما ستبين، صح أن نطلق عليهم أسلاف الإمامية.

يقول الشيخ المفيد:

فأما السمة للمذهب بالإمامة ووصف الفرق من الشيعة بالإمامة فهو علم على من دان بوجوب الإمامة ووجودها فى كل زمان، وأوجب النص الجلى والعصمة والكمال لكل إمام، ثم حصر الإمامة فى ولد الحسين بن علي ـ عليهما السلام ـ وساقها

---

(١) السابق. ص ٤٨.

(٢) الشهرستانى، الملل والنحل (القاهرة، ١٩٤٨) ص ٣٠٢.

إلى الرضا علي بن موسى ـ عليهما السلام ـ لأنه وإن كان فى الأصل علما على من دان من الأصول بما ذكرناه دون التخصيص لمن قال فى الأعيان بما وصفناه، فإنه قد انتقل عن أصله لاستحقاق فرق من معتقديه ألقابا بأحاديث لهم بأقاويل أحدثوها فغلبت عليهم فى الاستعمال دون الوصف بالإمامية، وصار هذا الاسم فى عرف المتكلمين وغيرهم من الفقهاء والعامة علما على من ذكرناه.

وأما الزيدية فهم القائلون بإمامة أمير المؤمنين علي بن أبى طالب والحسن والحسين وزيد بن علي ـ عليهم السلام ـ وبإمامة كل فاطمى دعى إلى نفسه وهو على ظاهر العدالة ومن أهل العلم والشجاعة وكانت بيعته على تجريد السيف للجهاد[1].

٨ - الشيعة تحدد نفسها:

يرى بعض المستشرقين أن الشيعة نشأت فى الأصل نشأة إيرانية. ولا نميل إلى هذا الرأى؛ لأنه يلغى صراعا حقيقيا حول مبدأ شرعية خلافة الإمام علي. وما يسوقه المستشرقون من شواهد تاريخية لا تخدم رأيهم، مثلا الصراع العربى الفارسى ليس الأصل للتشيع لكن لما ارتبطت الشيعة بالعناصر المضطهدة تخلت عن تربية القومية العربية وكانت حلقة الارتباط هى الإسلام. ولكنه لم يكن ذلك الإسلام، بل نوعا جديدا من الدين اتخذ نقطة ابتدائه من بدعة غريبة غامضة اختلط بها المختار وهى «الكيسانية». والسبئية كانت قد اتخذت اتجاها أنشأ يسيطر على طبقات واسعة بحيث اضطرت الشيعة بوجه عام إلى اتخاذ موقف أشد حدة بإزاء الفرق الأخرى وإزاء إبراز الخلافات بين الشيعة والسنة. والسبئية يسمون أيضا «الكيسانية» وكان كيسان زعيما للموالى[2]، فإن كان فى نفس الوقت زعيما للسبئية. فيستنتج من هذا أن السبئية والموالى كانوا شيئا واحدا تقريبا.

واعتمادا على هذا الاستنتاج مضى بعض الناس زاعمين أن التشيع كمذهب دينى إيرانى الأصل؛ لأن غالبية موالى الكوفة كانوا إيرانيين.

٩ - الشيعة بين النشأة العربية والفارسية:

دوزى يصر على أن الشيعة منشؤها فارسى ـ وهو من الرعيل القديم الذى كان ينهج نهجه فى إثبات النتائج أولا ثم البحث عن الشهود للقضية ثانيا.

---

(١) أوائل المقالات فى المذاهب والمختارات ص ٤ الشيخ المفيد.

(٢) الطبرى تاريخ الأمم والملوك ص ٦٣٣.

نراه يحتال لإثبات فارسية الشيعة ليصف الفرس بخضوع العبيد وأنهم نقلوا التوقير الوثنى إلى علي وذريته والطاعة المطلقة للإمام. وهو دائما فى أبحاثه إما أن يحقر العرب للفرس أو يحقر الفرس للعرب. يقول دوزى: «كانت الشيعة فى حقيقتها فرقة فارسية، وفيها يظهر أجلى ما يظهر ذلك الفارق بين الجنس العربى الذى يحب الحرية. وبين الجنس الفارسى الذى اعتاد الخضوع كالعبيد. لقد كان مبدأ انتخاب خليفة للنبيﷺ أمرا غير معهود ولا مفهوم؛ لأنهم لم يعرفوا غير مبدأ الوراثة فى الحكم؛ لهذا اعتقدوا أنه ما دام الرسول ﷺ لم يترك ولدا يرثه، فإن عليا هو الذى كان يجب أن يخلفه وأن الخلافة يجب أن تكون وراثية فى آل علي. ومن هنا فإن جميع الخلفاء - ما عدا عليا - كانوا فى نظرهم مغتصبين للحكم لا تجب لهم طاعة. وقوى هذا الاعتقاد عندهم كراهيتهم للحكومة وللسيطرة العربية، فكانوا فى الوقت نفسه يلقون بأنظارهم النهمة إلى ثرات سادتهم. وهم قد اعتادوا أيضا أن يروا فى ملوكهم أحفادا منحدرين من أصلاب الآلهة الدنيا. فنقلوا هذا التوقير الوثنى إلى علي وذريته. فالطاعة المطلقة «للإمام» الذى من نسل علي - كانت فى نظرهم الواجب الأعلى، حتى إذا ما أدى المرء هذا الواجب. استطاع بعد ذلك بغير لائمة ضمير أن يفسر سائر الواجبات والتكاليف تفسيرا رمزيا وأن يتجاوزها ويتعداها. لقد كان «الإمام» عندهم هو كل شىء. إنه الله قد صار بشرا. فالخضوع الأعمى المقرون بانتهاك الحرمات «ذلك الأساس فى مذهبهم» وعلى نحو مشابه يتحدث أ. ملر فى كتابه المذكور سابقا ص ٢٣٧. ويضيف إلى هذا أن الفرس كانوا - تحت تأثير الأفكار الهندية قبل الإسلام بعهد طويل - يميلون إلى القول بأن الشاهنشاه هو تجسد لروح الله التى تنتقل فى أصلاب الملوك من الآباء إلى الأبناء.

١٠ - السبئية وكرسى المختار:

يقول فلهاوزن:

أما أن آراء الشيعة تلائم الإيرانيين. فليست تلك الملاءمة دليلا عليه. بل الروايات التاريخية تقول بعكس ذلك. إذ تقول: إن التشيع الواضح الصريح كان قائما أولا فى الدوائر العربية، ثم انتقل بعد ذلك منها إلى الموالى، وجمع بين هؤلاء وبين تلك الدوائر.

وأولئك الذين كانوا يتواثبون حول الكرسى المقدس يذكرون أنهم «السبئية». ولم يكونوا من الموالى، بل من العرب، إذ كانوا من عشائر: نهد وخارف وثور وشاكر

وشبام[1]. وهؤلاء السبئية كانوا على علاقات سيئة بعشائرهم نتيج لمذهبهم الغريب. وبخاصة شبام بالنسبة إلى قبيلة همدان، بينما كانوا على علاقات وثيقة جدا بالمختار. ومن أجله خاضوا النار ووشوا بقبائلهم. ونجد حديثا عن بطانة[2] من الشيعة العرب كانت تجتمع فى منزلى امرأتين بارزتين. وتذكر أسماء بعض أفراد هذه البطانة ومنهم ابن نوف الهمدانى الذى كان ينافس مولاه وأستاذه (المختار) فى الزعامة. لقد كان يصنع وحيا لدى الكرسى المقدس، وكان أحد عمومة الأعشى ممن تأثر لهذا الوحى. وكان أول سادن للكرسى هو موسى بن أبى موسى الأشعرى.. ثم تلاه حوشب البرسمى. والبيئة هنا كلها يمنية. ويقال: إن المختار قد أظهر الكرسى على أنه كرسى علي بن أبى طالب. ولكن ثمة روايات أخرى تقول بعكس ذلك، وهذه الروايات الثانية أقرب إلى التصديق. وعلى كل حال فقد كان الكرسى فى حوزة اليمنيين. وأصله إنما يبحث عنه لديهم. ولم يكن اختراعا أبدعه الهوى، بل مثله مثل الحجر الأسود كان قطعة وثنية وفى الأصل كرسى الله ثم كرسى علي، لأنهم ألهوا عليا. وكراسى الله الخالية هذه نجدها كثيرا، وإن لم تكن عادة من الخشب، فالكرسى عربى[3].

١١ - حزب علي هو شيعته:

ونميل إلى أن حزب علي هو فى الأصل شيعة علي وكذا حزب معاوية. والحزب يطلق عليه فى العربية أيضا اسم «الشيعة» فكانت شيعة علي فى مقابل شيعة معاوية. لكن لما تولى معاوية الملك فى دولة الإسلام كلها ولم يعد مجرد رئيس حزب، أصبح استعمال اللفظ «شيعة» مقصورا على أتباع علي، ودخل فى هذا الاستعمال أيضا تعارضهم مع الخوارج.

ولم يكن اتخاذهم عليا زعيما بسبب أنه ابن عم الرسول ﷺ وصهره وأبو أحفاده؛ إذ إن حق الأقربين فى وراثة الرياسة - وكأنها ملك خاص - لم يكن معترفا به عند العرب، إنما كان حقا مقدسا لدى الفرس. وبالأولى لم يعترف به الإسلام. وإنما اختاروه؛ لأنه بدا لهم أفضل صحابة الرسول ﷺ الأقدمين. ومن هؤلاء كان الخليفة يختار حدا كبيرا مناط استمرار الحكومة عند تبدل الأشخاص الذين فى المنصب الأعلى.

(١) الطبرى ص ٧٠٤ وما يليها.
(٢) الطبرى ج٢ ص ٦٦٩ س٢.
(٣) الخوارج والشيعة فلهاوزن.

فكان علي إذن ممثلا فى الأصل لهذه الطبقة الإسلامية التى نالت الرفعة بما لها من فضل ولحقها التقليدى فى الخلافة الذى كان يهدده السلطان الفعلى لعمال الأمويين الذين عينهم عثمان، والأمويون أسرة عريقة النسب ذات تقاليد جاهلية وثنية. ولم يكد علي يتولى الخلافة حتى انقلب عليه العضوان الباقيان من هذه الأرستقراطية الروحية، وكانا حتى ذلك الوقت يؤازرانه ويقدمانه. وحولا الغضب من مقتل عثمان ضده وأخذا لأنفسهما الحق فى العمل.

ولكن الواقع هو أن الكفاح قد قام به جميع الطامعين فى الخلافة ولم يكن «الحق» إلا نكأة لإثارة الجماهير وإعطائهم راية يقاتلون حولها. واستطاع علي أن يضم أهل العراق إلى صفه، وقد كانوا أشد سندا للذين ثاروا على عثمان. فانتقل إلى الكوفة ثم كسب البصرة لجانبه بعد ذلك. وتم له هذا بعد كفاح دموى ضد منافسيه الغادرين.

١٢- سبب تشيع إيران:

* رأى محمد جواد مغنية:

يرى أن سبب التشيع فى إيران يرجع إلى عنصر عربى، والتسنن إلى عنصر فارسى صرف. ولكن خصوم الشيعة موّهوا وضللوا، وعكسوا الآية لا لشىء إلا للكيد والتنكيل، كما قال الدكتور طه حسين.

وقال الشيخ محمد حسين المظفر فى «تاريخ الشيعة ص ٨، مطبعة الزهراء بالنجف:

«كان للإمام ثلاثة حروب: الجمل، وصفين والنهروان. وكان جيشه كله عربا أقحاحا بين عدنانية وقحطانية. أكانت قريش من الفرس أم الأوس والخزرج، أم مذحج، أم همدان، أم طئ، أم كندة، أم تميم، أم مضر، أم أشباهها من القبائل؟ وهل كان زعماء جيشه غير رؤساء هذه القبائل؟ أكان عمار فارسيا، أم هاشم المرقال، أم مالك الأشتر، أم صعصعة بن صوحان، أم أخوه زيد، أم قيس بن سعد، أم ابن عباس، أم محمد بن أبى بكر، أم حجر بن عدى، أم عدى بن حاتم، أمثال هؤلاء من القواد؟».

أما أصحاب الحسن والحسين فكلهم عرب، وجلهم من أصحاب أبيهما أمير المؤمنين[1].

---

(١) الشيعة فى الميزان.

يقول مغنية: وإذا كان الفرس هم سبب التشيع فى إيران وغير إيران، فهل جاء غلو بعض أهالى أصفهان فى معاوية، ورفعه إلى منصب النبوة والرسالة، هل جاء هذا الغلو فى معاوية نتيجة لتشيع الفرس؟ إنه لغريب حقا منطق خصوم الشيعة، كما قال الدكتور طه حسين. قالوا: إن الغلو فى علي جاء من الفرس. ثم ينقل عالم من علمائهم مثل المقدسى أن بعض الفرس غالى فى معاوية،حتى جعلوه نبيا مرسلا. ثم كيف ومن أين وصل التشيع إلى جزيرة العرب؟ هل جاء إليها من الفرس، والتاريخ يقول: إن الفرس كانوا على التسنن حين كان سكان الجزيرة العربية على التشيع؟ وهكذا يقع فى التناقض من يضفى على التاريخ صفته الذاتية العدائية، ثم يبنى عليه آراءه وأحكامه[1].

وقال المستشرق جولدتسيهر فى كتاب «العقيدة والشريعة» ص ٢٠٤:

«إن من الخطأ القول بأن التشيع فى منشئه،ومراحل نموه يمثل الأثر التعديلى الذى أحدثته أفكار الأمم الإيرانية فى الإسلام، بعد أن اعتنقته، أو خضعت لسلطانه عن طريق الفتح والدعاية، وهذا الوهم الشائع مبنى على سوء فهم الحوادث التاريخية. فالحركة العلوية نشأت فى أرض عربية بحتة[2].

ومن دخل من الفرس وتشيع فحاله حال من تشيع من سائر الأمم، كالعرب والترك والروم وغيرهم لا باعث له إلا حب الإسلام، وحب آل الرسول ﷺ، فأسلم وتشيع عن رغبة واعتقاد. وإذا جاز أن يقال: إن الفرس تشيعوا كيدا للإسلام؛ لأنه قهرهم جاز أن يقال: إن غير الفرس تسننوا كيدا للإسلام، وأنه غلب وقهر الجميع لا الفرس وحدهم.

والحقيقة أن بعض الفرس دان بالتشيع للسبب الذى دان به غيرهم بالتشيع. وبعضهم دان بالتسنن للسبب الذى دان به غيرهم للتسنن، سنة الله فى خلقه. إن الذين

---

(١) الشيعة فى الميزان ص ٦٧ محمد جواد مغنية.

(٢) إن علماء المسلمين العرب هم الذين أدخلوا التشيع إلى فارس، وأرشدوا الفرس إليه بشهادة الشيخ أبى زهرة، قال فى كتاب «الإمام جعفر الصادق ص ١٩٤٥: «أما فارس وخراسان، وما وراءهما من بلدان الإسلام فقد هاجر إليها كثيرون من علماء الإسلام الذين كانوا يتشيعون فرارا بعقيدتهم من الأمويين أولا، ثم العباسيين ثانيا، وإن التشيع كان منتشرا فى هذه البلاد انتشارا عظيما، قبل سقوط الدولة الأموية بفرار أتباع زيد ومنقلبه إليها». فالفرس ــ إذن ــ تشيعوا على أيدى العرب، ولم يخلقوا التشيع من تلقائهم كيدا للإسلام.

نشروا التشيع فى قم وأطرافها الأشعريون، وهم عرب صميمون هاجروا إليها من الكوفة فى عصر الحجاج. وغلبوا عليها، واستوطنوها. وانتشر التشيع فى خراسان بعد الخروج إليها وزاد الانتشار واتسع فى إيران فى عصر الصفوية الذين نصروا التشيع، وهم عرب؛ لأنهم سادة أشراف من نسل الإمام موسى بن جعفر، لا يمكن بحال أن يتعصبوا للأكاسرة، والذين يجوز فى حقهم ذلك هم قدماء الفرس، وهؤلاء جلهم كانوا على مذهب التسنن».

أثبت السيد الأمين أن الذين نشروا التشيع وناصروه فى إبدال هم بين عربى أصيل، كالإمام الرضا والأشعريين[1] أو من أصل عربى كالصفوية، وأن الذين زعموا التسنن وناصروه هم فرس أقحاح. كالبخارى والنسائى والرازى وغيرهم.

١٣ - ظهور بواكير مصطلح الشيعة:

أصل مصطلح الشيعة فى كتب التاريخ الإسلامى القديم منذ اجتماع سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة النبى ﷺ لاختيار الخليفة بمعناه اللغوى، بمعنى النصير والمعاون. .إلخ فأطلق بهذا المعنى على شيعة عثمان وعلي ومعاوية دون معناه الاصطلاحى المذهب حكى البلاذرى بعضا من ذلك منه:

١ ـ أتى مسلم بن عقيل ـ وهو فى الكوفة ـ هانئ بن عروة بن نمران المرادى بيته من بابه للجيرة. فقال هانئ: والله لقد سألتنى شططا. ولولا دخولك دارى وثقتك بى لأحببت أن تنصرف عنى، ولكنه قد وجب على ذمامك، فأدخله داره، وكانت الشيعة تختلف إليه فيها.

٢ ـ ودس ابن زيادة مولى له يقال له معقل وأمره أن يشهر أنه من شيعة علي ويتجسس عن مسلم ويتعرف موقعه.

٣ ـ وقد بلغنى أن رجلا منهم بعث به الحسين بن علي إلى شيعته من أهل الكوفة.

---

(١) فى سنة ٨٣ هـ خرج ابن الأشعث على الحجاج، ثم هزم جيشه وتفرق فى البلاد، وكان بينهم خمسة إخوة: عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم أبناء سعد بن مالك بن عامر الأشعرى، فاجتمع الخمسة وتغلبوا على بعض القرى القريبة من قم، واجتمع إليهم بنو عمهم، وكان المتقدم من هؤلاء عبد الله وكان له ولد يتشيع، فانتقل من تلك القرى إلى قم ونقل التشيع إلى أهلها «الكنى والألقاب» ترجمة القمى.

٤ ـ وكان شريك شيعيا شهد الجمل وصفين مع علي.

٥ ـ سار الحسن بالناس من الكوفة عند أم سلمة. فقالت أم سلمة: ما تذكرون شيعة علي وهم الفائزون يوم القيامة.

ثم بدأت الشيعة فى النزوع إلى التميز المذهبى السياسى بعد التحكيم حين انشق جيش الإمام إلى فرقة الخوارج وخرجت عن شرعية خلافته وإلى شيعة تناصر عليا واستقلت نابتة الشام بمعاوية. فلم يبق من المناضلين ضد القوى المضادة: الخوارج والشام، ولا شيعة علي وهم من قبائل الكوفة العرب. من الكوفة شيعته، وشيعة شيعته البصرة. وكان شريك شيعيا شهد الجمل وصفين، فالشيعى الكامل من شهد الجمل وصفين، فالشيعة عربية المنبت والهدف نبتت فى الكوفة حاضرة خلافة الإمام علي لنصرته.

١٤ - وثيقة التحكيم وظهور مصطلح الشيعة السياسى:

تضمنت وثيقة التحكيم بعض المعانى السياسية لمصطلح «شيعة» ذكر فيها «علي ومن معه شيعته» و«معاوية ومن معه من أهل الشام» وداخل بنود الوثيقة «هذا ما تقاضى عليه علي بن أبى طالب» ومعاوية بن أبى سفيان، قاضى علي على أهل الكوفة ومن معهم من شيعتهم من المؤمنين والمسلمين.

وفى بعض البنود. . . فإن مات أحد الحكمين، فإن أميرالشيعة يختار مكانه من أهل العدل. . ثم وقع خلاف حول «الأمير».

تلك صيغة كتاب التحكيم، وإن كان الجاحظ تشكك فى صحتها لضعف نصها لكنها تقوى من جهة أخرى وأسانيدها مشهورة، فإن تشكك فيها فإن الطبرى والبلاذرى واليعقوبى ومزاحم. . قد ذكروها بأسانيد منها: عن الزهرى، ومحمد بن إسحاق، وأبو مخنف. . . فالوثيقة وردت بطرق متعددة الروايات التاريخية ترجح صحتها وتقف دون نقد الجاحظ الذى اعتمد على النقد البلاغى.

حددت الوثيقة معنى الشيعة السياسى، هم المناصرون لحق علي فى الخلافة بعد بيعته فى المدينة التى أبرم فيها بيعة أبى بكر وعمر، وعثمان، وهم الذين وقفوا معه فى الجمل وصفين والنهروان ضد الخوارج الذين كانوا من شيعة علي ثم خرجوا عليه بسبب التحكيم. وإن صح وصف الإمام علي بأنه «أمير الشيعة» رغم أن فيه انتقاصا لحق الإمام

على وهو انتقاص يقلل من شأن الوثيقة وكاتبيها ولا يقلل من شأن الإمام على فهو أمير المؤمنين بلا منازع، والشيعة دائرة من المؤمنين. . فإن وصفه بأمير الشيعة يعتبر أول وصف سياسى ميز جماعة المناصرين للإمام على، استعمله الخصوم والمناصرون معا استعمالا سياسيا رسميا. . وبذلك دخل معاجم الاصطلاحات السياسية وصار علما تميز به المناصرون لحق آل البيت في الخلافة، وورد فى كتاب الصلح الذى تم بين معاوية والحسن جاء فيه: ويبعث معاوية، عبد الله بن عامر، وعبد الرحمن بن سمرة إلى الحسن للصلح، فدعواه إليه وزهداه فى الأمر، وأعطياه ما شرط له معاوية وألا يتتبع أحد بما مضى، ولا يُنَال أحد من شيعة على بمكروه ولا يُذْكَرُ علي إلا بخير. . . وأشياء اشترطها الحسن[1].

فى حوار جرى بين معاوية والحسين «وقال للحسين بن علي: يا أبا عبد الله، أعلمت أنا قتلنا شيعة أبيك، فحنطناهم، وكفناهم وصلينا عليهم، ودفناهم؟ فقال الحسين: لا ورب الكعبة، لكننا والله إن قتلنا شيعتك ما كفناهم ولا حنطناهم، ولا صلينا عليهم، ولا دفناهم»[2].

ومن هذه الاستعمالات:

«ما ورد عن زياد عن أبيه أنه ـ كان أحضر قوما بلغه أنهم شيعة لعلى، ليدعوهم إلى لعن علي والبراءة منه، وأن يضرب أعناقهم، وكانوا سبعين رجلا»[3].

ومن الاستعمالات التاريخية لهذا المصطلح ما ورد فى كتاب أهل العراق سنة (٥٠هـ) إلى الإمام الحسين بن على قال اليعقوبى:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن على من شيعته المؤمنين والمسلمين، أما بعد فحيهاد، فإن الناس ينتظرونك، لا إمام لهم غيرك، فالعجل ثم العجل والسلام»[4].

وتحدث ابن الأثير عن تلك الأحداث فقال:

«ولما بلغ أهل الكوفة موت معاوية وامتناع الحسين وابن عمر وابن الزبير عن البيعة

---

(١) مقاتل الطالبيين. أبو الفرج الاصفهانى ص ٧٥ السيد صقر.
(٢) المصدر السابق: ص ٢٣١.
(٣) المصدر السابق: ص ٢٣٥.
(٤) المصدر السابق ص ٢٤٢.

أرجفوا بيزيد، واجتمعت الشيعة فى منزل سليمان بن صرد الخزاعى فذكروا مسير الحسين إلى مكة وكتبوا إليه عن نفر، منهم: سليمان بن صرد الخزاعى والمسيب بن نجية ورفاعة بن شداد وحبيب بن مظاهر وغيرهم»[1].

وفى كتاب عبد الله بن مسلم الذى كتبه إلى يزيد بن معاوية، وهو من أنصار بنى أمية، نقرأ فى هذا الكتاب استعمال مصطلح (شيعة)، وهو يطلقه على ذلك الكيان والتكتل الذى بايع الحسين، جاء فى الكتاب:

«أما بعد.. فإن مسلم بن عقيل قد قدم الكوفة، وبايعته الشيعة للحسين بن على ابن أبى طالب فإن يك لك فى الكوفة حاجة فابعث إليها رجلا قويا...»[2].

وهذا معاوية بن أبى سفيان يستعمل كلمة (شيعة) ويصف أتباع عثمان بأنهم شيعته، عندما أوصى المغيرة بن شعبة يوم ولاه الكوفة سنة (٤١هـ)، جاء فى تلك الوصية:

«... ولست تاركا إيساءك بخصلة: لا تتحام عن شتم علي وذمه، والترحم على عثمان والاستغفار له، والعيب على أصحاب على، والإقصاء لهم، وترك الاستماع منهم، وبإطراء شيعة عثمان (رضوان الله عليه) والإدناء لهم، والاستماع منهم»[3].

وهذا يزيد بن معاوية عندما كتب إلى عبيد الله بن زياد، وعينه واليا على الكوفة نجده يستعمل كلمة (شيعة) معبرا بها عن أتباعه وشيعته (شيعة بنى أمية)، مما يؤيد استعمال هذا المصطلح فى تلك الفترة بمعنى التكتل السياسى والأنصار العقائديين، جاء فى هذا الكتاب:

«أما بعد فإنه كتب إلىّ شعيتى من أهل الكوفة، يخبروننى أن ابن عقيل فيها يجمع الجموع...».

من طلائع شيعة علي (عليه السلام) الذين كانوا من أفضل الصحابة والتابعين، نذكر منهم حجر بن عدى وستة معه من أصحابه، عمرو بن الحمق الخزاعى وعبد الله بن يحيى الحضرمى ورشيد الهجرى، وجويرية بن مهر العبدى وأوفر بن حصين، وكثير غيرهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢: ٥٣٣.

(٢) الشيخ المفيد: الإرشاد: ص ٢٠٥.

(٣) تاريخ الطبرى ٤: ١٨٨ حوادث سنة ٥١ هـ. التشيع نشأته معالمه ص ٣٧.

وعندما بدأ الحزب الأموى يسلط الإرهاب على شيعة آل البيت فى عهد الحسن والحسين كان الاحتجاج يصدر من السبطين، ولكن دون جدوى. . . فلما استشهد الحسن بن على (عليهما السلام) مسموما على يد معاوية بن أبى سفيان، تجمع الشيعة حول الإمام الحسين، وطالبوه بالثورة على معاوية، إلا أنه رفض ذلك، وطلب منهم الالتزام بعهد الصلح حتى موت معاوية، غير أن معاوية خالف ميثاق الصلح، وعقد البيعة لابنه يزيد وحول الحكم الإسلامى إلى حكم ملكى وراثى فى الحزب الأموى، فرفض الحسين ووجوه الصحابة والتابعين بيعة يزيد.

وبدأت المواجهة المسلحة، وأعلن الحسين بن علي (عليهما السلام) الثورة على حكومة يزيد بعد موت معاوية، وقاد الكفاح كإمام للمسلمين ومسئول عن حفظ الأمة والرسالة.

ونشاهد مصطلح الشيعة يتكرر فى هذه الحقبة يبرز التشيع كتكتل سياسى وخط فكرى معارض من حول الإمام الحسين بن على، كما كان يتحرك من حول أبيه على وأخيه الحسن (عليهم السلام)، ويجسد هذا الوجود السياسى الكتاب الذى وجهه أهل العراق إلى الإمام الحسين بن على، فقد جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم: للحسين بن على أمير المؤمنين، من شيعته وشيعة أبيه أمير المؤمنين (عليه السلام)، فإن الناس ينتظرونك، لا رأى لهم غيرك، فالعجل يا ابن رسول الله ﷺ، فقد اخضر الجناب، وأينعت الثمار، وأعشبت الأرض، وأورقت الأشجار، فاقدم علينا إذا شئت فإنما تقدم على جند مجندة لك، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته وعلى أبيك من قبلك»[1].

فتوجه الحسين من المدينة المنورة إلى العراق، ووقعت المواجهة بينه وبين الجيش الأموى، واستشهد الإمام الحسين وثمانية وسبعون من أصحابه وأهل بيته، وحلت الفاجعة بآل البيت النبوى، ونشبت الفتن أنيابها وانطوت مرحلة قيادة المواجهة المسلحة من جانب أئمة أهل البيت بعد على والحسن والحسين.

وباستقراء وقائع الكفاح السياسى والفكرى الذى استمر طيلة حياة الإمام على، وولديه السبطين، الحسن والحسين (عليهما السلام)، ومن تابعهم وجاهد معهم، نلاحظ أن دعوتهم تركزت حول المطالبة بالتمسك بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ والعمل

(١) السيد ابن طاووس: مقتل الإمام الحسين: ص ١٥ ــ ١٦.

بهما، لإيضاح هوية التشيع لأهل البيت (عليهم السلام)، وجوهر حركتهم الفكرية، ويتجسد ذلك واضحا فى المواقف والتصريحات التى صدرت عن الأئمة وآبائهم. من ذلك ما ورد فى كتاب الصلح الذى ثبت فيه الحسن بن على (عليهما السلام) واشترط على معاوية: «أن يعمل فيهم بكتاب الله وسنة نبيه»، ويظهر ذلك واضحا فى الرسالة التى كتبها الإمام الحسين (عليه السلام) لأهل العراق: «. . . وقد بعثت رسولى إليكم بهذا الكتاب وأنا أدعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فإن السنة قد أميتت، وإن البدعة قد أحييت، وإن تسمعوا قولى وتطيعوا أمرى أهديكم سبيل الرشاد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

وهكذا يتضح لدينا ظهور شيعتين متواجهتين شيعة آل البيت بقيادة علي والحسن والحسين، وشيعة بنى أمية خلال حكومة معاوية وابنه يزيد وما تلاها من فترة الحكم الأموى.

وجاء فى نص اليعقوبى: «وخاف أهل الشام عبد الملك، فأقبل مسرعا إلى دمشق خوفا من وثوب عمرو بن سعيد، واجتمع الناس عليه، فقال لهم: إنى أخاف أن يكون فى أنفسكم منى شيء، فقام جماعة من شيعة مروان، فقالوا: والله لتقومن إلى المنبر، أو لنضربن عنقك، فصعد المنبر وبايعوه»[2].

وهكذا يتضح لنا أن معنى التشيع هو متابعة أهل البيت (على وبنيه) وأن بذرته الأولى قد ولت على عهد رسول الله ﷺ، ثم ظهر فى المدينة المنورة فى صفوف الصحابة الأوائل حول على وفاطمة بنت رسول الله ﷺ كتكتل يدعو إلى أحقية على بالخلافة بعد أن كان حبا وولاء لشخصه فى عهد رسول الله ﷺ ثم امتد مذهبا عقديا وفقهيا وسياسيا نتيجة لما يحمل من فهم ووعى متميز للإسلام استمده من فهم ووعى الإمام على وبنيه (عليهم السلام) فتبلور هذا المنهج العقدى والفقهى، على يد الإمامين محمد الباقر وولده جعفر الصادق (عليهما السلام) المعاصرين لأبى حنيفة ومالك بن أنس وغيرهما من أصحاب المذاهب الفقهية.

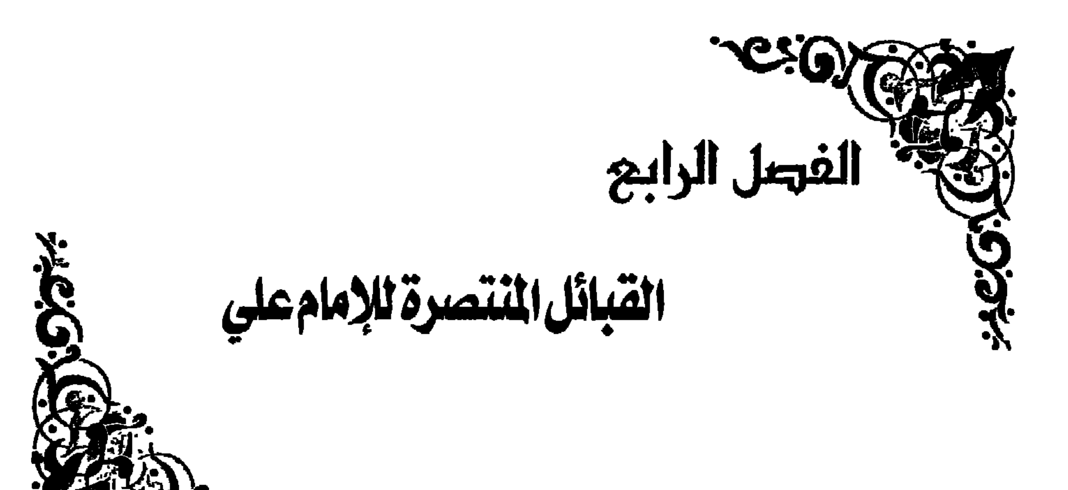
---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢: ٢٥٨ التشيع نشأته معالمه ص ٣٨ هاشم الموسوى.

(٢) انظر حول ذلك البلاذرى أنساب ج٢ ص ٣٣٥ ـ ٣٣٦ (ابو مخنف) اليعقوبى تاريخ ج٢ ص ١٨٢: الإمامة، ج١ ص ٦٠ (ذكروا)، ج١ ص ٦١ (ذكروا) الطبرى، تاريخ ج٤ ص ٤٥٢ (الزهرى) ج٤ ص٤٧٨ (المدائنى) ج٤ ص ٤٨١ (سيف) ج ٤ ص٥١٤ (سيف، ج٢ص٥١٥ (سيف، ج٤ ص ٥٢١ (أبو مخنف) ج٤ ص ٥٢٨ (سيف)

وينبغى أن نشيـر هنا إلى أن المذهب هو عبارة عن طريقة ومـنهج لفهم الإسلام، والكشف عن محتواه فى المجالات العقدية والتشريعية والسياسية.

وعندما تبلور هذا الـكيان الشيعى، واتـسع عند اشتداد الصـراع بين على ـ عليه السلام ـ ومعاوية انضم إلى صفوف علي البدريون والمهاجرون والأنصار، وأصحاب بيعة الرضوان، وقاتلوا مـعه معاوية بن أبى سـفيان فى معركـة صفين. ذكر اليـعقوبى ذلك بقوله: «وكان مع علي يوم صـفين من أهل بدر سبعون رجـلا، وممن بايع تحت الشجرة سبعمائة رجل، ومن سائر المهاجـرين والأنصار أربعمائة رجل، ولم يكن مع معاوية من الأنصار إلا النعمان بن بشير ومسلمة بن مخلد...».



الفصل الرابع

القبائل المنتصرة للإمام علي

لم تكن غالبية شيعــة الإمام على من عرب ـ مكة والمدينة وحسب، إنما كانوا من خارجها أشتاتا وأخلاطا من قبائل عرب البوادى قال فيهم القرآن: ﴿الأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا ... ﴿٩٧﴾﴾ [التوبة] وكان أكثرهم من الذين خــرجوا على أبى بكر معرضين عن دفع الزكاة.

يقول آدم مــتز: ولقد نالنا العــجب حين رأينا خلافـا وقع بين المستشــرقين ومن يذهب مذهبهم حول نشأة أصل الشيعة وكأن الأمر غير واضح. بينما الأمر من الوضوح الواضح الذى لا يحتاج البحث فيــه إلى دليل لكن درج المستشرقون على تكوين أحكام مسبقة ثم يبحثون عن شهود تقف بجانبها، من ذلك قضية أصل نشأة الشيعة.

لذلك رأينا قدم تطور نزوع القوى المضادة وكيف كانت عربية صرفة.

فمن هنا ذهب فلهاوزن وآدم مــتز ومن دار فى مدرستهم من المستــشرقين إلى أن الشيعة عربية الأصل.

يقول آدم مــتز: ولقد أبانت لنا مــباحث فلهاوزن بصــورة أدنى إلى الصواب أن مذهب الشيعة ليس ـ كما كان يعتقد البعض ـ رد فعل من جانب الروح الإيرانية يخالف الإسلام[1]. ومما يؤيد أبحاث فلهاوزن التــوزيع الجغرافى للشيعــة فى القرن الرابع، وقد

---

(١) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ـ آدم متز، ترجمة د. محمد عبد الهادى أبو ريدة.

ألمح الخوارزمي في أواخر القرن الرابع إلى أن العراق الموطن الأول للتشيع. وكانت الكوفة وبها قبر علي ـ رضي الله عنه ـ أكبر مركز للشيعة حتى ذلك العهد.

ويقول آدم متز: ومن الآراء الخاطئة القول بأن منشأ التشيع يرجع إلى مذاهب الفرس وتأثيرها في الإسلام، وهذا ناشئ عن خطأ تاريخي، وقد رفضه فلهاوزن في بحث له هو: Wellhausen. Die Rellgios- Politischen Oppositionsparteien im Aiten Islam؛ وذلك أن حركة التشيع نشأت على تربة عربية خالصة، ولم تنتشر بين غير الساميين إلا بعد ظهور المختار. هذا إلى أن أصول النظرية الإمامية بما تتضمنه من النظر إلى الدولة نظرة دينية، ومن القول بالمهدي ونحوه يمكن أن نرده إلى الأثر اليهودي والمسيحي، بل إن ما ذهب إليه الشيعة الغالية من تأليه علي كان أول من أتى به عبد الله ابن سبأ قبل تأثير المذاهب الآرية، وكذلك التجسيم عند الشيعة، يرجع بعضه إلى أصل عربي.

وقد ذهب إلى قول الشيعة أهل النظر العقلي بين العرب، وكذلك الفرس، وقد رحب الفرس بمعارضة الشيعة لأهل السنة وأخذوا بمذهب الشيعة، ثم تأثر هذا المذهب فيما بعد بما هو موروث عند الفرس من تأليه الملوك، ولكن الأصول الأولى للتشيع لا ترجع إلى أثر أجنبي، بل هي عربية في صميمها.

١ - مع النشأة النصية:

يذهب الشيعة وهم يستعرضون آراء الشيعة إلى القول بالنص على خلافة الإمام علي بالتعيين وأوردنا رأيهم كما عرضه العالم المحقق محمد جواد مغنية في كتابه: (التشيع). وهو رأي يمثل عقيدة التشيع في الخلافة وحق الإمام علي فيها فهو لديهم أصل من أصول الدين. من هنا تكتنف المناقشة عدة صعوبات منها:

* قيام بنائه على أدلة نصية.
* دخوله في الكيان العقدي في أصول الدين.
* يلزم القول بالوصية: القول بعصمة الإمام.

فالقول بالتعيين ـ الإمام ـ وإحاطته بسياج مقدس يدخله فى باب يصعب ولوجه بالعقل الجدلى فهو غير قائم على قواعد من العقل، وإنما يصح النظر إليه من زاوية واحدة وهى زاوية النص وتأويله.

نرى أن النصوص التى ساقوها من القرآن الكريم شاهدة على إمامة علي بالتعيين تكلفوا تأويلها حين حملوها معنى خاصا وكأنها نزلت للقول بتعيين على فبانت عن عسر المخاض.

وأما الأحاديث التى ساقوها من الممكن قبولها لو سيقت فى مقام ذكر فضائل الأعمال، لكنهم أوردوها تأسيسا لعقيدة أصولية فلها شروطها الخاصة. وإليك ما ذكره صاحب كتاب (التشيع).

رأى هاشم الموسوى:

لقد تجنى كثير من الباحثين على نشأة التشيع وبدء ولادته، حتى قاد البعض هذا التجنى إلى اتهام الشيعة بأنهم فرقة أسست بأفكار عبد الله بن سبأ اليهودى الأصل والمحتوى، بينما ذهب بعض الباحثين إلى أن التشيع نشأ فى خلافة الإمام علي بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ، وذهب فريق آخر إلى أن التشيع ولد بعد وفاة رسول الله ﷺ يوم انعقاد السقيفة حيث اجتمع عدد بارز من الصحابة فى بيت علي وفاطمة بنت رسول الله ﷺ، تؤيدهم فاطمة بنت محمد، والعباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ، فكان هذا الاجتماع أول تشيع ظهر حول علي وأهل بيته.

ويذهب فريق آخر إلى أن التشيع نشأ حول علي فى عهد رسول الله ﷺ، وأن الرسول ﷺ هو الذى أطلق هذا الاسم على مؤيدى علي وأتباعه.

نذكر من تلك الآراء ما نقله السيد محسن الأمين عن أبى محمد الحسن بن موسى النوبختى فى كتابه الفرق والمقالات: (الشيعة هم فرقة علي بن أبى طالب، المسمون بشيعة علي فى زمان النبى ﷺ وما بعده بانقطاعهم إليه القول بإمامته)[1].

أما أبو حاتم السجستانى فيقول: «إن لفظ الشيعة كان على عهد رسول الله ﷺ، لقب لأربعة من الصحابة: سلمان وأبى ذر والمقداد وعمار»[2].

---

(١) السيد محسن الأمين: الشيعة بين الحقائق والأوهام: ص٤١.

(٢) التشيع نشأته معالمه ـ هاشم الموسوى.

٢ - غدير خم والوصية:

أما بيعة (غدير خم) فقد ذكرها اليعقوبي، وبين أن النبي ﷺ أوصى فيها لعلى بالإمامة[١]، وقد تناول الشيخ الأمين[٢] البحث عن عدم اشتهار بيعة الغدير. أما القول بالتواتر فقد جاء عن الشيعة أن النبي ﷺ «نص على أمير المؤمنين - عليه السلام - بالإمامة بعده واستخلفه على أمته بألفاظ مخصوصة نقلوها: منها قوله ﷺ سلم على علي بإمرة المؤمنين. وقوله ﷺ مشيرا إليه - رضى الله عنه - وآخذا بيده: هذا خليفتى فيكم من بعدى فاسمعوا له وأطيعوا»[٣].

وألف الشيعة عشرات الكتب فى وصية النبيﷺ لعلي، فالمسعودى ألف كتابه الموسوم بـ (الوصية)[٤] وذكر فيه كيفية اتصال الحجج والأوصياء من لدن آدم إلى القائم صاحب الزمان. وكتب العلامة الحلى كتابه الموسوم (إثبات الوصية) وذكر الحلى طائفة من الكتب فى الوصية يزيد عددها على الثلاثين كتابا من بينها كتاب المسعودى المذكور سابقا[٥].

رأى جواد مغنية:

واتفق المسلمون بكلمة واحدة على أن السلطة الزمنية والدينية كانت للرسول ﷺ تعطى لخليفته، ثم اختلفوا فيما بينهم: هل يعين الخليفة بالنص من النبى ﷺ، أو يترك الأمر فيه إلى اختيار الأمة؟ قال الشيعة: إن الخليفة يتعين بالنص لا بالانتخاب، أى أن الله سبحانه يأمر النبيﷺ أن يبلغ المسلمين بأنه قد اختار (فلانا) خليفة بعده، وأن عليهم أن يسمعوا له ويطيعوا. وقد صدر هذا النص بالفعل من النبيﷺ على علي بن أبى طالب.

هذا هو التشيع، وهكذا ابتدأ ونشأ دون أن يضاف إليه أى شيء آخر . . . أما المغالاة فى علي وصفاته أو تكفير خصومه السياسيين وما إلى ذلك فلا يمت إلى التشيع بسبب . . . والذى يدلنا على أن لفظ الشيعة علم على من يؤمن بأن عليا هو الخليفة بنص النبيﷺ ما قاله فقهاء الإمامية فى كتب التشريع من أنه إذا أوصى رجال بمال للشيعة، أو

---

(١) طبع كتاب الأمينى بيروت، تحت عنوان «الغدير فى الكتاب والسنة والآداب».

(٢) تلخيص الشافى م، جـ ٢ ص ٥٦ - ٧٠.

(٣) طبع الكتاب المذكور فى النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع.

(٤) إثبات الوصية فى النجف دون أن يذكر تاريخ الطبع

(٥) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٣٩.

وقف عقـارا عليهم يعطى لمن قـدم عليا فى الإمامـة على غيـره بعد النبىﷺ ولا يعطى للمغالين (كتاب المسالك للشهيد الثانى ج١ باب الوقف).

بالتالى، فإن التشيع فى حقيقته وجوهره يتلخص بهذه الكلمة، وهى الإيمان بأن الإمام المنـصوص عليه يـتولى الحكم، ويحكم بإرادة الله لا بإرادة الناس، وقـد أنكرت السنة عليهم ذلك، وبالغوا فى الإنكار، حتى قال بعض المـؤلفين: إن هذه العقيدة نزعة فارسية استقاها الشيعة من الفرس[1].

ونجيب بأنها إسلامية بحتة، لا شائبة فيها لغير الإسلام وقد أخذت من كتاب الله وسنة نبـيـه ﷺ، كمـا يظهـر من الأدلة الآتيـة. وإذا أخـذ الشـيعـة هذه النزعـة من الفرس. فمن أين أخذ عثمان بن عفان قوله ـ حين طلب إليه أن يتخلى عن الخلافة ـ «ما كنت لأخلع قميصـا قمصنيه الله». وقال أيضا: «لأن أقـدم فتضرب عنقى أحب من أن أنزع سِرْبالا سَرْبَلَنِيه الله».

٣ - من أدلة الشيعة:

استدل الشيعة على أن الخلافة تكون بالنص لا بالانتخاب بأدلة:

منها: أن الخليفـة يحكم باسم الله لا باسم الشعـب، فيجب والحـال كذلك أن يُختار من الله بلسان نبيه ﷺ، لا من الشعب بطريق الانتخاب.

ومنها: قوله تعـالى فى الآية ٦٨ من سورة الـقصص: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ ... (٦٨)﴾. فالله سبـحانه حصر الاختـيار به، ونفاه عن جميع الناس. (دلائل الصدق جـ ٣ ص ٢١ طبعة ١٩٥٣).

ومنها: أن الأكثرية غير معصومة عن الخطأ، فمن الجائز أن تختار رجلا لا تتوافر فيه صفات الإمام من العلم والخلق فتعم الفوضى والفساد. وقد نص القرآن الكريم على سقوط رأى الأكثـرية فى الآية ١١٦ من سورة الأنعام: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ... (١١٦)﴾. وفى الآية ١٠٣ من سورة المائدة ﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (١٠٣)﴾ وفى الآية ٧٠ من سورة المؤمنون: ﴿...وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠)﴾. وغيرها من الآيات.

(١) الشيعة فى الميزان. ص ١٤، ١٥.

كتاب (فدك للصدر) ص ١٣ طبعة ١٩٥٥. وجـ ٤ من كتاب (الميزان في تفسير القرآن) للطباطبائى، ١٣٧٦ هـ، ص ١٠٩).

وجاء فى الحديث النبوى أن محمدا ﷺ يرى يوم القيامة أكثر أمته تدخل النار. وحين يسأل عن السبب يقال له: إنهم ارتدوا بعدك على أدبارهم القهقرى (كتاب الجمع بين الصحيحين. الحديث ٢٦٧)[1].

وأهل السنة الذين قالوا: إن الخليفة يكون بالانتخاب لا بالنص يعترفون بأن الأكثرية قد تخطئ، وتختار غير الكفء، لكن بعضهم قال: إذا انحرف الخليفة، عزلناه، وأتينا بالأصلح... وأعلن أبو بكر من على المنبر قائلا: «إن استعنت فأعينوني، وإذا زغت فقوموني». وأجاب الشيعة عن ذلك بأن وظيفة الإمام أن يقوم المعوج من رعيته، فإذا قومته الرعية انعكست الآية، وأصبح محكوما، والرعية هى الحاكمة، قال الشاعر الشيعى:

وقالوا: رسول الله ما اختار بعده ... إماما ولكنا لأنفسنا اخترناه

أقمنا إماما إن أقام على الهدى ... أطعنا وإن ضل الهداية قومناه

فقلنا إذن أنتم أمام إمامكم ... بحمد من الرحمن تهتم وما تهنا

ولكننا اخترنا الذى اختار ربنا ... لنا يوم خططنا ما اعتدينا ولا حلنا

يسخر الشاعر من قولهم: إنم يطيعون الإمام إن استقام، ويقومونه إن اعوج رد عليهم بأنهم أصبحوا هم الإمام، وهو المأموم.

٤ - أصل التشيع النصى:

من الذى جاء بالتشيع، وحمل الناس عليه؟ يرجع إلى أصل من أصول الإسلام، ومصدر من مصادره كآية من كتاب الله، أو رواية من السنة النبوية؟

وقد أجاب الشيعة عن ذلك إجابة حاسمة وواضحة، وأثبتوا بالأرقام من أقوال أهل السنة، وكتبهم الصحاح أن النبى ﷺ هو الذى بعث عقيدة التشيع، وأوجدها،

---

(١) دلائل الصدق جـ ٢ ص ٢٥ طبعة ١٩٥٣. وهذا الشاعر هو سفيان بن مصعب العبد. قال السيد محسن الأمين: كان من أصحاب الإمام جعفر الصادق، وتوفى فى حدود سنة ١٢٠ هـ (أعيان الشيعة، القسم الثانى من الجزء الأول ص ١٦٦ طبعة ١٩٦٠).

ودعا إلى حب علي وولائه، وأول من أطلق لفظ الشيعة على أتباعـه ومريديه، ولولاه لم يكن للشيعة عين ولا أثر.

قال العلامة الحلى فى كتاب «نهج الحق»: ذكر الإمام أحمد بن حنبل في مسنده، والثعـالبى فى تفسيـره أنه لما نزلت الآية ٢١٤ من سورة الشـعراء: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ جمع النبى ﷺ من أهل بيته ثلاثين، فأكلوا وشربوا، ثم قال لهم: من يضمن عنى دينى ومواعـيدى، ويكون خليفتى، ومعى فى الجنة؟ قـال علي: أنا. فقال له: أنت.

ونقل الشيخ حـسن المظفر فى كتاب (دلائل الصـدق جـ ٢ ص ٢٢٣) عن كتاب كنز العمال جـ ٦ ص ٣٩٧ أن النبى ﷺ قال لعشيرته: قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمـرنى ربى أن أدعوكـم إليـه، فأيكم يؤازرنى على أمرى هذا؟ قـال علي: أنا يانبى الله أكون وزيرك عنده فأخذ النبى ﷺ برقبته، وقال: إن هذا أخى، ووصيى، وخليفتى فيكم، فاسمعوا له وأطيعوا. فـقام القوم يضحكون، ويقولون لأبى طالب: قد أمرك أن تسمع وتطيع لولدك علي[1].

وبهذه المناسـبة ننقل ما ذكـره الأديب المصرى عبد الرحـمن الشرقاوى فى كـتابه «محـمد رسول الحـرية، قال فى ص ٨٠ الطبـعة الأولى» ورأى محـمد ﷺ أن يجمع أسـرته من بنى عبـد المطلب، ويدعـوهم إلى الإيمان بمـا جاء به، ليس أحب إليـه من عشيرته وأولهم فى بيـته، وبدأ يتكلم. وبدأوا يسمعون لمحمد، وهو يحـدثهم عما جاء به. ولكن أحدا لم يستجب إليه: إلا علي بن أبى طالب[2] وحده الذى انتفض يؤكد أنه سينصر محمدا بسيفه. وضحك من الاستخفاف بعض الكبار، فقد كان علي هذا أصغر الحاضرين، كان إذ ذاك ما يزال فتى صغير السن، تتقدم به سنه إلى أول الشباب.

ولكن محمدا لم يستخف بحماسة علي، فقد قام إليه، وعانقه وبكى .

وقال الأمينى: فى الجزء الأول مـن كتاب «الغديرى»[3] ص ٩ طبعة ١٣٧٢هـ: بعد أن رجع النبى ﷺ من حجـة الوداع، وهى الحجة التى لم يلبث بعـدها إلا قليلا، وصل إلى غدير ثم جمع الناس، وخطبهم وقال فيما قال:

---

(١) دلائل الصدق جـ ٢ ص ٢٢٣. (٢) نفس المصدر ص ١٨.

(٣) هذا الكتاب للشيخ عبد المحسن الأمينى، وقد بلغ ١٢ مجلدا ضخما، جمع فـيه النصوص على خلافة علي من طريق السنـة ورواياتهم عن النبى ﷺ، وقد بلغت المئـات، وطبع الكتـاب أكثـرمن مـرة فى طهران. . . من علماء الشيعة فى هذا العصر ومحل ثقة الجميع واحترامهم.

إن الله مولاى، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلي مولاه يقولها ثلاث مرات، . ثم قال: اللهم وال من والاه وعاد من عاداه، وأحب من أحبه، وأبغض من بغضه، وانصر من نصره واخذل من خذله، وأظهر الحق معه حيث دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب[1].

ثم ذكر الأميني أنه روى هذا الحديث ١٢٠ صحابيا، و٨٤ تابعيا، أما طبقات رواته من أئمة الحديث وأساتذته فقد بلغوا ٣٦٠، ويبلغ المؤلفون فى حديث الغدير من السنة والشيعة ٢٦ مؤلفا.

وقد اعتبر الشيعة حديث الغدير هذا نصا بخلافة علي بعد النبى ﷺ، ومن هنا اهتموا به هذا الاهتمام البالغ، وأهل السنة يعترفون بصحة هذا الحديث، يقولون بصدوره عن النبى ﷺ، ولكنهم أوّلوا الولاء بالحب والإخلاص، لا بالحكم والسلطان، فحديث «من كنت مولاه فعلى مولاه» أشبه عندهم بحديث «يا علي لا يحبك إلا منصف، ولايبغضك إلا منافق» وغيره من الأحاديث الدالة على مكانة أهل البيت وعلو شأنهم، والحب وعلو الشأن شىء، والنص عليه. . . . . شىء آخر.

وأجاب الشيعة عن ذلك بأن قول النبىﷺ: «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعلى مولاه» يدل صراحة على أن نفس ولاية النبىﷺ الدينية والدنيوية هى بعينها قد جعلها النبى ﷺ لعلي بعده، إذ جعل عليا نظير نفسه فى أنه أولى بهم من أنفسهم، ولا شىء مثل ذلك، وإلا كان للفظ المولى ألف معنى ومعنى.

٥ - لفظ الشيعة:

وكما أثبت الشيعة من كتب السنة وأقوالهم أن النبىﷺ هو الذى بعث عقيدة التشيع ودعا إليها أثبتوا أيضا من طرق السنة أن النبى ﷺ أول من أطلق لفظ الشيعة على من أحب عليا وتابعه، قال الشيخ محمد حسين المظفر فى كتاب «تاريخ الشيعة» ص ٥ طبع النجف:

جاء فى كتاب (الصواعق المحرقة) لابن حجر وفى كتاب (النهاية) لابن الأثير أن النبى ﷺ قال: يا علي إنك ستقدم على الله أنت وشيعتك راضين مرضيين.

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨.

وجاء فى الدر المنثور للسيوطى أن النبى ﷺ قال: إن هذا ـ وأشار إلى علي وشيعته ـ لهم الفائزون يوم القيامة.

ثم قال صاحب «تاريخ الشيعة»: فكانت الدعوة إلى التشيع لعلي من محمد ﷺ تمشى منه جنبا لجنب مع الدعوة إلى شهادة لاإله إلا الله محمد رسول الله. وبهذا يتبين معنا أن المصدر الأول والأخير لشيعة علي والتشيع هو النبى ﷺ دون سواه[1].

رأى محمد باقر الصدر:

أما الشهيد الصدر فيتحدث عن نشأة التشيع وظهور الشيعة ككيان حول على ـ عليه السلام ـ فيوضح أن هناك اتجاهين نشآ فى صفوف الصحابة فى عهد الرسول الكريم ﷺ:

الأول: اتجاه يتقيد بالنص فى كل مجال من مجالات الحياة ولا رأى فيه بعد البيان النبوى بالاجتهاد مقابل النص، سواء فى مجال العبادة أو السياسة أو شئون الحرب ...إلخ.

الثانى: اتجاه يؤمن بإمكانية الاجتهاد مقابل النص فى بعض المجالات.

وهذان الاتجاهان قد تجسدا بشكل تيارين عندما واجها النص النبوى على أطروحة إمامة علي ـ عليه السلام ـ، فاجتهد ذلك الفريق مقابل النص، والتزم الفريق الآخر بالنص، وبذا ولد الكيان النص من حول الإمام علي ـ عليه السلام ـ.

ثم يوضح ذلك بنص قوله: «وهذان الاتجاهان اللذان بدأ الصراع بينهما فى حياة النبى ﷺ قد انعكسا على موقف المسلمين من أطروحة زعامة الإمام علي –عليه السلام– للدعوة بعد النبى ﷺ، فالممثلون للاتجاه التعبدى وجدوا فى النص النبوى على هذه الأطروحة سببا ملزما لقبولها دون توقف أو تعديل، وأما الاتجاه الثانى فقد رأى أنه بإمكانه أن يتحرر من الصيغة المطروحة من قبل النبى ﷺ إذا أدى اجتهاده إلى صيغة أخرى أكثر انسجاما فى تصوره مع الظروف[2]. وهكذا نرى أن الشيعة ولدوا منذ وفاة الرسول ﷺ مباشرة متمثلين فى المسلمين الذين خضعوا عمليا لأطروحة زعامة الإمام

---

(١) نفس المصدر السابق ص ٨٩.

(٢) التشيع نشأته معالمه هاشم الموسوى. ص ١٩.

علي ـ عليه السلام ـ وقيادته التى فرض النبى ﷺ الابتداء بتنفيذها من حين وفاته مباشرة. وقد تجسد الاتجاه الشيعى منذ اللحظة الأولى فى إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي ـ عليه السلام ـ وإسناد السلطة إلى غيره».

تعقيب وتحرير:

يقدم السيد محمد باقر الصدر لرأيه بمقدمة أوضح ما فيها خطؤها، وإن كانت تخضع لتقسيمات عقلية واضحة وتحمل فى ثناياها عناصر الحقيقة، وخطؤها هو أنه جعل النص فى مقابل العقل، وهناك العقليون وهناك النصيون لكن مع القضايا الدينية يختلف مفهوم النظر العقلى عن غيره والنص فى الشرع مقدم على العقل وإذا وجد النص فلا اجتهاد ـ إلا تفسيرا أو تأويلا وتوفيقا كل ذلك خدمة له. لا اجتهاد مع النص ـ وحين لا يكون نص يبدأ الاجتهاد. ويقول بعض الأئمة: «إن صح الحديث فهو مذهبى» فالنص فى القضايا الدينية ليس مقابلا للاجتهاد وإنما هو مكمل. وهذا ولا شك قضية تثير الجدل لا تحسمه.

وكان هدف السيد محمد باقر الصدر ـ رحمه الله ـ من وراء هذا التمهيد الجدلى هو بيان أن النبى ﷺ عهد إلى علي فوقع خلاف جوهرى بين أصحاب الاتجاه الاجتهادى وبين الاتجاه النصى فغلب الاتجاه الاجتهادى الاتجاه النصى فكانت النتيجة كما يقول باقر الصدر: أن تجسد الاتجاه الشيعى منذ اللحظة الأولى فى إنكار ما اتجهت إليه السقيفة من تجميد لأطروحة زعامة الإمام علي وإسناد السلطة إلى غيره... لا شك أننا نقدر حق الإمام علي حق قدره ونتولى آل البيت ولا نبخس حق الصحابة وكلهم كملة لهم التحية والتبجيل، وذلك ما يؤكد غديرخم وتلك هى الولاية الأدبية، أما الولاية السياسية فغدير خم يتضمنها تأويلا ولا يقصدها تصريحا لذلك كان من رأى الإمام زيد ابن علي زين العابدين وفق قوله:

إنه «لا مانع من ولاية الفاضل مع وجود الأفضل ولا تفاضل بين العشرة المبشرين بالجنة، وهذا هو التاريخ. وما نظن عليا نبذ بيعة أبى بكر ولا نظنه خرج عليه كما خرجت عليه عائشة وطلحة والزبير، ولا نظن أبا بكر قد خرج على عهد النبى لعلي». يقول الشهرستانى فى كتابه (نهاية الأقدام)[1] فى الإمام والخلافة: «فإن قيل قد أظهر

(١) نهاية الأقدام ص ٤٩٣ تحقيق جيوم.

النبي ﷺ ذلك يوم غدير خم، حيث أمر الناس بالدرجات. وخاطب الناس، وأخذ بيد علي وقال: «من كنت مـولاه فعلي مولاه، اللهم وال من ولاه، وعاد من عـاداه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معـه حيث دار» وهذا حين نزول قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ... (٦٧) ﴾ [المائدة] وقد فهم الجماعة من قوله: «من كـنت مولاه فعلى مولاه» الخلافة، حيث هنأه عمـر، فقال: بخ بخ يا علي أصبـحت مولى كل مؤمن ومـؤمنة» وقال ﷺ: أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى وقد قال ﷺ: «أنا مدينة العلم وعلي بابها» إلى غير ذلك من الأخبار.

قيل: إن اقتنعتم بمثل هذه الأخبـار فخذوا منا فى حق أبى بكر كذلك حيث روى مسلم فى صحيـحه أنه قال: ائتونى بدواة وكتف أكتب لأبى بكر كـتابا لا يختلف عليه اثنان، وقال: ليصل بالناس أبو بكر...).

يصعب على الذين يتـولون الإمام عليا الاسـتكانة إلى هذا الرأى ـ وهو وإن كان يخدم الشيعة فـى مراحلها التاريخية وهى مناصرة أولوية علي فى البيـعة، إلا أنها تشوه تاريخ الإمام علي من حيث أرادت تزكـيته. فقد جعلتـه صاحب فرقة وكتلة سـياسية. وتدعيم هذا الرأى هو تدعيم لفكرة الخوارج على الشرعية ويكون علي أول الناكثين.

أما روايات إضـرام النار على بيت فاطمة من أبى بكـر ومن أبى بكر بالذات لما يطعن فى روايات التاريخ التى لا تتحرى ذكر تقـدير أقدار الرجال، فلا يجدر بأبى بكر أن يقوم مـحرقـا ببيت فـاطمة... ولا بيت فـاطمة هو الذى يعـتدى عليه ظـلما ولا المجتمعون فيه لإجبار علي على البيعة.

أما موقف علي من بيعة أبى بكر كما ذكرها البلاذرى والطبرى فى السـقيفة.

يرى صاحب أنساب الأشراف أنه لما قبض رسول الله ﷺ:

* انحاز الأنصار إلى سعد بن عبادة فى سقيفة بنى سعد.

* واعتزل علي والزبير وطلحة فى بيت فاطمة.

* وانحاز المهاجرون إلى أبى بكر، ومعهم أسيد بن حضير فى بنى عبد الأشهل. ورسول الله ﷺ فى بيته لم يُفْرَغْ من أمره بعد.

فأتى أبا بكر آت فقال: أدرك الناس قبل أن يتفاقم الأمر وتكون فتنة مالم يغلقها الله بك فلن تغلق أبدا، وعلي بن أبى طالب والعباس متشاغلان به.

٦ - علي يعاتب أبا بكر:

مضى أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح حتى جاءوا السقيفة، وإذا «سعد» على طنفسة متكئا على وسادة وعليه الحمى، فقال له أبو بكر: ما ترى أبا ثابت؟

فقال: أنا رجل منكم، فقال الحباب بن المنذر: منا أمير ومنكم أمير.

قال أبو بكر: «نحن أول الناس إسلاما وأوسطهم دارا وأكرمهم أنسابا. وأمسهم برسول الله ﷺ رحما. وأنتم إخواننا فى الإسلام وشركاؤنا فى الدين، نصرتم وآويتم وآسيتم، فجزاكم الله خير الجزاء. فنحن الأمراء وأنتم الوزراء. ولن تدين العرب إلا لهذ الحى من قريش. فقد يعلم ملأ منكم أن رسول الله ﷺ قال: الأئمة من قريش فأنتم أحق أن لا تنفسوا على إخوانكم من المهاجرين ما ساق الله إليهم».

فقال الحباب، صاحب رأى منا أمير ومنكم أمير: ما نحسدك ولا أصحابك، ولكنا نخشى أن يكون الأمر فى أيدى قوم قتلناهم فحقدوا علينا.

فقال أبو بكر: إن تطيعوا أمرى تبايعوا أحد هذين الرجلين: أبا عبيدة بن الجراح وكان عن يمينه وعمر بن الخطاب وكان عن يساره.

فقال عمر: وأنت حي؟ ما كان لأحد أن يؤخرك عن مقامك الذى أقامك فيه رسول الله فابسط يدك لله فبسط يده، فبايعه عمر، وبايعه أسيد بن حضير وبايع الناس وازدحموا على أبى بكر[١].

فقالت الأنصار: قتلتم سعدا وقد كادوا يطؤونه. فقال عمر: اقتلوه إنه صاحب فتنة فبايع الناس أبا بكر إلا سعدا فإنه راغ ثم أتى الشام.

يقدم العباس عليا:

وسمع العباس وعلي التكبير فى المسجد، ولم يفرغوا من غسل رسول الله ﷺ فقال علي: ما هذا؟ فقال العباس: ما قدمتك إلى شيء إلا وتأخرت عنه وكان قد قال

(١) أنساب الأشراف، البلاذرى جـ ٢.

له لما قبض رسول الله ﷺ: اخرج حتى أبايعك على أعين الناس، فلا يختلف عليك اثنان فأبى، وقال: أو منهم من ينكر حقنا ويستبد علينا؟ فقال العباس: سترى أن ذلك سيكون فلما بويع أبو بكر قال العباس: ألم أقل لك يا علي!

فخرج علي فقال: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا فى هذا الأمر؟ قال: بلى، ولكن خشيت الفتنة وقد قلدت أمرا عظيما. فقال علي: قد علمت أن رسول الله أمرك بالصلاة وأنك ثانى اثنين فى الغار وكان لنا حق ولم تستشر، والله يغفر لك وبايعه.

لم يتخلف علي - رضى الله عنه - عن مبايعة أبى بكر ولم يتأخر كما تذهب روايات أخرى ولم يخش فاطمة فلم يبايع حتى وافاها الأجل فلما خرج حين سمع تكبير المسلمين وأشاح وجهه عن رأى العباس الذى أراد أن يقدمه على أبى بكر... غير أن عليا - وهو يبايع أبا بكر - ذكره بأنه لم يطب خاطره دون رد الخاطر كالتى قالها للأنصار أو التى قالها لعمر وأبى عبيدة حين قدمهما للمبايعة. فلم يكن علي مجانبا للصواب حين عاتب أبا بكر وهو يبايعه قائلا: يا أبا بكر ألم تر لنا حقا فى هذا الأمر... وهذا الحق الذى يذكر به أبا بكر هو الحق الأدبى.. وليس الحق الشرعى الذى نحلته الشيعة له. والحق الأدبى يتمثل فى تقديم أبى بكر لعمر وتقديم عمر لأبى عبيدة بن الجراح كما تشير بعض روايات المؤرخين: كان علي يود أن يعرضوا عليه الأمر تجملا.

٧ - علي ينفى الحق الشرعى:

يقول أبو مخنف: لما استخلف عثمان دخل العباس على «علي» فقال: ما قدمتك قط إلا تأخرت، قلت لك وقد اضطر النبى ﷺ فاسأله عن هذا الأمر لمن هو بعده. فقلت: أكره أن لايقول لكم، لا تستخلف أبدا ثم توفى، فقلت أبايعك فلا يختلف عليك اثنان فأبيت،ثم توفى عمر، فقلت لك: قد أطلق الله يدك وليس عليك نصير، فلا يدخل فى الشورى فأبيت فما الحيلة؟

وينفى أن يكون حقا بالغلبة:

قدم خالد بن سعيد بن العامل من ناحية اليمن بعد وفاة النبى ﷺ فأتى عليا وعثمان فقال: أنتما الشعار دون الدثار. أرضيتم يابنى عبد مناف أن يلى أمركم غيركم.

فقال علـي: أو غلبة تراها؟ إنما هو أمر الله يضعـه حيث يشاء. . . وقال غـير المدائنى: بايع خالد أبا بكر بعد شهرين.

٨ - على وأبو سفيان وأحقية أبى بكر:

فى حوار جـرى بين أبى سفيان وعلي: قـال أبو سفيـان لعلي: أترضون أن يلى أمركم ابن أبى قحافة، أما والله لإن شئتم لأملأنها عليه خيلا ورجالا، فقال لست أشاء ذلك، ويحك يا أبا سـفـيان «إن المسلمـين نصـحـةٌ بعضـهم لبـعض وإن نأت ديارهم وأرحامهم، وإن المنافقين غششةٌ بعضهم لبعض وإن دنت ديارهم وأرحامهم ولو لم يكن أبو بكر لها أهلا رأينا أبا بكر لها أهلا ما خليناه وإياها.

ويروى المدائنى أن أبا سفـيان جاء إلى علـي فقال: يا علي بايعـتم رجلا من أذل قبيلة من قـريش، أما والله لئن شئت لأخرمنهـا عليه من أقطارها ولأملأنها عليـه خيلا ورجالا، فقال له علي: إنك طالمـا غششت الله ورسولهﷺ والإسلام فلم ينقصه ذلك شيـئا، إن المؤمنين وإن نأت ديارهم وأبدانهم نصحـة بعضهم لبـعض. وإنا قد بايعنا أبا بكر وكان والله لها أهلا. ثم قال: إنى لأرى مقالتك بوتقة لها الدم.

وذلك ما قام به معاوية حين أشعل نار الفتنة فى صفين. وفى مقالة أبى سفيان.

رأى فلهاوزن والشيبى:

ويلخص الشيبـى وجهة نظر فلهاوزن التى بثهـا فى كتابه: الخوارج والشـيعة فى تطور التشيع منذ ظهوره حتى مقتل الحسين بقوله: «إن التشيع كان تكتلا إسلاميا ظهرت نزعته أيام النبى ﷺ وتبلور اتجاهه السياسى بعد قـتل عثمان، واستقل الاصطلاح الدال عليه بعد قتل الحسين»[1]. إن ماذكره الشيبى ملخـصا نلاحظه فى وجهة نظر فلهاوزن وهو يرسم منحنى بيانيا للخط الشيعى فيقول:

أما معـاوية فكان معه أهل الشام وكان يحـكم الشام منذ عهد طويل، فاسـتحال الكفاح بينه وبين علي إلى كفاح بين أهل الشام وأهل العراق.

وانتهى الكفاح بقتل علي إلى غيـر صالح أهل العراق، ولكن هؤلاء لم يندمجوا فى وحدة الدولة الإسلاميـة التى التأمت من جديد بفضل معاوية إلا كـارهين مرغمين،

---

(١) الشيبى، كامل الصلة بين التصوف والتشيع (بغداد ١٩٦٣ ص ١٧).

وبظواهرهم لا بقلوبهم ومن ثم أصبح على راية كفاحهم ضد نير أهل الشام، كانوا ينظرون إلى الفترة القصيرة التى كانت فيها الكوفة، لا دمشق حاضرة الإسلام وفيها بيت مال المسلمين ـ على أنها المثل الأعلى. فتمكن الشيعة أولا فى العراق. ولم يكونوا فى الأصل فرقة دينية، بل تعبيرا عن الرأى السياسى فى هذا الإقليم كله فكان جميع سكان العراق وبخاصة أهل الكوفة، شيعة علي تفاوتوا فيما بينهم، ولم يقتصر هذا على الأفراد بل شمل أيضا القبائل ورؤساء القبائل[1]. ولا يلاحظ بينهم إلا درجات فى التشيع، لقد كان علي فى نظرهم رمزا لسيادة بلدهم المفقودة. ومن هنا نشأ تمجيد شخصيته وآل بيته، تمجيدا لم يرتح له فى أثناء حياته، على أنه ما لبث أن تكونت فى أحضان مذهب سرى عبادة حقيقية لشخصه.

بعد أن استتب الأمر لمعاوية فى العراق بعث المغيرة بن شعبة الثقفى واليا على الكوفة، وأطلق يده فى كل شيء ولكنه أوصاه بشتم علي وذمه والترحم على عثمان والاستغفار له والعيب على أصحاب علي وإقصائهم وترك الاستماع منهم وألا يدع ذم علي والوقوع فيه واللعن لقتلة عثمان من فوق المنبر فى صلاة الجمعة وأن يرغم بعض أنصار علي المتحمسين، وقد ذكر له أسماؤهم على شهود هذا اللعن. ومن بين أنصار علي حجر بن عدى، وهو من أبرز رجال كندة (وإن لم يكن رئيسهم)، شهد المواقع مع علي فى صفين وغيرها. فكان حجر إذا سمع ذلك قال: بل إياكم ذم الله ولعن. فكان المغيرة يحذره ولكن لا يؤذيه. وفى أواخر أيامه حدث ذات يوم أن قام المغيرة على عادته بذم علي، فنهض حجر بن عدى «فنعر نعرة فى المغيرة سمعها كل من كان فى المسجد وخارجا منه، وقال: إنك لا تدرس بمن تولع فى هرمك أيها الإنسان! مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا قد حبستها عنا، وليس ذلك لك، لم يكن يطمع فى ذلك من كان قبلك.

وقد أصبحت مولعا بذم أمير المؤمنين وتقريظ المجرمين.

فقام معه أكثرمن ثلثى الناس يقولون: صدق والله حجر وبر. مر لنا بأرزاقنا وأعطياتنا. فإنا لا ننتفع بقولك هذا ولا يجدى علينا شيئا»[2].

فنزل المغيرة من المنبر وذهب إلى بيته، فدخل عليه القوم من بنى ثقيف وحذروه

---

(١) الخوارج والشيعة، فلهاوزن، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى.

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ١١٣.

فى الأمر، فقال لهم المغيرة: «إنى قد قتلته! إنه سيأتى أمير بعدى فيحسبه مثلى، فيصنع به شبيها بما ترونه يصنع بى، فيأخذه عند أول وهلة فيقتله شر قتلة. إنه قد اقترب أجلى وضعف عملى ولا أحب أن أبتدئ أهل هذا المصر بقتل خيارهم وسفك دمائهم فيسعدوا بذلك وأشقى، ويعز فى الدنيا معاوية ويذل يوم القيامة المغيرة»[1].

وكان مصير حجر عن خلف المغيرة أشد نكرا، فقد خلفه على الكوفة فى سنة ٥١ زياد بن أبيه والى البصرة فجمع له المصرين: الكوفة والبصرة.

وليس فيما يورده أبو مخنف نبأ عن قدومه الأول إلى الكوفة، أما المدائنى فيذكر أنه ورد فى عدد قليل من الرجال وصعد المنبر وقال فيما قال: إنه وجد الهدوء والنظام يسودان الكوفة وليس بحاجة إلى أن يبدأ عمله بإقرارهما كما فعل فى البصرة. فشكر له الحاضرون مدحه بأن رجموه بالحجارة! فاحتل مداخل المسجد ولم يسمح لأحد بالخروج إلا إذا أقسم أنه لم يرم حجرا، فأبى عدد قليل منهم أن يقسم فقطع أيديهم.

وهذه القصة من الجمال بحيث تمنع من الاستمرار فى سردها. إذ يبدو أنها غير حقيقية. أما عوانة[2] فيرى غير هذا. فلا يذكر حدوث شيء حينما صعد زياد على منبر الكوفة لأول مرة. وحينما أخذ فى ختام خطبته يلعن عليا ويقرظ عثمان، لم يرتفع صوت بالرد عليه[3].

ويرجع زياد هادئا إلى البصرة وولى عمرو بن الحريث نائبا عنه باستمرار. وإنما تجاسر الشيعة - وقد استفحل أمرهم بسبب رفق المغيرة بهم. وعلى رأسهم حجر بن عدى - تجاسروا على عمرو بن الحريث وحصبوه بالحجارة فى أثناء الصلاة. فأسرع زياد قادما من البصرة إلى الكوفة وصعد المنبر «وعليه قباء سندس ومطرف خز أخضر قد فرق شعره» وأبرز للحاضرين خطورة الموقف وهدد حجرا، وكان حجر جالسا فى المسجد حوله أصحابه. فانسحب من المسجد مع أصحابه[4].

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١٤. (٢) انظر فيما نقل الطبرى جـ ٢ ص ١١٤.

(٣) كذا يقول المؤلف، بينما الذى ورد فى الطبرى فى الموضوع المشار إليه جـ ٢ ص١١٤، ١١٥ فى رواية عوانة نفسه مانصه: «ثم صعد المنبر (أى زياد) ثم ذكر عثمان وأصحابه فقرظهم، وذكر قتلته ولعنهم، فقام حجر ففعل مثل الذى كان يفعل بالمغيرة»، فلسنا ندرى من أين للمؤلف أن يقول: إن صوتا لم يرتفع بالرد على زيادا).

(٤) وتبعا لهذا تكون حركة حجر قد وقعت فى السنة التى تولى فيها زياد إمارة الكوفة أى سنة ٥١ هـ، بينما الطبرى فى رواية المدائنى (جـ ٢ ص ١٦٢) وإيليا النصيبى يذكران أن تلك الحركة وقعت فى السنة التى مات فيها زياد، أى سنة ٥٣هـ.

يقول فلهاوزن: وعند هذه النقطة يستأنف أبو مخنف - فى نقل الطبرى - روايته، فيقول: إن زيادا قد اتخذ إجراءاته من المسجد. فبدأ بأن وثب بأشراف أهل الكوفة وصاح فيهم: أنتم معى، بينما إخوانكم وأبناؤكم وعشائركم مع حجر، فإن لم تظهروا لى براءتكم بالأفعال. فسآتيكم بأهل الشام. وأثر كلامه هذا فيهم، فأسرع كل منهم يبحث عن قريبه، حتى أقاموا جل من كان مع حجر بن عدى فى السوق (عند المسجد)، وأقبل الشرطة بالعمد فاشتدوا على أصحاب حجر وزياد يشهد هذا وينظر إليهم وهو على المنبر. أما حجر نفسه فقد خلصه أبو العمر طه الكندى وكان وحده ألين معه سيف ضرب به أحد الذين طاردوا حجرا، ولكن لم يقتله. فاستطاع حجر بن عدى أن يبلغ قومه فاجتمع حوله منهم عدد غير قليل. فلما رأى زياد أن الشرطة غير كافية استدعى كل المحاربين فى الكوفة. ولكنه احتفظ بمضر معه فى الميدان المواجه للمسجد، وأرسل أهل اليمن[1] - وكان حجر منهم - ضد حجر حتى لا يقع شر واختلاف بين مضر وأهل اليمن فى هذه المناسبة الحرجة وحتى يخضعهم وذلك بأن يكونوا شرطة ضد قبيلتهم وصاحبهم فى الرأى - لأنهم كانوا بقلوبهم شيعة. ولكن كندة وأقرباءهم من حضرموت لم يذعنوا لأمر زياد؛ لأنه كان موجها ضدهم أيضا أو على الأقل ضد واحد من بنى قومهم. كذلك فعل الأزد فى الظاهر، وكانوا يعتذرون من بيت إلى بيت لما أن جاءوا حتى كندة، وتركوا لمذحج وهمدان أن يتقدموا، فتقدموا دون عائق حتى بلغوا بيت حجر، وهناك قوبلوا بمقاومة: إذ جاء بنو جبلة، لما هوجم بيته، وهم بنو قرابة، وعفوا عنه، كذلك انتصر له حينئذ أولئك الذين لم يكونوا على وفاق معه. ويقال: إنه رجاهم أن يغمدوا سلاحهم وأن يتفرقوا على أن هذا كان سيحدث دون رجائه هذا.

---

(١) من الغريب أنه لم يرد ذكر لربيعة، ومن مضر بكر، تميم، هوازن، باهلة (أعصر)، أسد وغطفان. ومناهل اليمن: (أ) مذحج وهمدان، (ب) والأزد، وبجيلة وخثعم، والأنصار، وخزاعة وقضاعة، ويضاف إليهم أيضا كندة حضرموت، ويجب أن لا يخلط بين الأنصار المذمورين من أهل اليمن، وبين الأنصار فى المدينة أهل العالية،الطبرى (ج٢ ص ١٣٨٢) فهم من المدينة وينتسبون إلى مضر. وفى عهد عمر الأول قسم أهل الكوفة إلى سبعة أقسام، لم يذكر الطبرى ج١ ص ٢٤٩٥ غير ستة: (١) كنانة والأحابش، وجديلة، (٢) قضاعة (غسان بن شبام)، بجيلة، خثعم، كندة، حضرموت، الأزد، (٣) مذحج، حمير، همدان، (٤) تميم والرباب، وهوازن، (٥) أسد غطفان ومحارب، نمر ضبيعة (بكر) وتغلب، (٦) إياد، عك، عبد القيس، أهل هجر الحمراء (من الفرس). أما زياد فقد قسم الكوفة إلى أربعة: ١- أهل المدينة ٢ - تميم وهمدان - ٣ - وربيعة وكندة - ٤ - مذحج وأسد. وفى كل ربع من هذه الأرباع اختلطت القبائل بعناصر، فكانت وحدات صناعية (حددت ١٩ الأوضاع المكانية؟) متساوية القوى تقريبا لم يكن على رأسها رؤساء قبائل، بل كان على رأسها حكام يعينهم الوالى. وكان أقوى القبائل فيهم قبيلتى مذحج وهمدان المتحالفتين.

واستطاع حجر الفرار، فأمر زياد الشرطة بمطاردته. فتنقل من حى إلى حى ومن شارع إلى شارع ومن منزل إلى منزل[1]، يقوده أدلاء نجباء خلال هذه المساكن؛ لأن العطف العام كان فى جانبه فوجد ملجأه حيثما سعى، ولكنه لم يشأ جلب الضرر على من يلوذ بهم، فكان يترك ملجأه كلما اقتربت الشرطة منه، وأخيرا وجد الأمن فى منزل أحد الأزديين، فقد فقدت الشرطة أثره فتوقفوا عن مطاردتهم غيرالمثمرة. هناك ألقى زياد المسئولية كلها على قبيلة كندة وهدد رئيسها، محمد بن الأشعث، بالعقاب الشديد إن لم يسلم معُسكر الأمن (أى حجر) فى ظرف ثلاثة أيام.

فنهض حجر بنفسه وتقدم إلى زياد بعد أن أخذ منه وعدا بأنه لن يحكم فى أمره بل سيرسله إلى الخلفة ليتصرف فى شأنه. وأقبل على زياد فى غداة باردة وعليه برنس، فحبس، وعبثا حاول أن يحتج على هذه المعاملة، وبقى فى السجن خمسة عشر يوما[2]، فى أثنائها لم يكن لزياد عمل إلا طلب رؤساء أصحاب حجر فأتى منهم باثنى عشر رجلا تقريبا، وكانوا من قبائل مختلفة، وقد أخبر عنهم أهلهم أو كشفا بأنفسهم عن أنفسهم. ولكن أحدا منهم لم ينكر تشيعه لعلي ليتخلص من عقاب زياد.

وراح زياد يؤلف صيغة اتهام لحجر وأصحابه بأن حجرا جمع إليه الجموع وأظهر ختم الخليفة ودعا إلى حرب أمير المؤمنين.

وتزاحم رءوس الأرباع فى الكوفة ليوقعوا بالشهادة على صحة هذا الاتهام، حتى اضطر إلى رفض كثيرين. إذ كان يكفيه سبعون شاهدا. قد اعتذر بعضهم فيما بعد عن توقيعه كما أنكر بعضهم الآخر أنه وقع[3].

وتنصل القاضى شريح بن هانئ الحارثى من التوقيع (وكان يقول: ما شهدت، ولقد بلغنى أنه قد كتبت شهادتى). ثم أعطيت صيغة الاتهام للشرطيين اللذين سيأخذان المسجونين إلى معاوية فى الشام.

وذات مساء[4] سار هذا الموكب الحزين، ولما انتهوا إلى جبانة عرزم نظر قبيصة

---

(١) كانت القبائل تسكن فى أحياء، والبطون فى شوارع، والأسر فى منازل، كانت الأحياء تحمل أسماء القبائل (هرب حجر من كندة إلى نخع ومنها إلى الأزد) والشوارع تحمل أسماء البطون. وهكذا يعطينا تخطيط الكوفة صورة عن أنساب العرب. ولم يكن الأمر فى البصرة مختلفا عن هذا.

(٢) المترجم: فى الطبرى جـ ٢ ص ١٢٧ س ٧: «فحبس عشر ليال».

(٣) لم يكن التوقيع بأيدى الشهود أو على الأقل بأيدى جميع الشهود.

(٤) غالبا ما تذكر أوقات النهار، دون بيان تواريخ الأيام.

ابن ضبيعة العبسى إلى داره فإذا بناته مشرفات، فقال للشرطيين ائذنا لى فأوصى أهلى. فأذنا له فأوصاهن بالصبر. ولم يتقدم أحد لتخليص هؤلاء المساجين رغم سهولة هذا الأمر، فكان خوف القبائل هذا من سلطان زياد ممثلا فى شرطيين أشد وقعا عليهم من خطر الموت. فقالوا: إن هذا هو نهاية شعبهم. وتوقف الجميع فى موضع قبل دمشق يدعى مرج عذراء (وبينها وبين دمشق اثنا عشر ميلا). فبقى المسجونون هناك موثقين بالقيود. وتسلم معاوية كتاب اتهامهم فصدق ما فيه ولم يصدق ما قاله حجر وكلف رسله تبليغه لمعاوية، على أنه سيسأل زيادا عن حقيقة الأمر فتأيد لديه ما قاله زياد فى كتاب الاتهام. وأمر معاوية بإخلاء سبيل كل منهم.

ولكنه رفض شفاعة مالك بن هبيرة السكونى فى حجر بن عدى، على أنه شاء مع ذلك أن يعفو عنه وعن الباقين بشرط أن يبرأوا من علي، قبل أن يفعل ذلك منهم اثنان، فنجوا بحياتهم، وإن كانا بعد ذلك قد نقضا تبرؤهما من علي، أما الستة الباقون فقتلوا. وقد أرعدت خصائل حجر فنكأ أبط الكفن معمدا والقبر قد حفر والسيف قد شهر، ولكنه ثبت مع ذلك على موقفه. وجاء مالك بن هبيرة بعد فوات الأجل والسيف؛ ذلك أنه قد غضب؛ لأن معاوية لم يستجب لشفاعته فى حجر، فجاء مع جماعة من كندة وسكون إلى مرج عذراء ليخلص المسجونين بالقوة. ولكنهم كانوا قد قتلوا. ولكن غضبه على الخليفة (معاوية) زال لما أن أرسل إليه هذا بمائة ألف درهم وقال للرسول أن يذكر له أن قتل حجر وفر على معاوية القيام بحملة ثانية ضد العراق - بعد الحملة الأولى فى عهد علي وبعد وفاة علي - ذلك أن حجرا كان يستثير الفتنة فى العراق. وكفن المقتولون وصلى عليهم ودفنوا كأشراف المسلمين[1].

وفى رواية قصيرة نقلها الطبرى. (ج٢ ص ١١٥ وما يليها عن ابن الكلبى عن محمد بن سيرين يصور لنا حجر بن عدى فى صورة الحمل البرىء الذى اقتيد إلى المجزرة. وقد أراد أهله وأصحابه حمايته، ولكنه أسلم نفسه ليبعثوا به إلى الشام. فلما دخل على معاوية حياه تحية صادقة فقال معاوية: «أما والله لا أقبلك ولا أستبقيك!

(١) راجع أبيات عبد الله بن خليفة التى أوردها الطبرى جـ ٢ ص ١٤٨ - ص ١٥٤، ومنها يبدو أنه يشير إلى أن عدد الذين قتلوا كانوا ثمانية، ولعل السبب فى ذلك أن الاثنين اللذين تبرآ من علي قد أدخلا فى الحساب. وكان معاوية قد أبقى عليهما، على أنهما قد قتلا أيضا فيما بعد.

أخرجوه فاضربوا عنقه»[1] ولم يشترك معه أحد فى حـركته. وأشد من هذا سذاجة ما نراه ورد عند اليعقوبى[2] ممثلا رأى الشيعة. حقا، إن ميل أبى مخنف مع حجر: فحجر لم يشأ من أصحابه أن يردوا على القوة بالقـوة، بيد أنه مهد السبيل لذلك. ولكن واقع الحال الحقيقى يظهر لديه بوضوح. فأبو عـمر طه الشيعى هو أول من استل سيفه وأسال الدم، بينما كان الشرطة لا يسـتخدمون غير العصى، كذلك حـارب عبد الله بن خليفة الطائى إلى جانب حجر بشجاعة[3].

وليس من شك فى أن حجرا كان ثائرا على السلطة وأنه كان يريد أن يجتذب إلى حكمـه أهل الكوفة؛ ولهـذا فإن زيادا حـسب تقديرنا كـان على صواب ومـعاويـة قد استعـصم الحلم. لكن الأمر فى ذلك العهـد كان على خلاف تقديرنا الحـالى. فإن قتل مسلم لا يـحل إلا إذ قتل مسلـما آخر أى أن النفس بـالنفس، وكان الجارى أن يـقتص صاحب الثأر بنفسه وكانت السلطة العـامة إنما تساعده على ذلك وتهيئه له[4]، والجريمة ضد الدولة تنحصر فى الخروج عن الإسلام، لا فى الخيانة العظمى، مادام لم يصبها فى مقتل، أما أن يقتل شخص بسبب خروجـه على الدولة ـ مهما يكن ما يبرر هذا القتل ـ فهذا أمر كان يثير ثائرة الناس، وبخاصة فى مثل هذه الحالة الأولى التى شمل الأمر فيها رجالا بارزين جدا، حتـى إن أهل الكوفة بعامة قد شعـروا بالخزى، وإن والى خراسان ربيع بن زياد. قد مزق قلبه الأسى وإن كـان غير رقيق القلب. وأظهرت عائشة غـضبها الشديد. وكذلك فعل الحسن البصـرى بعد ذلك بزمان ولم يكن يخضع فى ذلك ـ كما خضعت عائشة أم المؤمنين ـ لدافع شخصية خاصة. ويقال: إن معاوية لما حضرته الوفاة شعر بتأنيب ضمير عنيف لقتله حجر بن عدى. ولكنه تبرأ من ذلك قائلا: إنه لما انحشر عنه قريش استـسلم لتأثير زياد. وطبعـا كان عصب القبـائل، وبخاصة اليمـانية القوية. على السلطة بالغا؛ إذ شعرت بأنه من العار ألا تخلص أبناءها من بطش السلطان.

واتحدت معارضة القبائل مع المعارضة الدينية. واشتد غضب الشيعة وخاصة لقتل حجر، وكان استشهاده مقدمة لاستشهاد سيد الشهداء الحسـين بن على[4].

---

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١١٦ س٩ ١٠.

(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٢٧٣ وما يليها.

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ١٢١، ص ١٢٩.

(٤) الخوارج والشيعة فلهاوزن، ترجمة عبد الرحمن بدوى جـ ١ ص ١١٩.

الباب الثالث

الشيعة العربية
الحسن والحسين

الفصل الأول

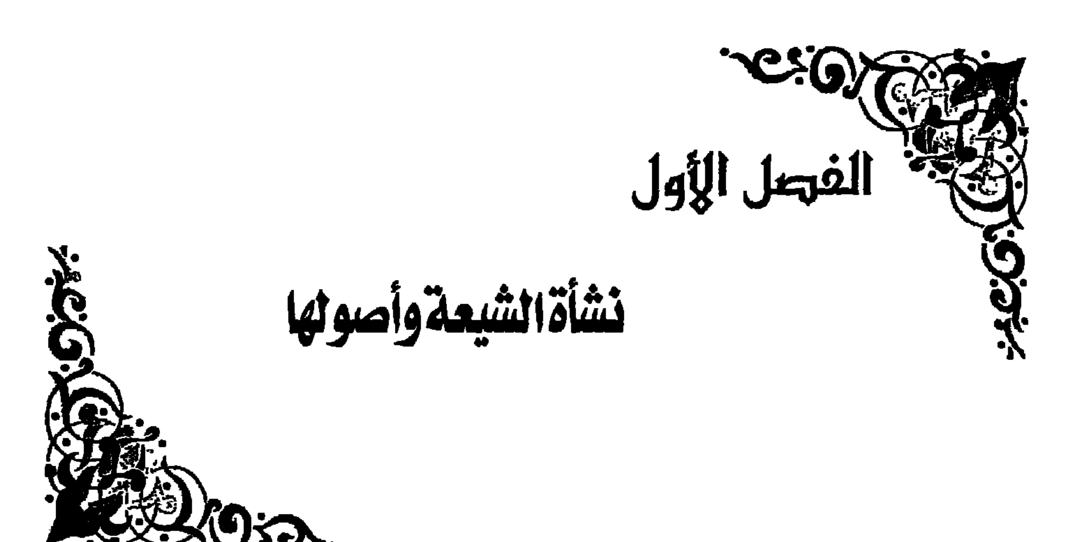
نشأة الشيعة وأصولها

الفصل الثانى

شيعة الحسن والحسين

الفصل الثالث

الشهيد الإمام الحسين وحق العدل السياسى



الفصل الأول

نشأة الشيعة وأصولها

١ - عروبة الفرق والطموح السياسى:

إن الفرق أو الطوائف التى حرك ظهورها التحكيم أو نشأت بعيده أو قبيله أو معه هى طوائف عربية كانت ترمى بادئ ذى بدء إلى غرض سياسى محض، على الرغم من ظهورها بالمظهر الدينى لكنها ليست بالعربية الخالصة إنما كان يقف فى صفوفها مواليها يسعون وراء أهدافهم من وراء مبادئ الإسلام التى تقر المساواة والعدالة والحرية، وكان يستعملهم العرب فى تصفية حسابهم.

يرى المؤرخون كما قدمنا أن الرمامة ـ وهى القيادة العليا للمسلمين ـ أولى المسائل التى فرقت المسلمين ومزقتهم شيعا وأحزابا:

- حزب بنى أمية.
- حزب أهل المدينة.
- حزب الشيعة.
- حزب الخوارج.
- حزب المرجئة.

أما حزب بنى أمية ومركزه بلاد الشام الذى كان له النفوذ فى ذلك الحين فكان يدافع عن عرش الأمويين، إذ كان يرى أن أمراء هذا البيت أحق الناس بالخلافة بعد الخلفاء الراشدين (أبو بكر وعمر وعثمان)، وأنهم أصحاب الحق فى الأخذ بثأر عثمان والمطالبين بدمه كما كانت تربطهم به أواصر القربى.

وكان يناوش بنى أمية حزب أهل المدينة الأنصار الذين كانوا يرون أن وصول بنى أمية إلى الحكم إنما هو انتصار أعدائهم القدامى من مشركى مكة.

أما حزب أهل الشيعة فإنهم يشاركون الأنصار فى عدائهم لبنى أمية؛ لأنهم غاصبون للخلافة، ويرون أنهم مع أهل البيت المتحمسين للدفاع عن حقوقهم فى الخلافة ولا سيما حق علي.

وحزب الخوارج كان يشارك حزب المدينة والأنصار وحزب الشيعة فى عدم اعترافه بحكم بنى أمية ويرى أن الخلافة حق الأكفاء من الأمة بالاختيار والشورى، كما كانوا يرمون أعداءهم السياسيين بالكفر ويعاملونهم معاملة الكفار، وكان شعارهم «لا حكم إلا لله» تلك العبارة التى لم يكن يقصد بها إلا حكم السيف. كانت تلك الأحزاب ترى أن جهادها لحزب بنى أمية الحاكم جهاد دينى لا يكاد يختلف فيه عن جهاد الكفار، وكانوا يستندون فى ذلك إلى سيرة يزيد الأول والثانى. إلى. وإلى هتك يزيد الأول حرمة الحرم المكى بعد استيلاء عبد الملك على مكة. واتخاذهم المقاصير لتحجب الخليفة عن الناس وإلقائهم خطبة الجمعة قبل الصلاة وقتلهم الحسين بن علي، ولسبِّهم الإمام عليا جهارا لإنكاره حق معاوية فى الخلافة.

على أن الأمويين لم يستطيعوا القضاء على تلك الأحزاب واستئصال شأفتها. فالخوارج والشيعة الذين مزق جند بنى أمية أوصالهم وأفقدوهم خيرة رجالهم، وإن لم يبق لهم من القوة ما يمكنهم من مقاومة الأمويين وإعلان الحرب عليهم جهاراً، فإن مبادئهم ما فتئت أن انتشرت، وذلك لملاءمتها لتلك الحالات الاجتماعية الجديدة التى نشأت فى الدولة العربية فى الشرق. وهكذا تطور هذا النزاع السياسى للأحزاب العربية إلى جهاد اجتماعى دينى.

وبعد استشهاد علي - عليه السلام - استمر التشيع كحزب سياسى، وخط فكرى حول الحسن بن علي - عليه السلام - فبايعه المسلمون، وتجمعوا حوله، غير أن الظروف السياسية اضطرت الإمام الحسن إلى مصالحة معاوية، والتنازل عن الخلافة له[1]، وفق شروط ومبادئ اتفق عليها الطرفان، فنكث معاوية عهده هذا، ونصب ابنه يزيد خليفة

---

(١) جلال الدين السيوطى/ تاريخ الخلفاء، اشترط الإمام الحسن على معاوية «على أن تكون له الخلافة بعده.... فأجابه معاوية الى ما طلب»: ص١٧٩، التشيع تاريخه، معالمه، هاشم الموسوى.

للمسلمين، خلافًا للعهد الذى أبرمه مع الإمام الحسن ـ عليه السلام ـ، وخلافًا لمبدأ الحكم الذى نصت عليه الشريعة الإسلامية وجرى عليه عرف الخلفاء السياسى.

ونقرأ فى كتاب الصلح بين الحسن بن علي ومعاوية بن أبى سفيان شرطًا اشترطه الحسن لحماية شيعة آل البيت ودفع التسلط الأموى عنهم، ويكشف هذا الكتاب امتداد كتلة التشيع، كقوة سياسية وفكرية يحرص أهل البيت على حمايتها، والحفاظ عليها؛ لأنها كانت قوة المعارضة المستهدفة من قبل الحزب الأموى.

غير أن معاوية لم يف بذلك وعانت شيعة أهل البيت أشد المعاناة من الإهانة والقتل والتعذيب والملاحقة والحرمان ما ضج به التاريخ.

من هنا كان الخوارج والشيعة هما أقدم الفرق السياسية والدينية فى الإسلام، وأبرزهما وأبعدهما أثرا فى تاريخه الحى المضطرب، نشأتا فى حضن حزب واحد هو حزب أنصار الإمام علي، فتعاديا فيما بينهما، ثم شاءت ظروف الخصومة المشتركة ضدهما أن يتحالفا معا على مضض، ولكن مبادئ كل منهما كانت منذ البداية فى تعارض تام مع مبادئ الآخرين.

٢ - نشأة الشيعة فى الوضع اللغوى والتاريخى والاصطلاحى:

١- الوضع اللغوى:

الشيعة فى اللغة: الأنصار والأتباع، أما فى الاصطلاح، فإن الكلمة المذكورة تطلق على كل من يوالى عليا وأهل بيته ـ رضى الله عنه ـ قال الفيروزآبادى: «وشيعة الرجل، بالكسر، أتباعه وأنصاره، والفرقة على حدة، ويقع على الواحد، والاثنين، والجمع المذكر والمؤنث. وقد غلب هذا الاسم على كل من يتولى عليا وأهل بيته حتى صار اسما لها بخاصة»[1].

٢- فى العرف التاريخى والاصطلاحى:

أ - رأى الشهرستانى:

الشيعة هم: الذين شايعوا عليا ـ رضى الله عنه ـ على الخصوص، وقالوا بإمامته

(١) القاموس المحيط، الفيروز آبادى ـ لسان العرب، ابن منظور - مختار الصحاح، الفيومى.

وخلافته: نصا ووصية؛ إما جليا وإما خفيا. اعتقدوا أن الإمامة لا تخرج من أولاده؛ وإن خرجت فبظلم يكون من غيره، بتقية من عنده. وقالوا: ليست الإمامة قضية مصلحية تناط باختيار العامة ينصب الإمام بنصبهم؛ بل هي قضية أصولية، وهي ركن الدين؛ لا يجوز للرسل - عليهم السلام - إغفاله وإهماله، ولا تفويضه إلى العامة وإرساله،ويجمعهم القول بوجوب التعيين والتنصيص، وثبوت عصمة الأنبياء والأئمة وجوبا عن الكبائر والصغائر، والقول بالتولي لتبرى: قولا، وفعلا، وعقدا؛ إلا فى حال التقية. ويخالفهم بعض الزيدية فى ذلك. ولهم فى تعدية الإمامة: كلام، وخلاف أثير؛ وعند كل تعدية، وتوقف: مقالة ومذهب، وخبط. وهم خمس فرق: كيسانية، وزيدية، وإمامية، وغلاة، وإسماعيلية.

بعضهم يميل فى الأصول إلى الاعتزال، وبعضهم إلى السنة، وبعضهم إلى التشبيه.

ب - النوبختي وزمن النبوة:

أما النوبختي (ت ٣٠٠هـ) فيقول: إن أول فرق الشيعة هم فرقة علي بن أبي طالب - رضى الله عنه -، المسمون شيعة علي - رضى الله عنه - فى زمان النبى ﷺ وبعده معروفون بانقطاعهم إليه والقول بإمامته[(١)]، روى الصدوق (ت ٣٨١هـ) أن ابن عباس قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنه إذا كان يوم القيامة ورأى الكافر ما أعد الله تبارك وتعالى لشيعة علي من الثواب زلفى وكرامة[(٢)]. وقال رسول الله ﷺ أيضا: «يدخل الجنة من أمتى سبعون ألفا بغير حساب، ثم التفت إلى علي - رضى الله عنه - وقال: هم شيعتك يا علي وأنت إمامهم»[(٣)].

٣ - مع السقيفة وظهور فكرة التشيع:

أما الرأى الثانى فيجعل ظهور التشيع يوم السقيفة ويستند أصحاب هذا الرأى إلى

(١) فرق الشيعة (إستانبول، ١٩٣١) ص١٥.
(٢) علل الشرائع (النجف، ١٩٦٣) ص١٥٦.
(٣) الديلمى، محمد، إرشاد القلوب، ج١ (بيروت، ١٣٨١) ص١٩٣. الإمامية ومن سلف من الشيعة، د.عبد الله فياض.

تصريح جماعة من الصحابة يوم السقيفة بوجوب تقديم علي. روى الطبرى أن الزبير اخترط سيفه وقال: «لا أغمده حتى يبايع علي...»(١).

ويبين اليعقوبى أن جماعة من المهاجرين والأنصار تخلفوا عن بيعة أبى بكر «ومالوا مع علي بن أبى طالب منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب...»(٢).

٤ - تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل:

أما الرأى الثالث فيجعل تاريخ ظهور الشيعة يوم الجمل، قال ابن النديم: إن عليا قصد طلحة والزبير؛ ليقاتلهما حتى يفيئا إلى أمر الله جل اسمه (و) تسمى من اتبعه على ذلك الشيعة، فكان يقول شيعتى وسماهم - عليه السلام - الأصفياء، الأولياء، شرطة الخميس، الأصحاب»(٣).

٥ - مع صفين وظهور التكتل الشيعى:

أما الرأى الخامس فيجعل تأريخ ظهور الشيعة بعد رجوع علي من صفين، ومن أشهر القائلين بالرأى المذكور الأستاذ وات مونتجمرى (Watt) يقول وات: إن بداية حركة الشيعة هو أحد أيام سنة (٦٥٨م - ٣٧هـ) حين قال جماعة من أتباع علي: إننا نوالى من والاك ونعادى من عاداك. ويعنى ذلك أن هؤلاء كانوا مستعدين للقول بأنهم يقبلون بصورة مطلقة حكم علي فى القضايا المهمة. ويبدو أن وات استند برأيه المذكور على نص ورد فى الطبرى يقول فيه: «لما قدم علي الكوفة وفارقته الخوارج وثبت إلى الشيعة فقالوا: فى أعناقنا بيعة ثانية نحن أولياء من واليت، وأعداء من عاديت»(٤).

يذهب بعض المؤرخين القدماء والمحدثين إلى أن التكتل الشيعى للإمام علي لم يكن وليد التحكيم كما هو الرأى الشائع والمشهور إنما يرون ظهوره منذ اجتماع السقيفة وهو رأى تميل إليه الشيعة، كما أن الخوارج يوصلون فرقتهم منذ الرسول ﷺ. والرأى كما يسوقونه:

(١) تاريخ الرسل والملوك، ج٢ (القاهرة، ١٩٣٨) ص٤٤٤.
(٢) التاريخ، ج٢ (النجف، ١٣٥٨) ص١٠٣.
(٣) الفهرست (القاهرة، لا. ت) ص٢٦٣. تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة، د. عبد الله فياض.
(٤) المصدر السابق.

بدأ اسم علي يظهر خارج السقيفة كمرشح للخلافة، وكأحق شخص بها، كما ظهر فى داخل السقيفة وفى وسط المتحاورين، فبعد أن خرج المهاجرون والأنصار المجتمعين فى دار رسول الله ﷺ، لانتشار خبر السقيفة، قام الفضل بن العباس فخطب الناس المجتمعين هناك قائلا: «يا معشر قريش، إنه ما حقت لكم الخلافة بالتمويه، ونحن أهلها دونكم وصاحبنا[1] أولى بها منكم»[2].

وهكذا بدأ التكتل حول علي والمناداة بإمامته فى اليوم الأول من وفاة رسول الله ﷺ، وبدأ التشيع الفكرى والسياسى يظهر ككتلة وكيان، يحدثنا اليعقوبى عن ذلك بقوله:

«وتخلف عن بيعة أبى بكر قوم من المهاجرين والأنصار، ومالوا مع علي بن أبى طالب، منهم العباس بن عبد المطلب، والفضل بن العباس، والزبير بن العوام بن العاص، وخالد بن سعيد، والمقداد بن عمرو، وسلمان الفارسى، وأبو ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، والبراء بن عازب، وأبى بن كعب»[3].

ويدأ هذا التكتل المتشيع لعلي يواصل مساعيه السياسية واجتماعاته، ويطالب بإعادة النظر فيما جرى فى سقيفة بنى ساعدة[4]، فقد نقل اليعقوبى ذلك بقوله: «وبلغ أبا بكر وعمر أن جماعة من المهاجرين والأنصار قد اجتمعوا مع علي بن أبى طالب فى منزل فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فأتوا فى جماعة حتى هجموا الدار...»[5].

أما ابن قتيبة فقد روى خبر هذا الاجتماع السياسى بالنص التالى:

«وأن أبا بكر - رضى الله عنه - تفقد قومًا تخلفوا عن بيعته عند علي - كرم الله وجهه -، فبعث إليهم عمر، فجاء فناداهم، وهم فى دار علي فأبوا أن يخرجوا، فدعا بالحطب وقال لهم: والذى نفس عمر بيده لتخرجن أو لأحرقنها على من فيها»[6].

وإذن، نستطيع أن نؤرخ لظهور التشيع ككيان سياسى وفكرى متميز منذ الساعات الأولى التى تلت وفاة رسول الله ﷺ حينما احتدم الجدل حول المرشح للخلافة

(١) وصاحبنا: يعنى علي بن أبى طالب - عليه السلام.

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢: ١٢٤.

(٣) المصدر السابق.

(٤) التشيع نشأته ومعالمه، هاشم الموسوى.

(٥) المصدر السابق: ص١٢٦.

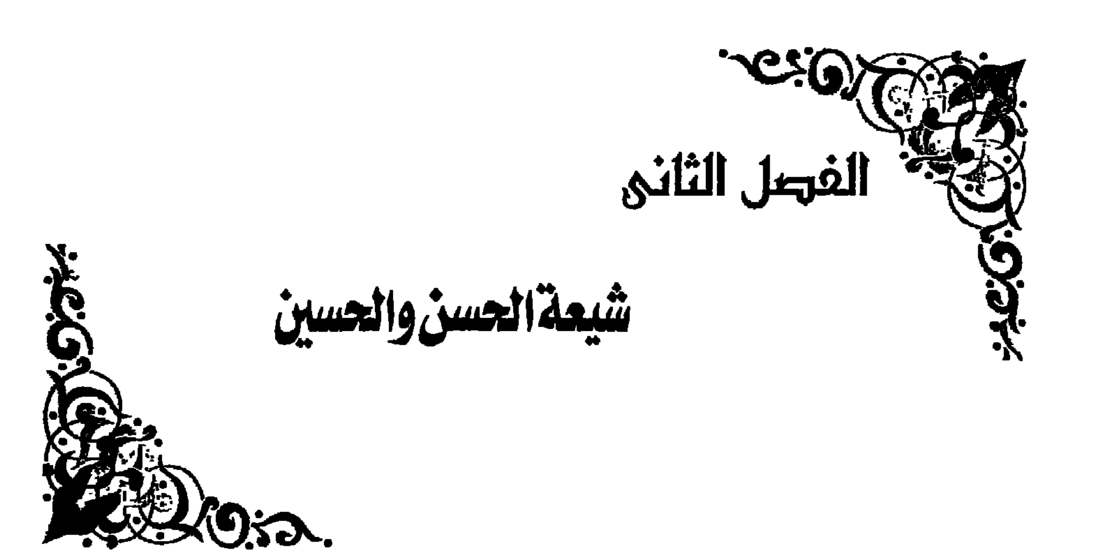
(٦) ابن قتيبة الدينورى، الإمامة والسياسة ١: ١٩.

والإمامـة، وبذا نفهم أن التـشيع ولد فى صفـوف الصحابة فى المدينـة المنورة، وحفظا لوحدة المسلمين وتماسكهم آثر علـي ـ عليه السلام ـ الانسحـاب من المواجهة السيـاسية ومال إلى العزلة أيام الخليفتين أبى بكر وعمـر، واكتفى بإبداء النصح والمشورة والمشاركة فى تسديد المسيرة الإسلامية.

ولقد سـجل له التاريخ أروع تعبير عن التضـحية والإيثار حـين عبر عن موقـفه بقوله: «والله لأسلمن ما سلمت أمور المسلمين»[1].

غيـر أن الاتجاه والرؤى والجـماعة المشـايعة لعلي بدأت بالظهـور كقوة سـياسـية وفكرية، وكحزب له وجهات نظر فى سياسة الدولة وجهازها الحاكم عندما تسلم عثمان الخلافة وتسلط الحزب الأموى على السلطة.

(١) نهج البلاغة/ الخطبة ٧٤. التشيع نشأته ومعالمه، هاشم الموسوى.



الفصل الثانى

شيعة الحسن والحسين

١ - الحسن بن علي وحق التنازل عن البيعة:

قامت فرقة الشيعة ـ أول ما قامت ـ إثر لعبة التحكيم السياسية التى قلبت موازين القوى السياسـية وحار أمامها أهل التـقوى والورع، باختيار خليفة بويع بـالمدينة عاصمة النبوة كما بويع فـيها الخلفاء الأربع وقام على المبايعة أهل الحل والعـقد. . ثم يخرجون عليه وقد حشـدوا على أطراف الكوفة جيشا فيضطر كارها أن يلاقـيهم بعيدا عن المدينة فى مكان خروجهم عليـه. . فى موقعة الجمل وكانوا من العشـرة المبشرين بالجنة، ومن أهل الحل والعقـد وانتهت المعركـة لكن بقى صراع الخارجـين عليه فى صفـين ولم تنته المعركة ولم ينته التحكيم حتى هذا اليوم.

لكن انتهت مـبادئ أصول الحكم تماما: انتـهت البيعة ومـعها الشورى واعـتبارية المواطن وضاعت قـيم أخلاقية: الصدق، والإخـلاص، والحفاظ على العهـد. . وبقيت الرشاوى والمسـاومة والاستبـداد وحكم الفرد والسيف والطعن والحرب والضـرب وقيم النفاق والغدر والتآمر والحكم لمن غلب.

من هنا كان للإمـام علي حق مشهـود على التاريخ حق يتجـدد مع ورثة التاريخ يتجدد بمعاذيره وتبريراته وزاد من أوار اشتعاله ما قاله الأصفهانى[1]:

(١) مقـاتل الطالبيين. ص ٢٤، أبو الفرج الأصـفهانى ٢٨٤ - ٣٥٦هـ، شـرح وتحقيق السـيد أحمد صـقر مؤسسة الأعلى للمطبوعات - بيروت.

«من احتيل فى قتله منهم بسم سقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظفر به فحبس حتى هلك فى محبسه».

* فالإمام علي غدر به قومه وسلبوا بيعته بالإمامة فأعطاها من لا يملك وهو التحكيم لمن لا يستحق وهو معاوية.

* وبعث معاوية من دس السم فى العسل للحسن وقال: إن لله جنودا فى العسل.

* وأرسلت الكوفة للحسين رسائل تمتلئ خروجا عن البيعة وخرجوا مع ابن زياد.

وفى كربلاء ودائما يلقى بيت النبوة ما لقيه الإمام علي والحسين دعاة المبدأ القائم على البيعة والشورى من الذين يقيسون المبدأ بمنفعة ولهم منطقهم.

قال لقيادات الجيوش المحاربة: اختاروا واحدة من ثلاث:

١- إما أن تدعونى فأنصرفَ إلى حيث جئت.

٢- وإما أن تدعونى فأذهبَ إلى يزيد.

٣- وإما أن تدعونى فأذهبَ للجهاد فى ثغور المسلمين.

وبلغ هذه الخيارات عمر بن سعد إلى عبيد الله بن زياد، فرفض قبول أى واحد منها وأمر بالحرب أو النزول تحت حكمه.

٢- معاوية بن يزيد يتحسر على أهل الشورى:

فلماذا لا يتحسر معاوية بن يزيد على أهل الشورى ثم يرفض الوصية لمن يخلفه ويقول كيف أوصى وأمنع أهلها.

قال المسعودى[1]: وملك معاوية بن يزيد بن معاوية بعد أبيه، فكانت أيامه أربعين يوما إلى أن مات، وقيل: شهران، وقيل غير ذلك، وكان يكنى بأبى يزيد، وكنى حين ولى الخلافة بأبى ليلى، وكانت هذه الكنية للمستضعف من العرب، وفيه يقول الشاعر:

إنى أرى فتنة هاجت مراجلها ... والملك بعد أبى ليلى لمن غلبا

ولما حضرته الوفاة اجتمعت إليه بنو أمية فقالوا له: اعهد إلى من رأيت من أهل

(١) مروج الذهب ج٣ للمسعودى، تحقيق الشيخ محيى الدين عبد الحميد.

بيتك، فقال: والله ماذقت حلاوة خلافتكم فكيف أتقلد وزرها وتتعجلون أنتم حلاوتها، وأتعجل مرارتها، اللهم إنى لبرىء منها متخل عنها، اللهم إنى لا أجد نفرا كأهل الشورى فأجعلها إليهم ينصبون [لها] من يرونه أهلا لها، فقالت له أمه: ليت أنى خرقة حيضة ولم أسمع منك هذا الكلام، فقال لها: وليتنى يا أماه خرقة حيض ولم أتقلد هذا الأمر، أتفوز بنو أمية بحلاوتها وأبوء بوزرها ومنعها أهلها كلها! إنى لبرىء منها.

فلم يكن وجود الشيعة فى التاريخ عبثا فهم يريدون تصحيح مسيرة التاريخ كما كان يطمح إليها ذلك الخليفة التقى معاوية بن يزيد، فلم يكن انعزالهم عن مجرى التاريخ العام الإسلامى شذوذا أو نفورا إنما هو رد فعل لفعل تاريخ ظالم.. لقد صنعه الأمويون صنيعة مؤامرة وتولاه العباسيون صنيعة مؤامرة وهم جميعا يغدرون بآل البيت ويسومونهم سوء العذاب.. فانتصر الشيعة لآل البيت حبا ومودة قصد تصحيح مجرى التاريخ العام غير ظالمين لأنفسهم.

وإذا كانت الشيعة يتمسكون بمسئوليتهم أمام التاريخ فإن المسئولية التى أرقت تاريخهم هى مسئولية تاريخية شأن أى مسئولية تاريخية على الوارثين أن يصححوا من أمر مسيرتها بالبحث والدراسة والتقارب وتصحيح المجرى التاريخى العام وتقارب التلاقى بتقليص الهوة التى صنعتها الأحقاد والأطماع بين الأصول.. وهى ولاشك واحدة:

-حق الأمة السياسى فى البيعة والشورى وفق دستورها الإسلامى وتاريخ خلفائها.

٣- بيعة الحسن بن علي:

«بويع الحسن بن علي بن أبى طالب» على قول المسعودى[1] «بالكوفة بعد وفاة أبيه بيومين من شهر رمضان من سنة أربعين، ووجه عماله إلى السواد والجبل. وقتل الحسن عبد الرحمن بن ملجم على حسب ما ذكرنا. ودخل معاوية الكوفة بعد صلح الحسن بن علي لخمس بقين من شهر ربيع الأول فى سنة إحدى وأربعين وكانت وفاة الحسن ـ وهو يومئذ ابن خمس وخمسين سنة ـ بالسم، ودفن بالبقيع مع أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ».

(١) مروج الذهب ج ٥ ص ١.

ويروى أحمد بن حنبل[1] أنه بعد مقتل علي - رضى الله عنه - خطب الحسن بالناس فقال: «لقد قبض فى هذه الليلة رجل لم يسبقه الأولون بعمل ولا يدركه الآخرون بعمل. وقد نصبه رسول الله». وقد ناقشنا[2] صحة هذه القضية آنفا وسنضطر فى هذا الفصل ما إذا كان هناك دليل على أن الحسن قد تعين سابقا لتولى الخلافة بعد علي.

من المحتمل جدا أن فكرة الحق الإلهى التى تقضى بأن يعين كل إمام خلفه لم تبتعد بوضوح فى أول الأمر عن الآراء الأخرى بالخلافة. فإن عادة القبائل العربية أن يختاروا من يلى السابق فى الأهمية بمجتمعهم، ولا شك أن هذا المبدأ هو الذى تقرر بموجبه اختيار أو تعيين الخلفاء الثلاثة الأول أبى بكر وعمر وعثمان. ويمكن أيضا اعتبار أن عليا جاء إلى الخلافة فى الزمن الذى قدمته الظروف إلى الصف الأول دون أن يكون لذلك أية علاقة مع الإرث أو التخصيص، ويمكن أن نتوفع بصورة طبيعية أن تئول الخلافة بعد علي إلى معاوية؛ فإنه قد برهن عندما كان عاملا لعثمان فى الشام على مقدرة فائقة فى الإدارة.

٤ - الحسن بين البيعة وادعاء النور الإلهى:

ولكن الإسلام لم يعد محصورا فى جماعة عربية متحدة يحكمها العرف والعادات القديمة، فقد تعرف المسلمون الذين اشتركوا بحملات الفتح ضد الدولة البيزنطية فى الغرب بفكرة الانتخاب الإرثى وكذلك الذين ألفوا جيوش الاحتلال فى أراضى الدولة الفارسية المنقرضة. وجاءت تعاليم ابن سبأ ودعوته فى أن عليا بكونه وصى النبى ﷺ انتقل إليه النور الإلهى أو الروح الإلهى الذى تكون من توريثه من شاء. وفى خلال خلافة علي التى دامت أربع سنوات انقسمت المملكة الإسلامية. وحدثت حروب أهلية شديدة دامت عدة سنوات فوضعت حدا فاصلا بين الشرق والغرب. وكانت خطة التحكيم المرسومة لعقد هدنة بعد معركة صفين قد فشلت فى توحيد الشعور. فقد كان الخليفتان المتنافسان علي ومعاوية يلعن أحدهما الآخر علنا فى الصلاة. وكان المجتمع الإسلامى بأجمعه منهوك القوى من جراء سنوات الحرب. وبينما كان كلا الطرفين يستعيد قوته كان هناك توتر وعدم طمأنينة بصورة مستمرة جعلت إيجاد

(١) أحمد بن حنبل ج١ ص ١٩٩ المسند.

(٢) انظر الباب الأول وحديث غدير خم - عقيدة الشيعة دوايت دونلدس ص٨٥.

استقـرار فى الحكومة أمرا مستـحيلا[1]. ففى هذا الزمن الذى يسوده الاضطراب العام اغتيل علي ـ رضى الله عنه ـ ونعلم أن الحسن اختيـر بعد ذلك مباشرة ليخلف عليا فى الكوفة. وحسب حـديث مقبول عند الشـيعة[2] أن عليا قبل أن يـموت دفع إلى الحسن «الكتب والسلاح» بحضور أهل البيت ورؤساء الشيعة وقال له: يا بنى أمرنى رسول الله ﷺ أن أوصى إليك وأن أدفع إليك كـتبى وسـلاحى كـما أوصى إلى رسـول الله ﷺ ودفع إلى كتبه وسلاحه وأمرنى أنه إذا حضـرك الموت أن تدفعها إلى أخيك الحسين «ثم أقبل على ابنه الحسين فقال» وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفعها إلى ابنك هذا ثم أخذ بيد علي بن الحسين ثم قـال لعلي بن الحسين: وأمرك رسول الله ﷺ أن تدفـعها إلى ابنك محمد بن علي وأقرئه من رسول الله ﷺ ومنى السلام».

٥ - الحسن يهيئ نفسه للتنازل:

ويقول السيوطى: إن الحسن أرسل إلى معاوية يسأله تسليم الأمر إليه على أن تكون له الخلافـة من بعده. ويعـلق مترجـم كتاب السـيوطى أنه لم يقـرأ هذا الخبـر فى مكان آخر[3]. ولعل أهم كتابين اليوم فى إيران تبحث حياة الأئمـة بالتفصيل هما كتابا (جنات الخلود وروضة الشـهداء) وقرأ هذان الكتابان فى المآتم الحـسينية[4] ويذكر هذان الكتابان معلومات إضافـية على تنازل الحسن عن الخلافة. فيذكـران أن جيش الحسن كان يبلغ فى أول الأمر أربعين ألفا وجـيش معاوية ستين ألفا وقد نجح معـاوية فى إرشاء قواد الحسن. وفى الكتابين مـحاولة خالصـة لجعل الإمام علي حق فى تنازله ويلقـيان اللوم على طمع بعض القواد وغدر أهل الكوفة المتكرر.

ولا يعلم بالضبط مدة خـلافة الحسن القصيرة فـيقول المسعودى: إنها كـانت ستة أشهر وثلاثة أيام[5] ويصفه بأنه «أول خليفة خلع نفسه وتنازل لغيره».

٦ - المستشرقون والحسن:

ومن الأحاديـث التى تصف حب محـمد ﷺ لحفـيديه الحـسن والحسـين ذلك

---

(١) عقيدة الشيعة داويت م. دونلدس تعريب ع. م ص ٨٣.

(٢) أصول الكافى للكلينى ص ١١٠. (٣) تاريخ الخلفاء للسيوطى طبعة جارت ص ١٩٤

(٤) جنات الخلود، الفصل التاسع، وروضة الشهـداء تأليف حسن واعظ كشفى (٩١٠هـ) الفصل ٦ ص٧ ١-١١٧، براون =Persian Literature under Tartar Dominion. ص ٤٤١، ٣-٥، ٤-٥٠٤.

(٥) التنبيه والإشراف المسعودى (المكتبة الجغرافية العربية) ج٨ ص ٣٠٠.

الحديث الذى يعزى معرفة حوادث المستقبل بدرجة بارزة، عندما أخذ الحسن وهو طفل وصعد به المنبر وخاطب الناس قائلا: «أتنكرون لابنى هذا. . إنه سيد وسيصلح الله به بين طائفتين من المسلمين»[1] ويذكر أن هذين الحفيدين كانا يشبهان أباهما وجدهما فى نواح مختلفة؛ فالحسن يشبه محمدا ﷺ بما فوق السرة وعليا بما تحتها بينما يشبه الحسين عليا فى أعلاه ومحمدا ﷺ فى أسفله[2].

إلا أنه مهما كانت درجة التشابه الظاهرى مع النبى ﷺ فإن الأخبار تدل على أن الحسن كانت تنقصه القوة المعنوية والشجاعة والضبط النفسى[3] والقابلية العقلية السياسية لقيادة شعبه بنجاح. وقد عرفت دائرة المعارف الإسلامية شخصيته مختصرة بأن «الشهوات النفسية ونقص النشاط والذكاء هما الصفتان الأساسيتان لأخلاقه. وبعد وفاة فاطمة فى شرخ صباها لم تكن علاقته مع أبيه أو إخوته على أحسن ما يرام. وقد قضى زهرة شبابه فى الزواج والطلاق، حتى بلغ عدد من تزوجهن المائة، وسمى بالمطلاق وخلق لعلى أعداء خطرين. وقد برهن على كثرة تبذيره بأن خص كل امرأة من نسائه بمال كثير. فنرى بذلك كيف بذرت أموال طائلة خلال خلافة على، بالزمن الذى كانت الخلافة نفسها شديدة الافتقار».

ويعترف الشيعة أنفسهم أنه كان للحسن ستون زوجة وعدد كبير من السرايا فنقرأ أن عدد نسائه الشرعيات بلغ الستين عدا السرايا أو اللواتى تمتع بهن. وقد ذكر أن عددهن كان بين الثلثمائة والتسعمائة. وقد طلق كثيرا منهم، فسمى بالمطلاق[4].

٧ - مآخذ المستشرقين على الحسن فى الميزان:

إن موقف المستشرقين من الإمام الحسن مثل لامانس وبروكلمان داويت ودونلدس وفيليب حتى يكاد يكون رأيا واحدا يتردد بينهم كما لو كانوا أجمعوا عليه سابقا بعدم مخالفته، لخصته دائرة المعارف الإسلامية بقلم لامانس، وكنا نرى فى كتاباته عن الإسلام والرسول ﷺ وتاريخه زيفا وتحريفا متعمدا ينتميان إلى روح الرعيل الأول الذى نذر نفسه لخدمة الأغراض الاستعمارية وقراءاته تطفح بالمرارة العرقية. وسار على نهجه

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطى ص١٩١، البخارى ٩٥، الترمذى ٤٦ - ٣٠ الطيالسى رقم ٨٧٤، «الحسن».
(٢) جنات الخلود الفصل ٩، البخارى ٦١ - ٢٣ الترمذى ٤١ - ٦٠ والطيالسى رقم ١٣.
(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة الحسن بقلم لامنس.
(٤) عقائد الشيعة الكتاب الرابع الفصل ٢.

صاحب كتـاب عقيدة الشيـعة فى قوله السابق. والذى نراه أن دائرة المعارف الإسـلامية ومن عزف على قيثارتها قد أخطأ وصف الإمام الحسن من عدة وجوه[1]:

- الوجه الأول: لقد كان الإمام الحسن بن علي عميقا فى رؤيته للأحداث التاريخية التى تجرى حوله بعيـد النظر فى قراءتها وهو من الذين سبقوا عـصره. من هنا جاء تنوره لتفسير أحداثها أبعد مما كان يتوقعه إدراك قواته وليس كما يدعى الاستشراق أدت سطحيته ونقص نشاطه الذهنى إلى الانسجام، قد يكون الأمر مقبولا لو لم يقدم حيثياته التاريخية: يا أهل العراق إنى سخى بنفسى عنكم لثلاث:

-قتلكم أبى وطعنكم إياى.

- وانتهابكم متاعى.

- وقد كـرهت الدنيا ورأيت أهل الكوفـة قوما لا يثق بهـم أحد إلا غلب، ليس أحـد يوافق الآخر فى رأى، ولا يـطمئن فى خـيـر ولا شر وقـد لقى أبى منهم أمـورا عظاما؛ لذلك أدرك أنه من الصعب السيطرة على شـيعة تكونت من رعاع البوادى الذين لا يستطيعـون ضبط أنفسهم ولا يحتملون سـيطرة قائد عليهم غير شيخ عـشيرتهم ولا يفرقون بين الناقة والجمل.

- الوجه الثانى؛ عدم تكافؤ الصراع بين المعسكرين، فلا ينبغى أن نغض الطرف عن أن معـاوية حاكم الشام خبير حـرب ويملك جيشـا منظما وتمرس بالإدارة. يعـرف كيف يسوس الأعراب وشيوخ القبائل بمختلف الحيل حتى استتب له الأمر، فوقر فى ذهن الحسن أن منازلته هى الضياع.

- الوجه الثالث: وهو يخص الحسن، وصفه بالمزواج المطلاق فتلك عوائد العرب وأعرافهم ووجـاهة الأشراف ومزيتهم. والذى لا شك فيه أن التنازل عن الخـلافة قد تم تحت ظروف قاهرة جعلت حرية الإرادة معطلة والإكراه قائما.

٨ - أول المبايعين قيس بن سعد بن عبادة:

لما قـتل علي بن أبى طالب بالكوفـة، قام قـيس بن سـعد بن عـبادة الأنصـارى فخطب، فحمد الله وأثنى عليه ثم وصف فضل علي وسـابقته وقرابته والذى كان عليه

---

(١) أنساب الأشراف ج٣ البلاذرى.

في هديه وعدله وزهده، وقرظ الحسن ووصف حاله ومكانه من رسول الله ﷺ، والذى هو أهله فى هديه وحلمه واستحقاقه الأمر بعد أبيه ورغبهم فى بيعته ودعاهم إلى طاعته. وكان قيس أول من بايعه، ثم ابتدر الناس بيعته. وقد كان قيس عاملا على أذربيجان.

٩ - الحسن يخرج للبيعة:

وخرج عبيد الله بن العباس بن عبد المطلب إلى الناس بعد وفاة علي ودفنه، فقال: إن أمير المؤمنين ـ رحمه الله تعالى ـ قد توفي برا تقيا عدلاً مرضيا أحيا سنة نبيه ﷺ وابن عمه، وقضى بالحق فى أمته وقد ترك خلفا رضيا مباركا حليما، فإن أحببتم خرج إليكم فبايعتموه، وإن كرهتم ذلك فليس لأحدٍ سلطانٌ على أحد، فبكى الناس وقالوا: يخرج مطاعا عزيزا.

فخرج الحسن فخطبهم فقال: اتقوا الله أيها الناس حق تقاته، فإنا أمراؤكم وأضيافكم، ونحن أهل البيت الذى قال الله: ﴿ ...لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) ﴾ [الأحزاب][(١)] والله لو طلبتم ما بين جابلق[(٢)] وجابرس[(٣)] مثلى فى قرابتى وموضعى ما وجدتموه، ثم ذكر ما كان عليه أبوه من الفضل والزهد والأخذ بأحسن الهدى وخروجه من الدنيا خميصا لم يدع إلا سبعمائة درهم فضلت من عطائه، فأراد أن يبتاع بها خادما، فبكى الناس ثم بايعوه.

وكانت بيعته التى أخذ على الناس أن يحاربوا من حارب ويسالموا من سالم تحتمل الشك فى موقفه فقال بعض من حضر: والله ما ذكر السلم إلا ومن رأيه أن يصالح معاوية.

ثم مكث أياما ذات عدد يقال خمسين ليلة ويقال أكثر منها وهو لا يذكر حربا ولا مسيرة إلى الشام خامر ابن عبد الله بن عباس الشك فى موقف الحسن وهو الذى حضر التحكيم وكان له فيه رأى فكتب إليه كتابا يحفزه إليه حفزا وينيط به المسئولية. قال البلاذرى: وكتب إليه عبد الله بن عباس كتابا يعلمه فيه أن عليا لم يجب إلى الحكومة إلا وهو يرى أنه إذا حُكم بالكتاب يرد الأمر إليه، فلما مال القوم إلى الهوى فحكموا به

---

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.
(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. ابن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.
(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.

ونبذوا حكم الكتاب رجع إلى أمره الأول فشمر للحرب ودعا إليها أهل طاعته، فكان رأيه الذى فارق الدنيا عليه جهاد هؤلاء القوم، ويشير عليه أن ينهض إليهم وينصب لهم ولا يعجز ولا يهن.

وتم الإعلان عن معاوية خليفة بالقدس كما تم الإعلان عن الحسن وهو الابن الأكبر لعلي بن أبى طالب خليفة فى الكوفة، إلا أن هذه الازدواجية فى الخلافة لم تستمر لفترة طويلة. وكان معاوية ـ وهو سليل عشيرة أمية التى تعتبر جزءا من الطبقة العليا الراسخة فى مجتمع الجزيرة العربية ـ يتمتع بنفوذ أكبر وقوة عسكرية أكبر من الحسن. وأرسل معاوية مندوبين عنه؛ لكى يقنعوا الحسن أن يعتزل السلطة ويعود إلى المدينة المنورة ويحصل على معاش كبير مع وعده بعودة الخلافة ـ عقب وفاة معاوية ـ إلى العشيرة الهاشمية التى ارتفعت مكانتها إلى درجة عظيمة تمتع بها أحد أفراد هذه العشيرة ألا وهو نبى الله وبسبب اهتمام أفراد هذه العشيرة بتدعيم الدين الإسلامى الجديد القوى. ومات الحسن بسبب تعرضه لحالة من التسمم فى عام ٦٦٩.

١٠ - معاوية نكث بوعده:

ثم نكث معاوية بوعده حيث قام بتعيين ابنه يزيد خليفة فى أثناء فترة حياته. وهو بذلك قد أنشأ أسلوب السلالة الحاكمة وهو أمر لا نظير له فى دار الإسلام. وقضى هذا الإجراء على التقاليد السابقة التى تنادى بضرورة اختيار أكثر المسلمين ورعا وتقوى من بين عشيرة بنى هاشم أو عشيرة بنى أمية؛ ليكون زعيما للأمة الإسلامية. ومازال الحكم من خلال أسرة ملكية يلقى معارضة شديدة من جانب الكثير من كبار المفكرين الإسلاميين المعاصرين. وهى معارضة ترتكز على أسس أيديولوجية.

وبحلول الوقت الذى مات فيه معاوية فى عام ٦٨ هـ كان الأمويون قد دعموا قوتهم وسلطانهم، إلا أن الشيعة كانوا لا يزالون متشددين فى آرائهم القائلة بأن عليا قد عين تعيينا إلهيا مقدسا؛ لكى يخلف النبى محمدا ﷺ وأن الرسالة الإلهية قد استقبلها بكل وضوح علي وأسرته، ولذلك فإن المنحدرين فقط من سلالة عائلة المسلم الحقيقى الأول هم الذين يصلحون لأن يحكموا دار الإسلام. وكأنه يجعل من كتابه عهد علي إليه وإن كان علي لم يعهد قبل موته عام ٤٠هـ بالخلافة لأحد من بعده، وأنه أجاب الناس الذين سألوه عن رأيه فى مبايعتهم الحسن «ما آمركم ولا أنهاكم أنتم أبصر».

١١ - الحسن وسياسة النهج السلمى:

على أن النهج السلمى فى سياسة الحسن تجاه معاوية ظهر منذ اللحظات الأولى لمبايعته بالخلافة؛ إذ اشترط على الناس من أجل الموافقة على بيعتهم له «..إنكم سامعون مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت»[١]. هذا بينما أراد أهل العراق مبايعته على العمل بكتاب الله وسنة رسوله، وعلى حرب المنحلين المضلين من أهل الشام، فرفض ذلك ولم يجدوا بُدا من الموافقة على ما اشترط عليهم[٢]. فقال الناس: «ما هذا لكم بصاحب، وما يريد القتال»[٣]. وقال بعضهم: «والله ماذكر التسليم إلا ومن رأيه أن يصالح»[٤]، وعلى الرغم من ذلك استقامت للحسن بيعة أهل العراق[٥]، والمدينة[٦]، بينما بايعه أهل مكة بتثاقل.

ورفض معاوية إعطاء الحسن البيعة، ودعاه حسب ما أورد البلاذرى إلى ترك الأمر له، ووعده بإعطائه مافى بيت مال العراق، وخراج أى الكور يشاء، يستعين بها على حوائجه.

مكث الحسن خمسين ليلة وهو لايذكر حربا ولا مسيرة إلى الشام، على الرغم من دعوة زعماء معسكره له بالتحرك[٧]. وشجع ذلك معاوية على المسير إلى العراق، والوصول إلى جسر منبج[٨]، ومعه جند فلسطين بقيادة عمرو بن العاص، وجند الأردن بقيادة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد[٩]، مؤكدا أن توجهه إلى العراق جاء تلبية لرغبة أهله ودعوتهم له[١٠].

(١) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٥٠٣ للمقارنة المسعودى، مروج ج ٢ ص ٤٢٥.
(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٢٩. أبو مخنف بن أعثم، الفتوح ج ٢ ص ٣، ابن أبى الحديد، شرح ١٥ ص ٢٦.
(٣) الإمامة ج ١ ص ١٥٨، (بم) الطبرى، تاريخ، ص ٥٨.
(٤) البلاذرى، أنساب ج٣ ص ٣٩، تاريخ ج ٦ ص ٦٢.
(٥) الطبرى تاريخ ج ٥ ٦٢.
(٦) البلاذرى، أنساب ج ٢ ص ٤٥٨.
(٧) البلاذرى، أنساب ج٣ ص ٢٩.
(٨) البلاذرى، أنسباب ج ٣ ص ٣٦، ٣٧، الطبرى تاريخ، ٥ ص ١٢٩.
(٩) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٠.
(١٠) ن.م ٣ ص ٤٩ اليعقوبى تاريخ، ج٢ ص ٢١٤. الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ٥٩.

وحث الحسن الناس على الجهاد وقتال أهل الشام[1]، وسار من الكوفة على رأس قوة ذكر البلاذرى أنها بلغت خمسين ألف مقاتل[2]، أرسل منها اثنى عشر[3]، وقيل عشرين ألف مقاتل[4] بقيادة قيس بن سعد[5]، أو عبيد الله بن عباس[6]، ونزلوا مسكنا من أرض العراق للحيلولة دون تقدم معاوية فى أراضيهم.

وصل الحسن إلى ساباط المدائن، وهناك نهب جنده فسطاطه، وطعنه رجل يدعى الجراح بن سنان فى فخذه، وأن سبب الطعن هو إخبار الحسن لجنده برغبته فى مصالحة معاوية. واتهم اليعقوبى المعسكر الشامى صراحة بتدبير الأمر بشكل مقصود لإثارة الفتنة داخل المعسكر العراقى، ويبين أن الحادث جرى بسبب إشاعة كاذبة أطلقها أنصار معاوية بين صفوف قوات الحسن حول اتفاق الطرفين على الصلح، وهى إشاعة لم يدققوها، مع أنها جاءت بعد سلسلة أكاذيب عمد معاوية إلى تسريبها بين قوات خصمه حول مصالحة كل من الحسن وقيس بن سعد له.

١٢ - الحسن يجمع أمره:

فلما شخص عبيد الله بن العباس سار الحسن بعده واستخلف على الكوفة المغيرة ابن نوفل بن الحارث بن عبد المطلب، وذلك بعد شهرين ويقال ثلاثة أشهر من بيعته، ثم سار الحسن فأتى دير كعب فبات به، ثم سار حتى أتى ساباط المدائن فنزل دون جسرها ما يلى ناحية الكوفة وخطب الناس فقال:

إنى لأرجو أن أكون أنصح خلقه لخلقه، وما أنا محتمل على أحد ضغينة ولا حقدا ولا مريد به غائلة ولا سوءا، ألا وإن ما تكرهون فى الجماعة خير لكم مما تحبون فى الفرقة، ألا وإنى ناظر لكم خيرا من نظركم لأنفسكم فلا تخالفوا أمرى، ولا تردوا علي، غفر الله لى ولكم.

---

(١) البلاذرى، أنساب ج٢ ص ٣٣، اليعقوبى تاريخ، ج ٢ ص ٢١٤.
(٢) البلاذرى، أنساب ج ٣ ص ٣٤، ٣٦، اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ٣١٤، الطبرى تاريخ ج ٥ ص١٥٩.
(٣) الطبرى، تاريخ ج ٥، ص ١٥٩، المؤرخون العرب والفتنة الكبرى.
(٤) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٩.
(٥) البلاذرى، أنساب ج٣٣ ص ٣٤، ٣٦.
(٦) اليعقوبى، تاريخ ج ٢ ص ٢١٥، المقدسى، البدء ج ٥ ص ٢٣٣٦ - ٢٣٣٧، ابن أبى الحديد شرح نهج البلاغة ج ١٦٦، ص٢٢.

١٣ - الاعتداء على الحسن:

فنظر بعض الناس إلى بعض، وقالوا: عزم والله على صلح معاوية وضعف وخار. وشدوا على فسطاطه فدخلوه وانتزعوا مصلاه من تحته وانتهبوا ثيابه، ثم شد عليه عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي جعال الأزدى فنزع مطرفه عن عاتقه فبقى متقلدا سيفه، فدهش ثم رجع ذهنه، فركب فرسه وأطاف به الناس فبعضهم يعجزه ويضعضعه، وبعضهم ينحى أولئك عنه ويمنعهم منه. وانطلق رجل من بنى أسد بن خزيمة من بنى نصر بن قعين بن الحارث بن ثعلبة بن دودان بن أسد، يقال له الجراح بن سنان وكان يرى رأى الخوارج إلى مظلم ساباط فقعد له فيه ينتظره، فلما مر الحسن دنا من دابته فأخذ بلجامها، ثم أخرج معولا كان معه، وقال: أشركت يا حسن كما أشرك أبوك من قبل، وطعنه بالمعول فى أصل فخذه، فشق فى فخذه شقا كاد يصل إلى العظم وضرب الحسن وجهه ثم اعتنقا وخرا إلى الأرض، ووثب عبد بن الحصل الطائى وبعضهم يقول عبد الله بن الحصل فنزع المعول من يد الجراح، وأخذ ظبيان بن عمارة التميمى بأنفه فقطعه وضرب بيده إلى قطعة آجر فشدخ بها وجهه ورأسه حتى مات.

وحمل الحسن إلى المدائن وعليها سعد بن مسعود عمّ المختار بن أبى عبيد الثقفى، وكان علي قد ولاه إياها فأدخلوه منزله، فأشار عليه المختار أن يوثقه ويسير به إلى معاوية علي أن يطعمه خراج جوخى سنة فأبى ذلك وقال للمختار: قبّح الله رأيك أنا عامل أبيه وقد ائتمننى وشرّفنى، وهبنى نسيت بلاء أبيه هل أنسى رسول الله ﷺ ولا أحفظه فى ابن بنته وحبيبه. ثم إن سعد بن مسعود أتى الحسن بطبيب وقام عليه حتى برأ وحوّله إلى أبيض المدائن.

١٤ - العراقيون يبايعون معاوية سرا:

وتوجّه معاوية إلى العراق واستخلف الضحاك بن قيس الفهرى وجدّ فى المسير وقال: قد أتتنى كتب أهل العراق يدعوننى إلى القدوم عليهم فأؤمّن بريئهم ويدقعون إلى بغيتى، وأتتنى رسلهم فى ذلك فسيروا إليها أيها الناس فإن كدر الجماعة خير من صفو الفرقة، وكانوا يدعونه أمير المؤمنين. ولما رأى عمرو جدّ معاوية فى المسير وإخدامه إياه، قال: قد علم معاوية والله أن الليث عليا قد هلك وغالته شعوب.

قالوا: ومرّ معاوية بالرقة ثم بنصيبين وهو يسكّن الناس ويؤمّن من مرّ به، ثم

أتى الموصل ثم صار إلى الأخنونية، فنزل بإزاء عبيد الله بن العباس، وأرسل عبدالرحمن بن سمرة بن حبيب بن عبد شمس إلى عبيد الله وأصحابه أن كتب الحسن قد أتتنى مع رسله تسألنى فيها الصلح وإنما جئت لذلك، وقد أمرت أصحابى بالكف عنكم فلا تعرضوا لهم حتى أفرغ مما بينى وبين الحسن، فكذبوه وشتموه. ثم بعث معاوية بعد ذلك عبد الرحمن بن سمرة إلى عبيد الله فخلا به، وحلف له أن الحسن قد سأل معاوية الصلح وجعل لعبيد الله ألف ألف درهم إن سار إليه، فلما علم عبيد الله رأى الحسن وأنه إنما قصد الصلح وحقن الدماء وسار إلى معاوية فأكرمه وبره وحفظ له مسارعته إليه.

وقام بأمر الناس بعد عبيد الله قيس بن سعد وقال فى عبيد الله قولا قبيحا، وذكر أخاه وماكان بينه وبين علي ونسب عبيد الله إلى الخيانة والغدر والضعف والجبن. فبايع قيسا أربعة آلاف على الموت، وظن معاوية أن مسير عبيد الله قد كسر الحسن، فأمر بسر بن أبى أرطأة وكان على مقدمته وناسا معه فصاحوا بالناس من جوانب العسكر، فوافوهم وهم على تعبئة فخرجوا إليهم فضاربوهم، واجتمع إلى بسر خلق فهزمهم قيس وأصحابه، وجاءهم بسر من الغد فى الدهم فاقتتلوا فكشف بسر وأصحابه وقتل من الفريقين قتلى، وعرض معاوية على قيس مثل الذى عرضه على عبيد الله، فأباه ثم بعث إليه ثانية فقال له: على ماذا تقتل نفسك وأصحاب الحسن قد اختلفوا عليه وقد جرح فى مظلم ساباط فهو لما به. فتوقف عن القتال ينتظر مايكون من أمر الحسن.

وقال الشيخ المفيد والطبرى: إن أهل العراق كتبوا إلى معاوية بالسمع والطاعة واستحثوه على السير نحوهم وضمنوا له تسليم الحسن إليه إذا شاء عند دنوه من معسكرهم أو الفتك[1].

١٥ - الحسن يدرك غدر العراقيين:

وجعل وجوه أهل العراق يأتون معاوية فيبايعونه، فكان أول من أتاه خالد بن مغمر فقال: أبايعك عن ربيعة كلها ففعل، وبايعه عناق بن شرحبيل بن أبى رهم التيمى، فلذلك يقول الشاعر:

معاوى أكرم خالد بن المغمر   فإنك لولا خالد لم تؤمر

(١) سيرة الأئمة الاثنى عشر ص ٥١٧ القسم الأول هاشم معروف الحسنى، منشورات الشريف الرضى.

وبلغ ذلك الحسن، فقال: يا أهل العراق أنتم الذين أكرهتم أبى على القتال والحكومة ثم اختلفتم عليه، وقد أتانى أن أهل الشرف منكم قد أتوا معاوية فبايعوه فحسبى منكم لاتغرونى فى دينى ونفسى. لكن الحسن لما رأى تفرق الناس عنه. أرسل إلى معاوية كتابا طلب فيه الصلح[(١)].

وقد دفع معاوية إلى الحسن صحيفة بيضاء ختم أسفلها؛ليكتب ما يشاء من الشروط، فاشترط الحسن أن يسلم إلى معاوية ولاية المسلمين على أن يعمل بكتاب الله وسنة رسوله وسيرة الخلفاء الصالحين، وأن لا يعهد لأحد من بعده، وأن يكون الأمر شورى، والناس آمنون حيث كانوا على أنفسهم وأموالهم وذراريهم، وعلى أن لايبغى له غائلة سرا ولا علانية، وأن لا يخيف أحدا من أصحابه. وشهد على الكتاب من معسكره عبد الله بن الحارث، وعمرو بن مسلمة، وردها إلى معاوية؛ ليشهد بما فى الكتاب ويشهد عليه[(٢)]. وأن يأخذ من بيت مال الكوفة خمسة آلاف ألف وخراج دارابجرد، كما اشترط الحسن أن لايُشتم والده[(٣)].

وخطب الحسن فى الناس، وأبلغهم قرار مصالحته معاوية، وأكد لهم «أن الله هدى أولكم بأولنا، وحقن دماءكم بآخرنا، وكانت لى فى رقابكم بيعة تحاربون من حاربت وتسالمون من سالمت.

١٦ - حيثيات الصلح ونهاية حرب الفتنة:

سالمت معاوية وبايعته فبايعوا له ﴿وَإِنْ أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١)﴾ [الأنبياء][(٤)]. وأضاف الطبرى إلى ذلك ماقاله الحسن لأهل العراق عن الأسباب التى دفعته إلى مصالحة معاوية: «قتلكم أبى، وطعنكم إياى، وانتهابكم متاعى»[(٥)]، وبذلك تم الصلح بين الحسن ومعاوية فى ربيع الآخر من عام ٤١ هـ[(٦)].

---

(١) البلاذرى، أنساب ج ٣، ص ٥٠.
(٢) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.
(٣) الطبرى، تاريخ ج ٥ ص ١٥٨.
(٤) البلاذرى، الحساب ج٣ ص ٤٣، الطبرى، تاريخ ج٥ ص ٦٣.
(٥) الجاحظ رأى أبى عثمان: عمرو بن بحر الجاحظ فى معاوية والأمويين، ص ١٤ أراضى آل ياسين، سر الموقف فى صلح الحسن، ص ٧ - ١٥. رياض عيسى، الحزبية السياسية ص ١٠١، ١٠٣ فضيل بنى حمد العراق فى خلافة معاوية ص ٥٢، ٧١ خير الدين يوجه سوى، الفكر السياسى، ص٤٤.
(٦) البلاذرى، أنساب، ٣ص ٤١.

قالوا: ثم قام معاوية فخطب الناس فقال فى خطبته: ألا إنى كنت شرطت فى الفتنة شروطا أردت بها الألفة ووضع الحرب ألا وإنها تحت قدمى.

١٧ - قواد الحسن يعاتبونه:

فقال المسيب بن نجبة الفزارى للحسن: بايعت معاوية ومعه أربعون ألفا ولم تأخذ لنفسك ثقة، قد سمعت كلامه والله ما أراد بما قال غيرك. وقام سفيان بن ليل الهمدانى إلى الحسن، فقال له: يامذل المؤمنين، وعاتبه حجر بن عدى الكندى، وقال: سودت وجوه المؤمنين، فقال له الحسن: ماكل أحد يحب ماتحب ولا رأيه رأيك. وإنما فعلت مافعلت إبقاء عليكم، ويُقال: إنه قال له: سمعت أبى يقول: يلى هذا الأمر رجل واسع البلعوم كثير الطعم وهو معاوية.

١٨ - مكاتبات معاوية وقيس بن سعد:

قال المدائنى: وكتب معاوية إلى قيس يدعوه إلى نفسه وهو بمسكن فى عشرة آلاف، فأبى أن يجيبه، ثم كتب إليه: إنما أنت يهودى ابن يهودى إن ظفر أحب الفريقين إليك عزلك واستبدل بك، وإن ظفر أبغضهما إليك قتلك ونكل بك، وقد كان أبوك قد أوتر غير قوسه، ورمى غير غرضه فأكثر الحز وأخطأ المفصل، فخذله قومه وأدركه يومه فهلك بحوران طريدا والسلام.

فكتب إليه قيس بن سعد بن عبادة: أما بعد يامعاوية فإنما أنت وثن ابن وثن من أوثان مكة دخلت فى الإسلام كرها وخرجت منه طوعا لم يقدم إيمانك ولم يُحدث نفاقك، وقد كان أبى أوتر قوسه ورمى غرضه فاعترض عليه من لم يبلغ كعبه ولم تشق غباره وكان أمرا مرغوبا عنه مزهودا فيه، ونحن أنصار الدين الذى خرجت منه وأعداء الدين الذى صرت إليه.

فقال له عمرو: أجبه، فقال: أخاف أن يجيبنى بما هو شر من هذا.

١٩ - رجوع أهل العراق لقتال معاوية:

حدثنى عباس بن هشام عن أبيه عن أبى مخنف عن أبى الكنود عبد الرحمن بن عبيد قال:

لما بايع الحسن بن علي معاوية أقبلت الشيعة تتلاقى بإظهار الأسف والحسرة على ترك القتال فخرجوا إليه بعد سنتين من يوم بايع معاوية، فقال له سليمان بن صرد الخزاعي: ماينقضى تعبنا من بيعتك معاوية ومعك أربعون ألف مقاتل من أهل الكوفة كلهم يأخذ العطاء وهم على أبواب منازلهم ومنهم مثلهم من أبنائهم وأتباعهم سوى شيعتك من أهل البصرة وأهل الحجاز، ثم لم تأخذ لنفسك ثقة فى العقد ولا حظا من العطية، فلو كنت إذا فعلت مافعلت أشهدت على معاوية وجوه أهل المشرق والمغرب، وكتبت عليه كتابا بأن الأمر لك بعده، كان الأمر علينا أيسر ولكنه أعطاك شيئا بينك وبينه، ثم لم يف به ثم لم يلبث أن قال على رءوس الناس: إنى كنت شرط شروطا ووعدت عدة إرادة لإطفاء نار الحرب ومداراة لقطع هذه الفتنة، فأما إذا مَنَّ الله علينا الكلمة والألفة وأمننا من الفرقة فإن ذلك تحت قدمى، فوالله ما اغترنى بذلك إلا ماكان بينك وبينه وقد نقض، فإذا شئت فأعد الحرب جذعة[1] وائذن لى فى تقدمك إلى الكوفة فأخرج عنها عامله وأظهر خلعه ونَنْبِذُ إليه على سواء إن الله لايحب الخائنين، وتكلم الباقون بمثل كلام سليمان[2].

فقال الحسن: أنتم شيعتنا وأهل مودتنا فلو كنت بالحزم فى أمر الدنيا أعمل ولسلطانها أربض وأنصب، ما كان معاوية بأبأس منى بأسا، ولا أشد شكيمة ولا أمضى عزيمة، ولكنى أرى غير مارأيتم، وما أردت بما فعلت إلا حقن الدماء، فارضوا بقضاء الله وسلموا لأمره والزموا بيوتكم وأمسكوا، أو قال كفوا أيديكم، حتى يستريح بر أو يُستراح من فار.

حدثنى أحمد بن إبراهيم الدورقى ومحمد بن حاتم المروزى قالا: ثنا أبو داود صاحب الطيالسة عن شعبة عن يزيد بن حمير عن عبد الرحمن بن جُبَيْر بن نُفير عن أبيه قال:

قلت للحسن: إن الناس يتقولون إنك تريد الخلافة، فقال: كانت جماجم العرب بيدى يسالمون من سالمت ويحاربون من حاربت، فتركتها ابتغاء وجه الله، ثم أريدها بأهل الحجاز، وقال أحدهما: بأتياس الحجاز.

---

(١) الجذع: صغير أنساب، وإذا طفئت حرب بين قوم فقال بعضهم: إن شئتم أعدناها جذعة أى ما يبتدأ فيها - اللسان.

(٢) مقاتل الطالبيين ص ٦٣.

٢٠ - رأى الحسين بن علي فى بيعة الحسن لمعاوية:

لما بايع أهل الكوفة الحسن أطاعوه وأحبوه أشد من حبهم لأبيه، واجتمع له خمسون ألفا فخرج بهم حتى أتى المدائن، وسرح بين يديه قيس بن سعد بن عبادة الأنصارى فى عشرين ألفا فنزل بمسكن، وأقبل معاوية من الشام فى جيش. ثم إن الحسن خلا ناحية الحسين، فقال: ياهذا إنى نظرت فى أمرى فوجدتنى لا أصل إلى الأمر حتى يقتل من أهل العراق والشام من لا أحب أن أحتمل دمه، وقد رأيت أن أسلم الأمر إلى معاوية فأشاركه فى إحسانه ويكون عليه إساءته.

فقال الحسين: أنشدك الله أن لاتكون أول من عاب أباك وطعن عليه ورغب عن أمره، فقال: إنى لا أرى ماتقول، ووالله لئن لم تبايعنى لأشدنك فى الحديد فلا تزال فيه حتى أفرغ من أمرى، قال: فشأنك، فقام الحسن خطيبا فذكر رأيه فى الصلح والسلم وما كره من سفك الدماء وإقامة الحرب، فوثب عليه أهل الكوفة وانتهبوا ماله وخرقوا سراقه وشتموه وعجزوه، ثم انصرفوا عنه ولحقوا بالكوفة، فبلغ الخبر قيسا، فخرج إلى أصحابه، فقال: ياقوم إن هؤلاء القوم كذبوا محمدا ﷺ وكفروا به ماوجدوا إلى ذلك سبيلا، فلما أخذتهم الملائكة من بين أيديهم ومن خلفهم وعن يمينهم وشمالهم دخلوا فى الإسلام كرها وفى أنفسهم ما فيها من النفاق، فلما وجدوا السبيل إلى خلافه أظهروا ما فى أنفسهم، وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية، فإن شئتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلتم، وإن شئتم أن تدخلوا فى الفتنة دخلتم، قالوا فإننا ندخل فى الفتنة، وأعطى معاوية حسنا ما أراد فى صحيفة بعث بها إليه مختومة اشترط الحسن فيها شروطا[1].

فلما بايع معاوية لم يعطه مما كتب شيئا، فانصرف الحسن إلى المدينة ومعاوية إلى الشام.

قالوا: ولما صالح الحسن معاوية وثب حمران بن أبان فأخذ البصرة، وأراد معاوية أن يبعث إليها رسلا من أهل الشام من بلقين فكلمه عبيد الله بن عباس فى ذلك فأمسك، وولى عتبة بن أبى سفيان البصرة فقال له ابن عامر: إن لى بها أموالا وودائع فإن لم تولنيها ذهبت فولاه البصرة.

---

(١) مقاتل الطالبيين أبو الفرج الأصفهانى.

٢١ - ما جرى بين الحسن وزياد بن أبى سفيان:

حدثنى أبو مسعود عن ابن عوف عن أبيه، قال:

لما دعى معاوية زيادا وولاه، طلب زياد رجلا كان قد دخل فى صلح الحسن وأمانه، فكتب الحسن فيه إلى زياد ولم ينسبه إلى أب، فكتب إليه زياد: أما بعد فقد أتانى كتابك فى فاسق يؤوى مثله الفساق من شيعتك وشيعة أبيك، وايم الله لأطلبنه ولو بين جلدك ولحمك فإن أحب لحم إلى آكله للحم أنت منه.

٢٢ - الحسن وحق الخطأ:

يعتبر الحسن بن علي أول من حل بيعته بنفسه وأول من تنازل عن حقه فى البيعة لخصمه معاوية حقنا لدماء المسلمين وإطفاء لنار الحرب التى أكلت العرب أكل النار للهشيم، ولم يكن الحسن بالراغب عن الخلافة أو الكاره لها راكنا إلى الراحة والدعة إنما الأمور وفق نظره ـ وهو على حق فيما قرر ـ أنى نظرت إليها لا تأتى بخير ـ فمن جهة الشام فما زال معاوية يملك مقاليد الأمور فى قبضته وهو فى الحكم والإدارة محنك قد خبر المناورة والحرب ومعاملة شيوخ القبائل. وفى مكة ما زال ابن الزبير بجيشه متعلقا بأستار الكعبة حتى مات فيها ـ وجيش علي قد انقسم على نفسه وانشق عليه الخوارج بقيادة الراسبى. وقبائل خاب أملها ووقفت فى مفترق الطرق بعدما غدرت بالإمام علي فلم تستطع اللحاق بمعاوية وهو حسير، لقد كان الحسن مصيبا فيما رأى وله حق الخطأ ويبوء بأجره إن أخطأه الصواب، ولا شك أن تنازله عن الخلافة لمعاوية يلقى من جانب آخر وعلى رأس قيس تفسير العجز والمهانة فى قوله: وإن الحسن عجز وضعف وركن إلى صلح معاوية فإن شئتم أن تقاتلوا بغير إمام فعلتم وإن شئتم أن تدخلوا فى الفتنة دخلتم، قالوا فإننا ندخل فى الفتنة.

٢٣ - معاوية يتقول على الحسن بالقول بالرفض:

حوارات فى الأدب السياسى: الحسن ومعاوية:

انفرد الأصفهانى فى كتابه «مقاتل الطالبيين» بذكر مراسلات جرت بين الحسن ومعاوية، وهى ـ ولاشك ـ لون من ألوان الأدب السياسى الرفيع.

والذى يقرأ التراسل بينهما يعلم أن الحسن ما صالح معاوية صلح المتعجل لمتاع دنياه ولا من أجل إغراء معاوية له بخزائن البصرة كما زعمت دائرة المعارف الإسلامية، وسبق مناقشته. فقد بسط فى رسائله موقف العرب من قريش، وقريش من العرب، وأن قريشا نالت الفضل بقولها: ولا يحل أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس وحقه - فرأت العرب أن القول ماقالت قريش.

ثم يقول الحسن: ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ما حاجت به العرب. فلم تنصفنا لشىء إنصاف العرب لها.

٢٤ - تأويل معاوية لرسالة الحسن:

ثم يقول لمعاوية: فاليوم فليعجب المتعجب من توبتك يامعاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب وابن أعدى قريش لرسول الله ﷺ.

ثم يرد عليه معاوية مأولا خطابه تأويلا لايحتمله نص خطاب الحسن إليه ويحمل عليه بهتانا وزورا أنه يتهم أبا بكر وعمر وأبا عبيدة الأمين، وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فحمله مسئولية الرفض والرافضة.

وذلك واضح من رد معاوية على رسالة الحسن فى قوله: وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صرحت بتهمة أبى بكر الصديق، وعمر الفاروق، وأبى عبيدة الأمين وحوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار فكرهت ذلك لك، فإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللئيم. وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

ويقول: واختاروا أبا بكر، كان ذلك رأى ذوى الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك فى صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا متهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين.

وليس معاوية للحسن بالناصح الأمين فى قوله وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل» وايم الحق لقد كان قوله سديدا وذكره جميلا ولو كان معاوية ناصحا ما عرض بالحسن تعريضا مشينا ولا أوله معانى لا يحتملها خطابه تحمل من السوء لأبى بكر وعمر وأبى عبيدة أمين هذه الأمة ما تحمل.. والموعد الله وليس للحسن وهو من

ذوى الرأى أن يخوض فى صحابة رسول الله ﷺ وعلى رأسهم أبو بكر. فالخطاب لمعاوية والتعريض لمعاوية وهو الذى خرج على اجتماع السقيفة. وذلك ما أكثر عليه الحسن فى خطابه حين قال: فادخل فى السلم والطاعة ولا تنازع الأمر أهله ومن هو أحق به منك.. وهاتيك المراسلات:

وكتب الحسن إلى معاوية مع جندب بن عبد الله الأزدى:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله الحسن أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبى سفيان، سلام عليك، فإنى أحمد الله الذى لا إله إلا هو،أما بعد: فإن الله ـ تعالى عز وجل ـ بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين، ومنة على المؤمنين، وكافة إلى الناس أجمعين ﴿لِيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧٠﴾﴾ [يس]، فبلغ رسالات الله، وقام على أمر الله حتى توفاه الله غير مقصر ولا وان، حتى أظهر الله به الحق، ومحق به الشرك، ونصر به المؤمنين، وأعز به العرب، وشرف به قريشا خاصة، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ... ﴿٤٤﴾﴾ [الزخرف] فلما توفى ﷺ تنازعت سلطانه العرب فقالت قريش: نحن قبيلته وأسرته وأولياؤه، ولايحل لكم أن تنازعونا سلطان محمد ﷺ فى الناس ـ وحقه، فرأت العرب أن القول كما قالت قريش، وأن الحجة لهم فى ذلك على من نازعهم أمر محمد ﷺ فأنعمته[1] لهم العرب وسلمت ذلك، ثم حاججنا نحن قريشا بمثل ماحاجت به العرب، فلم تنصفنا قريش إنصاف العرب لها، إنهم أخذوا هذا الأمر دون العرب بالانتصاف والاحتجاج فلما صرنا أهل بيت محمدﷺ وأولياءه إلى محاجتهم، وطلب النصفة منهم باعدونا، واستولوا بالاجتماع على ظلمنا ومراغمتنا، والعنت منهم لنا، فالموعد الله، وهو الولى النصير.

وقد تعجبنا لتوثب المتوثبين علينا فى حقنا، وسلطان نبينا ﷺ وإن كانوا ذوى فضيلة وسابقة فى الإسلام، فأمسكنا عن منازعتهم مخافة على الدين أن يجد المنافقون والأحزاب بذلك مغمزا يثلمونه به، أو يكون لهم بذلك سبب لما أرادوا به من فساده، فاليوم فليعجب المتعجبون من توثبك يا معاوية على أمر لست من أهله، لا بفضل فى الدين معروف، ولا أثر فى الإسلام محمود، وأنت ابن حزب من الأحزاب، وابن

(١) انعمت: أى قالت لهم نعم.

أعدى قريش لرسول الله ﷺ، ولكن الله خيبك وسترد فتعلم لمن عـقبى الدار، تالله لتلقين عن قليل ربك، ثم ليجزُينك بما قدمت يداك، وما الله بظلام للعبيد.

إن عليا ـ رضوان الله عليه ـ لما مضى لسبيله ـ رحمة الله عليه ـ يوم قبض، ويوم مَنَّ الله عليه بالإسلام، ويوم يبعث حيا ـ ولأنى المسلمون الأمر بعده، فأسأل الله أن لا يزيدنا فى الدنيا الزائلة شيئا ينقصنا به فى الآخرة مما عنده من كرامته، وإنما حملنى على الكتاب إليك الإعذار فـيما بينى وبين الله ـ سبحـانه وتعالى ـ فى أمرك، ولك فى ذلك إن فعلت الحظ الجسيم، وللمـسلمين فيه صلاح، فدع التمادى فى البـاطل وادخل فيما دخل فيــه الناس من بيـعتى، فإنك تـعلم أنى أحق بهذا الأمـر منك عند الله وعند كل أواب حـفيظ، ومن له قـلب منيب، واتق الله، ودع البـغى، واحقن دمـاء المسلمـين، فوالله ما لك من خـير فى أن تلقى الله من دمائهم بأكثر مما أنت لاقـيه به، فادخل فى السلم والطاعـة، ولا تنـازع الأمر أهـله، ومن هو أحق به منك، ليطفـئ الله النائرة[1] بذلك، وتجـمع الكلمـة، وتصلح ذات البـين، وإن أنت أبيت إلا الـتمـادى فى غـيك نهدته[2] إليك بالمسلمين، فحاكيتك حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين[3].

فكتب إليه معاوية:

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد الله أمـير المؤمنين إلى الحسن بن علي، سلام عليك، فـإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فـقد بلغنى كتابك، وفهمت مـا ذكرت به رسول الله ﷺ من الفضل، وهو أحق الأولين والآخرين بـالفضل كله، قديمه وحديثه، وصـغيره وكبيـره، فقد والله بلغ فأدى، ونصح وهدى، حتى أنقـذ الله به من التهلكة، وأنار به من العمى، وهدى به من الضلالة، فجزاه الله أفضل مـا جزى نبيا عن أمته، وصلوات الله عليه يوم ولد ويوم قبض، ويوم يبعث حيا.

وذكرت وفاة النبى ﷺ، وتنازع المسلمين من بعده، فرأيتك صـرحت بتهمة أبى بكر الصديـق، وعمر الفـاروق، وأبى عبيـدة الأمين، وحـوارى الرسول ﷺ وصلحاء المهاجرين والأنصار، فكرهت ذلك لك، فـإنك امرؤ عندنا وعند الناس غير ظنين، ولا المسىء ولا اللئيم، وأنا أحب لك القول السديد والذكر الجميل.

---

(١) النائرة: العداوة والبغضاء.

(٢) نهد إليه: ارتفع.

(٣) ابن أبى الحديد ١٢٤.

إن هذه الأمة لما اختلفت بعد نبيها لم تجهل فضلكم، ولا سابقتكم ولا قرابتكم من النبي ﷺ، ولا مكانتكم في الإسلام وأهله، فرأت الأمة أن تخرج من هذا الأمر لقريش لمكانها من نبيها، ورأى صلحاء الناس من قريش والأنصار وغيرهم من سائر الناس وعامتهم أن يولوا هذا الأمر من قريش أقدمها إسلاما وأعلمها بالله وأحبها له وأقواها على أمر الله، واختاروا أبا بكر، وكان ذلك رأى ذوي الحجى والدين والفضيلة والناظرين للأمة، فأوقع ذلك في صدوركم لهم التهمة، ولم يكونوا بمتهمين، ولا فيما أتوا بمخطئين، ولو رأى المسلمون فيكم من يغني غناءه أو يقوم مقامه، أو يذب عن حريم المسلمين ذبه، ماعدلوا بذلك الأمر إلى غيره رغبة عنه، ولكنهم عملوا في ذلك بما رأوه صلاحا للإسلام وأهله، فالله يجزيهم عن الإسلام وأهله خيرا.

وقد فهمت الذى دعوتني إليه من الصلح، والحال فيما بيني وبينك اليوم مثل الحال التي كنتم عليها أنتم وأبو بكر بعد النبيﷺ. ولو علمت أنك أضبط مني للرغبة، وأحوط على هذه الأمة، وأحسن سياسة، وأقوى على جمع الأموال وأكيد للعدو، لأجبتك إلى ما دعوتني إليه، ورأيتك لذلك أهلا، ولكني قد علمت أني أطول منك ولاية، وأقدم منك لهذه الأمة تجربة، وأكثر منك سياسة، وأكبر منك سنا، فأنت أحق أن تجيبني إلى هذه المنزلة التي سألتني، فادخل في طاعتي ولك الأمر من بعدى، ولك ما في بيت مال العراق من مال بالغا مابلغ تحمله إلى حيث أحببت ولك خراج أى كور العراق شئت، معونة لك على نفقتك، يجبيها لك أمينك، ويحملها إليك في كل سنة. ولك ألا يُستولى عليك بالإساءة ولا تقضى دونك الأمور، ولا تعصى في أمر أردت به طاعة الله - عز وجل - أعاننا الله وإياك على طاعته إنه سميع مجيب الدعاء. والسلام.

قال جندب:

فلما أتيت الحسن بن علي بكتاب معاوية قلت له: إن الرجل سائر إليك، فابدأ أنت بالمسير حتى تقاتله في أرضه وبلاده وعمله، فإما أن تقدر أنه يتناولك فلا والله حتى يرى يوما أعظم من يوم صفين، فقال:

أفعل، ثم قعد عن مشورتي وتناسى قولي[1].

---

(١) ابن أبي الحديد ١٣٤.

قال: وكتب معاوية إلى الحسن بن علي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، فإن الله - عز وجل - يفعل فى عباده مايشاء، ﴿ ...لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (41) ﴾ [الرعد] فاحذر أن تكون منيتك على يد رعاع من الناس، وايئس من أن تجد فينا غميزة، وإن أنت أعرضت عما أنت فيه وبايعتنى وفيت لك بما وعدت، وأجزت لك ماشرطت، وأكون فى ذلك كما قال أعشى بني قيس بن ثعلبة.

وإن أحد أسدى إليك أمانة فأوف بها تدعى إذا مت وافيا

ولا تحسد المولى إذا كان ذا غنى ولا تجفه إن كان فى المال فانيا

ثم الخلفة لك من بعدى، فأنت أولى الناس بها، والسلام.

فأجابه الحسن بن علي:

بسم الله الرحمن الرحيم

أما بعد، وصل إلي كتابك تذكر فيه ما ذكرت، فتركت جوابك خشية البغى عليك، وبالله أعوذ من ذلك، فاتبع الحق تعلم أنى من أهله، وعلى إثم أن أقول فأكذب، والسلام(٢).

فلما وصل كتاب الحسن إلى معاوية قرأه، ثم كتب إلى عماله على النواحى نسخة واحدة.

بسم الله الرحمن الرحيم

من معاوية أمير المؤمنين إلى فلان بن فلان ومن قبله من المسلمين، سلام عليكم، فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو، أما بعد، فالحمد لله الذى كفاكم مؤنة عدوكم وقتلة خليفتكم، إن الله بلطفه وحسن صنعه أتاح لعلي بن أبى طالب رجلا من عباده. فاغتاله فقتله، فترك أصحابه متفرقين مختلفين، وقد جاءتنا كتب أشرافهم وقادتهم يلتمسون الأمان لأنفسهم وعشائرهم، فاقبلوا إلى حين يأتيكم كتابى هذا بجندكم وعددكم وحسن عدتكم، فقد أصبتم بحمد الله الثأر، وبلغتم الأمل، وأهلك الله أهل البغى والعدوان، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته(٣).

---

(١) الغميزة: المطعن. (٢) ابن أبى الحديد ١٣٤.

(٣) ابن أبى الحديد ١٣٤.

قال: فاجتمعت العساكر إلى معاوية بن أبى سفيان، وسار قاصدا إلى العراق وبلغ الحسن خبر مسيره، وأنه بلغ (جسر) منب، فتحرك لذلك، وبعث حجر بن عدى يأمر - العمال والناس بالتهيؤ للمسير، ونادى المنادى: الصلاة جامعة، فأقبل الناس يثوبون ويجتمعون، فقال الحسن: إذا رضيت جماعة الناس فأعلمنى، وأتى سعيد بن قيس الهمدانى، فقال: اخرج، فخرج الحسن - عليه السلام - فصعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال:

أما بعد، فإن الله كتب الجهاد على خلقه، وسماه كرها[1].

ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين: ﴿...وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)﴾ [الأنفال]، فلستم أيها الناس نائلين ما تحبون، إلا بالصبر على ماتكرهون، إنه بلغنى أن معاوية بلغه أنا كنا أزمعنا على المسير إليه، فتحرك لذلك، فاخرجوا - رحمكم الله - إلى معسكركم بالنخيلة (حتى ننظر وتنظروا ونرى وتروا).

٢٥ - وفاة الحسن بن علي - عليهما السلام:

قالوا: وطال مرض الحسن بعد قدومه المدينة من العراق حتى قيل إنه السل، ثم إنه شرب شربة عسل فمات منها، وقيل إنه سُم أربع دفعات فمات فى آخرهن، وأتاه الحسين وهو مريض فقال له: أخبرنى من سقاك السم، قال: لتقتله، قال: نعم، قال: ما أنا بمخبرك، إن كان صاحبى الذى أظن والله أشد له نقمة، وإلا فوالله لا يقتل بى برىء.

وقد قيل: إن معاوية دس إلى جعدة بنت الأشعث بن قيس وأرغبها حتى سمته وكانت شانئة له، وقال الهيثم بن عدى: دس معاوية إلى ابنة سهيل بن عمرو امرأة الحسن مائة ألف دينار على أن تسقيه شربة بعث بها إليها ففعلت.

قالوا: وكانت وفاة الحسن فى سنة تسع وأربعين، ويقال سنة خمسين لخمس خلون من شهر ربيع الأول، وزعم بعضهم أنه توفي سنة إحدى وخمسين، قالوا: ودفن الحسن بالبقيع، وصلى عليه سعيد بن العاص بن أمية، وكان واليا على المدينة.

---

(١) قال تعالى: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم﴾.



الفصل الثالث

الشهيد الإمام الحسين وحق العدل السياسى

١ - الحسين والحق السياسى:

وعقب موت معاوية أصبح يزيد خليفة على المسلمين. وعندئذ أعلن الحسين وهو أكبر أبناء علي المتبقين على قيد الحياة والذى كان يقيم آنئذ فى المدينة المنورة مطالبته بالخلافة على أساس أن الخلافة تخص بيت النبىﷺ وعلى أساس أنه أكبر الأعضاء الذكور فى بيت النبىﷺ. وأشار إلى أن يزيد يعتبر مغتصبا للخلافة. فوصلته رسائل تأييد مليئة بالحماسة من الكوفة التى تعتبر القلعة التى تضم مؤيدى وأنصار علي بن أبى طالب. وكانت تلك الرسائل مليئة بالعبارات التى تشجعه على المطالبة بالخلافة وإحياء المجد الذى هيمن على دار الإسلام فى أثناء فترة حكم الإمام علي. ووصلت هذه الأنباء إلى يزيد بن معاوية. فسارع إلى إيفاد أحد مساعديه الموثوق بهم إلى الكوفة وهو عبيد الله بن زياد. فاستخدم ابن زياد نفس التكتيكات القديمة المتعارفة بالاستقطاب والقمع وممارسة الضغوط وتمكن من تحييد القوات العسكرية المناهضة ليزيد بن معاوية. وكان الحسين آنئذ لا تساوره أدنى شكوك فى مدى إخلاص أنصاره المتواجدين بالكوفة فسافر مع عائلته برفقة٧٢ من التابعين له: ٤٠ من الفرسان + ٣٢ من المشاة متجها إلى جنوب العراق.

وفى يوم ١ محرم ٦١ هجرية الموافق ٨ مايو ٦٨١ وعلى مسافة حوالى ثلاثين ميلا من الكوفة اعترض جنود يزيد بن معاوية سبيل الحسين ورفاقه وأسرته عند كربلاء. وعلى مدى الأيام الثمانية التالية حاول قائد قوات يزيد بن معاوية الحصول من الحسين

على التسليم غير المشروط من خلال المفاوضات معه. إلا أنه لم يفلح فى هذا الشأن. إذ كان الحسين يؤمن إيمانا راسخا وكاملا بأحقيته فى الخلافة. ورفض التزحزح عن موقفه حتى بعد أن أدرك أن قواته تعتبر ضئيلة للغاية بالنسبة لجنود يزيد بن معاوية وأن الهزيمة والموت أمران محققان ولا مفر منهما. وهذا الاستخفاف بالبراجماتية التى تنادى بالتضحية بالمبادئ السامية الرفيعة على محراب الواقعية كان بمثابة إعلاء وإظهار للمثالية التى فجرت، أدرك أن الظلم قد وقع عليه كما كان يدرك أن استشهاده من شأنه أن يحيى مطالبة بيت النبى محمد ﷺ بالخلافة مستقبلا.

وكان يتميز بالتقوى والورع والروحانية على نحو غير عادى وأعطى استشهاده درسا فى قيمة مبادئ الحق السياسى السامية. وأن المؤمن الحق ينبغى أن يمتنع عن مبايعة الحاكم القائم على الاستبداد والفساد مع استخدام القوة المسلحة إذا اقتضت الضرورة وذلك إذا أصبح نظام الحكم السائد متسما بالظلم والطغيان حتى لو كانت فرص النجاح فى الإطاحة بالحكم الفاسد ضئيلة للغاية. تلك كانت رؤية الإمام الحسين.

٢ - الشيعة: الكوفة والبصرة:

وكان يقال: «من أراد الشهادة فليدخل دار البطيخ (بالكوفة) وليقل: رحم الله عثمان بن عفان»[(١)]. وفى غضون القرن الرابع امتد مذهب الشيعة إلى البصرة، وهى المنافس القديم للكوفة والتى كان يقال عنها فى القرن الثالث: أما البصرة وسوادها فقد غلب عليها عثمان وصنائع عثمان فليس بها من شيعتنا إلا القليل، «وأما الكوفة وسوادها فقد غلب عليها علي وشيعته»[(٢)]، وفى البصرة اضطر أبو بكر الصولى (المتوفى عام ٣٣٠هـ-٩٤٢م) أن يستتر وقتا ما، لأنه روى خبرا فى علي - رضى الله عنه -، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله[(٣)]. وفى القرن الخامس الهجرى كان فى البصرة ما لايقل عن ثلاثة عشر مكانا تتصل بذكرى علي، وكان يقدسها الشيعة. بل كان يوجد فى المسجد الكبير فى ذلك الوقت أثر من[(٤)] آثار علي يعرض للناس، وهو قطعة من

---

(١) رسائل أبى بكر الخوارزمى طبعة القسطنطينية عام ١٢٩٧، ص ٤٩.

(٢) تاريخ بغداد مخطوط رقم ٢١٨٢ بمكتبة باريس الأهلية ص ١٤ ب، يقول المقدسى (ص ١٢٦): إن أهل الكوفة شيعة إلا الكناس فإنها سنية.

(٣) ثلاث رسائل لأبى عثمان الجاحظ طبعة فان فلوتن بليدن ١٩٠٣ ص ٩.

(٤) الفهرست لابن النديم ص ١٥٠.

الخشب طولها ثلاثون ذراعا وعرضها خمسة أشبار وسمكها أربعة أصابع، يقال إن عليا جاء بها من الهند[1].

٣ - عبد الله بن عباس وخروج الحسين إلى الكوفة:

حين عزم الحسين على الخروج إلى الكوفة تذكر رأى الحكيم المحنك عبد الله بن عباس ورأى ابن الزبير المداهن المتعلق بأستار الكعبة.

يقول الأصفهانى: وكان مسلم قد كتب إلى الحسين بأخذ البيعة له، واجتماع الناس عليه، وانتظارهم إياه، فأزمع الشخوص إلى الكوفة، ولقيه عبد الله بن الزبير فى تلك الأيام ولم يكن شىء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجهم إلى العراق طمعا فى الوثوب بالحجاز، وعلما بأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين، فقال له: على أى شىء عزمت يا أبا عبد الله، فأخبره برأيه فى إتيان الكوفة، وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل إليه، فقال له ابن الزبير: فما يحبسك، فوالله لو كان لى مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شىء، وقوى عزمه، ثم انصرف. وجاءه بعده عبد الله بن عباس وقد أجمع رأيه على الخروج، وحققه، فعل يناشده فى المقام، ويعظم عليه القول فى ذم أهل الكوفة، وقال له: إنك تأتى قوما قتلوا أباك، وطعنوا أخاك، وما أراهم إلا خاذليك، فقال له: هذه كتبهم معى، وهذا كتاب مسلم باجتماعهم، فقال له ابن عباس: أما إذا كنت لا بد فاعلا فلا تخرج أحدا من ولدك، ولا حرمك ولا نسائك فخليق أن لا تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان، فأبى ذلك ولم يقبله.

قال: فذكر من حضره يوم قتل وهو يلتفت إلى حرمه وإخوته وهن يخرجن من أخبيتهن جزعا لقتل من يقتل معه ومايرينه به، ويقول: لله در ابن عباس فيما أشار عليّ به.

قال: فلما أبى الحسين قبول رأى ابن عباس قال له: والله لو أعلم أنى إذا تشبثت بك وقبضت على مجامع ثوبك، وأدخلت يدى فى شعرك حتى يجتمع الناس على وعليك، كان ذلك نافعى لفعلته، ولكن أعلم أن الله بالغ أمره، ثم أرسل عينيه فبكى،

(١) ناصر خسرو ص ٨٧. الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى آدم متز. ترجمة محمد عبدالهادى أبو ريدة.

وودع الحسين، وانصرف ومضى الحسين لوجهه، ولقى ابن عباس بعد خروجه عبد الله ابن الزبير فقال له:

يالك من قبرة بمعمر خلا لك الجو فبيضى واصفرى
ونقرى ما شئت أن تنقرى هذا الحسين خارجا فاستبشرى[1]

فقال: قد خرج الحسين وخلت لك الحجاز.

٤ - الشيعة لم تغدر بالحسين:

من الصعب أن تقذف بمأساة الحسين على شيعته لعدة وجوه منها: أن شيعته فى الكوفة لم تتمكن من الخروج منها بعد أن قطع عليها وعلى الحسين طريق تلاقيهما، عبيد الله بن زياد والى الكوفة والبصرة ـ وتخلف عنه فى المدينة القرشيون والأنصار من التقاة المخلصين ولم يكن تخلفهم عنه غدرا به، إنما هو الرأى والمشورة فأشاروا عليه بعدم الخروج كما نصحه ابن عباس. . وخرج معه وهو فى طريقه إلى الكوفة أعراب لايميزون بين الناقة والجمل الذين يرون أن فى خروج الحسين مغنما من غير حرب شرسة وهم قبائل البوادى مانعو الزكاة والمرتدون أدعياء النبوة الذين انقلبوا على أعقابهم بعد وفاة الرسول ﷺ وسير لهم الخليفة الأول جيشا على رأسه أسامة بن زيد وعرفت بحروب الردة، كما كان استشهاد مسلم بن عقيل والتمثيل به أن أضعف من سير المعركة وغاب عنصر التخطيط للمعركة الفاصلة. فلم يكن هناك قائد منظم لجيش الشيعة فى الكوفة ولم يكن مع الحسين جيش منظم إلا بعض رجالات لايتكافئون مع جيش ابن زياد الذى لم يلحقه قتر ولا ذلة من عناء السفر وطول الطريق بين المدينة والكوفة وكان سواده الأعظم رعاة بدو وهمج الأعراب.

٥ - عبيد الله بن زياد يقطع الطريق على الحسين وشيعته فى الكوفة:

قال أبو مخنف فى حديثه خاصة عن رجاله:

إن عبيد الله بن زياد وجه الحر بن يزيد ليأخذ الطريق على الحسين، فلما صار فى بعض الطريق لقيه أعرابيان من بنى أسد، فسألهما عن الخبر، فقالا له: يا ابن رسول الله، إن قلوب الناس معك، وسيوفهم عليك، فارجع، وأخبره بقتل ابن عقيل وأصحابه،

(١) مقاتل الطالبيين، ص ١١٠.

فاسترجع الحسين، فقال له بنو عقيل: لا نرجع والله أبدا أو ندرك ثأرنا أو نقتل بأجمعنا، فقال لمن كان لحق به من الأعراب: من كان منكم يريد الانصراف عنا فهو فى حل من بيعتنا. فانصرفوا عنه، وبقى فى أهل بيته، ونفر من أصحابه[1].

ومضى حتى دنا من الحر بن يزيد، فلما عاين أصحابه العسكر من بعيد كبروا، فقال لهم الحسين: ما هذا التكبير، قالوا: رأينا النخل، فقال بعض أصحابه: ما بهذا الموضع والله نخل، ولا أحسبكم ترون إلا هوادى الخيل وأطراف الرماح، فقال الحسين: وأنا والله أرى ذلك، فمضوا لوجوههم، ولحقهم الحر بن يزيد فى أصحابه، فقال للحسين: إنى أمرت أن أنزلك فى أى موضع لقيتك وأجعجع بك، ولا أترك أن تزول من مكانك[2].

٦ - مسلم بن عقيل:

توفى أكبر أبناء علي من فاطمة، وهو الحسن، فى سنة ٤٩هـ. وكان قد خيب آمال أنصار أبيه بالطريقة التى تنازل بها عن الخلافة وفقد احترامهم له، فاتجهت أبصارهم إلى أخيه الأصغر: الحسين. ولما توفى معاوية وانتهت خلافته فى سنة ٦٠هـ حيت آمال الشيعة من جديد. فرفض الحسين ـ وكان آنذاك فى منتصف الخمسين من عمره ـ أن يبايع يزيدا، وحتى يتخلص من سلطان يزيد فر من المدينة، وهى المركز الدائم لأنصار علي، والتجأ إلى مكة (عند أواخر رجب سنة ٦٠هـ). فدعاه أهل الكوفة إليهم للخروج تحت قيادته على سلطان بنى أمية. وأرسلوا إليه فى هذا المعنى بعدة رسائل، ووصل إلى مكة رسلهم الأول فى ١٠ رمضان سنة ٦٠ هـ (١٤ يونيو سنة ٦٨٠م). وكان أصحاب هذه الرسائل[3] رجالا بارزين من القبائل، ومن اليمانية على وجه التخصيص، وقد كانت اليمانية فى الكوفة أكبر القبائل عددا وأهمية. ومالت نفس الحسين إلى تلبية هذه الدعوة الملحة التى وجهها الكثيرون.

لما بلغ أهل الكوفة نزول الحسين مكة، وأنه لم يبايع ليزيد وفد إليه وفد منهم عليهم أبو عبد الله الجدلى، وكتب إليه شبث بن ربعى، وسليمان بن صرد، والمسيب

(١) مقاتل الطالبيين - ص ١١١ أبو الفرج الأصفهانى، تحقيق السيد صقر.
(٢) ابن الأثير ص ١٧، ومقتل الحسين ص ٤١. والطبرى ج٧ ص ٢١٧ وابن عساكر ج٤ ص ٣٣١.
(٣) راجع ما يقوله الطبرى ج ٢ ص ٢٣٣ - ٢٣٥. وتاريخ الدولة العربية ص ٢٥٠.

ابن نجية، ووجوه أهل الكوفة يدعونه إلى بيعته، وخلع يزيد[1]، فقال لهم: أبعث معكم أخى وابن عمى فإذا أخذ لى بيعتى، وأتانى عنهم بمثل ماكتبوا به إلىّ قدمت عليهم.

ودعا مسلم بن عقيل فقال: اشخص إلى الكوفة، فإن رأيت منهم اجتماعا على ماكتبوا، ورأيته أمرا ترى الخروج معه، فاكتب إلى برأيك. فقدم مسلم الكوفة، وأتته الشيعة، فأخذ بيعتهم للحسين. ولكنه آثر أن يبعث أولا بابن عمه مسلم بن عقيل ليتحسس الأرض ويهيئ السبيل أمامه. ونزل مسلم فى الكوفة أولا عند المختار بن أبى عبيد[2] الثقفى. ثم انتقل بعد ذلك إلى رجل بارز من بنى مراد هو هانئ بن عروة بن مذحج. وكان كسب الأنصار للحسين يتم بسرعة. ولكن مع احتياط شديد، فلم يكن يقبل كل من يظهر الرغبة فى الانضمام. وفى مدة قليلة تقدم الآلاف بالبيعة للحسين على يد مسلم بن عقيل أو من ينيبهم عنه. وتولى أبو ثمامة الصائدى جمع الأموال والسلاح. وجرى كل شىء على مايرام حتى إن مسلم بن عقيل كتب إلى الحسين يخبره بالقدوم.

٧ - موالى ابن زياد تغدر بمسلم بن عقيل:

وكان والى الكوفة لما أن قدم مسلم بن عقيل هو النعمان بن بشير الأنصارى. فاشتبه فى وجود شىء. ولكنه لم يشأ أن يتخذ إجراءات شديدة لمجرد الشبهة، فإن تقوى الله أسبق عنده من خدمة السلطان. فلما علم يزيد بن معاوية بمسلكه استبدل به بناء على مشورة سرجيوس شخصا أقل تحفظا وورعا هو عبيد الله بن زياد والى البصرة[3]. فأسرع هذا من أقصر طريق خلال الصحارى متوجها إلى الكوفة فى نفر قليل من الرجال[4]. وكان يلبس عمامة سوداء وعلى فمه لثام فحسب الناس أولا أنه الحسين الذى ينتظرونه[5].

---

(١) كذلك فى الدينورى ص ٢٤٥ س٤. وابن عوسجة الوارد فى رواية الذهبى (ج٢ ص٢٢٨ ص ١٠) لعله خلط.

(٢) رواية عوانة فى الطبرى ج٢ ص٢٣٩ س ١٠ ص ٢٤٠ س ٥.

(٣) رواية عوانة فى الطبرى ج٢ ص ٢٣٩ س ١٠ ص ٢٤٠ س ٥.

(٤) وردت فى صورة منقحة فى رواية عمر بن شبة (الطبرى ج٢ ص ٢٤٣).

(٥) ويقول أبو مخنف: إنه غضب لذلك ، ويقول عمر بن شبة: إنه لم يأبه لذلك بل مضى ينفذ خطته وما كلف به. الخوارج والشيعة ص ١٥٠. فلهاوزن.

فلما عرفهم بنفسه أخليت له المدينة. فانتقل إلى المسجد مباشرة وخطب خطبة قصيرة. وأمر كل عريف[1] أن يدل على الغرباء القاطنين فى عرافته أو أن يضمن أنه لايوجد فيها أحد مشتبه فيه، وإلا صلب على باب داره ورفع المال عن عرافته ونفى خارج الكوفة.

وكان قد علم بنية الحسين عن طريق رسالة استولى عليها. ولكن يلوح أنه لم يكن على علم[2] بوجود مسلم بن عقيل فى الكوفة. وعلى الأقل كان يجهل مكان إقامته. وذهب وهو لايدرى إلى مغارة الأسد. أعنى إلى بيت هانئ بن عروة، لعيادة مريض. وكاد أن يقتل هناك[3]. ولم يأت العرفاء بخبر أحد. وإنما أتاه بالأخبار جاسوس غير عربى. بل مولى اسمه معقل، استطاع أن ينفذ إلى ابن عوسجة الشيعى. وعرض عليه ثلاثة آلاف درهم قال إنه جمعها للشيعة ويريد أن يقدمها للشخص المتولى لأمر الشيعة. فاقتاده ابن عوسجة إلى مسلم بن عقيل وأقسم يمين الإخلاص. ومن ذلك الوقت كان فى صحبة مسلم، وكان يسمع ويرى كل شىء يجرى فى دار هانئ بن عروة. وينقل ذلك كله إلى عبيد الله.

٨ - عبيد الله بن زياد وهانئ بن عروة وجواسيس الموالى:

وأرسل عبيد الله إلى هانئ رجلين شريفين صديقين لهانئ ليأتوا به إلى عبيد الله بحجة أن هذا لم يرد عنده منذ وقت طويل. فلما مثل أمامه حادثه فى الأمر[4]. ولم

(١) هذا لقب رئيس الفصيلة الحربية ورئيس القسم فى المدينة.

(٢) الأخبار الخاصة بهذا الأمر تدعو إلى الشك.

(٣) الطبرى ج٢ ص ٢٤٦ وما يليها، ص ٢٤٤ (وقارن ج ٢ ص٤٤،٥٣ وما يليها)، الدينورى ص ٢٤٨ ومايليها.

(١) فى رواية عمر بن شبة (الطبرى ج ٢ ص٢٤٥) أن عبيد الله قال لهانئ: «يا هانئ! أما تعلم أن أبى قدم هذا البلد، فلم يترك أحدا من هذه الشيعة إلا قتله غير أبيك وغير حجر، وكان من حجر ماقد علمت ثم لم يزل يحسن صحبتك، فقال هانئ: «نعم!» قال عبيد الله: «فكان جزائى أن خبأت فى بيتك رجلا ليقتلنى ؟» قال: «مافعلت» فأخرج عبيد الله الجاسوس، فلما رآه هانئ علم أن قد أخبره الخبر. فقال: «أيها الأمير! قد كان الذى بلغك، ولن أضيع يدك عنى فأنت آمن وأهلك فسر حيث شئت. فكبأ عبيد الله عندها، ومهران قائم على رأسه فى يده معكزة، فقال: «واذلاء! هذا العبد الحائك يؤمنك فى سلطانك!» فقال: «خذه!» فطرح المعكزة وأخذ بضفيرتى هانئ ثم أقنع بوجهه. ثم أخذ عبيد الله المعكزة فضرب به وجه هانئ...» وتصوير زياد بأنه قاتل جميع شيعة الكوفة تكفى للحكم على هذا الخبر. قارن الطبرى ص ٢٨٤س ٨ ومايليها. الخوارج والشيعة - فلهاوزن ترجمة عبد الرحمن بدوى.

يستطع الكذب بحضرة الجاسوس. ووعد بأن يصرف ضيفه (أى مسلم بن عقيل)، ولكنه لم يشأ أن يسلمه. فهدده عبيد الله بالقتل، فقال هانئ: «إذن تكثر البارقة حول دارك!»، فكان رد عبيد الله أن استعرض وجهه بالقضيب فلم يزل يضرب أنفه وجبينه وضربه حتى كسر أنفه وسيل الدماء على ثيابه. فوثب هانئ وأخذ سيف شرطى كان إلى جواره. فأمسكوا به وسجنوه. وفى تلك الأثناء أقبل بنو مذحج حتى أحاطوا بالقصر وهم يقولون: «لم نخلع طاعة ولم نفارق جماعة، ولكننا سمعنا أن أخانا يقتل. فقام القاضى شريح فهدأ ثائرتهم بأن أكد لهم أن هانئا حى. فشكروا الله وانسحبوا وكأن كل شىء كان على مايرام.

٩- القائد مسلم بن عقيل يفتقر إلى السياسة:

ولكن هذا لم يكف لإبعاد الخطر عن عبيد الله. إذ لم يكد مسلم بن عقيل يعلم بحبس هانئ حتى قرر ألا ينتظر طويلا. فجمع أصحابه بسرعة[١] وسار بهم فى اليوم نفسه إلى السوق. وأما عبيد الله فانطلق من المسجد حيث كان يقيم الصلاة وتحرز فى القصر وغلق الأبواب. ولم يكن معه إلا بعض الموالى وثلاثون رجلا من الشرطة وعشرون رجلا من أشراف الناس وأهل بيته، وكان هؤلاء الأشراف يخضعون لنفوذه وإن كان بعضهم شيعيا متحمسا أسهم فى استقدام الحسين[٢]. وكان على هؤلاء الأشراف أن يبينوا للثائرين النتائج الخطيرة التى ستترتب على خروجهم وأن يحثوهم على العودة. وكان النسوة أيضا يحثثن رجالهن وأهلهن على العودة قائلات: ليس لك فى هذا الأمر شىء. وعند المساء كان الناس قد انصرفوا وخلوا مسلم بن عقيل وحيدا، شريدا من الناس. ولم يكن يعرف طرقات الكوفة الضيقة المعقدة، حتى بلغ دور بنى جبلة من كندة فمشى حتى انتهى إلى باب امرأة أرمل كانت تنتظر بالباب ابنها. فالتجأ لديها.

ولما وافى المساء كان الهدوء يشمل السوق، فطلب عبيد الله من أصحابه أن ينظروا هل خلا الجو وصفا. ثم صعدوا على سوارى المسجد وأضاءوا القناديل من

---

(١) فى رواية هارون بن مسلم (الطبرى ج٢١ ص ٢٧٢)- وهى رواية أقل ثقة - ورد أن من بين هؤلاء كان بيه القرشى المشهور، والمختار الثقفى المشهور أيضا.

(٢) وكان أحدهم، وهو أسماء بن خارجة القيسى (الفزارى)، والد زوجه وصديقا للحكومة، راجع عنه كتاب فهرس الأغانى، الخوارج والشيعة فلهاوزن.

الفتـحات العليا للمـسجد، فأبصـروا أن ليس ثمة أحد. هناك نزل هو من القـصر إلى المسجد. وأمر أن تصلى صلاة العتمة بالمسجد، فلم يكن له إلا ساعة حتى امتلأ المسجد من الناس، فنظمهم على هيئة جيش وأبقى عليهم فى أمـاكنهم. أما الشرطة فقد عبثت كلها وأمرت باحتلال أفـواه السكك، ليفتشوا فى الصباح الأحياء حـيا حيا. فلما انبلج الصبح كان ابن تلك المرأة الأرمل قد دل رئيس كندة، محمد بن الأشعث، على موضع مسلم، وقـام محمد بن الأشعث فـأخبر الوالى بالخبـر. فأمره الوالى بإحضـار مسلم، وأخذ معه بعض الشرطة وحوالى من ٦٠ إلى ٧٠ قيـسيا؛ وذلك لأن اليمانية لم يكونوا ليجدوا مسلما. وبعد دفاع عنيف ـ وكانوا يريدون أن يأتوا بمسلم حيا ـ سلم مسلم نفسه لابن الأشـعث واقتـيد على بغل بعـد أن انتزع منه سيفـه. ولما دخل القصـر طلب أن يشرب. فلم يجرؤ أحـد على تلبية طلبه، إلى أن أخذت الشـفقة بقرشى فسـقاه. وبعد تبادل كلمات عنيفة بينه وبين عبيـدالله صدر الأمر بقتله. فطلب مسلم أن يسمح له بأن يوصى إلى عمـر بن سعد بن أبى وقـاص، ابن واحد من أقدم أصـحاب محـمد ﷺ، وقبل هـذا أن يأخذ منه الوصـية بعد إذن من عـبيـد الله. ثم صعـدوا به فوق القـصر فضـربت عنقه وأتبع جـسده رأسه. ضـربها شـرطى فارسى كان قـد جرحـه مسلم فى القتال، وألقى بجثته فى الموضع الذى أصبح فيما بعد موضع الجزارين.

ثم جـاء دور هـانئ، ولم ينجـه وعــد الأشـراف. جىء به إلى الـسـوق ويداه مشدودتـان إلى ظهره. ودعا بنى قومـه، فلم يجبه أحد. هنالك فك قـيده وبحث عن سلاح، ولكن عبثا ورفض أن يمد عنقه لتضـرب قائلا: «ما أنا بها مُجد سخى، وما أنا بمعينكم على نفسى». فضربه مولى تركى لعبـيد الله بن زياد، مرتين فقتله. كذلك قتل واحد أو اثنان آخران، وكان ذلك فى ربع قبيلتـهم إمعانا فى الإذلال. وأرسل عبيد الله رأسى مسلم وهانئ إلى الخليفـة يزيد ورسالة قصيرة كتبـها بيده، لأنه لم يرض بأسلوب كاتبه عـمرو بن نافع المسهب المنمق، وعمرو بن نافع قـد أراد إدخال الأسلوب الفارسى المسهب (وكان أول من أطال فى الكتب). ووافق يزيد بن معاوية على مسلك عبيد الله، ولكنه طلب منه ألا يقتل من قاتله.

لم يوفق مسلم بن عقيل حين اسـتنفر جنده لينقذ هانئ بن عروة من أسره لاشك فى أن تلك شهامة عربيـة تناسب البادية لكنه الآن قائد فى بلد بعيد لم يستقـر فيها بعد ولم ينظم جـيشه ولم يحص أعـوانه ولم يتحـسس حصـونه ولم يعاين مكان المعـركة. وليس ما ثار عليه هى قضيته الأساسية وإن كانت هدفا من أهدافه. ثم فى النهاية كشف

عن نفسه أمام ابن زياد الذى فر ليعيد ترتيب نفسه. فما نجا من براثن ابن زياد ولم ينج عروة بن هانئ وكانت بداية كسر الحسين.

١٠ - الحسين يلملم جيشا من قبائل البدو:

ففى اليوم الذى خرج فيه مسلم وقام بالثورة، كان على الحسين الانتقال من مكة، وذلك فى الثامن من ذى الحجة سنة ٦٠هـ[(١)]. وترقب الناس الحادث المنتظر بصبر متوتر، اغتبط ابن الزبير برحيل ابن بنت رسول الله ﷺ من مكة[(٢)]، كان المخلصون ينصحونه بالعدول. ولكنه لم يستمع لنصحهم، بل مضى فى طريقه قدما، وصحبه أقرب أقربائه ومعهم الأهل والأبناء، وكذلك كان معهم أبناء عبدالله بن جعفر، ولكن لم يكن فيهم واحد من بنى العباس. «ثم إن الحسين أقبل حتى مر بالتنعيم، فلقى بها عيرا قد أُقبل بها من اليمن بعث بها بحير بن ريسان الحميرى إلى يزيد بن معاوية. وكان عامله على اليمن. وعلى العير الورس والحلل ينطلق بها إلى يزيد. فأخذها الحسين فانطلق بها»[(٣)] ثم مضى فى الطريق إلى الكوفة فمر بذات عرق وبالحاجر(من بطن الرمة)، وزرد والثعلبية حتى انتهى إلى زُبالة. وانضم إليه نفر قليل من أهل الكوفة العائدين من الحج، انضموا مكرهين لما أن دعاهم إلى ذلك، ولكنهم بقوا معه بعد ذلك مخلصين. وفى مواضع المياه التى أقام بها فى الطريق تبعه عدد كبير من البدو. وظن أنه سيستقبل فى الكوفة استقبالا حافلا، ولم يكن يعلم شيئا عن نهاية مسلم بن عقيل الأليمة. وإنما وصلته الأنباء الأولى وهو فى الثعلبية، وكان يود أن يعود أدراجه لولا أن إخوة القتيل طالبوا بالمضى فى الأمر لينتقموا لمقتل أخيهم. وفى زُبالة أتاه نبأ جديد

---

(١) ٩ سبتمبر سنة ٦٨٠. هكذا ورد فى رواية أبى مخنف فى الطبرى ج٢ ص٢٧١ص١٧ بما ورد فى المسعودى ج٥ص١٤٢، ص ٢٧٢س٢، ص٢٧٥ س٢٠، ص ٢٨٩ س٤. ويذكر أن اليوم كان الثلاثاء. ولكن يوم ٨ ذى الحجة لم يكن يوم ثلاثاء، بل يوم ٣ ذى الحجة هو الذى كان يوم ثلاثاء، وهو الوارد عند الدينورى ص ٢٥٦س١. ومع ذلك فإن يوم التروية، وهو يوافق ٨ ذى الحجة، هو الصحيح على الأقل فيما يتصل بخروج الحسين. وكذلك لاتتفق أعداد الأيام وهى صحيحة قطعا- التى تتلو فى شهر المحرم سنة ٦١ مع أسماء الأيام المذكورة قرينها.- وقد أقام مسلم بن عقيل فى الكوفة حوالى من شهر ونصف إلى شهرين. الخوارج والشيعة. ص ١٧٠.

(٢) هذا يرجع إلى الكراهية الشديدة القائمة بين آل الزبير وآل علي، وأصولها تعود إلى أمور أسبق.

(٣) الطبرى ج ٢ ص٢٧٧.

مروع. فقد أرسل رسوله بكتاب، «حتى إذا انتهى إلى القادسية أخذ الحصين بن تميم[1] به إلى عبيد الله بن زياد فقال له عبيد الله: اصعد القصر فسب الكذاب ابن الكذاب، فصعد ثم قال: «أيها الناس إن هذا الحسين بن علي - خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله. وأنا رسوله إليكم. وقد فارقته بالحاجر فأجيبوه. ثم لعن عبيد الله بن زياد وأباه واستغفر لعلى بن أبى طالب. فأمر به عبيد الله بن زياد أن يرمى من فوق القصر. فرمى به. فتقطع فمات». فلما علم الحسين بهذا الخبر قال لمن معه: «من أحب منكم الانصراف فلينصرف. ليس عليه منا ذمام. فتفرق الناس عنه تفرقا فأخذوا يمينا وشمالا- حتى بقى فى أصحابه الذين جاءوا معه من المدينة[2]. وسار مع هؤلاء الأخيرين حتى مر ببطن العقبة فنزل بها ثم ارتحل منها إلى شراف حتى بلغ ماء ذى حُسم فعسكر هناك وتحصن من الخلف بأرض مرتفعة.

١١ - الحر بن يزيد التميمى يقطع الطريق على الحسين:

وهناك اعترض طريقه فرسان من الكوفة أرسلت من القادسية بقيادة الحر بن يزيد التميمى. تلقوا الحسين باحترام وقاموا بالصلاة وهو يؤمهم. وأبرز لهم الحسين الكتب التى جاءته من الكوفة تدعوه للقدوم، وكانت تملأ خرجين، فقال الحر: لسنا من هؤلاء الذين كتبوا إليك. فأراد الحسين الرجوع إلى المدينة. فحال الحر بينهم وبين الانصراف، ولكنه لم يكن لديه أيضا أمر بمهاجمته. «ولما كثر الكلام بينهما قال له الحر: إنى لم أؤمر بقتلك، وإنما أمرت أن لا أفارقك حتى أقدمك الكوفة. فإذا أبيت فخذ طريقا لاتدخلك الكوفة ولا تردك إلى المدينة. تكون بينى وبينك نصفا حتى أكتب إلى ابن زياد، وتكتب أنت إلى يزيد بن معاوية - إن أردت أن تكتب إليه، أو إلى عبيد الله بن زياد إن شئت - فلعل الله إلى ذاك أن يأتى بأمر يرزقنى فيه العافية من أن أبتلى بشىء من أمرك. قال: فخذ هاهنا فتياسر عن طريق العذيب والقادسية، وبينه وبين العذيب ثمانية وثلاثون ميلا. ثم إن الحسين سار فى أصحابه، والحر يسايره»[3]. ولكنه لم يمنع الشيعة المخلصين القادمين من الكوفة من الانضمام إليه. وهؤلاء أخبروا الحسين بالموقف

---

(١) يخلط كثيرا بينه وبين الحصين بن نمير الشامى، وهو خلط لايقع فيه المؤرخون المحدثون وحدهم، بل وقع فيه النساخ القدماء أيضا- راجع مثلا الطبرى ج ٢ ص٤٠٩س٣، والدينورى ص ٢٥٦س٤. وكانت القادسية تغلق المدخل إلى الكوفة من ناحية الجزيرة العربية.

(٢) الطبرى ج٢ ص ٢٩٤.

(٣) الطبرى ج ٢ ص ٢٩٩ -، ٣٠٠.

فى الكوفة فقالوا: «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم: يستمال ودهم ويستخلص به نصيحتهم فهم ألب واحد عليك. وأما سائر الناس بعد فإن أفئدتهم تهوى إليك، وسيوفهم غدا مشهورة عليك»[1].

واستمر الحسين فى سيره مارا بعذيب الهاجانات وقصر بنى مقاتل حتى انتهى وصحبه إلى نينوى على الفرات. وهناك جاء رسول من عبيد الله بن زياد إلى الحر بن يزيد ومعه كتاب من عبيد الله يقول فيه: «أما بعد! فجعجع بالحسين حين يبلغك كتابى ويقدم عليك رسولى: فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء». ففعل الحر كما أمره عبيد الله. فلم يكن مسموحا للحسين بالنزول فى نينوى أو الغاضرية أو شفية. فقال زهير بن القين للحسين: «إن قتال هؤلاء أهون من قتال من يأتينا بعدهم، فلعمرى ليأتينا من بعد من ترى ما لا قبل لنا به. فقال له الحسين: ما كنت لأبدأهم بالقتال. فقال له زهير بن القين: سر بنا إلى هذه القرية حتى ننزلها، فإنها حصينة، وهى على شاطئ الفرات، فإن منعونا قاتلناهم[2]. وكان اسم هذه القرية العقر، فتشاءم الحسين من اسمها وقال: اللهم إنى أعوذ بك من العقر. وبقى فى موضع ليس فيه ماء غير بعيد من الفرات، فى سهل كربلاء[3]. وكان ذلك - فيما يقول الطبرى (جـ٢ص٣٠٨س٧) فى يوم الخميس، وهو اليوم الثانى من المحرم سنة ٦١هـ(= يوم الثلاثاء الثانى من أكتوبر سنة ٦٨٠م).

١٢ - عمر بن سعد بن أبى وقاص يحاصر الحسين فى كربلاء:

فلما كان من الغد قدم عليهم عمر بن سعد بن أبى وقاص من الكوفة فى أربعة آلاف رجل. وكان عبيد الله قد بعثه واليا على الرى ليحارب الديلم فى دستبى، ولهذا الغرض جمع جيشه هذا. بيد أنه تلقى أمرا بالسير إلى الحسين حتى إذا فرغ منه سار إلى عمله الأصلى. فأراد أن يعفى من أمر الحسين، فاشترط عليه أن يرده عن ولايته. فاضطر كارها إلى السير إلى الحسين حتى لا يفقد ولايته. ولكنه لم يتعجل السير، بل بدأ بأن أرسل إليه من يسأله ما الذى جاء به وماذا يريد؟ وكان قد سأل الكثير أن يكون رسولا إلى الحسين، ولكنهم أبوا، لأن كثيرين منهم كانوا قد كتبوا إلى الحسين يسألونه

(١) الطبرى ج٢ ص ٣٠٣.
(٢) الطبرى ج ٢ ص ٣٠٧ - ، ٣٠٨.
(٣) من الغريب أن أبا مخنف لايذكر هذا الاسم. قارن ص٥٤٦ س٤،ص١٧١٠س٨.

القدوم إلى الكوفة. فخجلوا أن يظهروا أمامه بهذه الرسالة. فلما أبلغ الحسين الرسالة قال الحسين للرسول: «كتب إلى أهل مصركم هذا أن أقدم، فأما إذ كرهونى فأنا أنصرف عنهم»[1] (الطبرى جـ٢ ص٣١٠). فأبلغ عمر بن سعد هذا الجواب إلى الوالى (عبيد الله بن زياد). فأجاب الوالى قائلا: على الحسين أن يبايع يزيد بن معاوية وأن يسلم نفسه، وإلا استعملت القوة ضده. فإن تردد عمر فى ذلك، فعليه أن يسلم القيادة لشمر ابن ذى الجوشن القيسى الذى حمل هذه الرسالة من عبيد الله إلى عمر بن سعد[2].

وفى عشية يوم الخميس[3] لتسع مضين من المحرم، استعد عمر للقتال. وفى أثناء الليل ترك الحسين فى هدوء، ولم يحاول أحد ممن كان معه أن يهتبل الفرصة للفرار، على الرغم من أنه حرضهم على الفرار؛ لأن القوم لايريدون إلا الحسين. ثم أوصى بوصية، وجعل سيفه قائما لإخافة النساء، ورتب الأمور لحماية ظهره من الهجوم[4]. وأمضى بقية الليل فى الصلاة. وكان أعداؤه على مقربة من معسكره، وكان يدور هنا وهناك كلام كثير مختلف ألوانه.

وفى العاشر من المحرم، يوم الأربعاء[5] العاشر من أكتوبر سنة ٦٨٠م، انتظم كل فريق بعد صلاة الفجر استعدادا للقتال. وكان مع الحسين اثنان وثلاثون فارسا[6] وأربعون رجلا، بما فيهم ١٨ من أبناء عمومته. وفى اللحظة الأخيرة وقع حادث مشجع له هو أن الحر بن يزيد عدل إلى الحسين وقتل معه كفارة عن مسلكه السابق. وسبق القتال كلام. وخطب الحسين فى أعدائه وهو راكب جملا، إلى أن انطلق سهم لم يصبه، فتوقف عن الخطبة. وتلا رمى السهام القتال بالسيوف، وودع أصحاب الحسين صاحبهم على موعد لقاء فى الجنة قبل أن يدخل كل منهم المعركة الواحد بعد الآخر،

---

(١) فى رواية عمار الذهبى فى الطبرى (جـ٢ ص ٢٨٢) أن الحسين خيره واحدة من ثلاث: إما أن يدعوه فينصرف من حيث جاء، أى إلى مكة، وإما أن يدعوه فيذهب إلى يزيد، وإما أن يدعوه فيلحق بالثغور. أما فى رأى أبى مخنف (الطبرى ص٣١٤) فليس من الصحيح أن الحسين اقترح هذه الأمور الثلاثة.

(٢) راجع نسبه فى الطبرى جـ١ ص ٣٣٠، والدينورى ص ٢٦٧.

(٣) ورد أن ذلك فى يوم الخميس أو الجمعة، والحقيقة أنه كان يوم ثلاثاء.

(٤) فى رواية الذهبى (الطبرى ص ٢٨١س ١٧-١٨) أنه أسند ظهره إلى قصباء وخلا كى لا يقاتل إلا من وجه واحد. والخوارج والشيعة فلهاوزن.

(٥) ورد أن ذلك كان فى يوم الجمعة أو السبت.

(٦) فى رواية الذهبى (ص٢٨١) والحصين (ص٢٨٦) يذكر عددا أكبر من ذلك. والخوارج والشيعة ص ١٨٣.

ولم يكن من غاية لهم إلا أن يموتوا فى القـتال بمشهد منه. أما الحسـين فقد ظل يرقب المعركة وهو جالس أمام الخيمة الكبرى التى ضمت النساء والأطفال وكان النسوة ينحن. ويلوح أيضا أن أبناء عمه كانوا أيضا يشـهدون المعركة دون أن يخوضوها إلى أن أريقت دماء الآخرين فجاء دورهم هم، فقتلوا جميعا. أما حفيد النبىﷺ (الحسين) فلم يجسر أحد على قتلـه، إلى أن قام شمر فقـضى على هذا التردد. لقد كان قـائد الهجوم، إن صح الحـديث عن قيـادة هنا. فـأفلح أولا فى أن يبـعد الحـسين من معـسكر النسـوة والأطفال، وهو مـعسكر لم يكن لأحد أن يمـسه بأذى. وهنالك انقض عليه الكثـيرون طعنا وضربا حتى أصابوه بثلاث وثلاثين طعنة وأربع وثلاثين ضربة، ولم يشأ أحد منهم بعد ذلك أن يكون القاتل. «وسلبَ ما كان عليه: فـأخذ سراويله بحر بن كعب، وأخذ قيس بن الأشعث قطيفته ـ وكانت من خز، وكان يسمى بعد: قيس قطيفة ـ وأخذ نعليه رجل من بنى أود يقال له الأسود، وأخذ سيـفه رجل من بنى نهشل ابن دارم. . . ومال الناس على الورس والحلل والإبل وانتـهبوها. . . ومـال الناس على نساء الحـسين وبقله ومتاعـه حتى أن كانت المرأة لتنازع ثوبها عن ظهـرها حتى تغلب عليه فيـذهب به منها» (الطبرى جـ٢ ص٣٦٦)- وكان الحسـين يلبس ملابس فـاخرة، لا درعا. ولـم يتوقف النهب إلا لما جـاء عمر بن سـعد. وجاء الجن بـالخبر إلى المدينة، فـعرف قـبل وصول الرسول.

ودفن شهداء كـربلاء فى الغاضرية، أما رءوسـهم فقد احتـزت وأخذت، وسرح باثنين وسبـعين رأسا مع شـمر بن ذى الجوشن وقيـس بن الأشعث وعمر بن الحـجاج وعزرة بن قيس فأقبلوا حتى قدموا بهـا على عبد الله بن زياد، فأرسلها هذا إلى الخليفة (يزيد) فى دمشق، فسر بما حدث كل السرور، ولَذَّ له أن يمسك بقضيب وينكت به فى ثغر رأس الحسين[1]. أما السبـايا والأطفال فقد عاملهم يزيد بشهـامة وعطف، وأظهر الصداقـة لعلى بن الحسين ـ وكـان فتى صغيـرا ولكنه على قدر من العقل مـوفور ـ مما جعل عليا يعترف له بالجميل. وأذن لأسـرة الحسين بالعودة إلى المدينة، فى صحبة رجل أبدى من الرقة والاحـترام نحو النسـوة، ما جعلهن يقدمـن له أساورهن شكرا له على صنيعه معهن. ولما وصل ركبهن إلى المدينة ارتفع العويل والصراخ والبكاء.

(١) كذا فى روايتى أبى مخنف (الطبرى جـ٢ص٠٣٧، ص ٢٨٣) والذهبى (ص٢٨٢ومـا يليها). ولا يثبت ما أورده الحـصين (ص٢٨٦) بعكس هذا، وهو ينسب هذا الفـعل إلى عبيـد الله. وكان من المعـتاد أن يحمل أصحاب السـلطان قضبانا فى أيديهم، قضبانـا لم تكن مجرد رموز (ص٢٨٢س ١٨، ص ٢٨٦ س٢١، ص٥٢٣س٢٠). والخوارج والشيعة ص ١٣٥.

كان ينبغى على الشيعة ومن وقف معها من أهل الكوفة حين هَمَّ الحسين بالخروج من المدينة إلى الكوفة بأهله وولده وبلغ الخبر عبيد الله بن زياد وهو بالبصرة فهم إلى الكوفة كان ينبغى على الشيعة أن تنظم نفسها لتخرج من الكوفة وتبدى السلام تمويها لكنهم كشفوا أنفسهم فقاموا وقاتلوه حتى دخل قصره وأغلق بابه. فلما كان المساء قبضوا على مسلم وهانئ بن عروة المرادى وكان هانئ غير راغب فى دخول مسلم بن عقيل داره فقال له مسلم: إنى أتيتك لتجيرنى وتضيفنى. قال له: رحمك الله لقد كلفتنى شططا ـ ادخل، فدخل داره فأقبلت الشيعة تختلف إليه فى دار هانئ بن عروة.

فلم تمكر به الشيعة إنما كان ينقصها القيادة الصارمة لتنظيم رجالها وقيادتها إنما حكمتها ثورات عصبية لايعصمها رابط التنظيم والقيادة، ولو أتيح لها القيادة الرشيدة لخرجت من الكوفة للالتحام بالحسين وجيشه. وما قصروا فيه مع الحسين أخذوا يفكرون فيه بحكمة فى الفكر وروية فى التنظيم من يومها. أما أشراف الكوفة فقعدوا عن مناصرته فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائزهم وازدادوا طغيانا ورهقا وهم غير الشيعة المخلصين الذين استطاع بعضهم أن يتسللوا من الكوفة للحاق بالحسين.

أما الذين كانوا مع عمر بن سعد بن أبى وقاص فقد كان معه بعض الذين راسلوا الحسين بالكتابة إلى الكوفة فلم يكونوا رسلا صالحين للسفارة بين عمر بن سعد وبين الحسين(١).

١٣ - استشهاد الحسين نقطة تحول فى التاريخ:

وكان استشهاد الإمام الحسين بمثابة نقطة تحول فى التاريخ الإسلامى وليس مجرد هزيمة نهائية لعشيرة آل هاشم على أيدى الأمويين. فهذا الصدام المسلح بين يزيد الفاسد والحسين التقى الورع كان جزءا من نفس الديالكتيك الذى جعل معاوية يتصارع مع على ابن أبى طالب المثالى: وهو جدل ديالكتيكى لأيديولوجية قد أحرزت النجاح. والمسألة الرئيسية وفقا لما أورده المؤرخ الإسلامى ماليز روثفين Malise Ruthven كانت على النحو التالى: «هل يمكن للتماسك الجديد للأمة الإسلامية المرتكز على الالتزام بما ورد بالقرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة أن يكون هو الأساس لنظام إسلامى جديد؟ أو ينبغى على النظام أولا أن يرسخ نفسه على أساس من النفوذ والسلطة القرشية وبخاصة

---

(١) البدء والتاريخ، أبو زيد أحمد بن سهل البلخى وهو لمظهر بن طاهر المقدسى جـ ٦ ص ٩.

النفوذ الأموى؟» وكانت الإجابة النابعة من الحياة الواقعية ـ مثلما يكون عليه الحال فى كثير من الأحيان ـ هو اتخاذ خط وسط بين هذين الاتجاهين المتناقضين. إلا أن هذا الديالكتيك قد ظل مستمرا وظل بدون حسم، ويضيف هذا المؤرخ قائلا: «إن مشكلة العثور على توازن بين ما هو مثالى وما هو واقعى ـ أو التوازن بين النموذج الكامل للإسلام والحقائق الإنسانية والمادية للحياة قد أصبحت هى المادة العلمية للتاريخ الإسلامى ابتداء من عهد الخلفاء حتى الوقت الحاضر[1].

كانت نقطة الاستقطاب للقضية الشيعية سياسيا ودينيا وثقافيا. فقد كان هو، على أية حال، حفيد رسول الله ﷺ، وكان دم الرسول ﷺ نفسه هو الذى خضب الثرى الذى سقط الحسين فوقه صريعا. ولقد روى استشهاد الحسين قضية الشيعة فى عهد الأمويين أكثر مما رواها مصرع علي نفسه، وعجل من ثم فى انهيار الحكم الأموى وسقوطه.

١٤ - تأثير حادثة كربلاء فى تكتل الشيعة:

كان لفاجعة كربلاء التى قتل فيها الحسين وأصحابه سنة (٦١هـ) كما بينا سابقا أثر عميق فى تطور التشيع ونموه بعامة وفى تكتل الشيعة بخاصة. قال الطبرى: «لما قتل الحسين بن علي ورجع ابن زياد من معسكره بالنخيلة ودخل الكوفة، وتلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيرا بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم إجابته ومقتله إلى جانبهم ولم ينصروه..»[2].

ويقول الطبرى فى حوادث سنة ٦٥هـ: «وفى هذه السنة تحركت الشيعة بالكوفة وتواعدوا على الاجتماع بالنقيلة.. للمسير إلى أهل الشام للطلب بدم الحسين بن علي وتكاتبوا فى ذلك»[3] وقد أوكل الشيعة قيادتهم فى حركتهم المعروفة بحركة التوابين إلى سلمان بن صرد الخزاعى. قال البلاذرى: بعد أن اجتمع جماعة من وجوه الشيعة قال أحد الخطباء: إذا رأيتم «ولينا هذا الأمر شيخ الشيعة.. سليمان بن صرد..»[4] ويبدو من النص السابق أن أول شيعى يتزعم جماعة دينية تسمى الشيعة، هو سليمان بن

(١) الأصوليون الإسلاميون فى العصر الحديث ص ٢٠ تأليف دليب هيرو ترجمة عبد الحميد فهمى الجمال.
(٢) الطبرى، ٤ ـ ٤٢٦.
(٣) أيضا، ٤ ـ ٤٢٧.
(٤) أنساب الأشراف، ج٥ (القدس، ١٩٣٦) ص ٢٠٥.

صرد. و يوضح فلهاوزن أثر استشهاد الحسين فى تكتل الشيعة بالكوفة بقوله: «والكوفيون الذى جروا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنبهم على ما اقترفت أيديهم، فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الرب وبالكفارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم «التوابين» وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم»[1].

وكان لفاجعة كربلاء أثر عميق فى نفوس الشيعة، فارتفعوا بها من مصائب البشر الاعتيادية إلى أن شبهوها بمصائب الأنبياء، فروى الصدوق أن أبا عبد الله ـ رضى الله عنه ـ قال: «إن إسماعيل الذى قال الله ـ عز وجل ـ فى كتابه: واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا، لم يكن إسماعيل بن إبراهيم، بل كان نبيا من الأنبياء بعثه الله ـ عز وجل ـ إلى قومه، فأخذوه فسلخوا فروة رأسه ووجهه، فأتاه ملك، فقال إن الله بعثنى إليك فمرنى بما شئت، فقال لى أسوة بما يصنع بالحسين ـ رضى الله عنه ـ[2].

إن شيعة علي قبل فاجعة كربلاء سنة ٦١ هـ لم يكونوا الفرقة أو الفرق الشيعية، بل كانوا مجرد أنصار وموالين أو حزب. فأحاديث النبي ﷺ المذكورة، فضلا عن احتمال تسرب الشك إلى بعضها، لا تعنى الفرقة ذات العقائد المعينة لأن الفرق لم تظهر حينذاك، ويبدو أن المراد بشيعة علي الواردة فى تلك الأحاديث أنصاره وأتباعه. ويظهر أن نص النوبختى سالف الذكر رغم احتوائه على كلمة «فرقة» لا يمكن أن يحمل على أن المقصود منه وجود فرقة دينية تعرف بالشيعة كانت معروفة فى عهد النبي ﷺ وبعد وفاته ﷺ لأن كلمة «فرقة» وردت فى النص مضافة إلى علي، لذلك تنصرف إلى الأنصار والجماعة لا الفرقة الدينية ذات العقائد المعينة. يضاف إلى ذلك أن النوبختى نفسه يقول فى مكان آخر من كتابه السابق: إن «جميع أصول الفرق أربع فرق: الشيعة، والمعتزلة، والمرجئة، والخوارج»[3]. ومن المعلوم أن جميع هذه الفرق ظهرت بعد النبى ﷺ بفترة غير قصيرة. ولعل المقدسى أقرب إلى التدقيق حين يقول: «إن أصل مذاهب المسلمين كلها منشعبة من أربع: الشيعة، والخوارج، والمرجئة، والمعتزلة، وأصل افتراقهم قتل عثمان ثم تشعبوا..»[4].

---

(١) الخوارج والشيعة، ص ١٨٩.

(٢) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة د. عبد الله فياض.

(٣) النوبختى المصدر السابق، ص ١٥.

(٤) أحسن التقاسيم (ليدن، ١٩٠٦) ص ٣٨.

ثم إن نص المسعودى الذى يشير إلى إقامة علي وشيعته فى منزله بعد بيعة أبى بكر هو الآخر لا يمكن حمله على أنه يعنى الفرقة الدينية؛ لأن المسعودى نفسه فى موضع آخر من كتابه السابق دعا، من التف حول علي بعد السقيفة، جماعة من المسلمين(١). ومن المعلوم أنه ليس كل مسلم شيعيا.

ونختم كلامنا حول وجود فرقة شيعية أو عدمه فى الفترة موضوع البحث برأى سعد الأشعرى الذى يبين فيه أن المقصود بكلمة «فرقة» فى عهد الإمام على تعنى الجماعة من الناس. وفى معرض كلامه عن عثمان يقول الأشعرى: «فلما قتل (عثمان) بايع الناس عليا ـ رضى الله عنه ـ فسموا الجماعة، ثم افترقوا بعد ذلك فصاروا ثلاث فرق: فرقة أقامت على ولاية على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ وفرقة منهم اعتزلت مع سعد بن مالك، وهو سعد بن أبى وقاص، وعبد الله بن عمر بن الخطاب. . وفرقة خالفت عليا ـ رضى الله عنه ـ وهم طلحة بن عبد الله والزبير بن العوام وعائشة بنت أبى بكر. .»(٢) ويتضح من النص السابق أن الأشعرى كان يقصد بالفرقة الجماعة أو الأنصار السياسيين.

إن بذور(٣) الفرق الشيعية أخذت تنمو باطراد بعد مقتل الحسين، وإمعان الأمويين والزبيريين فى التنكر للشيعة، وفشل الأمويين فى كسب القراء والفقهاء إلى جانبهم، وإجحافهم بحقوق قطاعات كبيرة من سكان الإمبراطورية الإسلامية بعامة والموالى بخاصة. فظهرت الكيسانية التى ساقت الإمامة إلى محمد ابن الحنفية وهو ابن لعلي من غير فاطمة بنت النبى ﷺ. ثم تفرقت الكيسانية إلى جماعات ساقت إحداها الإمامة من بعد محمد إلى ابنه أبى هاشم(٤).

وتزعم المختار الثقفى فرقة الكيسانية، قال الطبرى: قد «اجتمعت رءوس الشيعة ووجوهها مع سليمان بن صرد. . . فكان المختار إذا دعاهم لنفسه أو إلى الطلب بدم الحسين قالت له الشيعة: هذا سليمان بن صرد شيخ الشيعة قد انقادوا له واجتمعوا عليه فأخذ يقول للشيعة: قد جئتكم من قبل المهدى محمد بن على ابن الحنفية. فوالله ما زال بالشيعة حتى انشعبت إليه طائفة كانت تعظمه وتجيبه»(٥).

(١) المسعودى، الوصية، ص ١٢١.
(٢) كتاب المقالات والفرق ص ٥.
(٣) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٤.
(٤) انظر عن الكيسانية وفرقها الأشعرى (مقالات جـ١ ص ٨٩ وما بعدها).
(٥) التاريخ، ٤ ـ ٤٣٤.

وقد أورد فيها تفصيلات عن حركة المختار وصلتها بالموالى وغير ذلك مما له صلة بالموضوع[1].

وبالرغم من أن الكيسانية أول من قالت بفكرة الإمام المهدى التى أصبحت فيما بعد محور عقيدة الإمامية، كما أن زعيمها أول من طبقها فى حيز العمل،كما أن الزعيم المذكور انتصف للشيعة من أعدائهم حين أخذ بثأر الحسين، فإن ظهور تلك الفرقة يعد أول انشقاق عقدى حصل فى صفوف الشيعة؛ ذلك لأن الكيسانية أخرجت الإمامة من أبناء فاطمة إلى محمد ابن الحنفية وهو ابن لعلي من غير زوجته فاطمة. ولما كانت الإمامة كما يعتقد القائلون بالنص والتعيين، منصبا إلهيا ليس للبشر أن يمنحوه لأى أحد من المسلمين بما فيهم أبناء على من غير فاطمة، نجد الشيخ المفيد يدلل على إمامة علي ابن الحسين المعاصر لمحمد ابن الحنفية إمام الكيسانية بوجوه أهمها: أولا: إن علي بن الحسين «كان أفضل خلق الله بعد أبيه علما وعملا والإمامة للأفضل دون المفضول بدليل العقول.....».

ثانيا: إن عليا كان «أولى بأبيه الحسين - عليه السلام - وأحق بمقامه من بعده بالفضل والنسب والأولى بالإمامة الماضى أحق بمقامه من غيره بدلالة آية ذوى الأرحام وقصة زكريا عليه السلام.

ثالثا: وجوب الإمامة عقلا فى كل زمان، وفساد دعوى كل مدع للإمامة فى أيام علي بن الحسين - عليهما السلام - أو مدع لها سواء ثبتت فيه لخلو الزمان من الإمام.

رابعا: «ثبوت الإمامة أيضا فى الفترة وبخاصة بالنظر والخبر من النبى ﷺ وفساد قول من ادعاها لمحمد ابن الحنفية - رضى الله عنه - بتعرية من النص عليه، فثبت أنها فى على بن الحسين - عليهما السلام - إذ لا مرعى له الإمامة من العشرة سوى محمد - رضى الله عنه - وخروجه عنهما بما ذكرناه.

خامسا: نص رسول الله ﷺ بالإمامة عليه فيما روى من حديث اللوح الذى رواه جابر عن النبى ﷺ...»[2].

إن أدلة إبطال إمامة محمد ابن الحنفية التى أوردتها عن المفيد فى أعلاه تصلح

(١) الخوارج والشيعة، ص ١٨٧ وما بعدها - تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٥.

(٢) المفيد، الإرشاد، (طهران، ١٣٧٧) ص ٢٣٧.

لإبطال إمامة أى علوى من أئمة الكيسانية والزيدية[1]، والإسماعيلية[2]، حسب مقاييس الشيعة الذين عرفوا فيما بعد بالإمامية والذين يعترفون باثنى عشر إماما وردت أسماؤهم فى حديث اللوح الذى أشار إليه المفيد فى أدلته السابقة.

والحق أن ميتة الشهداء التى ماتها الحسين، والتى لم يكن لها أثر سياسى، قد عجلت فى التطور الدينى للشيعة، حزب علي، الذى أصبح فيما بعد ملتقى جميع النزعات المناوئة للعرب (الشعوبية).

واليوم لا يزال ضريح الحسين فى كربلاء أقدس محجة عند الشيعة، وبخاصة الفرس الذين ما فتئوا يعتبرون الثواء الأخير فى جواره غاية ما يطمعون فيه.

(١) انظر عن الزيدية «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» للأشعرى (١٢٩ وما بعدها)، والنوبختى (فرق الشيعة) ص ٥٠.

(٢) انظر عن الإسماعيلية «فرق الشيعة» للنوبختى ص ٥٧ ـ ٥٨.

- تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٥٦.

الباب الرابع

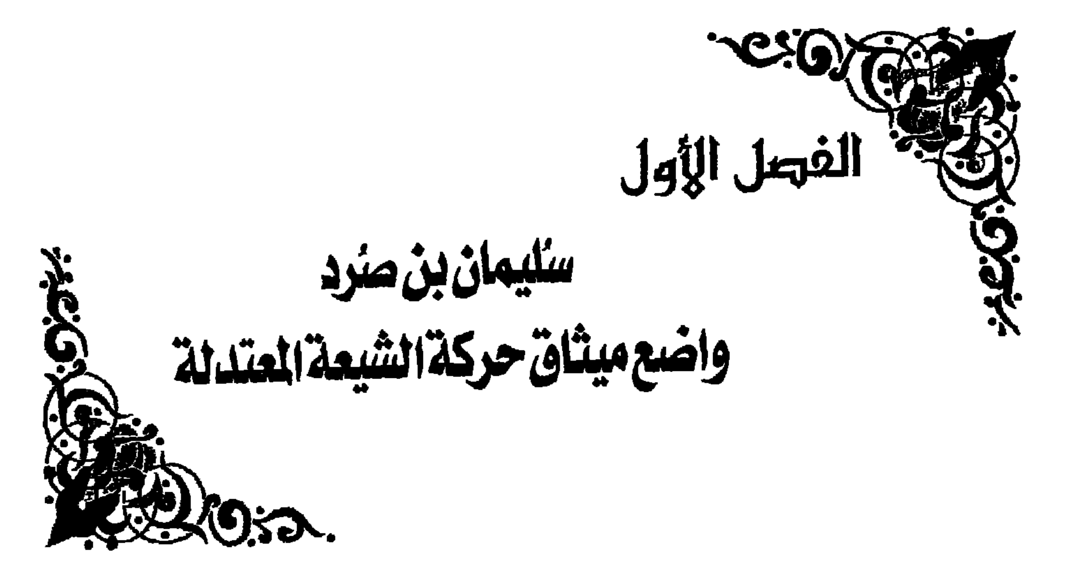
الصراع السياسى بين الشيعة العربية بعد الحسن والحسين

الفصل الأول

سليمان بن صرد واضع ميثاق حركة الشيعة المعتدلة

الفصل الثانى

المختار الثقفى - واضع مبادئ الشيعة الغالية



الفصل الأول

سُليمان بن صُرد
واضع ميثاق حركة الشيعة المعتدلة

١ - الزعيم السياسى الأول للشيعة، واضع ميثاق حركة التوابين:

سليمان بن صُرد بن الجون بن أبى الجون بن عنقذ بن ربيعة بن أصرم بن ضبيس ابن حرام بن حُبشية بن سلول بن كعب بن عمرو بن ربيعة وهو لُحى الخزاعى وولد عمرو هم خزاعة(١).

كان اسمه فى الجاهلية يسارا فسماه رسول الله ﷺ سليمان، يكنى أبا المُطرف.

وكان خيِّرا فاضلا له دين وعبادة، سكن الكوفة أول ما نزلها المسلمون وكان له قدر وشرف فى قومه.

شهد مع علي بن أبى طالب - رضى الله عنه - مشاهده كلها، وهو الذى قتل حوشبا ذا ظليم الألهانى بصفين مبارزة.

وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي - رضى الله عنهما - بعد موت معاوية يسأله القدوم إلى الكوفة فلما قدمها ترك القتال معه.

فلما قتل الحسين ندم هو والمُسيب بن نجبة الفزارى وجميع من خذله ولم يقاتل معه وقالوا: ما لنا توبة إلا أن نطلب بدمه.

فخرجوا من الكوفة مستهل ربيع الآخر من سنة خمس وستين وولوا أمرهم سليمان بن صُرد وسموه أمير التوابين.

---

(١) أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير ٢/٢٩٧ ط دار الفكر بيروت.

وساروا إلى عبيد الله بن زياد، وكان قد سار من الشام فى جيش كبير يريد العراق فالتقوا بعين الوردة، من أرض الجزيرة وهى رأس عين، فقتل سليمان بن صُرد والمسيب بن نجبة وكثير ممن معهما.

وحمل رأس سليمان والمسيب إلى مروان بن الحكم بالشام.

وكان عمر سليمان حين قتل ثلاثا وتسعين سنة.

روى عنه أبو إسحاق السبيعى وعدى بن ثابت وعبد الله بن يسار وغيرهم:

أخبرنا يحيى بن محمود بن سعد إجازة بإسناده إلى أبى بكر بن أبى عاصم قال: حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة، أخبرنا حفص بن غياث، عن الأعمش، عن عدى بن ثابت عن سليمان بن صُرد أن رجلين تلاحيا فاشتد غضب أحدهما فقال النبى ﷺ: إنى لأعرف كلمة لو قالها لسكن عنه غضبه «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم» أخرجه الثلاثة.

٢ - ميثاق الشيعة العربية بعد الحسين:

بعد استشهاد الحسين ـ حيل بين الحسين وشيعته كما قدمنا ـ كاد أمر الشيعة أن ينفلت بعد أن بدد أمرها أشراف الكوفة والممالقون للنظام السياسى الأموى وبطش ابن زياد وأكثرهم من الأعراب المرتدين وعلى رأسهم شبث بن ربعى الذى كان يصبح مع الأشراف تارة ومع الحسين أخرى ويمسى جاسوسا لابن زياد، كاد أمر الشيعة أن يذهب مع أشلاء كربلاء فى أدراج الرياح لولا أن قيض الله لها خمسة نفر: سليمان بن صُرد الخزاعى، والمسيب بن نجبة الفَزَارِى، وعبد الله بن سعد بن نُفَيل الأزدى، وعبد الله بن وال التميمى، ورفاعة بن شداد البجلى. وكان المختار على مايذهب المسعودى يثبط الناس عن الخروج معهم.

واتفقوا على عدة مبادئ جمعت بينهم:

* الإحساس بالذنب.

* التوبة بالنصيحة والفداء بالثأر للحسين.

* قتل من قتله أو القتل فيه.

* التباكى والتلاوم.

* تجديد ذكرى كربلاء.

حول هذه المبادئ تجمعت الشيعة العربية للمرة الأولى تجمعها آصرة وجدانية إيمانية بعد كربلاء تحت قيادة هؤلاء الخمسة ثم دانوا لسليمان بن صُرد فأعاد تنظيمها وجمعها وخطط لها تحت مبدأين سياسيين:

المبدأ السياسى الأول: مبدأ التقية وتحت شعاره بدأ التخطيط السرى للتجمع الشيعى فى الكوفة حاضرة الإمام علي.

المبدأ السياسى الثانى: هل تجب طاعة أولى الأمر الغاصبين أو الخروج عليهم؟ وذلك ما اختاره الإمام زيد وجعله أصلا من أصول الزيدية واختارته الإمامية مع القول بالتقية فلم يعدموا أن يقدموا الإجابة التى يطمئنون إليها مهما كانت تحتمل جدلا واسعا. ولا شك أن الجدل الفكرى حول هذه النقطة مهما اتسعت دوائره وعلت فقاقيعه، فإن تطور المذهب الشيعى أو الفرق الشيعية قد أغنانا عن التمادى فى الجدل؛ إذ لايحسن أن تستقل فرقة سياسيا من غير أن تلتمس شرعيتها فى الخروج عن التاريخ العام إلى تاريخ خاص. فكان القول بالعهد وبالعصمة والتقية والبراءة وتلك مواصفات للخليفة المنتظر وهى بلا شك مواصفات لا يتمتع بها أى خليفة آخر خارج عن الدائرة الشيعية.

٣ - ظهور فكرة التشيع الروحى:

لكن الدكتور عبد الله فياض يرتب فاصلا زمنيا بين ظهور التشيع الروحى وظهور التشيع السياسى فيجعل التشيع الروحى الذى يتضمن القول بإمامة علي، وإنها بوصية من النبى ﷺ وبإرادة من الله، وبين التشيع لعلي، بمعناه العام وهو القول بحقه بالخلافة والعمل على استرداد الحق المذكور دون الالتزام كلية بقضية النص على إمامته[1]. سابقا على السياسى.

ولا شك أن محاولة الدكتور فياض وإن كانت تحمل جهدا فكريا إلا أنها فى الحقيقة تحمل من الغموض ما تحمل ولا طائل من وراء هذا التجزؤ. وأنكرها عليه صاحب المقدمة السيد محمد باقر الصدر فيقول: ويعتقد (فياض) أن التشيع الروحى أقدم عهدا من التشيع السياسى وأن أئمة الشيعة الإمامية من أبناء الحسين قد اعتزلوا بعد مذبحة كربلاء السياسة وانصرفوا إلى الإرشاد والعبادة فيقول:

---

(١) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة مقدمة باقر الصدر.

والرأى عندى أن التشيع لعلي بمعناه الروحى زرعت بذرته فى عهد النبى ﷺ ونمت قبل توليه الخلافة والأدلة على ذلك كثيرة أهمها:

أولا: من كنت مولاه فعلي مولاه...

ثانيا: وصية النبى ﷺ لعلي بالإمامة والخلافة. وردت إشارات عديدة بهذا الخصوص يظهر منها أن النبى ﷺ أوصى لعلي بإمامة المسلمين والخلافة عليهم. روى الطبرى أن النبى ﷺ كان فى مجلس ضم جماعة من بنى هاشم بمكة، فقال مشيرا إلى علي: «إن هذا أخى ووصيى خليفتى فيكم فاسمعوا له وأطيعوا..»[1].

يقول السيد محمد باقر الصدر فى مقدمته لكتاب فياض: والحقيقة أن التشيع لم يكن فى يوم من الأيام منذ ولادته مجرد اتجاه روحى بحت وإنما ولد التشيع فى أحضان الإسلام بوصفه أطروحة مواصلة الإمام علي لقيادة النبى ﷺ الفكرية وقيادته السياسية... فالتشيع إذن لا يمكن أن يجزأ إلا إذا فقد معناه كأطروحة لحماية مستقبل الدعوة بعد النبى ﷺ وهو مستقبل بحاجة إلى المرجعية الفكرية والزعامة السياسية للتجربة الإسلامية معا[2].

ثم يتابع فياض شرح وجهة نظره فى تمييز نوعين من التشيع الروحى والسياسى لكننا ننكر عليه ذلك التجزؤ لنوعين مترابطين كالكتلة الواحدة.

إن التشيع عقيدة تربى على الأفضلية فى الإمامة والوصية بأحقية الإمام.. إلخ. معنى ذلك أن ثمة عقيدة تخالف الوجدان الشيعى ثم كانت الدعوة التى ربطت بين وجدانية العقيدة والعمل السياسى. من هنا نستطيع أن نعرف القول الذى يحمل التجزؤ إلى الوحدة الكلية الجامعة لمدلول عقيدة التشيع.

ومن الأدلة على وجود من يقول بالتشيع الروحى لعلي قبل توليه الخلافة، هو ما رواه سعد الأشعرى عن وجود جماعة من الشيعة ظهرت بعد وفاة النبى ﷺ قالت بالنص على إمامة علي وقالوا: «إنه لابد مع ذلك من أن تكون الإمامة دائمة جارية فى عقبه إلى يوم القيامة... فلم تزل هذه الفرقة قادمة لازمة لإمامته وولايته.. إلى أن قتل.. وكانت إمامته ثلاثين سنة، وخلافته أربع سنين وتسعة أشهر».

---

(١) التاريخ ج ٢ - ٦٣، وابن الأثير، الكامل ج ٢ (القاهرة ١٢٩٠) ص ٢٢.
(٢) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٣٨ تقديم محمد باقر الصدر.

ويرى الأستاذ «وات» أن التشيع الروحى لم يظهر إلا فى سنة ٦٥٨م / ٣٧هـ وذلك حين جدد جماعة من أنصار علي بيعتهم له، كما أسلفنا وأنّ تلك الجماعة «أصبحت تعتقد أن الحاكم يحكم بتفويض إلهى ليس للبشر يد فيه. وأصبح الفرق بين الخوارج والشيعة نتيجة لذلك، هو أن الخوارج أرادوا سيادة قانون غير شخصى فى الدولة، بينما أوكل الشيعة السلطة فى تلك الدولة إلى قائد يتمتع بصفات روحية».

ونرى أن ما أخذه د. فياض على رأى وات ينصرف إليه أيضا؛ إذ لا خلاف بينهم إلا فى تاريخ النشأة[1].

من هنا كان سليمان بن صُرد وهو مؤسس الشيعة العربية وهو صحابى جليل قد أسسها على مبادئ قابلة للشرح والتأويل والزيادة ثم أخيرا لأنها الفرق بالشرح والتأويل! حتى ظهر التجسيد. ونجت الشيعة الزيدية والاثنى عشرية الإمامية من عقيدة التجسيد.

٤ - الصراع القبلى فى الكوفة يميز الأشراف والشيعة والموالى:

أخذ التشيع فى الكوفة آنذاك يرتدى ثوبا جديدا. وقد عرفنا من قبل المعنى الذى كان يدل عليه فى الأصل. لقد كان تعبيرا عن الاتجاه السياسى العام لمعارضة العراق لسلطان الشام. وفى بادئ الأمر كان الأشراف صفا واحدا مع سائر الناس ويتولون قيادتهم. ولكن حينما أحدق الخطر تراجعوا واستلانوا لإغراء الحكومة (حكومة الأمويين فى الشام) ثم استخدموا للقضاء على الثورات الشيعية. وبهذا انفصلوا عن الشيعة، فتحدد نطاق التشيع واتخذ شيئا فشيئا صورة فرقة دينية فى تعارض مع الأشراف ونظام العشائر، وأصبح بفضل استشهاد زعمائه وأوليائه ذا طابع مثالى خيالى. وكان أنصار سليمان بن صُرد يرمون إلى الثورة على أرستقراطية العشائر فى الكوفة. ولكن المختار كان أول من نفذ هذا الغرض وحققه عمليا فيما بعد. وإلى هذه الحركة اجتذب الموالى أيضا. وهؤلاء كان اجتذابهم سهلا؛ لأنهم كانوا ذوى نزعة واضحة إلى الحكم الدينى، لا القومى الشعوبى، وإن كان العرب هم الذين كانوا يتولونه حتى ذلك الحين. كما كانوا - أعنى الموالى - يكرهون المتعصبين لسيادة العرب[2].

وهكذا نشهد قيام تيارين ما لبثا أن التقيا لإغراق خلافة دمشق: (١) كره الشيعة

---

(١) تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص ٤٩.

(٢) الخوارج والشيعة ص ٢٨٠ فلهاوزن.

للأمويين بسبب مصرع الحسين واغتصاب الخلافة بالقوة. (٢) ونقمة الموالى وغير المسلمين بسبب الضرائب التى فُرضت عليهم لمصلحة الأرستقراطية العربية المتبطلة.

وكان كل هم الأشراف مقصورا على الاحتفاظ بمراكزهم وعلى صيانة المنافع المحدودة لمدينتهم وقبائلهم. وعلى الرغم من أن ميولهم كانت ضد حكومة الأمويين. فقد وضعوا نفوذهم تحت إمرتها لتوطيد الهدوء فى القبائل[١].

وفى هذا السبيل قام عمرو بن الحجاج الزبيرى ومحمد بن الأشعث الكندى خصوصا بدور الشرطة. وتوج شبث بن ربعى التميمى قدرته على التقلب التى اكتسبها منذ شبابه بأن حارب ضد الحسين بعد أن كان هو أحد الذين دعوه إلى الكوفة. ولم يكن جمهور أهل الكوفة حريصا على مساعدة الحكومة، ولكنه مع ذلك لم ينضم إلى صف أعدائها. وحتى أولئك الذين بعثوا بالكتب إلى الحسين وأقسموا على الإخلاص له تخلوا عنه فى المحنة ولم يقدموا له يد المعونة، وقصارى ما فعلوه أنهم راقبوا المعركة من بعيد ومصرعه الأخير ثم بكوا. وقليلون جدا هم أولئك الذين تجاسروا على اللحاق به ومشاركته فى مصيره، مثل أبى ثمامة الصائدى خازن بيت المال، وابن عوسجة. وعدا هذا فإن بعض الذين شاركوه فى مصرعه إما أنهم كانوا من أولئك الذين التقطهم عرضا فى الطريق أو من أولئك الذين دفعتهم الحمية الإنسانية فى اللحظة الأخيرة إلى الانضمام إليه وإن لم يكن لهم من قبل شأن به أو لم يكونوا من شيعته. وقد أبرز المؤرخون هذا التعارض بين المكلفين، الذين لم يعملوا شيئا، وبين غير المكلفين الذين أخجلوا الأولين، أبرزوه وعرضوه أحيانا عرضا دراميا[٢]. ومما هو جدير بالاعتبار أن الأنصار أيضا، لا القرشيين وحدهم، قد تخلوا عن الحسين. فلم يخرج من المدينة واحد منهم معه ولم يكن منهم بين شيعة الكوفة إلا أفراد قلائل جدا. والثورة التى قامت فى المدينة سنة ٦٣هـ لم تكن من أجل آل علي، كما أن علي بن الحسين نفض يديه منها، وفى مقابل الجبناء وغير المخلصين كان أعداء الشيعة الصرحاء وهم أتباع حكومة بنى أمية وموظفوها.

٥ - ظهور قضايا دينية وسياسية: الطاعة لولى الأمر أم الثورة؟

كان عثمان يرى أن الخلافة جلباب كما يقول: جلببنيها الله.. أى لا يخلعها ولا

---

(١) السيادة العربية ص ٥٩ فلهاوزن.

(٢) بين زهير بن القين وعزرة بن قيس (الطبرى ج٢ ص٣١٨ وما يليها).

يتركـها. وعجـز أهل الحل والعقـد الذين عقدوا له لواء الخـلافة أن يصلحـوا من شأن سياسته أو يحلوه ومن آنئذ وأهل الحل والعـقد عجزوا عن حل الإمام ويبقى الأمر هكذا حتى اليوم. وورثت الأمة الإسـلامية ميراث العقد وانتفى عنهـا: الحل.. وبقيت الخلافة بمفهومها العثمانى جلباب الله لاينضو عنها إلا بالموت.

وبعد شهـادة الحسين نشأ جدل دينى سيـاسى حول ذات القضية نفـسها هل تجب الطاعة لولى الأمر أو الثورة عليه والانضمام إلى الحسين؟

وليس بمنكر أن «أهل الطاعة» كـانوا يحسبون مسلكهم هو الصـحيح، ولكن كان ثم من يستنكر موقفهم ولايعترف بالحجج التى يتعللون بها. وكانت الأهواء الحزبية تعبر عن نفسـها بالوسائل البيـانية والمبالغات التـصويرية السهلة التـمييز أكـثر منه عن طريق التضليل وتزييف الوقائع، فعمر بن سعد يراجعه ضميره فى مسلكه بإزاء الحسين. ولهذا ينظر إليه بـنوع من الرقة، بينما نحن نراه شـخصا يـثير السـخط؛ لأنه تجاوز اعتـبارات ضمـيره لا لشىء إلا ليـحتفظ بما وعـد به من ولاية. أما شمـر فلا ضيـر له، ينظر إلى الحسين على أنه مثير للفتنة والاضطراب، لهذا انـقض عليه بغير تردد قاسية قلبه تكشف عن أنه كان مـجرد لفٍّ أو أهلى صـريح وقلبه للإمـام الحسين ملىء بالكـراهية لآل بيت الرسول ﷺ.

٦ - آل البيت والتاريخ المظلوم:

ترجم أبو الفرج الأصـفهانى فى كـتابه (مقـاتل الطالبيين) للشـهداء من ذرية أبى طالب منذ عصر رسول الله ﷺ إلى الوقت الذى شرع فيه يؤلف كتابه سنة ٣١٣هـ وهو كما قال: سواء كان المترجم له قـتيل الحرب أوصريع السم فى السلم، وسواء كان مهلكه فى السجن أو فى مهربه أثناء تواريه من السلطان أو كما يقول:

من احتيل فى قتله منهم بسم سُقيه وكان سبب وفاته، ومن خاف السلطان وهرب منه فمات فى تواريه، ومن ظفر بـه فحبس حتى هلك فى محبسـه على السياق لتواريخ مقاتل من قتل منهم ووفاة من توفى بهذه الأحوال.

فلماذا لايـكون تاريخ آل البيت مظلومـا. فإنه إذا كان مـقتل الحـسين جـريمة. فالمجرم الأكبر فيها يزيد؛ لأنه هو الذى بعث عبـيد الله للقيام بإجراءات قاسية. وكانت النتـيجة مـرضيـة ليزيد واغـتبط لهـا أيما اغتـباط. فـإن كان قـد غضب على خـادمه

(عبيدالله)[1] من بعيد. فما كان ذلك إلا تطبيقا لامتياز الحاكم الأعلى. أعنى أن يحول الكراهية عنه إلى الأدوات التى اصطنعها لنفسه فى جريمته، حقا إن المودة التى أبداها نحو من بقى من آل الحسين ليست مما يعيبه. وإن كانت مودة تنطوى على الدهاء ولم تصدر عن قلب مخلص.

والحاسم فى الحكم على هؤلاء الأشخاص جميعا هو موقف كل منهم تجاه الحسين. فالحسين مركز الدائرة. وكل الاهتمام يدور حواليه. فلم يهمل ذكر شىء يتصل به.

يقول فلهاوزن[2]: والتقاطيع الدقيقة تضفى على صورته العطف الحزين. فهو موضوع الأحاديث العديدة. وهو يعظ غيره ويعظ نفسه. فليس بعيب أن تكون خاتمته هكذا[3]. «آمين! آمين!» معزات ولعنات وأحلام وتنبؤات وعناصر روحانية أخرى - كل هذه تتشابك فى مرأى الرواية عن مأساته. ثم تسبق الرواية المستقبل فتتحدث عن العذاب الأليم الذى سيلقاه قتلة العادل (الحسين) على يد الجبار المنتقم. وفى هذا التصوير يختفى الإحساس بانعدام البطل. وما كان مثله إلا كمثل آنية من الفخار اصطدمت بحديد هو عبيد الله. لقد مضى الحسين كما مضى المسيح فى طريق مرسوم؛ ليضع ملكوت الدنيا تحت الأقدام. ومد يده كالطفل ليأخذ القمر. ادعى أعرض الدعاوى. ولكنه لم يبذل شيئا فى سبيل تحقيق أدناها، بل ترك للآخرين أن يعملوا من أجله كل شىء. وفى الواقع لم يكن أحد يوليه ثقة، إنما قدم القوم رؤوسهم يائسين. ولم يكد يصطدم بأول مقاومة حتى انهار، فأراد الانسحاب ولكن كان ذلك متأخرا فاكتفى بأن راح ينظر إلى أنصاره وهم يموتون فى القتال من آنه. وأبقى على نفسه حتى اللحظة الأخيرة.

ولكن الحسين ليس بالشخصية التى تختفى وكيف وأمام هذه الواقعة دم النبى ﷺ يجرى فى عروقه وأنه من أهل البيت فلم يكن عليه أن يهد نفسه؛ لأن ولاية الأمر فيه بطبعه. وافتقاره إلى الصفات المعنوية تعوض عنه - وتزيد - القداسة الكائنة فى لحمه ودمه. وهذا ما أعطى لشخصه أهميته، ولتاريخه طابع التاريخ الإسلامى المليء بالمبادئ

(١) الطبرى جـ ٢ ص ٤٣٥ وما يليها.
(٢) الطبرى جـ ٢ ص ٣٥٣ س ٤.
(٣) الخوارج والشيعة ص ١٤٠.

والاستشهاد فى سبيلها. فلقد افتتح استشهاده عصرا جديدا لدى الشيعة. بل نظر إلى هذا الاستشهاد على أنه أهم من استشهاد أبيه؛ لأن أباه لم يكن ابن بنت النبى. وإن ثمة من الأحداث ما يسبب آثارا هائلة لا بذاته ولا بانتسابه بل بذكراه فى قلوب الناس.

٧ - سليمان بن صرد يطبق الميثاق:

التباكى والتلاوم والنتائج

وفى سنة خمس وستين تحركت الشيعة بالكوفة، وتلاقوا بالتلاوم والتنادم حين قتل الحسين فلم يغيثوه، ورأوا أنهم قد أخطأوا خطأ كبيرا، بدعاء الحسين إياهم ولم يجيبوه، ولمقتله إلى جانبهم فلم ينصروه، ورأوا أنهم لايغسل عنهم ذلك الجرم إلا قتل من قتله أو القتل فيه، ففزعوا إلى خمسة نفر منهم: سليمان بن صرد الخزاعى، والمسيب بن نجبة الفزارى، وعبد الله بن سعد بن نفيل الأزدى، وعبدالله بن وال التميمى، ورفاعة بن شداد البجلى، فعسكروا بالنخيلة، بعد أن كان لهم مع المختار بن أبى عُبيد الثقفى خطب طويل بتثبيطه الناس عنهم ممن أرادوا الخروج معهم، ففى ذلك يقول عبد الله بن الأحمر يحرض على الخروج والقتال من أبيات[1]:

صحوت وودعت الصبا والغوانيا ... وقلت لأصحابى: أجيبوا المناديا

وقولوا له إذ قام يدعو إلى الهدى ... وقبل الدعا: لبيك لبيك داعيا

فى شعر طويل يحث فيه على الخروج، ويرثى الحسين ومن قتل معه، ويلوم شيعته بتخلفهم عنه، ويذكر أنهم قد تابوا إلى الله (وأنابوا إليه) من الكبائر التى ارتكبوها إذ لم ينصروه، ويقول أيضا فى هذا الشعر:

ألاوانع خير الناس جدا ووالدا ... حسينا لأهل الدين إن كنت ناعيا

ليبك حسينا مرمل ذو خصاصة ... عديم وأيتام تشتكى المواليا

فأضحى حسين للرماح دريئة ... وغودر مسلوبا لدى الطف ثاويا

فياليتنى إذ ذاك كنت شهدته ... فضاربت عند الشانئين الأعاديا

(١) مروج الذهب - المسعودى جـ ٣ ص ٨٥.

سقى الله قبرا ضمن المد والتقى بغربية الطف الغمام الغواديا
فيا أمة تاهت وضلت سفاهة أنيبوا فأرضوا الواحد المتعاليا

ثم ساروا يقدمهم من سمينا من الرؤساء وعبد الله بن الأحمر يقول:

خرن يلمعن بنا أرسالا عوابسا يحملننا أبطالا
نريد أن نلقى بها الأقيالا القاسطين الغدر الضلالا
وقد رفضنا الولد والأموالا والخفرات البيض والحجالا

نرضى بهم ذا النعم المفضالا

٨ - حركة التوابين الشيعية الكوفية والتخطيط السرى:

والكوفيون الذين جروا الحسين إلى الكارثة ثم تركوه وحده يصلاها راح ضميرهم يؤنبهم على ما اقترفت أيديهم. فشعروا بالحاجة إلى إرضاء الرب وبالكفارة عن إثمهم بالتضحية بأنفسهم، فسموا أنفسهم «التوابين» وبدأوا لأول مرة ينظمون أنفسهم. فتكونت بعد مقتل الحسين بقليل منظمة انضم إليها حوالى مائة رجل لم يكن فيهم من هو دون الستين من عمره، كانوا إذن مدفوعين بدافع الضمير الدينى، لا العواطف. وولوا أمرهم سليمان بن صُرد الخزاعى، وكانت له صحبة مع النبى ﷺ[1]، وكان على رأس الشيعة المتحمسين الذين كتبوا إلى الحسين بالقدوم وكان معه رؤساء أربعة آخرون من قبائل: فزارة، والأزد، وبكر، وبجيلة[2]. وكانوا يجتمعون فى كل يوم جمعة فى منزل سليمان ويسمعون منه فى كل مرة نفس الخطبة: «كونوا كالألى من بنى إسرائيل إذ قال لهم نبيهم: ﴿...إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ [البقرة]. فما فعل القوم، جثوا على الركب ومدوا الأعناق ورضوا بالقضاء، حتى حين علموا أنه لا ينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل- فكيف بكم لو قد دعيتم إلى مثل ما دعى القوم إليه، اشحذوا السيوف، واركبوا الأسنة، ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ ... ۝٦٠﴾ [الأنفال] حتى تدعوا وتستنفروا.»[3].

---

(١) ولكن اسمه، سليمان، ينهض دليلا على عكس هذا.
(٢) لم يكن أحد من الرؤساء من اليمانية الحقيقيين (من همدان أو مذحج أو كندة).
(٣) الطبرى ج٢ ص ٥٠٠ - ٥٠١.

٩- التخطيط السرى الشيعى ومبدأ التقية:

وبقيت هذه الحركة سرية حتى وفاة يزيد بن معاوية. فلما توفى انطلقت هنالك وثار أهل الكوفة على عبيد الله ـ وكان يقيم فى البصرة ـ فطردوا نائبه فى الكوفة عمرو ابن حريث المخزومى. وكان زعماء هذا الانتقاض من الأشراف، لا من الشيعة، وعلى رأسهم يزيد بن رويم الشيبانى الذى اكتسب بذلك مكانة بارزة[١].

وفى هذه الفترة الخالية من الحاكم الرسمى ولى أولا عمر بن سعد أميرا على الكوفة، وخلفه قرشى آخر. وكان ابن الزبير قد استطاع أن يوطد لنفسه فى العراق، حتى بايعه أشراف الكوفة خليفة، وإن لم يكونوا بقلوبهم معه (الطبرى ج٢ ص ٥٣١) فأرسل إليهم عبد الله بن يزيد الأنصارى واليا على الكوفة، وذلك فى يوم الجمعة الثانى والعشرين من رمضان سنة ٦٤هـ (الجمعة ١٣ مايو سنة ٦٨٤).

(ولقد كان لهذا التغيير أثره المفيد عند الشيعة،على الرغم من أنهم كانوا يكرهون ابن الزبير الذى استولى على ميراث الحسين). ومن ثم صاروا أكثر جرأة وانتشروا فى أوساط أوسع. وكانت عواطف الجماهير معهم، وإن كان الأشراف لايريدون الاعتراف لهم بشىء[٢]. وكان همهم كله إبعاد المغامرين عن الكوفة وتجنيب أنفسهم- وهم فى مركز المسئولين- كل خطر.

وبرز فى مقدمة «دعاة»[٣] عبيد الله بن عبد الله المرى الذى لم يمل من تكرار مايقوله حتى يوقع اليقين فى نفوس السامعين. «... ابن أول المسلمين إسلاما وابن بنت رسول رب العالمينﷺ: قلة حماته، وكثرة أعدائه له، فقتله عدوه. وخذله وليه. فويل للقاتل، وملامة للخاذل! إن الله لم يجعل لقاتله حجة. ولا لخاذله معذرة- إلا أن يناصح الله فى التوبة فيجاهد القاتلين وينابذ القاسطين، فعسى الله عند ذلك أن يقبل التوبة ويقيل العثرة. إنا ندعوكم إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ والطلب بدماء أهل بيته، وإلى جهاد المُضلين والمارقين. فإن قتلنا فما عند الله خير للأبرار، وإن ظهرنا رددنا إلى أهل بيت نبينا ﷺ»[٤]. فزاد الأنصار عددا حتى بلغوا ١٦٠٠٠ رجل أقسموا على

---

(١) الطبرى ٥٠٩٢.

(٢) الطبرى ٥٣١٢.

(٣) المترجم: (ميراث الخلافة).

(٤) ومن ثم سيصبح «الدعاة» ظاهرة مميزة للشيعة. الخوارج والشيعة ص ١٧٥.

الولاء وإن لم يكونوا أعضاء فى هذا الحزب. كذلك تمت اتصالات بالمكاتبات مع المدائن والبصرة. ولم يهمل القوم أن يجمعوا إلى جانب ذلك - المال والسلاح.

١٠ - الشيعة ترفع شعار الثأر للحسين:

وكانت شعاراتهم هى: الثأر للحسين! لم يكن أمامهم هدف ثابت معين، بل ترددوا فى أى الوسائل أنسب للتضحية بحياتهم. وأقرب هدف أمامهم كان أن يستولوا على الكوفة ويطردوا الأشراف، فهؤلاء تقع على عواتقهم المسئولية الكبرى فى مقتل الحسين بسبب تواطؤهم مع السلطة وطاعتهم لها، ولذا كانوا فى خوف شديد. وكانت غالبية الشيعة من هذا الرأى أى وجوب طرد الأشراف، ولكن سليمان كان على غير هذا الرأى. إذ وجد من الحكمة ألا يجعل ضده هؤلاء الأشراف ذوى النفوذ الكبير. فوجه القوم ضد الأعداء الحقيقيين المباشرين والمستبدين. ضد حكومة بنى أمية وخصوصا ضد عبيد الله بن زياد. الذى ارتحل إلى الشام واستعد هناك (سنة ٦٥هـ) بجيش عظيم من أهل الشام، ليكسب العراق لحكم مروان. وعملت على الوصول إلى هذا القرار حكمة والى الكوفة عبيد الله بن يزيد. كان الأشراف قد ألحوا عليه فى أن يهاجم جميع الشيعة. ولكنه قال: «الله بيننا وبينهم! إن هم قاتلونا قاتلناهم. وإن تركونا لم نطلبهم. . . فليخرجوا ولينتشروا ظاهرين؛ ليسيروا إلى من قاتل الحسين. فقد أقبل إليهم، وأنا لهم على قاتله ظهير. هذا ابن زياد قاتل الحسين وقاتل خياركم وأماثلكم قد توه إليكم. عهد العاهد به على مسيرة ليلة من جسر منبج، فقتاله والاستعداد له أولى وأرشد من أن تجعلوا بأسكم بينكم فيقتل بعضكم بعضا ويسفك بعضكم دماء بعض فيلقاكم ذلك العدو غدا وقد رقفتم، وتلك والله أمنية عدوكم»[1]. فأصبح فى وسع الشيعة آنذاك أن يظهروا ثورتهم علنا على ابن زياد. فقرروا أن يتجمعوا إلى أول ربيع الثانى سنة ٦٥هـ (١٥ نوفمبر سنة ٦٨٤) فى معسكر النخيلة(قرب الكوفة) ودعوا كذلك أنصارهم فى المدائن والبصرة. وهكذا لم يصل الاتفاق بينهم وبين الوالى إلى حد قبوله ما اقترحه من أن يتفقوا معه ومع رؤساء القبائل فى الكوفة على أن يكونوا جبهة واحدة ضد أهل الشام. .

ولم يتجمع من بين الـ ١٦٠٠٠ رجل الذين وعدوا بالذهاب، إلا ٤٠٠٠ فى الموعد المحدد فى النخيلة، ولكن هذا العدد كان كافيا للقتال.

(١) الخوارج والشيعة ص ١٧٧. الطبرى ج٢ ص ٥١٠ - ٥١١.

وكان فيهم عرب من كل القبائل وكثير من القراء. ولكن لم يكن فيهم أحد من الموالى. ومع أنه كان فيهم معدمون فقد كانوا جميعا راكبين ومسلحين جيدا.

١١ - الشيعة وتجدد ذكرى كربلاء:

وفى يوم الجمعة الخامس من ربيع الآخر سنة ٦٥ هـ (السبت[١] ١٩ نوفمبر سنة٦٨٤م) مضوا إلى كربلاء وهناك بقوا يوما وليلة عند قبر الحسين واعترفوا بخطيئتهم وأخذوا العهود على أنفسهم وهم يبكون.

وكان الزحام على القبر أشد منه عند الحجر الأسود فى مكة[٢]. ثم ساروا عبر الفرات فأخذوا على الحصاصة ثم على الأنبار ثم على الصدود (أو صندودة) ثم على القيارة وهبت، وخرجوا من هبت حتى انتهوا إلى قرقيسيا، وبها زفر بن الحارث الكلابى على رأس بنى قيس يعارض حكم الأمويين. فوضع لهم سوقا فتسوقوا منها. ثم أخبرهم بتحركات عبيد الله وكان آنذاك فى الرقة، ونصحهم قائلا: «إنى للقوم (أصحاب عبيد الله والأمويين عامة) عدو وأحب أن يجعل الله عليهم الدائرة، وأنا لكم واد أحب أن يحوطكم الله بالعافية. إن القوم قد فصلوا من الرقة فبادروهم إلى عين الوردة فاجعلوا المدينة فى ظهوركم ويكون الرستاق والماء والمادة فى أيديكم. وما بين مدينتنا ومدينتكم فأنتم له آمنون»[٣] (الطبرى ٢-٥٥٤). ففعلوا كما أشار زفر. (فانتهوا إلى عين الوردة فنزلوا فى غربيها وعسكروا واستراحوا. تحمى ظهورهم المدينة). وأقاموا هناك خمسة أيام قبل أن تهاجمهم فرقتان من فرق جيش الشام الخمس (وبدأت المعركة فى يوم الأربعاء الثانى والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٥هـ (يوم الأربعاء ٤ يناير سنة ٦٨٥) واستمرت حتى يوم الجمعة[٤]. وقاتل الشيعة قتال الأسود، ولكن رمى

---

(١) يبدأ من مساء اليوم السابق.

(٢) تقديس الشهداء إذن يرجع إلى أصل عربى لا فارسى.

(٣) إن الطريق البرى من الشام إلى العراق يمر بمنبج أو الرقة ويجتاز نهر الفرات ثم يمر برأس عين (عين الوردة) حتى يصل إلى الدجلة (الطبرى ج ٢ ص ٥٥٤ س ٥، ص ٣٨٧ س ١٦) أما الطريق المائى فيمتد من الأنبار ويمر بنهر ملكة إلى المدائن.

(٤) فى الطبرى ج ٢ ص ٥٧٦ ص ٢ أن المعركة وقعت فى ربيع الآخر، ويؤيد هذا كلام المختار (ص٥٧٩ س٧) بهذا تطول المعركة إلى أكثر من عشرة أيام ولكن أقل من شهر، إلى أن قضى نهائيا على سليمان. ولكن التواريخ الدقيقة التى يقدمها أبو مخنف تستحق الترجيح لأن الشيعة احتفظوا جيدا بتواريخ أيام شهدائهم. الخوارج والشيعة ص ١٧٦.

النبال قضى عليهم) فلم ينج منهم إلا قليل أنبهم ضميرهم؛ لأنهم لم يبلغوا هدفهم. ولم يطاردهم فى انسحابهم أحد. والتقوا فى الطريق بإخوانهم من أهل البصرة والمدائن الذين لم يصلوا إلى الميدان فى الوقت المناسب فقرروا العودة إذ كان الأوان قد فات. فبكى الجميع ومضوا بعد ذلك فى طريقهم.

١٢ - الشعور بالذنب والخطيئة فى حق الحسين:

وكان الشعور بالخطيئة ـ أكثر من واجب الانتقام ـ هو الذى دفع هؤلاء الشيعة إلى القتال والموت. ولو كانوا قد بذلوا للحسين وهو حى نصف مابذلوا وهو ميت فلعل مجرى الأمور أن يكون قد تغير). وراوى أخبار «التوابين» هو أبو مخنف، وينقل خصوصا عن حُميد بن مسلم الأزدى الذى كان قد اشترك فى قتل الحسين ثم عاد فأصبح من أشد أنصاره حماسة. والشاهد الشاعر لدى أبى مخنف هو أعشى همدان (الطبرى جـ٢ ص٥٧٢ ومايليها). وتشغل الخطب مساحة واسعة. وليست مصنوعة بل منقولة تناقلها الرواة. وفى موضع من المواضع يذكر أن استهلال إحدى خطب سليمان قد نسبه الراوى. وفى مرتين يذكر أن الراوى سمع خطبة الداعى الشيعى عدة مرات حتى حفظها عن ظهر قلب. ونص إحدى الروايات منقول عن ذاكرة الراوى. قرأ الأصل فى أيام خلافة سليمان وسرعان ما استظهره[١].

١٣ - الشيعة الغالية والمختار الثقفى (٦٧هـ-٦٢٢-٦٨٧م)

ظهر فى تلك الأوقات رجل أراد أن ينتفع من وراء هذه الفتن ويجعل لنفسه مركزا فى البلاد العراقية، مستعينا بما تضمره قلوب أهل الكوفة من التشيع لأهل البيت، وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى. فذهب إلى الكوفة لابسا ثوب التشيع ناعيا على من قتل الحسين بن علي وداعيا إلى الإمام المهدى وهو محمد بن على الذى صار بعد أخويه أكبر أبناء علي ـ رضى الله عنه ـ، وتوسل إلى غايته بكل ما يمكن من عبارات التأثير حقا كانت أم كذبا، وكان عقلاء أهل الكوفة يسمونه الكذاب لكثرة ما كان يصدر عنه من الأكاذيب التى تؤثر عادة فى أنفس الغوغاء. وقد أمكنه أن يجتذب إلى نفسه رؤساء الشيعة فى الكوفة، وأرسل إلى محمد بن على وهو مضطهد محبوس بمكة جندا يخلصونه من شدته فنجحوا. واجتمع فى حج هذه السنة بمكة أربعة ألوية: لواء لابن

(١) الخوارج والشيعة فلهاوزن.

الزبير، ولواء لبنى أمية، ولواء للخوارج، ولواء لأصحاب محمد بن على، إلا أن الله حفظ الحاج فلم يقع قتال بين هذه الجنود المختلفة الأهواء التى يكره بعضها بعضا[1].

المختار بن أبى عبيد بن مسعود الثقفى، أبو إسحاق: من زعماء الثائرين على بنى أمية، وأحد الشجعان الأفذاذ من أهل الطائف. انتقل منها إلى المدينة مع أبيه فى زمن عمر. وتوجه أبوه إلى العراق فاستشهد يوم الجسر، وبقى المختار فى المدينة منقطعا إلى بنى هاشم. وتزوج عبد الله بن عمر بن الخطاب أخته «صفية بنت أبى عبيد» ثم كان مع علي بالعراق، وسكن البصرة بعد علي. ولما قتل «الحسين» سنة ٦١هـ، انحرف المختار عن عبيد الله بن زياد (أمير البصرة) فقبض عليه ابن زياد وجلده وحبسه، ونفاه بشفاعة ابن عمر إلى الطائف. ولما مات يزيد بن معاوية (سنة ٦٤) وقام عبد الله بن الزبير فى المدينة بطلب الخلافة، ذهب إليه المختار، وعاهده، وشهد معه بداية حرب الحصين بن نمير، ثم استأذنه فى التوجه إلى الكوفة ليدعو الناس إلى طاعته، فوثق به، وأرسله، ووصى عليه، غير أنه كان أكبر همه منذ دخل الكوفة أن يقتل من قاتلوا «الحسين» وقتلوه، فدعا إلى إمامة «محمد ابن الحنفية» وقال: إنه استخلفه، فبايعه زهاء سبعة عشر ألف رجل سرا، فخرج بهم على والى الكوفة عبد الله بن مطيع، فغلب عليها، واستولى على الموصل، وعظم شأنه. وتتبع قتلة الحسين، فقتل منهم شمر بن ذى الجوشن الذى باشر قتل الحسين، وخولى بن يزيد الذى سار برأسه إلى الكوفة، وعمر بن سعد بن أبى وقاص أمير الجيش الذى حاربه. وأرسل إبراهيم بن الأشتر فى عسكر كثيف إلى عبيد الله بن زياد، الذى جهز الجيش لحرب الحسين، فقتل ابن زياد، وقتل كثيرين ممن كان لهم ضلع فى تلك الجريمة. وكان يرسل بعض المال إلى صهره ابن عمر وإلى ابن عباس وإلى ابن الحنفية، فيقبلونه. وشاعت فى الناس أخبار عنه بأنه ادعى النبوة ونزول الوحى عليه، وأنه كان لايوقف له على مذهب، ونقلوا عنه أسجاعا، قيل: كان يزعم أنها من الإلهام، منها: «أما والذى شرع الأديان، وحبب الإيمان، وكره العصيان، لأقتلن أزد عمان، وحل قيس عيلان، وتميما أولياء الشيطان، حاشا النجيب ابن ظبيان!» وقد يكون هذا من اختراع أصحاب القصص، وقد نقله الثعالبى. وعلم المختار بأن عبد الله بن الزبير اشتد على ابن الحنفية وابن عباس لامتناعهما عن بيعته (فى المدينة) وأنه حصرهما ومن كان معهما فى «الشعب» بمكة، فأرسل المختار عسكرا هاجم

(١) الفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى، ص٥٠، محمد إبراهيم الفيومى.

مكة وأخرجهما من الشعب، فانصرفا إلى الطائف، وحمد الناس له عمله. ورويت عنه أبيات قالها فى ذلك، أولها:

تسربلت من همدان درعا حصينة   ترد العوالى بالأنوف الرواغم

وعمل مصعب بن الزبير، وهو أمير البصرة بالنيابة عن أخيه عبد الله، على حصد شوكة المختار، فقاتله، ونشبت وقائع انتهت بحصر المختار فى قصر الكوفة، وقتله ومن كان معه. ومدة إمارته ستة عشر شهرا. وفى «الإصابة» وهو من غريب المصادفات: أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى عبيد الله بن زياد وقد جيء إليه برأس الحسين، ثم رأى المختار وقد جيء برأس عبيد الله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقد أتى برأس المختار، ثم رأى عبد الملك بن مروان وقد حمل إليه رأس مصعب. ومما كتب فى سيرته «أخبار المختار- ط» ويسمى «آخذ الثار» لأبى مخنف لوط بن يحيى الأزدى. وسمى صاحب كتاب «الغدير» واحدا وعشرين مصنفا فى أخباره[1].

١٤ - الصراع على زعامة الشيعة بين سليمان بن صُرد والمختار الثقفى

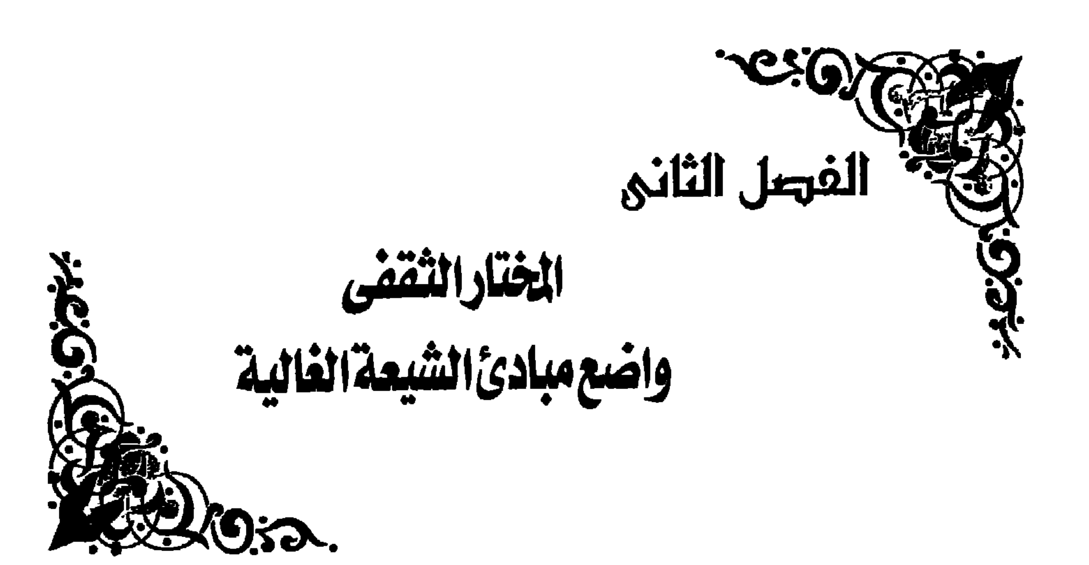
كان اندحار سليمان بن صُرد وجماعته فى عين الوردة نقطة تحول حاسم فى التاريخ الداخلى للشيعة. وبدأ ظهور المنحنى البيانى الحقيقى لظهور أفكار الشيعة الغالية وذلك حين لم يجد عونا ونصيرا من القيادات العربية بعد أن خطب ودعا فلم يجد فيها غير النكران والتقليل من شأنه فوجد نصرته من الموالى ومن آنئذ وحركات التغيير الاجتماعية والسياسية وتيارات المذاهب لم يقف تياراتها. والفضل فى هذا التحول إنما يرجع إلى المختار بن أبى عبيد، وهو ثقفى كالمغيرة وزياد وعبيد الله والحجاج. ولا يقل عن هؤلاء شأنا. وإن كان من طبيعة أخرى مخالفة لطبائعهم تمام المخالفة[2]. كان من أسرة كريمة. وقاد أبوه المعركة ضد الفرس عند البويب (النخيلة) وقتل فى هذه المعركة

---

(١) الإصابة: ت ٨٥٤٧ والفرق بين الفرق ٣١-٣٧ وابن الأثير ٤: ٨٢-١٠٨. والطبرى ٧:١٤٦ والحور العين ١٨٢ وثمار القلوب ٧٠ وفرق الشيعة ٢٣٣٣ والمرزبانى ٤٠٨ والأخبار الطوال ٢٨٢-٣٣٠٠ والذريعة ١ :٣٤٨و٣٤٩ وانظر منتخبات فى أخبار اليمن ٣٢و«الفاطميون فى مصر، ٣٤-٣٨ وفيه بحث عن علاقة المختار بالكبانية. وفى التاج ٤ :٢٣٣٨ والقاموس: كيسان.

(٢) كتب عنه فان خلدرvan Gelder رسالة مفصلة قيمة جدا، طبعت فى ليدن سنة ١٨٨٨ عند برل Brill. تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية - فلهاوزن السيادة العربية - فان فلوتن، الخوارج والشيعة فلهاوزن.

البائسة. وتزوج أخته عبد الله بن عمر بن الخطاب ذو المكانة البارزة المرموقة. كما تزوج بنت النعمـان بن بشير الأنصارى ذى المكانة الرفـيعة كذلك. وكـان له فى الكوفة بيت. وكان له بالقرب منها ضيـعة. (أما ماضيه فيحيط به الغـموض، ولم يظهر على المسرح العام إلا بعد أن بلغ الستين من عمره فكان شيعيا غيورا. قدم من ضيعته فى خطرنيه مع مواليه إلى الكوفة لما أن اضطرب الأمر بوفاة مـعاوية (وآوى مسلم بن عقيل واشترك فى حركته التى كـانت قبل أواتها. وخلص من يد عبيد الله بعد مـشورة بعد أن تشفع لديه فيه بعض الأصدقاء الأخيار، ولكنه نفى خارج الكوفة.



الفصل الثانى

المختار الثقفى واضع مبادئ الشيعة الغالية

١ - المختار الثقفى زعيما لشيعة الكوفة غير مرغوب فيه:

المختار وابن الزبير:

بعدما أبرم معاوية بن يزيد الوصية لمن يخلفه حين حضرته الوفاة زال الأمر عن آل حرب فلم يكن فيهم من يرومها، ولا يتشوف نحوها، ولا يرتجى أحد منهم لها.

وبايع أهل العراق عبد الله بن الزبير، فاستعمل على الكوفة عبد الله بن مطيع العدوى.

فقال المختار بن أبى عبيد الثقفى لابن الزبير: إنى لأعرف قوما لو أن لهم رجلا له رفق وعلم بما يأتى لاستخرج لك منهم ندا تغلب بهم أهل الشام، فقال: من هم قال: شيعة بنى هاشم بالكوفة، قال: كن أنت ذلك الرجل، فتوجه إلى الكوفة، ثم نزل ناحية منها، وجعل يظهر البكاء على الطالبيين وشيعتهم، ويظهر الحنين لهم، ويحث على أخذ الثأر لهم، والمطالبة بدمائهم، فمالت الشيعة إليه، وانضافوا إلى جملته، وسار إلى قصر الإمارة فأخرج ابن مطيع منه، وغلب على الكوفة، وابتنى لنفسه دارا، واتخذ بستانا أنفق عليه أموالا عظيمة أخرجها من بيت المال، وفرق الأموال على الناس بها تفرقة واسعة.

وكتب إلى ابن الزبير (يعلمه أنه إنما أخرج ابن مطيع عن الكوفة لعجزه عن القيام بها، ويساوم ابن الزبير أن يحسب له بما أنفقه من بيت المال، فأبى ابن الزبير ذلك عليه، فخلع المختار طاعته، وجحد بيعته.

٢ - حوار المختار مع ابن الزبير:

(فذهب إلى الحجاز) وفى الطريق لقى ابن العرق فذكر له كيف أن عبيد الله ضربه على عينيه وقال: «قتلنى الله إن لم أقطع أنامله وأباجله وأعضاءه إربا إربا. . . يا ابن العرق! إن الفتنة قد أرعدت وأبرقت وكأن قد انبعثت فوطئت فى خطامها، فإذا رأيت ذلك وسمعت به بمكان قد ظهرت فيه فقل: إن المختار فى عصائبه من المسلمين يطلب بدم المظلوم الشهيد المقتول بالطف سيد المسلمين وابن سيدها، الحسين بن على، فوربك لأقتلن بقتله عدة القتلى التى قتلت على دم يحيى بن زكريا. قال (أى ابن العرق): فقلت له (أى للمختار): سبحان الله! وهذه أعجوبة مع الأحدوثة الأولى. فقال (المختار): هو ما أقول لك فاحفظه عنى حتى ترى مصداقها. ثم حرك راحلته فمضى»[1]. ثم سأله عن ابن الزبير فعلم أن هذا الأخير لم يظهر الثورة علنا بعد ولكنه سيفعل ذلك قطعا حينما يشعر بأن لديه قوة كافية. (فمضى إلى ابن الزبير وطلب منه أن يطلب مبايعته علنا وعرض عليه المساعدة). ولكنه قال ذلك علنا حتى أن ابن الزبير تركه يذهب؛ إذ غضب أن يكلمه فى المسجد بصوت عال فيذيع السر. «فهذا الكلام لاينبغى أن يكون إلا والستور دونه مرخاة والأبواب دونه مغلقة»[2]. فخرج المختار من المسجد وظل لايرى حولا فى مكة[3] (إلى أن ظهر من جديد فجأة فى مكة ودخل المسجد وتبدى فى مظهر الرجل الخطير. هنالك أحسن ابن الزبير معاملته. وفى مستهل سنة ٦٤ قاتل فى صفوف خوارج اليمامة ضد أهل الشام قتال الشجعان).

ولكنه لم يجد فى مكة ما قدر له. وبعد طرد عبيد الله من العراق اتجهت أنظار المختار إلى الكوفة. وكان لايقدم عليه أحد من أهل الكوفة إلا سأله عن حال الناس وهيئتهم. فأخبر أن الناس فى الكوفة فى «صلات واتساق على طاعة ابن الزبير. إلا أن طائفة من الناس إليهم عدد أهل مصر لو كان لهم رجل يجمعهم على رأيهم أكل بهم الأرض إلى يوم ما. فقال المختار: أنا أبو إسحاق. أنا والله لهم. أنا أجمعهم على مر الحق وأنفى بهم ركبان الباطل وأقتل بهم كل جبار عنيد»[4]. ولم ينقد لتحذير من حذره

---

(١) الطبرى ج ٢ ص ٥٢٤.

(٢) الطبرى ج٢ ص ٥٢٧ س ١١ - ١٢.

(٣) تمثل بصورة الغريب فى مدينة الطائف، وهى بلده الأصلى (الطبرى جـ٢ ص٥٢٦س٨) ويفترض فان خلدر (ص٢٩) أنه كان آنذاك على اتصال بابن الحنفية فى المدينة.

(٤) الطبرى ج ٢ ص ٥٣١.

من قيام حرب أهلية بين الناس ومن عذاب يوم القيامة. بل كان موقنا بالنصر تمام اليقين.

(فبعد وفاة يزيد بن معاوية بخمسة أشهر وبضعة أيام خرج فى الطريق إلى الكوفة) حتى انتهى إلى بحر الحيرة فنزل فاغتسل فيه وادهن دهنا يسيرا ولبس ثيابه واعتم وتقلد سيفه. ثم ركب راحلة فمر بمسجد السكون ببنى كندة، لا يمر بمجلس إلا سلم على أهله وقال: «أبشروا بالنصر والفرج. أتاكم ما تحبون»[1] (وظل يسير فى شوارع الكوفة وفى المسجد وهو يقول نفس الكلام: أبشروا بالنصر واليسر والفرج، وكان بصحبة اثنين من بنى كندة) وكان الوقت وقت صلاة الجمعة فى يوم الجمعة ١٥ رمضان سنة ٦٤هـ (٦مايو سنة ٦٨٤)، فصلى مع الناس ثم ركن إلى سارية مدة طويلة وصلى مابين الجمعة والعصر، فلما صلى العصر مع الناس انصرف.

٣- نهاية زعيم حركة التوابين:

كان ينوى أن يتزعم الشيعة، ولكنه لم يستطع أن ينال هذه الزعامة من سليمان ابن صرد (على الرغم مما صادفه من بعض النجاح. ولكنه تخلص من سليمان بما وقع لهذا الأخير فى حملته المشئومة ضد أهل الشام. هنالك استطاع أن يرث زعامته وهو مرتاح الضمير؛ لأنه طالما حذر من القيام بتلك المغامرة وتنبأ بالمصير السيئ الذى آلت إليه، وراح فى خطبه يعلن مقدما هذا الإخفاق. فأخذ يمسك بزمام الأمر بيد قوية وأراد أولا أن يبدأ بامتلاك ناصية الكوفة فوجه الشيعة فى هذا الاتجاه. هنالك شعر الأشراف بأن ثمة خطرا يتهددهم فلفتوا نظر الوالى، عبيد الله بن يزيد، إلى حركات هذا الرجل الخطير. فأودع السجن). وكان ذلك قبل معركة عين الوردة (ومن سجنه كتب إلى أولئك الذين نجوا من الهزيمة يقول: لم يكن سليمان الزعيم الحق، بل أنا، أنا، أنا! وأرادوا إنقاذه من السجن)، فقال لهم.. لاداعى لذلك لأنه سيخرج منه قريبا. والواقع أنه أطلق سراحه بشفاعة صهره عبد الله بن عمر، ولكن بعد أن أخذ على نفسه ميثاقا غليظا وذلك بأن حلفه عبد الله بن يزيد وإبراهيم بن محمد بن طلحة، «ألا يبغيهما غائلة ولا يخرج عليهما ما كان لهما سلطان، فإن هو فعل فعليه ألف بدنة ينحرها لدى رتاج الكعبة ومماليكه كلهم: ذكرهم وأنثاهم أحرار. فحلف لهما بذلك ثم خرج فجاء

---

(١) الطبرى ج٢ ص ٥٣٢.

داره فنزلها»[1]. ولكنه راح يسخر من هذا الحلف قائلا: إنه يفضل أن يدفع هذه الكفارة وأن يضحى بكل مـايملك على أن يتخلى عن طلب السلطان. على أنه لم يحـتج حتى إلى الحنث فى يمينه؛ إذ قـدم الكوفة فى يوم الخميس ٢٤ رمضـان سنة ٦٥هـ (١٤مايو سنة ٦٨٥م) وال جديد لم يكن قد حلف له، هو عبـد الله بن مطيع القرشى وكان أشد أنصار ابن الزبير حماسة[2].

وكان على هذا الأخير أن يشد العنان فى الكوفة أكثر مما فعل سلفه اللين. فانتهز أول فرصة ليعرض من فوق المنبر برنامجه السـياسى. فقال: «أما بعد! فإن أمير المؤمنين عبد الله بن الزبـير بعثنى على مصركم وثغـوركم. وأمرنى بجباية فـيئكم وأن لا أحمل فضل فيئكم عنكم إلا برضى منكم بوصيـة عمر بن الخطاب التى أوصى بها عند وفاته. وبسيرة عثمان بن عفان التى سار بها فى المسلمـين. فاتقوا الله واستقيموا ولا تختلفوا. وخذوا على أيدى سفهائكم. وإلا تفعلوا فلـوموا أنفسكم ولا تلومونى. فوالله لأوقعن بالسقيم العاصى. ولأقيـمن درأ الأصعر المرتاب» (الطبرى جـ ٢ ص٦٠٣). ولكنه بهذا إنما مس قرحا فيهم؛ لأن أهل الكوفة جميعا لم يرضوا أن يؤخذ فضل الفىء. بل طالبوا بالإبقاء عليه فى الكوفة وتوزيعه. عملا بما فـعله علي؛ وكانت الكوفة فى عهده عاصمة الخلافة ومركز بيت المال المركزى. لا كما فعل عمر بن الخطاب أو كما فعل عثمان على الأقل. هنالك اعترض عليه أحد الشيعة فى المسجد. واستغل هذا الشيعى الفرصة ليذكر الناس بعظمة الكوفة فى عهد علي. فأسقط فى يد الوالى وقال: «نسير فيكم بكل سيرة أحببتموها وهويتموها. ثم نزل»[3]. وجاء إياس بن مضارب ـ وكان على رأس الشرطة وعليمـا بأحوال الناس- إلى ابن مطيع ونبهه إلى خطورة هذا الحـادث وقال له: إن هذا الذى اعـترض عليك«من رءوس أصـحاب المختـار، ولست آمن المختـار. فابعث إليـه فليأتك. فإذا جـاءك فاحبسـه فى سجنك حتى يستـقيم أمر الناس فإن عيـونى قد أتتنى فخـبرتنى أن أمره قد استـجمع له وكأنه قـد وثب بالمصر» (الموضع نفسـه). ولكن أحد الرسوليـن اللذين بعث بهمـا ابن مطيع ـ وكان من أهل بلده ـ أومـأ إليه بما سيـلقاه فى مقـابلته للوالى، ففهـم واعتذر عن الذهاب بوعكة أصـابته. وراح يستعـد للخروج فى مستهل العام الجديد. عام ٦٦هـ. ولكن الأمور لم تمض بهذه السرعة التى قدرها[4].

(١) الطبرى ج٢ ص ٦٠٠.
(٢) الأغانى ج١٣ ص ١٦٨ وما يليها.
(٣) الطبرى ج ٢ ص ٦٠٤.
(٤) الخوارج والشيعة ص ٢٠١.

٤ - المختار يكتب إلى علي زين العابدين:

وكتب المختار كتابا إلى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له، ويقول بإمامته، ويظهر دعوته، وأنفذ إليه مالا كثيرا، فأبى علي أن يقبل ذلك منه أو يجيبه عن كتابه، وسبه على رءوس الملأ فى مسجد النبى ﷺ، وأظهر كذبه وملقه، ودخوله على الناس بإظهار الميل إلى آل أبى طالب.

٥ - المختار ومحمد ابن الحنفية:

وكان يعيش فى المدينة أحد أبناء علي بن أبى طالب. واسمه محمد، وأمه ليست فاطمة بنت الرسول ﷺ، بل من بنى حنيفة[١]. ولهذا سمى محمد ابن الحنفية- قام المختار يدعو باسم محمد ابن الحنفية. ويسميه «المهدى».

فلما يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمه محمد ابن الحنفية يريده على مثل ذلك، فأشار عليه علي بن الحسين أن لايجيبه إلى شىء من ذلك، فإن الذى يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم، وتقربه إليهم بمحبتهم، وباطنه مخالف لظاهره فى الميل إليهم، والتولى لهم، والبراءة من أعدائهم، بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم، والواجب عليه أن يشهر أمره، ويظهر كذبه، على حسب مافعل هو وأظهر (ما) من القول فى مسجد رسول الله ﷺ، فأتى ابن الحنفية ابن عباس فأخبره بذلك، فقال له ابن عباس: لاتفعل، فإنك لاتدرى ما أنت عليه من ابن الزبير، فأطاع ابن عباس وسكت عن عيب المختار.

وادعى المختار أنه «أمينه» و«وزيره». فشك نفر من الشيعة فى صحة هذه الدعوى، فراحوا إلى المدينة ليتبينوا جلية الأمر من محمد ابن الحنفية. فقال لهم هذا: «وأما ماذكرتم من دعاء من دعاكم إلى الطلب بدمائنا فوالله لوددت أن الله انتصر لنا من عدونا بمن شاء من خلقه»[٢]. بيد أن هذه الإجابة العامة المجملة كفت أولئك السريعى التصديق والإيمان. فعادوا بعد شهر وأخبروا المختار بجواب ابن الحنفية. فشعر المختار بأنه استراح من هم ثقيل. ودعا فى الحال إلى اجتماع للشيعة صال فيه وجال وسخر من المرتابين.

---

(١) مروج الذهب: للمسعودى، الجزء الثالث: ذكر معاوية بن يزيد بن معاوية، ومروان بن الحكم ٨٥.
(٢) الطبرى ٦٠٧٢.

ولكن كان عليه أن يكسب رجلا آخر فى الكوفة نفسها، لايستطيع من دونه أن يلقى رؤساء الشيعة نجاحا ضد الأشراف والوالى. هذا الرجل هو إبراهيم بن الأشتر زعيم قبيلة النخع من مذحج. وكان بارعا ماكرا مستقل الرأى. وكان كأبيه مخلصا لعلي. وكان على اتصال بابن الحنفية. ولكنه لم يكن يؤمن بالتشيع على الصورة التى استحال إليها فى ذلك العهد. لم يشأ الانضمام إلى سليمان بن صُرد كما لم يرغب فى أن يعرف شيئا عن المختار. ولم تفلح المحاولات فى اكتسابه. وأخيرا وصله كتاب يطلب فيه ابن الحنفية نفسه منه أن يعترف بالمختار بن أبى عبيد. ولكنه تضايق من كون ابن الحنفية يلقب نفسه فى هذا الكتاب بقلب «المهدى» وهو أمر لم يعهد منه، فحاك فى صدره الشك فى صحته. ولكن الذين قدموا بالكتاب، والمختار نفسه أكدوا صحة الكتاب، إلا اثنين لفتا نظره بتحفظهم، وهما: عامر بن شراحيل الشعبى الراوى الفقيه المحدث الكبير. وأبوه شراحيل. فانتحى بعامر ناحية وسأله هل يشك فى أمانة هؤلاء الشهود على صحة الكتاب؟ فقال عامر الشعبى: معاذ الله فإنهم «سادة القراء ومشيخة المصر وفرسان العرب ولا أرى مثل هؤلاء يقولون إلا حقا!»[1]. فسأله ابن الأشتر أن يكتب له أسماءهم وكتب محضرا صوريا بما وقع. فلما اطمأن قلبه بهذا امتثل لما ورد فى الكتاب ووضع نفسه فى خدمة المختار بن أبى عبيد[2].

ومنذ هذه اللحظة صار يحضر الاجتماعات التى كانت تعقد للتشاور فى المساء فى بيت المختار بانتظام.

كان المختار قد نظم أتباعه، ونزل فى ظهر دير هند مما يلى بستان زائدة فى السبخة. وهناك أقام صلاة الصبح معهم، وما كان ثَمَّ إمام يحسن الوعظ مثله. وكان فى جيشه كثير من الموالى وكانوا له مخلصين! كل الإخلاص.

وحشد الوالى أيضا رجاله خلال الليل. وكان القائد فى منطقة السبخة شبث بن ربعى المتقلب زعيم حرب الردة ومعه يزيد بن رويم، هزم فصيلة صغيرة أرسلت لمهاجمته. ثم تقدم ناحية المختار. ولكن جيشه تراجع فى البدء أمام العدو. فصاح فيهم شبث بن ربعى: «ياحماة السوء! بئس فرسان الحقائق أنتم! أمن عبيدكم تهربون!»[3].

---

(١) الطبرى ٦١٢٢.

(٢) كذا يروى عامر الشعبى (نسبة إلى قبيلة شعبان، بطن من همدان) فيما ينقله أبو مخنف نفسه.

(٣) الطبرى ج١و٢ ص ٦٢٣٣.

وكان لهذا الكلام أثره فقد هز فيـهم وتر الشرف وأثار فيهم الحفيظة على الموالى، الذين كانوا يحاربون فى صفوف المختار.

هنالك فر الأشراف والوالى - ابن مطيـع - إلى القصر فحوصروا فـيه. وبعد هذا النصر زاد عـدد الشيعـة زيادة كبيـرة. وبعد ثلاثة أيام تسلل ابن مطيع من القـصر هاربا واستتر، أما الأشـراف فأذعنوا وبايعوا المختار. وفى صباح اليوم التالى جاء المختار من القصر بعد أن بات فيه، فتلقى البيعة من الأشراف وغيرهم، وهو يقول: «تبايعونى على كتاب الله وسنة نبيه والطلب بدماء أهل البيت وجهاد المحلين والدفع عن الضعفاء وقتال من قاتلنا وسلم من سالمنا والدفاع ببيعتنا، لانقيلكم ولا نستقيلكم»[1].

٦ - ابن الزبير يعادى بنى هاشم:

إن مما أضعف حركة ابن الزبيـر وشد من حركة المختار الثقـفى، معاداة ابن الزبير لبنى هاشم وإضرام النار عليهم ثم تعقب محمد ابن الحنفية وحبس ابنه الحسن بن محمد ابن الحنفية مع شحه وبخله عن مواليه وجنده. قال المسعودى:

وأظهر ابن الزبير الزهد فـى الدنيا والعبادة مع الحرص على الخـلافة، وقال: إنما بطنى شبر، فمـا عسى أن يسع ذلك من الدنيا، وأنا العائذ بالبيت، والمسـتجير بالرب، وكثرت أذيتـه لبنى هاشم مع شحه بالدنيا على سائر الناس، فـفى ذلك يقول أبو وجزة مولى الزبير:

إن الموالى أمست وهى عاتبـة ... على الخليفة تشكو الجوع والحربا

ماذا علينـا ومـاذا كان يـرزؤنا ... أى الملـوك على ما حولنـا غلبـا

٧ - ابن الزبير وآل بيت الرسول ﷺ:

وحدث النوفلى علي بن سليمان، عن فـضيل بن عبد الوهاب الكوفى، عن أبى عمران الرازى، عن فطر بن خليفة، عن الديال بن حرملة، قال: كنت فيمن استنفره أبو عبد الله الجدلى مـن (أهل) الكوفة من قبل المختار، فنفرنا مـعه فى أربعة آلاف فارس، فقال أبو عبد الله: هذه خيل عظيمة، وأخـاف أن يبلغ ابن الزبير الخبر فيحمل على بنى هاشم، فيأتى عليـهم، فانتدبوا معى، فانتـدبنا (معه) فى ثمانمائة فارس، فمـا شعر ابن

(١) الطبرى ج ٢ ص ٦٣٣.

الزبير إلا والرايات تخفق على رأسه، قال: فجئنا إلى بنى هاشم، فإذا هم فى الشعب، فاستخرجناهم، فقال لنا ابن الحنفية: لاتقاتلوا إلا من قاتلكم، فلما رأى ابن الزبير تحملنا له وإقدامنا عليه لاذ بأستار الكعبة، وقال: أنا عائذ بالله.

وحدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار، عن ابن عائشة، عن أبيه، عن حماد بن سلمة، قال: كان عروة بن الزبير يعذر أخاه إذا جرى ذكر بنى هاشم وحصره إياهم فى الشعب وجمعه(لهم) الحطب لتحريقهم، ويقول: إنما أراد بذلك إرهابهم (ليدخلوا فى طاعته) إذ هم أبو البيعة فيما سلف، وهذا خبر لايحتمل ذكره هنا، وقد أتينا على ذكره فى كتابنا مناقب أهل البيت وأخبارهم المترجم بكتاب «حدائق الأذهان».

٨ - ابن الزبير يضطهد ابن الحنفية:

وخطب ابن الزبير فقال: قد بايعنى الناس، ولم يتخلف (عن بيعتى) إلا هذا الغلام محمد ابن الحنفية، والموعد بينى وبينه أن تغرب الشمس، ثم أضرم داره عليه نارا، فدخل ابن العباس على ابن الحنفية فقال: يا ابن عم، إنى لا آمنه عليك فبايعه، فقال: سيمنعه عنى حجاب قوى، فجعل ابن عباس ينظر إلى الشمس، ويفكر فى كلام ابن الحنفية، وقد كادت الشمس أن تغرب، فوفاهم أبو عبد الله الجدلى فيما ذكرنا من الخيل، وقالوا لابن الحنفية: ائذن لنا فيه، فأبى، وخرج إلى أيلة فأقام بها سنين، ثم قتل ابن الزبير، كذلك حدث عمر بن شبة النميرى.

٩ - ابن الزبير يحبس الحسن بن محمد ابن الحنفية:

وحبس عبد الله بن الزبير الحسن بن محمد ابن الحنفية فى الحبس المعروف بحبس عارم، وهو حبس مُوحش مُظلم، وأراد قتله، فعمل الحيلة حتى تخلص من السجن، وتعسف الطريق على الجبال حتى أتى منى وبها أبوه محمد ابن الحنفية ففى ذلك يقول كثير:

تخبر من لاقيت أنك عائذ ... بل العائذ المظلوم فى سجن عارم

ومن ير هذا الشيخ بالخيف من منى ... من الناس يعلم أنه غير ظالم

سمى نبى الله وابن وصيه ... وفكاك أغلال وفاضى مغارم

وقد كـان ابن الزبير عـمد إلى من بمكة من بنى هاشم فـحصرهـم فى الشعب، وجمع لهم حـطبا عظيمـا لو وقعت فـيه شرارة من نار لم يسلـم من الموت أحد. وفى القوم محمد ابن الحنفية.

وحدث النوفلى فى كتابه فى الأخبار عن الوليد بن هشام المخزومى، قال: خطب ابن الزبير فنال من علي، فبلغ ذلك ابنه محمد ابن الحنفـية (فجاء) حتى وضع له كرسيا قدامه، فعلاه، وقال: يامعشـر قريش، شاهت الوجوه! أينتقص علي وأنتم حضور، إن عليا كان سهمـا صادقا أحد مرامى الله على أعدائه يقتلهم لكفـرهم ويهوعهم مآكلهم، فنقل عليهم، فـرموه بقرفـة الأباطيل، وإنا معشـر له على ثبج من أمره بنو النخـبة من الأنصار، فـإن تكن لنا في الأيام دولة ننثـر عظامهم ونحـسر عن أجـسادهم، والأبدان يومئذ بالية، ﴿...وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء]، فعاد ابن الزبير إلى خطبته، وقال: عذرت بنى الفواطم يتكلمـون، فما بال ابن الحنفية، فقال محمـد: يا ابن أم رومان، ومالى لا أتكلم، أليـست فاطمة بنت محـمد حليلة أبى وأم إخوتى، أو ليست فـاطمة بنت أسد بن هاشم جدتى، أو ليست فاطمـة بنت عمرو بن عائـذ جدة أبى، أما والـله لولا خديجـة بنت خويلد مـاتركت فى بنى أسد عظـما إلا هشمته، وإن نالتنى فيه المصائب صبرت.

حمق ابن الزبير:

ولما هلك يزيد بن معـاوية ووليها مـعاوية بن يزيد نمى ذلك إلى الحصـين بن نمير ومن معـه فى الجيش من أهل الشام، وهو على حـرب ابن الزبير، فهـادنوا ابن الزبير، ونزلوا مكة، فلقى الحـصين عبـد الله فى المسجـد، فقال له: هل لك يـا ابن الزبير أن أحملك إلى الشـام وأبايع لك بالخلافـة، فقال عـبد الله رافعـا صوته: أبعـد قتل أهل الحرة، لا والله حتى أقـتل بكل رجـل خمسـة من أهل الشام، فقال الحصين: من زعم يا ابن الزبيـر أنك داهية فـهو أحـمق، أكلمك سرا وتكلمنى عـلانية، أدعـوك إلى أنى أستخلفك فتـرفع الحرب وتزعم أنك تقاتلنا، فستعلم أينا المقـتول، وانصرف أهل الشام إلى بلادهم مع الحصين، فلما صاروا إلى المدينة جعل أهلها يهتفون بهم، ويتوعدونهم، ويذكرون قـتلاهم بالحرة، فلما أكـثروا من ذلك وخافوا الفـتنة وهياجها صـعد روح بن زنباع الجذامى على منبر رسول الله ﷺ، وكان فى ذلك الجيش، فقال: يا أهل المدينة، ما هذا الإيعاد الذى توعدوننا، إنا والله مادعوناكم إلى كلب لمبايعة رجل منهم، ولا إلى

رجل. . . . ابن معاوية، وعلى طاعته قاتلناكم، فإيانا توعدون، أما والله إنا لأبناء الطعن والطاعنون، وفضلات الموت والمنون، فماشئتم، ومضى القوم إلى الشام.

١٠ - بوادر ظهور أفكار الشيعة الغالية:

١- شيعة المختار الكيسانية وعصبيته الموالى:

استولى المختار إذن على الكوفة دون إراقة كثير دماء. فسعى لإشاعة العدل والرحمة والطمأنينة فى النفوس والصلح بين الأحزاب. وفى أول الأمر تولى بنفسه القضاء بحماسة ومهارة، حتى أرهقه المنصب فعين قضاة. ووفى بعهده للأشراف بالأمان. ومع ذلك كانت العناية «بالمستضعفين» نقطة رئيسية فى برنامجه. وكان يفهم من هذا الاسم البسيط الكثير الورود فى اللغة الروحية أنه يقصد به المسلمون غير العرب، أعنى الموالى، وكانوا يؤلفون أكثر من نصف سكان الكوفة وفى أيديهم الحرف اليدوية والمهن والتجارة، وترك لهم العرب المشغولون بالحرب والقتال مرافق الحياة المدنية[1]. وكانت غالبيتهم - من حيث الأصل واللغة - من الفرس، جاءوا أسرى إلى الكوفة، واعتنقوا الإسلام هناك ثم أعتقهم سادتهم وانتسبوا إلى القبائل العربية موالى فيها بحيث كانوا فى وضع هجين: فلم يعودوا عبيدا، ولكنهم بقوا مع ذلك على ولائهم لسادتهم وفى حاجة إلى حمايتهم. وقد أعطاهم الإسلام من الحقوق أكثر مما سمح به سادتهم العرب.

أيقظ المختار هذا الأمل فيهم واجتذبهم إليه وزاد بهم مواليه الخصوصيين.

على أنه فى بادئ الأمر لم يعين فى المراكز الرئيسية إلا العرب، وكانوا فى الأصل يؤلفون الأغلبية الكبرى فى جيش الشيعة ويتكون منهم الفرسان.

الموالى والدفاع عن مصالحهم. . لا ساداتهم:

---

(١) وكانوا كذلك يعملون فى الضياع المجاورة للكوفة، مثل ضيعة المختار. وقد أتى بهم منها. ولعلهم اختلطوا بالفلاحين الآراميين هناك. وعبد الله بن الزبير يبنهم فى البيت الوارد فى «الأغانى» (جـ١٣ ص٣٧ س٢٧٧): «مجوس القرى ويهود القرى». ولكن هذا التعبير التحقيرى يجب ألا يوقف عنده كثيرا. أما العرب المختصون بالقتال فكانوا محتمين فى المدن (الكوفة والبصرة)، وغير العرب لم يكونوا ينتسبون إليهم. والذى كان يهتم به المختار هو الوضع الاجتماعى للموالى، لا قوميتهم، ولم يخطر بباله قط أن يدافع عن الفرس بوصفهم فرسا، على أنه كان من الأهمية بمكان عظيم أن معظم الموالى كانوا من الفرس.

أما الموالى فكانت جمهرتهم العظمى من غير الفرسان وجرت العادة ألا يحملوا سيوفا، بل كان سلاحهم هراوات خشبية[1].

وهالهم أن يكافح الموالى فى سبيل مصالحهم لا فى سبيل سادتهم! وفتحت الكراهية بصائرهم. وأصبح هذا علامة مميزة منذ ذلك الحين على الحركة الشيعية الجديدة.

ولم يفلح المختار فى اجتياز هذا المضيق. فلم يستطع كسب حزب العصبية العربية إلى جانبه، وكان فى خطر أن يزعج الموالى.

لم يكن جادا فى سياسة التوفيق والمصالحة التى سلكها، ابتغاء المزج بين العرب والموالى فى بوتقة الإسلام.

١١ - المختار يضربه حليفه:

قوّت الأحداث الخارجية مركزه أولا. فالعمال الذين أرسلهم إلى المقاطعات التابعة للكوفة قوبلوا بغير مقاومة. ولم يشذّ إلا المتمرد الورع عبيد الله بن الحر الجعفى الذى حصن فى المدائن وأرض جوخى ورفض الطاعة له. ومن جهة أخرى أخفقت الحركة التى قام بها شيعة البصرة لنصرته[2]. وظن المختار أنه يستطيع أن يتجنب العداوة السافرة بينه وبين ابن الزبير. على الرغم مما قام به من معارك ضد حكومة ابن الزبير فى العراق. وحتى بعد أن منع المختار دخول الوالى الجديد إلى الكوفة بقوة السلاح. وهو الوالى الذى أرسله ابن الزبير محل ابن مطيع المطرود. فعرض المختار على ابن الزبير أن يتعاونا ضد العدو المشترك، وهو أهل الشام الذين زحفوا على الجزيرة العربية سنة ٦٦هـ حتى وصلوا إلى وادى القرى، وظفر بموافقة ابن الزبير على إرسال جيش قوامه ثلاثة آلاف من الموالى إلى المدينة تحت إمرة شرجيل بن ورس الهمدانى. عليهم أن يعملوا مع جيش ابن الزبير المؤلف من ألفى جندى والذى زحف من مكة ضد أهل الشام - بقيادة عياش بن سهل الأنصارى[3]. ولكن عياشا تخلص من حلفائه المزعجين هؤلاء - فقد كانوا جميعا من الموالى - عن طريق قتلهم غدرا واغتيالا جبانا، ولا شك أنه فعل ذلك

(١) كتاب المختار إلى الأحنف بن قيس فى الطبرى ٦٨٥٢.

(٢) بعكس ما يقوله الطبرى جـ ٢ ص ٦٨٩ س ١٢ قارن جـ ٢ ص٥٧٩ س ١.

(٣) الطبرى جـ ٢ ص ٦٦٧ ص٧. واسم اليوم الوارد هنا (٢٢ يوليو سنة ٦٨٦) كان يوم أحد لا أربعاء.

بأمر صـريح من سيـده (ابن الزبير) الذى كـان ينشده نظيـره فى القسـوة والغدر. وهى علاقة تكاد تكون من طرف واحد- نقول: إنه جدد عـلاقته بابن الحنفية وعرض عليه أن يرسل إليه جنودا إلى المدينـة لمحاربة ابن الزبير. إذا أعلن صراحـة تأييده للمخـتار. ثم أصبح ابن الحنفية بعد ذلك فى موقف حمله على إعـلان تأييده للمختار بل ودعوته إليه لمساعـدته؛ ذلك أنه حدث فى أثناء الحج سنـة ٦٦ أن جاء ابن الحنفيـة إلى مكة وهناك حاصره ابن الزبير فى داخل الحرم هو ومن معه من أصحابه وهدده ابن الزبير بالموت إذا لم يبايع ابن الزبيـر فى خلال مدة مـحددة. فلجأ ابن الحنفـية إلى المختـار واستطاع أن يبعث إليه برسالة يشـرح له فيها ماوقع له وطلب منه النجدة. فقـرأ المختار الرسالة علنا والسرور يغمره وأرسل فى الحال جنودا متطوعين إلى المدينة.

١٢ - الكوفة والصراع بين الشيعة والأشراف:

انتشـرت فى الكوفة إشاعة تقـول: إن الشيعة هزمـهم أهل الشام. فأمر المخـتار إبراهيم بن الأشتر بالمسير بجيش مؤلف من سبعة آلاف رجل إلى ميدان المعركة بأسرع ما يستطاع. وفى هذه الظروف ازدادت جـرأة الأشراف على المخـتـار، وهم قادة حـزب العصبية العـربية. وأخذوا يعتبون على المختار أنه تآمـر عليهم بغير رضى منهم ولا بإذن من ابن الحنفية، وأنه أظهر هو وسـبايته (ببدع ابتدعها فى الإسـلام) البراءة من أسلافهم الصالحـين، وأنه أدنى مواليهم فـحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعـمهم من فيـئهم، فسلبـهم بذلك حقـوقهم؛ لأنهم أعـتقـوا عبيـدهم على أمل الأجر فـى ذلك والثواب والشكر، فلم يرض المختـار لهم بذلك حتى جعلهم شركـاءهم فى الفىء، وأخذ هؤلاء العبيد فحـارب بهم يتيمهم وأراملهم. وكان شبث بن ربعى التمـيمى ـ الشيخ العجوز ـ هو الذى يتحدث بـاسمهم، فذهب إلى المختـار يكلمه فى هذه الأمور. فوعـده المختار بالنظر فيها وإرضائهم كلما استطاع إلى ذلك سـبيلا، ثم سأل شيئا: «إن أنا تركت لكم مواليكم وجـعلت فيئكـم فيكم ـ أتقاتلون مـعى بنى أمية وابن الزبيـر، وتعطوننى على الوفاء بذلك عهد الله وميثاقه وما أطمئن له من الأيمان»، (الطبرى ٢ ٦٥٠)- فلم يوافقه الأشراف على ذلك، بل قرروا أن يـهتبلوا هذه الفرصة السـانحة للقضاء على مـغتصب السلطة (المختار)، وإن كانوا بذلك يخونون العراق لصالح أهل الشام.

وحتى يفسد عليهم تدبيرهم اقترح عليهم أن يبعثوا من قبلهم وفدا إلى ابن الحنفية ويرسل هو من قبله وفـدا إليه لسؤاله فى تأييد ابن الحنفـية له. ولكن لم ينجح فى هذا التدبير.

بيد أنه وجد الوسيلة والسبيل إلى إنباء إبراهيم بن الأشتر بما يجرى وأمره بالعودة حالا.

يالثارات عثمان يالثارات الحسين:

وفى صباح اليوم التالى، يوم الأربعاء ٢٤ من ذى الحجة سنة ٦٦ استؤنف القتال الذى وقع من قبل فى شهر ربيع. وتداخلت الأضداد بين الأحزاب كلما اتصل الأمر بالعرب. فكثير من الشيعة العرب الذين كانوا حتى ذلك الوقت فى صف المختار، انفصلوا عنه وانحازوا إلى صفوف الأشراف. نخص بالذكر القارئ الشهير رفاعة بن شداد الفتيانى، وهو صديق قديم لسليمان بن صُرد، بيد أنه انزعج انزعاجا شديدا حينما سمع صيحة الأشراف: «يا لثارات عثمان!» ترن إلى جانبه، وفى مقابل صيحة الشيعة «يالثارات الحسين!». فاندفع يائسا إلى هوة الموت[1].

١٣ - الشيعة تثار من قتل الحسين:

ونادى منادى المختار: بعد أن تم له الانتصار، أنه من أغلق بابه فهو آمن إلا رجلا اشترك فى دم آل محمد، فاستثنى من الأمان من اشتركوا فى قتل الحسين، وأطلق العنان للشيعة لينتقموا من قتلة الحسين بعد أن كان قد منع من هذا الانتقام. فتوالى القتلى فى الأسرى أولا ثم فى المسئولين الرئيسيين عن مأساة كربلاء فاستخرجوا من مكامنهم وقتلوا، بدعوى أن ذلك بأمر من ابن الحنفية، هذا الشيخ المقيم فى المدينة. وكان العبيد والموالى كالكلاب البوليسية وراء سادتهم القدماء، وكانت النسوة يخبرن عن أزواجهن. فقتل شمر بن ذى الجوشن، كما قتل عمر بن سعد ونفر كثير من أهل قريش. ومن استطاع من الأشراف أن يهرب هرب إلى البصرة عند مصعب بن الزبير. وهدمت بيوتهم فى الكوفة. ولكن المختار ضمن حماية من خلفوا من النساء والأبناء والحرم[2]. أما المختار نفسه فلم يكن أشد القوم تنكيلا بهم، بل قد قتل كثيرون دون علم منه وعلى عكس ما أمر به. وخلى عن سراقة بن مرداس لا لشيء إلا لأنه قال شعرا ذكر فيه أن أعداء المختار شاهدوا الملائكة تحارب فى صف المختار وأنهم هربوا من هؤلاء الملائكة. ثم ألزمه المختار أن يعلن هذه الأكذوبة الشعرية من فوق المنبر وأن يحلف بصحة ما رأى. ثم طرده خارج الكوفة.

---

(١) هرب أسماء بن خارجة الفزارى، أبو زوجة عبيد الله بن زياد إلى الشام، راجع «الأغانى» ج١، ١٢ ص ٣٦ ومايليها فى ص ٣٧ (٣٦ كما ورد خطأ فى نص المؤلف) س ٢١ اقرأ: عبيدها».

(٢) الطبرى ج٢ ص ٧١٩.

وبعد أن قضى المختار على هذه الفتنة عاد بعد يومين فأرسل إبراهيم بن الأشتر ضد أهل الشام وأمره بأن يهاجمهم متى لقيهم. وصحب بنفسه الجيش إلى الفرات ووعدهم بالنصر. والتقى الفريقان عند نهر خزر الذى يصب فى الدجلة من خلال الزاب الكبير. ولم تذكر الروايات ـ وهذا أمر غريب! ـ تاريخ هذه المعركة. ولكن لاشك فى أنها وقعت فى الشهر الأول من سنة ٦٧هـ (أغسطس سنة ٦٨٦)[١]. فانتصر الشيعة على عدوهم الذى كان يبلغ عشرة أضعافهم. بفضل مهارة قائدهم وبفضل شجاعتهم هم. ولم تطلق حمامات بيض[٢]، وخيانة القيسيين فى جيش أهل الشام ـ إن صح الكلام عن خيانة وقعت ـ إنما حدثت بعد أن تقرر مصير المعركة[٣]. وقتل عبيد الله بن زياد. وقتل الحصين بن نمير السكونى. وقتل شرحبيل بن ذى الكلاع ـ انتقاما للمدن المقدسة وللحسين ولمالك بن الأشتر. وغرق معظم الهاربين من أهل الشام فى الماء، ونهبه عسكرهم. وبينما كانت الحملة الأولى التى أرسلها المختار. تحت قيادة بزيدة بن أنس من الفرسان. لم يكن فى الحملة الثانية إلا قليل جدا من الفرسان[٤]، أى أنها كانت تتألف من الموالى. وكانوا يضربون بالعمد على الخوذ والدروع التى يحملها جنود أهل الشام حتى كانت ترن رنين مباجن قصارى دار الوليد بن عقبة بن أبى معيط ـ كما يقول راو قديم. وخلت الروايات العربية من ذكر أسماء هؤلاء الأبطال. وبقى إبراهيم يرقب حركات أهل الشام فى الموصل. بينما غزا أخوه لأمه نصيبين ودارا وسنجار.

يقول المسعودى:

واشتد أمر المختار بالكوفة، وكثر رجاله، ومال الناس إليه، وأقبل يدعو الناس على طبقاتهم ومقاديرهم فى أنفسهم وعقولهم، فمنهم من يخاطبه بإمامة محمد ابن

---

(١) قضى على الفتنة فى الكوفة - حسب رواية الطبرى جـ ٢ ص ٦٦٧- فى ٢٤ ذى الحجة سنة ٦٦هـ، ويحسب الطبرى جـ ٢ ص ٧٠١ س١ سار إبراهيم بجيشه بعد ذلك بيومين، أى فى ٢٦ ذى الحجة، فلا يمكن أن يكون قد بلغ منطقة الموصل قبل العام الجديد. ولكن يحسب الطبرى ـ١ ٢ ص ٧٠ س ٣ أن إبراهيم خرج يوم ٢٢ من ذى الحجة سنة ٦٦. فالحوادث التى وقعت بالكوفة، والتى بدأت بعد المعركة التى جرت عند الموصل فى ٩ ذى الحجة بيومين، قد تدافعت على نحو أسرع مما جرى عليه الأمر فى الواقع.

(٢) هذه الخرافة وردت فى الكامل ص ٥٩٨ ومايليها. ولعل هذه الحمامات إنما نشأت عن الملائكة الذين أشرنا إليهم سابقا وقلنا: إن سراقة زعم للمختار أنهم شوهدوا يحاربون فى صف المختار.

(٣) الطبرى ج٢ ص ٧١٢ وما يليها.

(٤) الطبرى ج١ - ٢ ص ٧٠٩ س ٥، ص ٧٢١ س ١١ وما يليه.

الحنفيـة، ومنهم من يدفعه عن هذا فـيخاطبـه بأن الملك يأتيه بالوحى ويخبـره بالغيب، وتتبع قتلة الحسين فقتلهم: قـتل عمر بن سعد بن أبى وقاص الزهرى، وهو الذى تولى حرب الحسين يوم كربلاء وقتله ومن معه، فزاد ميل أهل الكوفة إليه ومحبتهم له.

١٤ - الموالى يتشيعون للمختار وشيعة العرب ينكرونه:

وكان المختـار قد شارك فى ثورة مسلم بن عـقيل فقبض عليه وألـقى فى غياهب السجن، حتى إذا أطلق سراحه التحق بابن الزبير فى مكة. وبعد ثلاث سنوات ظهر من جديد فى العراق وأخـذ يدعو فى ما يظهر، لأحـد أبناء علي الصغار، محـمد المعروف بابن الحنفية، نسـبة إلى أمه. وإذا كان محمد هذا لا يستطيع أن يدعى الحق فى الخلافة وأن يتصدر لهـا، فقد سارع المختـار إلى انتهاج سبيل آخر طـفق يبشر بوحى من الملك جبريل علـى ما زعم، وبنثر غامض مسـجوع يطبع على غرار القرآن، بـظهور المهدى، فجـأة، عند انتهاء العـالم ليملأ الأرض عـدلا بعد أن ملئت جـورا. ولقد وفق إلى أن يجتـذب إليه الموالى من الآراميين والفـرس الذين اعتنقوا الإسلام، والذين كـان العرب ينظرون إليهم كمواطنين من الدرجة الثانية.

كان المختار فى الذروة. وكان أيضا أمام الهاوية. فالشيعة العرب من الجيل القديم كانوا لايثقون به. حتـى اعتزلوه جانبا. فلم يكن أمامه إلا المتعـصبون والموالى. فانحاز إلى جانبهم ضد حرب العصبية العربيـة. لقد كان المتعصبون والموالى شديدى الإعجاب بقوة شعوره بذاته والصورة الرائعة التى ظهر عليها هذا الشعور.

فقد تدافع غلاة الشيعة عند الجسر الذى أراد المرور عليه.

وكانوا قد أعـدوا له كرسيا مقـدسا يحمل على بغل ويقوم على سـدانته سادن. وحول هذا الكـرسى كانوا يتراقـصون ويتـواثبون بحـماسة وجنون، وهم يسـألون الله النصر.

ويبدو أن المخـتار نفسه لم يكن مـسئولا عن ذلك. ولكنه لم يشأ أن يفـسد على هؤلاء لذتهم؛ إذ لم يكن فى وسـعـه الاستـغناء عن مسـاعـدتهم.. فهم الذين كـانوا يخوضون النار من أجله.

١٥ - الأشراف يغدرون بالموالى:

انهزم أهل الشام. وشلت سواعـدهم سنوات. ولكن الخطر جاء الآن من البصرة حيث كان مصعب بن الزبير يتولى الأمر من قبل أخيه الأكبر. الخليفة فى مكة (عبد الله ابن الزبيـر) ـ منذ نهاية سنة ٦٦هـ أو مسـتهل سنة ٦٧هـ[١]. لقـد حرضـه الأشراف الهاربون من الكوفـة. وخصوصـا منهم شبث بن ربعى التمـيمى ومحمـد بن الأشعث الكندى، حرضـوه ضد المختـار. وكانت جيوش البـصرة تحارب آنذاك فى الميـدان ضد الخوارج. وقائدها المهلب لم يكن على استعداد تام للتحول عن الحوار إلى موالى الكوفة يقاتلهم. وأخيـرا رضى المهلب وتولى قيادة جيش كـبير خرج من البصـرة قبل منتصف سنة ٦٧هـ، واشتـرك فى الحملة أيضـا أحد أبناء علي. وهو عبـد الله، فبعث المخـتار بجيشه إلى المذار على الدجلة. وهناك ينتظرون العدو. وعلى أساس نبوءة هناك بالنصر. ولكنهم منوا بهـزيمـة منكرة. ولم يظهـر الظافرون أية رحـمـة، وكان أشـدهم قسـوة الكوفيون الهاربون إلى البصرة فقد كانوا أشد الناس على أبناء بلدهم. وأعملوا السيوف وخصوصـا بين الموالى. وقاتل الموالى بكل شجاعة. ولكن زمـلاءهم العرب من بجيلة وخثعم تخلوا عنهم بصورة مزرية. ولم يستطع الموالى الفرار؛ لأنهم لم يكونوا راكبين. وقليل من الفرسان هم الذين استطاعوا النجاة.

١٦ - نهاية المختار وصحوة الموالى:

كان لهذه الهزيمة تأثير فى الكوفة بالغ المدى، فتزعزعت مكانة المختار، لقد كذب هذه المرة، هكذا قال الموالى. وقال المختـار (لما جاءه خبر الهزيمة): «قُـتلت والله العبيد قتلة ما سـمعت بمثلها قط»[٢]، أما المختار فلم يهن بل امتلأ عزما وتصميما. وذهب حتى نزل السيلحين[٣]. «ونظر إلى مجتـمع الأنهـار: نهر الحبـرة. ونهر السيلحـين. ونهر القادسية. ونهر يوسف ـ فسكر الفرات على مجتمع الأنهار. فذهب ماء الفرات كله فى هذه الأنهار، وبقـيت سفن أهل البصـرة فى الطين. فلما رأوا ذلك خرجـوا من السفن يمـشـون وأقبلـت خيلهـم تركض حتـى أتوا ذلك السكر فكسـروه وصـمدوا صـمـد الكوفة»[٤]. وزحف المهلب من الأنبـار قاصـدا الكوفة فـالتقى بالمخـتار وأصحـابه فى

(١) راجع الطبـرى جـ ٢ ص ٦٨٨ س ١٧ (وكذلك ص ٦٦٥ س ٧، ص ٧١٦ س١٥) وقـارنه بما ورد فى جـ ٢ ص ٧١٧ س ١.

(٢) الطبرى ٢ - ٧٢٤. (٣) الطبرى ٢- ٧٢٥.

(٤) راجع عن هذا الموضوع الطبرى جـ ٢ ص ٩٢١ س ٨.

حروراء. وحمى وطيس القـتال. فسقط محـمد بن الأشعث. قائد الكوفـيين فى جيش أهل البصرة. سقط قـتيلا هو ومن معه. كذلك قتل عبـد الله بن علي بسيوف من قتلوا أسرته. وأبقى المهلب على رجاله من الأزد وتميم احتياطا. ولم يرجع إلى مصعب حينما طلبـه ليكلمه فى هذا الأمـر. فلما بدا له الوقت منـاسبا. نزل بـهم إلى المعركـة وكان هجومهم فاصلا فيها. فامتلأ ميدان المعركة بجثث أكبر نبلاء شيعة الكوفة. وقاتل المختار طوال الليل وهو مترجل. حتى كـاد أن يكون وحده فى الميدان. وهناك أذعن لرأى القلة التى بقيت معه والتى كانت تحثه على العودة، فعاد إلى قصره[١].

وكان إبراهيم بن الأشتـر قد بقى فى الموصل، وإن لم يكن ثم حاجة كبـيرة إليه هناك ضد أهل الشام. ولعله كـانت لدى المختار أسباب تدعـوه إلى عدم دعوة إبراهيم. ذلك أنه لم يكن نصـيرا مخلصـا كل الإخلاص. ولكن لو كان إبراهـيم هناك لاتخذت الأمور مجـرى آخر بسهولة. فالجـنود الشيعة كانوا أكـفاء لقتال البصـريين. ولكن كان ينقصهم القائد. وإبراهيم كان قادرا على المهلب. ولكنه بدلا من ذلك صالح مصعب بن الزبير، وظل له مخلصا حتى الممات.

وفى غداة المعركة زحف جيش البصـرة حتى دخل (من المدخل الرئيسى للسبخة) إلى مشارف الكوفـة، ثم ضيقوا الخناق على المختار شـيئا فشيئـا وقطعوا عنه المئونة[٢]. وكان المختار يسيطر على القصر والمدينة الداخلية وكان معه عدة آلاف من الموالى وبثات قليلة من العرب. أما غالبية العرب فـقد تسللوا إلى أسرهـم. وكانت النسوة يحملن إليه الماء. ولكن بدأت هيـبتـه فى الزوال، وكان يلقى عليـه الماء النجس حيـنما يمـر خلال الطرقات. وأخـيرا رأى نفـسه محـصورا فى القـصر دون ماء ولا زاد. وبعـد استـمرار الحصار أربعة أشهر[٣] ـ والحصار هنا يقصد به القـتال فى الشوارع ـ طلب من أصحابه

---

(١) لم يذكـر تاريخ المعركة، إذ لا مـحل لاستنتـاج شىء مما يرد فى «الأغانـى» جـ١٣ ص ٣٨ س ١ قارن ص١٦٧ س ١٦-«السبعـين»، س ٢٦. ولكن يمكن استخلاصـه من كون المختار قد قـتل (فى رمضان سنة ٦٧) بعد ذلك بأربعة أشـهر، على هذا يكون تاريخها فى منتـصف جمادى الأولى سنة ٦٧ (أوائل ديسمبر سنة ٦٨٦). ويؤيد هذا أن القمر قد بزغ. ففى رواية الواقدى التى نقلها الطبرى (جـ٢ ص ٧٤٨ ومايليهـا) أن القتال بدأ حينما طلع القـمر، ودفع البصريون متقـهقرين حتى معـسكرهم، وهناك دافعوا بشجاعة، وكان أصحاب المختار ينضمون إلى البـصريين واحدا بعد واحد، حتى وجد نفسه فى الصباح وحيدا.

(٢) كانت المدينة مفتوحة، ولم يكن محصنا غير القلعة، ولكن الدروب الضيقة سهلت عملية الدفاع.

(٣) الواقدى فيما ينقله الطبرى جـ ٢ ص٧٤٩.

أن يشقوا طريقهم بالقوة. ولكن عبثا. لقد رفضوا، وفضلوا أن يسلموا أنفسهم لرحمة العدو أو بطشه. هنالك خرج المختار فى تسعة عشر رجلا، فضارب بسيفه حتى قتل. وذلك فى ١٤ من رمضان سنة ٦٧هـ (٣من أبريل سنة ٦٨٧م)، وكان عمره إذ ذاك سبعا وستين سنة.

والواقع أن المختار كان فى حال من الخطر الشديد عندما تداركه جيشه، بعد أن سمع بأنباء الكوفة، وأنقذه من أهلها. فما كان منه إلا أن أنزل عقوبة وحشية بجميع خصومه بحجة أنهم شركاء فى الجريمة التى انتهت باستشهاد الحسين. وبعد يومين، هزم ابن الأشتر الجيش السورى ـ وكان يقوده عبيد الله بن زياد الذى أنفذ مجزرة كربلاء ـ فى خازر حيث قتل ابن زياد نفسه. ولكن المختار لم يهنأ بهذا الظفر العظيم الذى احتفل به احتفالا غريبا، بعد أن نصب عرشا فارغا، وسجد أمامه سجوده أمام عرش الله، إذ تلا هذا الظفر سقوطه؛ ذلك أن مصعبا الذى كان حتى الآن مستقرا فى البصرة أثناء حرب الخوارج ما لبث أن هاجمه واضطره بعد معركتين داميتين، إلى أن يعتصم فى قلعة الكوفة. وضرب مصعب الحصار على القلعة فدافع المختار وجنوده عن أنفسهم دفاعا دام أربعة أشهر، قتل بعدها المختار فى هجوم قام به فى ٤ نيسان سنة ٦٨٧. وعاشت تعاليمه فى عقائد الشيعة، المتصلة بشئون الآخرة، على الرغم من أن مصعب ابن الزبير أباد أتباعه فى وحشية بالغة[1]، ويتراوح عددهم فيما يذكرون بين الستة والثمانية آلاف. لقد أطلق مصعب العنان لانتقام أشراف الكوفة الذين أرادوا الثأر لدماء آبائهم وأقربائهم من الموالى، فاستحق من أجل ذلك أن يلقب بلقب «الجزار». ويروى أن مصعب لقى عبد الله بن عمر فسلم عليه وقال له أنا ابن أخيك. مصعب. فقال له ابن عمر: نعم! أنت قاتل سبعة آلاف من أهل القبلة فى غداة واحدة! عش ما استطعت! فقال مصعب: إنهم كانوا كفرة سحرة. فقال ابن عمر: والله لو قتلت عدتهم غنما من تراث أبيك لكان ذلك سرفا!» (الطبرى جـ٢ ص ٧٤٥). ولكن أفظع أمر أثار السخط على مصعب هو قتله لزوجة المختار، عمرة بنت النعمان بن بشير الأنصارى وقد أبت حتى اللحظة الأخيرة أن تنكر زوجها، بل قالت: إنه كان عبدا من عباد الله الصالحين[2]. ثم إن مصعبا أمر بكف المختار فقطعت ثم سمرت بمسمار حديد إلى جنب المسجد [3].

---

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٩٠ كارل بروكلمان.

(٢) الطبرى ج٢ ص ٧٤٥. (٣) الطبرى جـ ٢ ص ٧٤٤.

١٧ - المختار والكيسانية ومحمد ابن الحنفية:

وهؤلاء الذين وردوا إلى ابن الحنفية هم الشيعة الكيسانية، وهم القائلون بإمامة محمد ابن الحنفية، وقد تنازعت الكيسانية بعد قولهم بإمامة محمد ابن الحنفية: فمنهم من قطع بموته، ومنهم من زعم أنه لم يمت وأنه حى فى جبال (رضوى)، وقد تنازع كل فريق من هؤلاء أيضا، وإنما سموا بالكيسانية لإضافتهم إلى المختار بن أبى عبيد الثقفى، وكان اسمه كيسان، ويكنى أبا عمرة، (وأن علي بن أبى طالب سماه بذلك، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة) هو غير المختار، وقد أتينا على أقاويل فرق الكيسانية وغيرهم من فرق الشيعة وطوائف الأمة فى كتابنا فى «المقالات فى أصول الديانات» وذكرنا قول كل فريق منهم، وما أيد به مذهبه، وقول من ذكر منهم أن ابن الحنفية دخل إلى شعب رضوى فى جماعة من أصحابه فلم يعرف لهم خبر إلى هذه الغاية.

وقد ذكر جماعة من الأخباريين أن كثيرا الشاعر كان كيسانيا، ويقول: إن محمد ابن الحنفية هو المهدى الذى يملأ الأرض عدلا كما ملئت (شرا وجورا)[١].

وحكي الزبير بن بكار فى كتابه «أنساب قريش» فى أنساب آل أبى طالب وأخبارهم منه قال: أخبرنى عمى، قال: قال كثير أبياتا له يذكر ابن الحنفية ـ رضى الله عنه ـ وأولها:

هو المهدى خبرناه كعب ... أخو الأخبار فى الحقب الخوالى

أقر الله عينى إذ دعانى ... أمين الله يلطف فى السؤال

وأثنى فى هواى على خيرا ... وساءل عن بنى وكيف حالى

وفيه يقول أيضا كثير:

ألا إن الأئمة من قريش ... ولاة الحق أربعة سواء

على والثلاثة من بنيه ... هم الأسباط ليس بهم خفاء

فسبط سبط إيمان وبر ... وسبط غيبته كربلاء

وسبط لاتراه العين حتى ... يقود الخيل يتبعها اللواء

تغيب لا يرى فيهم زمانا ... برضوى عنده عسل وماء

---

(١) راجع الطبرى ـ ٣ ص ٤٦٨ س٥: البلاذرى ص ٣٠٨، ص ٣٦٦.

وفيه يقول السيد الحميرى، وكان كيسانيا:

ألا قــل للوصى فدتك نفســـى … أطلـت بذلك الجبــل المقاما
أضر بمعشـــر والــوك منـــا … وسـموك الخليفة والإمامـــا
وعادوا فيك أهل الأرض طــرا … مغيبك عنهم سبعين عامـــا
وما ذاق ابن خــولة طعم مـوت … ولا وارت لـه أرض عــظامـــا
لقد أمسى بمدرف شعب رضوى … تراجـعه الملائكة الكلامـــا

وفيه يقول السيد أيضا:

ياشعب رضوى ما لمن بك لايرى … وبنا إليه من الصبـــابة أولــق
حتى متى وإلى متى وكم المدى … يا ابن الرسول وأنت حى تـرزق

١٨ - المختار شخصية محيرة:

كان المختـار ينعت بأنه سحار[١]. وأنه «الدال». ويوصف عادة بـ «الكذاب»[٢]. وهذا الوصف لا لأنه زعم أنه مكلف من قبل ابن الحنفـية، بل لأنه تبدى على أنه نبى. حـقا إنه لم يسم نفـسه بـهذا الاسم. ولكنه أتى أفـعالا مـن شأنهـا أن تعطى عنه هذه الفكرة. فكرة أنه نبى. وكـان يتكلم وكـأنه النبى فى الحـضرة الإلهـية، يعلم الغـيب، ويسجع سجع الكهان بطلاقة ومهارة. ويريد أن يفرض شخصيته على الناس. وأفلح فى هذا أيضا وإن كـان نجاحه لدى الخاصــة والعقلاء أقل منه لدى العامــة والدهماء. وطالما حالفه النصر واتسعت دوائر المؤمنين به. فلــما منى بالهزيمة أدبرت عنه الدنيا. وراحت الروايات تطلق سـهامـها على ذكـراه بعد مقـتله. فى البـدء كانت تذمـه دون أن تشوه صورته. ولكنها راحت بعد ذلـك فى مرحلة متأخرة تنعته بنعـوت أملاها الحقد. وهذه النعوت نفسها هى التى تسود الصورة التى كونتها عنه الأجيال التالية. ودوزى لايستخدم غيرها لرسم الصـورة التى عملها للمختـار فى كتابه «مقالة فى تاريخ الإسلام»: فـيقول عنه إنه هو الذى أمر بإطلاق الحمام البيض، وأنه كان خارجـيا ثم زبيريا ثم شيعيا، وأنه ابتدع القول بالبـداء فى الله كيما يبرز تقلبـه هو من مذهب إلى مذهب. ولكن لا يحق

(١) الطبرى ج ٢ ص ٧٣٠ س ١٣.
(٢) الطبرى ص ٦٨٦ س ٧.

للمرء أن يجعله معرضا للسخرية من غير أن يفهمه على حقيقته. ولحسن الحظ كان لنشر «تاريخ» الطبرى الفضل فى وضع حد لهذا النحو من تصوير الرجل.

فإن كان لابد من الإجابة على السؤال: هل كان المختار نبيا صادقا أو متنبئا كاذبا فلا مناص من تعديله إلى هذه الصيغة: أكان المختار مخلصا أم غير مخلص، قد يأخذ عليه المرء أنه استعان بالتنبؤ للوصول إلى الحكم. ولكن هذا المأخذ عينه قد يؤخذ على محمد، وعلى المرء أن يلاحظ أن الإسلام دين سياسى وأن أى إنسان مثله له طموحه السياسى لابد أن يسعى إلى الحكم. ولكن ما هو أشد من ذلك المأخذ خطرا وأكبر وزنا هو أنه تستر وراء شبح وناطور خيالى (هو محمد ابن الحنفية) لم يعرف عن أمره شيئا ولم يشأ أيضا أن يعلم عن أمره شيئا. فلم يكن ضميره نقيا من هذه الناحية. ولكن الظروف فى ذلك الحين لم تسمح له بوصفه مسلما وشيعيا ـ أن يظهر باسمه هو الخاص. بل كان عليه أن يخلق لنفسه مركزا«أمينا» للمهدى المستتر، وبهذا أعطى نموذجا لما سنراه فى المستقبل. وأمثال هذه الطبائع الجنية تكون دائما حافلة بالغموض والأسرار والمشاكل، والوضوح التام لايكاد أن يكون صفة ممدوحة فيها. فالمسألة عن إخلاصه لاتتعدى السؤال عما إذا كان هو نفسه مؤمنا بنفسه. ويلوح أن الأمر كان كذلك فى البداية. ثم استيقظت فى الشيخ فجأة مشاعر الضمير الأعلى، فتحالفت فيه الأثرة مع الثقة الدينية الثابتة كالطود الراسخ. وهو حينما لم يكن بعد شيئا وكان يعرض نفسه لأعظم الأخطار.

كان يبهر العالم بما اتصف به من ثقة ظافرة بالنفس ووضوح بارز فى تحديد أهدافه. أما أن ذلك كان آنذاك مجرد تمثيل مسرحى، فهذا أمر لانكاد نملك افتراضه، بل الأحرى أن يقال: إنه كان شديد الإيمان بنفسه. وعن هذا الطريق أوجد الإيمان به فى نفوس الآخرين وحرك الجماهير. حقا إنه اضطر بعد ذلك إلى النفخ فى الرماد لضمان اشتعال النار، ولكنه كان قد كون فكرته وراح من بعد يخاطر بنفسه، وقد دفعه أنصاره العمى إلى ما تجاوز نطاق إرادته. وقد كان فى حاجة إلى تعصبهم ولم يكن فى استطاعته كبح جماحهم حتى لو حاول ذلك. والحاسم دائما هو البداية، والحماسة لاتبقى أبدا صافية على حالها. وما أسهل أن يستحيل «النبى» إلى «متنبئ»! ومن الإفك الصراح أن يقال: إنه فى محنته الأخيرة قد اعترف ـ مستهزئا ـ بنفاقه وأنه سخر من أنصاره المخلصين. إذ يكفى لتفنيد ذلك أن زوجته، وهى عربية نبيلة من المدينة، استشهدت فى سبيله بعد مقتله، لأنها لم تشأ إنكار إيمانها به. وكان ثمة آخرون ظلوا

على الإخـلاص لذكراه بعد مـصرعـه. وعند دبر الجائلين لما أثـخن مصعب بن الـزبير بالرمى نظر إليه زائدة بن قدامـة ثم شد عليه فطعنه وقال: «يا لثارات المخـتار!» وصرع مصعبا. سفاك الدماء.

على أن التاريخ، فى نهـاية الأمر، ليس من شأنه أن يسيـر القلوب. بل شأنه أن يقدر أعـمال الناس. وأيا ماكان الأمـر فى شأن طبيعـة المختار، فإنه قـد أحدث آثارا لا يبالغ فى تقديرها بسهولة.

١٩ - مآخذ الشيعة العربية على المختار الثقفى:

يأخذ شيعة الكوفـة على المختار الثقفى مآخذ تصيبه فى صـميم الصميم منها أنه نازع الصحابى الجليل سليمان بن صُرد الذى قـاتل مع الإمام علي وناشد الإمام الحسين على زعامة الشـيعة. وأنه تآمر عليهم بـغير رضى منهم، ولا بإذن محمـد ابن الحنفية، وأنه يتفوه بعبارات غامضة قابلة للتفـسير دون قاعدة تحكمها وأنه أظهر بدعا فى الإسلام على سبيل المثال:

أنه ابتدع البراءة من الأسلاف الصالحين.

وأنه أدنى مواليهم. وحملهم على الدواب وأعطاهم وأطعمـهم من فيئهم فسلبهم من حقوقهم. وأخذهم فحارب بهم يتيمهم وأراملهم.

حمل تلك المآخذ شبث بن ربعى التميمى وحـدثه باسمهم، فوعده المختار بالنظر فيها، ثم سأله شيئا: إن أنا تركت لكم مواليكم وجعلت فيكم فيأكم- أتقاتلون معى بنى أمـية وابن الزبيـر وتعطوننى على الوفـاء بذلك عهـد الله وميـثاقـه وما أطمـئن له من الأيمان، فلم يوافقه الأشراف على ذلك.

يرى البلاذرى[1]:

قال ابن الزبير لابن عباس: لم يبلغك قتل الكذاب ؟ قال: ومن الكذاب ؟ قال: ابن أبى عبيد، قال: بلغنى قتل المختار، قال كأنك تكره تسميته كذابا وتتوجع له؟ فقال: ذلك رجل قـتل قتلتنا وطـلب بدمائنا وشـفى غليل صـدورنا، وليس جزاؤه منا الشـتم والشماتة، فقال ابن الزبير: لست أدرى أأنت معنا أم علينا؟

---

(١) أنساب الأشراف ص ٥٦٦ ج٢ تحقيق محمود الفردوس العظم قراءة صبحى نديم الماردينى.

ومما أخذوه عليه توسعه فى مفهوم الشيعة السياسى بحيث أفسح مكانا للموالى فى التشيع فتشيعت الموالى للمختار الثقفى أو مولاه كيسان أو كما تسمون بالشيعة الغلاة حين أعدوا كرسيا مقدسا يحمل على بغل ويقوم على سدنته سادن وحول هذا الكرسى كانوا يتراقصون ويتواثبون بحماسة وجنون. ومن هنا بدأت الشيعة الشعوبية تجد الخط الفاصل بينها وبين الشيعة العربية وحاج الحسين فى مبايعته لمعاوية وناشد الحسين وحثه على الحضور إلى الكوفة، وهو الذى جمع الشيعة بعد موقعة كربلاء وقتما تخلف المختار الثقفى وحث شيعة علي على عدم الخروج مع سليمان بن صُرد.

وما كادت تنتهى حياة المختار الثقفى حتى قامت الشيعة الكيسانية وهى التى ربطت بين المختار وبين محمد ابن الحنفية وذلك كان أمله فى حياته. وإن كانت الروايات التاريخية كما قدمنا ربطت بينهما وذلك ما دعم موقفه فى نهاية حياته،ومهما قيل عنه فإنه قائد جرىء ولكن ضيعه قومه وشوش عليه أشراف الكوفة وابن الزبير والبيت الأموى وتشككت فيه الشيعة وحين قيل لابن عباس: قتل المختار، لم يقل شيئا وسكت فقيل له لماذا سكت فقال ماذا أقول عن رجل قتل أعداءنا، وإذا كان للموالى فضل فى بناء الدولة العباسية فالفضل يرجع أولا للمختار الثقفى فهو الذى جعل لهم حقا معلوما فى الحرب وفى القيادة وعلى يديه عرفوا طريق فتح خراسان. ولم تكد تنتهى الشيعة العربية فى الكوفة إلا وقد بصمت بصماتها على وجه التاريخ الشيعى منها.

نشأت حركة التوابين على يد سليمان بن صُرد وتباكت على الحسين.

وحركة المختار ذلك الزعيم سيئ الحظ الذى تولى الشيعة وقامت الحركة الكيسانية ووصيها كما ادعت محمد ابن الحنفية وكانت هذه الكيسانية الشيعية أول نبت أو فسيلة حملها الموالى وانشقوا بها نحو محمد ابن الحنفية وأثاروا غضب الخليفة بما ابتدعوه من عند أنفسهم فزادوا شقاء الشيعة على شقائها.

من هنا بدأت الشيعة الغالية تنحو نحو خراسان وفق ما رسمه لها محمد الإمام.

لم يطل حبل المختار بالكوفة فإن عبد الله بن الزبير جهز له جيشا يقوده أخوه مصعب فسار إليه، ومالأه أكثر أشراف أهل العراق لما ظهر لهم من أكاذيب المختار وسوء طويته، وبذلك كانت الغلبة لمصعب، إلا أن ذلك لم يقض على التشيع فى بلاد العراق بل ظل كامنا ينتظر من يثيره لينتفع منه.

أما محمد بن علي فإنه بايع عبد الملك بن مروان بعد أن استقر الأمر له وقضى على فتنة ابن الزبير ودانت له الأقاليم الإسلامية كلها، ومع قيامه بهذه البيعة لم تزل له شيعة تراه أحق بالخلافة إلا أنه مغلوب على أمره، حتى إنه لما مات غلا فيه بعضهم فأنكر موته، وقال إنه تغيب وسيرجع، وقال فى ذلك شاعرهم السيد الحميرى:

ألا إن الأئمة من قريش	ولاة الحق أربعة سواء
على والأئمة من بنيه	هم الأسباط ليس بها خفاء
فسبط سبط إيمان وبر	وسبط غيبته كربلاء
وسبط لا يذرق الموت حتى	يقود الخيل يقدمها اللواء

اضطربت أفكار الشيعة بعد موت محمد بن على: فمنهم من استمر على ولائه وقال بغيبته ورجعته كما قلنا. ومنهم من تولى بعده ابنه أبا هاشم، ويقال لهذا الفريق والذى قبله الكيسانية، ينسبون إلى كيسان وهو لقب للمختار بن أبى عبيد.

ومنهم من تولى بعد الحسين ابنه عليا المعروف بزين العابدين وهو من بايع يزيد ابن معاوية وعبد الملك بن مروان ولم يعرف عنه أنه طلب الخلافة لنفسه ـ قال هؤلاء: إن الخلافة محصورة فى أولاد علي من فاطمة ـ رضى الله عنها ـ، ولما كان الحسين هو الذى قتل دون الخلافة فهى فى عقبه، وعلي هو الذى بقى من أولاد الحسين بعد وقعة كربلاء. وقد يقولون إن عليا هو الوصى أوصى إليه رسول الله ﷺ بالخلافة، ثم الإمام من بعده الحسن، ثم الحسين، ثم على، وهكذا لابد للأمة من إمام منصوص عليه، ويقال لهؤلاء: الشيعة الإمامية.

كان أكبر ولد العباس فى ذلك الوقت علي بن عبد الله بن عباس وهو الذى انتشر منه العباسيون. وكان قد فارق الحجاز وأقام بالحميمة التى أقامه بها بنو أمية والتى أنزله بها الوليد بن عبد الملك. وقد ظهرت فكرة انتقال الخلافة إلى ولد العباس من علي هذا، ويقال: إن السبب فى ذلك أن أبا هاشم بن محمد بن علي بن أبى طالب لما حانت منيته كان مقيما بالحميمة عند بنى عمه فأدلى بنصيبه من الخلافة إلى علي هذا وأولاده وأوصى أولياءه به فصارت الشيعة الكيسانية فى جانب على بن عبد الله بن عباس[1].

(١) السيادة العربية ص ٢٥٠، والفرق الإسلامية وحق الأمة السياسى.

أما بقية الشيعة فإنهم بعد وفاة على زين العابدين افترقت بهم الطرق: فمنهم من تولى بعده ابنه محمدا الباقر زاعمين أنه الإمام بعد أبيه. ومنهم من قال: إن الخلافة حق لكل فاطمى وليست الفاطمية البربرية التى اتصف بصفات العلم والشجاعة والسخاء، ومن هؤلاء من قام بمساعدة زيد بن علي بن الحسين، وهم المعروفون بالشيعة الزيدية.

والذين حاولوا الوصول إلى الخلافة وانتزاعها من بنى أمية هم الشيعة الكيسانية الذين ساعدوا على بن عبد الله، والشيعة الزيدية الذين ساعدوا زيدا وابنه يحيى.

وكانت وفاة علي بن عبد الله ومحمد الباقر فى زمن متقارب بالحميمة، فانتقل ولاء الكيسانية إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس؛ لأن أباه أوصى إليه. وانتقل ولاء الإمامية إلى جعفر الصادق بن محمد الباقر، ولم يفعل أنصار الأئمة شيئا ليرجعوا الخلافة إلى ذوى الحق فيها حسب رأيهم.

أما الشيعة الزيدية فقد دعاهم إلى النصر زيد بن علي فقاموا بنصرته حيث خرج بالكوفة طالبا الخلافة، إلا أن بنى أمية لم تكن قد ظهرت فيهم العيوب التى أودت بحياتهم بعد، فسرعان ما انتصروا على زيد وأطفأوا ثورته وقتلوه وصلبوه. وثار بعده ابنه يحيى فكانت خاتمته خاتمة أبيه.

٢٠ - الشيعة العربية وتلاقيها مع السبئية:

تربط روايات الطبرى بين ابن سبأ وأبى ذر الغفارى ثم بين أبى ذر وبين خلافه مع معاوية حول قضايا اجتماعية. فأما عن ابن سبأ فهو رجل يهودى أبرزت الروايات حقده على الإسلام، بعد أن ظهر فجأة بين المسلمين، وعاث فسادا بينهم فى حين كان أبو ذر رجلا شديد العفة، معتدا برأيه، فقيها عالما بقواعد الإسلام من قدماء الصحابة الذين لهم دور كبير فى انتشاره وانتصاره[1]. والسؤال الذى يمكن طرحه: كيف يتأثر أبو ذر بهذه السرعة برأى رجل طارئ مطارد، يرد دمشق، وهو مغضوب عليه مطعون فى دينه، ويتحسس له، ويأخذ بمقالته.

إن التساؤل السابق يأخذ عمقا أكبر حين تتم مقارنته بما أورده الطبرى عن موقف

(١) انظر حول أبى ذر ابن هشام السيرة النبوية جـ١ ص٣٥٥ جـ ٢ ص ٦٩١-٧٦٠، ٩٨٨٦ الواقدى المغازى ص ٥٣٨، ٥٣٩، ٥٤٨، ٥٧١، ٦٣٧، ٨١٩، ٨٤٩، ٨٥٠، ٨٩٦، ١٠٠١ ابن معين التاريخ جـ٢ ص٧٠٤، خليفة الطبقات ص ٣١: ابن سعد الطبقات جـ ٤ ص ٢١٩-٢٣٧، الذهبى سير جـ ٢ ص ٤٦-٧٨.

أبى ذر مع كعب الأحبار، الشخصية اليهودية التى أسلمت فى خلافة أبى بكر، وقيل عمر، واشتهرت بسعة علمها ومعرفتها[1]، فقد أشار إلى دخول أبى ذر على عثمان وقوله، لاترضوا من الناس بكف الأذى حتى يبذلوا المعروف، وقد ينبغى للمؤدى الزكاة ألا يقتصر عليها حتى يحسن إلى الجيران والإخوان، ويصل القرابات فقال كعب: من أدى الفريضة فقد قضى ما عليه، فرفع أبو ذر محجنته فضربه فشجه»، وقال له: «يا ابن اليهودية ما أنت وما ها هنا، والله لتسمعن منى أو لأدخل عليك» فى حين أكد البلاذرى أن الخلاف الذى نشأ بين أبى ذر وكعب الأحبار يرجع إلى إجازة الأخير للخليفة عثمان بأخذ الأموال من بيت مال المسلمين فإذا «أيسر قضى»، دون أن يشير من قريب أو بعيد إلى خبر التقاء أبى ذر بابن سبأ فهل يعقل بعد ذلك أن يأخذ أبو ذر عن ابن سبأ وهو رجل حديث الدخول فى الإسلام، لم يشتهر بعلم أو مال أو منصب بينما يرفض الأخذ عن كعب الأحبار، وهو المشهور بعلمه ومعرفته، يضاف إلى ذلك أن المواقف المتشددة لأبى ذر من كنز الفضة والذهب والمال سبقت لقاءه المزعوم مع ابن سبأ، وسبقت ذهابه إلى دمشق أيضا.

ولم تكن سيرة عبد الله بن سبأ محمودة أو أخفاها عن الناس، ولقد أشار إلى خبثه أبو الدرداء وعبادة بن الصامت اللذان أخذاه إلى معاوية وأخبراه بدوره فى تحريض أبى ذر ضده.

لكننا نرى اضطرابا فى الروايات التى تتحدث عن لقائه بأبى ذر عام ٣٣٠ هـ فى دمشق وروايات الطبرى تشكك فى هذا التاريخ على أنه غادر دمشق إلى المدينة عام ٣٠هـ. حيث أقام فيها عدة أيام قبل ذهابه إلى الربذة، التى توفى فيها عام ٣١هـ. وقيل عام ٣٢هـ، أشار فى رواية أخرى إلى ظهور ابن سبأ فى البصرة عام ٣٢ هـ أو ٣٣ هـ متنقلا بين بلدان المسلمين «يحاول ضلالتهم، فبدأ بالحجاز، ثم البصرة، ثم الكوفة ثم الشام، والسؤال: متى كان ابن سبأ فى الشام، هل كان فيها عام ٣٠هـ أم بعد عام ٣٣هـ، أم قبل عام ٣٥هـ؟ ومعنى هذا أن ذهاب أبى ذر إلى الشام وخروجه منها كان قبل مجيء ابن السوداء إلى البصرة، وأن سنة وفاته كانت قبل ذلك، ومعنى هذا أيضا نفى التقاء ابن السوداء بأبى ذر فى دمشق ونفى أخذه نظريته فى المال عن ابن السوداء.

---

(١) انظر حول كعب الأحبار ابن سعد، الطبقات جـ ٧ ص ٤٤٥,٤٤٦ خليفة، الطبقات ص ٣٠٨ ابن قتيبة، المعارف ص ٤٣٠,٤٣٩: الفسوى، المعرفة جـ ١ ص ٧٥١ الذهبى، تاريخ جـ٣ ص ٣٩٧. المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان ملحم.

أما موقـف أبى ذر من عثمان فـهى بسبب نقده الشديد للخليـفة عثمـان ولمعاوية عامله على الشام ولقريش بعامة. بسبب إثرائهم فى عهدى عمر وعثمان. إن التدقيق فى روايات الطبرى حول طبـيعة العلاقـات بين أبى ذر وعثمان توضح؛ لأنهـا كانت تتسم بالاحترام والتقـدير. بسبب قوله للخليفة: إن تأدية المسلمين لزكـاة أموالهم يسقط عنهم واجب الزيادة فى توزيعهـا طلبا للمـعروف. ويبدو أن الهـدف العام من هذه الرواية هو إبراز الدور الكبـير الذى لعـبه ابن سبـأ فى إحداث الفـتنة، وإدانة الذين حرضـوا على الخليفة وشاركوا فى قتله واتهامهم بالتأثر بأفكار ومخططات ابن سبأ[1].

هدف الطبرى من عرضه لهاتين الروايتين التأكيد مجددا على الدور التآمرى الذى لعـبه ابن سـبأ فى الفـتنة، وذلك فى محـاولة منه لإلقـاء تبعـاتها المؤلمة عليـه. ودوره التخريبى فى المجتمع الإسلامى.

٢١ - مبادئ عبد الله بن سبأ:

أما مبادئ ابن سبأ فإنها تستند إلى مبدأين.

أ- الرجعة: أكد ابن سبأ على رجعة الرسول ﷺ بعد الموت.

ب- الوصية: أشار ابن سبأ إلى أن لكل نبى وصيًا، ووصى النبى محمد ﷺ هو على «محمد خاتم الأنبياء ﷺ، وعلي خاتم الأوصياء» ووفقا لهـذه العقيدة فإن أبا بكر وعمر وعثمـان تجاوزوا وصية الرسول ﷺ بالإمامة لعلي من بعده، واغتـصبوا حقه فى ذلك[2].

وعلى الرغم من اختـلاف المؤرخين حول تاريخ التشيع فـى الإسلام، وتساؤلهم عما إذا ظهر فـى حياة الرسول ﷺ كما يشـير علماء الشيـعة، أو بعد وفاته مـباشرة، بسبب الاختلافات حول من يـخلفه فى الإمامة والخلافة[3]. فإن من الصعب التصديق بأن الأفكار الشـيعيـة التى طرحهـا ابن سبأ جـرى تداولها فى الفـترة الأولى من عـمر المجتمع الإسلامى الذى حافظ إلى حد كبير على وحدة وتماسك بناء العقيدة على تعاليم القرآن وسنـة الرسول ﷺ واجـتهـاد الخلفاء والصـحابة ولـذلك «إذا نظرنا إلى التشـيع

---

(١) المؤرخون العرب والفتنة الكبرى عدنان ملحم.

(٢) انظر آراء الطبرى الرافضة لفكرة الوصية الفصل الأول ص ٦٤.

(٣) عرفان عبد الحميد، دراسات فى الفرق والعقائد الإسلامية ص ٢٥-٢٦.

كمصطلح مرادف للقول بالنص والتعيين أمكننا أن نقول: إن ظهوره الدينى والفكرى كمذهب فى الإمامة والسياسة تأخر إلى نهاية القرن الأول للهجرة»[١].

فهل أورد الطبرى رواية سيف بن عمر لإدانة غلاة الشيعة الذين هاجموا وكفروا كبار الصحابة، مثل أبى بكر، وعمر، وعثمان، وعائشة، وطلحة، والزبير بحجة أنهم ظلموا عليا وتآمروا عليه، وغصبوه حقه فى الإمامة[٢]. وهل أراد النيل من الشيعة بإبراز علاقتهم مع السبئية التى لعبت دورا كبيرا فى إثارة المشكلات داخل المجتمع الإسلامى خلال الفتنة.

وشكل عرض الطبرى لهذه الرواية إدانة غير مباشرة لأفكار الشيعة، استخدمها بهدف خلق انطباع عام بوجود قاسم مشترك بين الدور التآمرى لكل من ابن سبأ والشيعة، ومن جانب آخر لم يلجأ الطبرى إلى عرض العديد من الروايات التى عرضتها المصادر المختلفة عن دور ابن سبأ الصريح فى بلورة هذه الأفكار، كما تجاهل ردود الفعل على الرافضة لهذا الدور. ويبدو أن السبب الرئيسى لإحجام الطبرى عن عرض مثل هذه الروايات هو عدم وجود علاقة لها بالدور الذى لعبه ابن سبأ فى إحداث الفتنة نفسها، والذى تجاهلته معظم هذه المصادر[٣].

أما عن علاقة السبئية بعلي، فهى من ناحية نشير إلى علاقتها القوية مع شيعته ودعمها الكبير لهم، ومن ناحية أخرى نشير إلى عدم انصياعها لأوامر علي على الرغم من أنها عرفت بولائها الشديد لعلي، وعملت من خلال زعيمها اليهودى عبد الله بن سبأ، على ضرب الإسلام، بإثارة الصراع بين المسلمين فكانت سبب ماحدث من فتنة أوضحناها فيما سبق.

واتهم الطبرى القبائل التى هاجرت إلى الأمصار بعد الفتح - الروادف - بدعم وتأييد السبئية. إذ استطاعت خلال مدة قصيرة لاتبلغ خمسة أعوام تكوين الأتباع فى الكوفة، والبصرة، ومصر والحجاز، لكنها فشلت فشلا ذريعا فى الشام، نتيجة لاختلافه

---

(١) ن. م. ص ٢٧.

(٢) عبد العزيز الهلابى، عبد الله بن سبأ، ص ٢٦.

(٣) ابن سعد الطبقات جـ ٣ ص ٢٩، الجاحظ البيان جـ ٢ ص١٨١، ابن قتيبة، تأويل مختلف الحديث ص٧٢. ابن عبد ربه، العقد جـ٢ ص٤٠٥، أبو الحسن الأشعرى مقالات الإسلاميين جـ ١ ص٨٥ الناشئ الأكبر، مسائل الإمامة ص ٢٢-٣٣، ابن حبان المجروحين. جـ٢ ص٢٥٣، المقدسى البدء جـ ٥ ص ١٢٩، النوبختى فرق الشيعة ص ٣٣، الرازى الزينة فى الكلمات الإسلامية ص ٢٠٥.

عن الأقاليم الأخرى من حيث الطبيعة القبلية، فالقبائل العراقية والمصرية أكثرها قبائل بدوية أو شبه رحالة، أما القبائل الشامية فهى قبائل متحضرة عرفت طبيعة الاستقرار، كما أن الشام لم تتعرض لضغط الروادف مثلما تعرضت له العراق ومصر، ومن هنا كان المجال واسعا لتصاعد الأحداث فى هذين الإقليمين ضد السلطة المركزية فى المدينة.

وأبرز الطبرى الآثار الخطيرة للحركة الشعوبية على المجتمع العربى والإسلامى من خلال اختلاق السبئية وإلصاقها برجل يهودى دخل الإسلام حديثا بهدف تنفيذ مخططاته ودسائسه لضرب أسس استقرار المجتمع الإسلامى، حيث نجح فى ذلك بإشعاله لفتنة أول ضحاياها عثمان بن عفان الخليفة العربى المسلم، ويجدر التذكير هنا بأن الحركة الشعوبية برزت بشكل كبير خلال الدولة العباسية، وذلك فى الفترة التى عاصرها كل من سيف بن عمر والطبرى. وفى عهد الرشيد ظهر سيف بن عمر الأسدى، أيضا. ولقد صرف همته فى تأريخه للفتوح ولارتداد العرب (بعيد وفاة الرسول ﷺ) ولوقعة الجمل إلى تمجيد قبيلته، تميم، وكان مولعا بالخوض فى المحسنات والتزاويق الخيالية. ومهما يكن من شىء، فقد أعجب الطبرى إعجابا شديدا بتاريخ سيف بن عمر هذا - وليس محل ثقة فى التفاصيل على الإطلاق - حتى لقد اعتمده من دون سواه تقريبا، وبذلك أضل المؤرخين الذين جاءوا من بعده واعتمدوه فى تآليفهم[1].

وألقى الطبرى تبعة أحداث الفتنة ونتائجها المختلفة على شخصية يهودية ادعت الإسلام، وبرأ جمهور الصحابة بشكل خاص، والمسلمين بشكل عام من هذه المسئولية الخطيرة، فالمجتمع الإسلامى هو مجتمع متماسك، لايمكن لأفراده أن يرفعوا السلاح بعضهم فى وجوه بعض، وإذا تم ذلك - كما حصل فى الفتنة - فهو نتيجة مؤامرة فاضحة خططها ودبرها يهودى حاقد على الإسلام والمسلمين، وساعده فى تنفيذها أصحاب المصالح الخاصة الذين غرر بهم - ولقد شكل هذا الهدف السبب الرئيسى الذى دفع الطبرى لعرض قصة السبئية على الرغم من نقاط ضعفها الواضحة للعيان، والتى لابد أن تكون قد أثارت انتباهه، وهو المؤرخ والفقيه، الذى عرف عنه حرصه ودقته فى عمله وعلمه.

إن اسم عبد الله بن سبأ ولفظة السبئية حقيقتان أكدت عليهما مختلف المصادر بأشكال شتى، على الرغم من المآخذ التاريخية الكثيرة التى يمكن مناقشتها فى مجال

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية كارل بروكلمان.

آخر بعيدا عن هذه الدراسة. إلا أن السبئية ودورها الرئيسى فى مجريات الفتنة، كما عكستها روايات سيف بن عمر فى الطبرى هى قصة موضوعة للأسباب السابقة الذكر

وكان الكيسانية من الشيعة الغلاة. يقول سعد الأشعرى: «إن الكيسانية قالوا فى علي قولا عظيما شنيعا...» [1] وكانوا يقولون بإمامة ابن علي المعروف بابن الحنفية، وزعموا أن على بن أبى طالب نص على إمامة ابنه محمد ابن الحنفية؛ لأنه دفع إليه الراية بالبصرة[2]. وقالوا بالتناسخ ويزعمون أن الإمامة جرت فى على ثم فى الحسن، ثم فى الحسين ثم فى ابن الحنفية، ومعنى ذلك أن روح الله صارت فى النبى ﷺ، وروح النبى ﷺصارت فى علي، وروح الحسين صارت فى محمد ابن الحنفية، وروح ابن الحنفية صارت فى ابنه أبى هاشم..»[3] ويعتقدون فى ابن الحنفية «اعتقادا فوق حده ودرجته، من: إحاطته بالعلوم كلها، واقتباسه من (السيدين) الأسرار بجملتها من علم التأويل والباطن، وعلم الآفاق والأنفس»[4] ويجمع الكيسانية «القول بأن الدين طاعة رجل»[5].

وقالت فرقة من الكيسانية: «إن محمد ابن الحنفية هو المهدى سماه أبوه على مهديا، ولا يجوز أن يكون مهديان: مهدى فى أيام ابن الحنفية ومهدى بعد ذلك، وقالوا: إن ابن الحنفية غاب فلا يدرى أين هو وسيرجع ويملك الأرض، ولا إمام بعد غيبته إلى رجوعه..»[6].

ويركز د. فياض على استبعاد الحنفية لأولاد علي من فاطمة فيقول:

نفيد من النصوص السابقة ما يأتى:

أولا - إن الكيسانية خرجوا بالإمامة من أولاد علي من فاطمة إلى ولد محمد ابن الحنفية. وبذلك مهدوا لخروج الإمامة لا من ولد فاطمة فحسب بل من ولد علي كافة. فظهر جماعة منهم «يتسمّون المعاوية[7] ويزعمون أن الأرواح تتناسخ» وأن روح الله

(١) الأشعرى أبو الحسن، مقالات الإسلاميين، ج ١، ص ٩٠.
(٢) الأشعرى، سعد، المقالات والفرق، ص ٢٦ - ٧.
(٣) الشهرستانى الملل والنحل، ج١ص١٣١وقصد الشهرستانى بالسيدين الحسن والحسين-رضى الله عنهما -
(٤) السابق، ١: ١٣١.
(٥) الأشعرى، المقالات، ص ٢٧.
(٦) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ١١١
(٧) نسبة إلى عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب.

«صارت فى محمد ﷺ، ثم فى علي، ثم فى محمد ابن الحنفية ثم فى ابنه أبى هاشم، ثم فى(عبد الله بن معاوية)»[1]. وقد توفى عبد الله بن معاوية هذا فى سجن أبى مسلم فى خراسان سنة ١٣٠هـ بعد فشل ثورته التى سبق أن قام بها ضد الأمويين.

وبذا أخرجت «المعاوية» الإمامة من ولد علي إلى شخص غير علوى من ذرية جعفر بن أبى طالب وتوسعت قضية إخراج الإمامة، مع الزمن، على يد فرق الكيسانية ولم تعد تلك الإمامة مقتصرة على آل أبى طالب، بل يصح أن نعدها سلفا للراوندية التى جعلت الإمامة فى ولد العباس قال سعد الأشعرى: إن الكيسانية افترقت بعد موت أبى هاشم فقالت فرقة: إن أبا هاشم أوصى «إلى محمد بن على بن عبد الله بن العباس.. فهو الإمام وهو الله وهو العالم بكل شيء، فمن عرفه فليصنع ما شاء، وهم غلاة الروندية (الراوندية)[2].

وأرجح أن وصية أبى هاشم إلى محمد بن علي العباسى موضوعة، وأن «الهاشمية» جماعة أبى هاشم، وأسلاف الراوندية قالوا بإمامة محمد بن علي العباسى مباشرة، وذلك أنه بعد أن جاز إخراج الإمامة من ولد علي من فاطمة إلى ابن الحنفية، ثم إلى ولد جعفر بن أبى طالب[3] أصبح من الممكن تقليدها لبنى العباس، وقد استفاد العباسيون ودعاتهم[4] من الغلو ووجهوا تذمر الغلاة الذين كان جلهم من الموالى فى عصر الأمويين لمصلحتهم فاستعملوه للتشهير ببنى أمية أولا ثم فى إسقاط حكمهم يوم حان الوقت.

ثانيا –وقد انحط مركز الإمامة كثيرا على يد فرق من الكيسانية وذلك حين أباحت تلك الفرق لأفراد من الناس لا يمتون للعلويين ولا للهاشميين بصلة أن يتقدموا الإمامة قال سعد الأشعرى: إن حمزة بن عمارة البربرى الذى كان ينتمى إلى أصحاب ابن حرب من الكيسانية ثم فارقهم، «ادعى أنه نبى وأن محمد ابن الحنفية هو الله..»[5] وقال الأشعرى أيضا: إن فرقة من الكيسانية خرجت «إلى القول بإمامة بيان بن سمعان

---

(١) الأشعرى، سعد، المقالات، ص ٤٢. قال الأشعرى (ص٤٣). إن أبا مسلم قتل عبد الله هذا.

(٢) المقالات والفرق، ص ٣٩ - ٤٠.

(٣) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٢.

(٤) روى الشهرستانى (الملل والنحل، ١:١٣٧) أن أبا مسلم صاحب الدولة كان كيسانيا وأنه اقتبس من دعاتهم العلوم التى اختصوا بها».

(٥) الفرق والمقالات، ص ٢٨ - ٣٢.

النهدى، وادعى بيـان أن أبا هاشم أوصى إليه فـاستجـابت له طائفة ممن قال بإمـامة ابن الحـنفية»[1] ثم إنّ طائفة «ادعت أن إمامة عبـد الله بن عمرو بن الحرب الكندى الشامى بعـد أبى هاشم، وأنه أوصى إليـه، وأن روح أبى هاشم انتـسـخت فيـه. .»[2] وهكذا أصبحت الإمـامة بفعل فرق من الكيـسانية الغلاة تنتـقل من أصحابها الشـرعيين، وهم حسب عقيدة الإمـامية، الأئمة الاثنا عشر المعصومون، إلى أبنـاء علي من غير فاطمة ثم إلى أحد ولد جعفر بن أبى طالب، ثم إلى العباسيين وأخيرا إلى رجل بربرى آخر نهدى وثالث كندى.

وقد التفت الشيخ المفيـد أحد فقهاء الشيعة الإماميـة إلى خطر ذلك الاتجاه فتقدم بأدلة نقلية وأخرى عقلية[3] على إبطال إمامة محـمد ابن الحنفية وإثبات إمامـة معاصره علي بن الحسين المعروف بزين العابدين.

وأعتقد أن من بين الأسباب التى أدت إلى انحطاط مـركز الإمامة، وسهل للغلاة أن يلصقـوا أفكارهم الغـريبة عن الإسـلام فيها، هو الاتجاه الذى تبناه بعد مقتل الحسين - رضى الله عنهم - الأئمة المعصومون حين أجلوا الخـروج بالسيف على ظلم معاصريهم (من الحكام انتظارا لخروج المهدى صاحب الزمان) لسلاطين الوقت دون غيرهم الذين لا يرون الخروج عليهم.

ولا يعتـقدون أنهم يقومـون بالسيف ويزيلون الدول، بل كـان المعلوم من حالهم أنهم ينتظرون مهديا لهم، وليس يضر السلطان اعتقاد من يعتقد إمامتهم إذا أمنوهم على مملكتهم ولم يخافوا جانبهم. . .»[4] وقد رأى جماعات من المعارضين وبخاصة الموالى، الذين كانت أكثريتـهم غلاة، والذين آلمهم التمييز العنصـرى وأثقلت الضرائب كاهلهم، أن العدل الذى يعم الأرض بعد خروج المهدى الغائب بعيد المنال، وأن فيهم حاجة ملحة إلى قيادة حاضرة تقودهم نحو النصر على حكامهم الظالمين. ولما عجز هؤلاء عن وجود تلك القيادة فى المرشحين الشرعيـين للإمامة، انصرفوا عنهم للآخرين من ذوى الطموح السياسـى، وربما من ذوى الرغبة فى الإصلاح الاجـتماعى أمثال المخـتار وزيد بن على وعبد الله بن معاوية وأخيرا بنى العباس[5].

---

(١) السابق، ص ٣٥. (٢) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٣.
(٣) المفيد، الإرشاد، ص ٢٣٧ - ٨.
(٤) الغيبة (النجف، ١٣٨٥) ص ٣٠٠.
(٥) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٤.

ثالثا - كان الـكيسانية أول من رسخـوا فكرة المهدى الغائب وطرحـوها فى حيز العمل. نسب الكيسانية القول بفكرة مهـدية محمد ابن الحنفية إلى أبيه على ـ رضى الله عنهم ـ كما يظهر من نص سابق أوردناه فى صدر هذا البحث.

ويبدو أن فكرة مهدية ابن الحنفية كانت شـائعة فى عصره. قال ابن سعد «فلما اتسق الأمر للمختار كتب لمحمد بن علي المهدى من المختار..»[1].

وفى مـحادثة مع إبراهيـم بن الأشتـر قال المخـتار لإبـراهيم: «وقد كـتب إليك المهدى..»[2]وذات مرة جاء رجل إلى ابن الحنفية وقال: «السلام عليك يا مهدى..».

وجرى حديث بين محمد والرجل عن أمر آل مـحمد فقال الرجل: «كانت تبلغنا عنك أحاديث من وراءك فأحببت أن أشافهك الكلام..»[3].

والحق أن ابن الحنفية لم يقر الغلو الذى قيل فيه، ولم يعترف بأنه المهدى المنتظر، وروى ابن سعـد حديثا رفـعه إلى أبى العـريان المجاشعى قـال: «بعثنا المخـتار فى ألفى فارس إلى محمد ابن الحنفية... قال فبلغ محمدا أنهم يقولون: إن عندهم شيئا أى من العلم. قـال فقـام فينا وقـال: إنا والله ما ورثنا من رسـول الله ﷺ إلا ما بين هذين اللوحـين.ثم قال:اللهم خـلا وهذه الصـحيـفة فى ذؤابة سـيـفى فسـألت وما كـان فى الصحيفة؟ قـال: من أحدث حدثا أو آوى محدثا..»[4] وقال محمد للرجل الذى قابله وسأله عن أشـياء سرية نميت إلى الرجل عن محـمد: «أما بعد فـإياكم وهذه الأحاديث فـإنهـا عـــيب عليكم، وعليـكم بكتـاب الله.. فـــإنه به هُدِى أولكـم وبه يُـهْـــدَى آخركم...»[5]

ويظهر أن المختار هو الذى روّج فكرة مـهدية محمد لأسباب سـياسية أى أنه أراد أن يحكم باسـمه دون إشراكـه بالسلطة الفعـلية. وعندما هـم ابن الحنفية أن يـقدم إلى الكوفة وبلغ ذلك المختـار فثقل عليه قـدومه فقال: «إن فى المهدى عـلامة، يقدم بلدكم هذا فيضربه رجل فى السوق بالسيف لم تضره.. فبلغ ذلك ابن الحنفية فأقام..»[6].

(١) الطبقات، ج ٥، ص ٧٣.
(٢) السابق، ج٥ ص ٧٢.
(٣) السابق، ج ٥ ص ٧٠.
(٤) السابق،ج ٥، ص ٧٧.
(٥) أيضا، ج٥، ص ٧٠
(٦) تاريخ الإمامية ومن سلف من الشيعة ص ١١٥.

رأينا أن منشأ السبئية يرجع إلى زمان علي والحسن، وتنسب إلى عبد الله بن سبأ وكما يتضح من اسمه الغريب، فإنه كان أيضا يمنيا، والواقع أنه من العاصمة صنعاء. ويقال أيضا: إنه كان يهوديا. وهذا يقود إلى القول بأصل يهودى لفرقة السبئية. والمسلمون يطلقون «اليهودى» على ما ليس فى الواقع كذلك. بيد أنه يلوح أن مذهب الشيعة، الذى ينسب إلى عبد الله بن سبأ أنه مؤسسه، إنما يرجع إلى اليهود أقرب من أن يرجع إلى الإيرانيين[1].

٢٢ - تقييم مبادئ الكيسانية والسبئية:

الوصية:

إن الفكرة القائلة بأن النبى ﷺ ملك يمثل سلطان الله على الأرض قد انتقلت من اليهودية إلى الإسلام. ولكن الإسلام يقول: إن محمدا ﷺ خاتم النبيين، وبعد وفاته حلت محله الشريعة وهى أثر مجرد غير مشخص، ومعوض عنه أقل قيمة بكثير جدا. فكان ذلك نقصا ملموسا، فمن هنا تبدأ نظريات الشيعة. وكان المبدأ الأساسى الذى بدأ منه مذهبهم هو: أن النبوة، وهى المعرض الشخصى الحى للسلطة الإلهية، تنتسب بالضرورة إلى الخلافة وتستمر تحيا فيها[2]. وقبل محمد ﷺ وجدت سلسلة طويلة متصلة من الأنبياء الذين يتلو بعضهم بعضا، على نحو ما يقول اليهود «سلسلة دقيقة من الأنبياء».

وكما ورد فى إصحاح ١٨ من سفر «ثنية الاشتراع» من أنه لم يخل الزمان أبدا من نبى يخلف موسى ومن نوعه. وهذه السلسلة لا تقف عند محمد ﷺ. ولكل نبى خليفته إلى جانبه يعيش فى أثناء حياته هذا الـ (الزميل الثانى) هو أيضا (فكرة يهودية) فكما كان لموسى خليفة هو يوشع، وكذلك لمحمد خليفة هو علي، وبه يستمر الأمر. على أن كلمة «نبى» لم تطلق على علي وبنيه ـ بل أطلق عليهم أسماء «الوصى» أو

---

(١) سنعتمد هنا على ماورد فى الطبرى جـ ١ ص ٢٩٤٢ على مذهب ابن سبأ، وعلى أشعار شعراء الشيعة الأقدمين: كثير والسيد الحميرى فى كتاب «الأغانى». وأما ماورد فى كتب تاريخ العقائد (الملل والنحل) المتأخرة فلا تختلف جوهريا عن هذا. وكل مافيها هو التمييز بين السبئية والكيسانية والمختارية إلخ..، وهى تمييزات لامبرر لها، ولا خلاف إلا فى الأسماء.

(٢) الطبرى ٢-١٩٦١.

«المهدى» أو «الإمـام» عامة[١]. ولكن إن لم يطلق الاسم فـإن الحقـيقـة الفعليـة كانت مقصودة بوصفهم عارفين بالغيوب وتجسيدات الخلافة عن الله. ثم إن السلسلة بعد محمد ﷺ لم تصور على أنها طويلة؛ لأن الناس كانوا يترقبـون نهاية الدنيا وختام التاريخ على الأرض فى زمان قصير. يقول السيد الحميرى[٢]:

ألا إن الأئمة من قـريش ولاة الحق أربعة ســواء

علي والثلاثة من بنيـــه هم أسباطه والأوصيــاء

وكذلك بمثله يقول كثير[٣]. والأخير، وهو محمد ابن الحنفية، سيظل حيا حتى يملأ الدنيا عدلا بعـد أن ملئت جورا، فهو ميت فى الظاهر، ولكنه فى الحقيـقة مستور فى كهف جبل رضوى (قـرب المدينة) حيث الغـزلان والأسود تحيـا معـا فى سلام مع بعضها بعضا، ويتغذى هناك بعـسل وماء. ويلتمس منه الظهور عزاء لأصحابه. بعد أن تركهم ينتظرون عودته بعد ستين عاما[٤]. وبعد موت الحسن والحسين آل ميراث الخلافة إلى محمد ابن الحنفية، وبويع مدة. وممن بايـعه إبراهيم بن الأشتر. وطاب للمختار أن يتخـذ منه صورة مظهرية يعـمل من ورائها. وأكثر من هذا أنـه استغل كشـيخ للجبل، فكان شبحـا باسمه يعمل كل مايراد عـمله دون أن يكون مسئولا عنه. وكـان تمجيده ـ وظل كذلك ـ علامة على غلاة الشيعة[٥]، وهم المعروفون بـ«الغلاة» أو «المفرطين». ثم إن العباسيين بنوا شرعية حقهم فى الخلافة على أساس الادعاء أن ابن محمد ابن الحنفية وريثه. وهو أبو هاشم. قد تنازل عن حقه للعباسيين. كـما أنهم استخدموا غلاة الشيعة فى الكوفة وخراسان أداة لهم. وقـد لقب هؤلاء الشيعة بالهاشمـية نسبة إلى أبى هاشم المذكور. وقد دخلت الهاشمية بعد ذلك فى الراوندية. وهؤلاء الأخيرون كانوا يمجدون ابن الحنفية على أنه الإمام الحق[٦].

---

(١) الخوارج والشيعة ص ١ فلـهاوزن ترجمة د عبد الرحمن بدوى، العرب والإسـلام والخلافة العربية سيف د. أنيس فريحة.
(٢) الأغانى ج٧ ص ٩ وما يليها.
(٣) الأغانى ج ٨١ ص ٣٢.
(٤) الأغانى ج ٧١ ص ١٠، ج٨ ص ٣٢.
(٥) الأغانى ج٧١ ص ٤. ص ٥.
(٦) المسعودى ج٦ ص ٤. ص ٥

٢٣ - الرجعة:

وأقيم تأليه آل بيت الرسول ﷺ على أساس فلسفى بواسطة مذهب «الرجعة» أو «تناسخ الأرواح». فالأرواح تنتقل بالموت من جسم إلى جسم. وثمة بعث مستمر فى المجرى الطبيعى للحياة الدنيا، وهذا فى تناقض حاد مع القول ببعث واحد عند زوال الدنيا. ويستفيد هذا المذهب أهمية عملية وخصوصا عن طريق رفعه إلى روح الله التى تحل فى نفوس الأنبياء. فهذه الروح تنتقل من نبى إلى نبى آخر بعد وفاة السابق. ولا يوجد فى الوقت الواحد غير نبى واحد، ويتتابعون حتى يبلغوا ألف نبى. وتبعا لهذا فإن الأنبياء جميعا واحد بما يبعث فى كل منهم من روح الله. والحق أن النبى الصادق الحق واحد يعود أبدا من جديد. وبهذا المعنى قالوا: إن محمدا ﷺ يبعث فى علي وآل علي. ويبنون ذلك على الآية ٨٥ من السورة ٢٨ والآية ٨ من السورة ٨٢. وهذا يذكر كثيرا بالفكرة المحتمل جدا أنها يهودية. وإن كانت من البدع اليهودية التى وردت فى المواعظ المنحولة على كليمانس، فروح الله تتحد فى آدم مع شخص إنسان يظهر بصفة النبى الصادق فى صور متعددة وقد قدر له السيادة على الملكوت الدائم.

لكن المتأخرين قد فهموا ـ فيما يبدو ـ «الرجعة» على نحو آخر. فقد تصوروها على نحو جدلى. فقالوا بفترة «غيبة» دورية للإمام الصادق. ثم سموا ـ فى مقابل ذلك ـ ظهوره من جديد «رجعة». والمعنى الأصيل للرجعة يظهر جليا من مرادفتها لتناسخ الأرواح. والسيد الحميرى يؤمن أيضا برجعته هو نفسه. ومن أجل ذلك كانوا يسخرون منه ويشنعون عليه («الأغانى» جـ٧ ص٨). كما يتضح أيضا من كون كثير كان يعد جميع أبناء الحسن والحسين أنبياء صغارا؛ لأنه يؤمن بالرجعة (الأغانى ٨-٣٤). وكذلك من كون محمد ﷺ كان ينظر إليه على أنه يرجع. وخصوصا فى ورثة دمه (آله) ونبوته. والمؤرخون المحدثون لم يتنبهوا إلى هذا ولم يعرفوه. ولعل العقيدة القديمة كانت تذهب إلى حد القول بأن الإمام الصادق حى دائما على الأرض. وإن لم يكن دائما فى عزته وسلطانه.

ومما هو جدير بالذكر والتنويه ما قاله أبو حمزة[1] الخارجى (سنة ١٣٠هـ) فى

(١) الطبرى جـ ١ ص ٢٩٤٢/ - إن الموازنة بين رجعة محمد ورجعة عيسى خطأ وسوء فهم؛ لأن محمدا ﷺ لا يرجع إلى يوم الحساب، فإن هذا الاعتقاد خاص بعيسى وحده، ويقوم على أساس مختلف تماما، ولا يتعلق بالدهر (الأيون) الحالى، بل بالدهر المقبل، راجع كذلك ابن الأثير جـ ٦ ص ٢٦ س٢ وما يليها، «الأغانى» جـ ٣ ص ٢٤ س ٩، ص ١٨٨ س ٩ وما يليها، جـ ٤ ص ٤٢ س ٢٨، جـ ١١ ص ٤٦ س ٦.

خطبة له على المنبر بالمدينة عن الشيعة(«الأغانى» جـ ٢٠ص ١٠٧)، قال: «شيعة أزرت بكتاب الله وأعلنت الفرية على الله،لا يرجعون إلى نظر نافذ فى القرآن، ولا عقل بالغ فى الفقه، ولا تفتيش عن حقيقة الصواب. قد قلدوا أمرهم أهواءهم، وجعلوا دينهم عصبية لحزب لزموه وأطاعوه فى جميع ما يقوله لهم: غيا كان أو رشدا، أوضلالة أو هدى ينتظرون الدول فى رجعة الموتى، ويؤمنون بالبعث قبل الساعة، ويدعون علم الغيب لمخلوق لا يعلم أحدهم ما فى داخل نيته،لا يعلم ما ينطوى عليه ثوبه أو يحويه جسمه. ينقمون المعاصى على أهلها، ويعملون إذا ظهروا بها، ولا يعرفون المخرج منها. جفاة فى الدين، قليلة عقولهم، قد قلدوا أهل بيت من العرب دينهم، وزعموا أن موالاتهم لهم تغنيهم عن الأعمال الصالحة وتنجيهم من عقاب الأعمال السيئة»[1].

ويقول مشابه لهذا يقول الخليفة هشام فى كتابه إلى يوسف بن عمر[2]: إن عبادة الشيعة لله كانت عبادة لبنى الإنسان. والنتيجة لذلك قيصرية بابوية معا. كانوا يعترضون على إمامة السلطة القائمة، ولكن إمامتهم الشرعية القائمة على ذم الرسول ﷺ (ذرية آل البيت) لم تكن أفضل منها؛ إذ كانت تفضى إلى إهدار القانون وكسر الشريعة. فالإمام عندهم كان فوق النصوص الحرفية وكان يعلم الغيب، فمن اتبعوه وأطاعوه سقطت عنه التكاليف وخلا من المسئولية. تلك أمور أخذها عليهم الخوارج خصوصا وأبرزوها؛ إذ كان الخوارج يضعون الشريعة المقررة فوق كل إنسان ويتشددون على هذا أكثر جدا من سائر الفرق؛ ولذلك كانوا يحكمون على صلاح الإمام أو فساده بحسب تمسكه بأحكام الشريعة.

٢٤ - التقارب إلى تراث فارس:

وكان تحول الموالى إلى شيعة غلاة حادثا ذا أهمية كبرى فى التاريخ العالمى الإسلامى. ولعل المختار كان قد وجد الموالى من قبل وقد أصبحوا شيعة، ولكن الفضل يرجع إليه فى كونه هو الذى دفع بهم إلى الميدان والعمل. ولم يكن يرمى فى بداية الأمر إلى إثارتهم ضد العرب، بل اتبع سياسة المهادنة والتوفيق، كانت الشيعة كلها من ورائه حتى استطاع أن يجتذب إليه الأرستقراطية العربية المعادية. وشاء القضاء على الفوارق بين المسلمين من الطبقة الأولى والمسلمين من الطبقة الثانية، فمن يأخذ عليه

(١) كان السيد الحميرى يشرب الخمر ولا يقلع عن ذلك، ولكنه كان يعتقد أنّ من يتشيع لعلى سيغفر له شرب الخمر

(٢) الطبرى ج٢ ص ١٦٨٢ ص ٥ وما يليه

ذلك، لا يكن له الحق فى أن يأخذ على الحجاج أنه عمل العكس فأكد هذه الفوارق بكل قوة وأعادها إلى ما كانت عليه. والحق أن المختار خليق بالمديح؛ لكونه كان أسبق من غيره فى إدراك أن الأحوال القائمة آنذاك لا يمكن أن تبقى كما هى؛ إذ لم يكن الإسلام بل العنصر العربى هو الذى يعطى الحقوق المدنية الكاملة فى الحكومة الدينية، ولو كان المختار قد حقق هدفه الأصلى لكان من الممكن أن يكون منقذ الدولة العربية. ولكن العرب لم يشاءوا الحد من امتيازاتهم عن طيب خاطر. ومن هنا اضطر المختار إلى خوض الكفاح ضدهم وإلى الارتماء بكليته فى أحضان الموالى والسبئية. ولكن هذا النضال انتهى إلى القضاء عليه، فقضى على الموالى بوصفهم قوة سياسية. وعلى الرغم من ذلك فإن ذكرى سلطانهم (الذى كان كالحلم) فى سنة ٦٦- ٦٧ لم تنطفئ، وظلت بقية من حزبهم تعمل فى الخفاء. وهذه البقية عقدت بعد ذلك بزمان طويل صلات مع خراسان، حيث مركز العصبية الشعبية الإيرانية التى أثارت العاطفة التى أطاحت فيما بعد بالسيادة العربية. وهكذا كان المختار سلفا لأبى مسلم الخراسانى. والأرواح التى حضرها نمت وازداد عددها أكثر مما كان يتصور. ولهذا فإن أثره ـ على الرغم من إخفاقه ـ كان كبيرا جدا، ولكنه لم يكن يقصد إليه قصدا. والقول بأنه خان بنى قومه لحساب الفرس فأطاحوا برأسه جزاء وفاقا لخيانته هذه قول مع الحكم بالهوى وخطأ من عدة نواح. وبالجملة، فإن المختار ظاهرة حافلة بالمأساة لا يحق لنا أن نشعرنحوها بنفس النفور الذى شعر به نحوها معاصروها.

٢٥ - البحث عن الشعار الشرعى الحقيقى:

ألزمت السلطة الحاكمة الموالى حدودهم، وأثار المختار الروع والتشكك فى نفوس العرب وكان أهل الكوفة جميعا من الشيعة بالقدر الذى كانوا به يعارضون حكم الأمويين، ولم يكن تشيعهم عن تفان فى آل علي وحرص على أن يكون الأمر لهم(١). والثورة التى قام بها عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث قد قصد بها إلى امتلاك العراق بحكم نفسه ضد سيادة الشام والأمر نفسه يقال عن ثورة يزيد بن المهلب.

أما الشيعة الحقيقيون فقد اعتصموا بالهدوء وقتا طويلا.

وأحفاد النبى ﷺ وهم أبناء علي من فاطمة وأحفادهم، قد عاشوا فى المدينة، بلد الأرستقراطية التى تعيش على بيت المال فى الإسلام. وكانوا أبرز الناس فى المجتمع

(١) الطبرى جـ ٢ ص ١٢٥٨ وما يليها

المدنى المنحل وأكثرهم شعبية. وكان بنو أمية يدللونهم طالما ظلوا ملتزمين الدعة والهدوء. أما بنو الزبير وأحلافهم من بنى مخزوم فكانوا يبغضونهم. وكان يود كل امرئ أن يزوجهم بناته، واستغلوا الفرصة لإكثار الدم الطاهر (يقصد دم النبي ﷺ - أعنى نسله). فعاشوا بمعزل عن كل هم فى المدينة.

حقا، إنهم لم يطلقوا دعواهم للخلافة ولكنهم لم يلاحقوا الدعوى بانتظام واستمرار، ولم يشاءوا استغلال ذوى النزعات الثائرة والأحلام الهادفة إلى القضاء على سلطان العرب والمتآمرين، بل تركت هؤلاء للعباسيين الذين عرفوا كيف يستغلونهم، ولم يكن بين أحفاد علي وهؤلاء رجال بالمعنى الحقيقى، أما النسوة فكان من بينهن اللواتى يحملن طابع الذرية والأصالة، وخصوصا سكينة بنت الحسين. وكان نسلُ الحسين - وهو الأحدث - هو النسل الرئيسى لا نسل الحسن؛ لأن الحسن باع حقه فى ميراث الخلافة بيعة وكس وخزى.

بينما الحسين أراق دمه فداء لحقه. وكان خليفة الحسين هو علي بن الحسين الذى أنقذ فى كربلاء فكان يخاف النار. ثم ظهر من أبنائه زيد ومحمد، ثم ابن هذا الأخير وهو جعفر.

٣٦ - تفجير الصراع بين آل بيت علي والخليفة هشام:

ثورة زيد بن علي:

وقرب نهاية خلافة هشام وقع الحسنيون فى خصومة مع الحسينيين بشأن بعض الأوقاف التى حبسها علي أو النبى محمد ﷺ لنفسه على ذريته.. فاحتكم زعيم الحسينيين - وهو زيد بن علي - إلى الخليفة، وذهب بنفسه ومعه بعض بنى قرابته إلى هشام فى الرصافة. وكان يوسف بن عمر، والى الكوفة، قد أرغم يزيد بن خالد القسرى - ابن سلفه - على الكشف عن مصادر ثروته، وانتزع منه بالتعذيب اعترافا بأنه يدين زيد بن علي بمبلغ كبير من المال. فسأل هشام زيدا وصحبه عن هذه المسألة، فأنكروا هذه الواقعة، فرأى هشام ضرورة مواجهتهم بيزيد وكان يزيد محبوسا. فكان عليهم الذهاب إلى الكوفة، وهكذا سقطت الشرارة فى برميل البارود. فقد سحب يزيد الاعتراف الذى انتزع منه بالتعذيب حينما ووجه بهم، وعادوا من الكوفة إلى المدينة ولكن زيدا لم يعد معهم، فألح عليه الوالى فى الرحيل فارتحل، ثم عاد إلى الكوفة بعد

أن وصل إلى أول مرحلة فى الطريق إلى المدينة فعلى الرغم من نصح أحد أقاربه الفطنين له بعدم العودة وتوسله إليه فى ذلك. فتعلق الشيعة بزيد بن الحسين وقالوا له: إن الوقت مؤات، وإن سيطرة الأمويين على الكوفة لا تستند إلا إلى عدد قليل من جنود الكوفة، بل ولا على بنى مذحج أو همدان أو بكر أو تميم وحدهم. فاستجاب لرأيهم، ولكنه تذرع ببعد النظر والحيطة فكان يغير مركز إقامته باستمرار. وتزوج من أسرتين بينهما. واستمر مقامه حوالى شهرين فى المجموع، كان خلاله يقوم بالاستعدادات للتودة وباكتساب الأنصار فى البصرة والموصل أيضا، وبلغ عدد جنوده فى الكوفة ١٥٠٠٠ رجل. وكانت البيعة له تتضمن العمل بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ ومقاومة الحكام الجائرين ونصر المستضعفين ورد الفيء إلى من حرموا منه، وتوزيع الخراج بالعدل على مستحقيه، ورد الحقوق إلى أهلها، وإعادة من أرسلوا إلى القتال فى أماكن نائية إلى ديارهم، والدفاع عن آل البيت ضد أعدائهم الذين اغتصبوا حقوقهم. ولكن الكثيرين رأوا أن زيدا لم يكن متمسكا بحقوقه كما يجب. إذ إنه كان يتولى الشيخين: أبا بكر وعمر فيرى أنهما خليفتان شرعيان ـ وهذا القول ميزة جيدة له ولغالبية أنصاره من الكوفة ـ أو على الأقل امتنع من القول بأنهما مغتصبان للخلافة. قال الذين أخذوا عليه هذا الموقف: إنه بذلك يمكنه ألا ينكر بنى أمية. ولهذا انفصل عنه غلاة الشيعة، ولذلك سمى هؤلاء باسم «الرافضة»[1].

وهؤلاء الرافضة بايعوا أخا زيد وهو محمد بن علي، وبايعوا بعده ابنه جعفر على أنهما الإمامان الحقيقيان، والواقع أن هذين لم يشاءا من هذه البيعة شيئا[2].

---

(١) هم أنفسهم يقولون: إن هذا لم يكن زيد أول من أطلقه عليهم، بل أطلقه من قبل المغيرة بن شعبة (الطبرى ج ٢ ص ١٧٠٠). قارن الطبرى ٣ ٥٦١، «الكامل» ص ٥٤٨ س ١٠، «الأغانى» ج ٣ ص ٢٤ب س ١٩، ج ١٢ ص ٢٣ س٢٠، ج ١٨ ص ٥٩ س ٤ وما يليه. والسبئية هو الاسم الأقدم، والرافضه الاسم الحدث لشيء واحد بعينه.

(٢) ورد فى «الأغانى» ج ١٥ ص ١٢١، ج ١٩ ص ٥٨ أن بعض مجانين الشيعة الذين ثاروا فى ولاية خالد القسرى كانوا يصيحون: «لبيك جعفر» وهذه الصيحة تتضمن عبادة تأليه جعفر الذى لم يكن قد بلغ الثلاثين من عمره. أما فى الطبرى ص ١٦٣٠ فلم يرد شيء من هذا ولا يسمون هناك باسم «الجعفرية» بل «الوصفاء» (العبيد، الموالى). وكانوا ثمانية رجال فقط ولم يكونوا عربا، وكان على رأسهم المغيرة بن يعيد الرجل العجوز، وكان يقال إنه كان ساحرا. وقد كان لخبر ثورتهم وقع شديد على خالد القسرى، وكان على المنبر ساعتئذ، حتى طلب أن يأتوه معهم بماء - مما أثار السخرية الشديدة منه. فلما أتى بهم موثقين إليه، أمر بإحراقهم بطريقة هى الغاية فى القسوة والبشاعة.

وكان الوالى ـ يوسف بن عمر ـ لا يقيم فى الكوفـة، بل فى الحيرة، وفى الحيرة كان القسم الأكـبر من جنود الشام. واستطاع أخيـرا الحصول على معلومات دقـيقه عن حركات زيد بن علي بواسطة اثنين من أنـصاره حبسهما يوسف بـن عمر. ثم عرف أن زيدا سيضطر إلى الإسراع بالثورة ـ بعد حـبس هذين ـ وأنه حدد يوم الأربعاء غرة صفر سنه ١٢٢ (٦يناير سنة ٧٤٠) للقيام بحركته[١]. فأمر يوسف بدعوة الناس يوم الثلاثاء (الســابق على يوم بدء الثـورة) إلى المسجـد، وهناك حبـســهم وقام بعض جنود الشــام بحراستهم. ويبـدو أن هؤلاء المحبوسين فى المسجد كانوا راضين بهـذه الحماية من عدم حذرهم. فلما أراد إطلاق سـراحهم -وكان معه ٢١٨رجلا - جمـعهم فى ليلة الأربعاء وكان البـرد قارسا، لم يحـركوا ساكنا، واضطـر زيد إلى الانسحاب من المسـجد؛ لأن ألفين من جنود الشـام قد تحركوا من الحيـرة متجهـين إليه. فهزمهــم يوم الأربعاء وكان مسيطرا على ميـدان المعركة يوم الخميس، إلى أن جاءتهم النجـدة فى المساء بثلثمائة من القواســين القـيقانية[٢] والبخارية، فأوقع هؤلاء بحشود جنود الكوفة خسائر بالغة، فلما كان الليل انسحب أهل الكوفة إلى المدينة وتفرقـوا فى دورهم. وأصاب زيدا نفسه سهم ومات لما نزع منه الـسهم، فى دار بشارع البـريد. ودفن فى قاع قناة حبـس عنها الماء ثم أطلق ثانيـة. ولكن المكان اكتـشف فيـما بعـد وانتزعت الجثـة، ثم أخذت إلى الـكوفة وصلبت[٣]، وبقيت مصلـوبة هناك إلى موت هشام، أما الرأس فـقد أرسل إلى دمشق ومن ثم إلى المدينة[٤].

٢٧ - يحيى بن زيد وتجديد ذكرى كربلاء:

أما يحيى، الابن الصغير جدا لزيد بن علي، فقد اختفى فى نينوى (على الفرات عند كربلاء) عـند مولى لبشـر بن بشر بن مـروان. ومن هناك فر إلى خـراسان. وظل مختفـيا فى دار عربى نبيل فى بل إلى أن مات هشام. ثم دل عليـه وسلم. وأمر الوليد الثانـى بإطلاق سراحـه. ولكن بأمر الوالى نصـر دفع من مكان إلى مكان حتى مـدينة الحدود الغربية بيهق. ولو أنه استمر فى المسير لأصبح فى منطقة ولاية يوسف بن عمر.

(١) الواقدى فى الطبـرى ج ٢ ص ١٦٦٧ سنة ١٢١هـ.. ولكن سنة ١٢٢ التى يذكرها أبـو مخنف يؤيدها يوم الأسبوع: لأنه فى سنة ١٢٢ وحدها كان أول صفر هو يوم أربعاء.

(٢) مر كفرت: «ايرر أنشهر» ص ٥٠ marpuart :Eranschahr

(٣) صلبنا لكم زيدا على جذع نخلة شهد،لم نرد مهديا على الجذع يصلب («الكامل» ص ٧١٠).

(٤) (أبو مخنف فى الطبرى ج ص١٦٧٦- ص ١٦٧٧، ص١٦٧٨، ص- ١٧١١).

فلم يشأ أن يقع فى قبضة يد هذا. فمضى ناحية المشرق عائدا. واستطاع أن يصل هو والسبعون رجلا الذين معه إلى هراة. وإن كان عمال نصر قد أمروا بألا يدعوه يمر. ومن هراة ارتحل إلى جوزجان. ولكن فاجأه مطاردوه الذين بعث بهم فى إثره نصر. فسقط فى القتال مع صحبه عند الأنبار (ياقوت ١ ٣٧٠). وبأمر الخليفة أحرق فتى العراق (يحيى بن زيد بن علي) وألقى برماده فى الماء[1]. بعد ذلك ظهر أبو مسلم الخراسانى مطالبا بالثأر ليحيى وقتل قتلته (أبو مخنف فى الطبرانى ج ٢ ص ١٧٧٠ - ١٧٧٤). وهكذا كان مصير زيد كمصير جده الحسين. كذلك أحدث مصرعه تغيرا عند أولئك - أو عند بعضهم - الذين وعدوه بالإخلاص ولم يفوا بوعدهم، فقد أصبحوا له أنصارا صادقين وسموا أنفسهم باسمه: «الزيدية». ويتميزون من الرافضة بأنهم يتولون سلالة الحسين. وآخر ثورة قامت بها الشيعة فى عهد الأمويين هى تلك التى قام بها عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن حفيد أخى علي بن أبى طالب: جعفر. وهو لهذا لا يعد حقا من آل البيت. جاء سنة ١٢٦هـ مع إخوة إلى الكوفة ليطلب العطاء من الوالى من قبل يزيد الثالث، وهو ابن عمر. فأقام هناك مدة وتزوج بابنة حفيد شبث بن ربعى التميمى. وبموت يزيد الثالث واضطراب شئون الخلافة فى الشام تزعزعت سلطة ابن عمر وسائر الولاة عامة. فانتهز الشيعة فى الكوفة هذه الظروف وبايعوا عبد الله بن معاوية بن جعفر واقتادوه إلى القصر. كذلك بايعه سائر أهل الكوفة. ثم خرجوا بعد ذلك معه لقتال أهل الشام الذين كانوا مع ابن عمر فى الحيرة، وذلك فى شهر المحرم سنة ١٢٧ هـ (أكتوبر - نوفمبر سنه ٧٤٤)، ولكنهم فروا حينما نشب القتال. ولم يثبت للقتال غير ربيعة والزيدية فقاتلوا بشجاعة، وتابعوا القتال عدة أيام فى شوارع الكوفة إلى أن أعطوا الأمان وأعطى عبد الله بن معاوية الإذن بالانسحاب (الطبرى ج ٢ ص١٩٧٨). فارتحل ابن معاوية مارا بالمدائن إلى إقليم ميديا، وازداد عدد أتباعه، وانضم إليه كثير من الموالى والعبيد من الكوفة وغيره من المواضع. فاستقر به المقام أولا فى أصفهان، ثم ارتحل منها فى سنة ١٢٨ إلى إصطخر فى إقليم فارس، ومن هناك سيطر على منطقه شاسعة جدا: فالمنطقة الشرقية كانت فى ذلك الحين بلا سلطان، ومن هنا استتب له الملك. فتجمع حوله جماعة مختلفة كل الاختلاف، وكان من بينهم أيضا عباسيون (عبد الله بن علي) وأمويون، كانوا يأملون أن يظفروا منه بوظيفة أو

---

(١) راجع سفر الخروج من التوراة أصحاح- ٣٢ (فى نص المؤلف: «أحرق عجل العراق....» والإشارة إلى عجل بنى إسرائيل المذكور فى سفر الخروج فى الإصحاح المذكور المترجم).

عطية وأعجب ما في الأمر أن الخوارج الذين طردهم مروان الثاني من الموصل، برئاسه شيبان ابن عبد العزيز وسليمان بن هشام، قد فروا إلى عبد الله بن معاوية (نهاية سنة ١٢٩ وبداية سنة ١٣)[1] ولكنه هزم جميع هولاء عند مرو والشاذان، هزمتهم جيوش مروان الثاني، وبهذا انهارت دولته، أعني دولة عبد الله بن معاوية (في نهايه سنة ١٣) ففر إلى كرما ثم سجستان حتى بلغ هراة، على أن يجد ترحيبا لدى أبي مسلم الخراساني، ولكن أبا مسلم أمر بالقبض عليه وخنقوه بالأغطى وكان له بعد ذلك بزمان قبر معروف في هراة يزار (المدائني في الطبرى ج٢ ص ١٩٧٦ وما يليها، (ابن الأثير ج ٥ ص ٢٨٤، ما يليها)

وفي تلك السنوات الأخيرة لدولة الأمويين اختلطت الحدود وامتزجت بين القوى المتباينة المتعارضة فيما بينها ولكنها تعاونت وتساندت في نضالها صد الدولة المتداعية، دولة الأمويين، حتى كان الشيعة والخوارج يقاتلون تحت لواء واحد، على أن تشيع عبدالله بن معاوية قد بدا بطبعه منذ البداية متهما مشكوكا فيه لقد كان ـ فيما يقوله صاحب «الأغاني»[2] سخيا ذكيا وشاعرا موهوبا، ولكنه كان في الوقت نفسه عديم الضمير ماجنا، كان يحيط نفسه بالملحدين، ومن هؤلاء من صلب فيما بعد؛ لأنه أنكر البعث والحساب وكان يقول: إن الناس كالأعشاب. ولقد كان بينه وبين الشيعة والمجان صلات قديمة، أما فوائد الثورات الفاشلة التى قام بها الشيعة فقد جناها العباسيون فبعد أن قام غيرهم بالإعداد لهم وسفكوا دماءهم، جاءت ساعتهم بعد انتظار طويل

(١) راجع الطبرى ج ٢ ص١٩٧٨، س٤)

(٢) الأغاني ج١١ ص٧٥، وما يليها

الباب الخامس

الإمام زيد والزيدية

مقدمة

الفصل الأول

فرق الشيعة الثلاث

الفصل الثانى

الدولة الزيدية

الفصل الثالث

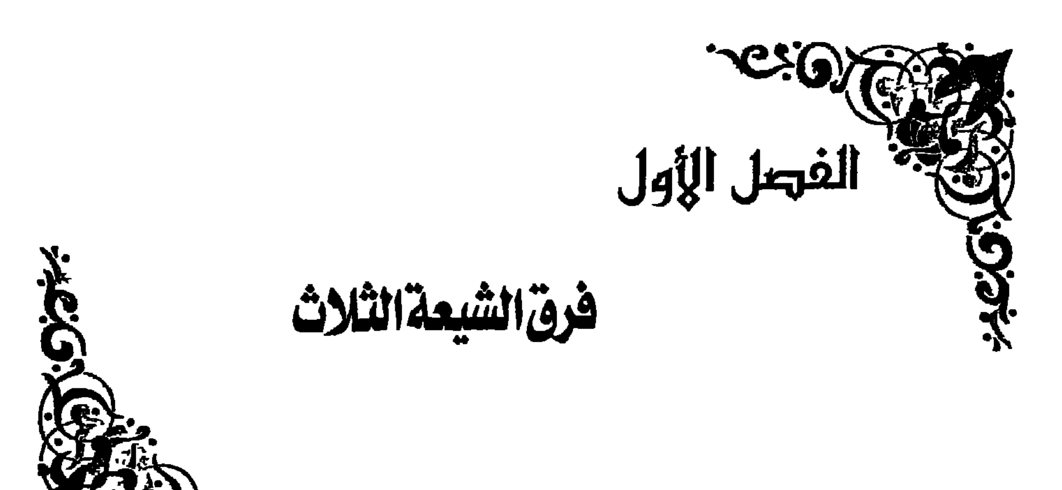
الزيدية والمعتزلة

مقدمة

الإمام زين العابدين وردود فعل موقفه السلبى:

وبلغ الاضطهاد الأموى درجة لا تطاق وانتشر الاستياء فى طول البلاد وعرضها فلم يبق إلا القليل ممن يقنع بفكرة كون الإمام زعيما روحيا فحسب. وكان الموقف السلبى الذى وقفه الإمام زين العابدين والذى وقف مثله الإمام محمد الباقر جعل فرق الشيعة الأخرى ترى فى ذلك دليلا على أنه لا فائدة من انتظار أى إرشاد أو مساعدة من الشيعة الإمامية. فكان الكيسانية، وهم أبناء من قالوا بإمامة ابن الحنفية، يميلون جُلّ الميل إلى حركة إيجابية ضد مضطهديهم. وكان ميل زيد أخى الإمام محمد الباقر وميلهم مما جعله يستمع إلى دعوة أهل الكوفة له للظهور.

وكان السبب فى اضطراب خراسان الاستياء السائد فى البلاد كافة من الأمويين ورغبة العناصر الناقمة من غير العرب فى انتقال الحكم إلى أسرة جديدة. وكانت الدعوة لآل البيت شديدة فى خراسان، ولم تكن هذه الدعوة للأئمة العلويين الذين اتبعوا سياسة عدم المقاومة فى الأيام الأخيرة بل إلى فرع آخر من بنى هاشم له نفوذ أقوى وسياسة إيجابية أشد. ولقرابة العباسيين من النبى ﷺ من جهة عمه العباس جدهم الأعلى كانوا أشد ميلا إليهم.



الفصل الأول

فرق الشيعة الثلاث

الشيعة حزب سياسى يمثل - مع الخوارج - جانب المعارضة لنظام الحكم فى تاريخ الإسلام، ويجعل كُتّاب الفرق من الشيعة فرقا كثيرة تزيد على العشرين، وفضلا عما فى هذا التقسيم من تعسف[1] فإن أهمها وأبقاها إلى يوم الناس هذا ثلاث: الزيدية، والاثنا عشرية، والإسماعيلية.

الاختلاف بين هذه الفرق الثلاث له وجهان: وجه ظاهرى يتصل باختلافهم فى تحديد أشخاص الأئمة بعد النبىﷺ أو بالأحرى بعد الحسين، ووجه حقيقى يتصل بأسلوب المعارضة السياسية للنظام القائم.

الجو العام لتاريخ الشيعة:

إن مذاهب منحرفة كانت قد ظهرت فى أفق التشيع كالبيانية نسبة إلى بيان بن سمعان التميمى (ت ١١٩) والمغيرية نسبة إلى المغيرة بن سعيد (ت١١٩هـ) مما حتم أن تكون آراء زيد السياسية والدينية لا تقبل الغموض ولا التأويل.

وهكذا جاء خروج زيد مشابها لحركة الحسين ثم استكملتها بالإفصاح السياسى والكلامى عن مبررات الخروج، ومعاداة الحكام الظالمين.

---

(١) تكلف كتاب الفرق فى تقسيم فرق الشيعة كما تكلفوا فى قسمة سائر فرق المسلمين من أجل أن يكون جميعها ثلاثا وسبعين وفقا للحديث المنسوب إلى النبىﷺ: ..... وستفترق أمتى إلى ثلاث وسبعين فرقة كلها فى النار ما عدا واحدة..

والواقع أن زيدا قد جمع بين النظر والعمل على نحو متكامل، كان فى النظر غاية فى الفصاحة والبلاغة والبراعة حتى شبه بالإمام علي، وكان فى العمل زاهدا شجاعا مِقْواما لا يتردد فى تطبيق ما يؤمن به، يؤمن بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويؤمن بعدم السكوت على حكم قام على الغلبة وبخاصة إذا كان الحاكم فاسقا متجبرا، ولا يفوته فى دعوته إلى الخروج أن ينصح أتباعه بمراعاة حدود الله(١).

الموقف الشيعى من الإمامة:

إن المتشيعين لآل البيت كانوا فرقا ثلاثة: فرقة ترى أن إمام المسلمين معين بالنص من ولد فاطمة بنت محمد ﷺ وهؤلاء إمامية، وكانوا يتولون إلى وقت المنصور جعفر ابن محمد بن علي بن الحسين المعروف بالصادق.

وفرقة ترى أن إمام المسلمين يكون من بنى فاطمة إلا أنه معين بالوصف لا الاسم وهؤلاء إمامية زيدية يرون الخروج مع كل من دعا إلى نفسه من بنى فاطمة متى كانوا موصوفين بالصفات الواجب أن تكون فى الإمام من العلم والشجاعة والورع وغير ذلك وهم نصراء زيد بن علي وابنه يحيى(٢). وفرقة ترى إمامة أهل البيت من غير تقييد ببنى فاطمة وهم الذين نصروا بنى العباس وكانت الفرقتان الأوليان متشرتين فى كثير من الأقاليم العربية، والأعجمية وكانت الدعوة العباسية قبل ظهور أمرها مبهمة؛ لأنها كانت أقرب إلى الرضا من أهل بيت النبى ﷺ فلما ظفرت الدولة العباسية بظفر دعاتها نافس عليهم بنو عمهم من العلويين الخلافة وعدوهم غاصبين للأمر كما عدوا بنى أمية من قبلهم. وأعظمهم فى ذلك رجلان أحدهما: جعفر الصادق إمام الإمامية. ولكنه رضى بما تم ولم يحرك ساكنا وكان يوصى أصحابه بالخلود إلى السكينة؛ لأنه لم ير فرصة معقولة.

وثانيهما: محمد بن عبد الله بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب وهذا كان أطمع فى الأمر؛ لما زعموه من أن بنى هاشم انتخبوه للخلافة وبايعوه لها فى أواخر عهد بنى أمية، وكان ممن بايعه أبو جعفر المنصور فلما جاءت الدولة العباسية لم يبايع لأبى العباس ولا لأبى جعفر، ولما حج أبو جعفر فى عهد أخيه حضره بالمدينة بنو

---

(١) حميد المحلى: الحدائق الوردية فى مناقب أئمة الزيدية، مخطوط بالمكتبة الغربية للجامع الكبير بصنعاء تحت رقم ٧٥. والزيدية ص٦٣ على بن عبد الكريم شرف الدين.

(٢) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية ـ الدولة العباسية الشيخ محمد الخضرى.

هاشم جميعا إلا محمد بن عبد الله وأخاه إبراهيم فسأل المنصور عنهما؟ فقال له زياد بن عبد الله الحارثى أمير المدينة: ما يهمك من أمرهما أنا آتيك بهما فضمنه إياهما وأبقاه عاملا على المدينة. ثم إنه دعا بنى هاشم رجلا رجلا كلهم يخليه فيسأله عن محمد فيقول يا أمير المؤمنين قد علم أنك قد عرفته يطلب هذا الشأن قبل اليوم فهو يخافك على نفسه وهو لا يريد لك خلافا ولا يحب لك معصية وما أشبه هذه المقالة إلا حسن ابن زيد بن حسن بن على فإنه أخبره خبره وقال: والله ما آمن وثوبه عليك فرأيك فأيقظ بقوله من لا ينام(١).

الزيدية والرافضة:

زيد: هو زيد بن علي بن الحسين السبط ابن أمير المؤمنين على بن أبى طالب - رضى الله عنهم - ويكنى زيد بأبى الحسين، وأم زيد أم ولد كان المختار بن أبى عبيد الثقفى قد أهداها إلى علي بن الحسين بن علي، فولدت لعلي: زيدا هذا، وعمر بن علي وعلي بن علي، وخديجة بنت علي، وقد قال خصيب الوابشى: كنت إذا رأيت زيد بن علي رأيت أسارير النور فى وجهه، وكان المرجئة وأهل النسك لا يعدلون بزيد أحدا.

والزيدية فرقة إسلامية ظهرت ظهورا واضحا فى بداية القرن الثانى الهجرى (الثامن الميلادى)، وهم أتباع زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - رضى الله عنهم(٢)، وهى من أهم فرق الشيعة. إذ تضم الشيعة فرقتين رئيسيتين هما: الإمامية(٣)، والزيدية وتدعى الإمامية بالرافضة(٤)، وإلى هذا يشير الجاحظ موضحا حين يقول(٥): «اعلم - رحمك الله - أن الشيعة رجلان: زيدى ورافضى، وبقيتهم بدد لا نظام لهم، وفى الأخبار عنهما غنى عما سواهما».

---

(١) محاضرات فى تاريخ الأمم الإسلامية الشيخ محمد الخضرى ص ١٣٠.

(٢) ابن قتيبة: المعارف ص ٢٣ (تحقيق: د. ثروت عكاشة، الطبعة الرابعة، دار المعارف ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٩م).

(٣) الإمامية: قالوا بإمامة محمد بن على (الباقر) نصا عليه، ثم بإمامة جعفر بن محمد، وأهم فرق الإمامية (الاثنا عشرية) وسميت بذلك؛ لأنها تقول باثنى عشر إماما.

(٤) الأشعرى: المصدر السابق والجزء والصفحة، المقدسى: البدء والتاريخ ج٥ ص ١٢٤(طبعة ١٨٩٩م، مطبعة برطرند، أعادت طبعه بالأوفست مطبعة المثنى ببغداد.

(٥) رسائل الجاحظ ج٤ ص ١١٢ (تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجى بمصر ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

ويقول ابن تيمية[1]: (ومن زمن خروج زيد بن علي افترقت الشيعة إلى رافضة وزيدية)، ويضيف المقدسى قوله[2]: (إن الشيعة يجمعهم كلهم الزيدية والإمامية ولقبهم المذموم الرافضة).

وتروى المصادر[3] أن الذى أطلق عليهم هذا الاسم هو زيد بن علي، وذلك لرفضهم له؛ لأنه فى عرفهم مخالف مذهب آبائه فى الأصول، وفى التبرى والتولى. ورفضهم إمامة أبى بكر وعمر[4]، ولخوفهم من والى الكوفة الذى طلب من بايع زيدا لمعاقبته[5].

وقد تبرأ زيد بن علي من هؤلاء الرافضة[6]، وأنكر عليهم الطعن فى أبى بكر وعمر[7].

ويرى النوبختى[8] أن الذى أطلق عليهم اسم الرافضة هو المغيرة بن سعيد العجلى[9]؛ لأنهم تبرأوا منه ورفضوه.

وسواء أطلق عليهم هذا اللقب زيد بن علي أو المغيرة بن سعيد فإنه يشير إلى أتباع جعفر الصادق[10]، وهم الشيعة الإمامية.

---

(١) منهاج السنة النبوية ج١ ص ٨ (دار الكتب العلمية، بيروت). (٢) البدء والتاريخ ج٥ ص ١٢٤.

(٣) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٦٠، ابن حبيب: المحبر ص ٤٨٣ (تصحيح إيلزة ليحستن شتيتر، طبعة حيدر آباد الدكن ١٣٦١هـ / ١٩٤٢م)، الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٨٠ ـ ١٨١ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، الطبعة الثانية ١٩٧٦م).

(٤) ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٢ ص ٢٤٥ (تحقيق عبد المجيد الترجينى، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٣م).

(٥) يحيى بن الحسين: رسائل العدل والتوحيد ج٢ ص ٨١ (تحقيق د/محمد عمارة، طبع دار الهلال، ١٩٧١م).

(٦) يحيى بن الحسين: المصدر السابق والجزء والصفحة، أبو القاسم البلخى: فضل الاعتزال ص ٢٢٨ (تحقيق: فؤاد سيد، الدار التونسية للطباعة، ١٩٧٤م)، ابن عساكر: المصدر السابق والجزء ص٢١.

(٧) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ص ١٠٥، الحميرى: المصدر السابق ص ٢٣٩.

(٨) فرق الشيعة ص ٦٣ (دار الأضواء، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٤٠٤ هـ / ١٩٨٤م.

(٩) هو المغيرة بن سعيد العجلى، خرج بظاهر الكوفة فى إمارة خالد بن عبد الله القسرى، له فرقة تسمى المغيرية، يقول بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن، وكان يدعى أنه نبى، وأنه يعلم اسم الله الأكبر، وقد برئت منه الجعفرية، قتله خالد بن عبد الله القسرى وصلبه؛ لأنه كان ينظر فى السحر.

(١٠) هو جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبى طالب سمى بالصادق لصدقه، وهو سادس الأئمة الاثنى عشر عند الإمامية، ولد سنة ٨٠ هـ / ٦٩٩م بالمدينة وتوفى سنة ١٤٨ هـ / ٧٦٥ م.

وكانت الإمـامية والزيدية فى بدء أمـرهما حزبـا واحدا ثم اختلفـا، والسبب فى اختلافهما لـم يكن أصلا من أصول الديـن، وإنما كان حول «الإمامة»، وهو يبين وجهة نظر كل منهما، فيقول البغدادى[1]: (وسبب افتراقهما، أن زيد بن علي قد بايعه على إمامـته خـمسة عـشر ألف رجل من أهل الكوفـة، وخرج بهم على والـى العراق وهو يوسف بن عمـر الثقفى[2] عامل هشـام بن عبد الملك، فلمـا استحر القـتال بينه وبين يوسف بن عمر، قـالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخـبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جـدك علي بن أبى طالب، فقال زيد: أنا لا أقول فيهـما إلا خيرا، وما سمـعت أبى يقول فيهمـا إلا خيرا، وإنما خرجت على بنى أميـة الذين قاتلوا جدى الحسين، وأغاروا على المدينة يوم الحرة، ثم رموا البـيت بحجر المنجنيق والنار، ففارقوه عند ذلك، حتى قال لهم: رفضتمونى، ومن يومئذ سموا رافضة).

وقد تحملت الزيدية عبء الجهاذ فى الوقت الذى اتجهت فيه الإمامية إلى البحوث العلمية لتكون فقه الشيعة وأصول عقائدها[3].

التعريف بالإمام زيد بن علي:

هو زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالـب،ولد بالمديـنة سنة ٨٠ هـ ٦٩٩[4]، وقتل سنة ١٢٢ هـ/ ٧٣٩ م[5]، وكان يكنى أبا الحسين[6]، وهو ينتسب من

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٥، والحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى، أحمد شوقى إبراهيم المعمرجى.

(٢) هو أبو يعقوب يوسف بن عمـر بن محمد بن أبى عقيل بن مسـعود الثقفى، كان حسن القراءة فـصيحا جوادا، وكـان مع ذلك أحمق سيئ الخلق والسيرة، مـعجبا بنفسه، ولاه هشـام بن عبـد الملك اليمن ١٠٦هـ / ٧٢٤ م، ثم ولاه العراق سنة ١٢ هـ / ٧٣٧ م، ولما ولى يزيد بن عبـد الملك حبسه وبقى فى السجن إلى أن قتل سنة ١٢٧ هـ / ٧٤٤ م، والذى تولى قتله يزيد بن عبد الله القسرى (الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٧٥ هامش ٢).

(٣) محمد ضياء الدين الريس: النظريات السياسية الإسلامية ص ٥٧ (دار التراث، القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٧٩ م).

(٤) العسـقلانى: تقريب التـهذيب ج١ ص ٢٧٦ (تحقيق. عـبد الوهاب عبـد اللطيف، دار المعرفة للطبـاعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م).

(٥) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٠، البسـتى: مشاهير علماء الأمـصار ص ٦٤، ابن الأثير الكامل ج٤ ص ٢٤٠، المقريزى: الخطط ج٢ ص ٤٤٠، العسقلانى: المصدر السـابق والجزء والصفحة، الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى، أحمد شوقى إبراهيم المعمرجى.

(٦) ابن قتـيبـة: المعارف ص ٢١٦، ابن خلكان: وفـيات الأعيـان جـ ٥ ص ١٢٢، الذهبى. سيـر أعلام=

قبل أبيه إلى علي بن أبي طالب ابن عم الرسول ﷺ، وإلى فاطمة بنت رسول الله ﷺ، فهو بهذا صاحب نسب رفيع لايدانيه نسب، وهو من رجال الطبقة الثالثة من أهل المدينة من التابعين[1].

ووالدته جارية سندية، وكانت أم ولد، وتذكر المصادر[2] أن: المختار بن أبى عبيدة الثقفى[3] اشتراها واستحسنها ووجدها لا تليق إلا بعلى بن الحسين وليس هناك أحد أحق بها منه فأهداها إليه.

وقد مدحها زيد بقوله: «لقد صبرت بعد وفاة سيدها إذا لم يصبر غيرها»، وقالت عنها فاطمة بنت الحسين: «أما والله لنعم دخيلة القوم كانت»[4]، ويروى ابن قتيبة[5] أن اسمها حيدان.

وأبوه علي زين العابدين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم، وهو من رجال الطبقة الثانية من التابعين[6]، ومن كبارهم وساداتهم دينا وعلما[7]، ومن فقهاء أهل البيت وأفاضل بنى هاشم وعباد المدينة[8]، وكان يسمى عليا الأصغر[9].

=النبلاء ج٥ ص ٣٨٩، ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ج٢ ص ٣٢، المقريزى: المصدر السابق والجزء ص ٤٣٦، العسقلانى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٥ ص ٢١١، الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٦٠، ابن قتيبة: المصدر السابق والصفحة، الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٦٣، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ٢٠، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥، ص٣٣.

(٢) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٢٧ (دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت لبنان ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م)، لعله الحلى: الحدائق الوردية ج١ ص ١٣٧ (مخطوط) بدار الكتب المصرية تحت رقم (٨٦٧)تاريخ.

(٣) كان المختار بن أبى عبيدة الثقفى من الخوارج ثم صار شيعيا وكيسانيا، قال بإمامة محمد ابن الحنفية، وأخذ بثأر الحسين بن علي (البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٣١، الإسفراينى: التبصير فى الدين ص١٩، الشهرستانى الملل والنحل ج١ ص ١٥٢ ـ ١٥٥).

(٤) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٤، ابن الأثير: الكامل ج٤، ص ٢٤٠، المقريزى: الخطط ج٢ ص٤٣٧.

(٥) المعارف ص ٣٦٥.

(٦) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٧ ص ١٦٤، النسائى كتاب الضعفاء والمتروكين ص ٣١١ (المطبعة الأثرية، باكستان، سانكلة هل، بدون تاريخ).

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص ٢٦٧، ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج٢ ص ١٢٣.

(٨) البستى: مشاهير علماء الأمصار ص ٦٣، ابن الجوزى: المصدر السابق والجزء ص ١٠٢.

(٩) ابن سعد: المصدر السابق الجزء والصفحة، الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٥٨، : المنتخب ص ٦٢٩ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثانية، دار المعارف).

وهو الابن الذكر الذى بقى من أولاد الحسين، فقد قتل أخ له فى المعركة التى شنها يزيد بن معاوية[١] وعماله على الحسين بن علي، ولم يحضر المعركة على هذا[٢] لأنه كان مريضا، وبقيت ذرية الحسين من بعده فى عقب على هذا، وكان يلقب بالسجاد لكثرة سجوده[٣]، وكان يصوم نهاره ويقوم ليله ويتلو القرآن ويبكى كثيرا خوفا من الله[٤].

نشأ زيد بن علي فى المدينة المنورة، وكان العصر الأموى حافلا بالأحداث السياسية والتغيرات الاجتماعية التى أثرت فى حياته وفكره، فقد تحولت الخلافة فى عصر الأمويين إلى ملك موروث[٥]، واستطاع الخليفة معاوية بن أبى سفيان أن يخالف بفعله هذا ما تعارف عليه الناس منذ نشأ منصب الخلافة[٦].

ونتيجة لسياسة القهر هذه فقد ظهرت المعارضات الحازمة ضد الأمويين لتعلن فى غير حرج أو مواربة أنهم مغتصبون للسلطة من أيدى أصحابها العلويين أو من أيدى أمة المسلمين.

فى هذا العصر المليء بالقلق والاضطرابات السياسية ولد زيد بن علي ونشأ فى المدينة وكان ناقما على الأمويين[٧]، روى أنه دخل مسجد الرسول ﷺ بالمدينة فرأى جماعة من قريش فيهم: سعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف الزهرى، فقال لهم: أى قوم أنتم أضعف من أهل الحرة؟ فقالوا: لا، فقال لهم: فأنا أشهد أن يزيد ليس شرا من هشام فما لكم[٨]، [٩].

---

(١) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٥٨، الطبرى: المنتخب ص ٦٣٠، الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٢٠ - ١٢١، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج١ ص ٥٢ تحقيق: عبد السلام هارون، دار المعارف بمصر).

(٢) ابن سعد: الطبقات الكبرى ج٥ ص ٢١١، الطبرى: المنتخب ٦٢٩، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٢ ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٣) المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص ٧٩ - ٨٠.

(٤) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج٢ ص ١١٤.

(٥) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٣ ص ٥٠٦، المقريزى: النزاع والتخاصم ص ٦٨ - ٧١ (طبعة دار المعارف، مصر، تحقيق: دكتور حسين مؤنس)

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٥ ص ٣٠١ - ٣٠٤، على حبيبة: دولة الأمويين ص ٦٣ (مكتبة الشباب مصر ١٩٧٨ م).

(٧) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥.

(٨) ابن عساكر تهذيب تاريخ دمشق ج٦ ص ٢٤، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥، ص ٣٤.

(٩) الحياة السياسية والفكرية للزيدية فى المشرق الإسلامى. أحمد شوقى إبراهيم العمرجى.

ولد عام ٨٠ هـ على أنه ورد فى مقدمة كتاب المجموع أنه لما ولد عام ٧٥هـ أخذ أبوه علي زين العابدين المصحف وفتحه ونظر فيه فخرج أول سطر: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم... (١١١)﴾ [التوبة] فأطبقه وفتحه ثانية فخرج: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا ... (١٦٩)﴾ [آل عمران]» فأطبقه ثم فتح الثالثة فخرج: ﴿...وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ ... (٩٥)﴾ [النساء: ٩٥] فأطبقه وقال: عزيت عن هذا المولود وأنه لمن الشهداء غير أن المؤرخين أجمعوا على أن سنه كانت لا تتجاوز الثانية والأربعين يوم مقتله عام ١٢٢هـ.

ـ من أم سندية أهداها المختار الثقفى إلى أبيه.

ـ أخذ علوم الدين عن أبيه ثم أخيه محمد الباقر: ثم سافر إلى البصرة حيث التقى بواصل بن عطاء وأخذ عنه أصول الدين وعلم الكلام، فكان لقاء مؤسسى الفرقتين مظهرا لالتقاء الزيدية بالمعتزلة منذ البدء[(١)].

صفات الإمام زيد:

ولقد كان محبا للمعروف[(٢)] صبورا، والصبر يتضمن تحمل الشدائد ويقتضى ضبط النفس وعدم الاندفاع، وكانت هذه الخصال من أخص ما يتحلى به زيد، فهو يضبط نفسه عندما يسمع كلام السفهاء فلا يجادلهم[(٣)]، وكان شعاره الصبر وضبط النفس دائما، حتى لا ينزلق فيما لا تحمد عاقبته، كان نقش خاتمه كما يروى الأصفهانى[(٤)]: «اصبر تؤجر وتوق تنج»، وقد ذكر المقريزى[(٥)] أن نقش خاتمه كان: «اصبر تؤجر واصدق تنج».

وكان يتمتع بالشجاعة الأدبية التى دفعته أن يقول الحق ولا يخشى فيه لومة لائم

---

(١) وقد ذكر ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة ج١ ص ٣١٥ السبب فى خروج زيد، وذكر أقوالا متعددة فى هذه المسألة ابن الأثير فى تاريخه الكامل ج٥ ص٩٠ ومقاتل الطالبيين ص ١٢٧ لأبى الفرج الأصفهانى تحقيق السيد صقر، ومروج الذهب ج٣ ص ٢١٨ المسعودى تحقيق محيى الدين عبد الحميد.

(٢) قال زيد بن علي: ما شيء أفضل من المعروف ولا ثوابه، ولا كل من رغب فيه يقدر عليه، ولا كل من قدر عليه يؤذن له فيه، فإذا تمت الرغبة والقدرة والإذن تمت السعادة للطالب والمطلوب منه. (ابن عبد البر: بهجة المجالس وأنس المجالس ج١ ص ٣٠٢ ـ ٣٠٣، تحقيق: محمد مرسى الخولى، مراجعة الدكتور عبد القادر القط، الدار المصرية للتأليف والترجمة، بدون تاريخ).

(٣) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٣ ـ ١٦٤.

(٤) مقاتل الطالبيين ص ١٣٢.

(٥) الخطط ج٢ ص ٤٣٧.

حتى فى أحرج الأوقات وأشدها حاجة إلى المداراة، حين جاء من يريد أن ينال من أبى بكر وعمر، فكان جوابه لهم: رحمهما الله وغفر لهما، وقد عدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة[1]، وهما وزيرا جدى محمد ﷺ[2]، وأعلن براءته ممن يبرأ منهما[3]، وقال: الرافضة حربى وحرب أبى، مرقت علينا الرافضة كما مرقت الخوارج على علي[4].

ولقد دفعته شجاعته الأدبية لرفض مبدأ التقية[5] الذى اشتهر آل البيت بالأخذ به[6]، وعندما خرج من عند هشام بن عبد الملك حينما أمره بالخروج، قال: أخرج ثم لاترانى إلا حيث تكره[7].

وكان محبا لخير المسلمين ووحدتهم، فقد قال لأحد أصحابه: (أما ترى هذه الثريا، أترى أحدا ينالها؟ قال صاحبه: لا، قال: والله لوددت أن يدى ملصقة بها فأقع على الأرض، أو حيث أقع، فأنقطع قطعة قطعة، وأن الله يجمع بين أمة محمد ﷺ[8].

من أجل هذا لم يضن بالفداء، وتقدم للميدان عندما رأى السنة تموت، والبدعة تحيا، والباطل يسود والحق يغلب، وما خرج إلا وهو يريد الإصلاح بين أمة محمد ﷺ[9].

---

(١) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨٠ ـ ١٨١، ابن الأثير: (الكامل ج٤ ص ٤٦) ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٩٩.

(٢) ابن حزم: الفصل ج١ ص ٨٨ (مطبعة صبيح، القاهرة ١٣٤٨ هـ)، المقريزى: المصدر السابق والجزء ص٣٥١.

(٣) عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٢٨ (تحقيق: فؤاد السيد، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م، تونس)، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ٢١ ـ ٢٢، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥، ص ٣٤، ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ج١ ص ١٥٨.

(٤) الصفدى: المصدر السابق والجزء والصفحة.

(٥) التقية: لغة الخوف والحذر والكتمان وهى أن يخفى الإنسان ما يعتقده دفعا للأذى، وكان الشيعة أكثر المسلمين أخذا بهذا المبدأ (ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج٣ ص ٢٥٩، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥ ص٣٦٠. الحياة السياسية والفكرية للزيدية، ص٢٥.

(٦) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٥٠.

(٧) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٥، المسعودى مروج الذهب ج٣ ص ٢١٨، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٩٨.

(٨) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٢٩.

(٩) ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٤ ـ ١٠٥، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٩٨، ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠ (الطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين بيروت ١٨٩٠م).

وكيفما كان الأمر حرص زيد على الإصلاح بين المسلمين فقتل وصلب ثم أحرقه الأمويون.

قال عنه الإمام أبو حنيفة: «شاهدت زيد بن علي كما شاهدت أهله. فما رأيت في زمانه أفقه منه ولا أعلم ولا أسرع جوابا، ولا أبين قولا، لقد كان منقطع النظير[1].

* رأيت جعفر بن محمد يمسك لزيد بن علي بالركاب ويسوى ثيابه على السرج. ص١٢٦.

* كان بين زيد بن علي وعبد الله بن الحسن مناظرة فى صدقات علي فكانا يتحاكمان إلى قاض من القضاة؛فإذا قاما من عنده أسرع عبد الله إلى زيد فأمسك له الركاب.

* عن أبى الجارود قال: قدمت المدينة فجعلت كلما سألت عن زيد بن علي قيل لى ذاك حليف القرآن.

* قال: سألت الحسن بن يحيى كم كانت سن زيد بن علي يوم قتل؟

قال: اثنتان وأربعون سنة[2].

وقد اتفق علماء الإسلام على فضله ونبله وسمو مقامه كما اتفقت معظم الروايات على ذلك سوى روايات قليلة لا تصلح للمعارضة. وقال ابن أبى الحديد فى شرح النهج: وممن تقبل مذاهب الآلاف فى إباء الضيم وكراهية الذل واختار القتل على ذلك وأن يموت كريما أبو الحسين زيد بن علي بن الحسين بن أبى طالب - رضى الله عنهم -[3].

وهو إمام الزيدية الذين ينسبون إليه لاجتماع الإمامة عندهم فيه وهو أن يكون من ولد علي وفاطمة عالما شجاعا كريما ويخرج بالسيف، وكان سبب اعتقادهم ذلك خروجه بالسيف يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ فظنوه يريد بذلك لنفسه، لم يكن

---

(١) المقريزى: الخطط ج٢ص ٤٣٦.
(٢) نصوص من مقاتل الطالبيين،أبو فرج الأصفهانى، تحقيق السيد أحمد صقر.
(٣) شرح النهج ج١ ص ٣١٥.

يريدها له لمعرفته باستحقاق أخيه ـ الباقر ـ رضى الله عنه ـ للإمامة من قبله ووصيته عند مدحه وفضله ذكروها فى كتب التراجم والتواريخ والسير[1].

فقد ورد عن أئمة أهل البيت روايات كثيرة فى مدحه، ذكر الصدوق بإسناده عن محمد بن يزيد النحوى عن ابن عبدون عن أبيه قال: لما حمل زيد بن موسى بن جعفر إلى المأمون، وكان قد خرج بالبصرة وأحرق دور بنى العباس وهب المأمون جرمه لأخيه على بن موسى الرضا ـ رضى الله عنه ـ وقال: يا أبا الحسن لئن خرج أخوك وفعل ما فعل لقد خرج من قبل زيد بن على فقتل ولولا مكانك لقتلته فليس ما أتاه بصغير. فقال الرضا ـ رضى الله عنه ـ: يا أمير المؤمنين لا تقس أخى زيدا على زيد بن علي فإنه كان من علماء آل محمد ﷺ غضب لله عز وجل فجاهد أعداءه حتى قتل فى سبيله، ولقد حدثنى أبو موسى بن جعفر أنه سمع أباه جعفر بن محمد يقول: رحم الله عمى زيدا إنه دعا إلى الرضا من آل محمد ﷺ ولو ظفر لوفى بما دعا إليه، ولقد استشارنى فى خروجه فقلت له ياعمى إن رضيت أن تكون المقتول المصلوب بالكناسة فشأنك. فلما ولى قال جعفر بن محمد: ويل لمن سمع داعيته فلم يجبه، فقال المأمون: يا أبا الحسين أليس قد جاء فيمن ادعى الإمامة بغير حقها ما جاء؟ فقال الرضا ـ رضى الله عنه ـ إن زيد بن علي لم يدع ما ليس له بحق وإنه كان أتقى لله من ذاك، إنه قال: أدعوكم إلى الرضا من آل محمد ﷺ وإنما جاء فيمن يدعى أن الله نص عليه ثم يدعو إلى غير دين الله ويضل عن سبيله بغير علم، وكان زيد بن علي والله ممن خوطب بهذه الآية: ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ ... (٧٨) ﴾ [الحج] وعلى كل تقدير فإن لزيد ابن علي فضائل كثيرة عن غير الرضا ـ رضى الله عنه ـ ولكن المجال لا يتسع لذكرها.

أساتذته وشيوخه:

ومن شيوخ زيد بن على الذين روى عنهم الحديث أبان بن عثمان بن عفان (ت١٠٥ هـ/ ٧٢٣ م)[2]. وهو من فقهاء المدينة وكبار التابعين، قال عنه حمص بن شعيب: (ما رأيت أعلم بحديث ولا أفقه منه)[3].

(١) بدايه الفرق نهاية الملوك، الشيخ محمد رضا الحكيمى، توثيق وتعليق شاكر الإبراهيمى.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ١٧، ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ج٢ ص ٣٥.

(٣) الزبيرى: نسب قريش ج٤ ص ١١٠، ابن النديم: الفهرست ص ٤٥، العسقلانى: المصدر السابق.

وتلقى العلم أيضا عن عـروة بن الزبير بن العوام[1]، الذى روى عن أبيه الزبير ابن العوام وأمه أسمـاء بنت أبى بكر وأخيه عبد الله بن الزبير وخـالته عائشة وعلي بن أبى طالب[2].

ومن شيوخ زيد بن علي أيضا عـبد الله بن أبى رافع مولى رسول الله ﷺ[3]، وروى عن أبيه وأم سلمة وعن علي بن أبى طالب[4].

وتشيـر كثـرة من المصادر [5] إلى تلمـذة زيد بن علي على واصل بن عطاء[6]، فيقول ابن خلدون[7]: «نشأ زيد بن علي وقرأ على واصل إمام المعتزلة فى وقته».

وتوضح المصادر[8] النتيجـة التى ترتبت على تلمذة زيد بن على على يد واصل ابن عطاء، بأنه اقتبس من واصل علم الاعتزال، وصارت الزيدية جـميعا معتزلة المذهب والاعتقـاد، فيقول الشهـرستانى [9]: (إن الزيدية يرون رأى المعتزلة حـذو القذة بالقذة ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت).

وقد كانت العلاقة حمـيمة بين واصل بن عطاء وزيد بن علي، فقد دخل واصل ابن عطاء المدينة فسـارع إليه زيد وابنه يحيى وعـبد الله بن الحسن وإخوته وغـيرهم من أهل المدينة، ولكن جعفر الصادق رفض أن ينضم إليه مما أدى إلى تصدى زيد له وقال:

---

(١) الذهبى سير أعلام النبلاء ج٥ ص ١١٠ العسقلانى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٢) العسقلانى: المصدر السابق ج٧ ص ١٠.

(٣) الذهبى: سير أعلام النبلاء ص ٣٨٩، العسقلانى: السابق ج١ ص ٤١٩.

(٤) العسقلانى: المصدر السابق ج٣ ص ١٨٥.

(٥) الشـهرسـتانى الملل والنحـل ج١ ص ٣٥ - ١٦٦، ابن شاكـر الكتبى: فـوات الوفيـات ج٢ ص ٣٧. الصفـدى. المصدر السابق والجـزء ص ٣٥، ابن خلدون. العبـر ج٣ ص ١٧٢، المقريزى: الخطط ج٢ ص٣٥٢

(٦) هو أبو حذيفة،واصل بن عطاء (ت ١٣١ هـ / ٧٤٨ م) أحد الأئمة البلغاء فى علم الكلام، وكان يلقب بالغزال ولم يكن غزالا، بل كان يلزم الغزالـين ليعرف المتعففات من النساء فيجـعل صدقته لهن، وكان ألثغ الراء يجعلهـا غينا، لذا كان يسقطـها من كلامه، وهو شـيخ المعتزلة وإمامـهم (الشريف المرتضى أمالى المرتضى ج ١ ص ١٤ - ١٦٣)، (تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الأولى).

(٧) العبر ج٣ ص ١٧٢

(٨) الشهرستانى. الملل والنحل ج١ ص ٣٣ - ١٦٠، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ ص ٣٥، ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ج٢ ص ٣٧.

(٩) المصدر السابق ج٢ ص٢

ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا[1]. وقد جرت مناقشة بين زيد بن علي وبين أخيه الأكبر الباقر يعتب فيها على أخيه أن يأخذ العلم عن واصل بن عطاء وهو ممن يجوز الخطأ على جده الأكبر علي بن أبي طالب[2] فى قتال الناكثين والقاسطين من أهل الشام[3]، وممن يتكلم فى القدر على غير ما يذهب إليه أهل البيت، ومن حيث إن زيدا كان يشترط الخروج شرطا فى كون الإمام إماما[4].

وسواء أصبحت تلمذة زيد بن علي لواصل بن عطاء أو أن العلاقة بينهما كانت للمدارسة والمذاكرة وليس لتلقى علم أو تلمذة فإن آراء المعتزلة[5] كانت هى المرحلة الحاسمة فى تفكير زيد بن علي حيث خرج على السلطة فى عصره، ورفض سياسة التقية التى كان الأئمة من أهل البيت يسيرون عليها[6].

خروج زيد وأسبابه:

كان هشام بن عبد الملك ينظر إلى العلويين نظرة الحريص المتيقظ، والعدو المتربص، عرف حب الناس لهم، وتأثيرهم فيهم، من وقت أن رأى عليا زين العابدين والد زيد، فى الطواف بالكعبة، والجماهير تنشق صفوفا ليمر ويستلم الحجر الأسود، وهو لا يستطيع مع أنه من بيت الإمامة، وإن لم يكن فى ذلك الوقت أميرا

---

(١) القاضى عبد الجبار: فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٣٩، (تحقيق: فواد السيد، طبعة الدار التونسية للنشر ١٩٧٤ م، تونس)، ابن المرتضى: المصدر السابق والجزء ص ٣٥ ـ ٣٦.

(٢) قال واصل بن عطاء: أحد الفريقين المتخاصمين فى الجمل وفى صفين مخطئ لكن لا يمكن تعيينه بعينه كالمتلاعنين، فإن أحدهما فاسق لا محالة، وأقل درجات الفريقين أنه لا تقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين، وبناء على ذلك فإنه لم يحكم بشهادة رجلين أحدهما من أصحاب علي والآخر من أصحاب الجمل، قال لو شهدت عندى عائشة وعلي وطلحة والزبير على باقة بقل لم أحكم بشهادتهم، وقبل شهادة رجلين من أصحاب علي وشهادة رجلين من أصحاب طلحة والزبير.

(٣) البغدادى: المصدر السابق والصفحة، الشهرستانى: المصدر السابق والجزء ص ١٦١، ابن شاكر الكتبى: فوات الوفيات ج٢ ص ٣٧، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ١٧٢، ابن المرتضى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٤) الشهرستانى: المصدر السابق الجزء والصفحة، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥ص ٣٥.

(٥) يرى المعتزلة ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالقلب إن كفى، وباللسان إن لم يكف القلب، وباليد وبالسيف بعد ذلك (الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٣٧، ج ٢ ص ١٤١ ـ ١٤٢).

(٦) الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص ٤٠ ـ ٤٢، أحمد شوقى إبراهيم العمرجى.

للمؤمنين[1]، لذا اتجه إلى إحراج زيد بن علي وبعض الظاهرين من آل علي والتشنيع عليهم[2]، واندفع عامل هشام بن عبد الملك على المدينة خالد بن عبد الملك بن الحارث فى عداوته ومؤامرته لأهل البيت، بل كان يدفع أعوانه لسب فاطمة الزهراء فى مسجد أبيها بالمدينة، بل بعضا من آل البيت لانتقاص ابن عمهم زيد بن علي[3].

ومجمل القول: كان هشام بن عبد الملك وولاته يعملون على إحراج زيد بن علي مرة بإثارة النزاع بينه وبين أسرته، ومرة بادعاء أشياء لم تحدث وذلك لإهانته والتحقير من شأنه وهو شيخ العلويين وكبيرهم بعد وفاة أخيه.

أما عن العباسيين فى هذه الفترة فقد عاشوا فى الحميمة[4] منذ سنة ٩٥ هـ / ٧١٣م، وكان زعيمهم علي بن عبد الله بن العباس[5] يتطلع إلى الزعامة السياسية بعد أن خلا المجال من العناصر العلوية القوية[6] والواقع أن الموت أذهب جيلا من العلويين فإن عليا زين العابدين توفى فى المدينة المنورة سنة (٦٤ هـ / ٧١٢)[7]، وكذلك توفى أبو هاشم بن محمد ابن الحنفية سنة (٦٨ هـ / ٧١٦ م)، وكان ابنا على زين العابدين وهما محمد الباقر وزيد لا يزالان فى أول شبابهما غير ظاهرين، على حين لم يعقب أبو هاشم من بعده من يخلفه. وتذكر المصادر[8] أن أبا هاشم قد أوصى بالعهد من بعده إلى علي ابن عبد الله بن العباس، بينما يذكر بعض المؤرخين[9] أن أبا هاشم أوصى بالعهد لمحمد

---

(١) أبو نعيم الأصفهانى: حلية الأولياء ج٣ ص ١٣٩، الحصرى: زهر الآداب ج١ ص ١٠٣ ـ ١٠٥، ابن الجوزى: صفة الصفوة ج٢ ص ٩٨.

(٢) ابن قتيبة الدينورى: عيون الأخبار ج١ ص ٢١٢ ـ ٢١٣، ابن عبد ربه: العقد الفريد ج٤ ص ١١٧ الحصرى: المصدر السابق والجزء ص ١١٨.

(٣) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٥ ـ ١٦٦، ابن الأثير: الكامل ج٤ ص ٢٤٠، المقريزى: الخطط ج٢ ص ٤٣٧ ـ ٤٣٨.

(٤) الحميمة: بلد من أرض الشراة من أعمال عمان فى أطراف الشام كان منزل بنى العباس (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٢ ص ٣٠٧، ج٣ ص ٣٣٢).

(٥) هو علي بن عبد الله بن عبد المطلب، ولد سنة ٤٠ هـ / ٦٦٠ م ليلة قتل علي بن أبى طالب وتسمى باسمه وكان أصغر ولد عبد الله سنا توفى سنة ١١٨هـ / ٧٣٦ م) وكنيته أبو محمد.

(٦) ابن قتيبة الدينورى: الإمامة والسياسة ج٢ ص ١٣١.

(٧) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ١٠٢ ، الطبرى: المنتخب ص ٦٣١.

(٨) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٢٦.

(٩) النوبختى: فرق الشيعة ص ٣٣، المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص ٣٥٤، المقريزى: الخطط. ج٢ ص٥٣٥.

ابن علي بن عـبد الله بن العـباس. ويبدو أن هـذه الوصية كـانت لعلي بن عبـد الله بن العباس، وأن عليـا هذا أوصى إلى ابنه محمد ثم انتقلت فى البيت العـباسى وبذلك صار علي بن عبـد الله بن العباس وهو شيخ آل مـحمد قادرا على أن يتكلم بـاسمهم دون أن ينازعه أحـد أو يشك فى نواياه، وكان مـن الطبيعى أن ينظـر آل البيت بعين الـرضا لكل تنظيم يدعو إلى آل محمد ﷺ.

وقد تلقف العباسيون هذه الوصية وكأنـهم كانوا على موعد معها؛ لأنها خدمت بعض حاجاتهم العاجلة، وكانت لها ضرورتها فى بعض مواقفهم. إذ كان ينقصهم أمام الكثيـرين من حولهم أن يمنحوا مـثل هذا التبـريك ممن كان يملكه[1]. نشطت الدعوة السرية لبنى العباس وصادفت نجاحا فى هذا الوقت، وقد نظم الدعوة من البيت العباسى ثلاثة لم يقـدر لهم أن ينالوا ثمـرة كـفاحـهم، أولهم: على بن عـبـد الله بن عبـاس (ت١١٨هـ / ٨٣٦ م)، ثم ابنه محـمد (ت ١٢٥ هـ / ٧٤٢م)[2]، ثم ابنه إبراهيم بن محمـد (ت ١٣٢ هـ / ٧٤٩ م)، ثم ولى الخلافة من هؤلاء العباسـيين اثنان هما: أبو العبـاس عبد الله بن محـمد (ت ١٣٦ هـ/ ٧٥٣م)، ثم أبو جعـفر المنصور بن محـمد (ت١٥٨ هـ / ٧٧٤ م)[3].

ومجمل القـول: أن زيد بن علي كان يهدف من مطالبته بالإمـامة إلى وضع أمر المسلمين فى يد أمينة بدلا من خلفاء بنى أميـة الذين كانوا يتصفون بظلم الناس، وكانت حياتهم يغـمرها الترف والمجون والاهتمـام بأمور الدنيا[4]، ولكنه خرج جهـرا ففشلت دعوته وقتل فى الوقت الذى نجح فيه العباسيون فى دعوتهم؛ لأنهم خرجوا سرا.

كانت الأوضاع فى الكـوفة ملائمة للخروج على الأمـويين، وقد أدرك زيد ذلك فقـال لداود بن علي حينمـا حاول أن يمنعـه من الاطمئنان إلى أهل الكوفـة، ذاكرا له

---

(١) ابن قتيبة الدينورى: المصدر السابق والجزء ص ١٣١ ـ ١٣٢، الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص٩٤ ـ ٩٥، الإسـفرايينى: التـبصـير فى الدين ص ١٩، الـشهـرستـانى: الملل والنحل ج١ ص ١٥٦، ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١١٢ .

(٢) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص٢٥٦ ـ ٢٥٧(تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد، القاهرة، بدون تاريخ).

(٣) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ٤٢١، ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

(٤) الجاحظ: رسالة فى بنى أمية ص ١٣٠ ـ ١٣١ (طبعـة دار المعارف، تحقيق: د. حسين مؤنس، ١٩٨٨م ضمن كتاب النزاع والتخاصم للمقريزى)، ابن البزاز: مناقب الإمام أبى حنيفة ج١ ص ٢٥٥ (حيدر آباد الدكن، ١٣٢١ هـ).

مواقفهم من الإمام علي وأولاده: إن عليا كان يقاتله معاوية ظلما[1]، وأن الحسين قاتله يزيد بن معاوية والأمر عليهم مقبل[2].

كتب أهل الكوفة إلى زيد بن علي فقدم إليهم، وحملوه على الخروج وحثوه عليه[3]، ولكن يوسف بن عمر أخرجه، فخرج حتى إذا كان بالقادسية[4]، لحقته الشيعة، فسألوه الرجوع معهم والخروج[5]، وقالوا له: أين تخرج عنا[6]، فنحن أربعون، إن رجعت إلى الكوفة لم يتخلف عنك أحد، وأعطوه المواثيق والأيمان المغلظة فجعل يقول: إنى أخاف أن تخذلونى وتسلمونى كفعلكم بأبى وجدى فيحلفون له[7].

وكان شيعة الكوفة ينتظرون الإمام العلوى الذى يخلصهم من الأمويين وظلمهم حتى ظهر بينهم زيد بن علي، فأسرعت إليه الشيعة وقالوا: إنا لنرجو أن تكون المنصور، وأن يكون هذا الزمان الذى تهلك فيه بنى أمية، وظلوا يبايعونه على الخروج؛ لتخليص حقوق أهل البيت ورفع الظلم عن الناس[8].

ولقد روى عنه بعض معاصريه أنه قال: أردت الخروج إلى الحج، فمررت بالمدينة فقلت: لو دخلت على زيد بن على، فدخلت فسلمت عليه، ثم خرجت من عنده ومضيت فقضيت حاجتى ثم انصرفت إلى الكوفة فبلغنى قدومه فأتيته فسلمت عليه وسألته عما قدم به، فأخبرنى عمن كتب إليه يسأله القدوم عليهم، فأشرت عليه بالانصراف فلحقه القوم فردوه[9].

زيد بن علي فى الكوفة:

نصح كثيرون زيد بن علي بألا يركن لأهل الكوفة، ولم تفده تلك النصائح

---

(١) المقريزى: الخطط ج٢ ص ٤٣٩.

(٢) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٨، ابن الأثير: الكامل ج٤ ص ٢٤٢، المقريزى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٣) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٣٥، ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٤.

(٤) القادسية: بينها وبين الكوفة عشرة فراسخ (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٢. ص ٢٩١ - ٢٩٢).

(٥) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٦١. (٦) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٣٥.

(٧) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٧ ص ١٦٧ - ١٦٨.

(٨) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٦٦، المقدسى: البدء والتاريخ ج٦ ص ٤٩ - ٥٠. ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٤ ص ٢٤٢.

(٩) الأصفهانى: المصدر السابق والصفحة، ابن الطقطقى: المصدر السابق ص ١٠٤.

شيئا[1]، ودخل الكوفة وأقام بها بضعة عشر شهرا[2]، وأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه ويبايعونه حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة، سوى أهل المدائن والبصرة وواسط والموصل وخراسان والرى وجرجان[3]، والجزيرة[4] العربية، وقيل أربعون ألف رجل[5]

وكان فيمن بايعه من أهل الكوفة مسلمة بن كهيل، ونصربن خزيمة العبسى، ومعاوية بن إسحاق بن زيد بن حارثة الأنصارى[6]، وحجية بن الأجلح الكندى[7]، وبايعه أيضا منصور بن المعتمر[8]، وقد بعثه زيد يدعو الناس إليه فقتل زيد وهو غائب[9].

ولم يكن لزيد بن علي فى الكوفة منزل خاص به.. يأوى إليه وإنما كان يتحرى فى ذلك مقتضيات الظروف والأحوال، ومن هنا تشاهده ينزل تارة دار امرأته بالأزد[10]، وأخرى فى أصهاره السلميين، وثالثة فى بنى عبس، عند نصر بن خزيمة العبسى، ورابعة فى بنى غبر، وتارة فى بنى تغلب وغيرهم[11]

ثم أمر زيد بن علي أصحابه بالاستعداد للخروج وأخذ من كان يريد الوفاء له بالبيعة يتجهز، فشاع أمره بين الناس[12].

---

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٦٨، المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص ٦٤، ٦٦، الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٩ ١، ابن الأثير. الكامل ج٤ ص ٢٤٢

(٢) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٧١، الأصفهانى: المصدر السابق ص ١٣٥

(٣) الأصفهانى: المصدر السابق الجزء والصفحة المحلى: الحدائق الوردية ج١ ص ١٤٤ (مخطوط)، ابن الطقطقى: الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٤.

(٤) ابن الطقطقى: المصدر السابق والصفحة، المقريزى: المصدر السابق والجزء ص ٤٣٨

(٥) ابن الأثير الكامل ج٤ ص ٢٤٢،ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٩٨ - ٩٩

(٦) الطبرى. المصدر السابق والجزء ص ١٦٧، ابن دريد: الاشتقاق ص ٢٧٨، ٤٣٩) تحقيق عبدالسلام هارون، نشر مكتبه الخانجى، القاهرة، مطبعة السنة المحمدية ١٣٧٨هـ / ١٩٥٨ م).

(٧) الطبرى المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الأصفهانى: المصدر السابق ص ١٤٨، ابن العماد الحنبلى: شذرات الذهب ج١ ص ١٥٨.

(٩) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٤٥

(١٠) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٧١ - ١٧٢، ابن إياس تاريخ الموصل ص ٤٤، ابن الأثير: الكامل ج٤ ص ٢٤٢.

(١١) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٧٢، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(١٢) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهانى مقاتل الطالبيين ص ١٣٥، ابن الأثير: المصدر السابق والجزء ص ٢٤٥.

ولما تمت البيعة لزيد وخفقت الألوية على رأسه، قال: «الحمد لله الذى أكمل لى دينى، والله إنى كنت أستحى من رسول الله ﷺ أن أرد عليه الحوض غدا ولم آمر بالمعروف ولم أنه عن منكر[1]، والله ما أبالى إذا أقمت كتاب الله وسنة نبيه ﷺ حتى أججت لى نار وقذفت فيها ثم صرت بعد ذلك إلى رحمة الله، والله لا ينصرنى أحد إلا كان فى الرفيق مع محمد ﷺ وعلى وفاطمة والحسن والحسين[2].

وجاء جماعة من الرؤساء وأهل الحل والعقد إلى زيد بن علي وقالوا له: إنا ننصرك على أعدائك بعد أن تخبرنا برأيك فى أبى بكر وعمر اللذين ظلما جدك على بن أبى طالب[3]، وطلبوا منه أن يسب أبا بكر وعمر حتى يقوموا معه وينصروه[4]، فأجابهم زيد ابن علي بعد أن قرأ على صفحات وجوههم الغدر والخذلان، قائلا: ما سمعت أحدا من آبائى تبرأ منهما، ولا يقول فيهما إلا خيرا[5]، فلم يقتنع القوم منه بهذا، بعد أن كان غرضهم عدم الالتزام بالعهود والمواثيق الصادرة منهم، واعتبروا عدم تبرى زيد من الخلفاء ذنبا يستوجب به عدم النصرة بهم، وقالوا له: فلم تطلب إذا بدم أهل هذا البيت؟ إلا وثبا على سلطانكم فتنزعاه من أيديكم[6]، فقال لهم زيد: إن أشد ما أقول فيما ذكرتم، إنا كنا أحق بسلطان رسول الله ﷺ من الناس أجمعين، وإن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفرا، قد ولوا فعدلوا فى الناس، وعملوا بالكتاب والسنة، قالوا: فلم يظلمك هؤلاء، وإن كان أولئك لم يظلموك، فلم تدعو إلى قتال قوم ليسوا لك بظالمين، فقال: إن هؤلاء ليسوا كأولئك، إن هؤلاء ظالمون لى ولكم ولأنفسهم[7]، لا أنالنى الله شفاعة جدى إن لم أؤمن براءة من أبى بكر وعمر[8]، البراءة من علي، وقد

---

(١) الهارونى: كتاب فى نصرة المذاهب الزيدية ص ٧٣ (مخطوط) بمعهد المخطوطات ابن الطقطقى الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٠٥.

(٢) الحميمى: الروض النضير ج١ ص ٧٣.

(٣) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٨٠، الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٣٧.، المقدسى البدء والتاريخ ج٦ ص ٥٠.

(٤) ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ٢٦، الذهبى: سير أعلام النبلاء ج٥ ص ٣٩٠، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥ ص ٣٣.

(٥) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨٠ ـ ١٨١، البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥.

(٦) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٩٩.

(٧) الطبرى المصدر السابق والجزء ص ١٨١، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الإسفراييني: التبصير فى الدين ص ١٨، ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ٢١، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ١٥، ص ٣٣.

أثنى عليهما جـدى علي وقـال فيهـما حسنا(١)، فتفرق عنه الـذين بايعوه(٢)، ونكثوا بيعته(٣).

ويبدو أن هذه مؤامرة. الأمويون فيها ضالعون، فقد اتخذ أهل الكوفة هذه المسألة سببا فى عدم الوفاء بالبيعة لزيد بن علي، وكانوا يعرفون سلفا رأيه فى أبى بكر وعمر

نهاية زيد بن علي واستشهاده:

استطاع زيد بن علي مقـاومة جند الشام رغم قلة عدد جنده، حـتى جاءت نجدة من الشام مكونة من القيقانية(٤)، والبخارية(٥)، فأوقعت بجنده خسائر فادحة، ولما كان الليل انسـحب أهل الكوفة وتفـرقوا، وثبت زيد بن علي ومن مـعه، وقد رُمـى بسهم فأصاب جانب جبهته اليسرى(٦)، فرجع ومعه أصحابه فدخلوا به الكوفة، ثم نزعوا منه السهم ففارق الحياة(٧).

ولما بلغ يوسف بن عمر نبأ قتل زيد، أقبل إلى الكوفة ورقى المنبر وقال لأهلها:

أبشـروا يا أهل الكوفة بالصـغار والـهوان، لا عطاء لكم عندنا ولا رزق، ولقـد هممت أن أضرب بلادكم ودوركم، وأحرمكم أمـوالكم، أما والله ما علوت منبرى إلا أسمعتكم ما تكرهون عليه، فإنكم أهل بغى وخلاف، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لى فيكم، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم(٨).

لما قتل زيد بن علي اختلف أصحابه فى دفنه ومواراته بصورة تخفى على الأعداء خوفا من إخراجـه والتمثيل به، فقال بعضهم: نلبـسه درعه ونطرحه فى الماء(٩)، وأشار

---

(١) الإسفرايينى المصدر السابق والصفحة

(٢) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج٢ ص ٥ ١.

(٣) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص ٢٠٠، الصفدى. المصدر السابق والجزء ص ٥.

(٤) القيقانية: نسبة إلى القيقان من بلاد السند مما يلى خراسان(ياقوت الحموى. معجم البلدان ج٤ ص ٢١٧)

(٥) البخارية: نسبة إلى بخارى من أعظم مدن ما وراء النهر (ياقوت: المصدر السابق ج١ ص٥١٧).

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٨٥ ـ ١٨٦، الأصفهانى. مقاتل الطالبيين ص ١٤ ـ ١٤١

(٧) المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص ٢١٩، الأصفهانى: المصدر السابق ص ١٤١، ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٩١، ابن كثير: البداية والنهاية ج٩ ص ٣٣١.

(٩) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٩١، الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٤٢، ابن كثير البداية والنهاية ج٩ ص ٣٣٠.

بعض من حضر من أصحابه بدفنه فى العباسية[1]، ورأى آخرون جز رأسه وإلقائه بين القتلى حتى لا يعرف، فلم يوافق ابنه يحيى على هذا الرأى، وقال لا والله، لا تأكل لحم أبى الكلاب[2]

قال سلمة بن ثابت: لما كثر الخلاف بين أصحابه أشرت عليهم أن ننطلق به إلى الحفرة التى نأخذ منها الطين فندفنه فيها فقبلوا الرأى، حتى إذا مكنا له دفناه[3]، ووضعنا عليه الحشيش والتراب وأجرى عليه الماء[4]

دخل يوسف بن عمر الكوفة بعد قتل زيد وتطلب مكان دفنه، ونادى مناديه: ألا من أخبر بمكان دفنه فله الجائزة، فجاءه الطبيب الذى أخرج السهم وكان حاضرا دفنه فأعلمه بمكانه[5]، وقيل. إن مملوكا سنديا لزيد بن علي أخبر بمكان دفنه[6]

ويروى الأصفهانى[7]: نبطيا كان يسقى زرعا له بتلك الناحية رآهم حين دفنوه وأخبر به.

استخرج جسد زيد بن علي وقطع رأسه وألقى به أمام الوالى، ثم صلب الجسد[8] كما تروى المصادر[9] بسوق الكناسة[10]، وأمر بحراسة جسد زيد لئلا ينزل، وكان فيمن يحرسه زهير بن معاوية أبو خيثمة[11]، وصلب معه أصحابه وفيهم:

---

(١) الطبرى. المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهانى المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن كثير المصدر السابق والجزء ص ٣٣١.

(٢) الطبرى: المصدر السابق والجزء والصفحة، الأصفهانى. المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الأثير. الكامل ج٤ ص ٢٤٧، ابن كثير المصدر السابق الجزء الصفحة، المقريزى. الخطط ص ٤٤

(٣) الطبرى. المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهانى المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن كثير المصدر السابق الجزء والصفحة

(٤) الطبرى. المصدر السابق والجزء ١٨٦، المسعودى مروج الذهب ج٣ ص ٢١٩، المحلى الحدائق الوردية ج ص ١٤٨، ابن خلكان: وفيات الأعيان ج٦ ص ١١

(٥) المسعودى: المصدر السابق والجزء ص ٢١٨ - ٢١٩، ابن خلكان: المصدر السابق الجزء والصفحة

(٦) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ١٨٧، الأصفهانى. المصدر السابق الجزء والصفحة،. ابن عساكر: تاريخ دمشق ج٦ ص ٢٦

(٧) مقاتل الطالبيين ص ١٤٢ (٨) الأصفهانى. المصدر السابق ص ١٤٣، ابن الأثير ج٤ ص ٢٤٨

(٩) ابن حبيب كتاب المحبر ص ٤٨٣، ابن عبد ربه العقد الفريد ج٥ ص ٢٢٥

(١٠) الكناسة: محلة بالكوفة عندها واقع يوسف بن عمر الثقفى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب (ياقوت الحموى. معجم البلدان ج٤ ص ٤٨١)

(١١) الطبرى. تاريخ الطبرى ج٧ ص١٨٩

معاوية بن إسحاق الأنصارى ونصر بن خزيمة العبسى[١]، وزياد النهدى[٢]، وبعث برأسه إلى هشام بن عبد الملك فنصب على باب دمشق[٣] ثم أرسل إلى المدينة[٤]، حيث نصب عند قبر النبى ﷺ يوما وليلة[٥]، وكلف آل أبى طالب البراءة من زيد[٦]، ومنها إلى مصر حيث دفن كما تروى المصادر فيها[٧]

ومجمل القول. تعجل زيد بن علي فى الخروج على الأمويين، وذلك بعد علمه بانتشار الدعوة العباسية السرية فى خراسان والتى كانت تدعو للرضا من آل محمدﷺ وأدى هذا التعجل إلى قتله، فيروى عن الوليد بن محمد الموقرى، قال كنت مع الزهرى بالرصافة، فسمعنا جلبة، فنظرنا فإذا رأس زيد بن علي يطاف بها بيد اللعابين، فقال الزهرى: أهلك أهل هذا البيت العجلة[٨]

---

(١) ابن حبيب المصدر السابق الجزء والصفحة، الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٣١١ ـ ٣١٢ (تحقيق عبد السلام هارون ، الطبعة الرابعة،مكتبة الخانجى بالقاهرة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م)

(٢) ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة

(٣) الطبرى المصدر السابق الجزء ص ١٨٩، ابن الأثير المصدر السابق الجزء والصفحة

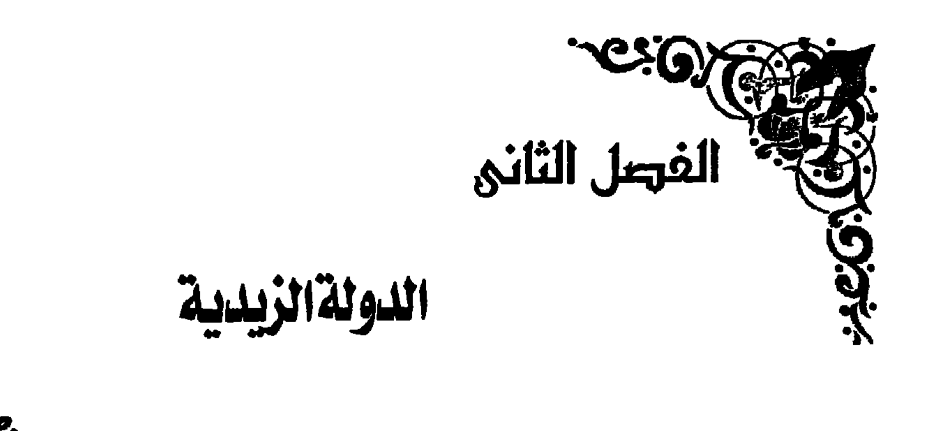
(٤) الطبرى المصدر السابق الجزء والصفحة، المحلى الحدائق الوردية ج١ ص ١٤٨ (مخطوط) بدار الكتب، المقريزى الخطط جـ ص ٤٤

(٥) ابن عنبة عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ص ٢٥٨ (المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف ١٣٨ هـ / ١٩٦م).

(٦) الحصرى زهر الآداب جـ ١٢

(٧) يقول ياقوت الحموى. وبمصر من المشاهد والمزارات على باب الكورتين مشهد فيه مدفن رأس زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب الذى قتل بالكوفة وأحرق وحمل رأسه فطيف به الشام ثم حمل إلى مصر فدفن هناك (معجم البلدان ج٥ ص ١٤٢ ـ ١٤٣)، ويروى المقريزى أن هذا المشهد باق بين كيمان مدينة مصر يتبرك الناس بزيارته ويقصدونه لاسيما فى يوم عاشوراء، والعامة تسميه زين العابدين وهو وهم، وإنما زين العابدين أبوه، وليس قبره بمصر بل قبره بالبقيع (الخطط ج٢ ص ٤٤)

(٨) الأصفهانى مقاتل الطالبيين ص ١٤٣،، ابن عساكر تاريخ دمشق ج٦ ص ٢٦، الصفدى الوافى بالوفيات ج١٥ ص ١٣



الفصل الثانى

الدولة الزيدية

كان الحسن بن زيد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب مع يحيى بن عمر حين خرج فى أيام المتوكل والمستعين، ولما قتل يحيى بن عمر فر الحسن ابن زيد مع أصحابه إلى طبرستان ومنها إلى الرى، وكان يلقب بالداعى الكبير(١).

استطاع الحسن بن زيد إقامة دولة للزيدية فى طبرستان استمرت نحو قرن من الزمان(٢).

كان ابن زيد فقيها عالما بالعربية(٣) وكان رجلا فاضلا(٤)، يكره المدح والنفاق(٥)، ويقول الشعر(٦)، ويتذوقه(٧)، وقد وصفه

---

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٩ ص ٢٦٦ ـ ٢٧١، ابن حزم. جمهرة أنساب العرب ج١ ص ٤.

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين جـ١ ص ١٦ ـ ١٦١، المقدسى: البدء والتاريخ ج٦ ص ٢٣.

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ٥٥.

(٤) بخواندمير: روضة الصفا فى سيرة الأنبياء والملوك والخلفاء ص ٥١ (ترجمة د. أحمد عبدالقادر الشاذلى، مراجعة: د. السباعى محمد السباعى، الطبعة الأولى ١٤٠٨ هـ / ١٩٨٨ م، طبعة الدار المصرية للكتاب).

(٥) مدح شاعر الحسن بن زيد فقال له: الله فرد وابن زيد فرد، فنهره الحسن بن زيد وقال: هلا قلت: الله فرد وابن زيد عبد، ثم نزل من مكانه،وخر ساجدا،وألقى على خده التراب (ابن الأثير المصدر السابق،الجزء والصفحة).

(٦) لما حبس الصفار أخاه محمد بن زيد بنيسابور قال الحسن بن زيد:

نصفى أسير لدى الأعداء مرتهن   يرجو النجاة بإقبالى وإدبارى

الصدفى المصدر السابق والجزء ص ٢١.

(٧) مدحه الشاعر بقوله: =

الصـفدى[1] بقوله: إن له فى التواريخ وقائع مشهودة وسيرا مشكورة، وكان مهيبا عظيم الخلق. وله من الكتب: كـتـاب الجامع فى الفـقه وكـتـاب البيـان وكتـاب الحجـة فى الإمامة[2].

وكان السبب المباشـر الذى فجر الموقف بين أهل طبرستان والعباسـيين أن الخليفة المستعين كافأ محمد بن عبـد الله بن طاهر على قتل يحيى بن عمر فأعطاه ثغرا كلار[3] وسالوس[4]وكانت بجوارهما أرض لأهل تلك الناحية فيها مرافق منها محتطبهم ومراعى مواشيهم[5].

وأرسل محمد بن عبد الله بن طاهر رجـلا نصرانيا يدعى جابر بن هارون لحيازة ما أعطاه الخليفـة من أرض، وكان فى تلك الناحية رجـلان معروفان بالبأس والشـجاعة هما محمد وجـعفر ابنا رستم، فاستنهضا الناس لمنع جـابر من حيازة الأرض، وتعاقدوا جميعا على مـحاربة سليمان بن عبد الله ومحمـد بن أوس، وكل من قصدهم بحرب، وأدى ذلك إلى سخط الأهالى على طاهر والخلافة العـباسية[6]، وقد أرسل أبناء رستم إلى رجل من الطالبيين المقيمين بطبرستـان يقال له: محمد بن إبراهيم يدعونه إلى البيعة فأبى وامـتنع عليـهم، وقال لهم: لكنى أدلكم على رجل منـا هو أقوم بما دعوتمـوه إليه منى، فقالـوا: من هو: فأخبرهم أنه الحسن بـن زيد،ودلهم على منزله بالرى، فأرسلوا إليه، فلمـا وافاهم بايع له ابنا رستم وجمـاعة من أهل الثغور ورؤسـاء الديلم، فركب فيهم ودخل آمل[7]، وأخذاها قهرا وجبى خراجها واستفحل أمره[8].

= لا تقل بشرى ولكن بشريان   غره الداعى ويوم المهرجان

فقال له الحسن بن زيد: كان الواجب أن تفتح الأبيات بغير لا، فإن الشـاعر المجيد يتخير لأول قصيدته ما يعجب السامع، ويبرك به، فقال له الشاعر ليس فى الدنيا أفضل من قول لا إله إلا الله وأولها ـ لا ـ فقال له الحسن بن زيد: أصبت وأجازه.

ابن الأثير: الكامل ج٦ ص٥٥.

(١) الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٢ ص ٢٠.

(٢) ابن النديم الفهرست ص ٢٧٤.

(٣) كلار: مدينة فى جبال طبرستان، وكانت فى ثغورها (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٤ ص ٢٧٤.

(٤) سالوس: يقول عنها ياقوت: هى فى الإقليم الرابع (المصدر السابق ج٢٣ ص ١٧٢).

(٥) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٩ ص ٢٧١، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٢٨٥.

(٦) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٢٧٣، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٢٨٦.

(٧) آمل: أكبر مدينة بطبرستان (ياقوت الحموى: المصدر السابق ج١ ص ٥٧).

(٨) الطبـرى: المصـدر السـابق والجزء ص ٢٧٣ ـ ٢٧٤، ابن خلـدون: المصدر السـابق والجـزء ص ٣٨٦، الزركلى: الأعلام ج٢ ص ٢٠٦.

وحدث صدام بين الحسن بن زيد والدولة الصفارية[1]، فى هذه البلاد فدخل يعقوب بن الليث طبرستان واستولى على سارية ثم تقدم إلى آمل، وجبى من أهلها خراج سنة ثم اتجه إلى الشرز[2] فى طلب الحسن بن زيد[3]، وأرسل يعقوب إلى الخليفة العباسى هدايا عنوانا على طاعته، كما أرسل أصناما أخذها كابل دليلا على جهاده فى سبيل الإسلام[4] وكاد يعقوب بن الليث أن يقضى على نفوذ الحسن بن زيد فى هذه البلاد، وأن يحل محله فيها لولا هطول الأمطار، ووعورة الجبال، الأمر الذى أدى إلى تقهقر يعقوب بعد هلاك عدد كبير من رجاله، وفشل فى تحقيق أطماعه فى طبرستان[5]، يقول الطبرى[6]: إنه لما شخص عن حدود طبرستان مرض رجاله ففقد منهم أربعين ألفا، وانصرف عنها وقد ذهب أكثر ما كان معه من الخيل والإبل والأثقال.

سار الحسن بن زيد إلى الشرز ومعه الديلم[7]، ثم رحل إلى طبرستان، وأحرق شالوس[8]، وذلك لتواطؤ أهلها مع يعقوب بن الليث[9]، وبعد رحيل الصفارى من طبرستان توفى الحسن بن زيد سنة (٢٧٠هـ / ٨٨٣ م)[10]، ثم قام بالأمر بعده أخوه

---

(١) الدولة الصفارية: قامت على أنقاض الدولة الطاهرية فى شرق الدولة الإسلامية (٢٥٤ـ ٢٩٠ هـ) (٨٦٧ ـ ٩٠٣ م)، وقد استطاع يعقوب بن الليث الصفار أن يؤسس ملكا عريضا يشتمل على معظم أرجاء فارس، بالإضافة إلى سجستان، وقد اشتهر يعقوب باليقظة وحسن التدبير، وعمل على التقرب إلى الخلافة العباسية، ولكن العباسيين خافوا من هذه الدولة وعملوا على التخلص منها (الطبرى: تاريخ الطبرى ج٩ ص ٣٨٢ ـ ٣٨٦).

(٢) الشرز: جبل فى بلاد الديلم (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٣ ص ٣٣٤).

(٣) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩ ـ ٥١٠، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٢٠٤، بخواندمير: المصدر السابق ص ٥١، ٥٨.

(٤) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٢٠٤، بخواندمير المصدر السابق ص ٥٨ ـ ٥٩.

(٥) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥٠٩، بخواندمير: المصدر السابق ص ٥٨.

(٦) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٧) الطبرى: تاريخ الطبرى ج ٩ ص ٥١٠.

(٨) شالوس: مدينة بمدينة طبرستان (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٣ ص ٣١١).

(٩) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥١٢.

(١٠) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٦٦٦، ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٤، ابن الأثير: الكامل ج٦ ص ٥٥.

محمد بن زيد[1]، الذى رعى للرضا من آل محمد ﷺ[2]، وعرف بالداعى إلى الحق[3].

كان محمد بن زيد فاضلا فى أخلاقه، عارفا بالأدب والشعر والتاريخ[4]، وكان يرسل كل عام بأموال كثيرة، وذلك لتوزع على أهله ببغداد والكوفة ومكة والمدينة سرا، فسعى به عند الخليفة المعتضد[5]، ولما علم الخليفة المعتضد بذلك طلب من محمد بن زيد أن يرسل هذه الأموال ويوزعها ظاهرا، وتقدم بمعونته على ما يريد من ذلك[6].

كانت الحرب بين محمد بن زيد وبين العباسيين سجالا، تلاحقه جيوش العباسيين فى الطالقان[7] تارة ويحتل هو نيسابور[8] تارة أخرى، فبعد أن قام الخليفة المعتضد بعزل رافع بن هرثمة عن خراسان، وأعاد إليها عمرو بن الليث، وخرج رافع ابن هرثمة على الخلافة فى نيسابور وانضم إلى محمد بن زيد وخطب الخطبة باسمه[9]، فكانت بين رافع بن هرثمة وعمرو بن الليث حرب انهزم فيها رافع وأصحابه سنة (٢٨٣هـ/ ٨٩٦ م)، وقتل وحمل رأسه إلى الخليفة المعتضد فى بغداد[10].

---

(١) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٦١، المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ١٥٣، ابن النديم: المصدر السابق والصفحة، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج١ ص ٣٥٩.

(٢) المسعودى: المصدر السابق والجزء ص ٢٦٦.

(٣) الطبرى: المصدر السابق ج١٠ ص ٤٤، المسعودى: المصدر السابق الجزء والصفحة، الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ٦٩٣، ابن النديم: المصدر السابق والصفحة.

(٤) الصفدى: المصدر السابق ج٣ ص ٨١، الزركلى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٥) هو أبو العباس أحمد بن الموفق بن طلحة بن المتوكل، بويع سنة (٢٧٩هـ / ٨٩٢م) وتوفى سنة (٢٨٩ هـ / ٩٠١ م) وكان شهما عاقلا محسنا إلى بنى عمه من آل أبى طالب (الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٣٠ وما بعدها، المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٢٣١ وما بعدها، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٦٨).

(٦) الطبرى: تاريخ الطبرى ج١٠ ص ٤١ ـ ٤٢، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٠.

(٧) الطالقان: بلدتان إحداهما بخراسان بين مرو والروذ وبلخ، والأخرى بين قزوين وأبهر، وإليها ينسب الصاحب بن عباد الطالقانى، ويقول عنها الإصطخرى: هى أكبر مدينة بطخارستان (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٤ ص ٦ ـ ٧).

(٨) نيسابور: مدينة عظيمة خارجة من الإقليم الرابع فى الإقليم الخامس، وقد خرج منها الكثير من أهل العلماء (ياقوت الحموى: المصدر السابق ج٥ ص ٣٣١ ـ ٣٣٣).

(٩) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٤٤، ٥٠، المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ١٥٣، بخواندمير: روضة الصفا ص ٦١.

(١٠) الطبرى: المصدر السابق الجزء ص ٥٠، بخواندمير: المصدر السابق والصفحة.

واحتدم الصراع بين محمد بن زيد والأمير إسماعيل بن أحمد السامانى[1]، حيث قصد محـمد بن زيد جرجان[2]، بعد هزيمة عـمرو بن الليث الصفار، فحـذره الأمير السامانى، وكتب إليـه يسأله الرجوع إلى طبرستان وترك جرجان له، فـرفض محمد بن زيد[3].

التقى مـحمـد بن زيد مع جيش السـمانيـين بقيـادة محمـد بن هارون عند باب جرجان، وهزم محمد بن زيد وأصيب بجراح ومات متأثرا بها سنة (٢٨٧هـ / ٩٠٠م) وأسر ولده وغيره من أصحابه[4].

وملك طبرسـتان زيد بن محـمد بن زيد ثم من بعـده ابنه الحسن بن زيد[5]، ثم صارت طبـرستان فى ملك بنى سامـان إلى أن ظهر الناصر الأطروش، وهو أبو مـحمد الحسن بن علـي بن عمر بن علي زين الـعابدين[6]، واستطاع أن يعـيد للدولة الزيدية عهدها الأول فى هذه البلاد، فاسترد كل ممتلكاتهـا من عامل السامانيين موحدا الديالمة، ناشرا الأمن والأمان فى ربوع البلاد فلقب بذلك بالناصر[7].

بنى بويه والزيدية:

اتخذ الناصر الأطروش قوادا من الديالمة كان منهم وليلى بن النعمان، وأسفار ابن

---

(١) إسماعيل بن أحمد السامانى، تولى حكم بلاد ما وراء النهـر بعد وفاة أخيه نصر بن أحمد السـامانى سنة (٢٧٩ هـ / ٨٩٢ م)، وقد فوضـه الخليفة العبـاسى المعتضد بذلك، ولكنه تآمـر عليه سرا وأرسل إلى عمرو بن الليث الصفار يحرضه على التخلص من الأمير السامانى،واستمرت الحرب سنين عديدة انتهت بانتصار السمانيين.

(٢) جرجان مدينة عظيمة ومشهورة بين طبرستان وخراسان (ياقوت الحموى: معجم البلدان ج٢ ص ١١٩.

(٣) الطبرى: المصـدر السابق الجـزء ص ٨١، الأصفهـانى. مقاتل الطالبـيين ص ٦٩٣، الصـفدى: الوافى بالوفيات ج٣ ص ٨١، بخواندمير: المصدر السابق ص ٨٣.

(٤) الطبرى: المصـدر السابق والجزء ص ٨١، ٨٢، ٩٣، الأشعـرى: مقالات الإسلامـيين ج١ ص ١٦١، المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٢٦٦، الأصفهانى: المصدر السـابق والصفحة، الأمير قابوس: كتاب النصيحة أو قابوس نامه، المقدمة ص ١١.

(٥) النويرى: نهاية الأرب ج٢٣ ص ٢٩، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٦) ابن حزم: جمهرة أنسـاب العرب ص ٥٤، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ١٤٦، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٢٥، بخواندمير: المصدر السابق ص ٥٨.

(٧) الطبـرى: تاريخ الطبرى ج١٠ ص ١٤٩، الكرديزى: زين الأخبار ص ١٣١ (الطبـعة الأولى، ترجـمة: عفاف السيد زيدان، ١٩٨٢م)، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ١٤٦، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٢ س ١١١،ابن خلدون المقدمة ص ٢٠٠، العبر ج٣ ص ٣٦٦ ـ ٣٦٧.

شيرويه، ومرداويج بن زيار، وماكان بن كالى، وكان بنو بويه[1]، وهم علي والحسن وأحمد من قواد ماكان بن كالى[2]، وقد اشترك علي بن بويه مع ماكان بن كالى فى الاستيلاء على نواحى آمل وطبرستان ونيسابور، ذلك عند انصراف (السعيد نصر بن أحمد الساماني) ـ صاحب خراسان ـ عنها، واشتغاله بأخويه الخارجين عليه[3]، وتروى المصادر[4] أن خلافا وقع بين ماكان بن كالى ومرداويج، واستطاع مرداويج إنزال الهزيمة بماكان بن كالى، وانتزع منه طبرستان وجرجان، فانضم بنو بويه إلى مرداويج فقبلهم وأكرمهم وولى علي بن بويه على الكرج.

تطلع البويهيون الزيدية إلى المسير إلى بغداد والاستيلاء عليها، فلما ساد الاضطراب نواحى العراق فى عهد الخليفة المستكفى (٣٣٣ / ٣٣٤هـ) ـ (٩٤٤/ ٩٤٥م) أرسل بعض قواد بغداد من الأتراك إلى أحمد بن بويه يطلبون منه المسير إليهم[5]، فرحل قاصدا بغداد سنة (٣٣٤هـ / ٩٤٥ م) وقابل الخليفة المستكفى الذى احتفى بقدومه وخلع عليه وعقد له لواء إمرة الأمراء ولقبه (معز الدولة) ولقب أخاه عليا (عماد الدولة)، كما لقب أخاه الحسن (ركن الدولة)[6].

---

(١) البويهيون: عنصر من العناصر الفارسية، أقاموا فى بلاد الديلم جنوب بحر قزوين، وينسبون إلى جدهم بويه بن فنا خسرو، الملقب بأبى شجاع، ، ويرى بعض المؤرخين أنهم ينسبون إلى كسرى فارس بهرام جور، وهناك من ينسبهم إلى العرب، وأن جدهم الأعلى هو بهرام بن الضحاك، وقد كان بويه الذى ينتسب إليه البويهيون كبيرا ويعمل صيادا للسمك، وكان مغزالا وكان يحتطب على رأسه (البيرونى: الآثار الباقية من القرون الخالية ص ٣٨ ـ ٣٩ (طبعة بغداد ١٩٢٣م).

(٢) المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٣٧٣، هلال الصابى: المنتزع من التاجى ص ٦١، ابن خلدون: المصدر السابق والجزء ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥، مسكويه: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٥، بخواندمير: المصدر السابق ص ١٨٢.

(٣) مسكويه: المصدر السابق الجزء ص ٢٧٥.

(٤) الهمذانى: تكملة تاريخ الطبرى ص ٢٩١ وما بعدها، ابن الطقطقى: المصدر السابق ص ٢٢٥، ابن خلدون: المصدر السابق ص ٣٩٤ ـ ٣٩٥، مسكويه: المصدر السابق ج٥ ص ٢٧٧، بخواندمير: المصدر السابق والجزء، السيوطى: المصدر السابق ص ٣٨٦ ـ ٣٨٧.

(٥) المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٣٨٥، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ٣٤٠، مسكويه: تجارب الأمم ج٢ ص ٨٥، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٤٢٠، بخواندمير: روضة الصفا ص ١٨٦، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٣٩٧.

(٦) المسعودى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الجوزى: المنتظم فى أخبار الملوك ج٦ ص ٣٤٠، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء والصفحة، الصفدى: الوافى بالوفيات ج ص ٢٧٨، ابن خلدون: المصدر السابق الجزء والصفحة.

استفحل أمر البويهيين الزيدية فى خلافة العباسيين قرنا من الزمان، سيطروا على مقاليد السياسة، وكانوا يولون الخلفاء ويعزلونهم كيفما شاءوا، وكانت لهم فى بغداد قصور عظيمة أطلق عليها دار المملكة[١].

ثم بدأ البويهيون بحملة إرهاب على الخلفاء؛ إذ دخل معز الدولة على المستكفى وتقدم اثنان من أهل الديلم منه، وظن الخليفة أنهما يريدان تقبيل يده، ولكنهما جذباه من السرير وطرحاه أرضا، ثم سيق إلى السجن، حيث سملت عيناه وانتهبت دار الخلافة، وعين معز الدولة المطيع لله خليفة بعد أن حجر عليه تماما، وقرر له مائة دينار نفقة يومية، ولم يكن للخليفة إلا الخطبة والسكة[٢].

وكان البويهيون يرون فى التدابر المذهبى ما يفرق بين الناس ومعايشهم، فبعد أن سيطر عضد الدولة على أمور الدولة[٣]، أقام المساجد وعين لها الأئمة، وأسقط النفقات التى كانت تؤخذ من الحجاج فى هذه الفترة، وأعاد الآبار التى كانت محفورة من بغداد إلى مكة إلى حالتها الأولى[٤]، كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة، وأذن لوزيره نصر ابن هارون النصرانى فى عمارة البيع والكنائس، وأن يرعى فقراء هذه الطائفة، ويطلق الأموال لهم[٥].

وأقرب فرق الزيدية إلى البويهيين هى فرقة السليمانية وهم الذين ساروا بالمذهب الزيدى نحو التسامح، ونحو اتساع المذهب لكل مقالة وميل، فقد كان سليمان بن جرير يقول: «إن الإمامة شورى فيما بين الخلق»[٦]، وقد طبق البويهيون قول السليمانية فى الإمامة الذين قالوا: «إن الإمامة من مصالح الدين، ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل، لكنه يحتاج إليها لإقامة الحدود والقضاء بين المتحاكمين، وولاية اليتامى والأيامى، وحفظ البيضة، وإعلاء الكلمة، ونصب القتال مع

---

(١) الخطيب البغدادى: تاريخ بغداد ج١ ص ١٠٥ ـ ١٠٧.
(٢) المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٣٧١، الهمذانى: تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٥٤ ـ ٣٥٥، ابن الجوزى: المنتظم ج٦ ص ٣٤٣، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص٣١٥.
(٣) السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٤٠٨.
(٤) بخواندمير: المصدر السابق ص ١٩١.
(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص ٩٥، بخواندمير: روضة الصفا ص ١٩١.
(٦) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣، ٢٤، الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٦٤، الصفدى: الوافى بالوفيات ج١٥ ص ٣٦٠.

أعداء الدين، وحتى يكون للمسلمين جماعة، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة. فلا يشترط فيها أن يكون الإمام أفضل الأمة علما، وأقدمهم رأيا وحكمة؛ إذ الحاجة تفسد بقيام المفضول مع وجود الفاضل والأفضل(١).

لم يبق من مظهر زيدى للبويهيين غير الاحتفالات الرسمية للمراسم الشيعية، ففى سنة (٣٥٢هـ / ٩٦٣ م) ألزم معز الدولة الناس يوم عاشوراء(٢) بغلق الأسواق، ومنع الطباخين من الطبخ، ونصبوا القباب فى الأسواق، وعلقوا عليها المسوح، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع، ويقمن المآتم على الحسين بن علي، واستمر ذلك سنين(٣).

وفى ثامن عشر من ذى الحجة احتفل بعيد غدير خم(٤)، وضربت الدبابات(٥)، وأشعلت النار فى الأسواق، ويكر المتشيعون إلى مقابر قريش(٦)، وصلوا هناك (٧) وقد سجن فى أيام معز الدولة قوم من التناسخية(٨)، فيهم شاب يزعم أن روح علي بن أبى طالب انتقلت إليه، وامرأته تزعم أن روح فاطمة انتقلت إليها، فأمرمعز الدولة

---

(١) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٦٥.

(٢) بعث أهل العراق إلى الحسين بن علي الرسل والكتب. يدعونه إليهم، فخرج من مكة إلى العراق ومعه طائفة من أهل بيته، فكتب يزيد بن معاوية بن أبى سفيان إلى واليه بالعراق عبيد الله بن زياد بقتاله، فوجه إليه يزيد جيشا بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص، وخذل أهل الكوفة الحسين بن علي وقتل فى (١٠ محرم ٦١ هـ / ٦٨٠م) فى موقعة كربلاء بالقرب من الكوفة (المسعودى: مروج الذهب ج٣ ص٧٠ ـ ٧١).

(٣) الهمذانى: تكملة تاريخ الطبرى ص ٣٩٧، ابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٤٢٥، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٤٠١.

(٤) غدير خم: هو بئر ماء بين مكة والمدينة، تزعم الشيعة أن النبىﷺ عهد فيه إلى علي بن أبى طالب بالخلافة والإمامة.

(٥) الهمذانى: تكملة تاريخ الطبرى ص ٤٠٠، ابن كثير: البداية والنهاية ج١١ ص ٢٤٣، ابن خلدون: العبر ج٣ ص ٤٢٥، السيوطى: تاريخ الخلفاء ص ٤٠١.

(٦) مقابر قريش هى مقبرة مشهورة ببغداد فيها قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي ابن الحسين بن علي بن أبى طالب، وكان الخليفة المنصور أول من جعلها مقبرة.

(٧) الهمذانى: المصدر السابق والصفحة.

(٨) التناسخية: قالوا: إن الإمامة نور يتناسخ من شخص إلى شخص، وذلك النور فى شخص يكون نبوة، وفى شخص آخر يكون إمامة، وربما تتناسخ الإمامة فتصير نبوة، وقالوا: بتناسخ الأرواح وقت الموت، وقالوا: بتناسخ روح الإله فى الأئمة، وأن عليا صار إلها حين حمل روح الإله فيه (البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٥٤، الشهرستانى: الملل والنحل ج٢ ص ١٣).

بإطلاقهم، وذلك لميله لأهل البيت، ويعلق السيوطى[1] على ذلك بقوله: «فكان هذا من أفعاله الملعونة».

بعد أن استأثر البويهيون بالأمر فى خلافة العباسيين قرنا من الزمان، ضعف أمرهم واستنجد الخليفة بالسلاجقة[2]، حيث قبض طغرلبك السلجوقى سلطان السلاجقة (ت٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م) على الملك الرحيم آخر الأمراء البويهيين سنة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) وأرسله إلى إحدى قلاع فارس. حيث ظل سجينا بها إلى أن توفى سنة (٤٥٠هـ / ١٠٥٨م)[3]، وبدخول طغرلبك بغداد وقبضه على الملك الرحيم، أسدل الستار على الدولة البويهية التى سيطرت على الخلافة العباسية وحكمت باسمها ١١٣سنة، وحلت محلها فى السيطرة وفى الحكم باسم الخلافة الدولة السلجوقية.

الزيدية فى نظر الشهرستانى:

أتباع زيد بن علي بن الحسين بن على بن أبى طالب ـ رضى الله عنهم ـ ساقوا الإمامة فى أولاد فاطمة ـ رضى الله عنها ـ ولم يجوزوا ثبوت الإمامة فى غيرهم، إلا أنهم جوزوا أن يكون كل: فاطمى، عالما، زاهدا، شجاعا، سخيا، خرج بالإمامة وأن يكون ـ إماما واجب الطاعة؛ سواء كان من أولاد الحسن، أو كان من أولاد الحسين ـ رضى الله عنهما ـ وعن هذا جوز قوم منهم: إمامة محمد وإبراهيم الإمامين ابنى عبدالله بن الحسن بن الحسن اللذين خرجا فى أيام المنصور وقتلا على ذلك؛ وجوزوا خروج إمامين فى قطرين يستجمعان هذه الخصال، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة.

---

(١) الهمذانى: المصدر السابق ص ٣٩٩.

(٢) السلاجقة: مجموعة من القبائل التركية التى عرفت باسم (الغز) كانت تسكن الهضاب القريبة من بحيرة خوارزم وفى الهضاب المحيطة بنهرى سيحون وجيحون، وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم السلاجقة نسبة إلى رجل منها تزعمها «سلجوق بن دقاق» ولم يكن لهذه القبائل اسم خاص تعرف به قبل تولى سلجوق هذا رئاستها، ويبدو أنه هو الذى جمع شملها ووحدها تحت زعامته،ثم قادها ونزل بها أرض الإسلام، فأسلمت معه فنسبت إليه وخضعت لحكم أبنائه وأحفاده من بعده (عبد المنعم حسنين: سلاجقة إيران والعراق ص ١٧، القاهرة ١٩٥٩م).

(٣) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٨ ص ٧١ ـ ٧٢، ابن الجوزى: المنتظم ج٨ ص ١٦٤، الراوندى: راحة الصدور وآية السرور فى تاريخ الدولة السلجوقية ص ١٠٦ (نقلة إلى العربية: إبراهيم أمين الشاوربى، وعبد النعيم حسنين، وفؤاد عبد المعطى الصياد، القاهرة ١٩٦٠م).

وزيد بن علي ـ لما كـان مذهبه هـذا المذهب ـ أراد أن يحصل الأصـول والفروع حتى يتـحلى بالعلم، فتتلمـذ فى الأصول لواصل بن عطاء الغزالى الألثغ رأس المعـتزلة ورئيسهم، مع اعتقـاد واصل: أن جده علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ فى حروبه التى جرت بينه وبين أصـحاب الجمل وأهل الشام ما كـان على يقين من الصواب، وأن أحد الفريقين منهـما كان على الخطأ لا بعينه. فاقتبس منه الاعـتزال، وصارت أصحابه كلهم: معتـزلة. وكان من مذهبه: جواز إمامـة المفضول مع قيام الأفضل، فـقال: كان علي بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ أفضل الصحـابة، إلا أن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحـة رأوها، وقاعـدة دينيـة راعوها: من تسكين ثائـرة الفتنة، وتطيـيب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريبا، وسيف أمير المؤمنين علي عن دماء المشـركين من قريش وغيـرهم لم يجف بعد، والضغائن فى صـدور القوم من طلب الثأر كـما هى. . فـما كانت القلوب تمـيل إليه كل الميل ولا تنقـاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه: باللين، والتؤدة والتقدم بالسن، والسـبق فى الإسـلام، والقـرب مـن رسول الـله ﷺ. ألا ترى أنه لما أراد فى مرضـه الذى مات فـيه تقليد الأمـر بأميـر المؤمنين عمـر بن الخطاب لشدته وصـلابته، وغلظته فى الـدين، وفظاظته على الأعداء. . حـتى سكنهم أبو بكر بقولـه: «لو سألنى ربى لقلت: «وليت علـيهم خيـرهم لهم». وكذلك يـجوز أن يكون المفـضـول إمامـا والأفضل قائما، فيرجع إليه فى الأحكام، ويحكم بحكمه فى القضايا.

ولما سمعت شيعة الكوفة هذه المقالة منه، عرفوا أنه لا يتبرأ من الشيخين: رفضوه حتى أتى قدره عليه، فسميت رافضة.

وجرت بينه وبين أخيه الباقـر: محمد بن على مناظرات لا من هذا الوجه، بل: من حيث كـان يتتلمذ لواصل بن عطاء، ويقـتبس العلم ممن يجـوز الخطأ على جده فى قتال الناكثين، والقاسطين، والمارقين، ومن حيث إنه يتكلم فى القدر على غير ما ذهب إليه أهل البيت، ومن حيث إنه كـان يشترط الخروج شرطا كون الإمام إمـاما، حتى قال له يوما: علـى مقتـضى مذهبك: والدك ليس بإمـام، فإنه لم يخـرج قط، ولا تعرض للخروج.

ولما قـتل زيد بن علي وصلب قـام بالإمامـة بعده يـحيى بن زيد، ومـضى إلى خراسان، واجتـمعت عليه جماعة كثـيرة. وقد وصل إليه الخبر من الصـادق جعفر بن محمد بأنه يقتل كما قتل أبوه، ويصلب كمـا صلب أبوه، فجرى عليه الأمر كما أخبر.

وقد فوض الأمر بعده إلى محمد وإبراهيم الإمامين، وخرجا بالمدينة، ومضى إبراهيم إلى البصرة، واجتمع الناس عليهما، وقتلا أيضا. وأخبرهم الصادق بجميع ما تم عليهم، وعرفهم أن آباءه ـ رضى الله عنهم ـ أخبروه بذلك كله وأن بنى أمية يتطاولون على الناس، حتى لو طاولتهم الجبال لعلوا عليها، وهم يستشعرون بغض أهل البيت. ولا يجوز أن يخرج واحد من أهل البيت حتى يأذن الله تعالى بزوال ملكهم، وكان يشير إلى أبى العباس، وإلى أبى جعفر: ابنى محمد بن علي وأشار إلى المنصور. فزيد ابن علي قتل بكناسة الكوفة، قتله هشام بن عبد الملك، ويحيى بن زيد قتل بجوزجان خراسان، قتله أميرها، ومحمد الإمام قتل بالمدينة، قتله عيسى بن ماهان، وإبراهيم الإمام قتل بالبصرة. . أمر بقتلهما المنصور. ولم ينتظم أمر الزيدية بعد ذلك حتى ظهر بخراسان صاحبهم: ناصر الأطروش، فطلب مكانه، ليقتل، فاختفى واعتزل الأمر، وصار إلى بلاد الديلم والجبل ولم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعا الناس دعوة إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدانوا بذلك، ونشأوا عليه، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرين. وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة ويلى أمرهم. وخالفوا بنى أعمامهم من الموسوية فى مسائل الأصول، ومالت أكثر الزيدية بعد ذلك عن القول بإمامة المفضول، وطعنت فى الصحابة طعن الإمامية. وهم أصناف ثلاثة: جارودية، وسليمانية، وبترية، والصالحية منهم والبترية على مذهب واحد.

الزيدية بعد الإمام زيد:

الزيدية منذ مقتل زيد بن علي حتى قيام الدولة العباسية (١٣٢هـ / ٧٤٩م):

لم يكن استشهاد زيد بن علي فى الكوفة نهاية المطاف للحركة الزيدية. بل كان داعيا إلى حركة استشهاد أخرى كانت العامل الأكبر فى القضاء على الدولة الأموية ونجاح الدعوة العباسية وقيام دولتها، فقد حارب يحيى بن زيد مع أبيه وأوصاه أبوه حين أصيب بمواصلة الجهاد ضد الأمويين، وتعهد يحيى بذلك[1].

خطب يوسف بن عمر بعد مقتل زيد بالكوفة قائلا: «يا أهل الكوفة، إن يحيى ابن زيد يتنقل فى حجاب نسائكم كما كان يفعل أبوه، والله لو أبدى لى صفحته لعرفت

(١) ابن عنبة: عمدة الطالب فى أنساب آل أبى طالب ص ٢٥٧ (المطبعة الحيدرية، الطبعة الثانية، النجف ١٣٨٠هـ / ١٩٦١م).

خصيتيه كما عرفت خصيتي أبيه»[1]، وقد أتى يحيى بن زيد أناس من المحكمة[2]، يسألونه يخرج معهم، ولكن أصحابه نهوه عن ذلك وقالوا له: كيف تقاتل بقوم تريد أن تستظهر بهم على عدوك، وهم يبرأون من علي وأهل بيته؟ فلم يطمئن إليهم، غير أنه قال لهم قولا جميلا[3]. . وجاء إليه رجل من بنى أسد وقال له: قد قتل أبوك، وأهل خراسان لكم شيعة، فالرأى أن تخرج إليها[4]، وقد توارى يحيى فى الكوفة حتى سكن الطلب له ثم خرج فى نفر من الزيدية إلى خراسان[5].

فرق الزيدية:

تعددت الفرق الزيدية بعد استشهاد زيد بن علي، فقد تناول أتباعه وتلاميذه آراءه فى الإمامة بالتفسير واختلفوا عليها، وقد قسم مؤرخو الفرق الزيدية إلى فرق متعددة، فينسب القاضى عبد الجبار لهم ست فرق هى: الجارودية، والسليمانية، والبترية، واليمانية، والصباحية، والعقبية[6].

أما الرازى فيذكر للزيدية ثلاث فرق هى: الجارودية، والسليمانية، والصالحية[7]، بينما يعد الأشعرى لهم ست فرق هى: الجارودية والبترية، والعقبية والنعيمية، ولا يذكر اسم الفرقة الخامسة، بل يقول عنها: «والفرقة الخامسة من الزيدية يتبرءون من أبى بكر وعمر، ولاينكرون رجعة الأموات يوم القيامة»، ثم اليعقوبية[8].

---

(١) الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٨٩.

(٢) المحكمة: هم الذين خرجوا على علي بن أبى طالب حين جرى أمر الحكمين، واجتمعوا بحروراء من ناحية الكوفة، وقالوا: لا حكم إلا لله (الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج٢ ص ٢٠٧، البغدادى: الفرق بين الفرق ص٥٦ ـ ٥٧، الإسفرايينى. التبصير فى الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين ص٢٦ ـ ٢٧، الشهرستانى الملل والنحل ج١ ص ١٢٤ ـ ١٢٦، المقريزى الخطط ج٢ ص ٣٥٤

(٣) الأصفهانى: مقاتل الطالبيين ص ١٥٤

(٤) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن الأثير: الكامل ج٤ ص ٢٤٨.

(٥) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٦٦، الطبرى: تاريخ الطبرى ج٧ ص ١٨٩، الأشعرى مقالات الإسلاميين ج١ص ١٦١ ـ ١٦٢.

(٦) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل ج٢٠ القسم الثانى ص ١٨٤ ـ ١٨٥ (تحقيق. د. عبد الحليم محمود، وسليمان دنيا، مراجعة أ. د: إبراهيم مدكور، إشراف: د. طه حسين، الدار المصرية للتأليف والترجمة ١٩٦٠ م ١٩٦٥ م).

(٧) اعتقاد فرق المسلمين والمشركين ص ٥٢ ـ ٥٣.

(٨) مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٤٠ ـ ١٤٥.

والنوبختي يقسم الزيدية إلى قسمين هما: الضعفاء والأقوياء[1]، أما المسعودى فيذكر لهم ثمانى فرق[2].

ويذكر صاحب الخطط للزيدية خمس فرق هى: الجارودية، والجريرية، والبترية واليعقوبية، والصباحية[3]، ولا يذكر كل من ابن تيمية[4]، والبغدادى[5]، والإسفراينى[6]، والشهرستانى[7] غير ثلاث فرق هى: الجارودية والسليمانية والبترية. وانفرد ابن النديم بذكر فرقة القاسمية من فرق الزيدية[8]. أما الملطى فهو أقدم مؤرخى الفرق (ت ٣٧٧ هـ/ ٩٨٧م) فقد اعتبر الزيدية من جملة الروافض، وعلل ذلك بطعنهم فى عثمان بن عفان، وإن كانوا يتولون الشيخين، ثم قسمهم إلى أربع فرق[9].

١ ـ الجارودية: السرحوبية:

أصحاب أبى الجارود: زياد بن أبى زياد، زعموا أن النبى ﷺ نص على «علي» ـ رضى الله عنه ـ بالوصف دون التسمية، وهو الإمام بعده. والناس قصروا، حيث لم يعرفوا الوصف، ولم يطلبوا الموصوف، وأنهم نصبوا أبا بكر باختيارهم، فكفروا بذلك. وقد خالف أبو الجارود فى هذه المقالة إمامه: زيد بن علي، فإنه لم يعتقد هذا الاعتقاد.

واختلفت الجارودية فى التوقف، والسوق.

فساق بعضهم الإمامة من علي إلى الحسن، ثم إلى الحسين، ثم إلى علي بن الحسين: زين العابدين، ثم إلى ابنه: زيد بن علي، ثم منه إلى الإمام: محمد بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب، وقالوا بإمامته. وكان أبو حنيفة رحمه الله على بيعته، ومن جملة شيعته، حتى رفع الأمر إلى المنصور، فحبسه حبس الأبد، حتى مات فى الحبس. وقيل: إنه إنما بايع محمد بن عبد الله الإمام فى أيام

(١) فرق الشيعة ص ٥٧ ـ ٥٨ (منشورات دار الأضواء، بيروت، لبنان الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).
(٢) مروج الذهب ج٣ ص ٢٢٠.
(٣) منهاج السنة النبوية جـ ص ٢٦٥.
(٤) الفرق بين الفرق ص ١٦.
(٥) التبصير فى الدين ص ١٦ ـ ١٧.
(٦) الملل والنحل ج١ ص ١٦٣ وما بعدها.
(٧) الفهرست ص ٢٧٤.
(٨) التنبيه والرد ص ٣٨ ـ ٣٩، ١٥٦.
(٩) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ١٤٦ ـ ١٥٠.

المنصور، ولما قتل محمد بالمدينة، بقى الإمام أبو حنيفة على تلك البيعة، يعتقد موالاة أهل البيت، فرفع حاله إلى المنصور. . . فتم عليه ماتم.

والذين قالوا بإمامة محمد بن عبد الله الإمام: اختلفوا: فمنهم من قال: إنه لم يقتل وهو بعد حى، وسيخرج فيملأ الأرض عدلا، ومنهم من أقر بموته، وساق الإمامة إلى محمد بن القاسم بن علي (بن عمر بن علي)[1] بن الحسين بن علي صاحب الطالقان، وقد أسر فى أيام المعتصم وحمل إليه، فحبسه فى داره حتى مات، ومنهم من قال بإمامة يحيى بن عمر صاحب الكوفة، فخرج ودعا الناس، واجتمع عليه خلق كثير، وقتل فى أيام المستعين، وحمل رأسه إلى محمد بن عبدالله بن طاهر. حتى قال فيه بعض العلوية:

قتلت أعز من ركب المطايا   وجئتك أستلينك فى الكلام

وعز على أن ألقاك إلا   وفيما بيننا حد الحسام

وهو: يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين بن زيد بن علي.

وأما أبو الجارود فكان يسمى: سرحوب، سماه بذاك أبو جعفر محمد بن علي الباقر. وسرحوب: شيطان أعمى يسكن البحر، قاله الباقر: تفسيرا.

ومن أصحاب أبى الجارود: فضيل الرسان، وأبو خالد الواسطى. وهم مختلفون فى الأحكام والسير، فبعضهم يزعم أن علم ولد الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ كعلم النبى ﷺ فيحصل لهم العلم قبل التعلم: فطرة، وضرورة. وبعضهم يزعم أن العلم مشترك فيهم وفى غيرهم، وجائز أن يؤخذ عنهم، وعن غيرهم من العامة.

٢ـ السليمانية: والرافضة:

أصحاب سليمان بن جرير، وكان يقول: إن الإمامة شورى فيما بين الخلق، ويصح أن تنعقد بعقد رجلين من خيار المسلمين، وأنها تصح فى المفضول، مع وجود الأفضل.

وأثبت إمامة أبى بكر وعمر ـ رضى الله عنهما ـ حقا باختيار الأمة حقا اجتهاديا.

---

(١) وإنما اضطررنا إلى زيادة (بن عمر بن علي): تحقيقا للاسم، وجبرا لسهو النساخ، أو غفلتهم أو سبق قلمهم. راجع كتابى: «الحور العين»، و«مقاتل الطالبيين».

وربما كان يقول: إن الأمة أخطأت فى البيعة لهما مع وجود علي - رضى الله عنه - خطأ لا يبلغ درجة الفسق، وذلك الخطأ خطأ اجتهادى، غير أنه طعن فى عثمان - رضى الله عنه - للأحداث التى أحدثها، وأكفره بذلك، وأكفر عائشة، والزبير، وطلحة - رضى الله عنهم - بإقدامهم على قتال علي - رضى الله عنه - ثم إنه طعن فى الرافضة، فقال: إن أئمة الرافضة قد وضعوا مقالتين لشيعتهم، حتى لا يظهر أحد قط عليهم: إحداهما: القول بالبداء، فإذا أظهر قولا: أنه سيكون لهم قوة وشوكة وظهورا. . ثم لا يكون الأمر على ما أظهروه. . قالوا: بدا لله تعالى فى ذلك.

والثانية: التقية، فكل ما أرادوه تكلموا به، فإذا قيل لهم فى ذلك: إنه ليس بحق، وظهر لهم البطلان قالوا: إنما قلناه: تقية، وفعلناه: تقية. وتابعه على القول بجواز إمامة المفضول، مع قيام الأفضل قوم من المعتزلة، منهم: جعفر بن مبشر، وجعفر بن حرب، وكثير النوى، وهو من أصحاب الحديث. . قالوا: الإمامة من مصالح الدين؛ ليس يحتاج إليها لمعرفة الله تعالى وتوحيده، فإن ذلك حاصل بالعقل، لكن يحتاج إليها لإقامة الحدود، والقضاء بين المتحاكمين، وولاية اليتامى، وحفظ البيعة إعلاء الكلمة، ونصب القتال مع أعداء الدين، وحتى يكون للمسلمين جماعة، ولا يكون الأمر فوضى بين العامة، فلا يشترط فيها أن يكون الإمام أفضل الأمة علما، وأقدمهم عهدا، وأسدهم رأيا وحكمة؛ إذ الحاجة تنسد بقيام المفضول، مع وجود الفاضل والأفضل. ومالت جماعة من أهل السنة إلى ذلك، حتى جوزوا أن يكون الإمام غير مجتهد، ولا خبيرا بمواقع الاجتهاد، ولكن يجب أن يكون معه من يكون من أهل الاجتهاد فيراجعه فى الأحكام، ويستفتى منه فى الحلال والحرام، ويجب أن يكون فى الجملة ذا رأى متين، وبصر فى الحوادث نافذ.

٣ - الصالحية والبترية وموافقة المعتزلة:

الصالحية: أصحاب الحسن بن صالح بن حى.

والبترية: أصحاب كثير النوى الأبتر.

وهما متفقان فى المذهب. وقولهم فى الإمامة كقول السليمانية، إلا أنهم توقفوا فى أمر عثمان؛ أهو مؤمن أم كافر؟ قالوا: إذا سمعنا الأخبار الواردة فى حقه، وكونه من العشرة المبشرين بالجنة قلنا: يجب أن نحكم بصحة إسلامه وإيمانه وكونه من أهل الجنة، وإذا رأينا الأحداث التى أحدثها من استهتاره بتربية بنى أمية وبنى مروان،

واستبداده بأمور لم توافق سيرة الصحابة. . . قلنا: يجب أن نحكم بكفره، فتحيرنا فى أمره، وتوقفنا فى حاله ووكلناه إلى أحكم الحاكمين.

وأما «علي» فهو أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ وأولاهم بالإمامة، لكنه سلم الأمر لهم راضيا، وفوض الأمر إليهم طائعا، وترك حقه راغبا. فنحن راضون بما رضى، مسلمون لما سلم، لا يحل لنا غير ذلك، ولو لم يرض «علي» لكان أبو بكر هالكا. وهم الذين جوزوا إمامة المفضول، وتأخير الفاضل والأفضل، إذا كان الأفضل راضيا بذلك.

وقالوا: من شهر سيفه من أولاد الحسن والحسين ـ رضى الله عنهما ـ وكان: عالما، زاهدا، شجاعا، فهو الإمام، وشرط بعضهم صباحة الوجه. ولهم خلط عظيم فى إمامين وجدت فيهما هذه الشرائط، وشهرا سيفيهما؛ ينظر إلى الأفضل والأزهد، وإن تساويا؛ ينظر إلى الأمتن رأيا، والأحزم أمرا، وإن تساويا تقابلا، فينقلب الأمر عليهم كيلا، ويعود الطلب جذعا، والإمام مأموما، والأمير مأمورا. ولو كانا فى قطرين انفرد كل واحد منهما بقطره، ويكون واجب الطاعة فى قومه. ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتى الآخر كان كل واحد منهما مصيبا، وإن أفتى باستحلال دم الإمام الآخر.

وأكثرهم ـ فى زماننا ـ مقلدون، لا يرجعون إلى رأى ولا إلى اجتهاد، أما فى الأصول، فيرون رأى المعتزلة حذو القُذّة بالقُذّة، ويعظمون أئمة الاعتزال أكثر من تعظيمهم أئمة أهل البيت. وأما فى الفروع، فهم على مذهب أبى حنيفة، إلا فى مسائل قليلة يوافقون فيها الشافعى ـ رحمه الله ـ والشيعة.

٤- رجال الزيدية:

أبو الجارود: زياد بن المنذر العبدى، لعنه جعفر بن محمد الصادق ـ رضى الله عنه ـ والحسن بن صالح بن حى، ومقاتل بن سليمان، والداعى ناصر الحق: الحسن بن على بن الحسن بن زيد بن عمر بن الحسين بن علي، والداعى الآخر صاحب طبرستان: الحسين بن زيد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي، ومحمد بن نصر.

وصفوة القول أنه أظهرت ثورة يحيى بن عمرو آثار الزيدية فى نفوس الناس

وميلهم إلى العلويين، ولكن الزيدية لم يتمكنوا من الاستفادة من ذلك الميل؛ لأنهم لم يكن لهم تدبير منظم ولا استعانة بذوى التدبير والحيل من رجال الحزب[1].

ولقد كان ما أصاب العلويين من العباسيين أشد وأقسى مما أصابهم من الأمويين إلا أن العباسيين ظلوا فى نسبتهم لأهل البيت يحيطون أنفسهم بنوع من القداسة، وبدت الخلافة وكأنها جماع السلطتين الزمنية والدينية.

فيذكر الشهرستانى أنه[2]: «لم ينتظم أمر الزيدية حتى ظهر بخراسان ناصر الأطروش، فطلب مكانه ليقتل، فاختفى واعتزل إلى بلاد الديلم، والجيل[3]، لم يتحلوا بدين الإسلام بعد، فدعا الناس إلى الإسلام على مذهب زيد بن علي، فدانوا بذلك ونشأوا عليه، وبقيت الزيدية فى تلك البلاد ظاهرة ، وكان يخرج واحد بعد واحد من الأئمة».

وكان ناصر الأطروش إماما فى الفقه والدين[4]، وقد أجمعت المصادر على مدحه والثناء عليه[5]، فيقول الطبرى[6]: إنه لم ير الناس مثل عدله وحسن سيرته وإقامته للحق، أما ابن خلدون فيصفه بقوله[7]: إنه كان عادلا حسن السيرة لم ير مثله فى أيامه، ويضيف ابن حزم قوله[8]: كان فاضلا حسن المذهب عادلا فى أحكامه.

وفى سنة (٣٠٤ هـ / ٩١٦ م) توفى الناصر الأطروش، وتولى الحسن بن القاسم قيادة الزيدية ولقب بالداعى، وكان قائدا لجيوشه (ماكان بن كالى)، وظهر فى عهده (أسفار بن شيرويه الديلمى)[9]، الذى اتصف بأنه سيئ الخلق، صعب العشرة، فطرده

---

(١) الطبرى: المصدر السابق والجزء ص ٢٦٨، الأصفهانى: المصدر السابق ص ٦٤٢.

(٢) الملل والنحل ج١ ص ١٦٢.

(٣) الجيل: هم أهل جيلان، وجيلان اسم لبلاد كثيرة من وراء طبرستان (ياقوت الحموى: المصدر السابق ج٢ ص ٢٠١ - ٢٠٢).

(٤) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ١٤٦، المحلى: الحدائق الوردية ص ٣٠ - ٣١ (مخطوط).

(٥) الطبرى- تاريخ الطبرى ج ١٢٠ ص ١٤٩، ابن النديم: الفهرست ص ٢٧٣ - ٢٧٤، ابن حزم: جمهرة أنساب العرب ج١ص ٥٤، المحلى: الحدائق الوردية ج٢ ص ٢٨ - ٤١، ابن خلدون: العبر ج٣ ص٣٥٧.

(٦) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة. (٧) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٨) الطبرى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٩) القرطبى: جملة تاريخ القرطبى ص ١١٩ (تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف ، الطبعة الثانية ١٩٨٢م)، المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٣٧٣ - ٣٧٤، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ج٦ ص ١٤٦.

(ماكان) من جيشه فقام بالاتصال بالسامانيين[١]، وقد ازداد نفوذ (أسفار) نتيجة لمناصرة السامانيين له ودخوله فى طاعتهم[٢]، فأساء معاملة الأئمة الزيديين وأتباعهم، وذلك بعد تمكنه من الاستيلاء على طبرستان وجرجان، وإنزال الهزيمة بالقائد (ماكان بن كالى) ثم جمع الزيدية فى مدينة آمل وأمر بقتلهم[٣]، والتقى (ماكان) و(أسفار بن شيرويه).

وبدأت أملاك الدولة الزيدية تتقلص فى طبرستان حتى انتهت دولتهم، فى الوقت الذى تطلع (أسفار بن شيرويه) بعد أن اتسعت ممتلكاته إلى الاستقلال بما تحت يديه، فبدأ فى خلع طاعة السامانيين[٤]، وفى الوقت نفسه استدعى أحد أنصاره من بلاد الجيل وهو (مرداويج بن زيار الديلمى) حيث أسند إليه قيادة جيوشه[٥]، وقام (مرداويج) بالقبض على (أسفار بين شيرويه) لما حل بالناس من بلاء وعسف على يديه[٦]، وتم قتله فى قلعة الموت على يد (مرداويج)[٧] وقد اتسع ملك (مرداويج بن زيار) وتمكن من تأسيس دولة قوية توارثها أفراد أسرته من بعده، أطلق عليها اسم الدولة الزيارية[٨].

أهل البيت والزيدية:

يرى بعض شيوخ الزيدية أن أهل البيت - عليهم السلام - من بعد الإمام الأعظم زيد بن علي - عليهما السلام - انتسبوا إليه وتسموا زيدية أولهم وآخرهم وسابقهم ولاحقهم هذا مجمع عليه بينهم لا يعلم فيه نزاع ولا خلاف.

وقد أوضحت فى شرح الزلف ولوامع الأنوار[٩] والجوابات المهمة ما قد يشكل

---

(١) ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٨٩، بخواندمير: المصدر السابق ص ٨٩.

(٢) هلال الصابى: المنتزع من التاجى ص ٦٢، ابن خلدون: المصدر السابق الجزء ص ٣٨٢، بخواندمير المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٣) المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٣ - ٣٨١، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٠٦

(٤) الكرديزى: زين الأخبار ص ١٣٢، ابن خلدون: المصدر السابق ج٤ ص ٤٢٣، بخواندمير المصدر السابق والصفحة.

(٥) المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٧، ابن الأثير: المصدر السابق الجزء ص ١٨٩.

(٦) المسعودى: مروج الذهب ج٤ ص ٣٧٧، هلال الصابى: المنتزع من التاجى ص ٦٥، مسكويه: تجارب الأمم ج١ ص ١٦٢، بخواندمير: روضة الصفا ص ٨٩

(٧) المسعودى: المصدر السابق الجزء ص ٣٧٨.

(٨) الحياة السياسية والفكرية ص ١٣٩، ١٤٨، ١٥٠.

(٩) لأبى الحسين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدى.

على من لم يتفهم أو لم يرد أن يتفهم الموجب لتخصيص الانتساب إلى الإمام الأعظم ـ عليه السلام ـ وملخصه: أنها لما عظمت الفتنة واشتدت المحنة وتفرقت الأمة واستحكمت الظلمة لاسيما على أهل بيت النبوة وأوليائهم وظهر الفساد وتعطل الجهاد بعد استشهاد سيد شباب أهل الجنة سبط رسول الله ﷺ اثنين وستين عاما وقام بحجة رب العالمين وتجديد شريعة سيد المرسلين ـ عليه الصلاة والتسليم ـ وفتح باب الجهاد والاجتهاد ودعا إلى ما فيه حياة العباد والبلاد إمام الأئمة الإمام الأعظم زيد بن علي بن الحسين بن علي ـ عليهم السلام ـ واتبعه على ذلك أئمة الهدى من أهل بيت النبوة وأوليائهم، اختاروه علما بينهم وبين الأمة بعد أمير المؤمنين وولديه السبطين ـ عليهم السلام ـ انتسبوا إليه ليتميزوا بذلك ويعرف منهجهم وفريقهم ولم يمكن التمييز بالانتساب إلى من فوقه. أما الرسول ﷺ أو أتباع الكتاب والسنة فتلك دعوى مشتركة بين جميع المسلمين والانتساب إلى أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ وإن ميزهم عن أكثر الفرق لا يكفى؛ لأن ثمة من ينتسب إليه من سائر الطوائف المدعية للتشيع وبينهم خلاف كبير فلم يمكن التمييز كل التمييز إلا بالانتساب إليه ـ عليه السلام ـ وقد أوضح ذلك كل الإيضاح كامل أهل البيت عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي ـ عليهم السلام ـ فى عصره حيث قال: العلم بيننا وبين الناس علي بن أبى طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي، وقد جعلت كلامه وكلام ولده الإمام محمد بن عبد الله النفس الزكية دليلا على أن أهل البيت فى عصره انتسبوا إليه وجعلوه علما لهم وهو دليل صريح على أنهم هم الذين نسبوا أنفسهم إليه لا أعداؤهم كما ذكر. وقد أوردت كلامهما فى شرح الزلف وفى الجوابات المهمة، وهذا معلوم مجمع عليه لا ريب فيه.
قال الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة ـ عليه السلام ـ فى الشافى، واختصت الفرقة هذه من العترة وشيعتهم بالزيدية والا فالأصل علي ـ عليه السلام ـ والتشيع له لخروج زيد بن علي على أئمة الظلمة وقتالهم فى الدين فمن صوبهم من الشيعة وصوبه وحذا حذوه من العترة فهو زيدى بغير خلاف بين أهل الإسلام، وقال ـ عليه السلام، وزيد بن علي ـ عليه السلام ـ أضاف أهل البيت مذهبهم إليه قالوا نحن زيدية إلى آخره[1].

وأن أهل البيت هم الذين أضافوا مذهبهم إليه وقالوا هم زيدية لا أعداؤهم من

(١) الزيدية نظرية وتطبيق. مع مقدمة كتبها أبو الحسين مجد الدين بن محمد بن منصور المؤيدى، على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين.

الأمويين ولا العباسيين وهل بهـذا الشأن من هذا الإمـام ولا ينبئك مثل خـبير. وروى ـ عليه السـلام ـ بسنده فى الشافى إلى الإمام زيد بن على ـ عـليهما السـلام ـ أنه قال: الأئمة المفـترضـة منا طاعتـهم على بن أبى طالب والحسن والحـسين ـ عليـهم السلام ـ والقائم بالسيف يدعو إلى كتاب ربه وسنة نبيـه ﷺ قال الإمام ـ عليه السلام: فهذا أيها الفقيه هـو الذى ذكرنا لك أنا سمينا زيدية لاتباعنا زيد بن على فى القـيام بالسيف على أئمة الضلال وحزب الشـيطان، فأما سائر الأصول الدينية فـرأى آبائنا ـ عليهم السلام ـ فيها واحـد، كذلك الخروج على أئمة الجور والدعاة إلى الله ـ سـبحانه ـ ولكن زيد بن علي ـ عليه السلام ـ اعـتقد وقال وفعل ومن كان فى أيـامه لم يفعلوا فكان أولى بذلك عليه السـلام ففتح باب الجهاد فـمن حذا حذوه فله فضل التـقدم وهو زيدى عندنا أهل البيت وعند شيعتنا ـ رضى الله عنهم.

الزيدية ليست رافضة:

إنه قد اشتـهر وظهر عند الأمة أن الإمام الأعظم زيد بن علي ـ عليهـما السلام ـ سمى من تابعوه وناصـروه زيدية كما أنه سمى الذين رفضـوه رافضة[1]، وبذلك اتضح للأمة بالإجـماع الفرقـة الرافضة التى وردت بهـا الأخبار النبويـة التى رواها هو ـ عليه السلام ـ ورواها أئمة آل محمد ـ عليـهم السلام ـ وغيرهم منهم الإمام الهادى إلى الحق المبين بالسند المسلسل النبـوى عن آبائه عن رسول الله ﷺ كما اتضـحت الفرقة البـاغية الداعية إلى النار بقـتل عمار ـ رضوان الله عليه ـ وفـرق الناكثين والمارقين بقتـالهم أمير المؤمنين وسيد المسلمين ـ عليه السلام ـ وتمييزه لهم وتسميـته وتعيينه وقد اعترف بتسمية الإمام ـ عليه السلام ـ للزيدية والرافضة الموافق والمخالف.

بين رأيين: بينمـا يذهب الشيخ المؤيدى إلى أن آل البيـت هم الذين انتسبـوا إليه وتسمـوا باسم الزيدية أولهم وآخرهم وسابقـهم ولاحقهم وهذا الجـمع ينكرون تسميـته بالرافض وأتباعه بالرافضة ويغلبون نسبتهم إلى الزيدية.

نجد توجيها آخر فى نفس كتاب «الزيدية نظرية وتطبيق» يقول:

«يطلق هذا الاسم فى عـرف الزيدية الأتبـاع على أئمـة أهل البـيت النبـوى ومن تابعهم فى العدل والتوحـيد، وهذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على أتبـاعه ولا أطلقها

(١) مقالات الإسلاميين ص١٥٥ للأشعرى بعـدها الزيدية ورجالها قال انتهى الكلام عن الروافض وراجع ما كتبناه عن الرافضة والغلاة.

فى البداية أتباعه على أنفسهم، وإنما أطلقها حكام بنى أمية على كل ثائر عليهم بعد الإمام زيد من أهل البيت النبوى الشريف.. ثم يقول علي بن عبدالكريم صاحب كتاب الزيدية: «وإذاً فالتسمية هذه تسمية سياسية فى الأصل ولا دخل لها فيما تعارف عليه الناس...»[1].

هذه التوجيهات ترفع شأن النسبة إلى الزيدية فهى أرومة الأئمة ورأى ينفيها من وجه ويثبتها من وجه آخر. ينفيها إذا ترادفت مع الرافضة؛ لأنها تحمل معنى الحرم السياسى ويثبتها على معنى المنهج والفكر. برأى لأن كل رأى له سنده ولا تناقض فإن ما تعرض له الإمام زيد من القتل والتمثيل به ونبش قبره ثم صلبه ليجعل المؤرخ يبحث عن الرأى الذى يعلى شأنه ويرفع فضله جزاء وفاقا لما قدم. وإذا كان الله لا يعذب العبد مرتين، قاعدة فقهية. فمن الصعب أن يلقى الإمام زيدٌ اضطهادا وقد خرج ضد الظلم والفجور ثم يضطهد بعد وفاته فهى آراء تغذيها العاطفة ولا يمانع فيها التاريخ.

الزيدية فكر ومنهج الأئمة:

فى هذا المدخل يحسن الوقوف قليلا لنتعرف على الزيدية الطائفة قبل التعرف على الزيدية الفكر والمنهج. فمن هى الزيدية الطائفة؟

يطلق هذا الاسم فى عرف الزيدية على أئمة أهل البيت النبوى الشريف ومن تابعهم فى العدل والتوحيد، والقول بإمامة زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - رضوان الله عليهم - ووجوب الخروج - الثورة - على الظلمة، واستحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة، مع القول بتفضيل الإمام علي - كرم الله وجهه - وأولويته بالإمامة، وقصرها من بعده فى البطنين الحسنى والحسينى[2].

ولا يوجد اليوم فى اليمن من الفرق الزيدية إلا هذه الفرقة التابعة لأئمة أهل البيت النبوى الشريف ومن وافقهم من الفقهاء المجتهدين من غيرهم، أما بقية الفرق الزيدية كالجارودية والسليمانية والصالحية والبترية فلا توجد اليوم إلا فى بطون الكتب والمؤلفات فى الفرق الإسلامية كالملل والنحل ونحوها. ومعظمها إنما كان عائشا فى العراق حيث ظهوره ومولده فيه.

---

(١) الزيدية ص ١١ على بن عبد الكريم الفضل شرف الدين.

(٢) الملل والنحل للإمام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى ج١، ص ٤ من البحر الزخار

ونسبة الزيدى إلى الزيدية تعنى النسبة إلى الفكر الزيدى وهى نسبة انتماء، واعتزاز،وقد اعتقد بعضهم أن النسبة نسبة مذهبية إلى الإمام زيد بن علي ـ رحمه الله ـ كنسبة الشافعى أو الحنفى مثلا إلى الأئمة أبى حنيفة والشافعى ـ رحمهما الله ـ. واعتقد لذلك أن الزيدية مقلدون للإمام زيد فى الفروع، وربما اعتقد أنهم مقلدون له فى الأصول ولا يخرجون من قوله. وهذا الاعتقاد خطأ ومغلوط؛ لأن النسبة نسبة انتماء واعتزاز ولم تكن نسبة مذهبية على النحو المعروف فى النسبة الشافعية أو الحنفية مثلا ـ ! وذلك لما يلى:

١ ـ لأن المذهب الزيدى يحرم التقليد على كل متمكن من أخذ الحكم من كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أو غيرهما من الأدلة الشرعية، ولا يبيحه فى الفروع إلا لغير المتمكن من الاجتهاد. لقوله تعالى: ﴿ ... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل].

٢ ـ لأن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على أتباعه، ولا أطلقها فى البداية أتباعه على أنفسهم، وإنما أطلقها حكام بنى أمية على كل ثائر عليهم بعد الإمام زيد من أهل البيت النبوى الشريف، كما أطلقت الدولة العباسية من بعدهم اسم العلوية وأحيانا الطالبية على أى ثائر عليهم من أهل البيت أيضا. وكثيرا ما ينسب الفريق المعارض إلى قائد المعارضة، أو إلى كبير أسرته، أو إلى صفة مميزة للجانب المعارض. كما يقال مثلا: زيدية، عباسية، أموية، عثمانية، صوفية وأشعرية.. ولا يراد من وراء ذلك إلا التمييز للفريق المعارض أو لفكرة المعارضة. كما أطلق الإمام زيد ـ رضوان الله عليه ـ اسم الرافضة على الفريق المعارض له والرافض دخوله مع الإمام زيد فى الثورة على هشام بن عبد الملك الأموى.

وإذاً فالتسمية هذه تسمية سياسية فى الأصل ولا دخل لها فيما تعارف عليه الناس فى النسبة المذهبية إلى أئمة المذاهب الإسلامية ـ رحمهم الله.

ولكن الزيدية الطائفة قبلتها ورضيت بها لأنها شعار الحرية وعزة وكرامة وجهاد وتضحية فى سبيل الله ورفعة المستضعفين من عباد الله ثم صارت لديهم اسما لأئمة أهل البيت ومن تابعهم فى الاعتقاد المذكور سابقا.

هذا رأى. ورأى آخر لشيخنا العلامة مجد الدين بن محمد المؤيدى دامت بركاته وهو: أن الذى أطلق اسم الزيدية على أتباع الإمام زيد - رحمه الله - هو الإمام زيد نفسه. مستدلا بقول الإمام محمد بن عبد الله ذى النفس الزكية - رضوان الله عليهم: أما والله لقد أحيا زيد بن علي ما اندثر من سنن المرسلين، وأقام عمود الدين إذا اعوج، ولن نتحو إلا أثره، ولن نقتبس إلا من نوره. - ولكنه لا يوجد فى هذا القول ما يدل على التسمية وإنما يوجد فيه ما يدل بوضوح على اتباع أثره فى الثورة على الظالمين إحياء لما اندثر من السنن وإقامة لعمود الدين الذى قد اعوج فى حينه. وقد فعل كثائر أمثاله من أئمة أهل البيت - عليهم السلام - السابق له منهم واللاحق. وإذا كان الإمام زيد - عليه السلام - علما من الأعلام المميزة للزيدية من سائر فرق الشيعة. كما قال عبد الله الكامل بن الحسن - رحمه الله: العلم بيننا وبين الناس علي بن أبى طالب، والعلم بيننا وبين الشيعة زيد بن علي - رضوان الله عليهم جميعا -[1].

٣ - لأن الزيدية لا تعتقد بأن الإمام زيد بن علي أولى بالتقليد من غيره كالإمام جعفر الصادق مثلا، ولا أنهما أولى بالتقليد من الإمام القاسم بن إبراهيم أو حفيده الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين، ولا أنهم جميعا أولى بالتقليد من آبائهم وأجدادهم؛ ولذا فالزيدية لا ينتسبون نسبة مذهبية إلى واحد بعينه منهم. وإنما يتمسكون بمذهب أهل البيت النبوى عموما؛ للأحاديث الواردة فى ذلك كحديث التمسك بالثقلين المروى فى صحيح مسلم وغيره ثم ما أجمع عليه أهل البيت فهو حجة عند العالم منهم والجاهل. وهذا هو مذهب الكثير من العلماء ومنهم الشيخ ابن تيمية كما هو مذكور فى فتاويه[2]. وما اختلفوا فيه - ولم يكن اختلافهم إلا فى المسائل الفرعية، فالعالم يعمل بما أدى إليه اجتهاده. والمقلد المميز يعمل بمذهب إمامه الذى قد ارتضاه لنفسه أو التزم باتباع أقواله. أما الجاهل الصرف فمذهبه مذهب أهل جهته، وفيما قد عمله معتقدا صحته ولم يخرق الاجتهاد. فمذهبه فيه مذهب من وافقه من الأئمة المتبوعين. ولا يجوز على كل حال تتبع الرخص والرغبات.

---

(١) الزيدية ص ١٢ على بن عبد الكريم الفضل شرف الدين

(٢) ج٢٨ - ص ٤٩٣ طبع مكتبة المعارف - المغرب ولعلها الطبعة الأولى.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن بعض المغرضين الحاقدين قد جعل من اختلاف أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ فى بعض المسائل الفرعية مثار تشكيك للمقلدين، متناسين أن مثل ذلك الاختلاف فى فروع المسائل قد كان شائعا بين الصحابة والتابعين، وشاع كذلك بين الأئمة الأربعة؛ ولهذا تميزت مذاهبهم بعضها عن بعض، بل لقد شاع بين علماء المذهب الواحد ولم ينكر أحد من العلماء والأئمة ولا أحد من الصحابة والتابعين.

وقد أجاب الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين عن سبب اختلاف أئمة أهل البيت فى بعض المسائل الفرعية فأجاب ـ عليه السلام ـ بما يشفى الغليل[١] وقال:

إن اختلاف آل رسول الله ﷺ لم يقع إلا من وجهين[٢]:

أما أحدهما فمن طريق النسيان أو الغلط فى الرواية وهذا قليل، والناسى والغالط يرجع إلى القول الثابت عند الملاقاة والمناظرة.

وثانيهما وهو أصعبهما: أن يكون من يؤثر عنه الخلاف قد تلقى علمه عن غير آبائه عند الجميع: وهو المحكم من كتاب الله، والسنة الصحيحة عن رسول الله ﷺ، وهما اللذان جعلا لكل قول ميزانا، ولكل حق برهانا لا يضل من اتبعهما، ولا يغوى من قصدهما. فمن كان قوله بقولهما وحكمه فى كل نازلة بهما دون غيرهما فهو المصيب فى قوله والمعتمد عليه فى علمه. والواجب على جميع المسلمين من آل رسول الله ﷺ وغيرهم أن يرجعوا إلى قوله ويتبعوا من كان كذلك فى علمه.. وهذا القول هو مذهب كل أئمة أهل البيت ـ عليهم السلام ـ.

ويظهر من قرائن الأحوال أن مثل هذه التساؤلات لا يكبر شأنها إلا فى ظروف خاصة ولغرض غير نزيه. وهى مع ذلك واردة على كل مذهب من المذاهب الإسلامية.

والحقيقة هى أن المذهب الفقهى المعروف بالمذهب الزيدى فى اليمن، نسبة إلى الإمام زيد كما أسلفنا، أو المذهب الهادوى كما يروق لبعض الناس اليوم أن يسميه وينسبه إلى الإمام الهادى يحيى بن الحسين ـ ولا فرق بين الإمامين إلا فى مسائل يسيرة جدا نتيجة الاجتهاد المفتوح بابه فى المذهب الزيدى حتى اليوم وإلى الأبد ـ إن شاء الله ـ

(١) ذكره الإمام القاسم بن محمد فى كتابه الإرشاد (خ) عن كتاب القياس (خ) للإمام الهادى-عليه السلام.
(٢) الزيدية ص ١٣.

هذا فى كل مجالات الفقه الإسلامى العظيم، وجهود مضنية استمرت فى البحث والتنقيب والتصفية أكثر من سبعة قرون. وقام بتلك الأبحاث والدراسات أئمة أعلام من أهل البيت النبوى الشريف ومن تابعهم من الفقهاء المجتهدين معتمدين فى كل ذلك على المحكم من كتاب الله، والصحيح من سنة رسول الله ﷺ، وعلى القياس، والإجماع وأحيانا على الاستصحاب، والاستحسان، والمناسب المرسل ـ المصالح المرسلة ـ وهى التى تتفق مع المقاصد الشرعية فيما لا يوجد له نص فى الكتاب أو السنة إثباتا أو نفيا مع دسائس الملحدين وأفكار المندسّين، كما تعاركوا مع جبابرة الأهواء السياسية والأحقاد العنصرية، جاعلين الإخلاص رائدهم، والحق مقصدهم، ورضوان الله غايتهم.

أما أئمة المذاهب الإسلامية وأمثالهم فقد تعايشوا معهم، وتآزروا وتناصروا، غير مفرقين بين أحد منهم حنفيا كان أو مالكيا أو حنبليا أو غير هؤلاء فالكل من رسول الله ﷺ مقتبس. وكل مجتهد مصيب.

وقد قام الإمام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى بجمع ثمار تلك الأبحاث والدراسات فى كتيب سماه متن الأزهار ـ وقام بشرحه والتعليق عليه الكثير من العلماء ولكل طريقته وأسلوبه[1]، أما القاضى إبراهيم بن يحيى السحولى ـ رحمه الله فقد قام بنظم السلسلة الذهبية لرجال المذهب فى أرجوزة عدد أبياتها ٣٠٨ بيتا وسماها (الطراز المذهب فى إسناد المذهب)[2]، كل ذلك الجهد الشاق النزيه من الأئمة وشيعتهم من مجتهدى الفقهاء الصالحين قد بلغ درجة من الإتقان والصحة يمكن القول معه: بأن المذهب الزيدى قد خلص من كل شائبة، وصفى معينه من كل كدر، وتقررت أصوله، وتأسست قواعده المستمدة من الأدلة الشرعية والعقلية وأصبح فى حال من القدرة يتمكن معها على مسايرة أحداث العصر الحديث، والانتفاع بأحسن ما فيه من حضارة وتقدم، وفى حال من القوة يعتصم بها عن مفاسد الحضارة وانحرافاتها وماديتها ـ كما يعرف ذلك كل مطلع عليه بوعى وإخلاص ونزاهة[3].

---

(١) متن الأزهار وشرحه متداول مشهور باليمن (ط) ١١١.

(٢) الزيدية وجدتها ونسختها بخطى فى المتحف البريطانى بلندن برقم ١٢٢٧ ـ فهرس ٨٤٦ والنسخة مخطوطة.

(٣) الزيدية ص١٥.

اليمن تحتضن الزيدية:

إن معظم القبائل العربية التى سكنت الكوفة أيام الفتوحات كانت من اليمن. روى البلاذرى أن الشعبى قال: «كان - يعنى أهل اليمن - اثنى عشر ألفا، وكانت نزار ثمانية آلاف، ألا ترى أنا أكثر أهل الكوفة، وخرج سهمنا بالناحية الشرقية فلذلك صارت خططنا بحيث هى»[1]. وقول فلهاوزن: كانت اليمانية فى الكوفة أكبر القبائل عددا وأهمية[2].

ومن الجدير بالذكر أن معظم القبائل اليمانية وبخاصة همدان مالت إلى التشيع لآل علي. يقول ماسنيون: إن همدان القبيلة العظيمة الخطيرة ذات الشوكة والقوة كانت شديدة التشيع[3].

ويعزو وات (watt) تشيع اليمانيين إلى أسباب عديدة أهمها:

أولا - أن أكثرية القبائل اليمانية قبل الإسلام كانت تعتنق المسيحية على مذهب القائلين بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح «المونوفوستية» وذلك لتأثرها بالأحباش الذين كانوا يعتنقون المذهب المذكور. ويرى المونوفستيون أن للمسيح، بكونه قائدا روحيا، طبيعة لاهوتية مضافة إلى طبيعته الناسوتية، وبعد أن اعتنقت القبائل اليمانية الإسلام تأثرت بتقاليدها الدينية السابقة فمالت نحو التشيع الذى يحتل فيه الإمام، بكونه القائد الروحى للشيعة، مركز المسيح بالنسبة للمونوفستيين.

ثانيا - عاشت القبائل اليمانية لعشرين قرنا خلت، فى بلاد سبق أن تكونت فيها دول ذات مدنية عريقة. وبعد أن سقطت الدولة الحميرية سنة ٥٢٥م، خضعت اليمن، فى الفترة التى سبقت خضوعها للإسلام لدولتى الأحباش والفرس. وقد ورثت القبائل اليمانية من حكوماتها العربية السابقة تقليدا يتمتع الحاكم بموجبه بصفات روحية مضافة«Charismatic» إلى سلطاته السياسية. وبقى الأمراء العرب، الذين احتفظوا بسلطات محلية على السكان الحضر الذين كانوا ممتزجين مع السكان البدو فى معظم تلك المناطق، يتمتعون بالصفات المذكورة للحكام.

---

(١) فتوح البلدان (القاهرة، ١٩٣٢م)، ص ٢٧٦.

(٢) الخوارج والشيعة، ص ١٦٠. تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص٦١.

(٣) خطط الكوفة - ترجمة تقى المصعبى (صيدا، ١٢٩٣٩).

وبعد أن أسلم عرب الجنوب، قبل معظمهم فكرة القائد الذى يتمتع بصفات شبه الإلهية. ويمكن أن نعزو انجذاب هؤلاء نحو الإسلام إلى أنهم رأوا توفر الصفة المذكورة بمحمد ﷺ. واعتقد هؤلاء أن خلاص الفرد يتحقق عندما يكون عضوا فى مجتمع يقوده فرد يتمتع بصفات شبه إلهية. ونتيجة لذلك كان جماعة من أنصار علي الأول يردون على نقد الخوارج قائلين بأن عليا إمام الحق والإرشاد. وكانت العبارة الأخيرة، دون شك ذات محتوى دينى، أى أن التوجيه المذكور يرشد الإنسان نحو الله أى نحو الجنة. وفى الوقت الذى نجد فيه الخوارج يقبلون شكلا من الإسلام تغلب عليه النزعة البدوية، نجد الشيعة يقبلون شكلا آخر من الإسلام اتخذ مملكة يحكمها قائد شبه إلهى[١].

وبالرغم من وجاهة الأسباب التى قدمها «وات» لقبول أكثرية القبائل اليمانية فى الكوفة للتشيع لآل علي، فإن عقيدة الشيعة الإمامية ـ الذين يهمنا بحث أحوالهم فى هذا الكتاب ـ ترفض من آرائه كل فكرة قد تقول بأن الأئمة الاثنى عشر ـ رضى الله عنهم ـ يتمتعون بصفات شبه إلهية. إذ يعتقد الإمامية بصورة قاطعة أن أئمتهم بشر ولكنهم معصومون من الخطأ والخطيئة والنسيان كما سنفصل فى حينه[٢].

أما الشيعة الذين سكنوا المناطق الشرقية من البلاد الإسلامية أمثال خراسان والرى وأصفهان وجرجان فيبدو أنهم كانوا فى الغالب خلال القرنين الأول والثانى للهجرة من الغلاة أو من الزيدية.

وعندما ثار زيد بن علي فى الكوفة انضم إليه جماعات من الشيعة الساكنين فى عدد من المناطق الإيرانية. ذكر الأصفهانى: «إن الشيعة لقوا زيدا فقالوا له أين تخرج عنا. . ،معك مائة ألف سيف من أهل الكوفة والبصرة وخراسان. . .».

«وأقبلت الشيعة وغيرهم يختلفون إليه (زيد) ويتتابعون حتى أحصى ديوانه خمسة عشر ألف رجل من أهل الكوفة خاصة، سوى أهل المدائن. . . وخراسان والرى وجرجان»[٣]. وكان لفشل ثورة زيد أثر كبير فى تكتل الشيعة وهياجهم ضد حكم بنى أمية. قال اليعقوبى: «ولما قتل زيد وكان من أمره ما كان تحركت الشيعة بخراسان وظهر أمرهم، وكثر من يأتيهم ويميل معهم، وجعلوا يذكرون للناس فعل بنى أمية، وما نالوا

---

(١) يراجع ما سبق تراث الفرس العرفانى.
(٢) تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص ٦٣.
(٣) مقاتل الطالبيين، ص ٩٦.

من آل رسول الله ﷺ حتى لم يبق بلد إلا فشا فيه هذا الخبر وظهرت الدعاة»[1].

وقبل مقتل يحيى ين زيد قابله متوكل بن هارون فأودعه صحيفة دعاء وقال هى: «أمانة لى عندك حتى توصلها إلى ابنى عمى محمد وإبراهيم ابنى عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على ـ رضى الله عنهم ـ فإنهما القائمان فى هذا الأمر بعدى..»[2]. ومحمد وإبراهيم هذان هما اللذان ثارا فى عهد المنصور العباسى وقتلا بأمر منه[3].

أما الشيعة أسلاف الإمامية فيبدو أن عددهم كان ضئيلا جدا فى الأقسام الشرقية من البلاد الإيرانية. وقد وفد المذهب المذكور من الكوفة على يد جماعة من العرب سكنوا فى مدينة اسمها «قم». وقد تكلم الحسن بن محمد القمى (ت: ٣٧٨هـ) عن تأسيس قم على يد جماعة من عرب الكوفة يعرفون بالأشعريين. وعن جهودهم فى إدخال المذهب الشيعى، الذى عرف فيما بعد بالمذهب الجعفرى إلى إيران فى كتابه الموسوم بـ(تاريخ قم)[4] وقد أورد ياقوت الحموى تفصيلات عن قم، وقال: إنها «مدينة مستحدثة إسلامية لا أثر للأعاجم فيها، وأول من مصرها طلحة بن الأحوص الأشعرى.. وأهلها كلهم شيعة إمامية وكان بدء تمصيرها فى أيام الحجاج بن يوسف سنة ٨٣ هـ... فلما انهزم ابن الأشعث ورجع إلى كابل منهزما كان فى جملة إخوة يقال لهم عبد الله والأحوص وعبد الرحمن وإسحاق ونعيم وهم بنو سعد بن مالك بن عامر الأشعرى.... وكان متقدم هؤلاء الإخوة عبد الله بن سعد وكان له ولد قد ربى فى الكوفة فانتقل منها إلى قم وكان إماميا[5]وهو الذى نقل التشيع إلى أهلها فلا يوجد بها سنى قط»[6].

وقد نفى الصادق، وهو إمام الشيعة أسلاف الإمامية، وجود شيعة له فى خراسان بعد نجاح الدعوة العباسية بقليل. ذكر المسعودى أن الإمام الصادق قال لعبد الله بن

---

(١) التاريخ، ج٣ (النجف، ١٣٥٨ هـ) ص ٦٥.

(٢) الصحيفة السجادية (النجف، ١٣٥٢)ص ٨.

(٣) الأصفهانى، مقاتل الطالبيين، ج ٢، ص ١٩٢ وما بعدها.

(٤) طبع الكتاب المذكور بترجمته الفارسية فى طهران سنة ١٣٥٣هـ. وتاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص٦٤.

(٥) أصبح الشيعى من أسلاف الإمامية والشيعى الإمامى يعنى شيئا واحدا فى عهد الحموى.

(٦) معجم البلدان، ج٧ (القاهرة،١٩٠٦) ص ١٥٩.

الحسن حين كلمه بأمر رسالة بعثها له أبو سلمة الخلال أول وزير لبنى العباس يدعوه فيها لتسلم الخلافة «يا أبا محمد؟ أمر ما أتى بك قال: نعم، وهو أجل من أن يوصف، فقال: وما هو يا أبا محمد؟ قال: هذا كتاب أبى سلمة يدعونى إلى ما أقبله، وقد قدمت عليه شيعتنا من أهل خراسان، فقال له أبو عبدالله: يا أبا محمد ومتى كان أهل خراسان شيعتك؟ أنت بعثت أبا مسلم إلى خراسان وأنت أمرته بلبس السواد،وهل الذين قدموا العراق أنت كنت سبب قدومهم أو وجهت فيهم، وهل تعرف منهم أحدا؟[1].

ويبدو أن الشيعة أسلاف الإمامية، فضلا عن ندرتهم فى خراسان حينذاك، لم يسهموا إسهاما فعالا فى جهد بنى هاشم المشترك ضد بنى أمية؛لأن أئمتهم بعد الحسين لا يرون القيام بالسيف فى وجه الظلم قبل ظهور المهدى صاحب الزمان.

ويروى أن أبا مسلم كتب إلى الصادق قائلا: «إنى قد أظهرت الكلمة ودعوت الناس عن موالاة بنى أمية إلى موالاة أهل البيت فإن رغبت فلا مزيد عليك». فكتب إليه الصادق «ما أنت من رجالى ولا الزمان زمانى»[2].

ويبدو أن الزيدية والكيسانية هم الذين أسهموا فى كفاح بنى هاشم المشترك ضد بنى أمية.

ويقول يحيى بن زيد مقارنا بين نفسه وأبيه وبين أئمة الشيعة أسلاف الإمامية. «إن الله ـ عز وجل ـ أيد هذا الأمر بنا وجعل العلم والسيف فجمعا لنا وخص بنو عمنا (يقصد الإمامين الباقر وابنه الصادق) بالعلم وحده»[3]

ب ـ الأقوام التى قالت بالتشيع خلال القرنين الأول والثانى للهجرة: يبدو أن التشيع فى الفترة المذكورة نما فى بيئة عربية فى الغالب وهى الكوفة وسوادها، كما بينا سابقا، وكانت غالبية مؤيديه حينذاك من سكانها التى كانت أكثريتهم من العرب. يقول جولدتسيهر إن: «التشيع كالإسلام عربى فى نشأته وفى أصوله التى نبت فيها»[4]

إن النتيجة التى توصل إليها جولدتسيهر لها ما يسندها فى الحديث والتاريخ، أما

---

(١) المسعودى، مروج الذهب، ج٣ (القاهرة، لا.ت)ص ١٨٤. تاريخ الإمامية وسلفهم من الشيعة ص٦٥.

(٢) الملل والنحل، ص - ٣٠ ـ ١.

(٣) الصحيفة السجادية، ص ٥.

(٤) العقيدة والشريعة فى الإسلام ـ ترجمة محمد يوسف ـ (القاهرة ١٩٤٦) ص ٢٠٥.

فى الحديث فإن أبا ذر قال: رأيت رسول الله ﷺ وقد ضرب كف علي بيده وقال: «يا علي من أحبنا فهو العربى ومن أبغضنا فهو العلج، فشيعتنا أهل البيوتات والمعادن»[1]. وقال الإمام الصادق: «نحن بنو هاشم وشيعتنا العرب وسائر الأعراب». وقال أيضا: «نحن قريش وشيعتنا العرب وسائر الناس علوج الروم»[2].

كانت سياسة التمييز فى الحقوق بين العرب وغيرهم من سكان الإمبراطورية التى اتبعها الأمويون، الذين كانوا يمثلون سيادة العرب لا سيادة الإسلام، من العوامل التى دفعت الموالى للانضواء تحت راية الأحزاب المعارضة من خوارج وشيعة. وحاولت أحزاب المعارضة من جانبها أن تجد فى الموالى حلفاء على بنى أمية، فاستعان بهم المختار، كما أسلفنا، كما استعان بهم عبد الرحمن بن الأشعث فى حركته ضد الأمويين، واستعان الخوارج والشيعة بالموالى، ولكن الشيعة كانوا أكثر نجاحا من الخوارج فى ضم الموالى إلى صفوفهم فى كفاحهم مع بنى أمية[3].

وكان جل الموالى الذين انضموا إلى التشيع خلال المراحل الأولى من تاريخه هم من الغلاة كما سنبين فى الفصل الثالث من هذا الكتاب. أما الفرق الشيعية المعتدلة التى جمعتها عقيدة الإمامية الاثنى عشرية فيما بعد، فيظهر أنها لم تجد تربة خصبة فى إيران خلال القرون الهجرية الثلاثة الأولى.

وتركز التشيع المعتدل فى الفترة موضوع البحث فى مدينة قم كما أسلفنا، وسبق أن بينا أن الإمام محمدا الصادق أنكر وجود شيعة له فى إيران عند قيام الدولة العباسية. كما أن معظم البيوتات المهمة ذات الأصل الإيرانى أو التى اتخذت من إيران مراكز لحكمها كالبرامكة وبنى طاهر الإيرانى لم يكونوا من الشيعة. يضاف إلى ذلك أن أمثلة وردت يتبين منها أن الشيعة فى النصف الأول من القرن الثالث كانوا مضطهدين فى خراسان. روى الكشى أن محمد بن طاهر (ت: ٢٢٦هـ) غضب على أبى يحيى الجرجانى، وهو من الشيعة «فأمر بقطع لسانه ويديه ورجليه، ويضربه ألف سوط ويصلبه... وسعى بذلك محمد بن الرازى.. بحديث روى'محمد بن يحيى.. لعمر بن الخطاب. فقال أبو يحيى: ليس هو عمر بن الخطاب هو عمر بن الشاكر...»[4].

(١) الديلمى، إرشاد القلوب، ج ٢، ص ٤٧.
(٢) الكلينى، الكافى، ج٨ و ص ١٦٦
(٣) فلهاوزن، الدولة العربية وسقوطها، ص ٦٨.
(٤) الرجال، ٢ص ٤٤٧.

ويبدو أن غالبية الإيرانيين استمرت على رفضها للتشيع خاصة المعتدل منه إلى ما بعد الفترة التى حددناها فى صدر هذا البحث. فالمقدسى حين يتكلم عن السواد الأعظم من المسلمين يقول: «ولم أر السواد الأعظم إلا من أربعة مذاهب: أصحاب الشافعى بالشاش وخزائن نيسابور، وأصحاب الحديث بالشام.. وبقية الأقاليم ممتزجون....

ويقول أيضا: «الغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة.. وبالكوفة للشيعة إلا الكناسة فإنها سنية... وأكثر أهل البصرة قدرية وشيعة.. وفى الموصل «حنابلة وجلبة للشيعة..»[1].

ويبدو من النص السابق أن مركز الشيعة الرئيسى فى القرن الرابع الهجرى الكوفة بخاصة والعراق بعامة وأن الشعوب الإيرانية كانت منقسمة بين مذهبى أبى حنيفة والشافعى[2].

ولعل انتشار المذاهب السنية فى إيران حينذاك يفسر لنا كيف أن معظم قادة الفكر السنى فى الفترة موضوع البحث كانوا من الإيرانيين أو عاشوا بأرض إيرانية، وذلك أمثال أبى حنيفة والشيخ معروف الكرخى والبخارى والغزالى ونظام الملك الذى عرف بمقاومته للتشيع حين أنشأ المدارس النظامية المعروفة.

أما كيف انتشر التشيع فى إيران وكيف أصبحت إيران من أمهات بلدان الشيعة فى الوقت الحاضر فهى خارجة عن نطاق بحثنا. ونكتفى هنا بإيراد رأيين لكاتبين معاصرين وهما أحمد كسروى ودونالدس. يقول كسروى: «شاع الترفض فى إيران ولكنه لم يتمكن إلا فى بعض البلدان من قم وسيزوار وغيرهما فكان الغالب على الإيرانيين التسنن ولاسيما أيام السلجوقيين الذين كانوا ملوكا يتعصبون لأهل السنة»[3].

ويقول دونالدس: وعندما استولت الأسرة الصفوية فى ابتداء القرن السادس عشر على الحكم جعلت بدورها المذهب الشيعى المذهب الرسمى للدولة»[4].

---

(١) احسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم (لدن، ١٩٠٦) ص: ٣٩، ١٣٦، ١٤٢.

(٢) الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى آدم متز ترجمة أبو ريدة.

(٣) التشيع والشيعة (طهران، ١٣٦٤) ص ٥٢.

(٤) عقيدة الشيعة، ص ٢٩٠. وتاريخ الإمامية ومن سلف الشيعة ص ٧١.

ثورة الإمام زيد:

من أقوال معاوية ونقد الحسن البصري:

إنى لا أحول بين الناس وألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين ملكنا. هكذا ملكنا، وحسبنا أن نورد هنا ما قاله الإمام الحسن البصري ـ رحمه الله ـ في معاوية لقد قال: أربع خصال فى معاوية لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة وهى:

١ ـ خروجه على هذه الأمة بالسفهاء حتى ابتزها ـ يعنى الخلافة ـ بغير مشورة منهم.

٢ ـ استخلاف ابنه يزيد وهو سكير خمير يلبس الحرير ويضرب بالطنابير.

٣ ـ ادعاؤه زيادا وقد قال النبيﷺ الولد للفراش وللعاهر الحجر.

٤ ـ قتله حجر بن عدى.

وتسلم بعده يزيد الثانى بن عبد الملك حسب وصية سليمان، ولعدم[١] حكمته، فقد عجز عن حفظ التوازن بين القبيلتين اليمنية والمضرية حسب السياسة الأموية المتبعة؛ لذا ثارت اليمانية عليه بقيادة يزيد بن المهلب، وظهرت الفتن فى كل أصقاع الدولة، ولما مات حزينا على جاريته حبابة، تسلم الحكم بعده أخوه هشام بن عبد الملك، وبالرغم من قوته، ودهائه وحزمه، فقد تمكنت الدعوة العباسية المتسترة بالدعوة العلوية من النمو والانتشار، وبالأخص بعد مقتل الإمام زيد بن علي الآتى ذكره ـ إن شاء الله.

كما قامت عدة ثورات أدت إلى الوهن، ثم الانحدار ثم إلى الزوال، ومن تلك الثورات ثورة عبادة الرعينى فى اليمن وثورة البربر والخوارج فى أفريقيا، وكان لها الأثر العظيم فى الأندلس، وأهم كل تلك الثورات لما خلدته من أفكار هى ثورة الإمام زيد[٢].

خروج زيد بن علي:

خرج فى الكوفة زيد بن علي (بن الحسين)، أحد حفدة علي، مطالبا بحق بيته

---

(١) القضاء والقدر مونتجمرى وات.

(٢) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٦٣ على بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين

فى الخلافة. فبايعه الناس على أن يتخذ كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هاديا وإماما، وعلى أن يقاتل الحكام الآثمين، ويحامى عن الضعيف، ويقيم العدل فى أمر أولئك الذين سلبوا أعطياتهم، ويوزع موارد الدولة بالتساوى، ويستدعى الجنود المقاتلين فى البلدان النائية. وعلى الرغم من أن أمير العراق، يوسف بن عمر الثقفى، استطاع أن يخمد الثورة، فى غير ما صعوبة، بعد أن قتل زيدا فى معركة دارت فى الشوارع، فالحق أن ثورة زيد هذه كانت فاتحة سلسلة طويلة من الحركات الشيعية التى أدت آخر الأمر إلى سقوط الأمويين. وفى القرن التاسع أسس أتباع زيد بن علي هذا دولة فى اليمن ثبتت على زعازع القرون المتطاولة، فكانت الدولة العلوية الوحيدة التى لا تزال قائمة إلى اليوم.

ولقد ترك لنا أحد هؤلاء الحكام المحليين ـ وهو حسن الهمدانى الذى توفى فى سجن صنعاء سنة ٩٤٥ بعد اشتباكات متلاحقة مع القوى السياسية المسيطرة على طبقته الأرستقراطية ـ صورة عن موطنه المستغرق فى الافتخار بأمجاده الثقافية القديمة التى ليس لأى من الأقاليم الإسلامية ما يضارعها. وذلك فى كتابيه «الإكليل» و«صفة جزيرة العرب». والحق أن الحكومة العباسية قد رأت من الخير، فترة من الزمان، أن تشجع نشوء القوى المحلية إلى جانب عمالها الرسميين. يدلك على ذلك أن المأمون، بعد أن أخفقت سياسته العلوية وجه إلى بلاد العرب الجنوبية قوات خراسانية تحت قيادة جندى مجرب اسمه محمد، وكان يدعى النسبة إلى زياد بن أبيه أخى معاوية لأبيه وأمير العراق، فوفق محمد هذا إلى إخضاع المقاطعات الساحلية حتى الشحر فى حضرموت ومشارف البلاد لسلطانه، فى حين ظلت الأراضى الجبلية خاضعة للحاكمين فى صنعاء[1]. ومن مقره فى زبيد استطاع هو وأعقابه أن يحتفظوا بسلطتهم فى البلاد طوال مائة وخمسين عاما، وإن لم يستقر لهم الأمر دوما. ومهما يكن من شيء، فقد كبحت سلطة خلفه الثانى كبحا شديدا على يد يعفر بن عبد الرحمن أحد الأشراف المحليين الذين شقوا عصا الطاعة على عامل المعتصم. ولقد استطاع يعفر من مقره فى شبام أن يبسط سلطته فى اتجاه الجنوب، فى حين وفق ابنه إلى حمل الحكومة المركزية على الاعتراف به أميرا على صنعاء. ولم يلبث العلويون أن أدلوا دلوهم بين الدلاء؛ فقد ظهر دعاة القرامطة، فى المناطق الجبلية النائية، ولكنهم عجزوا عن الاحتفاظ بمركزهم طويلا، وإن لم ينقطعوا عن بث دعايتهم الدينية السياسية. هذا من ناحية ومن ناحية

(١) تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٢٦ كارل بروكلمان.

ثانية فقد نجح أحد أعقاب زيد بن علي فى أن ينشئ لأسرته سلطة هناك استطاعت أن تصمد لعاديات الأجيال والقرون، ولا تزال إلى اليوم تؤلف عنصرا قويا فى تاريخ بلاد العرب. فبعد أن أخفقت المغامرة التى نهض زيد بعبئها فى العراق، ابتغاء القضاء على سلطة الخليفة الأموى هشام، انسحب أعقابه إلى المقاطعات الواقعة فى أطراف الإمبراطورية، واتفق أنْ كان أشراف طبرستان ومازندران على الساحل الجنوبى من بحر قزوين يتلمسون زعيما يسندون إليه أمورهم تخلصا من جور الأمراء من آل طاهر، فوضع الحسن بن زيد، أحد حفدة زيد بن علي، نفسه فى خدمتهم. وكان ينزل فى مدينة الرى، ويمتاز عن أجداده بقوة العزم وبراعة السياسة.

ولقد وفق هو وأعقابه، إلى أن يثبتوا هناك مدة تزيد على نصف قرن (٨٦٤ ـ ٩٢٨) حفلت بالحروب المتطاولة.

كذلك ظهر من أعقاب زيد، يحيى بن الحسين، حفيد القاسم بن إبراهيم، المعروف بالرسى نسبة إلى الرس، وعلقت عليه الآمال، بسبب علمه وورعه، فى أن يبعث فى أثناء إمامته أمجاد البيت (العلوى). حتى إذا تبين له، بعد زيارة قام بها لأبناء عمومته فى طبرستان، أن من المتعذر عليه أن يمكن لنفسه هناك، وجه أنظاره نحو بلاد العرب الجنوبية حيث كانت الفوضى ضاربة أطنابها(١).

وكان خبر هذه الفوضى معروفا فى المدينة. وفى ٦ آذار سنة ٨٩٧ ظهر خمسون رجلا ليس غير أمام أبواب صعدة وهى الموقف الرئيسى القائم على طريق الحاج بين مكة وصنعاء، والباعد عن الأخيرة مسيرة خمسة أيام فقط. ومن هناك دعا الناس، بوصفه الإمام الهادى إلى طاعة آل الرسول ﷺ وكما ساعدت الحزازات القبلية، التى دعا الرسول ﷺ إلى إزالتها، على تدعيم مركزه كزعيم للمدينة. فكذلك وفق الهادى إلى اكتساب عدد متزايد من الأتباع بسبب الحكومة التى أصلح بها ما بين المسلمين والنصارى فى أسقفية نجران القديمة أولا، وما بين القبائل الضارية فى تلك المنطقة، فى ما بعد. ولكن سلطته ظلت مقتصرة على صعدة وما جاورها؛ لأن القرامطة ورجال الدولة اليعفرية فى جنوبى البلاد كانوا ينازعونه نفوذه هناك. ومهما يكن من أمر، فقد ترك الهادى لأبنائه، بعد أن توفى فى ١٨ آب سنة ٩١١، مركزا مكينا لم يلبثوا أن انطلقوا منه ويسطوا سلطانهم على البلاد كلها. .(٢).

---

(١) نفس المرجع ص ٢٢٧. (٢) تاريخ الأمم والشعوب ص ٣٥٠ بروكلمان.

الثورة على الظلم إصلاح:

إن الثورات الإسلامية التى قام بها الأئمة من أهل البيت النبوى الشريف ابتداء بالحسين بن علي، وحفيده زيد بن علي، وابنه يحيى، وتحقيقا لإرادة شعوبهم، وأممهم، ومتطلباتها من حق، وعدل، وحرية، ومساواة، ضمن العقيدة الإسلامية، وعلى أرضية المحبة الإنسانية، والأخوة الإسلامية.

ولذا فقد تنزهت ثوراتهم عن العنصرية، والطائفية، والقومية، والإقليمية والمادية وغير ذلك من الأفكار الجاهلية، والمادية، التى يتصارع الناس عليها اليوم.

وكان الأئمة يبدءون عند وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بتكوين الأمة التي أمر الله بقوله: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... (١٠٤) ﴾ [آل عمران]. فإذا أكملوا التكوين بدأوا فى التنفيذ. وليس كما يقول ويزعم بعض المغرضين: بأن للإمام رغبة فى الحكم، وحبا للتسلط، يخرج شاهرا سيفه لإرهاب الناس وإخضاعهم، بل لقد زعم هذا البعض بأن ما زعمه هو من شروط الإمامة فى النظر الزيدى[1].

لقد بدأ الإمام زيد هذه البداية فى العراق، غير أن السلطة الأموية لم تتح له فرصة الاستكمال، فلذلك دفع إلى المعركة فى الوقت الذى أراده الحاكم الأموى بعده، فاضطر إلى إعلان الثورة. والدخول فيها بجيش لا يماثل جيش أعدائه، ولا يقارب عددهم ولا عدتهم. أما كيف دفع إلى المعركة ولم دفع إليها؟.

فذلك أن هشام بن عبد الملك قد كان من الذين يعرفون بدقة ما تكنه الأمة الإسلامية لهذا البيت النبوى الشريف وبالأخص بعد محنة الحسين - وخشى وجواسيسه أن تنقل إليه تحركات الشيعة فى العراق وخراسان - أن يكون زيد بن علي الذى يعرفه مكانة وكفاءة هو من تبحث عنه الشيعة لقيادتها، ومن تسعى إليه لهدايتها، وإذا فعلت فهو يدرى بأنه لا قوة تقف أمامها ولا مال يفرق جموعها.

واتجه نحو العراق، فلقيت الشيعة فيه ضالتهم المنشودة، وبغيتهم المقصودة، فألحوا عليه بالبقاء بينهم، وأظهروا له الاستعداد الكامل للجهاد معه فى سبيل الله ولإعلاء كلمة الله، هنا تحتم الوجوب عليه بالقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فوافقهم

---

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٣٥.

على الرغم من أن من كان معه من أهله قد حذره من الاستجابة لهم، ولكنه آثر الدين على الدنيا، والآخرة على الأولى. وشرع متكتما فى تكوين وتنظيم أمة الدعوة إلى الخير كما أمر الله وأصبح بالتالى تحت رقابة هشام بنفسه؛ لذا فلم يمهله إلا بضعة شهور، ثم أمر يوسف بن عمر بإعلان الحرب عليه، ودله على مكانه فى الكوفة[1].

فاضطر الإمام إلى إعلان الثورة فى غير وقتها المطلوب، ومع عدم التكافؤ فى القوة فقد كانت النتيجة معروفة لديه سلفا، وهذا هو بالفعل الذى دفع غلاة الشيعة للنكوص عنه، والنكث للبيعة، متعللين بما أثاروه من جدل حول موقف الإمام زيد من أبى بكر وعمر، لعدم تبريه منهما قالوا له: ولم تقاتل؟ فقال لهم: إنما أقاتل لإحياء السنن، وإماتة البدع، وإزالة الظلم عن المظلومين، فلم يستجيبوا، ورفضوا القتال معه، فقال لهم: اذهبوا فأنتم الروافض. فصارت هذه الكلمة علما لهم، ودخل زيد المعركة بما يقرب من ثلاثمائة مقاتل ففعل الأفاعيل فى جيش هشام حتى رمى بسهم أصاب دماغه، فقتل به شهيدا ـ رضوان الله عليه ـ.

وحاول ابنه يحيى ومن بقى من أصحابه إخفاء قبره، فدفنوه فى محل مجهول، وأجروا من فوقه الماء مبالغة فى إخفائه، ولكن جواسيس هشام عرفته،فنبشه يوسف بن عمر، واحتز رأسه، وأرسله إلى هشام، ثم صلب الجسم الشريف فى محل الكناسة، وبقى مصلوبا أربعة أعوام، وأخيرا أمر الوليد بن يزيد بن عبدالملك خليفة هشام بإنزاله، وإحراقه وذر رماده فى الفرات، انتقاما لنفسه المتأججة بالحقد على أن الثائر عليه يحيى ابن زيد فى خراسان، وبالرغم من أن ثورة يحيى بن زيد قد انتهت بقتله فى خراسان فقد كان لها ولثورة أبيه زيد الأثر البالغ فى نجاح الثورة العباسية التى قضت على الدولة الأموية. وأما هشام بن عبد الملك فقد هلك بعد استشهاد زيد بثلاث سنين فقط.

آثار الثورة:

لقد استولت الأهداف والمبادئ الزيدية على مشاعر الجماهير الإسلامية فى كل بلد إسلامى بلغته تلك الأهداف والمبادئ. أما فى العراق والحجاز واليمن وخراسان فقد انتشرت فيها فكرا، وطبقت عملا، وكانت المشعل المنير لكل الحركات التحررية فى عهد بنى أمية وبنى العباس وها نحن أولاء سنتابعها ضمن السرد التأريخى لحكام الدولتين.

---

(1) نفس المرجع ص ١٣٦.

وأول بلد حمل مشعلها بعد العراق هو خراسان حيث انتقلت إليه مع الثائر الإمام يحيى بن زيد ـ رحمه الله ـ. وفى الحجاز اجتمع كبار أهل البيت وفيهم آل العباس وعلى رأسهم كبير بنى هاشم كلها فى عصره عبد الله الكامل بن الحسن بن علي بن أبى طالب ـ عليهم السلام ـ واتفقوا على مبايعة محمد بن عبد الله النفس الزكية، والعمل متوحدين ضد الظلم والطغيان الأموى، فعمل كل فى مجاله(١).

وبعد قتل الإمام الحسين تفرق من بقى سالما من جيشه فى الآفاق، ومنهم إدريس ابن عبد الله بن الحسن، ويحيى بن عبد الله بن الحسن. فأما إدريس فلحق بالمغرب وتمكن من تأسيس دولة هناك. وبعد هذه المعركة لم تطل مدة موسى الهادى، فقد مات بعد بضعة أشهر منها سنة ١٧٠هـ قيل بمرض القرحة فى بطنه، وقيل قتلته أمه الخيزران بوساطة جواريها. وتسلم الحكم بعده هارون الرشيد وبه ابتدأ العصر الذهبى كما يقولون وبلغ الحكم القمة فى عهد ابنه المأمون، ولكن هذا العصر الذهبى لم يخل من المشاكل، فقد ثار فى الديلم يحيى بن عبد الله الذى نجا من مقتله فخرج ـ وأرسل هارون لإخضاعه جيشا بقيادة الفضل بن يحيى، وتمكن الفضل من أن يتجنب الحرب مع الإمام يحيى، بل وتمكن من استسلامه للمصالحة مع هارون الرشيد أمانا بخطه، ويشهد عليه العلماء والصلحاء والوجهاء لديه ففعل الرشيد ذلك كله، ولكنه بعد وصوله إليه حبسه بمنزل جعفر بن يحيى بن خالد البرمكى مدة، ثم أنزله (المطبق)مكان مظلم فى السجن ومات به مسموما، وقيل جوعا وعطشا، وقيل بل: أطلقه جعفر فذهب فى الأرض متخفيا حتى مات، ومن يرى هذا القول يقول: إنه كان السبب الأهم فى قتل الرشيد جعفر البرمكى والقضاء على البرامكة.

ومهما يكن فالإمام يحيى قد انتهى، ولكن الثورات لم تنته، ففى اليمن ثار هيضم بن عبد الرحمن الهمدانى، فأرسل إليه جيشا بقيادة حماد البربرى الذى نصحه الرشيد بالنصيحة المشهورة ـ وهى: أسمعنى أصوات أهل اليمن ـ وثارت الخرمية بقيادة بابك الخرمى وقد دعت هذه الثورة إلى الإباحية والاشتراكية المزدكية، ولا تزال هذه الفرقة باقية فى إيران حتى اليوم، ولكنها من الأقليات، وقد صعب على الرشيد القضاء عليها حتى مات سنة ١٩٣هـ. وتسلم الحكم ابنه الأمين ولم يكن قادرا على تحمل المسئولية لذلك فقد لعبت فى عهده السياسة الهدامة حتى أوقعته صريع أخيه المأمون(٢).

(١) نفس المرجع ص ١٣٧.
(٢) نفس المرجع ص ١٤٠.

وفى أيام المستعين بالله ثار فى العراق الإمام يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين - رضوان الله عليهم -. وثار فى طبرستان الإمام الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن الحسن بن زيد بن الحسن بن علي - عليهم السلام جميعا - سنة ٢٥٠هـ.

أما الإمام يحيى بن عمر فقد انتهت بقتله بعد عدة معارك - رحمه الله - وأما الحسن بن زيد فقد قوى أمره، واشتد ساعده، حتى تمكن من تأسيس الدولة الزيدية فى طبرستان، وما إليها، وانفصلت عن الدولة العباسية نهائيا فى عهد أحمد بن المتوكل الملقب بالمعتمد، واستمرت أكثر من مائتى عام تنعم بالحكم الزيدى بقيادة الأئمة من أهل البيت النبوى الشريف - رضوان الله عليهم -[1].

وكما تأسست الدولة الزيدية فى طبرستان برغبة أهلها واختيارهم ، فقد تأسست فى اليمن كذلك برغبة أهلها واختيارهم.

سبق أن عرفنا أن المعتصم العباسى (ت ٢٢٧) أسس جيشا من الأتراك والمغاربة؛ ليهدد به القوى العسكرية العربية والفارسية، ولكن هذا الجيش ما لبث إلا قليلا بعد موت المعتصم.

وفى عهد المعتمد انفصلت طبرستان، وتحررت بقيادة الإمام الداعى الحسن بن زيد - رحمه الله - وهو مؤسس الدولة الزيدية فى طبرستان كما سلف ذكره.

وانفصلت عن الدولة العباسية فى عهد المعتمد الدولة السامانية، واستقل بملك مصر والشام أحمد بن طولون.

وبعد موت المعتمد سنة ٢٧٩، أقام الجيش المعتضد أحمد ت ٢٨٩. وفى أيامه ظهرت القرامطة فى العراق، والبحرين، واليمن، وعمت كل أنحاء الدولة العباسية الفوضى، وأصبحت مثخنة بالفتن، ومتخمة بالدويلات، والحكومات، والمشيخات.

ففى تهامة كان يحكمها إبراهيم بن محمد بن عبيد الله بن زياد بن أبيه، وكان مع والده محمد عامل المأمون ومؤسس الدولة الزيادية فى اليمن - كان مثلا للظلم والاضطهاد، وبالأخص لشيعة الإمام علي - كرم الله وجهه - تنفيذا لرغبة الحكام العباسيين الذين اختاروا والده محمدا؛ لكونه من رجال الأسرة الزيادية المعادية لأهل

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤١.

البيت النبوى الشـريف، وشيعتهم وهى أسرة زيـاد بن أبيه الذى استلحقه معـاوية بنسبه كما قال عمارة اليمنى فى تأريخه المفيد وغيره من المؤرخين.

أما الحكم فى جبال اليـمن فكان موزعا بين حكومات، ومشيخات كـثيرة، فمنها حكومة أسـعد بن أبى يعفر المتـوفى سنة ٢٣١ . وكانت بشبـام وكوكبان، وصنعـاء وما إليها، وفى حاشد مـشيخة آل الضحاك، وفى أرحب وما إليها مـشيخة آل الدعام، وفى خولان العالية مشيخة آل أبى الفتـوح، وفى عدن لاعة، ومسور حجة حكومة حسن بن فرج بن حـوشب بن زاذان الكوفى بلدا الإسمـاعيلى مذهبـا، وكان لقـبه الإسمـاعيلى منصور اليمن[١].

وفى يافع ثم المذبخـرة ومـا إليـهـا حكومـة علي بن فـضل بن جـدن الخنفـرى الجيشانى، وكان هذا فى البداية محافظا على الانتماء الإسماعيلى مذهبا، وعلى الانتماء السياسى لحفـيد إسماعيل بن جعـفر الصادق، وهو عصره، وعبيـد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب سنة ٢٨٠ ـ ٣٢٢هـ.

ولكن ابن فضل انحرف بعد أن استقام أمره إلى المنهج الإسماعيلى القرمطى أتباع حمدان بن الأشعث الملقـب بقرمط أى المعلم، وهذا المنهج يخول لمتبعه الاسـتقلالية فى الحكم، ويخول للمتمكن من الحكم كل الحقوق التى يتمتع بها الإمام فى نظرهم، حتى حقوق التحليل والتحريم.

أما منصور اليمن حسن بن فرج بن حوشب فقـد استقام على دعوته الإسماعيلية حتى مات، ثم تناقلها عنه الدعاة حتى تسلمـها علي بن محمد الصليحى مؤسس الدولة الصليحية فى اليمن ٤٣٩ ـ ٤٥٨هـ.

الإمام الهادى واستقرار الزيدية فى اليمن:

وللتخلص من هذه الأوضاع التى مزقت اليمن، وشتتت شـملها، وعمت بسببها الفتن والمحن، فكر اليمنيون المخلصـون من شيعة أهل البيت النبوى وغـيرهم فى إيجاد حل لكل تلك المشاكل، وأجمع رجال الحل والعقد فيهم على البحث عن رجل من أهل البيت، يوحـد شمل اليـمنيين، ويقودهم إلى شـاطئ الأمن والاستـقرار فى ظل الحكم الإسلامى الصحيح القائم على الحق والعدل والشورى، ففتشوا الأرض فلم يجدوا قريبا

---

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٤٣.

منهم لذلك إلا يحيى ين الحسين بن القاسم بن إبراهيم - عليهم السلام -. وجدوه مع أهل بيته فى زاوية من زوايا الحجاز، البعيدة عن أنظار الحكام العباسيين، فى قرية اسمها (الفُرع) بضم الفاء فى سفح من سفوح الرس، وتقع فيما بين المدينة المنورة وبين الجهة الشرقية من بدر، مكان الغزوة النبوية المشهورة، وتبعد عن المدينة جنوبا مسافة سبعين كيلو مترا تقريبا، ولا يزال إلى الآن أثرها قائما.

وجدوه هنالك ينشر العلم، ويدعو إلى الله، وبعد أن خبروه ودرسوه، وأعجبوا به عقيدة وسلوكا، دعوه للخروج معهم إلى اليمن للدعوة إلى الله، ولتوحيد شمل اليمنيين على منهج الحق، والأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر. وبعد أن استخار الله لبى دعوتهم، وسار معه بضعة [1] من أهله، ومريديه فوصل صعدة لستة أيام خلون من شهر صفر سنة ٢٨٤هـ وهذه هى المرة الثانية التى يخرج فيها إلى اليمن تلبية لطلب أهلها، وكان قد خرج عام ٢٨٠هـ. وبدأ بالإصلاح ثم رجع إلى بلده الحجاز لما وجدهم لا يطيعونه إذا أمرهم بمعروف أو نهاهم عن منكر.

أما هذه المرة فما بلغ الناس قدومه حتى خرجوا من صعدة لاستقباله، فبادر لإصلاح ذات شأنهم، فدعاهم إلى التطهير من الأحقاد والضغائن التى ولدتها الحروب بينهم، وذكرهم، وخوفهم فى خطبة وعظية طويلة، أبكاهم ما سمعوا من كلامه، وتذكيره فيها، ثم لم ينصرفوا إلا وقد أصلح شأنهم، واختلط الفريقان المتحاربان يقبل بعضهم بعضا، وبعدها بايعوه جميعا إماما شرعيا، وحلفوا له على الطاعة، والمناصرة، والقيام بأمر الله، وبالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، ثم دخلوا جميعا صعدة، وكان هذا أول عهد الدولة الزيدية فى اليمن ٢٨٤ هـ.

مبادئ دعوته:

وفيها خطب فى الناس، وأعلن فى خطابه دعوته، ووضح فيه منهجه السياسى فى الحكم، ودستوره الذى سوف يسير على نهجه، فقال - عليه السلام: أيها الناس أدعوكم إلى ما أمر الله أن أدعوكم إليه، إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإلى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، فما جاءنا به الكتاب اتبعناه، وما نهانا عنه اجتنبناه، وإلى أن نأمر نحن وأنتم بالمعروف ونفعله، وننهى نحن وأنتم عن المنكر جاهدين ونتركه، ثم شرط على نفسه شروطا فقال:

---

(١) نفس المرجع ص ١٤٥.

أيها الناس وبعد فإنى أشترط لكم أربعا على نفسى:

١ ـ الحكم بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ.

٢ ـ والأثرة لكم على نفسى فيما جعله الله بينى وبينكم، أوثركم فلا أتفضل عليكم.

٣ ـ وأقدمكم عند العطاء قبلى.

٤ ـ وأتقدم أمامكم عند لقاء عدوى وعدوكم بنفسى.

وأشترط لنفسي عليكم اثنين:

١ ـ النصيحة لله سبحانه، ولى فى السر والعلانية.

٢ ـ الطاعة لأمرى على كل حالاتكم ما أطعت الله، فإن خالفت طاعة الله فلا حجة لى عليكم.

﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨) ﴾ [يوسف].

وتلقى الشعب اليمنى هذه الدعوة الإسلامية بالطاعة والانقياد؛ إذ وجدوا فيها الخلاص من الفتن والمحن، ومن دكتاتورية الدويلات المتناحرة فى أكثر مناطق اليمن.

ولذا فقد تمكن الإمام الهادى ـ عليه السلام ـ من السيطرة بالحق والعدل على اليمن ما عدا منطقة بنى زياد التهامية وذلك بوساطة القوى الشعبية المؤمنة، التى تذوقت حلاوة السعادة فى ظل دولة الحق، والعدل، والحرية، والمساواة، وغير ذلك من القيم الإنسانية، التى استوعبها الفكر الإسلامى،الذى حمله إليهم الإمام الهادى ـ رحمه الله ـ وطبقه عقيدة وممارسة بينهم. وبدأ فى المناطق وكان واليه على عدن أبو عبد الله الرازى. أما الحجاز فقد استمر على ولاته سبع سنوات وخطب له فيها بمكة المكرمة.

ثم انقلب على الباطنية الإسماعيلية التى التزم بها مع ابن حوشب الكوفى ردحا من الزمن، وتحول إلى الباطنية القرمطية التى تعنى القيام مقام الإمام المستور فى الحكم أصلا لا نيابة، وحارب ابن حوشب زميله فى الدعوة، ورفيقه فى العهد الذى أخذه عليهما الإمام المستور (حسب التعبير الإسماعيلى) حسين بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، وبه دخلا اليمن سنة ٢٦٨هـ للدعوة

الإسماعيلية، والسمع والطاعة لابنه عبيد الله المهدى الذى أخبرهم بأنه سيظهر فى المغرب، وربما أن علي بن فضل القرمطى قد اندفع إلى هذا التحول لما فيه من إرضاء لطموحاته، ومن حفاظ على ذاتيته اليمنية فأبى لذلك أن يخضع لعبيد الله المهدى، بل أقام نفسه إماما ينهج نهج الأصول الإمامية الباطنية القرمطية.

والحفاظ على الذاتية اليمنية هو الذى حمل فيما بعد باطنية اليمن على عدم الاعتراف برئاسة داود بن عجب شاه الهندى، واختاروا لهم رئيسا يمنيا اسمه سليمان بن الحسن، وبذلك انقسمت المستعلية الباطنية إلى قسمين: داودية، وسليمانية.

وفى هذه الفترة التى ظهرت فيها الباطنية فى اليمن، وتغلبت على أكثر مناطقها وحكوماتها ومشيخاتها اضطر أولئك الذين خالفوا الإمام الهادى، ونكثوا بيعته إلى الرجوع إليه. والاستناد إلى مذهبه الذى يشمل مبادئ وأهدافا إسلامية ترضى الفقراء، ولا تسخط الأغنياء وتلك هى مزية الإسلام على ما سواه من الملل والنحل.

وتحالفوا جميعا على الوقوف معه؛ ليحاربوا الباطنية بكل أشكالها وألوانها. ومن المهم الآن أن نتعرف على فكر الباطنية؛ لنكون على بينة من أمر أصحابها ومعتنقيها، ومن أمر أعاديها، ومحاربيها، على مدى التاريخ الإسلامى الطويل.

والذى يظهر أن الباطنية قد ظهرت فى النصف الثانى من القرن الثالث الهجرى كدعوة دينية، وسياسية وبتخطيط سرى دقيق.

وظهر من إنتاجها الفكرى المبكر رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، وهذه التسمية تدل بوضوح على أن وراءها جمعية سرية ذات مبادئ وأهداف، وهى ترتكز على فلسفة تتبع فى حدوث الكائنات الفلسفية الأفلاطونية الجديدة.

وتتبع الفلسفة الفيثاغورية القديمة فى تقديس العدد (٧) وجعل النظام الكونى والحوادث التاريخية مترتبة عليه، وقد أكد هذا ما ظهر من مؤلفاتهم، ورسائل دعاتهم، ومن خلال الدراسات الفاحصة لممارساتهم فى عهود الظهور ـ كما يسمونها ـ التى فيها حكموا اليمن من جملة ما حكموا من أقطار فى منطقة الشرق الأوسط، ولكن لم يستطع أحد من الباحثين كما أعلم أن يحدد بالأدلة القاطعة رجال هذا الفكر والفلسفة للعقيدة الباطنية، ويرجع السبب فى ذلك إلى ما عرفوا به من حرص شديد على السرية والتستر، حتى أنه أصبح أصلا من أصول الدعوة الباطنية التى يتمسكون بها حتى هذا

العصر، الذى انطلق فيه كل ذى عقيدة إلى الإفصاح عن عقيدته فى دول العالم - وسموه لذلك ونحوه عصر الحريات.

واستجاب الهادى - عليه السلام - لداعى الواجب وهب من جديد لتطهير صنعاء واليمن من ضلال القرامطة والباطنية بشكل عام. وعبأ جيوشه وأشعلها حربا على الباطنية، ومن بغى عليه من غيرهم ومكث على هذه الحال من سنة ٢٩٤هـ حتى سنة وفاته ٢٩٨هـ - رضوان الله عليه.

وفى خلالها طهر صنعاء من القرامطة مرتين، وسحقهم مرات فى نجران، وغير نجران، ومن أراد الاطلاع على ذلك فعليه بسيرته المطبوعة وأمثالها من كتب التاريخ.

وبقى علينا الآن أن نعرف الإمام الهادى - عليه السلام - نسبا وسلوكاً بعد أن عرفناه فيما تقدم عقيدة وإماما، لنتمكن بعد ذلك من العلم بحسن اختيار أولئك اليمنيين الذين تجشموا الصعاب حتى اختاروا الإمام الهادى؛ ليكون لهم إماما وقائدا، ومن العلم بخطأ الذين عارضوهم، أو انتقدوهم على ذلك. فمن هو الإمام الهادى؟.

الإمام الهادى:

هو: الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم طباطا بن إسماعيل الديباج بن إبراهيم الشبه بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن الإمام علي بن أبى طالب بن عبد المطلب بن هاشم.

مولده فى المدينة المنورة سنة ٢٤٥هـ دعوته الأولى ٢٨٠هـ دعوته الثانية ٢٨٤ هـ موته رحمه الله ٢٩٨هـ.

صفته الشخصية: قال الإمام المنصور عبد الله بن حمزة - رضوان الله عليه: كان الإمام الهادى أسديا - أى يشبه الأسد - أنجل العينين، غليظ الساعدين بعيد ما بين المنكبين والصدر. خفيف الساقين والعجز كالأسد.

سلوكه: هو باختصار أشبه فى سلوكه برسول الله ﷺ، وعلي - كرم الله وجهه، وقد كان يحلف أمام الجماهير بأنه لم يتجاوز فى سيرته كلها قبل الإمامة وبعدها حدود الورع والتقوى، والعدل والإنصاف.

وكان لا يفضل نفسه على غيره، سباقا إلى الخير حيث كان ومهما كان، وكان يعالج الجرحى فى الحروب بنفسه، ويطعم الأيتام بيده. وكان يقرئ السلام على

الصغير، والكبير، ممن يعرف وممن لا يعرف. وكان يكره الظلم، والقهر، والغصب، والنهب، ولا يرضى بذلك. ومن أجل هذا فقد ترك اليمن وحكمه، ورجع إلى الحجاز بعد خروجه المرة الأولى؛ لما رأى من أصحابه عدم الطاعة لأوامره ونواهيه فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

وقال كلمته المشهورة: والله لن أكون فيكم كالمصباح يحرق نفسه ويضىء لغيره، ولكن أهل اليمن افتقدوه، ورجعوا إليه بعد سنتين، وطالبوه بالخروج، وتعهدوا له بالطاعة، فلبى النداء وخرج إليهم للمرة الثانية سنة ٣٨٤هـ.

الشهادة له وللأئمة من بعده:

شهد له وللأئمة الهداة من بعده كبار المؤرخين، والعلماء المحدثين فى العالم وكلهم من غير أتباع المذهب الزيدى. فمن ذلك شهادة ابن حزم الظاهرى فقال:

ليحيى هذا الملقب بالهادى رأى فى أحكام الفقه قد رأيته، ولم يبعد فيه عن الجماعة. وقال يحيى بن أبى بكر العامرى الشافعى فى الرياض المستطابة بعد أن أثنى على الأئمة:

جاء - أى الإمام الهادى - إلى اليمن وقد عمَّ بها مذهب القرامطة، والباطنية فجاهدهم جهادا شديدا، وجرى له معهم نيف وثمانون وقعة لم ينهزم فى شىء منها وكان له علم واسع، وشجاعة مفرطة. ثم قال العامرى: وذكر ابن الجوزى وغيره: أن الأئمة المتبوعين فى المذاهب الإسلامية بايع كل واحد منهم لإمام من أئمة أهل البيت النبوى الشريف، بايع أبو حنيفة - الإمام إبراهيم بن عبد الله. وبايع مالك - لأخيه محمد. وبايع الشافعى لأخيهما يحيى.

وقال ابن حجر فى فتح البارى شرح البخارى فى شرح حديث «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم طائفة» من بنى الحسن، ولا يتولى الإمامة فيهم إلا من يكون عالما متحريا للعدل[1].

---

(١) نفس المصدر ص ١٥٧.



الفصل الثالث

الزيدية والمعتزلة

١ - القلقون من العلاقة:

أ - رأى رضا الحكيمى:

تلقى تلمذة الإمام زيد لواصل بن عطاء رأس المعتزلة من الشيعة ومن الزيدية جدلا كبيرا.

ومن الذين ينكرون لقاء زيد بواصل لقاء التلميذ بأستاذه ومجلسه منه مجلس المتعلم؛ الشيخ محمد رضا الحكيمى فى كتابه «بداية الفرق ونهاية الملوك»[1] وهو يعرض لتاريخ الإمام زيد نراه ينكره إنكارا شديدا ويقسو على الذين يروجون لتلك القضية قسوة عظيمة ويأخذ على صاحب فوات الوفيات - ابن خلكان وصاحب الملل والنحل - الشهرستانى نقل تلك الواقعة وتقريرهما لها. وما كان ينبغى لهما نقل هذا الهذيان وفق قول الحكيمى وإليك قوله:

«ومن السخافة بمكان ما فى فوات الوفيات والملل والنحل عن ابن أبى الدم: القول أن زيدا وأصحابه كانوا معتزلة وأنه أخذ الاعتزال عن واصل بن عطاء وأن أخاه الباقر كان يعيب عليه قراءته على واصل مع كونه يجوز الخطأ على جده على بن أبى طالب فى حرب الجمل والنهروان؛ ولأن واصلا كان يتكلم فى القضاء والقدر على خلاف مذهب أهل البيت إلى آخر ما تكلم به من هذا الهذيان، فإنه لم يرد شىء من

(١) نفس المرجع ص ٦٠.

هذا عن أئمة أهل البيت فى حق زيد بل ورد عنهم مدحه والثناء عليه ولو كان لشىء من ذلك أثر لحكاه عنهم أصحابهم وأتباعهم ولما خفى ذلك عنهم وظهر لابن أبى الدم. وإنما تكلم فيه من تكلم من حيث احتمال دعواه الإمامة والأكثر بل الجميع على أنه لم يدعها فلو كان فيه مغمز غير ذلك لما سكتوا عنه لكن واضع هذا الكلام عن لسانه له غرض غير خفى على المتأمل.

ب - رأى علي بن عبد الكريم:

أما المؤلف الزيدى الذى يقف معارضا للقول بأستاذية واصل رأس المعتزلة للإمام زيد بن على فهو الأستاذ علي بن عبد الكريم الفضل شرف الدين فى كتابه: (الزيدية: نظرية وتطبيق)[1].

وهو كتاب يسير على منهج موضوعى لا يحمل بين ثناياه ما يصيب أهل العصبية من المذاهب إلا شيئا قليلا كما نراه فى قضية المعتزلة والزيدية. وإذا ما تجاوزنا تلك القضية إلى قضايا الزيدية لرأيناه منصفا عادلا فى موازناته.

أما قضية الاعتزال فإنه لا يقوى على إساغتها ولا على هضمها ولا يكاد يتمثلها تمثيلا. ويحمل على الشهرستانى بقوله: «ولعل الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨هـ هو أول من سجل تلك الغلطة فى كتابه «الملل والنحل» ثم تابعهم أكثر من بحث الاعتزال والمعتزلة إما لإهمالهم الفحص والتمحيص لما يروونه، وإما لأنه قد وافق ما يريدون قوله عن الزيدية والزيديين..».

أهم ما يشتمل عليه النص السابق ادعاؤه على الشهرستانى أنه أول من سجل تلك الغلطة.. بينما الأمر ليس كذلك، فالشهرستانى ليس أول من اختلق علاقة «زيد بواصل» اختلاقا أو ابتدعها من عند نفسه ابتداعا إنما سبقه إليها:

- أبو القاسم البلخى ٣١٩هـ.
- القاضى عبد الجبار ٤١٥هـ.
- الحكم الجشمى ٤٩٤هـ.

---

(١) نفس المرجع ص ١٩و٢٠.

فى كتاب حققه فؤاد السيد «فضل الاعـتزال وطبقات المعتزلة» عثرت عليه اللجنة العلمية المصرية ضمن مخطوطات اليمن وتضمن:

النصوص الثلاث للبلخى، وعبد الجبار، والجشمى[1].

ثم تداولها: الشهرستانى ٥٤٨هـ فى الملل والنحل

والصفدى فى فوات الوفيات.

وأحمد بن يحيى بن المرتضى ـ المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل.

طبع منه: باب ذكر المعتزلة توماس أرنولد

فالقضية على حد علمنا ترجع إلى عجز القرن الثالث وصدر القرن الرابع. راجع البلخى؛ لذلك رأينا أنها تحتاج إلى توضيح.

ونقدم رأى علي بن عبد الكريم الفضيل شرف الدين كما أثبته فى كتابه: الزيدية:

حيث يقـول: من الأغلاط الشائعة نسـبة الزيدية إلى المعتـزلة ـ فى أصول الدين والتوحـيد ـ علم الكلام والقـول بأن الإمام زيد بن علي قـد تتلمذ على رئيس المعـتزلة واصل بن عطاء.

ثم يقول: ولعل الشهرستانى المتوفى سنة ٥٤٨ هـ هو أول من سجل هذه الغلطة فى كـتابه (الملل والنحل) ثم تابعـه أكثـر من بحث الاعتـزال والمعتـزلة، إما لإهمـالهم الفـحص والتـمـحـيص لما يروونه، وإمـا لأنه قـد وافق مـا يريدون قـوله عن الزيدية والزيديين.

ولا أعتقد أن للـشهرستانى أى دليل قوى على قـوله، وربما أنه جعل من التوافق بين الزيدية والمعتـزلة فى أكثر مسائل الأصـول الدينية دليلا على قولـه، ولكن هذا غير كاف قطعا لإلحـاق فرقة بأخرى؛ ولأنه لو اعتـبر التوافق فى رأى ما دليـلا على توحيد فرقة مع أخـرى لما تميزت فيما بينها كـل المذاهب الإسلامية المعروفة اليـوم وقبل اليوم؛ لأنها تتوافق فى كثير من المسائل وبالأخص الفقهية الفرعية منها.

أو لم يكن مسـتند الجمـيع الكتاب والسنة والإجمـاع والعقل السليم فى القـياس ونحوه؟ ومع ذلك فـقد تميزت المذاهب فى الفروع والأصول، وظـهر على وجه الأرض

---

(١) الدار التونسية للنشر.

المذهب الزيدى، والحنفى، والمالكى، والشافعى، والحنبلى، والظاهرى، وظهر المذهب العدلى، والمعتزلى،والأشعرى، وغير ذلك من المذاهب التى تميز بعضها عن بعض نتيجة اختلاف أئمتها وعلمائها فى الفهم والإدراك والاستنباط من الدليل الذى يتمسكون به.

أما القول بأن الإمام زيدا قد تتلمذ لواصل بن عطاء، ومن أجل أن يحصل على علم الأصول والفروع حتى يتحلى بالعلم كما يقول الشهرستانى ـ فهو أغرب وأعجب؛ ذلك لأن المعلوم عند جميع المؤرخين والباحثين والعالمين ـ أن المدينة المنورة ـ وليس البصرة ـ هى معدن العلم ومدينته، كما قال الإمام أبو حنيفة ـ رحمه الله ـ لمن سأله عمن تلقى علمه فقال: كنت فى معدن العلم ولزمت فقيها من فقهائهم. وهو يعنى الإمام جعفرا الصادق ـ رحمه الله ـ حيث لازمه عامين وكان يقول: لولا السنتان لهلك النعمان[1].

فهل من المعقول أن يخرج الإمام زيد من معدن العلم وينبوعه ومدينته ليذهب إلى البصرة ليحصل على علم الفروع والأصول حتى يتحلى بالعلم كما قال الشهرستانى، إنه لأمر غريب وعجيب حقا، وهو مع ذلك قول مخالف لما أجمع عليه المؤرخون فقد قالوا: إن واصل بن عطاء كان مولى لآل محمد بن علي بن أبى طالب ـ عليهم السلام ـ أى آل محمد ابن الحنفية ـ وأخذ العلم عن ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية. وأنه بعد ٢١ عاما من عمره سافر إلى البصرة سنة ١٠١هـ حيث التقى فيها بالزاهد عمرو بن عبيد فزامله فى حلقة الحسن البصرى حتى حدث الخلاف بين واصل وأستاذه الحسن البصرى فى تسمية مرتكب الكبيرة من المسلمين حيث قالت الخوارج: هو كافر. وقالت المرجئة: هو مؤمن. فقال الحسن البصرى: هو منافق، فقال واصل: هو فاسق والفسق منزلة بين المنزلتين: منزلة الكفر والنفاق. ومنزلة الإيمان. وبعد أن رجع عمرو بن عبيد إلى قوله وفارق حلقة الحسن أطلق عليهما لاعتزالهما الحلقة (اسم المعتزلة) ثم صار اسما لمن تابعهما فى مسائل علم الكلام، بل لقد نص المحققون من المعتزلة والزيدية على أن مسألة المنزلة بين المنزلتين هذه قد أخذها واصل بن عطاء من أستاذه أبى هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية[2].

وقد قال المستشرق الإيطالى (نلينو):إن اسم المعتزلة قد جاء فى الأصل ممن اعتزل الصراع السياسى بين علي ومعاوية. وبين علي وأصحاب الجمل. وتابع هذا المستشرق

(١) أبو زهرة الإمام الصادق ص ٣٨.

(٢) شرح الأصول الخمسة ص ١٣٧، ١٣٨.

بعض المستغربين. وهذا القول غير صحيح قطعا؛ لأن معتزلة الصراع السياسى كان ولاؤهم مع علي - كرم الله وجهه - فلم تكن لهم فكرة مستقلة يمتازون بها عن غيرهم كما كان لواصل ومن تابعه من المعتزلة، وقد فصلت كتب التاريخ سبب اعتزالهم، وفى (شرح نهج البلاغة ج٣ ص ١١٥) الكفاية لمن أراد الاطلاع. لما تقدم عن زيد وواصل فلم يكن زيد بن علي معتزليا ولا أخذ العلم عن واصل وإنما أخذ العلم من معدنه وينبوعه ومدينته. أخذه عن أبيه زين العابدين، وعن أخيه محمد الباقر، وعن غيرهما من علماء أهل بيته وغيرهم. وإذا كان لا بد من نسبته إلى فرقة من الفرق فينسب إلى الفرقة (العدلية) والعدلية كلمة تطلق على كل من يقول بالعدل والتوحيد وينفى الجبر والتشبيه والتجسيم لله، تعالى الله عن ذلك، ولهذا صح للقاضى عبد الجبار بن أحمد المتوفى سنة ٣١٥هـ، وللإمام المهدى أحمد بن يحيى بن المرتضى، أن يجعلا من رجال الطبقة الأولى للعدلية كل الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة ممن صرح بالعدل ونفى الجبر. وقد جعلا الإمام زيد بن علي وأبا هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية أستاذ واصل من رجال الطبقة الثالثة وجعلا واصل بن عطاء وعمر بن عبيد من رجال الطبقة الرابعة.

وقد توهم البعض من المتأخرين أن الطبقات التى أشرت إليها هى طبقات المعتزلة. والصحيح غيره؛ لأن البحث فى طبقات القاضى وفى الملل والنحل.

المهدى كان من العدلية وليس من المعتزلة، ولفظه فى الملل والنحل[1] مسألة (له) أى قالت المعتزلة: وأجمعت العدلية على أن للعالم محدثا قديما قادرا عالما حيا. حتى قال: وقد رتب القاضى - أى عبد الجبار - طبقاتهم ونحن نشير إلى جملتها. ثم أشار فى المسألة التى تلتها إلى طبقاتهم.

فالإمام المهدى حكى عن المعتزلة روايتهم لما أجمعت عليه العدلية. ثم رتب طبقاتهم كما فعل القاضى عبد الجبار مستدلا بأقوالهم فى العدل ونفى الجبر. وللشهرستانى غرائب أخرى عن الإمام زيد بن علي: فقد حكى مناظرة قال: إنها حدثت بين الإمام زيد بن علي والإمام جعفر الصادق حول الطريق إلى الإمامة وواجبات الإمام ومسئولياته ومنها الدعوة والخروج - الثورة - على الظالمين وقال: إن الإمام جعفر قال لزيد: على مقتضى مذهبك والدك ليس بإمام.

(١) البحر ج١ - ص ٤٤، ٤٥.

ولكن هذه المناظرة لم يروها حسب ما أعلم أحد من محققى الزيدية ولا من المعتزلة ولا يمكن وقوعها لاتفاق الإمامين على الطريق إلى الإمامة وواجبات الإمام ومسئولياته، ولهذا عرض الإمام جعفر بيعته لكبير بنى هاشم وعالمهم فى عصره عبد الله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب ـ عليهم السلام ـ فى الاجتماع الذى عقده بنو هاشم بالمدينة للنظر فيمن يصلح للإمامة وللخروج ـ والثورة على الظالمين. واتفقوا أخيرا على مبايعة النفس الزكية محمد بن عبدالله بن الحسن وهذا يعنى أن الإمام جعفرا لم يخالف سائر أهل البيت فى المسألة هذه. وربما أن ما حكاه الشهرستانى كان مما حدث فى مناظرات بين بعض المتأخرين من الإمامية والزيدية كما قال أبو زهرة[1] وخفى ذلك على الشهرستانى.

٢ - المثبتون:

١ـ البلخى والقاضى عبد الجبار والجشمى:

لكننا نرى أن علاقة الإمام زيد بن علي بواصل بن عطاء أدخل فى التاريخ وأعمق من تاريخ الشهرستانى الذى اعتبره مؤرخو الزيدية مروجا لها وغامزا بها آل البيت ونقيصة استعملها خصوم الزيدية. وكانت من أهم الأسباب التى ألحقت به ما تبرأ منه وهو وصفه بالرافضى. يقول صاحب طبقات المعتزلة نصا يفيد ضمنا أنه يرضى عن المعتزلة ويتبرأ من الإرجاء ومن المجبرة ومن الخوارج ومن الرافضة.

وقد حكى أبو الحسين الخياط: أن زيد بن علي ـ عليه السلام ـ، لما خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة، جاءه أبو الخطاب فقال: عرِّفنا ما تذهب إليه حتى نبايعك، فقال له زيد: اتق الله، فليس هذا وقت محنة. فقال: لا أرضى إلا بها. فقال له زيد: فاسمع منى، إنى أبرأ إلى الله من القدرية الذين حملوا ذنوبهم على الله تعالى، ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله مع الإصرار، ومن الرافضة الذين رفضوا أبا بكر وعمر، ومن المارقة الذين كفروا أمير المؤمنين، فقال له: لست بصاحبنا، ثم توجه هو وأصحابه إلى المدينة. يقولون: لبيك جعفر، لبيك جعفر[2].

ولماذا يضيق صدر الزيدية بتلمذة الإمام زيد لواصل ويبلغ بهم الحرج مبلغه مع أن

---

(١) فى الإمام زيد ص ١٢٦.

(٢) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ٢٢٨. أبو القاسم الباقلانى ـ القاضى عبد الجبار، الحكم الجشمى.

العلم والتعلم فضيلة إسلاميـة، وفى الأثر «الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها أخذها» فلا نرى منقصة تلحق بالمتـعلم إن طلب العلم ولو فى الصين أو فى أفناء الأرض، والرحلة فريضـة لطلب العلم ونبى الله موسى خرج هو وفـتاه إلى مجـمع البحرين للقاء العـبد الصالح.

وإذا كان الإمام زيد سعى إلى واصل لتلك شهادة بورع واصل وتقواه.

وأورد نصا آخر يفـيد صراحة حب الإمام زيد لواصل بن عطاء واهتـمامه بزيارته مع ابنه يحيى وإنكاره العنيف لرأى جعفر الصادق بقـوله: ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا الذى يحمل معنى اعـتزاز زيد بالمعتزلة (الحسد لنا) أى المدرسة الاعـتزالية. ثم قوله: «ما منعك من اتباعه» يقول البلخى:

وروى أن واصل بن عطاء، نزل على إبراهيم بن أبى يحيى، فسـارع إليه عبدالله ابن الحسن وإخوته، وزيد بن علي وابنه يحيى ـ عليهم السـلام ـ، ومحمد بن عجلان وأبو عباد اللهبى، فقال جعفر بن محمد: قوموا بنا إليه فجاءه والقوم عنده فقال:

أما بعـد، فإن الله تعالى بعث مـحمدا ﷺ بالحق والبـينات والآيات، أنزل عليه ﴿...وَأُوْلُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥)﴾ [الأنفال] فـنحن عترة رسـول الله ﷺ، ثم قال: وإنك يا واصل، أتيت بأمـر تفرق به الكلمة، وتطعن به على الأئمة، وأنا أدعوك إلى التوبة، فـقال واصل: الحمد لله العدل فى قضائه الجـواد بعطائه، المتعالى عن كل مذموم، العـالم بكل خفى مكتوم، نهى عن القبيح ولم يرضه، وحث على الجمـيل ولم يحل بينه وبين خلقه، وإنك يا جعفر وانى الهمة، شـغلك هم الدنيا، فأصبـحت بها كلفا، وما أتيناك إلا بدين مـحمد صلى الله عليه (وعـلى) صاحبـيه وضـجيعـيه، ابن أبى قـحافة، وابن الخـطاب، وعـثـمـان بن عفـان، وعلي بن أبى طالب ـ عليهم السلام ـ وجميع أئمـة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به، وإن تصدف عنه تنوء بإثمه، وتكلم زيد بن علي وأغلظ لجعفر وقال: ما منعك من اتباعه إلا الحسد لنا، ثم تفرقوا[1].

أما الرواية التى ذكر صاحب المنية والأمل فيما نشره (توماس أرنولد) فإنها تضيف إلى رواية البلخى متابعة زيد لأصول المعتزلة خلال القول بالمنزلة بين المنزلتين وصححت

---

(١) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ٢٣٥.

خطأ يقـول: إن الزيدية تنكر على المعتـزلة القول بالعـدل. يقول صاحب المـنية والأمل: وهى رواية أخرى فيها إضافة على التى أوردناها سابقا.

وروى أن واصلا دخل المدينة ونزل على إبراهيم بن يحيى فسارع إليه زيد بن علي وابنه يحيى بن زيد وعـبد الله بن الحسن وإخوته ومحـمد بن عجلان وأبو عـباد الليثى فقال جعفر بن محمد الصـادق لأصحابه: قوموا بنا إليه فجاء والقوم عنده أعنى زيد بن علي وأصحابه فـقال جعفر: أمـا بعد فإن الله تعالي بعث مـحمدا ﷺ بالحق والبينات والنذر والآيات وانزل عليه ﴿ ...وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ...(٧٥)﴾ [الأنفال] فنحن عترة رسول الله ﷺ وأقرب الناس إليه وإنك يا واصل أتيت بأمر يفـرق الكلمة وتطعن به إلى الأئمة وأنا أدعـوكم للتوبة. فقال واصل: الحـمد لله العدل فى قضائـه الجواد بعطائه، المتعالى عن كل مذموم والعـالم بكل خفى مكتوم نهى عن القبيح ولم يقضه، وحث على الجميل ولم يحل بينه وبين خلقه وإنك يا جعفر وابن الأئمة شغلك حب الدنيا فـأصبحت بها كلفا وما أتيناك إلا بدين محمـد ﷺ وصاحبيه وضجيعيه ابن أبى قحافة وابن الخطاب وعثمان وعلي بن أبى طالب وجميع أئمة الهدى فإن تقبل الحق تسعد به وإن تصدف عنه تبـوء بإثمك. فتكلم زيد بن علي فأغلظ لجعفر أى أنكرعليه مـا قال، وقال: مـا منعك من اتباعه إلا الحسـد لنا فتفـرقوا. قلت: روى ذلك الحاكم وغيره والله أعلم بصحتـها. قال ابن برد: إذا كان زيد ابن علي لا يخالف المعتزلة إلا فى المنزلة بين المنزلتين. ومن كلام جعفـر بن محمد الصادق، وقد سئل عن القدر ما استطعت أن تلوم العـبد عليه فهو فعله وما لم تستطع فـهو فعل الله يقول الله للعبـد: لم كفرت ولا يقـول لم مرضت فلا نقـول: إن جعفـر أنكر على واصل القول بالعدل بل المنزلة بين المنزلتين إن صحت الرواية(١).

أما فضل الإمام زيد فمشهور وإمامته فى الفضل والعلم والتقوى والورع فهى من المسلمات لدى كل مـؤمن محب لآل البيت حـتى مؤرخى الاعتـزال ولاسيما أصـحاب الطبقات فقد سلكوه فى الطبقة الثالثة، يقول صـاحب كتاب المنية والأمل:

(الطبقة الثالثة) منقسمة فـمن العترة الطاهرة: الحسن بن الحسن وابنه عبد الله بن الحسن وأولاده النفس الذكية وغيـره ومن أولاد علي ـ عليه السلام ـ أبو هاشم عبد الله

(١) ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل شرح كتاب الملل والنحل ص ٢٠ أحمد يحيى المرتضى تحقيق توماس أرنولد.

ابن محمد ابـن الحنفية وهو الذى أخذ عنه واصل وكان معـه فى المكتب فأخذ عنه وعن ابنه وكذلك أخـوه الحسن بن محمـد أستاذ غـيلان ويميل إلى الإرجاء ولهـذا قالت به الغيلانية من المعتزلة. ومن هذه الطبقة مـحمد بن علي بن عبد الله بن عباس أبو الخلفاء بعثه أبوه إلى أبى هاشم عـبد الله بن محمد ابن الحنفية. ومنهـا زيد بن علي حيث قال حين سـأله أبو الخطاب عما يذهـب إليه أبرأ من القدرية الذين حـملوا ذنوبهم على الله ومن المرجئة الذين أطمعوا الفساق فى عفو الله، فهذا آخر الخبر ومن هذه الطبقة محمد ابن سيرين بن محمد وفضله فى فنون العلم مشهور[1].

دخول كتب الاعتزال اليمن:

وقد حفظت لنا مكتبات اليمن الكثيـر من مؤلفات المعتزلة. ويرجع الفضل الأكبر فى احتفـاظ اليمن بهذا التراث إلى الإمام المنصـور بالله عبد الله بن حمـزة بن سليمان المتوفى ٦١٩ هـ أحد أئمة الزيدية المجتهدين. وصاحب المصنفات المعتبرة فى فقه الزيدية وعقـائدهم أرسل دعـاته إلى خارج اليـمن لاستـجلاب الكتب والمصنفـات التى توافق مذهب الزيدية وعـقائدهم، وهو مشروع كـان قد بدأه الإمام المتوكل على الله أحـمد بن سليمان المتـوفى ٥٦٦هـ الذى خرج فى عصره كتب المعتـزلة من العراق إلى اليمن وهو القاضى ابن أحمد بن عبد السلام شيخ الزيدية. وقد كان فى أول أمره يرى رأى المطرِّفية فرقة من الزيدية الغـلاة تنسب إلى شيخها مطرف بن شهـاب ظهرت فى النصف الثانى من القرن الرابع الهجـرى جاء بهم المنصور بالله عبد الله بن حمـزة. وقد رجع القاضى جعـفر عن مـذهب المطرفيـة. وكان قدم إلى الإمـام أحمـد بن سليمـان كتاب يـعلمه بوصوله، فوصل إليه ومـعه كتب غريبة حسنة، فسر به الإمام وتلـقاه وأخلى له موضعا فى منزله، ولما أراد البيهقى الرجوع إلى العراق «رحل معه القاضى جعفر بن عبد السلام لتمام القراءة، فمات البيهقى فى تهامة فنفذ القاضى إلى تلميذ البيهقى (فى العراق) وهو القاضى أبو الحسن أحمد بن أبى الحسن بن علي الكنى المتوفى فى حدود سنة ٥٦٠هـ. فقرأ عليه كتب الأئمة ومصنفاتهم» وعاد القاضى جعفر بعد ذلك إلى اليمن بالعلوم التى لم يصل بهـا سـواه، من علم الأصـول والفـروع والمعـقول والمسـمـوع وعلوم القـرآن العظيم[2].

(١) باب ذكر المعتزلة من كتاب المنية والأمل فى شرح كتاب الملل والنحل لأحمد بن يحيى المرتضى.
(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ١١ مقدمة المحقق.

ثم هناك بعض النصوص التى تتحدث عن هوى الزيدية الذى كان يهزها شوقا إلى فكر المعتزلة والاعتزال وكان ذلك من فضل الله على المعتزلة ليبقى ذكرها على التاريخ مشهودا بعدما أتت على آثارها ومآثرها يد الدهر العابثة. فكانت «الحكمة اليمانية» وفق قول الرسول ﷺ فى وصف أهل اليمن هى سفينة نوح التى رست على الجودى لتحفظ تراث المعتزلة. وفى دخول كتب المعتزلة إلى اليمن يذكر صاحب أنباء الزمن كيف دخلت كتب المعتزلة وكيف أقبل عليها الزيدية وما سبب ذلك من الصراع بين المذاهب المختلفة فى اليمن بقوله[1]:

«وفى أيام الإمام أحمد بن سليمان استوقف بدعة المطرفين ومذهبهم الردىء، وكان ذلك أول مدة الإمام، وخرجت كتب المعتزلة من العراق إلى اليمن على يد القاضى جعفر بن عبد السلام، لما سافر إلى تلك الجهة، فمن ذلك الوقت ظهر واشتهر مذهب المعتزلة وكتبهم فى اليمن، وتمسك به أيضا المطرفية، وتابعوا أبا القاسم البلخى، وسائر الزيدية المخترعة تابعوا أبا هاشم[2]، وكان قبل ذلك غير معروف فى اليمن بين أئمة أهل البيت وغيرهم من سائر العرب، وإنما كانت معرفة علمائهم المعرفة الجميلة (كذا) من التمسك بالكتاب وصحيح السنة، وهو الذى كان عليه السلف الصالح».

ومن هذا يتضح أثر القاضى جعفر فى نشر كتب المعتزلة فى اليمن، وما قام به الإمام عبد الله بن حمزة من الهمة فى استجلاب هذه المصنفات ونسخها والعناية بحفظها، وتوسعه فى إرسال الدعاة إلى موطن آخر من مواطن المعتزلة فى بلاد الجبل والديلم التى كانت فى هذا الوقت تزخر بعلماء الزيدية ومصنفاتهم فعادوا ومعهم طائفة من مؤلفات القوم هناك فى علوم الكلام والفقه والأصول.

ومن هذه المجموعات، تكون لدى هذا التراث القيم من مصنفات المعتزلة النادرة، وإن كنا لا ننسى أن المعتزلة فى العالم الإسلامى بعد محنتهم وإحراق مصنفاتهم واضطهادهم، لم يجدوا صدرا حانيا عليهم إلا بلاد اليمن التى تشاركهم فى أفكارهم وعقائدهم، خاصة الزيدية.

---

(١) أنباء الزمان ورقة ٥٣.

(٢) هو أبو هشام عبد السلام بن أبى علي الجبائى من كبار مشائخ المعتزلة، توفى سنة ٣٢١هـ من رجال الطبقة التاسعة، ولعلي فهمى خشيم دراسة عن «الجبائيين أبى علي وأبى هاشم».

العدلية:

أما جدل الزيديين حول تسمية الزيدية بالعدلية فهى نسبة إلى مصطلح اعتزالى النشأة، فقد عرفهم التاريخ بأهل العدل والتوحيد والجدل حول ذلك يباعد الحق ويدانى الباطل،والتاريخ قاضى محكمة الأموات. وعلى أى حال قد عرضنا ما عرضناه وألفينا فيما ألفيناه أن النصوص التى تهاجم واصلا والمعتزلة تنحصر فى تعلم زيد على واصل وتلك قضية شأن كل القضايا لها خصوم ولها مناصرون وفيصلها التاريخ وقد أتينا على شواهد منه وهى أبعد تاريخا من الشهرستانى الذى وقفوا عنده وهى نصوص تاريخية تتجاوز الرؤية المذهبية وعصبية التحيز. أما موقفهم من المعتزلة ـ إن نحينا قضية زيد وواصل جانبا ـ فهو موقف يغبطهم التاريخ عليه فهم الذين أول من دون فى علم الكلام، وأول من وقف دون الزنادقة، وأول من وضع أصول علم الكلام، وأول من وضعوا إطار منهجه[1].

ويرى مونتجمرى وات أن فكرة العدل حسب تسمية المعتنقين لها لم تقع إثارتها لا فى عهد الرسول ﷺ ولا فى عهد الخلفاء الراشدين وإنما أثيرت عندما وقعت الفتنة الكبرى وما تلاها من أحداث؛لأن الرعيل الأول من المسلمين كانوا يؤمنون بتوفيق الله لهم ويعيشون فى جو امتلأ بحرارة الإيمان وصدق اليقين.

- إن واصل بن عطاء كان له الفضل الأكبر في بلورة نظرية التكليف وبيان حقيقتها والكشف عن عناصرها فنزه المكلف عن الظلم والجور وحمل المكلف مسئولية الفعل وبين أنواع الأفعال التى يتناولها التكليف ثم أبرز الغرض من التكليف وثمرته.
- إن قول واصل بالعدل معناه الإيمان بالحرية حرية الفكر وحرية القول وحرية العمل.
- إن القائلين بالعدل هم أول من أدخل فى الإسلام عمل الفكر بل هم أول من احتكم إلى العقل واستخدموه فى تفسير النص القرآنى، ويظهر ذلك بصورة جلية فى الأدلة التى ساقها دعاة العدل وخاصة واصل بن عطاء ولذلك نقم عليهم السلف وشبهوا عملهم بعمل إبليس اللعين واتهموهم بالابتداع فى الدين والكفر المخرج من الإيمان[2].

---

(١) طبقات المعتزلة وفضل الاعتزال ص ١٠. (٢) القضاء والقدر ص٥٠ مونتجمرى وات ترجمة.

الباب السادس

الإمامة بين حق الأمة والقول بالحق الإلهى

الفصل الأول

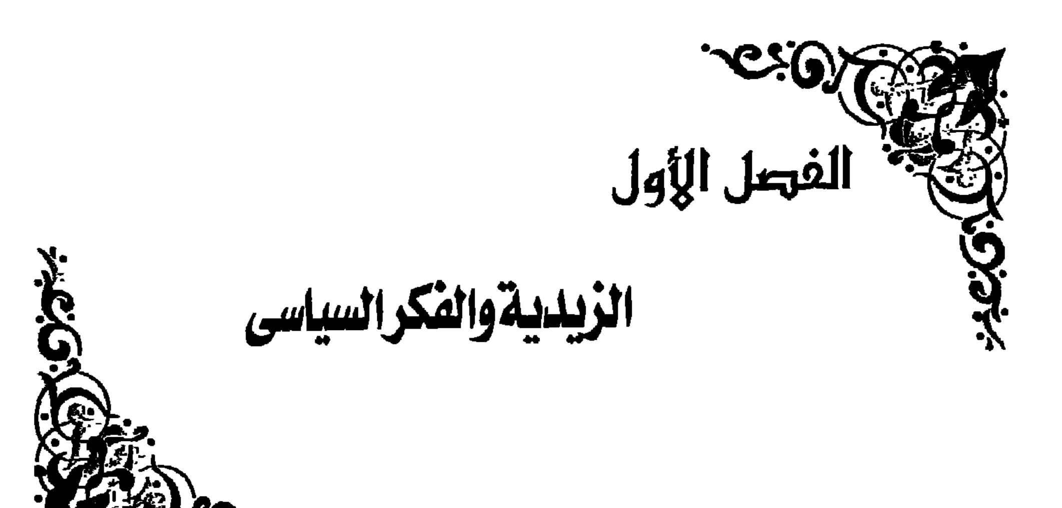
الزيدية والفكر السياسى

الفصل الثانى

طبقات رجال المذهب الزيدى

الفصل الثالث

الأصول العقدية عند الزيدية



الفصل الأول

الزيدية والفكر السياسى

لم يختلف المسلمون فى مسألة خاصة بهم مثلما اختلفوا فى مسألة الإمامة، مما أدى إلى وقوع الحروب بينهم. فيعتبر ابن تيمية[1] الإمامة أهم مطالب الدين وأشرف مسائل المسلمين، أما الشهرستانى فيقول[2]: إنه ما سل سيف فى الإسلام على قاعدة دينية مثلما سل على الإمامة، ويضيف الأشعرى قوله[3]: إن أول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين بعد نبيهم ﷺ اختلافهم فى الإمامة. ويعتقد الزيدية أن مسألة الإمامة من أعظم مسائل أصول الدين، وقد أوضحوا اختصاصات الإمام بأنها: النظر فى مصالح المأمومين، وإحصاء الحكام بينهم، وإقامة الحدود فيهم، ومجاهدة الأعداء، وتولية القضاء، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[4]، ووضعوا أوصافا يجب اجتماعها فى الإمام وهى: أن يكون ذكرا، بالغا عاقلا، مسلما، عالما بالأمور التى يحتاج فيها إلى الإمام، وأن يكون عدلا شجاعا، ضابطا غير خوار ولا جزوع، سخيا يبذل الأموال فى مواضعها، وأن يكون أفضل الناس أو كأفضلهم، وأن يكون سليما من الآفات[5] وقد

---

(١) ابن تيمية: منهاج السنة النبوية ج١ ص ٢٣.

(٢) الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ٢٥.

(٣) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج١ ص ٣٩.

(٤) الصاحب بن عباد: نصرة المذاهب الزيدية ص ١٢١ (تحقيق د. ناجى حسن، الطبعة الأولى ١٩٨١، الدار المتحدة للنشر، بيروت - لبنان).

(٥) الهارونى: كتاب فى نصرة المذاهب الزيدية ص ٥٥ (مخطوط)، الصاحب بن عباد: الزيدية ص ١٨١ وما بعدها (تحقيق: د. ناجى حسن، طبعة الدار العربية للموسوعات، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٩٨٦ م).

ساق الزيدية الإمامة على مذهبهم فيها، وأنها اختيار أهل الحل والعقد لا بالنص[1].

أصول الإمامة عند الزيدية:

يختلف رأى الزيدية فى الإمامة عن بقية الشيعة وأول هذه الأصول هى:

١- إمامة المفضول مع وجود الأفضل[2]:

يوضح لنا الجاحظ مقياس الفضل عند الزيدية بقوله[3]: أما مقياس الفضل عندهم فهو العقل دون غيره، والفضل عندهم أربعة أقسام: **أولها**: القدم فى الإسلام، حيث لا رغبة ولا رهبة إلا من الله وإليه، **وثانيها**: الزهد فى الدنيا والرغبة فى الآخرة، **وثالثها**: الفقه الذى به يعرف الناس مصالح دنياهم ومراشد دينهم، **ورابعها**: المشى بالسيف، فمن وجدت فيه هذه الصفات وجب تفضيله وتقديمه.

غير أن إمامة المفضول لدى الزيدية ليست قاعدة عامة، وإلا لسقط مبرر الخروج، وإنما قال بها الإمام زيد لشرعية خلافة أبى بكر، ولإسقاط دعوى الطاعنين فيها[4].

٢- أن يكون الإمام من أولاد فاطمة:

يرى زيد بن علي حصر الإمامة فى أولاد فاطمة، ولا تجوز إمامة غيرهم[5]،

---

(١) الباقلانى: التمهيد فى الرد على الملاحدة والمعطلة والرافضة والخوارج والمعتزلة ص ١٧٨ (تحقيق: محمود محمد الخضيرى ومحمد عبد الهادى أبو ريدة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧ م)،الآمدى: غاية المرام فى علم الكلام ص ٣٧٧ (تحقيق: محمود حسن عبد اللطيف الشافعى، القاهرة ١٣٩١ هـ/ ١٩٧١م)، ابن خلدون: المقدمة ص ٢٠٠، العبر ج١ ص١٦٧. الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص٥٠.

(٢) الأشعرى: مقالات الإسلاميين ج٢ ص ١٥١، الملطى: التنبية والرد ص ٣٩، ابن حزم: الفصل ج٤ ص١٢٦، الأصول والفروع ج٢ ص ١٢٧ (طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

(٣) رسائل الجاحظ ج٤ ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢.

(٤) كتاب فى نصرة المذاهب الزيدية ص ٢٩ (مخطوط) بمعهد المخطوطات تحت رقم (١٩٧) ملل.

(٥) يحيى بن الحسين: رسائل العدل والتوحيد ج٢ ص ٧٦، ابن النديم: الفهرست ص ٢٥٣،العلوى: سيرة الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين ص ٧ (مخطوط)، ابن أبى الحديد: شرح نهج البلاغة ج٩ ص ٨٧.

وجوزوا أن يكون كل فاطمى عدلا زاهدا شجاعا سخيا، خرج بالإمامة أن يكون إماما واجب الطاعة. سواء كان من أولاد الحسن أو أولاد الحسين[1]، وسار أكثر علماء الحديث والفقهاء على هذا المذهب، منهم سفيان بن عيينة والثورى[2].

وتعتقد الزيدية أن الإمامة لعلي بن أبى طالب ثم للحسن والحسين، وهى بعد ذلك فى أولادهما من أى الفرعين الحسن والحسين[3].

ويرجع الإمام يحيى بن الحسين[4] السبب فى اشتراط زيد بن على كون الإمام فاطميا إلى أنه يرى أن أبناء فاطمة الزهراء سيقيمون أكثر من غيرهم عمود الدين وسنن الإسلام.

٣ - القول بعدم عصمة الأئمة:

أدى عدم فرض الإمام زيد للخلافة بالوراثة وبالإيصاء من النبى ﷺ إلى القول بعدم عصمة الأئمة[5]، وخالف بذلك قول الإمامية بعصمة الأئمة الذين يسمونهم الأوصياء[6]. ولم يناد الأئمة أبدا بعصمتهم، ولكن أتباعهم فى الكوفة والمدينة فعلوا ذلك رغم استنكار الأئمة لهم، وقد كان علي بن الحسين والد الإمام زيد يقول[7]: يا أيها الناس أحبونا حب الإسلام. فما برح بنا حبكم حتى صار علينا عارا، وحتى بغضتمونا إلى الناس».

وعلى كل حال لم يعد الإمام عند الزيدية ذلك الرجل المعصوم الذى بيده أسرار العلم الخفى ينقلها من إمام إلى إمام.

---

(١) الشهرستانى: المصدر السابق والجزء ص ١٦٠، المقريزى: المصدر السابق الجزء والصفحة.

(٢) ابن النديم: المصدر السابق والصفحة.

(٣) البغدادى: الفرق بين الفرق ص ٢٣٢ ـ ٢٣٣، الشهرستانى: المصدر السابق الجزء والصفحة، ابن خلدون العبر جـ ص ١٦٧.

(٤) يحيى بن الحسين: المصدر السابق والجزء ص ٧٧.

(٥) الأشعرى: المصدر السابق والجزء ص ١٣٦، الصاحب بن عباد: الزيدية ص ١٥٩، ١٨٥، نصرة المذاهب الزيدية ص ١٢٩.

(٦) الأشعرى: المصدر السابق والجزء ص ١٢١، الصاحب بن عباد: المصدر السابق ص ١٥٩، ١٨٧.

(٧) الزبيرى: نسب قريش ج٢ ص ٥٨، ابن تيمية: المصدر السابق والجزء ص ١٢٣، ابن كثير: البداية والنهاية. ج ٩ ص ١٠٤.

٤ - شرط الخروج فى صحة الإمامة:

اشترط الإمام زيد لاستحقاق الإمام من آل البيت أن يخرج داعيا لنفسه، ولم يقل بالتقية التى كان آل البيت قد التزموا بها بعد مقتل الحسين بن علي، وبهذا يتبين أن الفرق بين الإمام زيد وغيره من الشيعة الإمامية فى عصره أنه يشترط خروج الإمام داعيا[١]، ولم يشترط الإمامية الخروج؛ لأن تولى الإمامة عندهم بالإيصاء لا بالاختيار من أهل العقد[٢].

٥ - جواز خروج إمامين فى وقت واحد ووجوب طاعتهما:

قالت الزيدية بجواز خروج إمامين فى وقت واحد فى قطرين، ويكون كل واحد منهما واجب الطاعة[٣] وقد احتج أنصار هذا الرأى على المنكر لهم بقولهم: إن النبوة أعظم قدرا من الإمامة وقد تعدد الأنبياء فى الزمن الواحد[٤].

ويرى القائلون بقيام إمامين فى وقت واحد أن ينظر إلى الأفضل والأزهد، وإن تساويا ينظر إلى الأمتن رأيا والأحزم أمرا، وإن تساويا تقابلا فينقلب الإمام مأموما والأمير مأمورا، ولو كان فى قطرين انفرد كل واحد منهما بقطره ويكون واجب الطاعة فى قومه، ولو أفتى أحدهما بخلاف ما يفتى الآخر، كان كل واحد منهما مصيبا، وإن أفتى باستحلال دم الآخر[٥]، وقد تهكم الشهرستانى على هذا الرأى بقوله[٦]: «وهذا خبط عظيم».

وفى الوقت نفسه يرفض بعض الزيدية القول بقيام إمامين فى وقت واحد، ويرون ضرورة أن يكون الإمام واحدا فى كل زمان[٧].

---

(١) ابن قتيبة الدينورى: المعارف ص ٦٢٣، ابن حزم: الفصل ج٤ ص ٧٧، الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ٣١، ابن خلدون: العبر ج١ ص ١٦٥، المقدمة ص ١٩٧، ١٩٨.

(٢) النوبختى: فرق الشيعة ص ٦٥.

(٣) المحلى: الحدائق الوردية ج ٢ ص ٣٤، ٣٥ (مخطوط) بدار الكتب، الشهرستانى: الملل والنحل ج١ ص ١٦٠، ١٦٦، ج٢ ص٢، القدسى: الرد على الرافضة ص ٧٢.

(٤) أحمد عبد الله عارف: الصلة بين الزيدية والمعتزلة ص ٣٣٣ (دار آل، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧ م).

(٥) الشهرستانى: المصدر السابق والجزء ص ١٦٦، ج٢ والصفحة.

(٦) الشهرستانى: المصدر السابق ج١ص ١٦٦.

(٧) الصاحب بن عباد: نصرة مذاهب الزيدية ص ١٥٣ وما بعدها، الزيدية: ص ٢١٩ وما بعدها.

ويبدو أن الذى قال بهذا الرأى هم الزيدية الذين جاءوا بعد زيد بن علي، وذلك عندما خرج الناصر الأطروش فى بلاد الديلم وطبرستان، وقام يحيى الهادى فى اليمن[1].

يقول الصاحب بن عباد فيما يتعلق بخروج إمامين فى وقت واحد: «فأما ما يحكى عن الناصر للحق الحسن بن علي فى هذا الباب، فظاهره لا يقتضى القول بجواز كون إمامين فى وقت واحد؛ لأن المحكى عنه فى ذلك أن اثنين من أفاضل أهل البيت - عليهم السلام - إذا كانا فى طرفين متباعدين وادعيا، فعلى من قرب من كل واحد منهما من الناس أن ينصره إلى أن يتقاربا، فيتسلم أحدهما الأمر من صاحبه[2]. لئلا يضيع القيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وهذا غير بعيد لأنه يمتنع أن يقوم كل واحد منهما بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فقط داعيا إلى الرضا من آل بيت الرسول ﷺ، ثم يسلم الأمر من الأولى منهما»[3]. وصفوة القول فقد حاول زيد بن علي أن يرد المذهب الزيدى إلى أصوله فى عهد علي بن أبى طالب، فعلي لم يعتبر نفسه وارثا للخلافة، ورضى ما اختاره المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة، وأثنى على الإمامين أبى بكر وعمر، ورفض أن يذكرهما إلا بخير، وقتل زيد شهيدا فى سبيل تنفيذ هذه الآراء، وقد تخلى عنه الشيعة لهذا السبب، وسمى من تخلى عنه بالرافضة.

نصب الإمام[4]:

ذهب جمهور الأمة إلى وجوب نصب الإمام فى كل وقت، وفيهم من قال:

لا يجب نصبه، أما القائلون بالوجوب، فمنهم من جعل الطريق إليه العقل، وهم السبعية[5] والاثنا عشرية، أما السبعية فزعموا أن الحاجة إلى الإمام ليستفاد منه معرفة الله تعالى وما يجب له، وما يجوز ويستحيل، وأما الاثنا عشرية فزعموا أنه لا حاجة إليه فى معرفة الله تعالى، بل يكون لطفا فى أداء الواجبات العقلية والشرعية،

(١) فضيلة الشام: تاريخ الفرقة الزيدية ص ٢٨٣.

(٢) الحياة السياسية والفكرية للزيدية ص ٦٠.

(٣) الزيدية ص ٢٢٠.

(٤) المعالم الدينية فى العقائد الدينية (الإمام يحيى بن حمزة رأينا الرجوع إليه كأصل ومصدر مع كتب زيدية أخرى لضمان الثقة فى عرضى لموضوع الإمامة فهو النقطة الجوهرية فى الشقاق الشيعى وسيا فى ظهور (رافض وروافض).

(٥) السبعية هم الشيعة الإسماعيلية وقد سموا بالسبعية لتقديسهم للعدد (٧).

واجتناب المقبحات العقلية والشرعية، ومنهم من قال: طريق وجوبه السمع، وهم الأشعرية، وأكثر المعتزلة، ومنهم من قال: طريق وجوبه العقل والشرع وهم الجاحظ[1] والكعبى[2] وأبو الحسن البصرى[3]، وهؤلاء لا يجعلونه لطفا فى الدين كما زعمته الإمامية، ولهذا لا يقولون بوجوب نصبه على الله تعالى، بل يقولون: إن نصبه يندفع به ضرر كثير عن الخلق، فيجب عليهم نصبه لدفع الضرر، وأما القائلون بعدم الوجوب، فهم الأصم[4] وهشام[5] الغوطى والنجدات من الخوارج، أما الأصم فقال:

لا يجب نصبه فى كل وقت، وإنما يجب نصبه عند ظهور الظلم، وأما هشام فقد عكس الأمر، وقال: لا يجب نصبه عند ظهور الظلمة؛ لأنهم ربما قتلوه لاستنكافهم عن الدخول فى طاعته، فيصير زيادة فى الفتنة، ويجب نصبه عند الإنصاف لإظهار أحكام الشريعة، وأما النجدات فإنهم لا يوجبون نصب الإمام فى شيء من الأحوال، والمعتمد فى إيجابه شرعا وجهان:

أحدهما ـ أن نقول: أجمعت الأمة على أنه لا يتولى إقامة الحدود إلا الإمام أو من يتولى من قبله، والله قد أمر بإقامة الحدود كحد السارق والزانى والقاذف، وإذا لم يمكن إقامة الحدود إلا بواسطة الإمام كان الأمر بإقامة الحدود أمرا بنصب الإمام؛ لأن ما لا يتم الواجب إلا به كان مقدورا للمكلف فإنه يكون واجبا.

وثانيهما ـ أن الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ أجمعوا على ذلك لما روى أنه ﷺ لما توفى خطب الناس أبو بكر وقال: أيها الناس من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت، لابد لهذا الأمر من يقوم به، فانظروا وهاتوا آراءكم، رحمكم الله، فبادروا من كل جانب صدقت، ولم يقل أحد

---

(١) هو أبو عثمان بن عمرو بن بحر الجاحظ، مال الجاحظ إلى الاعتزال وتتلمذ على يد النظام وتوفى عام ٢٥٥ هجرية. معجم الأدباء لياقوت ١٦/ ٢٩٠.

(٢) المرجع السابق.

(٣) هو محمد بن على الطيب المتكلم البصرى، من أئمة شيوخ المعتزلة والمتصرين لمذهبهم، وقد صنف كتبا للدفاع عنهم، ولد بالبصرة واشتهر بنسبته إليها. توفى عام ٤٣٦ هـ. (معجم أعلام الفكر الإنسانى، تصدير الدكتور إبراهيم مدكور، ص ٣٦٣).

(٤) هو أبو بكر بن عبد الرحمن كيسان الأصم المعتزلى توفى حوالى ٢٧٩ ـ ٨٩٢ م له مؤلفات كثيرة أهمها كتابه فى التفسير. (معجم أعلام الفكر الإنسانى، تصدير د. إبراهيم مدكور، ص ٣٤٠).

(٥) هو هشام بن عمر الفوطى أخذ الاعتزال عن معمر بن عباد السلمى، (نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام، د. النشار، ص ٢٦٦).

منهم لا حاجة إلى الإمـام، ثم بكروا إلى السقيفة للاشتـوار، وتركوا أهم الأشياء وهو دفن رسول الله ﷺ، وكل ذلك يدل على وجوب نصب الإمام، وعلى الجملة، فجلهم واجتهادهم عقب موت كل إمام يدل على اعتقادهم وجوب نصب الإمام على الفور.

تولية الإمام:

اتفقت الأمة على أن الرجل لا يصير إماما بمجرد صلاحيته للإمامة، واتفقوا على أنه لا مقـتضى لثبوتـها إلا أحد أمور ثلاثة: النص والاخـتيار والدعـوة، وهى أن يبايع الغلبة من هو أهل للإمامة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويدعو إلى اتباعه، واتفقوا على كون النص من جـهة الرسول ﷺ طريقا إلى إمامة المنصـوص عليه، واختلفوا فى الطريقـين الآخرين، فـالإمامـية اتفـقت على بطلانهمـا، وذهبت المعتـزلة والأشعـرية والخوارج والزيديـة الصالحيـة إلى أن الاختـيار طريق إلى ثبـوتها، وذهبت الزيدية غـير الصالحـية إلى أن الدعوة طريق الإمامـة، ووافقهم عليه الجـبائى من المعتزلة وأبـو حامد الغزالى، أما النص فسـيأتى تقديره ولم يبق إلا الاختيار أو الدعوة، فـإذا بطل الاختيار ثبت ما نقـوله من أن الدعوة طريق الإمامـة والذى يدل على بطلان الاختيـار، أن كون الاختـيار طريقا إلى ثبوت الإمـامة حكم يثبت بالشـرع ولا دلالة من جهة الشـرع عليه فوجب سقوطه، والذى يتصور فـيه من الأدلة الإجماع، ومن أنصف عرف أن مثل هذا الإجماع الذى وقع الشجـار والتفرق فيه والاختلاف لا يمكن أن يقـضى بمثله فى مسألة ظنية، فضلا عن أعظم الأشياء وأخطرها وهى الإمامة.

شرعية ولاية الإمام على:

بالطرق المنصوصـة وهى ثلاثة: الطريقة الأولى قـوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾ [المائدة]، والاستدلال بها يبنى على أمور ثلاثة:

أولها: أن لفظة الولى محتملة للأولى بالتصرف.

وثانيها: أن هذه اللفظة فى هذه الآية محتملة متعينة لهذا المعنى.

وثالثهـا: أنه يلزم من هذه المقدمات أن يكون على أولى بـتدبير الأمة والتـصرف فيها، وذلك معنى كونه إماما.

أما بيان الأول وهو أن لفظة الولى محتملة للأولى بالتصرف فللنقل والعرف، أما النقل فإن المبرد قال فى معنى الولى: إنه الأولى الأحق، وقال الكميت[1]:

ونعم الولى الأمر بعد وليه ومستجمع التقوى ونعم المؤدب

أراد القائم بالتصرف، وأما العرف فإنه يوصف أخو المرأة بأنه وليها لما ملك العقد عليها، ويقال: فلان ولى الدم إذا كان أحق بالتصرف فيه.

وأما بيان الثانى: وهو أن هذه اللفظة من هذه الآية متعينة لهذا المعنى، فهو أنها تطلق على ما ذكرنا من الأولى بالتصرف، وعلى الناصر أيضا، فإذا ثبت لنا تعذر حملها على الناصر تعين حملها على الأولى وهو الأحق، أما بيان تعذر حملها على الناصر فلوجهين:

أحدهما: أن الولاية بمعنى النصرة عامة فى حق المؤمنين لقوله تعالى:

﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... (٧١)﴾ [التوبة: ٩/ ٧١]، والولاية المذكورة فى هذه الآية خاصة؛ لأنه تعالى خص ذلك بأنها فى المؤمنين الموصوفين بالصفات المذكورة وليس كل المؤمنين موصوفين بتلك الصفات؛ لأن قوله تعالى: ﴿...وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥)﴾ [المائدة] إما أن يكون حالا أو استئنافا، والاستئناف باطل؛ لأن القائل إذا قال: رأيت زيدا وهو راكب، تبادر إلى الفهم أنه رآه حال كونه راكبا وذلك يدل على أنه ليس حقيقة فى الاستئناف، فيجب أن يكون فى الحال، معنى الآية: إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا والذين من شأنهم إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وهم الآن راكعون، ومعلوم أن كل الأمة ما كانوا راكعين حال نزول الآية، فثبت ما ذكرناه من أن الولاية بمعنى النصرة عامة، وأن الولاية فى الآية غير عامة، وأحدهما مغاير للأخرى.

وثانيهما: هو أن كون المؤمنين بعضهم أولياء بعض بمعنى النصرة أمر ظاهر لا حاجة به إلى البيان، فحمل الآية على المعنى الآخر أولى، فثبت أنه لا يمكن حمل الولى المذكور فى الآية على الناصر، فوجب حمله على الأحق.

---

(١) هو أبو المستهل الكميت بن زيد الأسدى المضرى الكوفى، كان من أعلم أهل زمانه باللغة، قال الشعر الجيد،تشيع لبنى هاشم وتكسب بالشعر، مدح كبار بنى هاشم والسادات من العلويين، وأصبح لهم ودافع عنهم. توفى عام ١٢٦ هـ.
تاريخ الأدب العربى للأستاذين: أحمد أمين، على الجارم، ص ٢١٥.
الزيدية نظرية وتطبيق، ص٢٠٠ د. أحمد صبحى.

وأما بيان الثالث: وهو أنه يلزم مما ذكرناه إمامة أمير المؤمنين فله وجوه ثلاثة:

أولها: أنه لما ثبت أن المراد من هذه الآية إثبات كون بعضه متصرفا[1] فى الأمة - ولا معنى للإمام إلا المتصرف - لزم دلالة هذه الآية على إمامة بعض الناس وقد أجمعت الأمة على أن هذه الآية لا تقتضى غير إمامة أمير المؤمنين علي بن أبى طالب، فلو لم تقتض أيضا إمامته، لزم تعطيل الآية، وأنه غير جائز، فلا بد من الجزم بدلالة هذه الآية على إمامته.

وثانيها: أن الأمة مجمعة على أن عليا مراد بهذه الآية، وإنما اختلفوا فى غيره، هل هو مراد بها أم لا؟ ومتى ثبت اقتضاء الآية الإمامة وثبت بالإجماع اندراج علي تحتها ثبت أنه إمام؛ لأن غيره لو اندرج تحت الآية لكان إماما.

وثالثها: أن المفسرين اتفقوا على نزول هذه الآية فى حق علي بن أبى طالب، فوجب أن يكون المراد بها إياه لا غير، فهذا تحرير وجه الاستدلال بهذه الآية.

الطريقة الثانية: التمسك بقوله - عليه الصلاة والسلام - يوم الغدير وقد أحضر الناس: ألست أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: بلى. فقال: «من كنت مولاه فعلى مولاه اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه[2] واخذل من خذله، وانصر من نصره». والاستدلال بهذا الحديث يبنى على أصلين أحدهما يصحح الحديث، والثانى دلالته على إمامته».

أما الأصل الأول فالشيعة من الإمامية تارة يدعون كونه متواترا من كل المسلمين عامة، ومن[3] الشيعة خاصة، وتارة يصححونه بالحجة من وجهين:

أولهما: أن الأمة أجمعت على صحة هذا الحديث فيكون صحيحا، وإنما قلنا: إن الأمة أجمعت على صحة هذا الحديث؛ لأن الشيعة يثبتون به إمامته وسائر الفرق يثبتون به فضله، وليس فى الأمة أحد أنكره ورده، فإذا قبلته الأمة بأسرها وجب أن يكون صحيحا.

---

(١) فى الأصل (منصرف).

(٢) ورد هذا الحديث فى الجامع الصغير للسيوطى ٢/ ١٨٠ - ١٨١، قال السيوطى، رواه الترمذى والنسائى وابن حنبل وابن ماجه. كما ورد الحديث فى مجمع الزوائد للهيثمى ٩/١٠٣ - ١٠٩.

(٣) فى الأصل: وأما من.

وثانيهما: أن عليا ذكره فى الشورى عند مجادليه لذكر فضائله ولم ينكره أحد، فعدم إنكارهم لذلك - مع علم من يتوفر الدواعى على القدح فيما يفتخر به الإنسان على غيره - دليل على صحته.

وأما الأصل الثانى: من دلالته على الإمامة فهو مبنى على ثلاثة أمور:

أولها: أن لفظة المولى محتملة للأولى فى الجملة.

وثانيها: أنها متعينة له ها هنا.

وثالثها: أنه يلزم من ذلك القول بإمامته.

أما بيان الأول: وهو أن لفظة المولى محتملة للأولى في الجملة فالكتاب والسنة والشعر والنقل، أما الكتاب، فقوله تعالى: ﴿ ...مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ ... (١٥) ﴾ [الحديد]. قال أبو عبيدة: معناه أولى بكم، وقوله تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ... (٣٣) ﴾ [النساء]. ولاخلاف بين المفسرين، أن المراد به من كان أولى بالميراث وأحق به، وأما السنة فقوله - عليه السلام: «أيما امرأة[1] نكحت بغير إذن مولاها»، فى بعض الروايات[2]، ولا يصح حمل المولى ها هنا على غير المالك لتدبير أمرها والعاقد عليها، وأما الشعر فقول الأخطل[3]:

فأصبحت مولاها من الناس بعده

أى أولى بها وأحق، وقال غيره[4]:

كانوا موالى حق يطلبون به | فأدركوه وما كلوا[5] ولا تعبوا

(١) جاء فى تيسير الوصول ص ٢٦٣ الجزء الرابع، عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «أيما امرأة نكحت بغير إذن وليها فإن نكاحها باطل» ثلاث مرات.

(٢) وفى رواية أخرى: «بغير إذن وليها».

(٣) هو أبو مالك غياث الأخطل بن غوث التغلبى النصرانى من عرب الجزيرة الفراتية، ولد فى أوائل خلافة عمر ونشأ شاعرا هجاء توفى عام ٩٥ هـ. (تاريخ الأدب العربى الأستاذين أحمد أمين، علي الجارم، ص ٢٠٨).

(٤) رجعت إلى كثير من كتب الأدب واللغة فلم أجد فيها ذكر لهذا البيت. راجع على سبيل المثال لسان العرب، الحيوان، البيان والتبيين، العقد الفريد.

(٥) فى الأصل: (وماقلوا).

أى أولى به. وقال لبيد[1]:

فعدت كلا الفرجين تحسب أنه مولى المخافة خلفها وأمامها[2]

أى أولى بالمخافة، وقال غيره[3]:

لم يأمروا فيه أن كانوا مواليه

أى أولى به، وأما النقل فما ذكرناه عن أبى عبيدة، وقال الفراء[4]: الوالى والمولى واحد، وقال المبرد[5]: تأويل الولى الأولى، وصلة الولى واحد وهو المتولى للأمور، وقال ابن الأنبارى[6]: الأولى المولى الأولى بالشىء، وقال أبو عمر فى بيت الحارث بن حلزة[7]:

اعلموا أن (كل)[8] من ضرب العير مولى لنا وأنا الولاء[9]

---

(١) هو لبيد بن مالك بن صعصعة العامرى الصحابى الجليل - رضى الله عنه - كان فى الجاهلية شريفا جوادا شجاعا شاعرا، أدرك الإسلام وأسلم، وأكثر شعره قاله قبل الإسلام فلما أسلم لم يقل إلا قليلا. وهو شاعر بدوى يصف فى شعره حياة بدوية صحراوية، وهو أحد شعراء المعلقات السبع الطوال الجاهليات. تاريخ الأدب العربى للأستاذين أحمد أمين، على الجارم، ص ٩٧.

(٢) شرح المعلقات السبع لأبى عبد الله الزوزنى ص١٢٦.

(٣) لم أجد ذكرا لهذا البيت فى كثير من كتب الأدب التى رجعت إليها.

(٤) هو يحيى بن زياد الفراء فقيها شاعرا عالما بالطب والنجوم متكلما يميل إلى الاعتزال، وكان يتفلسف فى كتبه مستعملا فيها ألفاظ الفلاسفة (معجم الأدباء لياقوت ٢٠/ - ١٣).

(٥) هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر أبو العباس النحوى المعروف بالمبرد توفى عام ٢٨٥ هـ (معجم الشعراء للمرزبانى، ص ٢٩٠).

(٦) هو أبو بكر محمد بن القاسم المعروف بابن الأنبارى نسبة إلى الأنبار، وهى مدينة على الفرات فى غربى بغداد، كان إماما فى اللغة والنحو والأدب والقراءات والتفسير وعده الزبيدى فى الطبقة السادسة من نحاة الكوفة أصحاب ثعلب (أبى العباس أحمد بن يحيى ثعلب (٢٠٠هـ - ٢٩١هـ) قيل عنه أنه كان يحفظ ثلاثمائة ألف بيت شعر فى القرآن بأسانيدها ويذكرون أنه كان يحفظ عشرين ومائة تفسير من تفاسير القرآن بأسانيدها. (معجم الأدباء لياقوت ١٨/٣٠٦ - ٣١٣).

(٧) هو الحارث بن حلزة اليشكرى من سادات بكر وشاعرها - وبكر وتغلب كانتا قبيلتين متحاربتين - وهو أحد شعراء المعلقات السبع الطوال الجاهليات أنشد هذا البيت فى قصيدته التى ارتجلها بين يدى عمرو بن هند ملك الحيرة فى صلح قام به عمرو بين بكر وتغلب. (تاريخ الأدب العربى ج٤ب للأستاذين أحمد أمين، على الجارم).

(٨) أضيفت (كل) إلى الأصل.

(٩) المعلقات السبع لأبى عبد الله الزوزنى.

فتبين أن المولى ينقسم أقساما منها الولى، فثبت بهذه الوجوه احتمال لفظة المولى للأولى، أما بيان الثانى ـ وهو أن المراد بالمولى فى هذا الحديث الأولى ـ وأنه متعين له فلوجهين:

أولهما: أن ينبئ ذلك على مقدمة الحديث، وهو قوله ـ عليه الصلاة والسلام: «ألست أولى بكم من أنفسكم»؟ وإذا ثبت ذلك فنقول: إن عطف كلام محتمل للأشياء على كلام صريح فى واحد مما يحتمله المعطوف عليه، فإنه لا بد من أن يريد بالمعطوف المعنى إذا قدم التصريح به، وإلا كان ملغزا غير مبين فإن الإنسان لو قال لجماعة: موالى[1] عزة وعبيد وزيد وعمرو وبكر وخالد ألستم تعرفون عبدى زيدا؟ أشهدكم أن عبدى حر، فإنه يفهم منه أنه أراد عبده زيدا دون غيره كذلك ها هنا، فلما قدم ذكر الأولى ثم أردف بذكر المولى المحتمل للأولى وجب أن يكون المراد بالمولى هو الأولى.

وثانيهما: ألا معنى للاستدلال[2] على هذه المقدمة بل نقول: إن لفظة المولى تفيد أحد أمور: المعتق والمعتق[3] وابن العم والجار والحليف والناصر والأولى بالتصرف، ولفظة المولى فى هذا الحديث لا يمكن حملها على ما سوى الأولى بالتصرف فوجب حملها على الأولى، وإنما قلنا: إنه يمتنع حملها على سائر المعانى، أما المعتق فلم يكن ذلك من صفات النبىﷺ، ولا من صفات علي، ولا أراد أيضا من كنت معتقه فعلي معتقه، ولا من كنت مالكا رقبته فعلي مالك رقبته؛ لأنه ﷺ ابن عمه عقيل وجعفر، وعلي لم يكن ابن عم لهما بل كان أخا لهما، ولا يعلم من دينه ضرورة وجوب تولي المؤمنين بعضهم لبعض على ما قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ... (٧١)﴾ [التوبة] فجمع الناس لشرح هذا المعنى وبيانه لا يليق بالنبى ﷺ، وإذا بطلت هذه المعانى تعين حمل المولى على الأولى بالتصرف وهو المطلوب.

وأما بيان الثالث: وهو أنه لما كان المراد من لفظة المولى فى الحديث الأولى كان ذلك دليلا على الإمامة من وجهين:

أحدهما: أن يدعى الأول مطلقا لا يفيد إلا معنى الأولى مقيدا بالتصرف والقيام (فذلك)[4]؛ لأن أهل اللغة لا يستعملون لفظة الأولى إلا فيمن يملك تدبير من وصف

---

(١) فى الأصل: (ولو).

(٢) فى الأصل: (الاستدلال).

(٣) بكسر التاء فى الأولى وفتحها فى الثانية.

(٤) أضيف ـ (فذلك) إلى الأصل.

أنه أولى بالتصرف عليه ونفاذ الأمـر ألا تراهم يقولون: السلطان أولى بإقامة الحدود من الرعية، وولد الميت أولى بميراثه من أقاربه، والزوج أولى بامـرأته، والسيد أولى بعبده، ومرادهم فى جـمع ذلك ما ذكرنا من ملك التـصرف، ولا خلاف بين المفـسرين فى أن قوله تـعالى: ﴿ النَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ... (٦) ﴾ [الأحزاب] أن المراد به أولى بتدبيرهم والقـيام بأمرهم، وإذا ثبت أن المراد بالمولى الأولى بالتـصرف منهم تثبت كونه إماما.

وثانيهما: أنا نسلم[1] على أن لفظة المولى غير متعينة للأولى بالتصرف لكنا نثبت أن المراد بالمولى فى هذا الحديث هو الأولى بالتصـرف؛ لأنه إذا وجب حمل قوله ـ عليه الصلاة والسـلام ـ: «فعلي مـولاه» على الأولى لأجل المقدمة، وجـب أن تحمل المولى على الأولى بالتصرف بالأمـر والنهى لأجل المقدمة لأن قوله ـ عليـه الصلاة والسلام ـ: «ألست أولى منكم بكم من أنفسكم» معناه أولى منكـم بالأمر والنهى، فيجب أن يكون قوله ـ عليـه الصلاة والسلام: «فعلى مـولاه معناه» أولى بهم من أنفسهم فـى التصرف بالأمر والنهى، وإذا تقرر ذلك ثبت أن المراد منه الإمامة.

الطريقة الثالثـة: التمسك بقوله ـ عليه الصـلاة والسلام: «أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى»[2] والاستدلال بهذا الحديث يبنى على أصلين:

الأول: أن هذا الحديث يقتـضى أن نثبت لعلى جميع المنازل الـتى كانت لهارون من موسى.

والثانى: أن من المنازل الثابتة لهارون استحقاقه للقيام مقامه بالخلافة بعد وفاته لو عاش بعده، فوجب أن تثبت ذلك لعلي، وهو المطلوب.

أما بيان الأول: فإنا نسلم على أنه ليس فى الحديث صيغة عموم تدل على ذلك، لكننا نثبت ذلك من وجوه ثلاثة:

أولها: أن الحـكيم إذا تكلم بكلام محـتمل لأشـياء ثم استـثنى بعضـا وهو يريد الإفهام، فإنه يكون مريدا لما عــدا الأشيـاء، فيكون الاستثناء[3] قرينة دالة على أنه أراد

(١) فى الأصل (نساعد).

(٢) ورد هذا الحديث فى مـجمع الزوائد للهيـثمى ٩/١٠٩ برواية أبى سـعيد الخـدرى وقال الهيـثمى: رواه أحمد والبزار، وجاء فى البخارى ٥/١٩ ما نصه أن الرسول ﷺ قال لعلى: «أما ترضى أن تكون منى بمنزلة هارون من موسى».

(٣) فى الأصل: (الاستثنى).

ما عدا المستثنى مما يحتمل اللفظ، كما أن الإنسان إذا قال: من دخل دارى أكرمته إلا زيدا، عرفنا أنه أراد إكرام من عداه إذا أراد الإفهام؛ لأنه لو لم يرد إكرام عمرو لاستثناه كما استثنى زيدا.

وثانيها: أن الحديث لو أفاد منزلة واحدة فقط لما جاز أن يستثنى منزلة النبوة؛ لأن الشيء الواحد لا يمكن أن يستثنى منه، ألا ترى أنه لا يحسن أن يقول القائل: ضربت زيدا إلا عمرا، ويحسن أن يقال: ضربت عبيدا إلا عمرا.

وثالثهما: بأن الأمة فى هذا الحديث على قولين: منهم من قصره على منزلة واحدة، وهى السبب الذى يدعونه من خروج الكلام عليه، وهو أنه ـ عليه الصلاة والسلام ـ لما لم يستصحبه مع نفسه فى غزوة تبوك أرجف المنافقون بأنه إنما تركه بغضا له فشكا ذلك علي ـ عليه السلام ـ إلى النبيﷺ، فذكر النبى ﷺ الحديث إزالة لذلك الوهم، ومنهم من يقول: بأنه يتناول كل المنازل إلا ما خرج بالدليل، والأول باطل لوجوه:

أما أولا: فلأن أكثر الروايات على أن الخبر لم يرد فى غزوة تبوكَ.

وأما ثانيا: فلأن المرجف بأن النبى ﷺ كان مبغضا لعلي ـ رضى الله عنه ـ إن لم يكن مسلما فلا معنى للتأذى منه والرد عليه، وإن كان مسلما فلا يجوز أن يتوهم ذلك مع علمه بأقواله فيه ومحله عنده واعتداده له.

وأما ثالثا: فلأن ما ذكروه من الرواية غير ثابت إلا بالآحاد فلم يفد العلم، وليس فى لفظة الحديث ما يقتضى الاقتصار على هذه الواقعة فإذا امتنع الحكم بصحة هذا القول وإذا كان ذلك وجب صحة القسم الآخر، وإلا كان الحق خارجا عن أيدى الأمة.

وأما بيان الأصل الثانى: وهو أن المنازل لهارون هى استحقاقه للقيام مقامه بعد وفاته فلوجهين:

أحدهما: أنه كان خليفة لموسى فى حال حياته، فيجب بقاء هذه الخلافة بعد وفاته، أما أنه كان خليفة لموسى فى حال حياته فلقوله تعالى حكاية عن موسى لهارون: ﴿ ... اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي ... (١٤٢) ﴾ [الأعراف] وذلك يقتضى حصول الولاية لهارون بقول موسى على سبيل النيابة، وأما أنه يجب بقاء هذه المخالفة لهارون بعد وفاته، فهو أن خلافة موسى لهارون منزلة رفيعة، وإزالة المنازل الرفيعة من أصحابها يوهم أنهم ما كانوا مستحقين لها أو كانوا خائنين فيها، وكلاهما يوجب التنفير وأنه غير جائز على الأنبياء.

والثـانى: أنا لا نعرف خـلافـة هارون لموسى بل نقـول: إن هارون كان شـريكا لموسى فى الرسالة فلا شك أنه لو بقى بعد وفاة موسى لقـام مقامه فى وجوب الطاعة، وهذا القـدر كاف فى المقصـود؛ لأنه لما دل الحديث علـى حال علي كحـال هارون فى جميع المنازل، وكان من منازل هارون استحقاقـه للقيام مقامه، وثبوت الطاعة وجب أن يكون علي أيضـا كذلـك، ولا معنى للإمـامـة إلا ذاك، لا يقال: إن الحـديث لا يتناول المنازل المقدرة، وإنما يتناول المنازل الثابتة، وإمامة هـارون بعـد موسى ما كانت حاصلة بل مقدرة، فـلا يتناولها الحديث، قلنا: مـعنى استحقـاقها فى حق هارون القيـام مقام موسى بعـد وفاته، وهى منزلة ثابتة فـى الحال؛ لأن الاستحـقاق قد يكون حـاصلا فى الحال، وإن كان المستحق متأخرا.

وقال الخواجا نصير الدين الطوسى فى كتاب «قواعد العقائد»: قال الزيدية بإمامة على والحسن والحسـين؛ ولم يقولوا بإمامة زين العابدين؛ لأنـه لم يقم بالسيف، وقالوا بإمامـة ولده زيد؛ لأنه ثار على البـاطل، وهم لا يشتـرطون العصـمة للإمـام، ويجوز عندهم قيام إمامين فى بقعتين متباعدتين، وكل من جمع شروط فهو إمام: ١) أن يكون من ولد فاطمـة بنت الرسولﷺ من غيـر فرق بين ولـد الحسن وولد الحـسين: ٢) أن يكون عالما بالشريعة: ٣) أن يكون زاهدا: ٤) أن يدعـو إلى دين الله بالسيف. وأكثرهم يأخذ بفقه أبى حنيفة إلا فى مسائل قليلة.

وقال السيد محيى الأمين فى «أعيان الشيعة» القسم الثانى من الجزء الأول ص١٣ طبعة ١٩٦٠:

قالت الزيدية: «إن الإمامة تكون بالاختيار، فـمن اختير صار إماما واجب الطاعة ولا يشتـرط أن يكون معصومـا، ولا أفضل أهل زمانه، وإنما يشـترط أن يكون من ولد فاطمة، وأن يكون شجاعا عالما خبيرا بالسيف».

وبهذا يتبين أن الزيدية ليسوا من فرق الشيعة فى شىء، كما أنهم ليسوا من السنة ولا الخوارج، وأنهم طائفة مستقلة بين السنة والشيعة، ليسوا من السنة ولا من الخوارج؛ لأنهم حصروا الإمامة فى ولد فاطمة، وليسوا من الشيعة؛ لأنهم لا يوجبون النص على الخليفة، هذا إلى أنهم يأخذون بفقه أبى حنيفة، أو أن فقههم أقرب إلى الفقه الحنفى منه إلى الفقه الشيعى.

وقال أهل السنة: إن الزيدية أقرب إليهم من جميع فـرق الإمامية؛ لأنهم يوجبون الإمامة بالانتخاب لا بالنص، ولا يقولون بعصمة الإمام، ويجيزون تقديم الفاضل على الأفضل، ويأخذ أكثرهم بالفقه الحنفى.

وقال الشيعة: إن الزيدية أقرب إليهم من المغالين؛ لأنهم لا يؤلهون أحدا من الأئمة، وأيضا أقرب إليهم من السنة؛ لأنهم يوجبون الإمامة فى ولد فاطمة، وإن دل هذا على شيء، فإنما يدل على أن الزيدية ليسوا من السنة ولا من الشيعة، وإنما هم فرقة مستقلة بذاتها[1].

الغرض:

والغرض الأول من الإشارة إلى هذه الفرق أن نبين خطأ الذين نسبوا أهل الغلو وغيرهم كالزيدية إلى الشيعة، وأن نؤكد ونوضح أن الضابط الصحيح لتعدد فرق الشيعة وأقسامها ينحصر بالخلاف فى عدد الأئمة قلة وكثرة،وفى تعيين أسمائهم وأشخاصهم بعد الاتفاق على أن الإمام يعين بالنص لا بالانتخاب، وأنه إنسان كسائر الناس لا يختلف فى طبيعته، ولا فى صفاته الملازمة للإنسان بما هو إنسان. . . أجل هناك شروط لا بد من توافرها فى الإمام باتفاق المسلمين جميعا، وإن اختلفوا فيما بينهم فى نوعها وعددها، كما يظهر مما يلى:

١ - الإمام من أهل البيت:

يشترط فى الإمام شروط، أولها عند السنة أن يكون من بيوت قريش، حديث: «لا يزال هذا الأمر فى قريش ما بقى منهم اثنان» روى هذا الحديث البخارى فى صحيحه ج٩ ص١٩١ طبعة ١٣٤٨هـ: أن النبى ﷺ قال: إن هذا الأمر لا ينقضى، حتى يمضى فيهم اثنا عشر خليفة، كلهم من قريش، ومثله فى صحيح البخارى ج٩ كتاب «الأحكام»، ولحكمة ذكر لفظ «أمير» بدل «خليفة» وعليه تكون فكرة الاثنى عشرية إسلامية عامة للسنة والشيعة، ولا تختص بفريق دون فريق.

وقال العلامة الحلى فى «شرح التجريد» ص ٢٥٠ طبعة العرفان: إن المراد بالـ ١٢ هم أئمة الشيعة، حيث ثبت بالتواتر أن النبى ﷺ قال للحسين: ابنى هذا إمام ابن إمام أخو إمام أبو أئمة تسعة، تاسعهم قائمهم.

(١) تاريخ الإمامة وأسلافهم من الشيعة ص ٣٦ د. فياض.

٢ - جواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل[١]:

جادله من بايعوه من أهل الكوفة والبصرة وواسط وما حولها بصدد رأيه فى الشيخين فأبى أن يذكرهما إلا بخير، قالوا: (فلمَ يكون قتالنا القوم أى الأمويين)، قال: ليس هؤلاء كهؤلاء. فانفضوا عنه إلا من نفر قليل فقال لهم: لقد رفضتمونى. وأطلق لفظ الرافضة من بعدها على الطاعنين فى الشيخين.

كان علي بن أبى طالب أفضل الصحابة إلا أن الخلافة أفضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها وقاعدة دينية راعوها من تسكين الفتنة وتطييب قلوب العامة، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريبا وسيف أمير المؤمنين علي عن دماء المشركين من قريش وغيرهم لم يجف بعد، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل، ولا تنقاد له الرقاب كل الانقياد، فكانت المصلحة أن يكون القائم بهذا الشأن من عرفوه باللين والتؤدة والتقدم بالسن والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله ﷺ[٢].

ولكن إذا جازت إمامة المفضول مع قيام الأفضل لتبرير شرعية خلافة أبى بكر مع أفضلية علي - فإن على الإمام المفضول أن يرجع إلى الأفضل فى الأحكام التى يحكم فى القضايا.

٣ - جواز خروج إمامين فى قطرين متباعدين يستجمعان شروط الإمامة:

أجاز زيد خروج إمامين فى قطرين يتعذر وصول دعوة الإمام الأول إلى القطر الثانى، على أن يستجمع كل منهما شروط الإمامة حتى إذا انتصرت الدعوة واتسعت الرقعة إلى الدعوة فإن لم يعرف أسبقيتهما كان الأمر لأكفأهما.

---

(١) أما عثمان فقد سار فى سنين خلافته الأولى سيرة صاحبيه ولكنه مال بعد ذلك إلى الطلقاء أبناء الطلقاء حتى استنزلوه، وحين نصحه المهاجرون والأنصار أبى إلا تماديا فيما لا يوافق الكتاب ولا السنة فقتلوه... كان أول الناكثين على نفسه: آوى طريد رسول الله ﷺ مع نفيه أباذر وإنما ينفى عن مدينة رسول الله ﷺ الفساق والمخنثون... أنفق المال على أقاربه). (من رسالة الإمام زيد إلى خالد بن صفوان مخطوط).

(٢) الشهرستانى: الملل النحل جـ ١ ص ٣٠٤ - ٣٠٥.
إمامة المفضول لدى الزيدية ليست قاعدة عامة وإلا لسقط مبرر الخروج وإنما قال بها الإمام زيد تبريرا للحكم القائم على الغلبة، حتى أجازوا أن يكون الإمام غير مجتهد ولا خبيرا بمواقع الاجتهاد واشترطوا فقط أن يكون ذا بصر بالأحداث السياسية ذا رأى متين وأن يرجع إلى أهل الاجتهاد فى الأحكام وأن يستفتيهم فى الحلال والحرام. الزيدية ص ٢٥٠.

كانت الدولة الأموية تذيع فى الناس أن وصولهم إلى الحكم بقضاء من الله قدر لا حيلة للناس فى دفعه، وادعى معاوية أنه احتكم هو وعلي إلى الله فنصره الله على علي، وادعى خلفاؤه وولاتهم أن من قتلوهم من الأئمة والمعارضين لقولهم بحرية إرادة الإنسان ـ إنما قتلهم الله!!

ومن ثم كان الطبيعى أن يتبنى معارضوهم وعلى رأسهم الإمام زيد مبدأ حرية إرادة الإنسان.

ومن جهة أخرى كانت المعتزلة ترى أن الإنسان محدث لأفعاله وفاعلها ولا محدث لها سواه، فإن رأس المعتزلة واصل بن عطاء قد تتلمذ على أبى هاشم وأخذ هذا عن أبيه محمد ابن الحنفية عن أبيه علي بن أبى طالب الذى ينسب إليه القول بالتوحيد والعدل فالتوحيد أن لا تتوهمه والعدل أن لا تتهمه.

آراء متعارضة مع الإمامية:

١ ـ إنكار القول بالبداء: يقصد بالبداء الظهور بعد الخفاء وهو عند الشيعة الاثنى عشرية منزلة فى التكوين كمنزلة النسخ فى التشريع؛ ذلك أن القضاء على ضربين مبرم ومعلق.

وقد نسب الشيعة الاثنا عشرية معرفة الغيب إلى أئمتهم وكذلك الكيسانية قبلهم، فكان إذا تم الأمر حسب ما ينسبون إلى الأئمة من تنبؤات فذلك يدل على اطلاعهم على الغيب، أما إذا خابت التنبؤات قالوا بالبداء، أى أن الله غير قضاءه لمصلحة ارتآها.

ولما كان الإمام زيد ينكر اطلاع أحد على الغيب فقد أنكر القول بالبداء.

٢ ـ إنكار التقية: كذلك قالت الإمامية بالتقية، إذ بايع علي زين العابدين الخليفة يزيد تقية، وخطورة التقية أن لا يعرف للإمام رأى: هل إذا سئل أجاب ما يعتقد أنه حق أم كان قوله تقية.

وعلى أى حال فإن التقية مبدأ القائلين بالقعود بينما إنكار التقية مبدأ القائلين بالخروج، فإذا كان الإمام قد دعا إلى نفسه علنا وآثر الخروج فلا محل لمبدأ التقية.

٣ ـ وإنكار العصمة والعلم اللدنى: خلع الشيعة الإمامية على أئمتهم العصمة عن الصغائر فضلا عن الكبائر منذ ولادتهم بموجب نور إلهى يسرى من الأصلاب إلى الأصلاب ومن الآباء إلى الأبناء بحفظهم عن ارتكاب المعاصى.

وكذلك لا يتلقى الإمام عندهم العلم اكتسابا، وإنما يشارك النبيﷺ فى العلم اللدنى حتى يكون معصوما عن الخطأ، إنه إذا وجب الرجوع إلى الإمام فقد وجب أن يكون معصوما لأنه إن أخطأ فمن يرده وهو المرجع فى الأحكام[1].

وقد خالف زيد ـ وتبعته الزيدية فى ذلك ـ الإمامية فى العصمة والعلم اللدنى، أما العصمة فهى لأهل الكساء فقط: النبيﷺ وعلي وفاطمة والحسن والحسين، دون سائر الأئمة، وإنما يكتسب الإمام العلم اكتسابا حتى يصل إلى درجة الاجتهاد التى تؤهله علميا لأن يكون إماما، هذا، وقد أخذ زيد العلم ـ حتى مما يجوز الخطأ على جده علي بن أبى طالب ألا وهو واصل بن عطاء، وأخذ عن المخالفين ـ فضلا عن الموافقين ـ طبع التشيع الزيدى بطابع الانفتاح على المذاهب الأخرى على عكس الإمامية الأخرى الذين يرفضون الأخذ عن غير الإمام.

٤ ـ وإنكار المهدية والرجعة: كل فاطمى عالم عدل سخى شجاع خرج داعيا إلى نفسه فهو إمام مهدى، ومن ثم لا تقتصر المهدية على شخص معين كما هو الحال لدى الاثنى عشرية التى تجعله إماما غائبا.

كذلك تؤمن الإمامية بالرجعة، يجعلها بعضهم رجعة الظالمين من قتلة الأئمة بأجسامهم وذلك عند قيام المهدى المنتظر لينتقم للأئمة، ويجعلها بعضهم الآخر رجعة لدولة العدل، وذلك كله ما لا محل له لدى زيد والزيدية.

وإنكار زيد لهذه الغيبيات من القول بالبداء والعصمة والعلم اللدنى والرجعة إنما جاءت نتيجة تأثره بالنزعة العقلية لدى المعتزلة، تلك النزعة التى تحصن صاحبها وتقف حائلا دون تسرب الغيبيات[2].

ولا يعنى زيد بذلك تقسيم الدولة الإسلامية وإنما أن تنتشر الثورات فى البلدان وأن تتباعد حتى تعجز السلطات الغاشمة القائمة عن مواجهتها معا وذلك أدعى إلى انتصارها.

---

(١) الزيدية ص ٢٥٥ أحمد محمود صبحى.

(٢) د / على سامى النشار: نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ٢ ص ١٥٦.

آراء متقاربة مع المعتزلة:

١ ـ المنزلة بين المنزلتين: فاعل الكبيرة فى منزلة بين الإيمان والكفر، يسمى مؤمنا؛ لأن المؤمن قد وصف فى كتاب الله بأنه ولى الله، ولا يمكن أن يكون مرتكب الكبيرة وليا لله، ولا يسمى كافرا؛ لأن الكافرين هم المشركون، ولما كان فاعل الكبيرة يدفن فى مقابر المسلمين ويصلى عليه ويرث قرابته المسلمون، وذلك غير جائز بالنسبة للكافرين فلا يسمى كافرا، وقد أجمعت الأمة على تسميته فاسقا، إنه لا يعلو إلى الإيمان ولا ينحدر إلى الكفر، كذلك لا يعد منافقا؛ لأن المنافقين كافرون.

٢ ـ حرية إرادة الإنسان: يذكر أحمد بن يحيى بن المرتضى أن مذهب الجبر قد حدث فى دولة معاوية وملوك ابن مروان، وأن ابن عباس قد كتب إلى المجبرة من قراء الشام لمظاهرتهم العاصين ولكونهم أعوان الظالمين الذين يحملون إجرامهم على الله وينسبون شر فعالهم إليه[(١)].

هذه الجامعة غير المفرقة، العادلة غير الجائرة، فأجاب دعوتنا وأناب إلى سبيلنا وجاهد بنفسه ومن يليه من أهل الباطل ودعائم النفاق، فله ما لنا وعليه ما علينا، ومن رد علينا دعوتنا وأبى إجابتنا، واختار الدنيا الزائلة الآفلة على الآخرة الباقية. فالله من أولئك برىء، وهو يحكم بيننا وبينكم، إذا لقيتم القوم فادعوهم إلى أمركم فلأن يستجيب لكم رجل واحد خير لكم مما طلعت عليه الشمس من ذهب وفضة، عليكم بسيرة أمير المؤمنين علي بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ بالبصرة والشام: لا تتبعوا مدبرين ولا تجهزوا على جريح ولا تفتحوا بابا مغلقا، والله على ما أقول وكيل، عباد الله لا تقاتلوا على الشك فتضلوا عن سبيل الله، لكن البصيرة ثم القتال، فإن الله يجازى عن اليقين أفضل جزاء يجزى به على الحق، إنه من قتل نفسا يشك فى ضلالتها كمن قتل نفسا بغير حق، عباد الله: البصيرة، البصيرة، قال أبو الجارود: يا ابن رسول الله، يبذل الرجل نفسه عن غير بصيرة، قال:نعم، إن أكثر من ترى عشقت نفوسهم الدنيا فالطمع أرداهم إلا القليل الذين لا تخضر الدنيا على قلوبهم ولا لها يسعون فأولئك منى وأنا منهم.

---

(١) ابن المرتضى: المنية والأمل. ص ٨.

ثم يشير الإمام زيد إلى أنه لا عبرة بكثرة المخالفين ولا بقلة أتباعهم الزاهدين فالله لم يذكر «كثيرا» إلا ذمه ولم يذكر «قليلا» إلا مدحه، والقليل فى الطاعة هم أهل الجماعة والكثير فى المعصية هم أهل البدع[1].

نظرية الخروج ومن خرج:

هذا ذكر من خرج من آل النبى ﷺ:

١ ـ مقتل الحسين بن علي ونظرية الخروج لدى الإمام زيد:

خرج «الحسين بن علي بن أبى طالب»[2] ـ رضى الله عنه ـ منكرا على يزيد بن معاوية ما أظهرمن ظلمه، فقتل بكربلاء ـ رضوان الله عليه! وحديثه مشهور، وقتله عمر بن سعد، وكان الذى أنفذه لمحاربته عبيد الله بن زياد، وحُمل رأس الحسين إلى يزيد بن معاوية، فلما وضع بين يديه نكت ثناياه ـ التى كان النبى ﷺ يقبلها ـ بقضيبه، وحُمل إليه بنو الحسين وبناته وسائر نسائه على الأقتاب، فهم بقتل الذكور، فكشف عن عاناتهم ينظر إليهم: هل أنبتوا أم لا؟ ثم من عليهم.

وقتل مع الحسين من آل النبى ﷺ ابنه «على الأكبر» ومن ولد ولد أخيه الحسن «عبد الله بن الحسن» و«القاسم بن الحسن» و«أبوبكر بن الحسن».

ومن إخوته «العباس بن علي» و«عبد الله بن علي» و«جعفر بن علي» و«عثمان ابن علي» و«أبو بكر بن على» و«محمد بن علي» وهو محمد الأصغر، ومن ولد جعفر ابن أبى طالب «محمد بن عبد الله بن جعفر» و«عون بن عبد الله» ومن ولد عقيل «عبدالله بن عقيل» وقتل «مسلم بن عقيل» بالكوفة و«عبد الرحمن بن عقيل» و«عبدالله ابن مسلم بن عقيل».

وفى قتل الحسين يقول «ابن أبى رمح الخزاعى»[3].

---

(١) أشار زيد فى خطبته هذه إلى عدة مبادئ: ١ ـ اخلاقيات الحرب. ٢ ـ رأيه.

(١) قد مضت ترجمته فى ص ٨٣ من هذا الجزء.

(٣) نسبها ياقوت (٦/ ٥٢) إلى أبى دهبل الجمحى، واسم أبى دهبل دهب بن زمعة بن أسيد من بنى جمح، وأمه من هذيل، ونسبها أبو الفرج الأصبهانى فى مقاتل الطالبيين (١٢١) وابن عساكر فى تاريخه (المختصر ٤/ ٣٤٢) والمسعودى (مروج الذهب ٣/ ٧٤) إلى سليمان بنقيته، نسبها ابن الأثير (الكامل ٤/ ٤٠ بولاق) إلى التيمى تيم بن مرة.

وإن قتيل الطف من آل هاشم | أذل رقابا من قريش فذلت
مررت على أبيات آل محمد | فلم أرها أمثالها يوم حلت
فلا يبعد الله الديار وأهلها | وإن أصبحت من أهلها قد تخلت[1]
وكانوا وجاء ثم عادوا رزية | لقد عظمت تلك الرزايا وجلت
ألم تر أن الأرض أمست مريضة | لفقد حسين والبلاد اقشعرت

والقصيدة طويلة.

وفى ذلك قال «دعبل»[2]:

قبور بكوفان، وأخرى بطيبة | وأخرى بفخ نالها صلواتى
وأخرى بأرض الجوزجان محلها | وأخرى بباخمرا لدى الغربات
فأما الممضات التى لست واصفا | مبالغها منى بكنه صفات
قبور لدى النهرين من أرض كربلا | معرسهم منها بشط فرات

٢ ـ زيد بن الحسين بن علي بن أبى طالب:

ثم خرج «زيد بن علي بن الحسين بن على بن أبى طالب»[3] ـ رضوان الله عليهم ـ بالكوفة على هشام بن عبد الملك، ووالى العراق يومئذ يوسف بن عمر الثقفى. فقتل بالمعركة (ودفن) فعلم به يوسف بن عمر، فنبشه، وصلبه، ثم كتب هشام يأمر بأن يحرق، فأحرق، وسفى رماده فى الفرات.

وقال فى ذلك يحيى بن زيد:

لكل قتيل معشر يطلبونه | وليس لزيد بالعراقين طالب

---

(١) فى المصادر التى ذكرناها وإن أصبحت منهم برغمى تخلت.

(٢) هو أبو علي دعبل بن زين بن سليمان الخزاعى، وقيل فى نسبه غير ذلك، وقيل: إن اسمه الحسن، وقيل: عبد الرحمن، وقيل: محمد، وكان شاعرا مجيدا، إلا أنه كان بذىء اللسان، مولعا بالهجو والحط من أقدار الناس، وهجا الخلفاء فمن دونهم، وطال عمره فكان يقول: لى خمسون سنة أحمل خشبتى على كتفى أدور على من يصلبنى عليها فلم أجد من يفعل ذلك، وكانت ولادة دعبل فى سنة ثمان وأربعين ومائة، وتوفى سنة ست وأربعين ومائتين (انظر الترجمة رقم ١٢٣ فى ابن خلكان ٢/ ٣٤ بتحقيقنا) ثم انظر بعد ذلك (ص ١٣١ من هذا الجزء).

(٣) انظر الهامش رقم ا فى ص ١٢٩ من هذا الجزء.

٣ - يحيى بن زيد:

ثم خرج «يحيى بن زيد»[١] بأرض الجوزجان على الوليد بن يزيد بن عبد الملك، فوجه نصر بن سيار الليثى صاحب خراسان إلى يحيى بن زيد «سلم بن أحوز المازنى»، فحارب يحيى بن زيد، فقتل فى المعركة ودفن فى بعض الجبانات.

٤ - محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن:

ثم خرج «محمد بن عبد الله[٢] بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب» بالمدينة، وبويع له فى الآفاق، فبعث إليه أبو جعفر المنصور بعيسى بن موسى وحميد بن قحطبة، فحارب محمد حتى قتل. ومات تحت الهدم أبوه «عبد الله بن الحسن بن الحسن» و«علي بن الحسن بن الحسن» وقتل بسببه رجال من أهل بيته، ووجه محمد بن عبدالله أخاه «إدريس بن عبد الله» إلى المغرب، ولولده هناك مملكة.

٥ - إبراهيم بن عبدالله بن الحسن بن الحسن:

ثم خرج بعده محمد بن عبد الله أخو «إبراهيم[٢] بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب» بالبصرة فغلب عليها وعلى هوازن وعلى فارس وأكثر السواد، وشخص عن البصرة إلى المعتزلة وغيرهم من الزيدية يريد محاربة المنصور ومعه «عيسى بن زيد بن علي»، فبعث إليه أبو جعفر بعيسى بن موسى وسعيد بن سلم، فحاربهما إبراهيم حتى قتل، وقتلت المعتزلة بين يديه.

٦ - الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي:

ثم خرج «الحسين بن علي بن الحسن[٣] بن الحسن بن علي بن أبى طالب»، والتقوا بفخ، وبايعه الناس، وعسكر بفخ على ستة أميال من مكة، فخرج إليه عيسى بن موسى فى أربعة آلاف، فقتل الحسين وأكثر من معه، ولم يجسر أحد أن يدفنهم، حتى أكلت السباع بعضهم، وقتل مع الحسين صاحب فخ وبسببه رجال من أهل بيته، وفى قتيل فخ يقول صاحب البصرة:

هاج التذكر للفؤاد سقاما ... ونفى المنام فما أحس مناما

منع الرقاد جفون عينى عصبة ... قتلوا بمنعوج الجحون كراما

---

(١) مقالات الإسلاميين، ج٢، ص ١٣٠ .

(٢) مقالات الإسلاميين، ج٢، ص ٦٨ .

(٣) مقالات الإسلاميين، ج٢، ص ١٣٤.

(٤) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٣٥ .

٧ ـ يحيى بن عبد الله:

ثم خرج «يحيى بن عبدالله[١] بن الحسن بن الحسن بن علي» على «أبى جعفر» وصار إلى الديلم، ثم قتل.

٨ ـ محمد بن جعفر بن يحيى:

ثم خرج بتاهرت[٢] السفلى «محمد بن جعفر بن يحيى بن عبد الله بن الحسن»، فغلب عليها، صارت فى أيديهم[٣].

٩ ـ محمد بن إبراهيم بن إسماعيل:

ثم خرج بالكوفة فى أيام المأمون (محمد بن[٤] إبراهيم بن إسماعيل بن محمد

---

(١) هو الحسن يحيى بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبى طالب ـ عليهم السلام ـ وأمه قريبة بنت عبد الله، وكان حسن المذهب والهدى مقدما فى أهل بيته بعيدا عن جعفر بن محمد، روى عن أبيه وعن أخيه محمد، وعن أبان بن تغلب، وروى عنه بكار بن زياد ويحيى بن مساور وعمرو بن حماد، وكان قصيرا آدم، حسن الوجه والجسم تعرف سلالة الأنبياء فى وجهه، وأوصى إليه جعفر بن حمد لما حضرته الوفاة، وقول المؤلف «خرج على أبى جعفر» ليس مستقيما، فإنه خرج على هارون الرشيد؛ وذلك أنه كان مع أصحاب فخ، فلما قتلوا استتر مدة يجول فى البلدان ويطلب موضعا يلجأ إليه، وعلم الفضل بن يحيى بمكانه فى بعض النواحى، فأمره بالانتقال عنه، وقصد الديلم، وكتب له منشورا ألا يتعرض إليه أحد، فمضى متنكرا حتى أتى الديلم، وبلغ الرشيد خبره وهو فى بعض الطريق، فولى الفضل بن يحيى نواحى المشرق وأمره بالخروج إلى يحيى، فذهب الفضل واحتال حتى قدم يحيى معه على الرشيد، ثم كان إطلاق سراحه على يد الفضل بعض أسباب نكبة الرشيد بالبرامكة (انظر مقاتل الطالبيين ٤٦٣ وما بعدها).

(٢) تاهرت ـ بفتح الهاء وسكون الراء، وفى آخره تاء ـ اسم لمدينتين متقابلتين بأقصى المغرب يقال لإحداهما تاهرت القديمة وللأخرى تاهرت المحدثة، بينهما وبين المسيلة ست مراحل (معجم البلدان لياقوت ٢/ ٣٥٤).

(٣) الذى خرج إلى بلاد المغرب واستولى عليها هو إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبى طالب، وكان قد أفلت من وقعة فخة ومعه مولى له يقال له راشد، فخرج به فى جملة حاج مصر وأفريقية إلى أن تهيأت لهما فرصة دخلا فيها بلاد البربر عند فاس طنجة فأقاما بها واستجابت البربر لإدريس، ولمابلغ الرشيد أمره اغتم لذلك غما شديدا، فدبرله من ذهب إليه فسمه، فيقال: إن الذى سمه هو سليمان بن جرير أحد متكلمى الزيدية، يقال: بل الذى سمه الشماخ مولى المهدى، وكان طبيبا، ارجع إلى حديث المؤلف عن خروج محمد بن عبد الله بن الحسن من كتاب مقالات الإسلاميين، والزيدية نظرية وتطبيق.

(٤) كان سبب خروج محمد بن إبراهيم بن إسماعيل ـ وهو ابن طباطبا ـ أن رجلا اسمه نصر بن شبيب كان قد قدم حاجا، كان متشيعا حسن المذهب، فلما ورد المدينة سأل عن بقايا أهل البيت، فدل على=

ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن بن علي) ودعا إليـه (أبو السرايا)، والمأمون بخراسان، ابن إسماعيل وأنفذ (زيد بن موسى بن جعفر بن محمد) داعية له إلى البصرة، ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه، ودفن بالكوفة.

١٠ ـ محمد بن محمد بن زيد بن علي:

فخرج بـعده مع أبي السرايا (محـمد بن محمـد بن زيد بن علي بن الحسن بن محمد بن مـحمد بن علي بن أبي طالب)[1] فهزم زهير بن المسيب وهزم عبدوس (بن محمد) بن [أبي] ابن زيد بن علي بن خالد، وقتله ثم توجه إليه هريمة بن أعين فهزمه،

=محمد بن إبراهيم؛ لأنه كان يقارب الناس يكلمهم في هذا الشأن فأتاه نصر بن شبيب، وما زال به إلى أن أجابه إلى الخروج، وتواعدا علـى اللقاء بالجزيرة ولما انصرف الحاج خرج محـمد بن إبراهيم في نفر من شيعته أصحابه حتى قدموا على نصر بن شبيب للموعد فجمع نصر أهل عشيرته ثم أخبرهم وعرض عليهم معونته، فأجاب بعـضهم وامتنع عليه بعض، ففترت عزيمة نصر وضعفت نيـته، فمضـى محمد ابن إبراهيم راجعـا إلى الحجاز، فلقي في طريقه أبا الســرايا وهو السري بن منصور أحد بنـي ربيعة بن ذهل بن شيبان، وكـان أبو السرايا قد خالف السلطان ونابذه وعاث في نواحي الســواد إلى تلك الناحية فأقام بها خوفا على نفسه، وكان علوي الرأي ذا مذهب في التشيع، فدعاه محمد بن إبراهيم إلى نفسه، فأجابه وسر بذلك وقال له: انحدر إلى الفرات حتى أوافي على ظهر الكوفة، ومازال محمد بن إبراهيم يتأهب لأمره يدعو من يثـق به إلى ما يراد حتى اجتمع له بشر كـثير، وهم في ذلك ينتظرون أبا السرايا واقبل أبو السرايا لموعده، وخرج محمد بـن إبراهيم وأظهر نفسه وبرز إلى ظهر الكوفة ثم دخل الكوفة وخطب الناس فأقـبلوا على بيعتـه، ثم كان ما تكلفت كـتب التاريخ ببيـانه، ومات محـمد بن إبراهيم وأوصى إلى أبي السرايا (انظر مقاتل الطالبيين ص ٥١٨ ـ ٥٣٦).

(١) هو إبراهيم بن موسى الكاظم بن جـعفر الصادق بن محـمد الباقر بن علي زين العـابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب، رضى الـله عنهم أجمـعـين! وإبراهيم هذا أخـوه علي الرضـا الذي كان المأمـون العباسي بن هارون الرشـيد قد جعله ولي عهده من بعده،وكـتب بذلك إلى الآفاق. وبسبب هذا ثارت ثائرة العبـاسيين على المأمـون وقرروا فيمـا بينهم خلعه، وولوا إبراهيم بن المهـدي مكانه، فلم يتم أمره وهرب واختفى، وإبراهيم بن مـوسى الكاظم كان مع أبي السرايا، فعقد له أبو الســرايا على اليمن بعد موت محمد بن إبراهيم فلما ذهب إبراهيم بن موسى إلى اليـمن أذعن له أهلها بالطاعة بعد وقعة كانت بينهم يسيـرة المدة، وقال ابن الأثير في الكامل (٦ / ١١٤ بولاق): «وفـي هذه السنة (سنة ٢٠٠) ظهر إبراهيم بن موسى بن جـعفر بن محمـد وكان بمكة، فلما بلغـه خبر أبي السرايا وما كـان منه سار إلى اليمن وبها إسحاق بن موسى بن عيسى بن محمد بن علي بن عبد الله عاملا للمأمون، فلما بلغه قرب إبراهيم من صنعاء سار منهـا نحو مكة، فأتى المشاش: فعـسكر بها، واجتمع بها إليه جـماعة من أهل مكة هربوا من العلويين، استولى إبراهيم على اليمن، وكان يسـمى الجزار؛ لكثرة من قتل باليمن وسبى وأخذ الأموال» أ هـ، وانظر مع ذلك مقاتل الطالبيين (٥٣٤)، وكـامل ابن الأثير في غير ما تقدم ذكره (١٦٦/٦).

هرب مع أبى السرايا، فأخذا فى طريق خراسان، فوجه بهما إلى الحسن بن سهل، فقتل أبا السرايا، وأظهر بعد ذلك موت محمد، ويقال: إنه حمل إلى المأمون وهو بمرو، فمات هناك.

١١ ـ إبراهيم بن موسى بن جعفر:

وخرج باليمن والمأمون بخراسان «إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي ابن الحسين بن علي بن أبى طالب» داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل صاحب أبى السرايا، فوجه إليه المأمون جيشا فهزمه، وصار إلى العراق، فأمنه المأمون.

١٢ ـ إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد:

وخرج بعد دخول المأمون بغداد أبو جعفر[١] «إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد» فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله، فصار إلى دينار فى الأمان، وقر به على المأمون، فمات».

١٣ ـ محمد بن القاسم:

وخرج «محمد بن القاسم»[٢] من ولد الحسين بن علي بخراسان، ببلدة يقال لها طالقان، فى خلافة المعتصم، فوجه إليه عبد الله بن طاهر ـ وهو على خراسان ـ جيشا، فانهزم محمد، ثم قدر عليه عبد الله بن طاهر، فحمله إلى المعتصم فحبسه معه فى قصره، فاختلف الناس فى أمره: فمن قائل يقول: هرب، ومن قائل يقول: مات، ومن الزيدية من يزعم أنه حى، وأنه سيخرج.

---

(١) هكذا فى أصول هذا الكتاب، وليس بشىء، وقد عثرت فى النجوم الزاهرة (٢/ ١٨٣) فى حوادث سنة ٢٠٧ على ما يأتى: «وفى هذه السنة خرج عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد عك من اليمن، يدعو إلى الرضا من آل محمد ﷺ، وكان خروجه من سوء سيرة عامل اليمن، فبايعه خلق، فوجه المأمون لحربه دينار بن عبد الله، وبعث إليه بأمانه، فحج دينار، ثم سار إلى اليمن حتى قرب من عبد الرحمن المذكور، وبعث إليه بأمانه فقبله، وعاد مع دينار إلى المأمون» اهـ، ويظهر أن ما وقع بأصل الكتاب من تحريف النساخ فإن إبراهيم بن جعفر قد تقدم الكلام على خروجه قبل هذا مباشرة، وانظر كامل ابن الأثير (٦/ ١٤٠).

(٢) هو أبو جعفر محمد بن القاسم بن علي بن عمر بن علي بن الحسين السبط بن علي بن أبى طالب، وأمه صفية بنت موسى بن عمر بن علي بن الحسين بن علي وقد تقدم ذكره فى (مقالات الإسلاميين) وانظر ـ مع ما عددنا هناك من المراجع ـ مقاتل الطالبيين (٥٧٧) وكامل ابن الأثير (٦/ ١٦٢) وتاريخ الطبرى فى أحداث سنة ٢٢٩ من الهجرة، والنجوم الزاهرة (٢/ ٢٣٠).

١٤ ـ محمد بن جعفر بن محمد بن علي:

وخرج «محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي»[١] بمكة وكان يلقب بديباجة؛ داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم فلما مات محمد بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم دعا لنفسه، فوجه إليه المأمون عيسى الجالودى، نظفر به، فحمله إلى المأمون ببغداد، ثم أخرجه معه فمات بجرجان.

١٥ ـ الأفطس:

وخرج «الأفطس»[٢] بالمدينة داعية لمحمد بن إبراهيم بن إسماعيل، فلما مات محمد بن إبراهيم دعا إلى نفسه.

١٦ ـ علي بن محمد بن عيسى:

وخرج «علي بن محمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب» بعده فى خلافة المعتصم[٣]، فقتله بنو مرة بن عامر.

---

(١) هو أبو جعفر محمد بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب وأمه أم ولد، وكان شيخا ورعا محببا، مفارقا لما عليه من أهل بيته، وكان يروى العلم عن أبيه جعفر بن محمد، وكان الناس يكتبون عنه، وكان يظهر سمتا وزهدا، وأمر المأمون آل جعفر أبى طالب بخراسان أن يركبوا مع غيره من آل أبى طالب فأبوا أن يركبوا إلا معه، فلما رأى إصرارهم أقرهم، وكان سبب خروجه أن رجلا فى أيام أبى السرايا قد كتب كتابا يسب فيه فاطمة بنت رسول الله ﷺ وجميع أهل البيت، وكان محمد بن جعفر معتزلا تلك الأمور لم يدخل فى شىء منها، فجاءه الطالبيين فقرأوا عليه الكتاب، فلم يرد عليهم جوابا حتى دخل بيته فخرج عليهم وقد لبس الدرع وتقلد السيف، ودعا إلى نفسه، وتسمى بالخلافة، وهو يتمثل:

لم أكن من جناتها علم الله. وإنى بحرها اليوم صال

وانظر مقاتل الطالبيين (٣٥٧ وما بعدها) وتاريخ بغداد (٢/ ١١٣ وما بعدها) وتاريخ الطبرى فى حوادث سنة ٢٠٠ وكامل ابن الأثير (٦/ ١١٥).

(١) هو الحسين بن الحسن، وكان خروجه فى سنة مائتين، وفى هذه السنة فى المحرم نزع كسوة الكعبة وكساها كسوة أخرى أنفذها أبو السرايا من الكوفة من الخز، وتتبع ودائع بنى العباس وأتباعهم وأخذها وأخذ أموال الناس لسوء سيرة أصحابه؛ أتى هو وأصحابه إلى محمد بن جعفر بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب، فلم يزل به حتى أجابه (انظر كامل ابن الأثير ٦/ ١١٥ وتاريخ الطبرى ١٠/ ٣٣٢ مصر).

(٣) لم يذكر أبو الفرج فى مقاتل الطالبيين علي بن محمد (بن أحمد) بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين ابن علي بن أبى طالب فيمن خرج من الطالبيين فى أيام المعتصم، ولا وجدته على هذا الوجه فى مرجع من مراجع التاريخ التى بين يدى على كثرتها، وإنما ذكر فيمن خرج أيام المعتصم من الطالبيين محمد=

١٧ ـ الحسن بن زيد بن الحسين بن علي:

ثم خرج «الحسن بن زيد بن الحسن بن علي بن أبى طالب» الحسن بن زيد بطبرستان، فى سنة خمسين ومائتين[١]، والعامل بها سليمان بن عبد الله بن طاهر، فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة، ثم خلف من بعده «محمد بن زيد»[٢]. أخوه ثم قتل محمد بن زيد بعد محاربة كانت بينه وبين محمد بن هارون. ١٨ ـ الكواكبى:

وخرج بقزوين «الكواكبى»، وهو من ولد الأرقس، واسمه «الحسين[٣] بن أحمد

=بن القاسم بن على بن عمر بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب، وعبيد الله بن الحسن بن عبدالله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وذكر على محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد فيمن خرج أيام المعتمد، وقد سقط اسم «أحمد» هذا من أصل هذا الكتاب كما ترى.

(١) ذكر ابن الأثير فى الكامل (٧/١٣) أنه خرج فى سنة خمسين ومائتين يحيى بن عمر بن يحيى بن الحسن ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب، وكنيته أبو الحسين، وأمه فاطمة بنت الحسين بن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب، وقد ذكر سبب خروجه، وما حدث منه وله، وذكر أيضا أنه خرج فى هذه السنة الحسن بن زيد بن محمد بن إسماعيل بن زيد بن الحسن بن الحسين بن علي بن أبى طالب، بطبرستان، فانظره (٧/ ١٣ وما بعدها) ثم انظر تاريخ الطبرى (١١ / ٨٧ و ٩٠) ومما ذكرناه تدرك أن جملة من الأسماء سقطت من هذا الكتاب فى نسب الحسن بن زيد الخارج فى عام ٢٥٠.

(٢) ذكر ابن الأثير فى الكامل (٧/١٤٩) فى حوادث سنة سبعين ومائتين قال: «وفى هذه السنة توفى الحسن ابن زيد العلوى صاحب طبرستان فى رجب، وكانت ولايته فى تسع عشرة سنة وثمانية أشهر وستة أيام، وولى مكانه أخوه محمد بن زيد وكان الحسين جوادا، امتدحه رجل فأعطاه عشرة آلاف درهم، وكان متواضعا لله تعالى، حكى عنه أنه مدحه شاعر فقال: الله فرد وابن زيد فرد فقال: يكفيك الحجر يا كذاب، هلا قلت: الله فرد وابن زيد عبد ثم نزل عن مكانه وخر ساجدا لله تعالى، وألصق خده بالتراب، وحرم الشعر» اهـ وانظر بعد ذلك الكامل أيضا (٧ / ١٥١ و ١٥٦و ١٧٩ و ١٨٤ و ١٨٨).

(٣) سمى أبو الفرج فى مقاتل الطالبيين الكواكبى «الحسين بن أحمد بن محمد بن الأرقط بن عبد الله بن علي بن الحسين، وقال: «قتله الحسن بن زيد، وكان قد بلغه أنه يريد الخلافة، وأنه قد اجتمع وعبيد الله بن الحسن بن جعفر بن عبيد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب، فدعا بهما وأغلظ لهما، فردا عليه، فأمر بهما فديست بطونهما، ثم ألقاهما فى بركة، فماتا جميعا، ثم أخرجا فألقيا فى سرداب، فلم يزالا فيه حتى دخل الصفار البلد فأخرجهما ودفنهما» اهـ.

وقد ذكره ابن الأثير فى حوادث سنة ٢٥١ (٧/ ٥٨) قال ما نصه: «فيها ظهر الحسين بن أحمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل الأرقط بن محمد بن الحسين بن علي، المعروف بالكواكبى، بناحية قزوين وزنجان، فطردا عمال طاهر منها» ا هـ، ووقع فى أصول الكتاب «واسمه الحسن بن أحمد».

ابن إسماعيل، من ولد الحسين بن علي بن أبى طالب، فغلب عليها، ثم هزمه بعض الأتراك.

١٩ ـ يحيى بن عمر بن يحيى:

وخرج بالكوفة أيام المستعين «أبو الحسين يحيى بن عمر (بن يحيى)(١) بن الحسين ابن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب» فوجه إليه الحسن بن إسماعيل بأمر محمد بن عبد الله بن طاهر، فقتل أبا الحسين.

٢٠ ـ الحمزى:

وخرج أيام المستعين أيضا «الحمزى (الحسين) بن محمد بن حمزة(٢) بن عبدالله» من ولد الحسين بن علي، فظفر به، وأخذ، وحبس إلى أن أطلقه المعتمد.

٢١ ـ ابن الأفطس:

وخرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين ابن الأفطس.

٢٢ ـ إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم:

وخرج بسواد المدينة مدينة الرسول ﷺ سنة خمس ومائتين «إسماعيل بن يوسف ابن إبراهيم»(٣)، من ولد الحسن بن علي، فغلب عليها، وتوفى لليلتين خلتا من ربيع

---

(١) وقد ذكرنا عن ابن الأثير والطبرى أن يحيى بن عمر بن يحيى خرج سنة خمسين ومائتين.

(٢) وهو الحسين بن محمد بن حمزة بن عبد الله بن الحسين بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب، ويعرف بالحرون، خرج بالكوفة بعد يحيى بن عمر، فوجه إليه المستعين مزاحم بن خاقان فى عسكر عظيم، فلما قارب الكوفة خرج الحسين الحرون عنها، وخالفه الطريق حتى صار إلى سر من رأى، وقد بويع المعتزلة، فبايع له، وانصرف مزاحم عن الكوفة، فمكث الحسين الحرون مدة ثم هرب، وأراد الخروج ثانية، فرد وحبس بضع عشرة سنة، فأطلقه المعتمد بعد ذلك فى سنة ثمان وستين ومائتين، فخرج أيضا بسواد الكوفة، فعاث وأفسد، فظفر به فى آخر سنة تسع وستين أو إحدى وسبعين، ثم توفى، فأمر الموفق بدفنه والصلاة عليه؛ ولم يكن ممن يحمد مذهبه فى خروجه فسوق خبره، ولقد رأيت جماعة من الكوفيين يعيرون من خرج معه بذلك ويسبونه به، انظر مقاتل الطالبيين لأبى الفرج الأصبهانى ٥٦٥.

(٣) قال ابن الأثير فى الكامل فى أثناء ذكر حوادث سنة إحدى وخمسين ومائتين (٧/ ٥٨) ما نصه: «وفيها ظهر إسماعيل بن يوسف بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسين بن علي بن أبى أطالب بمكة، فهرب جعفر، وانتهب إسماعيل منزلة ومنازل أصحاب السلطان، وقتل الجند وجماعة من أهل مكة، وأخذ=

الأول سنة اثنين وخمسين ومائتين، خلف بعده «محمد بن يوسف» فقطع الميرة على أهل المدينة، وما زال على أمره إلى أن خرج أبو الساج إلى مكة والمدينة، فقتل خلقا كثيرا من أصحابه، وهرب محمد فمات فى هربه.

٢٣ ـ عبد الله بن معاوية:

وخرج بالكوفة فى آخر أيام بنى أمية «عبد الله[1] بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب» فحاربه عبد الله بن عمر، فهزمه، ومضى عبد الله بن معاوية إلى فارس فغلب عليها وعلى أصبهان، ثم مات بفارس.

٢٤ ـ صاحب البصرة:

وخرج «صاحب البصرة» وكان يدعى أنه «علي بن محمد بن علي بن عيسى بن زيد بن علي بن أبى طالب» وسمعت من يذكر أنه كان يدعى أنه «علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب» وأنصاره الزنج،

=ما كان حمل لإصلاح القبر من المال وما فى الكعبة وخزائنها من الذهب والفضة وغير ذلك، وأخذ كسوة الكعبة، وأخذ من الناس نحوا من مائتى دينار، وخرج منها بعد أن نهبها وأحرق بعضها فى ربيع الأول بعد خمسين يوما، وسار إلى المدينة، فتوارى عاملها، ثم رجع إسماعيل إلى مكة فى رجب، فحصرهم حتى تماوت أهلها جوعا وعطشا، وبلغ الخبز ثلاثة أواق بدرهم، واللحم رطل بأربعة دراهم، شربة ماء بثلاثة دراهم، ولقى أهل مكة منه كل بلاء، ثم سار إلى جده بعد عام ستة وخمسين يوما، فحبس عن الناس الطعام، وأخذ الأموال التى للتجار وأصحاب المراكب، ثم وافى عرفة وبه محمد بن أحمد بن عيسى بن المنصور الملقب بكعب البقر وعيسى بن محمد المخزومى صاحب جيش مكة، كان المعتز وجههما إليها، فقاتلهما إسماعيل، وقتل من الحاج نحو ألف ومائة، وسلب الناس، وهربوا إلى مكة، ولم يقفوا بعرفة ليلا ولا نهارا، ووقف إسماعيل وأصحابه، ثم رجع إلى جدة فانتهب أموالها» اهـ.

كلامه بحروفه، وانظر النجوم الزاهرة (٢/ ٣٣٣و ٣٣٥).

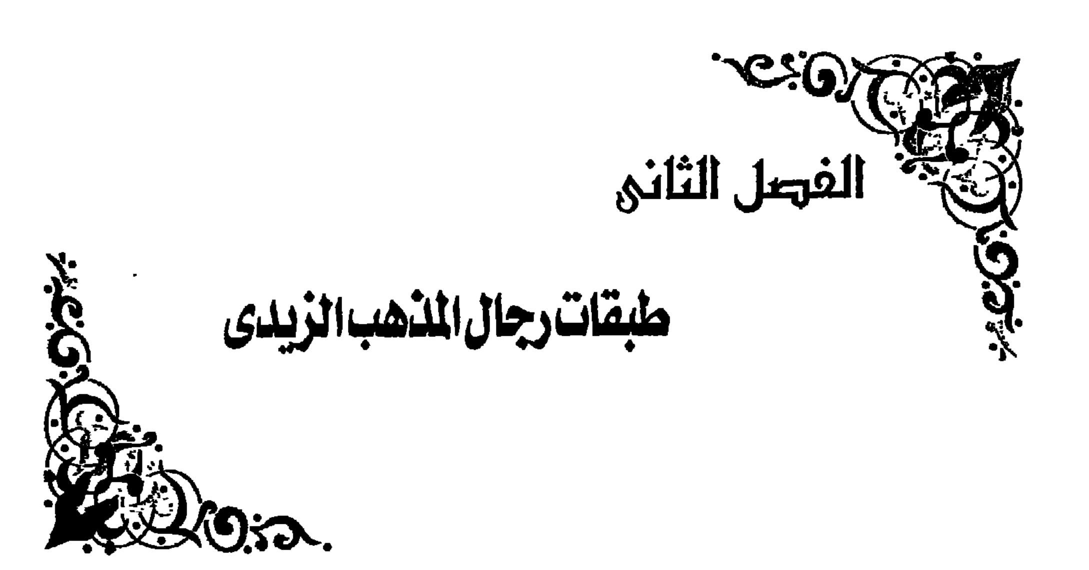
(١) ذكر ابن الأثير فى الكامل (٥/ ١٣٠ بولاق) فى حوادث سنة سبع وعشرين ومائة خروج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة، ودعوته إلى نفسه، وكان سبب ذلك أنه قدم على عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى الكوفة، فأكرمه وأجازه وأجرى عليه وعلى إخوانه كل يوم ثلثمائة درهم، فكانا كذلك حتى هلك يزيد بن الوليد وبايع الناس أخاه إبراهيم بن الوليد وبعده عبدالعزيز بن الحجاج بن عبد الملك، فلما بلغ خبر بيعتهما إلى الآفاق، فجاءته البيعة ثم بلغه امتناع مروان بن محمد من البيعة ومسيره إلى الشام، فحبس عبد الله بن معاوية عنده وزاده فيما كان يجرى عليه، وذكر حدثا طويلا فانظره فى الموضع الذى دللناك عليه، وانظر أيضا مروج الذهب للمسعودى (٣/ ٢٤٣ بتحقيقنا)، والنجوم الزاهرة (١/ ٣٠٩ و ٣١٠)، وتاريخ الطبرى (٩ / ٤٨).

وغلب على البصرة سنة سبع وخمسين، وقتل سنة سبعين ومائتين، قتله أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل[1] على الله.

٢٥ ـ المقتول على الدكة:

وخرج بأرض الشام «المقتول على الدكة» فظفر به المكتفى بالله بعد حروب ووقائع كانت.

(١) فى عام ستة وخمسين ومائتين، وفى خلافة المعتمد على الله العباسى خرج بالكوفة علي بن زيد العلوى، واستولى على الكوفة، وأزال عنها نائب الخليفة، واستقر بها، فسير إليه الشاه ابن مكيال فى جيش كثيف، فالتقوا واقتتلوا فانهزم الشاه، وقتل جماعة كثيرة من أصحابه، ونجا الشاه، ثم وجه المعتمد إلى محاربته كيجور التركى، وأمره أن يدعوه إلى الطاعة ويبذل له الأمان، فطلب علي بن زيد أمورا لم يجبه إليها كيجور، فتنحى علي بن زيد عن الكوفة إلى القادسية، فعسكر بها ودخل كيجور إلى الكوفة ثالث شوال من السنة، ومضى علي بن زيد إلى خفان، ودخل بلاد بنى أسد، وقد كان صاهرهم وأقام هناك، ثم سار إلى جنبلاء، وبلغ كيجور خبره، فأسرى إليه من الكوفة سلخ ذى الحجة من السنة فواقعه فانهزم علي بن زيد، وطلبه كيجور ففاته، وقتل نفرا من أصحابه، وأسر آخرين، وعاد كيجور إلى الكوفة، فلما استقامت أمورها عاد إلى سر من رأى بغير أمر الخليفة فوجه إليه الخليفة نفرا من القواد فقتلوه بعكبرا فى ربيع الأول سنة سبع وخمسين ومائتين (انظر كامل ابن الأثير (٧/ ٥٨) وذكر ابن الأثير فى حوادثه سنة خمس وخمسين ومائتين (٧/ ٧٢) مبدأ خروج صاحب الزنج حيث قال: «وفى شوال خرج فى فرات البصرة رجل، وزعم أنه علي بن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد ابن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب ـ عليه السلام ـ وجمع الزنج الذين يسكنون السباخ، وعبر دجلة، ثم ذكر حدثا طويلا، وانظر أيضا (٧/ ٨٤ و٨٦ و٨٧ و٨٨ و٩٠ و٩٢ و١٠٤ و١١١ و١١٧ و١٢٠ و١٢٢ و١٢٤ و١٢٥ و١٢٧ و١٣٠ و١٣٣ و١٣٥ و١٣٦ و١٣٨ و١٤٠ و١٤٣) ثم انظر تاريخ الطبرى (١١/ ١٧٤).



الفصل الثانى

طبقات رجال المذهب الزيدى

وكما كان لكل مذهب من المذاهب الإسلامية أعلام فقد كان للمذهب الزيدى[1] أعلام هداية لا تهدم، وألسنة حجج لا تفحم، ومن أولئك من كان فى طبقة المؤسسين، وتساوى هذه الطبقة إمام المذهب فى نظر المذاهب الأخرى ومن هذه:

الطبقة الأولى:

الإمام زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - عليهم السلام - مات شهيدا سنة ١٢٢هـ. الإمام القاسم بن إبراهيم مات سنة ٢٤٢ هـ.

حفيده الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم وهو المؤسس للمذهب فى اليمن مات سنة ٢٩٨ هـ.

الإمام الناصر الأطروش الحسن بن علي بن الحسن بن على بن عمر الأشرف بن علي بن الحسين بن علي بن أبى طالب - رضى الله عنهم - وهو المؤسس للمذهب الزيدى فى خراسان، مات سنة ١٠٤ هـ.

الطبقة الثانية:

طبقة المخرجين للمذهب وهم الذين استخرجوا من كلام الأئمة أو احتجاجاتهم بوساطة القياس أو المفهوم أحكاما لا تتعارض مع الكتاب والسنة لا جملة ولا تفصيلا ومن رجال هذه الطبقة:

---

(١) الزيدية نظرية وتطبيق ص ١٦.

العلاّمة محمد بن منصور المرادى، مات سنة ٢٠٠ ونيف وتسعين.

العلاّمة أبو العباس أحمد بن إبراهيم، مات سنة ٣٥٣ هـ.

العلاّمة الإمام المؤيد بالله أحمد بن الحسين بن هارون الحسنى، مات سنة ١٤١٦هـ.

العلاّمة الإمام أبو طالب يحيى بن الحسين بن هارون الحسنى، مات سنة ٤٢٤هـ.

العلامة علي بن بلال الآملى مولى الإمامين المؤيد بالله وأبى طالب.

العلاّمة أحمد بن محمد الأزرقى الهدوى.

الطبقة الثالثة طبقة المحصلين:

وهم الذين اهتموا بتحصيل أقوال الأئمة وما استخرج منها ونقلوها إلى تلامذتهم بطريق الرواية أو المناولة لمؤلفاتهم، ومن رجال هذه الطبقة:

العلاّمة القاضى زيد بن محمد الكلارى الجيلى الملقب بحافظ أقوال العترة وهو من أتباع المؤيد بالله.

العلاّمة السيد علي بن العباس بن إبراهيم راوى إجماعات أهل البيت، مات سنة ٣٤٠ هـ تقريبا.

العلاّمة القاضى الحسن بن محمد بن أبى طاهر الرصاص، مات سنة ٥٨٤ هـ.

العلاّمة الحسين بن بدر الدين، مات سنة ٦٦٢ هـ.

العلاّمة زيد بن علي بن الحسن بن علي البيهقى، مات فى تهامة فى عهد الإمام أحمد بن سليمان وهو فى طريقه إلى مكة المكرمة.

العلاّمة القاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام البهلولى، مات سنة ٥٧٣ هـ.

العلاّمة الإمام عبد الله بن حمزة، مات سنة ٦١٤ هـ.

الطبقة الرابعة طبقة المذاكرين:

وهم الذين راجعوا أقوال من تقدمهم وبلغتهم بالرواية وفحصوها سندا ومتنا وعرضوها على أصول المذاهب وقواعدها المستمدة من صرائح الكتاب والسنة ثم أقروا ما

توافق معها واعتبروه هو المذهب، وما لم يوافقها لم يعتبروه مذهبا للفرقة الزيدية، وكان في نظرهم رأيا خاصا بصاحبه غير معاب عليه باعتبار أن كل مجتهد في الفروع مصيب. ومن رجال هذه الطبقة:

العلاّمة القاضي محمد بن سليمان بن أبي الرجال الصعدي، مات سنة ٧٣ هـ

العلاّمة القاضي عبد الله بن زيد العنسي، مات سنة ٦٦٧ هـ

العلاّمة القاضي يحيى بن الحسن البحييح وقد عاصر الإمام يحيى بن حمزة.

العلاّمة الإمام يحيى بن حمزة، مات سنة ٧٤٩ هـ

العلاّمة الإمام عز الدين بن الحسن المؤيد، مات سنة ٩٠٠ هـ.

العلاّمة القاضي محمد بن يحيى حنش مات سنة ٨٣٢ هـ.

العلاّمة القاضي يوسف بن أحمد بن عثمان الثلاثي، مات سنة ٨٣٢ هـ.

العلاّمة الإمام أحمد بن يحيى بن المرتضى، مات شهيدا بالطاعون سنة ٨٤٠هـ[١]

ومعظم رجال طبقات المذهب الزيدي من العلماء المجتهدين؛ ولذلك فلا يصدق عليهم القول بأنهم في مستوى طبقة مجتهدي المذهب؛ لأن هذه الطبقة لا تظهر دائما إلا بين رجال المذاهب التي لا توجب الاجتهاد على المتمكن منه وليس كذلك المذهب الزيدي. وبالتجوز يمكن أن يوجد في طبقات المذهب من هو في درجة المجتهد المنتسب. أما الأكثرون فهم في درجة المجتهد المطلق. وقد ظهر من هؤلا بعد طبقة المذاكرين الكثير ومنهم:

الإمام يحيى شرف الدين مات سنة ٩٦٥ هـ والإمام القاسم بن محمد، مات سنة ١٢٩ هـ. والإمام محمد بن إسماعيل الأمير، مات سنة ١١٨٢ هـ والإمام عبدالقادر بن أحمد بن الناصر شرف الدين مات سنة ١٢٠٧ هـ وغيرهم.

وكانت كل المؤلفات الزيدية لا تقتصر على ذكر القول المختار لديها، وإنما تجمع كل الأقوال المشهورة للأئمة والعلماء، أي أنها مؤلفات أمينة وموسوعات لما تؤلف فيه.

لذلك فالقول المختار للمذهب إنما كان يؤخذ من أفواه المشايخ ويتناقل بالرواية حتى جاء القاضي حسين بن أحمد الشبيي - رحمه الله - مات سنة ١١٦٩ هـ فوضع

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧.

كلمة (مذهب) فى كتابه شرح الأزهار على القول المختار للمذهب تمييزا له عن سائر أقوال الأئمة والعلماء الزاخر بها كتاب شرح الأزهار المعروف، واستحسن العلامة سائر العلماء فى عصره. ولمكانته فى العلم والتقوى تلقفها عنه الطلاب، وصارت نسخته من أهم المراجع فى ذلك عند الطلاب. كما ذكره المؤلف المؤرخ السيد محمد زباره ـ رحمه الله ـ فى ملحق البدر الطالع ص ٦٨.

آثاره فى الفقه والحديث:

يعد الإمام زيد أول من دوَّن الفقه بين جميع المذاهب الإسلامية فى وقت لم يكن التدوين قد بدأ، وقد أقام فقهه على الحديث وعلى الرأى، ولم يقتصر على أحاديث أهل البيت، بل كان يروى الحديث عن غيرهم كجابر الأنصارى ومحمد بن أسامة بن زيد[١].

وتنسب إلى الإمام زيد عدة مؤلفات منها كتاب تفسير الغريب وكتاب الحقوق وكتاب المجموع فى الحديث وكتاب المجموع فى الفقه، والأخيران عمادا الحديث والفقه لدى الزيدية.

جمع كتابى المجموع أبو خالد عمرو بن خالد الواسطى[٢]. وقد وثقه أئمة الزيدية، وعلماؤها وبعض علماء الحديث لدى أهل السنة كابن ماجه والدارقطنى، بينما جرحه علماء الأمامية وبعض علماء أهل السنة كابن حنبل وإسحاق بن راهويه، وتتلخص الطعون فيه فيما يأتى:

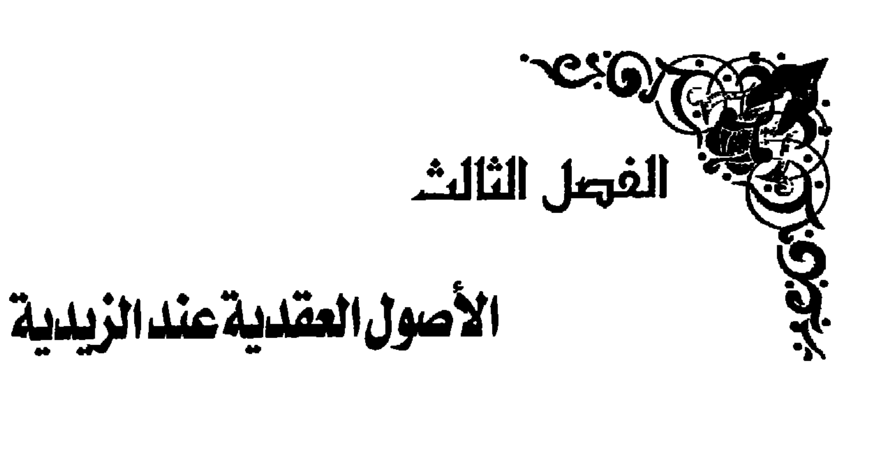
* مبالغته فى الثناء على آل البيت.

* أنه انفرد برواية «المجموع» ولو كان «المجموع» معروفا عن الإمام زيد لاشتهر ولكثر رواته.

---

(١) نفس المرجع ص ١٨.

(٢) أبو خالد عمرو الواسطى ولد بالكوفة ثم انتقل إلى واسط وإليها انتسب، وقد لازم الإمام زيدا فى المدينة وفى تنقلاته خارجها، وقد روى عنه كتبه التى أثرت عنه وبخاصة كتابى المجموع.



الفصل الثالث

الأصول العقدية عند الزيدية

الوحى:

أما كيف كان يتلقى الرسول ﷺ الوحى بالقرآن فقد بينه الله تعالى بقوله: ﴿وما كان لبشرٍ أن يُكلِّمهُ اللَّهُ إلاَّ وحيًا أو من وراء حجابٍ أو يُرسل رسُولاً فيُوحِى بإذنه ما يشاءُ إنَّهُ علِىٌّ حكِيمٌ﴾ [الشورى: ٥١].

ويدخل فى الوحى: الرؤيا الصادقة، وهى أول ما بدئ به الوحى، والنفث فى الروع: أى النفس، وهو يشبه ما يسمى بالإلهام، غير أن صاحب النفث فى الروع يتيقن ـ مصدره من عند الله وليس كذلك الملهم، وأحيانا كان يأتيه الوحى مثل صلصلة الجرس، وكان أشده على رسول الله ﷺ.

كتاب الله القرآن العظيم:

كتاب الله. هو هذا الكتاب المنزل على رسول الله ﷺ المعروف المشهور فى العالم. وهو أصل الأدلة السمعية ومرجعها فى نظر الزيدية لحديث العرض وهو قوله ﷺ: سيكذب علىَّ من بعدى كما كذب على الأنبياء من قبلى. فما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله فإن وافق كتاب الله فهو منى وأنا قلته، وإن خالف كتاب الله فليس منى ولا قلته.

القرآن:

معنى القرآن لغة: المجموع والمضموم بعضه إلى بعض، وسمى كذلك؛ لأنه قد

جمع أصول كل الشرائع السماوية، وأصول كل النظم الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من متطلبات الإنسان فى الحياة.

وقد نزل القرآن على الرسول ﷺ وهو فى الأربعين من عمره الشريف واستمر نزوله عليه على حسب الدواعى والحاجات مدة ثلاثة وعشرين عاما هى مدة حياته فى النبوة، وكان ذلك كذلك لطفا من الله بالعرب حتى لا تثقل عليهم تكاليفه، وليسهل عليهم حفظه؛ لأن الغالب فى العرب هو الجهل بالقراءة والكتابة، وليثبت به قلب الرسول ﷺ قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً ﴿٣٢﴾﴾ [الفرقان]، ومع طوله وكثرة سوره فقد سلم من التناقض، ومن رتابة الكلمة، وسلم من الأخطاء، ويحفظ الله له سلم من الزيادة والنقصان على مر العصور، رغم كثرة الحاقدين والكافرين والمكذبين، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾﴾ [الحجر].

معانى القرآن:

كل معانى القرآن واضحة ومفهومة؛ لأن المقصود به هو التفهيم للناس ما لهم وما عليهم لله ولأنفسهم فى الحياة وكل خطاب يقصد به التفهيم لابد وأن يكون واضحا ومفهوما وإلا فهو لغز وتعمية، ولما تحدى الله العرب أن يأتوا بمثله أو بعشر سور أو بسورة واحدة من مثله فعجزوا عن الإتيان بمثله، ولما عجزوا لجأوا إلى السيف وإعلان الحرب، فلوكان فيه ما لايفهم معناه لا حتجوا على النبىﷺ به، ولكان هذا أسهل وأخف من السيف والحرب، ولكان أقوى حجة لهم على تكذيبه.

وقد اختلف الناس فى فهم معانيه لاختلافهم فى الفهم والعلم،وهذا غير معيب واختلفوا فى تأويله: أى تفسيره وهذا غير معيب كذلك. واختلفوا فى فهم وتفسير المتشابه منه، فأما الذين ردوا متشابهه إلى محكمه فقد عملوا بتوجيه القرآن المذكور فى قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ...﴿٧﴾﴾ [آل عمران].

وأما الذين لم يسلكوا هذا المسلك ولم يتوجهوا بتوجيه القرآن، فعسى أن لا يكون أولئك من الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه، وقد تقدم الكلام على المحكم والمتشابه فى بحث الكلام عن الصفات. (التوحيد).

أما معانى فواتح السور مثل: ﴿الم﴾، ﴿ص﴾، ﴿ن﴾، فأقول ما قيل فيها: إن الله أراد بها التنبيه للعرب بأن هذا القرآن الذى أعجزهم هو مؤلف من ألف بائهم، ونازل على لغتهم فى أساليب التعبير، فعجزهم دليل على أنه ليس من كلام البشر وإنما هو من كلام خالق البشر ويدل على صحة هذا القول ذكرالقرآن بعدها مثل: ﴿الم (١) ذَلِكَ الْكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ ... (٢)﴾ [البقرة]، ﴿يس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢)﴾ [يس].

القرآن ناسخ ومصدق:

والقرآن بما اشتمل عليه من أحكام وقوانين وغير ذلك هو مصدق لما فى الكتب السماوية الأولى فيما جاء فيها من أصول الشرائع وأمهات الأخلاق، هو ناسخ لما عدا ذلك من التفريعات التى قد انتهت مهمتها، وانقضى زمنها الذى كانت صالحة فيه بمجىء زمن العقل والعلم، زمن القرآن الذى صدرت آياته وسوره بالدعوة إلى العلم فقال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ (١) خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ (٢) اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ (٣) الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ (٤) عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ (٥)﴾ [العلق]. . . . وكانت هذه الآيات هى عنوان رسالة الإسلام لذا جعل الله القرآن مصدقا لما بين يديه من أصول شرائع وأمهات أخلاق ومهيمنا على ما بين يديه فى التفريعات والتفصيلات[1] ثم قال الله لنبيه ﷺ: ﴿...فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ... (٤٨)﴾ [المائدة].

وإنما قصر الله الحكم على القرآن؛ لأن سائر الكتب المقدسة قد دخلها التحريف والتبديل والإخفاء والنسيان، قال تعالى عن اليهود: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ... (١٣)﴾ [المائدة].

وقال الله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ ... (١٤)﴾ [المائدة].

تدوين القرآن:

كان رسول الله ﷺ يأمر بتدوين القرآن، ويحدد مواضع الآيات التى كانت تنزل

---

(١) قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ... (٤٨)﴾ [المائدة].

عليه لمناسبة ما فيما قد نزل عليه من السور، لذلك فكل ما يوجد اليوم من آيات فى المصاحف الشريفة هو نفس ما سمع ونقل عن رسول الله ﷺ، سمعه جيل عن جيل، ونقله التابعون عن الصحابة، وهكذا حتى وصل إلينا متواترا، وسيكون أمره حتى آخر الدهر كذلك، ولا يضر اختلاف القراءات السبع فهى كذلك رويت متواترة عن رسول الله ﷺ وما عدا السبع القراءات فقد اختلف فيها.

وأول من جمعه فى مصحف واحد هو الإمام علي ـ كرم الله وجهه ـ بعد موت الرسول ﷺ، ثم جمع فى عهد عثمان ووزع على الأقطار الإسلامية فى حينه.

المحكم والمتشابه:

المحكم فى اللغة: هو المتقن. والمتشابه لغة: هو ما يشبه بعضه بعضا. وبهذا المعنى اللغوى يكون القرآن كله محكما؛ لإتقانه فى بلاغته وحسن نظمه، ويكون متشابها؛ لأنه يشبه بعضه بعضا فى البلاغة والإتقان.

أما المحكم فى اصطلاح المتكلمين: فهو ما اتضح معناه فلم يخف.

والمتشابه: هو ما خفى معناه فلم يتضح إلا بقرينة. وقد وضح القرآن الكريم سبب وجود المتشابه بهذا المعنى الاصطلاحي في القرآن فقال جل وعلا: ﴿ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ... (٧) ﴾ [آل عمران] وذلك باتباع ما يظهر منه التناقض في كلام الله لغرض الفتنة والتشكيك، وهو ما يئول إليه ذلك الاتباع كاتباع آية ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى] وفى نفس الوقت يتبع آيات الجوارح فيشبه الله بالإنسان ـ جل وتعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ، وبهذا الاعتقاد المتناقض تكون الفتنة التى يريدها الذين فى قلوبهم زيغ. ولو أرجع هذا المتشابه إلى أم الكتاب المحكم لما حدثت الفتنة ولما كان الزيغ، فالمحكم فى القرآن الخاص بصفات الله تعالى مثل: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى].

﴿ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ (١٠٣) ﴾ [الأنعام]، فهاتان الآيتان ونحوهما واضحة معانيها كل الوضوح. فآية: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... (١١) ﴾ [الشورى] تنص على أن الله لا يشبه شيئا من مخلوقاته لا جسما ولا عرضا. وإذا علمنا أن كل شيء فى الوجود لا يخرج عن كونه جسما أو عرضا حتى على رأى الجاحدين الذين يقولون بأن أصل الوجود ذرة وأن العالم خلق بتفاعلها،

فالذرة جسم وفيها عرض والله ـ سبحانه وتعالى ـ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ... ⑪﴾ [الشورى] فأى بحث عن الذرة المقدسة لا يؤدى إلا إلى الوهم والجهل والتقول على الله بغير الحق، وأى اعتقاد لا يكون على أساس رد المتشابه إلى المحكم لا يؤدى إلا إلى الفتنة والضلال المبين بالتشبيه لله الخالق بالإنسان المخلوق أو بالنسبة للإنسان المخلوق بالله الخالق، أو بنحو ذلك أعاذنا الله منه وهدانا إلى ﴿...الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦﴾ [الفاتحة].

الأيات المتشابهة:

الأيات المتشابهة فى القرآن كثيرة فمنها قوله تعالى: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا... ①﴾ [المجادلة] ـ فهذه الآية وكثير من نحوها مثل ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ⑪﴾ [الشورى] تثبت فى الظاهر السمع كما تثبت الآية الثانية: السمع والبصر.

والسمع فى المخلوقات: هو ما به يعرف المسموع بوساطة آلة كالآذان فى الإنسان وما أشبهها فى غيره؛ لهذا فالآيات المتشابهة التى يجب ردها إلى المحكم كما قال الله تعالى؛ لذلك قالت الزيدية وسائر العدلية: إن المعنى السمع والبصر.

مقاصد الشريعة الإسلامية:

من المعلوم أن الله لم يشرع لعبا ولهوا، ولا وضعها عبثا واعتباطا ـ وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ـ وإنما شرعها لمقاصد عظيمة تعود على عباد الله أفرادا أوجماعات بمصالح فى دنياهم وآخرتهم، بها يتحقق الخير، ويعم الرخاء ويسود الأمن والاستقرار كل القلوب وكل البيوت وكل الشعوب الخاضعة لشريعة الله.

ومصالح الدنيا على ضربين:

١ ـ مصالح ضرورية وهى أعلى المراتب للمقاصد الشرعية.

٢ ـ مصالح غير ضرورية ولكنها مهمة غير مستغنى عنها.

والضروريات المتفق عليها تنحصر فى خمسة أشياء هى:

١ ـ حفظ الدين وهو علة لوجوب الجهاد إذا ما استهدف من قبل الأعداء ونحوهم.

٢ ـ حفظ النفس وهو علة لوجوب القصاص، ومن المحافظة عليها حفظ كرامتها وحريتها.

٣ ـ حفظ العقل وهوعلة لتحريم المسكرات ونحوها من المخدرات.

٤ ـ حفظ المال وهو علة لقطع يد السارق وتحريم الربا والرشوة ونحو ذلك.

٥ ـ حفظ النسل وهو علة لتحريم الزنا وتحريم القذف.

وقد نظم هذه الضروريات بعضهم فقال:

وروعى فاعلم ذلك ملة مضت حفظ خمس فى جميع الشرائع

هى الدين ثم النفس والعقل ثالث مع النسل مال فاحشها فى المسامع

والذرائع المخلة بهذه الضروريات أو المقربة لها تعتبر من مكملاتها أو المخلة بها وعملها أو اجتنابها واجب.

والضرب الثانى وهى المصالح التى لم تكن ضرورية على قسمين:

١ ـ حاجى: أى يحتاج إليه الناس لتيسير أعمالهم وتحسين معاشهم كالبيع والإجارة والمضاربة وغير ذلك من مكملاته، الذرائع المؤدية إليه مثل اعتبار الكفاءة ومهر المثل فى حق الصغيرة؛ لأنه يؤدى إلى دوام الزوجية وهو من المقاصد الشرعية.

٢ ـ تحسينى: وترجع الأمور التحسينية إلى الأخلاق والآداب وما يؤدى إلى المروءة والسير على أفضل منهاج وخير سبيل.

مصادر التشريع الإسلامى:

مصادر التشريع الإسلامى: هى فى نظر الزيدية ثمانية مصادر:

١ ـ أولها وأعلاها ومرجعها كتاب الله.

٢ ـ سنة رسول الله.

٣ ـ الإجماع.

٤ ـ القياس ومنه المصالح المرسلة.

٥ ـ الاستصحاب.

٦ ـ والاستحسان.

٧ ـ شرع من قبلنا.

٨ ـ العقل.

ولايؤخذ بالاستصحاب والاستحسان وشرع من قبلنا والعقل إلا بشروط سنذكرها في مواضعها.

السنة النبوية الشريفة:

المصدر الثاني: السنة النبوية الشريفة وتشمل:

قول الرسول ﷺ وفعله، والتقرير منه لأحد على فعل أو ترك علم به ولم يتعارض مع شريعته. أما الفعل الواجب التأسي به فهو الذي يفعله لغرض التشريع والتأسي، وأما ما سوى ذلك من الأفعال كالضروريات أو كان مما علم اختصاصه به فليس من فروع السنة الواجب العمل بها، وما كان منها فيجب التأسي به على الصفة التي علم عليها من وجوب وندب وإباحة. وأفعاله لا تتعارض ومتى تعارض فعل وقول أو قولان، فإن علم التاريخ فالمتأخر ناسخ إن تراخى وقتا يمكن العمل بالأول، أو مخصص إن لم يتراخ، فإن جهل فالترجيح بين القولين وإذا تعارض قول وفعل فالقول أرجح على الأصح.

وتنقسم السنة بحسب روايتها إلى متواتر وأحاد، فالمتواتر: هو خبر جماعة يمتنع عادة أن يتواطأ أفرادها على الكذب، ولا يشترط في رواته الإسلام، والعدالة، والإمام المعصوم، وغير ذلك مما يشترط الآخرون، وهوقطعي الدلالة ويفيد العلم.

ومثله في إفادة العلم الخبر الأحادي إذا أجمع على العمل بمقتضاه، ومثله المتلقى بالقبول بين الأمة والعترة النبوية لتضمنه الإجماع على الصحة. وقد يتواتر اللفظ والمعنى، وقد يتواتر المعنى دون اللفظ، وقد يتواتر اللفظ دون المعنى، والكل واجب العمل به في الأصول والفروع.

والخبر الأحادي: هو مالم يبلغ حد التواتر. وينقسم إلى:

مسند: وهو ما اتصل سند رواته إلى الرسول ﷺ.

مرسل: وهو ماسقط فيه راو أو أكثر. وله أقسام يفصلها كلها علم مصطلح الحديث.

ودلالة الخبر الأحادى ظنية، ويجب العمل به فى فروع المسائل، ولا يؤخذ به فى مسائل أصول الدين، وأصول الفقه القطعية، وأصول الشرائع إلا إذا وافقت مدلولاتها القاطعة، أو كانت الأصول مشهورة فجاء الأحاد فأخبر بها كما جاء فى حديث البدوى: وفيه أنه قال للنبى ﷺ: يا محمد أتانا رسولك فزعم أنك تزعم أن الله أرسلك. قال: صدق. ثم أخذ يسأل النبى ﷺ بما حدثهم من صلاة وزكاة وغير ذلك وهو يقول: مثل ذلك والنبى ﷺ يقول: صدق[1].

شروط قبول خبر الآحاد:

يشترط فى قبول الأخبار الأحادية: أن يكون راويها مكلفا، وأن يكون عدلا والعدالة هى:

محافظة دينية تحمل صاحبها على ملازمة التقوى والمروءة ليس معها بدعة - وأن يكون ضابطا لما يرويه فى الأغلب، وأن يكون الخبر الذى يرويه غير مصادم دليلا قاطعا على وجه يتعذر معه التأويل إلا بتعسف، وأن لا يستلزم متعلق الخبر الأحادى الشهرة، وتصح رواية الخبر بالمعنى من عدل عارف ضابط. ولاتفرق الزيدية فى هذه الشروط بين الزيدى وغيره فمن لم يكن عدلا ضابطا لا تقبل روايته مهما كان ومن أى فئة أو طائفة كان.

الإجماع:

المصدر الثالث الإجماع: وهو فى نظر الزيدية ومن وافقهم نوعان: عام وخاص.

فالعام: هو اتفاق المجتهدين العدول من أمة محمد ﷺ بعده فى عصر على أمر.

والخاص: هو اتفاق العترة النبوية كذلك، لدليل آية التطهير وحديث التمسك وغيره، وهو مذهب الشيخ ابن تيمية كما جاء فى فتاواه[2]. وطريقنا إلى العلم به السماع أو المشاهدة أو النقل إلينا.

وقد خالف النظام وبعض الرافضة فى وقوع الإجماع. والجمهور على خلافهم. أما فى هذا العصر الذى توافرت فيه وسائل المواصلات السريعة فقد أصبح من السهل إجماع عقلاء البشر جميعا على أمر من الأمور، غير أنه لا يصح شرعا الإجماع على حكم بعد الإجماع على خلافه وإلا لزم بطلان الإجماع الأول ولا قائل به، ولا بد

(١) أخرجه الستة عن أنس. (٢) جـ ٢٨، ص ٤٩٣.

للإجماع من مستند شرعى، غير أنه بعد الإجماع لا يلزمنا البحث عن مستنده. ولا يشترط فى انعقاده انقراض أهل العصر المجمعين. ولا يشترط أن لا يسبقه خلاف. ويجب العمل بالإجماع، ويفسق مخالفه؛ لقوله تعالى: ﴿ ...ويَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ ... (١١٥) ﴾ [النساء].

القياس:

المصدر الرابع القياس: وهو إلحاق معلوم بمعلوم فى حكمه للاشتراك فى العلة، والجمهور يوجب العمل بالقياس إذا عدم النص فى الكتاب والسنة والإجماع. وخالف فى ذلك الإمامية والظاهرية وبعض الخوارج. وهم محجوجون بإجماع الصحابة إذ كانوا بين قائل وساكت سكوت رضى والمسألة قطعية. وقد وقع فى عهده ﷺ كما جاء فى حديث معاذ بن جبل[1]: أجتهد رأيى. وأقره الرسول ﷺ. وفى رواية: أقيس الأمر بالأمر.

ولا يجرى القياس فى جميع الأحكام الشرعية إذ فيها ما لا تعقل علته، والقياس فرع تعقل العلة. وهو يجرى فى العقليات كمسائل العدل والتوحيد.

أقسام القياس:

ينقسم القياس إلى جلى: وهو ما قطع فيه بنفى الفارق كالأمة والعبد فى سراية العتق.

وخفى: وهو خلاف القياس الجلى.

وينقسم إلى قياس علة: وهو ما صرح الشارع فيه بالعلة كأن يقول: لأنه كذا، أو لأجل كذا، أو بأنه، أو فإنه، وهذه هى حروف التعليل فى أصول الفقه.

وقياس دلالة: وهو ما جمع فيه بين الأصل والفرع بما يلازم العلة ويدل عليها لا بنفسها مثل قياس قطع أيدى الجماعة بقطع يد الواحد إذا اشتركوا فى قطع يده قياسا على قتله به للاشتراك فى وجوب الدية عليهم.

وقياس طرد: وهو إثبات مثل حكم الأصل فى الفرع لاشتراكهما فى العلة، وأكثر القياسات طردية.

(١) أخرجه أحمد وأبو داود والترمذى وقيل: إنه مما تلقى بالقبول.

وقياس عكس: وهو ما ثبت فيه نقيض حكم الأصل بنقيض علته كقول النبى ﷺ جوابا على من قال: أيأتى أحدنا شهوته فى الحلال وله فيها أجر؟ فقال النبى ﷺ: «أرأيتم لو وضعها فى حرام أكان عليه وزر؟» فكأنهم قالوا: نعم. فقال: «فكذلك لو وضعها فى الحلال لكان له أجر».

أركان القياس:

للقياس أربعة أركان هى:

الأصل، والفرع، والحكم، والعلة، ولكل منها شروط.

فشروط الأصل: أن لايكون حكمه منسوخا، ولا معدلا به عن سنن القياس كالشفعة مثلا، ولا ثابتا بالقياس؛ لأنه يؤدى إلى التسلسل، وما أدى إليه باطل، وأن لا يثبت حكما مصادما لنص.

وشرط الفرع: مساواة أصله فى العلة، وفى الحكم، وفى التخفيف، والتغليظ، فلا يقاس التيمم على الوضوء فى التثليث؛ لأن التيمم شرع لغرض التخفيف، وأن لا يتقدم شرعية حكمه على حكم الأصل. فلا يقاس الوضوء على التيمم فى النية، وأن لا يرد فيه نص.

وشروط الحكم الثابت بالقياس الشرعى: أن يكون شرعيا لا عقليا ولا لغويا.

وشروط العلة: أن لا تصادم نصا ولا إجماعا، وأن لا يكون فى أوصافها مالا تأثير له فى الحكم كـإثبات ضمان التالف من النورة مثلا بعلة كونه مثلى وبكونه ليس بلبن كلبن المصراة، فعلة كونه ليس بلبن المصراة لا تأثير لها فى الحكم فلا تصح العلة، وأن تكون العلة مطردة، أى يثبت الحكم عند ثبوتها فى كل موضع، وأن تنعكس، أى ينعدم الحكم عند عدمها وهذا على رأى من منع التعليل بعلتين.

طرق معرفة العلة:

وتعرف العلة بطرق وهى: بالإجماع على تعليل الحكم بعلة معينة، وبالنص الصريح بها مثل العلة كذا، أو لأن، أو بأن، أو لأجل كذا، ونحو ذلك.

وغير الصريح ما فهم منه التعليل لا على وجه التصريح بالعلة: ويسمى تنبيه النص وإيماء النص مثل: عليك الكفارة. جوابا لمن قال: جامعت أهلى فى نهار رمضان، أو وأنا صائم.

وبالسبر - أى الاختبار - والتقسيم ويسمى حجة الإجماع: وهو حصر الأوصاف فى الأصل ثم إبطال التعليل بها، إلا واحدا منها فتعين:

مثل قياس الذرة على البُر فى تحريم التفاضل، فالأوصاف فى الأصل هى الطعام، أو القوت، أو الكيل، وهذا ما يصح التعليل به فيبطل مع ذلك التعليل بالباقى

وتعرف العلة بالمناسبة وتسمى الإجازة وتخريج المناط: وهى تعيين العلة من ذات الوصف مثل الإسكار فى تحريم الخمر، وكالجناية عمدا عدوانا فى وجوب القصاص.

أقسام المناسب:

والمناسب أربعة أقسام: مؤثر، وملائم، وغريب، ومرسل.

فالمؤثر: ما ثبت بنص أو إجماع أو غير ذلك، من طرق معرفة العلة اعتبار عينه فى عين الحكم مثل تعليل ولاية المال فى حق الصغير الثابت بالإجماع، وتعليل وجوب الوضوء بالحدث الخارج من السبيلين.

والملائم: ما ثبت اعتباره بترتيب الحكم على وفقه فقط لكنه قد ثبت بنص أو إجماع اعتبار عينه فى جنس الحكم مثل ولاية الأب بنكاح ابنته الصغيرة قياسا على ولاية المال بجامع الصغر، أو ثبت كذلك اعتبار جنسه فى عين الحكم كجواز الجمع فى الحضر للمطر قياسا على السفر بجامع الحرج.

أو ثبت كذلك اعتبار جنسه فى جنس الحكم كإثبات القصاص بالمثقل - أى غير الحاد - قياسا على المحدد بجامع كونهما جناية عمد عدوان.

والغريب: ما ثبت اعتباره بمجرد ترتب الحكم على وفقه كتعليل تحريم النبيذ بالإسكار قياسا على الخمر.

والمناسب المرسل: مالم يثبت اعتباره بشىء مما سبق وهو ثلاثة أقسام: ملائم، وغريب، وملغى.

فالملائم المرسل: هو الذى لم يشهد له أصل معين بالاعتبار، لكنه مطابق لبعض مقاصد الشرع الجميلة كقتل المسلمين المتحرش بهم عند الضرورة. وتحريم النكاح على العاجز عن الوطء وهذا هو المعروف بالمصالح المرسلة.

والمذهب الزيدى يعمل به وهو قول لمالك. واشترط الغزالى للعمل به كون المصلحة ضرورية كلية. واعتبره المذهب الزيدى نوعا من القياس.

والغريب: هو ما لانظير له فى الشرع لكن العقل يستحسن الحكم لأجله كالحكم بالإرث لمن طلقها زوجها فى مرضه المخوف خشية أن ترث وذلك معارضة لقصده، وهو غير معمول به بالاتفاق.

الملغى: هو ما صادم النص، وإن كان لجنسه نظير فى الشرع، كإيجاب الصوم ابتداءً على القادر المظاهر لزوجته على العتق، ولمصادمته للنص ألغى العمل به بالاتفاق.

الاستصحاب:

المصدر الخامس الاستصحاب: وهو إثبات الحكم فى وقت لثبوته فى وقت آخر قبله، لفقدان ما يصلح للتغيير استصحابا للحال الأولى، ولا يعمل بهذا المذهب الزيدى إلا بشرط مساواة الحال الأولى للحال الثانية، ولم يظن طروء معارض يزيل العمل به. مثل من شك فى حصول الزوجية ابتداء فإنه يحرم عليه الاستمتاع استصحابا للحال الأولى وهى عدم الزوجية، ولو شك فى دوام الزوجية جاز له الاستمتاع استصحابا للحال الأولى، وهو دوام الزوجية. بخلاف المتيمم لو وجد الماء فإنه لا يستمر على التيمم استصحابا للحال لعدم المساواة بين الحالين فى المقتضى للحكم عدما ووجودا.

الاستحسان:

المصدر السادس الاستحسان: وهو عبارة عن دليل يقابل القياس الواضح. ويثبت بالآثار كما فى خبر المصراة، وبالإجماع كأجرة دخول الحمام مثلا، وبالضرورة كنا فى طهارة الحياض والآبار.

شرع من قبلنا:

المصدر السابع شرع من قبلنا: وهو معمول به إذا عدم الدليل، ولم يعارض ما جاء فى شريعتنا، ولا كان مما نسخ بها، لقوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا ... (١٣)﴾ [الشورى: ١٣]، وقوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ... (٩٠)﴾ [الأنعام] . ونحو ذلك.

والمرجع فى صحة ما يستند إلى شرع من قبلنا هو القرآن أو السنة الصحيحة. ولا ثقة بما فى كتبهم المتداولة بينهم؛ لأن الله قد أخبرنا بأنهم: أى أهل الكتاب من اليهود والنصارى قد حرفوا وبدلوا وكذبوا على رسلهم؛ ولذلك فما نعبد به من شرع من قبلنا مشروط بما ذكر.

العقل:

المصدر الثامن العقل: ويعمل به فى حالة عدم وجود الدليل السمعى، لإجماع العقلاء على كل ما ينتفع به من دون ضرر عاجل ولا آجل فحكمه الإباحة وسيأتى المزيد من الإيضاح فى مباحث العدل ـ إن شاء الله.

وقد بحث علماء أصول الفقه الزيدية كل ما يتعلق بالدليل السمعى ـ من حيث دلالة الكلمة، ودلالة صيغتها، ودلالة الأسلوب الذى صيغت به على المعنى المقصود للشارع، ثم ما يجب العمل به حالة التعارض بينها، فتفرع هذا البحث إلى عدة أبواب هى المنطوق والمفهوم، والحقيقة والمجاز، والأمر والنهى، والعموم والخصوص، والمطلق والمقيد، والمجمل والمبين، والظاهر والمؤول ثم الترجيح فى حالة التعارض، كما بحثوا النسخ وما يتعلق به فى ذلك، أما من أراد سعة الاطلاع فعليه بمؤلفاتهم فى هذا الشأن: مثل الغاية وشرحها، والمعيار، وشرحه المنهاج ونحوهما.

المنطوق والمفهوم:

المنطوق: ما دل عليه من أحوال المذكور فيه. فإن كان المعنى لا يحتمل غيره فهو النص، ودلالته قطعية، وإن أفاد معنى يحتمل المقصود برجحان ويحتمل غيره بلا رجحان، فهو الظاهر، ودلالته ظنية.

والمنطوق إما أن يكون صريحا، وهو ما وضع اللفظ له بخصوصه، وإما أن يكون غير صريح، وهو ما يدل عليه اللفظ بالالتزام، فإن قصد وتوقف الصدق أو الصحة العقلية أو الشرعية عليه فدلالة اقتضاء مثل ﴿واسْأَلِ الْقَرْيَةَ ... (٨٢)﴾ [يوسف].

وإن لم يتوقف كذلك واقترن بحكم، لو لم يكن لتعليله لكان بعيدا، فيمسى تنبيه نص وإيماء نص مثل: عليك الكفارة: جوابا لمن قال. جامعت أهلى فى نهار رمضان. إنها ليست بسبع: جوابا على من استنكر دخوله ﷺ بيتا فيه هرة.

وإن لم يقصد ذلك اللازم فدلالة إشارة مثل: ﴿ ... وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُونَ شَهْرًا ... (١٥) ﴾ [الأحقاف] مع قوله تعالى: ﴿ ... وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ... (١٤) ﴾ [لقمان] فيشير بدلالة الالتزام على أن أقل الحمل ستة شهور.

المفهوم: وهو نوعان مفهوم موافقة، أى أن المسكوت عنه موافق فى الحكم للمذكور مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]، فما فوق مثقال الذرة موافق فى الحكم للمثقال المذكور.

ومفهوم المخالفة: أى أن المسكوت عنه مخالف للمنطوق به، ويسمى دليل الخطاب وهو أقسام: مفهوم اللقب، ولا يؤخذ به عند الجمهور. ومفهوم الصفة، ومفهوم الشرط، ومفهوم الغاية، ومفهوم العدد، ويؤخذ بهذه المفاهيم بشروط خلاصتها: أنه لا يؤخذ بها إلا إذا لم تظهر فائدة للقيد بشىء من الصفة، والشرط، والغاية، والعد سوى التخصص المذكور بالحكم، وإلا فلا.

الحقيقة والمجاز:

اللفظ قبل الاستعمال ليس بحقيقة ولا مجاز، أما بعد الاستعمال فالحقيقة هى: اللفظ المستعمل فيما وضع له.

والمجاز هو: اللفظ المستعمل فى غير ما وضع له لعلاقة. والمجاز واقع فى القرآن كوقوعه فى اللغة. ومن قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ ... (٨٢) ﴾ [يوسف]، وقوله تعالى: ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ... (٢٤) ﴾ [الإسراء].

والحقائق ثلاث:

لغوية: وهى ما استعمل فى الوضع الأصلى.

وشرعية: وهى ما نقله الشارع إلى معنى آخر وغلب عليه كالصلاة.

وعرفية: وهى ما نقله العرف وغلب عليه كلفظ الدابة والقارورة ونحوهما.

وقد تكون الحقيقة مشتركة بين معانى مختلفة كالجون: يطلق على السواد والبياض، والقرء: يطلق على الحيض والطهر، يصح أن يريد المتكلم معنى منها أو كل معانيها.

الأمر والنهى:

الأمر: هو قول القـائل لغيره: افعل، أو نحـوه، على جهة الاستـعلاء مريدا لما تناوله، ويدل على الوجوب لغـة وشرعا، وقد يأتى مجـازا للإباحة والتعجيـز والتهديد وغير ذلك.

والأمر بالشىء ليس نهيا عن ضده، والأمر بأشياء تخييرا كآية الكفارة مثلا يوجبها جميعا على التخييـر، ولا يقتضى مطلق الأمر التكرار إلا لقرينة، ولا يدل على الفور، ولا على التـراخى، وإنما يرجع فى ذلك إلـى القرائن، والأمـر المعلق عـلى علة يتكرر بتكررها، والمقيد بالتأبيد: يقـتضى الدوام إلا لقرينة، وما لا يتم الواجب إلا به ولم يرد الأمر مشروطا به وجب كوجوبه، وما منع الواجب من وجوده فهو قبيح.

والنهى: هو قول القـائل لغيـره: لا تفعل، أو نحوه، على جـهة الاستـعلاء مع كراهة المنهى عنه، ويدل على التـحريم حقيقـة، وقد يأتى مجازا للكراهة، والتحـقير، والتهديد. وغيـر ذلك، ومطلق النهى يقتضى الدوام لا التقيـيد، ويدل على قبح المنهى عنه لا فساده.

العموم والخصوص:

العام: هو اللفظ المستغرق لما يصح له من دون تعيين مدلوله ولا عدده، والخاص بخلافه.

والتخصيص: هو إخراج ما يتناوله العام.

وألفاظ العموم هى. مَن ـ للعاقل، ما ـ لغيرالعاقل، إى ـ لهما، أين ونحوها فى المكان مـتى يراد به الجنس، والمعروف بلام الجنس مـفردا أو جـمعـا والمتكلم يدخل فى عموم خطابه أمـرا ونهيا وخبرا ومـجىء العام للمدح أو الذم لا يبطل عمـومه، ويحرم العمل بالعام قـبل البحث، وظن عدم وجود مخصـصه، ولا يدخل فى الخطاب الخاص بالذكور النساء ودخولهن فى نحو ﴿ياأيها الذين آمنوا﴾: بنقل الشرع. أو بالتغليب وذكر الحكم لجملة لا يخصصه ذكره مرة ثانيـة لبعضها، مثل قوله ﷺ: «أيما إهاب دبغ فقد طهر» وقوله ﷺ فى شاة: «دباغها طهورها» فـتعم الطهارة كل إهاب ولا يخص الشاة. وكذا عود الضمير إلى بعض أفراد العام مثل قوله: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ... (٢٢٨)﴾ [البقرة] ـ وهذا عام للرجـعيات والبوائن ثم قال: ﴿... وَبُعُولَتُهُنَّ

أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ... ﴿٢٢٨﴾ ﴾ [البقرة] وهذا الضمير يعود إلى الرجعيات فقط، فبقى الأول على عمومه ولا يخصصه عود الضمير إلى بعضهن؛ إذ لا تنافى بين ذلك.

المخصص:

المخصص قسمان: متصل، ومنفصل. فالمتصل خمسة أقسام: الاستثناء، والشرط، والصفة والغاية: مثل ﴿ ... ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ... ﴿١٨٧﴾ ﴾ [البقرة]، وبدل البعض على رأى: مثل أكرم الناس قريشا، والمختار أنه لا يصح تراخى الاستثناء بل لابد من الاتصال لفظا إلا قدر تنفس أو بلع ريق ونحوهما، مما لا يعد معه منفصلا في العرف، ويصح استثناء الأكثر مثل: ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾ [الحجر] وهم: أكثر من غيرهم، والاستثناء من النفى إثبات، ومن الإثبات نفي، والاستثناء بعد الجمل المتعاطفة يعود إلى جميعها إلا لقرينة مثل ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا ... ﴿٥﴾ ﴾ [النور].

أما المخصص المنفصل فهو الكتاب والسنة، والإجماع والقياس والعقل والمفهوم على القول به، ويجوز تخصيص كل من الكتاب والسنة بمثله وبسائر تلك المخصصات بالتفصيل المذكور فى الكتب المطولات، ولا يقصر العموم على سببه ولا يخصصه مذهب رواية، ولا يخصص بالعادة، والعام بعد تخصصه يصير مجازا فيما بقى على الأصح ويصح تخصيص الخبر كما يصح تخصيص الأمر والنهى، ولا تتعارض عموميات فى حكم قطعى، وإذا تعارض العام والخاص فالعمل بالمتأخر منهما. وإن جهل التاريخ قيل أطرحا معا، وقيل يعمل بالخاص فيما تناوله وبالعام فيما بقى.

وقد نظم السيد العلاّمة عبد الله بن علي الوزير صور بناء العام على الخاص فقال:

يبنى العموم على الخصوص بأربع	صور على القول الأجل فقل أجل
مع جهل تأريخ وعند تقارن	وتفارق زمنا يضيق عن العمل
وكذا بمتسع يكون عمومه	متأخرا والعكس نسخ لم يزل

المجمل والمبين:

المجمل: ما لا يفهم المراد به تفصيلا.

والمبين: مقابله. ويصح البيان بكل واحد من الأدلة السمعية، ولا يلزم شهرة البيان كشهرة المبين. ولا إجمال في الجمع المنكر، مثل رجال؛ إذ يحمل على الأقل ولا في تحريم الأعيان مثل ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ... (٢٣)﴾ [النساء]؛ إذ يحمل على المعتاد، ولا في نحو العام المخصص، ولا في نحو «لا صلاة إلا بطهور» ولا في نحو الأعمال بالنيات.

ويجوز تأخير التبليغ إلى وقت الحاجة؛ إذ القصد المصلحة، ولا يجوز تأخير البيان ولا التخصيص عن وقت الحاجة فأما عن وقت الخطاب إلى وقت الحاجة فجائز في الأمر والنهي، وعلى السامع البحث ولا يجوز ذلك في الأخبار؛ لأنه مخالف لفائدة الإخبار وهو التفهيم.

الظاهر والمؤول:

قد يطلق الظاهر على ما يقابل النص وحقيقته بهذا المعنى ما أفاد معنى يحتمل غير المقصود بلا رجحان، وقد تقدم، وقد يطلق على ما يقابل المجمل، وحقيقته بهذا المعنى ما يفهم المراد به تفصيلا، وهذا هو المبين وقد تقدما.

والمؤول ما يراد به خلاف ظاهره، والتأويل صرف اللفظ عن حقيقته إلى مجازه، أو قصره على بعض مدلولاته لقرينة اقتضتهما.

والتأويل ثلاثة أقسام. قريب فيكفي فيه أدنى مرجح لقربه، بعيد فيحتاج إلى مرجح أقوى، ومعتسف لا يحتمله اللفظ، وهذا القسم وحده هو الذي لا يقبل وهو الذي يجب رده كتأويل الباطنية ثعبان موسى بحجته. ونحو ذلك.

النسخ:

النسخ: هو إزالة الحكم الشرعي بطريق شرعي مع تراخ بينهما. وقد وقع بالإجماع إلا عن اليهود. ويجوز نسخ ما قيد بتأبيده مثل ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا... (٩٥)﴾ [البقرة]، ﴿وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ... (٧٧)﴾ [الزخرف]

ويجوز النسخ إلى غير بدل لجواز انقضاء مصلحة الحكم الأول: كنسخ وجوب الإمساك بعد الإفطار، وقوله تعالى: ﴿... نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا ... (١٠٦)﴾ [البقرة]: متأول بأن المراد نأت بلفظ آية خير منها لا بحكم، ويجوز نسخ الأخف

بالأشق كالعكس، ويجوز النسخ فى الأخبار كالأوامر والنواهى، ويجوز نسخ التلاوة دون الحكم، والحكم دون التلاوة كنسخ آية السيف لآيات كثيرة، ولا يجوز نسخ الشيء قبل إمكان فعله وإلا لزم البدل، ويجوز نسخ الكتاب بالكتاب لقوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا ... ﴿١٠٦﴾﴾ [البقرة]. ويجوز نسخ السنة بالسنة إجماعا، ولا ينسخ الإجماع بالقياس إجماعا. وينسخ الكتاب بالسنة المتواترة لقوله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ ... ﴿٤٤﴾﴾ [النحل]، والنسخ نوع من البيان ويجوز نسخ السنة بالكتاب لأنه الأقوى، ولا ينسخ متواتر بآحادى، ولا يصح النسخ بالقياس، ولا بالإجماع، ولا يقلد الصحابى بأن الحكم منسوخ إلا بدليل من رواية أو غيرها.

والطريق إلى معرفة النسخ: إما النص منه ﷺ، أو من العترة النبوية.

إما صريحا نحو نسخ هذا بهذا، أو معنويا نحو: كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها، أو أمارة نحو تعارض الخبرين من كل وجه وعلم المتأخر بنقل صحابى، أو قرينة كنسبة إلى غزاة أو حالة متقدمة، ونقيضه فى المتأخرية فيعمل بذلك فى المظنون.

الترجيح:

من المتفق عليه أن الأدلة القطعية لا تتعارض، ولا يتعارض القطعى مع الظنى؛ لأن الرجوع إلى القطعى هو الأوجب. وإنما تتعارض الظنيات النقلية أو العقلية، وفى هذا الحال يرجع إلى الترجيح.

والترجيح هو: اقتران الدليل النقلى أو العقلى بما يترجح به على معارضه، والترجيح فى الدليل النقلى قد يكون من جهة سنده، أو متنه ـ أو مدلوله ـ أى معناه ـ أو من جهة أمر خارج عنه.

فترجيح السند: بكثرة رواته العدول، أو بكون راويه ثقة، أو بكونه أعلم، أو أكثر ضبطا، وإذا كان الحديث مرسلا. فبكون راويه معروفا بأنه لا يرسل إلا عن عدل، وبكون الراوى هو المباشر لما رواه، أو صاحب قصته، أو كان مشافها، أو بكونه أقرب مكانا أو كان من أكابر الصحابة، أو متقدم الإسلام. إلى غير ذلك من المرجحات المذكورة فى المطولات.

ومن جهة متن الحديث ولفظه: فيترجح النهى على الأمر، والأمر على الإباحة بلفظها على النهى والأقل احتمالا على الأكثر، الحقيقة على المجاز، والمجاز الأقرب

على خلافه ـ إما لكثرته أو قوته أو رجحان دليله أوشهرة استعماله. ويرجح المجاز أيضا على المشترك فى الأصح ويرجح مفـهوم الموافقة على مفهوم المخالفـة، وتخصيص العام على تأويل الخاص لكثرته، والخاص على العام ولو من وجه، والعام الذى لم يخصص على الذى خصص وغير ذلك.

ومن جهـة مدلول الحديث ومعناه: يرجح الحـظر على الإباحة وعلى الندب؛ لأن دفع المفسدة أهم من جلب المنفعـة، ويرجح الوجوب على الندب، والمثبت على النافى، والدارئ للحد على الموجب، وغير ذلك.

وأما الترجيح بأمر خارج عن الدليل: فلمـوافقته لدليل غيره، أو لأهل المدينة أو للخلفاء أو للأعلم، وبتفـسير الراوى، وبذكر السبب، وبقرينة أخرى كـتأخر الإسلام، وغير ذلك.

والترجيح بين الأدلة العقلية: فإن كان قياسا رجح بأصله، أو فرعه، أو بمدلوله، أو بأمر خارج عنه. فيرجح الأصل بكونه قطعيا، أو دليله أقوى أو لم ينسخ باتفاق، أو بأنه جار على سنن القياس، وغير ذلك.

وترجح الضروريات على غيـرها من المصالح، والمصالح الحاجـيات على المصالح التحـسينية، ويرجح الفـرع بكونه ثابتا بالنص فى الجـملة إلى غير ذلك من المرجـحات المذكورة فى كتب الأصول.

ذلك المتقدم هو الفكر الزيدى فى أصول الفقه ومصادر التشريع فى الإسلام. وهو أكبر شـاهد على دقة فهم الزيدية لمقاصد الشـريعة وأهدافها، وعلى نزاهة المقصد فـيما أصّلوا وقَعّدوا، وأخيـرا على صحة ما استنبطوه من أحكام. وعلى حـسن ماقرروه منها فى كل مجالات الفقه الإسلامى العظيم.

أما الفكر الزيدى فى أصول الدين فسوف تعرفه ـ إن شاء الله ـ فيما يلى:

الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

هذا هو الأصل الخامس من الأصول الخمسة فى نظر الزيدية ومعظم العدلية. وقد اهتمت الزيدية بهـذا الأصل أكثر من غيـرها؛ لأنه من أهم الواجبات التى تركز عـليها قواعد الأمن والسلام للفرد وللجماعة فى الأسرة وفى المجتمع، وتنبنى عليها دولة الأمن والإيمان والعلم والسلام، والحق،والعـدل، والحرية، والمساواة، بكل معانيهـا الإنسانية

السليمة؛ لذلك فالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يعنى نظريا: التصديق بالقلب واللسان والجارحة بالمعـروف، والإذعان له، والأمر به، والدعوة إليه، لكونه معـروفا، والتجنب والابتعاد عما نهانا الله عنه، والدعوة إلى تجنبه والابتعاد عنه لكونه منكرا.

ومن لازم هذا معرفـة المعروف والمنكر ليتمكن الآمـر والناهى من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بدون لبس ولا خلط؛ليتميز بذلك الحق من الباطل، ولتعلوكلمة الله، وليتم نوره ولو كره الكافرون.

أما مـا يعنيه هذا الأصل من الجانـب التطبيقى فـهو الإيمان بوجـوب نصرة الحق وخذلان الباطل، والعمل على تحقيق العزة لله ولرسوله وللمؤمنين بالقول أو الفعل، أو القلب وهو أضعف الإيمان، ويعنى بالتالى الإيمـان بوجوب حرية القول النزيه، والنقد البانى، والنصيحة الخالصة لحكام المسلمين وعامتهم، ولا فرق فى هذا الواجب بين الفرد وبين الجماعة، ولا فرق فى أدائه بالكلمة المسموعة أو المقروءة، أو الفعل الحازم والحاسم من أهله إذا لزم الحال لذلك لقوله تعالى: ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا ... ⑨﴾ [الحجرات] ـ وهذا هو دور الكلمة الـنزيهة ـ البانية ﴿ ... فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ ... ⑨﴾ [الحجرات] ـ هذا هو دور الفـعل الحازم والحـاسم، أو كمـا تـسـميـه الزيدية الخروج ـ الثـورة ـ على الظالمين.

ولذلك يشترط للقيام بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر خمسة شروط هى.

١ ـ أن يعلم الآمر والناهى حسن ما أمر به وقبح ما نهى عنه.

٢ـ أن يعلم أو يظن أن لأمره أو نهيه تأثيرا.

٣ ـ أن يعلم أو يظن إذ لم يأمر أو لم ينه وقع المنكر.

٤ ـ أن يكون أمره ونهيه بالحكمة والموعظة الحسنة.

٥ ـ أن لا يخشى علـى نفسه أو عـضو منه أو ماله المجـحف إلا أن يعلم أن فى أمره أو نهيه إعزازا للدين وتقوية لشوكـة المسلمين، فحينذاك يجب عليه الأمر بالمعروف أو النهى عن المنكر بالقول أو بالفعل وإن أدى ذلك إلى الإضـرار بنفسه أو ماله[1] أخذا بعزيمة الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر لقوله تعالى: ﴿ ...وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ ... ⑰﴾ [لقمان]، وقوله تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١) كما فعل أبو الأحرار والثوار السبط الإمام الحسين بن علي ـ عليهما السلام.

مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ... (٧٩) ﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ... (١٠٤) ﴾ [آل عمران]، وقوله ﷺ: «ما من رجل يكون فى قوم يعمل فيهم بالمعاصى يقدرون على أن يغيروا عليه ولا يغيرون إلا أصابهم الله منه بعذاب قبل أن يموتوا». أخرجه أبو داود عن جرير ابن عبدالله.

ومن هذه ونحوها أخذت الزيدية مبدأ الخروج ـ الثورة ـ على الظالمين ولا خلاف فى وجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إجمالا بين جميع المسلمين. ولكنهم اختلفوا فى كيفية أداء هذا الواجب، فمنهم من قال بالطرق السلمية مطلقا[1]، ومنهم من قال بالطرق الحازمة والحاسمة مطلقا[2] ومنهم من قال بالطرق السلمية أولا، فإن لم تنجح ووجد من ينصره على الظالمين لسيادة الحق والعدل بين الناس فبطريقة الفعل الحازم والحاسم أى الخروج ـ الثورة ـ على الظالمين، وهذا هو رأى الزيدية لقوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ... (١٢٥) ﴾ [النحل] فإن لم تنفع ووجد الناصر عملت بالحزم وأوجبت الثورة[3] ونحاول الآن أن نفهم ماذا تعنى الثورة؟ وماذا يعنى التمرد والانقلاب؟ لكثرة استعمال هذه الأسماء اليوم بين الناس، وأكثرهم لا يعرفون ما تعنى على الوجه الصحيح.

الثورة أو الحركة الإصلاحية هى التى تقوم على مبادئ ترتكز عليها ضمن عقيدة أو كما يقال أيديولوجية توحد الصفوف وتجمع الشمل وتدفع إلى العمل وتشمل فى نفس الوقت إرادة الشعب فى أهدافها ومبادئها. فإن خلت الثورة أو الحركة من مثل تلك المبادئ والأهداف الممثلة لإرادة شعوبها فهى فى العرف السياسى لا تسمى ثورة وإنما تسمى تمردا وانقلابا.

والتاريخ البشرى مفعم بأخبار الثورات والانقلابات، وفى التاريخ الإسلامى الكثير منها، غير أن الثورات والحركات الإصلاحية التى قام بها دعاة الإسلام وحملت رسالته فى كل عصور الإسلام وفى معظم أقطار المسلمين ـ قد تميزت بأن باعثها هو

(١) وهو رأى المرجئة لحديث عبادة بن الصامت وفيه: وان لا تنازعوا الأمر أهله، إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم فيه من الله برهان، متفق عليه.
(٢) وهو رأى الخليفة عمر بن الخطاب.
(٣) لنحو حديث ثوبان الآتى فى بحث واجبات الإمام ومسئولياته.

الإيمان بوجوب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، نصرة للمظلومين وإنقاذا للمستضعفين، وتحقيقا لإرادة شعوبها ومتطلبات أممهم، من حق، وعدل، وحرية، ومساواة ضمن العقيدة الإسلامية المباركة، وعلى أرضية من المحبة الإنسانية، والأخوة الإسلامية. لذلك فثوراتهم هى الثورة بمفهومها السياسى المعاصر، وأهدافها ومبادئها، محددة وواضحة فى إطار هذا الأصل: الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

ولذلك فقد تنزهت ثوراتهم عن الأهواء والأحقاد، وعن العنصرية والعرقية، والطائفية، والقومية، والإقليمية، وغير ذلك من الشعارات الجاهلية والنعرات الترابية.

الوعد والوعيد:

الوعد فى اصطلاح المتكلمين: هوالخبر الذى يفيد إيصال النفع أو نحوه من جهة الواعد إلى الموعود فى المستقبل على جهة الاستحقاق. وهو من الله إخبار بالثواب.

والوعيد: هو الخبر الذى يفيد إيصال الضرر أو نحوه من المتوعد إلى المتوعد فى المستقبل على جهة الاستحقاق. وهو من الله إخبار بالعقاب. ويقال للمبلغ بالوعد بشير وبالوعيد نذير والمقصود بهذا الأصل من الجانب النظرى هو الإيمان بأن الله سوف يجازى المحسن على إحسانه كما وعد، وسوف يعاقب المسىء على إساءته كما أوعد، مالم يمت المحسن عاصيا لقوله تعالى: ﴿أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون﴾ ويموت المسيء تائبا لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا (١١٠)﴾ [النساء]، وقوله تعالى: ﴿... إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ...(١١٤)﴾ [هود]، والله لا يخلف الميعاد فى كل ذلك.

هذه هى نظرية الثواب والعقاب من الجانب النظرى، أما من الجانب التطبيقى فهى تعنى الإيمان بوجوب المساواة أمام القضاء بين الناس بدون تفريق لا من جهة الجنس ولا اللون ولا المكانة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو العسكرية أو غير ذلك فكل آت الرحمن عبدا، وكذلك يجب أن يكون أمام القضاء الشرعى فى الحياة، وكذلك فهمه الرسول ﷺ يوم قال فى حديث المخزومية: «والله لو سرقت فاطمة بنت محمد لقطعت يدها»[1] وتعنى المساواة كذلك فى حق الأجر والجزاء، على حسب العمل والجهد والإنتاج؛ لأن الله تعالى قد جعل بعلمه وبحكمته وعدله ما وعد به المؤمنين وما وعد به الكافرين، مبنيا على حسب أعمالهم ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ (٧) وَمَن

(١) رواه البخارى ومسلم والترمذى وابو داود والنسائى.

يعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ (٨) ﴾ [الزلزلة]. فى حين أنه لم يكلف أحدا إلا على حسب طاقته وكفاءته العقلية والبدنية وأحيانا المالية معهما، ومن أجل هذا رفع عن الصبيان والمجانين ونحوهم أعباء التكاليف، وأعفى الفقير من تكاليف الحج والزكاة، ولم يكلف بالصلاة المرأة الحائض أو النفساء، وأسقط عن المريض الأحكام التى تضاعف من مرضه، إلى غير ذلك من المسئوليات المعفوة عمن لا تتوافر فيه الطاقة والكفاءة فى القيام بها، ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ... (٢٨٦) ﴾ [البقرة].

ومن هذا التشريع الإلهى وأمثاله يستوحى المسلم المفهوم الإسلامى لمبدأ المساواة فى الحياة الحرة الكريمة، وفى حق العمل وفى غير ذلك من المجالات المشروعة.

والمفهوم الإسلامى لمبدأ المساواة هو مفهوم يتماشى مع واقع الحياة ولا يتعارض مع قوانينها الأزلية فى الإنسان؛ لذلك فالمساواة الإسلامية قد بنت فى الإنسان القيم وشيدت فى مجتمعه الأخلاق وأسعدت من استظل بظلالها، وملأت كل أرجاء حياته أمنا وسلاما ورخاء، وليس كذلك ما فى الحضارتين الغربية والشرقية كما هو مشاهد وملموس بداية الخلاف فى هذا الأصل.

، عندما فقدت نظرية الوعد والوعيد أو الثواب والعقاب جانبها التطبيقى فى العهد الأموى، ساد الظلم أنحاء المعمورة الإسلامية، وانتشر الفساد بين الناس، وتحكم فى مشاعرهم ومصائرهم الهوى وحب المال. وحينذاك بدأ الحكماء والعلماء يتناقشون حول أعمال الظالمين ومرتكبى الكبائر، ليتبينوا أدواءهم فيعالجوها مستمدين الرشد من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وأدرك الحكام وأتباعهم ما يعنيه النقاش حول أعمالهم بل وتجسدت لهم النهاية التى انتهى إليها الخليفة عثمان بن عفان على الرغم من بعد الشقة التى بينه وبينهم رشدا وصلاحا، فهبوا لإثارة الشبه المبررة لأعمالهم عند الناس، وتبرع بالتالى المبررون لكل ظلم وفاسد بأدلة التبرير من عمومات الكتاب والسنة وهبوا لشرحها وفلسفتها، هناك ظهر الخلاف جليا بين علماء الحق وبين غيرهم فى مسألة الظلم وحقوق الله عليه كترك الصلاة أو الصيام أو الزكاة أو الحج، أو غير ذلك مما أوجب الله قضاءه أو فرض له كفارة ككفارة اليمين أو كفارة الظهار مثلا، فالتوبة منه تكون بقضاء الواجب المؤقت إن كان معلوما فبحسبه وإن كان غير معلوم فحتى يغلب عليه ظنه بأنه قد أداه، وفيما له كفارة تكون التوبة بأدائها أو الإيصاء بها من تركته. وفى كتب الفقه الإسلامى التفصيل الكافى لكل ما تقدم فمن تاب من ذنوبه كما تقدم تاب الله عليه، ولو كانت كفرا أو شركا، وكان الله غفورا رحيما.

وقد اتفق الجمهور من العلماء على أن التوبة تمحو المعصية وتمحو عقابها، واختلفوا فى المعصية هل تمحو الطاعة؟أو تمحو ثوابها؟ فلو فرض أن رجلا عمل صالحا وآخر سيئا ثم تاب، فهل بتوبته يعود له ثواب طاعاته يوم تنصب الموازين فى يوم الحساب أولا؟.

فقيل: لا يعود له من ثوابها شىء بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُورًا (٢٣)﴾ [الفرقان]، وقوله تعالى: ﴿...لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ... (٦٥)﴾ [الزمر] ونحوها. وهذا رأى على الجبائى من العدلية وجمهور البصريين والإمام القاسم بن محمد.

وقيل يعود له الثواب كله؛ لأن المعصية لا تمحو الطاعة وإنما تحبطها، وهذا هو رأى بشر بن المعتصم وأبى البلخى والبخارى من البهشمية.

وقيل: لا يعود له ما منعت الكبيرة، ويعود له ما يتجدد من ثواب الطاعة المتقدمة فى المستقبل، وهذا هو قول البهشمية والإمام المهدى وغيره. وهذا هو الموافق لعدل الله وحكمته. وإلا لزم التساوى بين من قطع عمره فى طاعة الله وعبادته ثم فعل كبيرة وتاب عنها قبل موته، وبين من قطع عمره فى عصيان الله والكفر به ثم تاب قبل موته والفرق بينهما بلا شك كبير.

المنزلة بين المنزلتين:

هذا أصل من الأصول الخمسة عند المعتزلة وحدهم. أما الزيدية فيدخله أكثرها فى أصل الوعد والوعيد لتعلقه بمرتكب الكبيرة. والخلاف بين العلماء فيه من حيث التسمية: فالخوارج قالوا: يسمى كافرا. والإباضية منها تقول بأنه كفر نعمة لا غير.

والحسن البصرى سماه منافقا بحجة قوله تعالى: ﴿...إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(٦٧)﴾ [التوبة]. وقالت المرجئة يسمى مؤمنا.

وقالت الزيدية يسمى فاسقا: للإجماع علي تسميته بفاسق، وليس بكافر؛ لقوله تعالى: ﴿...وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ... (٧)﴾ [الحجرات]، والعطف يقتضى التغاير، وليس بمنافق لأن الله قال: إن المنافقين هم الفاسقون، ولم يقل إن الفاسقين هم المنافقون، وليس بمؤمن لخروجه من حدود الإيمان فهو فاسق بدليل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا

تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ ﴾ [النور]. وقيس عليه كل مرتكب كبيرة غير الكفر والشرك بالله والنفاق.

النبوات:

هذا الأصل من الأصول الخمسة عند الزيدية. وهو من أبحاث الأصل الثانى عند المعتزلة وهو يعنى الإيمان والتصديق بمن اصطفاه الله من خلقه، وكرمه برسالته لهداية البشر وإنقاذهم من الضلال بشريعة أوحاها إليه وأيده بالمعجزة لتصديق نبوته.

هذا ما يعنيه هذا الأصل من الجانب النظرى. أما ما يعنيه من الجانب التطبيقى فهو إيماننا بأن كل ما ينفعنا أو يضرنا مما لم تدركه عقولنا ولم تهتد إليه أفكارنا فى كل مجالات حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما يقوله المخبر الصادق الخاتم للأنبياء محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ـ عليه وعلي آله أفضل الصلاة والسلام ـ مصداقا لقوله تعالى: ﴿ ... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ... ﴿٣﴾ ﴾ [المائدة]، ومن أجل هذا فدستورنا وقوانيننا هذا ما جاءت به شريعة الله أو ما يستمد من شريعة الله، ووجب علينا لذلك أن نخضع كل القوانين والدساتير التى يتعارف عليها البشر لتنظيم مجالات حياتهم إلى موازين شريعة الله فما وافقها قُبل، وما خالفها رُفض، ذلك حكم الله، ومن أحسن من الله حكما. ومن المعلوم أن الدساتير والقوانين المعروفة اليوم فى الغرب والشرق إنما كانت نتيجة صراع دام بين الحكام والشعوب. واستمر أواره فى أوربا وأمريكا وفى فرنسا بالذات فى القرن الخامس عشر الميلادى واستمر حتى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادى حيث شمل روسيا القيصرية.

واستهدف هذا الصراع القضاء على دكتاتورية الحكام للتخلص من استبدادهم وللحد من سلطانهم المطلق على شعوبهم، وبعد معاناة طويلة وتضحيات جسيمة توصلوا إلى تلك الدساتير والقوانين التى يحكمون بها اليوم فى ظل النظام الملكى أو النظام الجمهورى، بقيادة ملك كما يحكمون فى بريطانيا مثلا، أو اتحاد دول كما فى أمريكا، أو هيئات ومجالس كما فى فرنسا، أو حزب واحد كما فى روسيا. والواضع لتلك الدساتير والقوانين إما هيئة مختارة من أعضاء الدولة كما هو الحال فى أكثر الدول، وإما بوضع العرف العام المقر من قبل الحكام أو أوامرهم أو تصريحاتهم، أو مواثيقهم السياسية، واستمر العمل عليها بعد ذلك كما هو الحال فى بريطانيا، ويسمى

مثل هذا الدستور البريطانى الدستور العرفى؛ لأنه لم يوضع بوساطة هيئة ولم يكتب فى كتيب كما كتبت الدساتير المعروفة فى الشرق والغرب.

وعلى الرغم من تلك الفترة الطويلة والشاقة فلم تكتمل تلك الدساتير والقوانين، ولا تزال لذلك عرضة للتغيير والتبديل، وليس ذلك إلا لكونها من وضع البشر الضعيف.

أما دستورنا الإسلامى وشريعتنا الربانية فقد جاء كاملا وكافيا من بداية نزوله على نبينا ﷺ حتى اليوم، وحتى آخر الدهر ـ إن شاء الله ـ، ذلك لأنه تنزيل وتشريع من العليم الحكيم الخلاق ـ سبحانه وتعالى ـ، ولهذه المميزات قلنا: إنه يجب إخضاع كل القوانين والدساتير الوضعية لموازين شريعة الله فما وافقها قُبِل وما خالفها رُفِض.

بعثة الأنبياء:

من لطف الله بعباده أن بعث إليهم رسلا من أنفسهم؛ لينقذوهم من الضلال وليهدوهم إلى الرشاد وحتى لا يكون للناس حجة على الله يوم الحساب.

والبعث للأنبياء مستحسن عند كل عقلاء البشرية ولم يخالف فى ذلك إلا الشيوعية لجحودهم بالله: وإلا البراهمة، والباطنية، والمطرفية.

فالبراهمة تقول: إن العقل كاف لمعرفة القبيح والحسن فلا حاجة لذلك إلى الرسل، والعقل الذى اعتمدوا عليه يكذبهم بنفسه؛ لأن العقل يؤمن بأن دفع الضرر واجب عقلا. فلو منع الطبيب أحدا عن أكل البيض مثلا لوجب عقلا الامتناع عن أكله دفعا للضرر مع أنه مما لا يقبح العقل أكله إلا لنحو هذا السبب المعروف من قبل الطبيب وحده، فإذا جاز ذلك عقلا امتثالا للطبيب فالأنبياء أكثر خبرة وأوسع علما، واحتياج البشر إليهم أكثر من احتياجهم للأطباء بلا شك ولا ريب.

وأما **الباطنية** فتقول: إن الحياة مقسمة إلى أدوار سبعة، وكل دور يبتدئ بما يسمى: بالإمام المقيم وهو فى الدور السابع أبو طالب بن عبد المطلب، وهو كما يزعمون الذى يقيم الرسول ﷺ ويربيه، ثم الرسول ﷺ الناطق: وهو الرسول ﷺ ثم الإمام الأساس: وهو علي ـ كرم الله وجهه ـ مرافق الناطق ومساعده وأمين سره إلى غير ذلك من الخرافات، وسوف نأتى على شىء منها عند الكلام على الإمام الهادى إلى الحق رضوان الله عليه بحول الله.

وأما المطرفية فتقول: إن النبوة ليست من عند الله وإنما هى نتيجة جهد الإنسان نفسه فى العلم والصلاح ومنهم من قال: هى جزاء على العمل. ومنهم من قال: هى حكم وتسمية. وكلا المطرفية والباطنية قد نهلا من منهل واحد كما سيأتى بيانه عند الكلام عليهم - إن شاء الله.

والعقل فى نظر الزيدية هو الذى جوز بعثة الأنبياء؛ لأن فى شئون الحياة وأمرها ما لا يدرك بالعقل ولا يتوصل إليها بالبراهين كعالم البرزخ وما فيه من أحوال، ويوم القيامة وما فيه من أهوال، ثم الجنة وما فيها من النعيم، والجحيم وما فيه من العذاب العظيم، وأقرب إلينا من كل ذلك هذه النفس البشرية التى نحملها ما هى؟ وكيف هى؟ مع ما هى عليه من أحوال مختلفة ونزعات متباينة، وعليها ترتكز كل مجريات حياتنا، ومنها تشع الآمال فنسعد بها حينا،، ثم ترتكس فنشقى بها حينا آخر. وقل كذلك فى أمثالها التى اعترف العقل بعجزه أمامها، واعترف بأنه لا بد من هداية غير هدايته: إنها هداية الأنبياء وحدهم؛ لأنها القادرة على تنظيم الحياة وعلى هداية الناس فيها، ولذلك فما من أمة إلا خلا فيها نذير، لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل.

العصمة:

العصمة على أصح الأقوال، هى اللطف الذى تترك لأجله المعصية بلا محالة[1] ولهذا لا يوصف بها إلا الأنبياء أو من يجرى مجراهم.

وكل رسول يوحى إليه بشريعة جديدة أو مجددة لما قبلها من الشرائع لا بد أن يكون معصوما بتوفيق الله ولطفه عن ارتكاب الكبائر والفواحش من المعاصى قبل البعثة وبعدها، ومعصوما كذلك من الصغائر التى تسىء إلى مقام النبوة وتثير الشبه حولها، وهذا هو رأى الزيدية ومن وافقهم.

أما الحشوية فترى جواز أن الأنبياء يعصون الله قبل النبوة عند بعضهم، وقبلها وبعدها عند بعضهم الآخر، وكلا الرأيين غير صحيح؛ لأن الأنبياء قدوة للأمم إلى مكارم الأخلاق وشيمها فتولى الله لذلك تربيتهم وتأديبهم على حب المكارم ورفيع الأخلاق وأسمى الآداب؛ ليكونوا خير قدوة وأفضل أسوة، ولو لم يكونوا كذلك لبطلت حجة الاتباع لهم، ولا التبس الصادق بالكاذب فى دعوى النبوة، والله أرحم بعباده من أن يوقعهم فى اللبس ويركسهم فى الحيرة. وصدق الله القائل: ﴿...اللَّه

---

(١) زاد بعضهم: مع التمكن من الفعل ولم يبلغ حد الإلجاء.

أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ ... ﴿١٢٤﴾ ﴾ [الأنعام]، ﴿ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج].

المعجـزة:

المعجز هى الفعل الخارق للعادة الذى يدل على صدق المدعى للنبوة. ولا بد لكل رسول من معجزة. ولا بد وأن يكون المعجـز من أمر الله ويتعذر علينا فعله، ولو دخل فى جنس مـقدورنا، وأن يكون واقـعا عـقب دعوى المـدعى للنبوة، وأن يكون مطابقـا لدعواه، أما مـا يتقدم الدعوى من أفعـال خارقة فهى من باب الإرهاصات، منهـا قصة الفيل، وتظليل الرسول ﷺ بالغمامة فى سفره إلى الشام قبل البعثة.

معجزات الرسول - صلى الله عليه وآله وسلم:

للرسول ـ صلى الله عليـه وآله وسلم ـ معجزات كثـيرة وأجلها معـجزة القرآن، ووجه إعجازه فصاحـته وبلاغته؛ لأن العرب فى حينه كانوا قد بلغوا القـمة فى فصاحة الكلمة وبلاغة التعبير، فأيده الله بمعجزة الكلمة من حيث الفصاحة والبلاغة لكونها من جنس مقـدور العرب، وكلمـاتها مؤلفـة من ألف باء العرب، تصـديقا لدعـواه النبوية والرسولية.

ولذا تحداهم على الإتيـان بمثله، ثم بعشـر سور من مثله، ثم بسـورة واحدة من مثله.

وهذا يعنى أنه قـد تحـداهم أن يأتوا بثـلاث آيات أو أربع آيات مماثلة للقـرآن فى الفصاحة والبلاغة، ولما عجزوا حكموا السيف والقوة ليطفئوا نور الله، ﴿ ...وَيَأْبَى اللَّهُ إِلاَّ أَن يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ [التوبة].

وإعجاز القـرآن خالد بخلوده؛ ولذا فهو فى كل عـصر معجزة وهو الآن مـعجز بفصاحته وبلاغـته، ومعجز بما اشتمل عليه من حقـائق العلوم التى يفسر العلم الحديث بعض أسرارها، وسوف يسـتمر إعجازه وإن بلغ العلم مـا بلغ من تقدم؛ لأنه كلام الله العليم بكل شىء ولا يحيطون به علمـا بعضهم بدليل السمع، وبعـضهم بدليل العقل، وقالوا: التظالم واقع ولا يـتم دفعه إلا برئيس ودفع التظالم واجب عـقلا فوجب إقـامة رئيس لذلك.

ومن أوجبها بالشرف استدل بقوله تعالى: ﴿ .. إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) ﴾ [البقرة]، فأوجبها فى الصالح من ذريته ونفاها عن الظالمين منهم، وبقوله ﷺ: «الأئمة من قريش»، ونحو ذلك مما سيأتى ضمن خبر السقيفة مما يدل على أن هذه السلطة كانت تشريعا إسلاميا، وقد ظهر أخيرا القول بأنها ليست كذلك كما يقوله المستشرقون ومن تابعهم، ووجب لذلك الرجوع إلى العهد النبوى المبارك لنعرف منه وحده الحقيقة فى هذا الموضوع.

الزيدية والفرقة الناجية:

من الطبيعى أن نتوقع من أحمد بن سليمان أن يصرح بأن «الزيدية هم الفرقة الناجية»[١]، إلا أنه لا يبين لنا أية فرقة من فرق الزيدية الثلاث ينطبق عليها هذا الوصف؛ إذ لا يتصور أن الفرقة الناجية تنطبق على الزيدية بطوائفها الثلاث، لما بينها من خلافات تصل إلى حد أن يعلن بعضها تكفير بعض[٢].

ويستند أحمد بن سليمان إلى ما روى عن الرسول ﷺ من أنه قال فى خطبة الوداع: «أيها الناس إنى امرؤ مقبوض، وقد نعيت إلى نفسى، ألا وإنه سيكذب على كما كُذب على الأنبياء من قبلى، فما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله، فما وافق كتاب الله فهو منى وأنا قلته، وما خالفه فليس منى ولم أقله». ثم قال: «أمة أخى موسى افترقت على إحدى وسبعين فرقة، وافترقت أمة أخى عيسى على اثنتين وسبعين فرقة، وستفترق أمتى من بعدى على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة واحدة». فلما سمع منه ذلك ضاق به المسلمون ذرعا، وضجوا بالبكاء وأقبلوا عليه، وقالوا: يا رسول الله: كيف لنا بعدك بطريق النجاة؟ وكيف لنا بمعرفة الفرقة الناجية حتى نعهد عليها؟ فقال: «إنى تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا من بعدى أبدا: كتاب الله وعترتى أهل بيتى. إن اللطيف الخبير نبأنى أنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض».

والأمة مجمعة على صحة هذا الخبر[٣]، وكل فرقة من فرق الإسلام تلقته بالقبول، وتزعم أنها الناجية.

---

(١) حقائق، ص ١٠٣، الحكمة الدرية ص ١٤٠.

(٢) الإمام الزيدى أحمد بن سليمان وآراؤه الكلامية ص ١٤٦ - ١٤٨. دكتور عبد الفتاح أحمد فؤاد.

(٣) لا يقر أهل السنة الرواية على النحو المذكور، وعندهم أن الباطل فيها قد اختلط بالحق.
قلت المحفوظ هو: «وسنتى» رواه أحمد والترمذى وغيرهما.

وهذا الخبر يروى بروايات متعددة مختلفة، ومن الروايات التى يوردها أحمد بن سليمان فى كتابه الحكمة الدرية أن رسول الله ﷺ قال: «ستفترق أمتى على ثلاث وسبعين فرقة كلها هالكة إلا فرقة واحدة» قيل: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «هم معتزلة الشيعة وشيعة المعتزلة». وهكذا يستند أحمد بن سليمان إلى هذه الرواية الموضوعة فى إثبات أن الفرقة الناجية هى الزيدية، وقد سبق أن رأينا أن الزيدية عنده هم معتزلة الشيعة وشيعة المعتزلة.

ويستند فى كتابه حقائق المعرفة فى إثبات أن الزيدية ينطبق عليهم الوصف بأنهم الفرقة الناجية، إلى أنه قد اجتمعت فيهم الشروط؛ وذلك أنهم تمسكوا بالكتاب، وبعترة رسول الله ﷺ، وهم الذين وقع عليهم الإجماع أنهم آل رسول الله ﷺ، كما أن الزيدية هم الذين اتبعوا المحكم من القرآن، وتركوا المتشابه، وعملوا بالناسخ وتركوا المنسوخ، وأخذوا بالإجماع، وتركوا المختلف فيه، فثبت أنهم على الحق، ومن خالفهم على الباطل[١].

وخلاصة القول: أن الزيدية هم الفرقة الناجية؛ لأنهم لم يفارقوا الكتاب ولا السنة ولا الإجماع ولا العقل، بل لزموا بهذه الحجج الأربع[٢].

الزيدية المنشقة فى اليمن:

يشير أحمد بن سليمان إلى الضعف الذى أصاب الزيدية بعد مقتل مؤسسها، فكانت هذه الفرقة قليلة فى البلاد، بسبب (اضطهاد) بنى أمية وبنى العباس، وكانوا قد حرضوا فى قتلهم وتشريدهم وتضعيف دينهم، فكانوا كذلك إلى أن ظهر الهادى إلى الحق[٣] - عليه السلام - وظهر الناصر الكبير[٤] وهو الحسن بن علي - عليه السلام -، بأرض الديلم، وكان ظهورهما فى وقت واحد[٥].

(١) حقائق ص ١٩٧ ب - ١٩٩ أ، الحكمة الدرية، ص ١٤٦.

(٢) حقائق، ص ٢٠٢ أ.

(٣) الهادى إلى الحق: يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى، ولد بالمدينة المنورة سنة ٢٤٥، وكان خروجه الأول من الحجاز إلى اليمن فى سنة ٢٨٠ ثم رجع إلى الحجاز، ولكنه خرج ثانيا إلى اليمن وكان وصوله الثانى فى صفر سنة ٢٨٤، وتوفى سنة ٢٩٨ (زبارة: أئمة اليمن: ١/ ١٠ وما بعدها).

(٤) الناصر للحق الحسن الأطروش، ولد سنة ٢٣٠، وقام بدعوته فى طبرستان ببلاد الديلم سنة ٢٨٤، وتوفى سنة ٣٠٤ (د. صبحى: الزيدية، ص ٢١٤وما بعدها).

(٥) حقائق، ص ٢٠١ أ، الحكمة الدرية، ص ١٤٦ - ١٤٧.

ظهر الهادى إلى الحق بأرض اليمن وكان أكثر أهل اليمن مجبرة، فجاهدهم ـ عليه السلام ـ جهادا عظيما، وقاتلهم قتالا جسيما، حتى ظهر الحق بأرض اليمن، وبين شريعة جده محمد ﷺ وأظهرها، ثم كذلك أولاده ـ عليه السلام ـ من بعده، حتى كثر شيعتهم وأتباعهم.

وكانت الزيدية باليمن فرقة واحدة، حتى دخل عليهم الشيطان بسحره، فمزق منهم فرقتان[1]: المطرفية والحسينية[2].

المطرفية:

ذكرنا فى مصنفات أحمد بن سليمان أنه كتب بعض الرسائل فى الرد على المطرفية أو من يطلق عليهم اسم مذهب الزيدية المخترعة، ويذكر الزحيف فى مآثر الأبرار أن الإمام أحمد بن سليمان استعان فى الرد على المطرفية بالقاضى جعفر بن أحمد بن عبد السلام (ت سنة ٥٧٣) الذى كان عالم الزيدية المخترعة (أى المطرفية) وإمامها، وذلك بعد رحلته إلى العراق، ورجوعه عن التطويف، حيث عاد إلى اليمن يحمل الكثير من العلوم التى لم يصل إليها أحد سواه، وأصبح من أنصار الإمام أحمد ابن سليمان الذى طلب منه القيام بالرد على المطرفية فقال له القاضى جعفر: «قد عرفت ما تقول، ولكن القوم (المطرفية) كثير، وقد صاروا ملء يمننا هذا،فلو أنكرت عليهم لرمونى من قوس واحدة، وأنت يا مولانا تبعد وتقرب، وإنى أخافهم، ولا طاقة لى بهم. . .»، و أخيرا اضطر إلى مناقشتهم وتفنيد دعاواهم[3]. ويدل هذا النص على مدى تغلغل مذهب المطرفية فى اليمن وانتشاره، فى عهد الإمام أحمد بن سليمان، وظلت شوكتهم قوية حتى قام الإمام عبد الله بن حمزة بقتل الآلاف منهم وتخريب ديارهم ومساجدهم فى بعض مناطق اليمن وبخاصة أهم مراكز لهم فى سناع إحدى ضواحى صنعاء الجنوبية[4].

والمعلومات عن فرقة المطرفية شحيحة، نظرا لما تعرضت له من التشتيت والإبادة، وما توافر من معلومات لا يعطى فكرة كاملة عن نشأتها، ولا عن عقائدها، ولا عن

(١) الحكمة الدرية، ص ١٣٣.
(٢) الإمام الزيدى أحمد بن سليمان ص ١٤٩ د. عبد الفتاح أحمد فؤاد.
(٣) مآثر الأبرار، ص ١١٦ أ ـ ب.
(٤) زبارة: أئمة اليمن: ١/ ١٣٢ ـ ١٣٦.

نهايتـها. ويذهب الدكتور عـبد العزيز المقالـح إلى أن القدر اليسيـر من المعلومات التى وصلتنا عن هذه الفـرقة تكشف عن أنهـا كانت حـركة فكرية اعـتزالية، حـاولت بسط نفوذها الفكرى على جميع المناطـق اليمنية، وتمكنت فى وقت قصير من إقامة مـجموعة من «الهـجر» الدينيـة أو مراكز الدعـوة، وقد حـال بينها وبين أن تحـقق انتصـارا باهرا مجموعة أسـباب وعوامل، منها أنها ركزت فى حركتـها على الجانب الفكرى ولم تهتم بالحكم، ولا ما يرتبط به من جوانب سـياسية وعلمية، والعامـل الآخر أنها وقعت بين خصـمين فكريين قويين يتنافـسان فى حكم اليمن، وهمـا الزيدية والإسماعيليـة، وقد ساعدت كل من القوتين الأخريين على زعزعة الفكر الجديد وتمزيقه ثم الإجهاز عليه.

وقد استطاع مطرف بن شـهاب، مؤسس الفرقة أن يجعل من هجـرة سنعا المركز الذى أطلق منه دعاته إلى صنعاء وبقية المناطق اليمنية، وقد حقق الدعاة انتصارا ساحقا، وصار للـدعوة الجديدة أكـثر من مـركز، من بينهـا هجرة «قـاعة» فى البـون، وهجرة «وقش»، وهجرة «مدر» فى همـدان وغيرها، وقد كانت هجرة وقش أشـهر هذه المراكز وأهمها، وربما كانت المركز الرئيسى للمطرفـية بعد أن تضعضع مركزهم الأول فى سناع بسبب قربه من صنعاء وبسبب الغارات المتوالية عليه من أتباع النظام الإمامى.

ويبدو أن من بين الأسباب التى أدت إلى ظهور معتزلة المطرفية، ونشر دعوتهم ما كانوا قد عـرفوه عن قرب غروب الدولة الإسمـاعيلية، وعن تحول الإمامـة نحو الملكية المطلقة؛ إذ لم تعد قـضايا الفكر تهم الأئمة بمقدار ما يهمـهم توطيد نظام الحكم واتساع سيطرتهم على أكبر رقعة من البلاد، فكان لابد أن ينفصلوا عن الزيدية، ويعتنقوا أفكار المعتزلة بعيدا عما علق بها من فكر الزيدية[1].

إلا أن المعلومات التى يمدنا بها أحمد بن سليمان عن المطرفية لا تثبت لنا أن هذه الفرقة هى إحـدى الفرق المعتزلية الخـالصة على نحو ما ذهب إليه الدكـتور المقالح، بل ينسب صاحب حـقائق المعرفة للمطرفـية أفكارا مناقضـة تماما لفكر المعتزلة مـثل مذهب الجبرية، والقول بقدم القرآن، ونفى خلقه، وأنه كلام نفسى ومن المعلوم أن هذه العقائد الأشعرية مخالفة لمذهب المعتزلة، كما أن الشذرات التى حفظها لنا أحمد بن سليمان عن المطرفـية. تدل على تأثرهم بمذاهب فـلاسفـة اليونان ومـن حذا حذوهـم من فلاسـفة الإسلام، مـثال ذلك نظرية أنبـاد وقليس فى العناصر الأربعة، وآراء الـطبيعـيين الذين

(١) د. المقالح: قراءة فى فكر الزيدية والمعتزلة، ص ٨٤ ــ ٨٥.

أعلنوا أن العالم يتأثر بعوامل طبيعية بحتة؛ إذ ينسب أحمد بن سليمان للمطرفية القول بأن «العالم يحيل ويستحيل»، وأنهم «أوجبوا الأفعال للجمادات»، ويذكر أن الإمامة عندهم مكتسبة، وأنها فعل العبد مما يدل على خروج المطرفية على أهم أصل من أصول الزيدية وهو أن الإمامة تقتصر على أولاد الحسنين فقط، وإبطال هذا الشرط يعد تقويضا للأساس الذى يقوم عليه نظام الإمامة فى اليمن، وهو الذى يستند إليه أحمد بن سليمان نفسه من حيث هو إمام زيدى، وهذا يفسر لنا الخصومة الشديدة التى نشأت بينه وبين هذه الفرقة المنشقة، وكذلك يفسر لنا لماذا قاتلهم بعد ذلك الإمام عبد الله بن حمزة بعد أن حكم بتكفيرهم؟

والروايات التى يرويها أحمد بن سليمان عن المطرفية مقتضبة ومبتورة وغامضة بل ومتناقضة، ولا يدل هذا على فهمه لمذاهبهم وآرائهم، وإنما كان الإمام فى الغالب يتعمد تشويه آراء خصومه، وإظهار ما فيها من مروق من الدين، وخروج على قواعد الفكر الأساسية، ووقوع فى التناقض الصريح، فهم من ناحية مجبرة «نسبوا أفعال الآدميين إلى الله تعالى»، ومن ناحية أخرى أثبتوا الفعل للجماد. تارة يقول على مذهبهم إنه «مذهب المجبرة بعينه» وتارة أخرى ينسب لهم القول: «إن جميع الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكتساب والضرب فى الأرض والتحصيل» وأغلب الظن أن الإمام المتوكل كان يلزم المطرفية - الذين قاموا بثورة على نظام حكمه - بآراء لم تصدر عنهم، فإذا دعوا الناس إلى العمل وزيادة الإنتاج، وقالوا: إن الأرزاق تحصل بالاكتساب والضرب فى الأرض والتحصيل، ألزمهم الإمام ابن سليمان القول: إن جميع الأرزاق ليست من الله.

إنه تشويه متعمد ونحو شديد على الخصوم، فضلا عن تشبيه مذهبهم تارة بالنصارى، وطورا باليهود، مع التأكيد على أن زعيم الثوار مطرف بن شهاب كان تلميذا لأحد الباطنية، ومن ثم فإن جذور المطرفية تستمد حياتها من أرض غير صالحة، وإنما من بيئة تضم عناصر الكفر والإلحاد والفجور.

يعرف الإمام المتوكل على الله المطرفية بأنهم أتباع رجل يقال له مطرف بن شهاب، وكان قد درس هو وصاحبان له على رجل من الباطنية يقال له حسين بن عامر، ثم إنهم عمدوا موضعا يقال له سناع بأرض صنعاء، وبنوا فيه هجرة (أى قرية أقاموا فيها)، كما بنوا فيه مسجدا، وأظهروا فيه العبادة والزهد، واستدعوا الناس إلى الدراسة، وعلموا أن الناس لا يتبعونهم إلا بهذه الفراسة.

وجعلوا قواعد دينهم وأساسه، أن قالوا: إن العالم يحيل ويستحيل وقالوا: إن الله تعالى ساوى بين الخلق فى ست: فى الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة، ونفوا جميع الأفعال عن الله ذى الجلال،وأوجبوا الأفعال للجمادات.

وأما نفيهم الأفعال عن الله فإنهم قالوا: إن الله تعالى ما قصد خلق شىء من الأشياء غير الأصول الأربعة، ومنهم من زاد أوائل الأشياء، فإذا سألتهم عن القصد ما هو؟ قالوا: الخلق، وكأنهم إذا قالوا: ما قصد، فقد قالوا: ما خلق، فمن هاهنا نفوا الخلق عن الله ـ سبحانه ـ وأثبتوا الفعل من الجمادات، مصرحين بذلك، ونفوا الأفعال عن جميع الحيوانات أيضا، وعن المتعبدين؛ لأن أفعال الحيوان أعراض، ووصفوا الأعراض، بأن كونها فناؤها، فكأنها لم تكن. . .

ثم قالوا: إن البهائم لا تقدر على فعل شىء، فلا تفعل شيئا؛ لأن أفعالها فعل الله تعالى. قالوا: من طريق الطفرة، لا من طريق القصد.

ثم نسبوا أفعال الآدميين إلى الله تعالى، من حيث قالوا: ما للإنسان من فعله إلا حركة يده. . . ودخلوا مع المجبرة فى هذا الباب.

ونسبوا ضربة ابن ملجم ـ لعنه الله تعالى ـ لأمير المؤمنين ـ عليه رضوان الله ـ إلى الله تعالى؛ لأنهم قالوا: ما لابن ملجم فيها إلا حركة يده، وفلق الجلد واللحم والعظم فعل الله تعالى، وهذا مذهب المجبرة بعينه، وكذلك سائر الأفعال عندهم.

فأما قولهم فى أفعال البهائم: إنها أفعال الله تعالى، ففى أفعال البهائم المليح والقبيح، فقد نسبوا القبيح إلى الله تعالى كما قالت المجبرة.

وأما قولهم: إن الله ساوى بين الناس فى ست: فى الخلق والرزق والموت والحياة والتعبد والمجازاة، فالاختلاف فى ذلك ظاهر فى كل واحدة منهن، وإنما غرضهم التوصل إلى أنه لم يخلق الست التى زعموا أنه ساوى بين الخلق فيها.

وتكلموا فى القرآن بأن قالوا: إنه صفة ضرورية لقلب الملك[1] الأعلى لا تفارقه. وهذا دليل من قولهم على أنه عندهم لم يزل.

---

(١) يروى أيضا القاسم بن محمد عن المطرفية قولهم فى كلام الله أنه «فى نفس الملك» (كتاب الأساس، ص١٤٨).

ويواصل أحمد بن سليمان عرض آراء المطرفية، فيحكى عنهم أنهم قالوا: إن النبوة والإمامة فعل العبد، فليسا بفعل الله تعالى، وهذا خلاف العقل والكتاب والإجماع.

ومما يدل على أنهم أنكروا نزول القرآن (أنهم) لا يلتزمون بحجة القرآن، ولا بما جاء به محمد ﷺ من البيان، وأنهم يرجعون فى جميع أقوالهم إلى عقولهم الفاسدة، وإلى مشايخهم المرتدة المعاندة.

ومما قالوا به: إن أسماء الله تعالى هى هو وليست غيره، وهى قديمة، وقد وافقوا فى هذا القول قول النصارى؛ لأنهم (أى النصارى) قالوا: إن الله ثالث ثلاثة أشياء وهى شىء واحد؛ لأنهم عبروا[1] بالأشياء والأصول أنها الأقانيم، والأقانيم عندهم هى الأصول، وقالوا: الله تعالى ثلاثة أقانيم: أب وابن وروح قدس، وقالوا: هذه الثلاثة أشياء ذات واحدة.. (وكذلك) قالت المطرفية: إن أسماء الله هى هو، وهى كثيرة فجعلوه ذاتا واحدة، فلا فرق بين قولهم وبين قول النصارى، إلا أنهم زادوا عليهم فجعلوها أكثر مما قالت النصارى.

ومما قالت المطرفية: أنهم قالوا: إن جميع الأرزاق ليست من الله، ولكنها تحصل بالاكتساب والضرب فى الأرض والتحصيل. وسائر الأسباب نفوها عن الله الخالق الوهاب، وقد خرجوا بذلك عن الحدود، ووافقوا قول اليهود: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ ... (٦٤) ﴾ [المائدة].. وهذا القول لم يقل به مسلم ولا كافر إلا من قال بمقالة حسين بن عامر[2].

وقد احتججنا عليهم، ووضعنا كتبا[3]، فيها من الاحتجاج عليهم ما فيه كفاية، وكذلك قد ألف القاضى لأجل شمس الدين جعفر بن محمد بن أبى يحيى[4] - أيده الله تعالى - كتبا كثيرة، واحتج عليهم احتجاجا واسعا، استغنينا بذلك عن إعادة الاحتجاج ها هنا، واكتفينا أيضا بأن جميع ما يعتقدونه - مما خالفوا به جميع الإسلام - منكر ظاهر، يعرفه البار والفاجر[5].

---

(١) كذا فى المخطوطة، ويمكن أن تقرأ: «عدوا» أو«عنوا».

(٢) سبقت الإشارة إلى أنه أحد رجال الباطنية الذين تتلمذ عليهم مطرف بن شهاب.

(٣) مثل الرسالة الهاشمية لأنف الضلال من مذاهب المطرفية الجهال، وكذلك الرسالة الصادقة فى بيان ارتداد الفرقة المارقة. راجع مصنفات أحمد بن سليمان.

(٤) المتوفى سنة ٥٧٣ وقد سبقت الإشارة إليه.

(٥) الحكمة الدرية، ص ١٣٣ - ١٣٦.

الحسينية:

انشق على زيدية اليمن فى عصر المتوكل أو قبله، أى فى القرنين الرابع والخامس للهجرة، فرقتان إحداهما المطرفية التى عرفنا أنها سادت مناطق عديدة فى اليمن، وأمست خطرا يهدد كيان النظام الإمامى. أما الفرقة الأخرى المنشقة على العقيدة الرسمية للدولة فى ذلك العصر، فيبدو أنها كانت أقل خطورة من المطرفية، هذه الفرقة الثانية هى الحسينية، ويذهب أحمد بن سليمان إلى أنه قد ظهر لهذه الفرقة إمام يقال له الحسين بن القاسم(1)، دعا إلى الإمامة، وألف فى التوحيد كتابا سماه «كتاب المعجز»، وهذا أول الخطأ فى تسمية الكتاب بالمعجز لأن المعجز كتاب الله تعالى.

وكان أكثر ما فيه أن احتج على عباد الأهوية(2). ثم قال (الحسين بن القاسم) بعد ذلك: إن العرش هو الله، فبينما هو يحتج على عباد الأهوية حتى جاء بمثل ما قالوا، ولم يسمع قول الله عز من قائل: ﴿ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (129) ﴾ [التوبة]، فكيف يكون الله تعالى رب نفسه؟ ولم يسمع قول الله تعالى: ﴿ ... وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (17) ﴾ [الحاقة] فكيف يكون الله محمولا؟

وفى كتاب المعجز أيضا قال: إن أسماء الله تعالى هى الله، والأسماء هى الأشياء الكثيرة على ما ورد فى الخبرعن النبى ﷺ أنه قال «إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة» فجعل الله أشياء كثيرة، وقد قال عز من قائل ﴿ وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ... (180) ﴾ [الأعراف] ودخل عليها الجمع والتأنيث ولام التمليك، فكيف الله تعالى يدخل عليه الجمع والتأنيث ولام التمليك؟

ثم انتهى أمر الحسين بن القاسم إلى أن قال: إنه أفضل من رسول الله ﷺ، وأن كلامه أبهر من كتاب الله، ثم كتب إلى إمام مسجد الهادى إلى الحق بصعده، وكان عالما عابدا عفيفا ورعا زاهدا، من بنى الهادى إلى الحق ـ عليه السلام ـ، وهو المحسن

---

(1) هو المهدى لدين الله الحسين بن القاسم بن على العيانى (ت. سنة 404هـ) برأه عبد الله بن حمزة وحميدان بن يحيى من تهمة المروق من المذهب الزيدى وأن ما نسب إليه من أقوال إنما هى مفتراة عليه من أعدائه وبخاصة المطرفية، وذلك لغزارة علمه مع صغر سنه؛ إذ قتل وسنه نيف وعشرون عاما، ألف فيها ثلاثا وسبعين مؤلفا (د. صبحى، ص 746).

(2) احتج عليهم صاحب حقائق المعرفة فى الباب الثانى على نحو ما رأينا.

ابن محمد المختار بن الناصر بن الهادى ولى الحق. كتب إليه الحسين بن القاسم كتابا يقول فيه:

«أما بعد أيها الفاسق المنافق النجس الرجس البغيض، فإنه بلغنى أنك تهجونى، تزعم أنى لست بالمهدى، أنا وأنت ومن معك بكل علم أنزل الله والتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وبكل علم أنزله الرحمن؟ فما يكون فى علمى إلا كالمحجة فى البحر. ومن أنت يا مسكين؟ وما الفرق بينى وبين الأنبياء الأخيار، والأئمة الأطهار، إلا كفرق ما بين الليل والنهار».

فرد عليه المحسن بن محمد - رحمه الله - جواب عاقل عالم، فذم الرفث والقول الشنيع، ردا طويلا، وعد كلام الحسين بن القاسم هذا ضربا من ادعاء الربوبية[١].

إن ظهور أقوال مثل هؤلاء المفسدين - يبرر فى نظر أحمد بن سليمان - الاشتغال بالرد عليهم، فهذا دور العلماء عامة، وأهل البيت خاصة، لقول الله تعالى: ﴿وجاهدُوا فِي اللَّه حقّ جِهادِه هُو اجتباكُم وما جعل عليكُم فِي الدِّينِ من حرجٍ مِّلَّة أبِيكُم إبراهيم هُو سمَّاكُمُ الْمُسلِمِين من قبلُ وفِي هذا لِيكُون الرَّسُولُ شهِيدًا عليكُم وتكُونُوا شُهداء على النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨] وقول رسول الله ﷺ: «إذا ظهرت البدع بعدى فليظهر العالم علمه، فإن لم يفعل لعنه الله تعالى»[٢].

وهكذا وجب الرد على أصحاب الفرق الضالة جميعا، والتمييز بينها وبين الفرقة الناجية، وهى بطبيعة الحال - فيما يؤكد أحمد بن سليمان - فرقة الزيدية. وقد اختتم بها كتابه الحكمة الدرية، حيث كان عنوان الفصل الأخير «فى ذكر الفرقة الناجية الزيدية».

---

(١) الحكمة الدرية، ص١٣٧، ١٣٨.

(٢) الحكمة الدرية، ص ١٣٩.

المحتويات

الموضوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضـوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة

الموضوع	الصفحة
الباب السادس	
الإمامة بين حق الأئمة والقول بالحق الإلهى	
الفصل الأول	
الزيدية والفكر السياسى	٣٥٧
أصول الإمامة عند الزيدية	٣٥٨
نصب الإمام	٣٦١
شرعية ولاية الإمام علي	٣٦٣
نظرية الخروج ومن خرج	٣٧٧
الفصل الثاني	
طبقات رجال المذهب الزيدى	٣٨٩
الطبقة الأولى	٣٨٩
الطبقة الثانية	٣٨٩
الطبقة الثالثة	٣٩٠
الطبقة الرابعة	٣٩٠
آثاره فى الفقه والحديث	٣٩٢
الفصل الثالث	
الأصول العقدية عند الزيدية	٣٩٣
الوحى	٣٩٣
معانى القرآن	٣٩٤
مقاصد الشريعة الإسلامية	٣٩٧
مصادر التشريع الإسلامى	٣٩٨
المحتويات	٤٣١

دار الفكر العربى

مؤسسة مصرية للطباعة والنشر والتوزيع

تأسست ١٣٦٥ هـ ـ ١٩٤٦م

مؤسسها : محمد محمود الخضرى

الإدارة وإدارة التسويق: ٩٤ شارع عباس العقاد مدينة نصر القاهرة
ت: ٢٧٥٢٩٨٤ - ٢٧٥٢٧٩٤ فاكس ٢٧٥٢٧٣٥
www.darelfikrelarabi.com
INFO@darelfikrelarabi.com.

الإدارة المالية: ١١ ش جواد حسنى ـ القاهرة
ص. ب : ١٣٠ ـ الرمز البريدى ١١٥١١
فاكس : ٣٩١٧٧٢٣ (٠٠٢٠٢)
ت : ٣٩٢٥٥٢٣ ـ ٣٩٢٠٩٥٦.

نشاط المؤسسة:
١ ـ طبع ونشر وتوزيع جميع الكتب العربية فى شتى مجالات المعرفة والعلوم
٢ ـ استيراد وتصدير الكتب من وإلى جميع الدول العربية والأجنبية.

تطلب جميع منشوراتنا من فروعنا بجمهورية مصر العربية:

فرع مدينة نصر: ٩٤ شارع عباس العقاد ـ مدينة نصر القاهرة
ت ٢٧٥٢٧٩٤ ـ ٢٧٥٢٩٨٤ فاكس ٢٧٥٢٧٣٥

فرع جواد حسنى: ٦ أ شارع جواد حسى ـ القاهرة
ت ١٦٧ ٣٩٣

فرع الدقى : ٢٧ شارع عبد العظيم راشد المتفرع من شارع محمد شاهين ـ العجوزة ت ٣٣٥٧٤٩٨

وكذلك تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

مؤسسة دار الكتاب الحديث

«تاريخ الفرق الإسلامية السياسى والدينى»

دراسة تعالج موضوع الفرق الإسلامية بحثا عن أسبابها: السياسية والدينية والاجتماعية، وعن العلل التى أصابت المجتمع الإسلامى بالانحلال السياسى والاجتماعى.

وبالرغم من أن موضوع الافتراق قد أشار إليه الرسول ﷺ فى حديثه: «ستفترق أمتى...». لقد احتار العلماء فى شرحه، وتكلفوا فى تصنيف الفرق حتى يبلغ تفرقها إلى اثنتين وسبعين أو ثلاث وسبعين، وكان تكلفهم شديدا يحمل عسر التأويل ومخالفا لقانون النشوء والارتقاء والسنن الطبيعية لتطور الأشياء، إذ من الصعب أن يحمل عصر واحد مخاض ولادة جميع الفرق الإسلامية التى أشار إليها الحديث. وكأن قانون التطور وقف عند القرون الأولى. بينما الحديث ورد فى ذم التفرق ومادحا الوحدة الواحدة.

فالدراسة تقويم وتقييم وتحليل ومقارنة وتجلية رؤية، نرصد من خلالها مستقبل نهضة المجتمع الإسلامى وبعثه من خلال أحداث التاريخ الإسلامى. فهى دراسة للتاريخ الإسلامى قبل أن تكون دراسة عقائد الفرق، على ضوء ما أراه: إن كل تغيير يلم بالمجتمع وراءه فكر.

وقد تضمنت الموسوعة الكتب التالية:

* الخوارج والمرجئة.
* الشيعة العربية والزيدية.
* الشيعة الشعوبية والإثنا عشرية.
* المعتزلة – تكوين العقل العربى.
* شيخ أهل السنة والجماعة «أبو الحسن الأشعرى» –جدل نقدى لعلم الكلام.
* شيخ أهل السنة والجماعة «أبو منصور الماتريدى»– وحدة أصول علم الكلام.

I.S.B.N. 977-10-1629-6

تطلب جميع منشوراتنا من وكيلنا الوحيد بالكويت والجزائر

دار الكتاب الحديث



الدكتور

محمد إبراهيم الفيومى

* من مواليد قرية أوليلة – ميت غمر – دقهلية فى ١/٢٧ / ١٩٣٨م.
* حصل على ماجستير الفلسفة الإسلامية من كلية أصول الدين – جامعة الأزهر فى عام ١٩٦٨م.
* سافر إلى فرنسا عضوا فى بعثة الأزهر لدراسة الفلسفة الإسلامية «بالسربون» – جامعة باريس وحصل على دبلوم عال فى الفلسفة الإسلامية فى ١٩٧١م- ١٩٧٣م.
* حصل على دكتوراه الفلسفة الإسلامية من كلية أصول الدين – جامعة الأزهر فى سنة ١٩٧٤م.
* عين مدرسا للفلسفة بكلية أصول الدين بالقاهرة.
* أعير إلى كلية التربية – جامعة قطر وساهم فى إنشاء كلية الشريعة والدراسات الإسلامية.
* عين أستاذا للفلسفة الإسلامية وعميدا لكلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين – جامعة الأزهر ١٩٨١م.
* أعير إلى سلطنة عم... ...داد مشروع جامعة السل...
* عضو مجلس إدارة م... ...ية.
* عضو المجالس القوم...
* انتدب سنة ١٩٩٣ م... ...على للشئون الإسلامية ل...
* انتخب عضوا بمج... ...سنة ٢٠٠٠م.